علي راضي أبو زريق

معجزة أسماء السور القرآنية



معجزة أسماء السور القرآنية
على راضي أبوزريق
الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٧٨٤ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٦٤٣
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-444-6



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو زريق ، على راضي .
معجزة أسماء السور القرآنية /
على راضي أبوزريق . ط١ . - القاهرة :
مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٧
٧٨٤ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٦ ٤٤٤ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القرآن - إعجاز
٢- القرآن - سور وآيات

أ- العنوان

٢٢٩,٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية

القرآنُ معجزةُ الله المنطوقةُ باللغة العربيَّة . تنزلت على خيرنا وسيدنا محمد عليه السلام ونحن أهل شِعر . فتحدانا القرآن بالآية القرآنيّة التي قابلت بيتَ الشعر ببلاغة صياغتها وقوة بيانها ، وبلَمْسةٍ موسيقيةٍ خفيفةٍ تؤدي مثلَ وظيفة موسيقى الشعر وزيادة ، فتُسَهِّلُ حفظ الآية وتضمن عدم اختلاطها بكلام البشر .

واستقبل أهلُ مكّة سورَ القرآن القليلةَ القصيرةَ بالانبهار ، وأدركوا تفوقَها على كلام البشر . حتى قال أعلمهم بفنون الكلام : « إن له لحلاوةً وإن عليه لطلاوةً وإنه ليعلو وما يُعلى عليه ». وإنه لكذلك .

ومن وجوه إعجاز القرآن أنه منذ اكتماله لم يَزدَد كلمةً واحدةً . لكنه ككلّ أسرار الله في الكون يتفتح عن نورٍ جديدٍ كلّما نضج المتلقون له وترقى استعدادهم لالتقاط باهر ضوئه وتَذوُّقِ شهيِّ ثمارِه . فبعد عصر النبيّ عكف علماءُ الأمة الخُبراءُ بفنون الكلام على القرآنِ يدرسون آياتِه ويُظهرون وجوهَ إعجازها . ووجوهُ إعجاز الآية كثيرةٌ . ففي نظمها إعجازٌ وفي مفرداتها دقةٌ وفي ترتيبها ما لم تعهد العرب .

ووصلنا العصورَ الحديثة وما شهدته من تقدم فروع المعرفة البشرية ؛ فانفتح بابٌ جديدٌ لإعجاز الآية القرآنية . ووجد الدارسون إشاراتٍ لبعض الظواهر الطبيعية في آيات من القرآن ؛ ما كان يعرفها بشرٌ عند نزول القرآن . فزادت المؤمنين إيماناً .

ونعود إلى البداية عندما كان القرآن يتنزل آياتٍ منجماتٍ . في كلّ مرةٍ كان جبريلُ يوحي إلى النبيّ بضع آيات . وكان جبريل يخبر النبيّ عن موقعها من سورتها وموقع سورتها من القرآن . وفي أواخر عُمْره قرأ النبيّ القرآن كلّه على جبريلَ بترتيبه الحالي . قرأه سُوَراً . وليس آياتٍ منفصلات كما نزل أوَّل مرةٍ . وبذا صار عند الأمة كتابٌ بالعربيَّة ، ولأول مرةٍ بحياتها بعد صحف إبراهيم التي أوشكت يومها على الاختفاء .

وفصول الكتاب هي السور مع تباين أحجامها . ولكلّ سورة عنوانُها . وكما كـان الكتاب جديداً على ثقافة الأمة . كانت السُّورة جديدةً وكذلك كان عنوانها . فلم تعهد الثَّقافة العربيَّة العنوان . بل كانوا يسمون القصيدة بقافيتهـا أو بـأول كلمـةٍ فيهـا . ولـم تختلف فكرتهم عن السُّورة رغم وجود العنوان . فكـثيراً مـا ذكـر علمـاء القـرآن إلى جانب العنوان السماوي أسماءً أخرى . واستعملوا أحياناً الاسم البشري الطـارئ بـدل الاسم المنزل من السماء . ففي معظم المراجع يغلب اسم براءة على الاسـم الحقيقـي لسورة التَّوبة . بل أوشك الاسم الحقيقي أن يختفي كما حدث مع سورة الـدهر الـتي غلب عليها اسم الإنسان .

ودلالة هذا أنهم لم يفهموا عنوان السُّورة ولا أدركوا علاقته بموضوعها . ووجدها المنكـرون للـدين فرصـةً للطعـن في القـرآن . فعنـوان السُّـورة بـدا لهـم غريبـاً عـن موضوعها وغير مبررٍ . ولم يستطع علماؤنا الدفاع عنه ما داموا لم يفهمـوه . وأحيانـاً لم يعرفوه .

تُرى لماذا سميت سورة البقرة بهذا الاسم؟ أمن أجل قصة البقرة فيها؟ وما علاقـة تلك البقرة بمواضيع السُّورة التي زادت عن ستين موضـوعاً؟ ألم يكـن موسـى أكـرمَ منها وأولى بأن يكون عنواناً للسورة ، وقد ذُكر فيهـا مـراراً ولم يظهـر باسمـه سـورةٌ قط؟

أسئلةٌ كثيرةٌ بقيت قرونـاً بـلا جـوابٍ . لأن الخـبرة البشـرية لم تكـن قـد وصـلت مستوى المنهج الإلهيِّ بتسمية سور القرآن . ولما بلغت الخبرة البشرية المتراكمة حدًّا تمكن معه العبد الفقير من توظيفها باكتشاف سر عنوان السُّورة ، وصبر على البحـث المتصل سنين ظهر هذا السفر . الذي لا يكشف علاقة السُّورة بعنوانها وحسـب ، بـل يحلل السُّورة القرآنية على ضوء ما استقرت عليه الخبرة البشرية في مجالات النثـر .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بهذا الكتاب لم يعد القرآن آياتٍ مُنجَّمات ، ولا جُملاً مُنفصلاتٍ تجمعها نجوم وتفرقها فواصل ونقاط . بهذا السِّفر يتجلى القرآن كتاباً يتكون من فصولٍ هي السور . ولكلّ سورةٍ عنوانُها . ويُثبت كلّ فصلٍ هنا أن عنوان السُّورة هو موضوعها الذي تدور حوله كلّ آياتها . ولم يعد في القرآن تكرارٌ بل توظيف معلومات . بهذا السِّفر يبدأ عهدٌ جديدٌ في علوم القرآن . وبه يسقطُ حائط جهلٍ كان يتعرض لسهام فئيتن من الناس : الملحدين من العرب والمستشرقين وعلماء الأديان من الغرب .

ونبدأ برؤية الغربيين لعنوان السُّورة ؛ فقد وُلِدت فكرة هذا الكتاب بعد الاطلاع على ما جاء في كتاب « الإسلام : الماضي والحاضر والمستقبل » للعالم اللاهوتي السويسري هانز كُنج Hans Kung . الذي صدر عام ٢٠٠٤م باللغة الألمانية وظهرت ترجمته الإنجليزية عام ٢٠٠٧م . وكانت هي سبيلي للتعرف عليه . فوجدته قد لخص فيه كلّ ما وصله عن الإسلام وقَبِله . وفي الفصل الثَّاني منه « كلمة الله تصير كتابا » (ص : ٧٠) يقول عن عناوين السور ما ترجمته : « إن كلّ السور أعطيت ترويساتٍ قصيرةٍ أضيفت لاحقاً . وهذه ليست عناوين لكنها كلماتٌ مفتاحيةٌ تساعد على التذكر عند التلاوة . والترويسةُ يمكن أن تؤخذ من اسم شخصيةٍ رئيسيةٍ في السُّورة أو ببساطةٍ كلمةً منها ، غالباً من الآية الأولى » .

وبالنسبة لنا فإن كلمة ترويسة تعادل اسم السُّورة أو عنوانها . ولكنه استعمل كلمة ترويسة لأنه لم يقتنع أن أسماء السور تلبّي شروط العنوان المتعارف عليها .

وما قاله كُنج صحيحٌ باعتبار طريقة تقديم علمائنا لسور القرآن . فلم يُثبت أيُّ عالمٍ مسلمٍ أن عنوان السُّورة يُعبِّر عنها أو يقود موضوعها الواحد . بل على العكس قدم بعض المفسرين السُّورة كآيات لا علاقة بينها ، وأحياناً فكّكوا الآية إلى جمل لا رابط بينها ؛ مما لا يجعل للعنوان دوراً في السُّورة . فلا بد من حلٍّ للمشكلة .

وكرد فعل لما سجله كُنج في كتابه بدأت البحث في تراثنا لأرى إن كان أحدٌ من علمائنا قد كتب شيئاً ذا قيمة عن عنوان السُّورة القرآنية . فوجدت الفيروزآبادي في كتابه « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » يعزو أسماء السور لكلمات وردت فيها أو أحداث ذَكَرتها ؛ كما أنه لا يفرق بين أسماء السور عند تعددها . فكان كلامُه قاعدة لما يقوله هانز كُنج حول الموضوع .

ثم انتقلت إلى كلّ من السيوطي صاحب كتاب « الإتقان في علوم القرآن » ، والزَّركشي في كتابه « البرهان في علوم القرآن » فلم أجد شيئاً يستحقّ الذِّكر حول الموضوع . ففي تعليل الأسماء ينقل السيوطي في « الإتقان » عن الزَّركشي في « البرهان » قوله : « ينبغي البحثُ عن تعداد الأسامي هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات . فإن كان الثَّاني فلم يعدم الفَطِن أن يستخرج من كلّ سورة معاني كثيرةً تقتضي اشتقاق أسماءٍ لها وهو بعيد . قال : وينبغي النظر باختصاص كلّ سورةٍ بما سميت به . ولا شك أن العرب تراعي في كثيرٍ من المسميات أخذ أسمائها من نادرٍ أو مستغرب ، يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ، ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ؛ وعلى ذلك جرت سور القرآن كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها ... »(الإتقان: ص٥٥) . وبعد أن يسرد سوراً بأسماء أنبياء يتساءل عن سر عدم ظهور سورة باسم موسى أو آدم وكلاهما ذكر عدة مرات . مما يدل أنهما (الزَّركشي والسيوطي) لم يفهما سرّ أسماء السور .

ومن أحدث ما وجدت كتاباً بعنوان « نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم » صادرعام ١٩٩٦م للمفكر الإسلامي محمدالغزالي (١٩١٧-١٩٩٦م) أحد كبار علماء الأمة في القرن العشرين . ومن مقدمته أقتبس الفقرة التالية : « هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم ، سبق أن قدمت نماذج منها فى بعض ما كتبت . وقد لازمني شعور بالقصور وأنا أمضى فيها ، فشأن القرآن أكبر من أن يتعرض له مثلى ، ولكني حرصت على أن أزداد فقهاً في القرآن وتدبُّراً لمعانيه . وقلت : قد أرتاد طريقاً لم أُسبَق إليه أفتتح به باباً من أبواب الخير ، والقرآن لا تنقضي عجائبه ، ولن نبلغ مهما بذلنا مداه !! والهدف الذى سعيت إليه أن أقدم تفسيراً موضوعيًّا لكلّ سورة من

الكتاب العزيز . يتناول السُّورة كلّها يحاول رسم « صورة شمسية » لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلّها ، وتجعل أولها تمهيداً لآخرها ، وآخرها تصديقاً لأولها . لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السُّورة »(ص :٢) . وبهذا نفهم من كلام الغزالي أنه يحاول أمراً لم يسبقه إليه سواه .

ونجح محمد الغزالي برسم صور شمسية لسور القرآن الكريم ملخصاً ما بها من مواضيع من وجهة نظره . لكنه لم ينجح في إبراز وحدة موضوع السُّورة ، بل لقد تجاهل الغزالي العنوان واصفاً إياه بطريقةٍ قريبةٍ مما ذكره هانز كنغ . فقال مثلاً عن سورة المائدة : « سورة المائدة وتسمى كذلك سورة العقود . والتسمية الأخيرة أدل على موضوع السُّورة الواسع !أما الأولى فهى تشير إلى اقتراح الحواريين على عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء يأكلون منها ويستبشرون بها . وهو اقتراح مثير للدهشة ، ولكن الله سبحانه قبله تأييداً لنبيه وتصديقاً لرسالته . . ! وقصة المائدة لا تستغرق من السُّورة سوى أربع آيات أما قضايا العقود فتشمل أغلب السُّورة» (ص :٦٤)

أي أن الغزالي لم ير اسم سورة المائدة معبراً عنها .

وكان يمكن أن أكتفي بما قال الغزالي من أنه يحاول للمرة الأولى في تاريخ علوم القرآن تنظير السُّورة القرآنية ، واكتشاف موضوعها الواحد أو الوحيد . فهو عالِم جاد لا يلقي القول جزافاً . ولكني بحثت في إنتاج الجامعات الإسلامية فوجدت بحثاً بعنوان : « أسماء السور القرآنية » للباحثة منيرة محمد ناصر الدوسري حصلت به على درجة الماجستير من كلّية البنات بالدمام . ونُشِرت الرسالة كتاباً صدر عام ١٤٢٦ هجرية الموافق ٢٠٠٥ م . وقد راجعَتِ الباحثةُ وهي تعد رسالتها هذه ٢٨١ مرجعاً كما جاء في ثبت مراجعها . ولا يبدو أن أحداً من أصحاب مراجعها قد ذكر علاقة اسم السُّورة بموضوعها . بل استنتجتْ من دراستها الواسعة لتلك المراجع ما يلي : « لا يمنع أن تكون للسورة ذاتها أسماء أخرى تعرف بها مشتقة من كلمة فيها أو صفة لها ، فبعض هذه الأسماء إن ثبت عنه ﷺ فهي توقيفية وبعضها يكون من وضع واجتهاد بعض الصحابة والتابعين ، أو من استنباط بعض العلماء (لموضوع) السُّورة . ومن هذه الأسماء ما له مستند صحيح ، وجملة منها لامستند له ، ولم يرد فيها نص ، ولا تصلح أن تكون اسماً ، إنما هي اجتهاد واستنباط من بعض العلماء».

هذا ما توصلت إليه الباحثة بناءً على دراستها لكتب التراث بأمانة . وبذا لا نلوم الغربيين على ما قالوا ما دام علماؤنا لم يدركوا سر أسماء السور .

ولم تكن إجابات علماء القرآن على ملاحدة العرب وزنادقتهم محكمةً ولا مقنعةً . فقد تركز كلام الملاحدة على التكرار في القرآن وتساءلوا عن فوائده خصوصاً عندما تردُ قصةُ أحد الأنبياء المرسلين تسع عشرة مرةً وقصةُ آدم وإبليس عشر مرات وقصة نوح وقومه ثماني مرات ببعض التفصيل وبضع مرات أخرى مجرد ذكر . وتتكرر معلومات من القصة الواحدة عدة مرات . ومَنَّ الله على أهل مكّة بذكر نعمة الماء والمطر عدة مرات . فكان جواب علماء القرآن أن ذلك للتوكيد والتقرير والتذكير . ولأن التكرار عيبٌ ولا يجوز أن يصدر عن صاحب مقام عظيم ، فكيف يصدر عن الله؟ لذلك كتب علماؤنا فصولاً في محاسن التكرار ليدافعوا عما ظنوه تكراراً في القرآن . ولم ينتبه أحدٌ أن الأمر لم يكن تكراراً بل توظيفَ معلوماتٍ لخدمة العنوان . فذِكرُ المطرِ في سورة عبس مثلاً جاء ليخدم فكرة السُّورة وهي النهي عن تفضيل الإنسان بسبب ماله . بينما يُذكر المطر في سورة الأنعام (آية:٩٩) كآية تدعو للتأمل في قدرة الله . وفي سورة الرعد عنصراً مؤثراً في بيئة النبات (آية:٤) ومادةً مشاركةً في مَثَل لوصف حركة المجتمع في ظروف التغيير الاجتماعي (آية:١٧) ؛ كما سيرد لاحقاً في متن الكتاب . وهكذا الأمر مع كلّ ما ظنّه المعترضون مجرد تكرار . ويثبت هذا الكتاب أن كلّ آيةٍ في القرآن ترد لتقول شيئاً لا يقوله سواها ولو تشابهت مفردات آيتين . وبذا تسقط تماماً حجّة المعترضين على القرآن بما سمَّوه تكراراً . وما كان لهذه التهمة أن تسقط لولا تفسير السُّورة على ضوء عنوانها واعتبار العنوان محوراً لسورته .

عنوان السُّورة هو محورها الذي تدور حوله ، كما سنثبت في كلّ فصلٍ من هذا الكتاب . وعليه يلزم أن يكون للسورة مهما كان حجمها محورٌ واحدٌ وموضوعٌ واحد . وقد سمعنا كثيراً عبارة الوحدة الموضوعية للسورة . ولكن لم يثبت أحد هذه العبارة بطريقة مُقنعة . فإذا أثبتنا أن العنوان هو محور السُّورة كلّها فقد نجحنا في إثبات الوحدة الموضوعيّة للسورة بطريقةٍ علميَّةٍ .

وللقيام بهذه المهمة يلزم التأكد من معنى العنوان ومدى انطباقه على مضمون السُّورة . وبذا تكون البداية مراجعة معاني العنوان كما ترد في المعاجم ، والبحث

عن المعنى الذي يُحتمل أن ينطبق على آيات السُّورة . وبعد تحديد موضوعها مبدئيًا يجري تحليل السُّورة تحليلاً يشمل كلّ آيةٍ فيها على ضوء العنوان بالمعنى المحتمل . فإن استوعبها جميعاً كان هو المعنى السليم ؛ وإلا تحوَّلنا إلى سواه من المعاني الموجودة في المعاجم .

وبهذا العمل نثبت أمرين معاً : الأول : صدق نظريتنا بشأن قيادة العنوان للسورة . والثَّاني : الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية التي تتحقّق هنا بطريقة علمية . والتي لا يمكن إثباتها بطريقة أخرى . وكان هذا هو السبب في كِبَر حجم هذا السفر . وكان هذا هو الأسلوب الوحيد للردِّ سلفاً على ما يمكن أن يثيره المتضررون من ظهور هذا الكتاب وهم كثر .

ومما سيتبين في نهاية الكتاب أن عنوان السُّورة يشبه تماماً كلمةً واردةً فيها من حيث الحروف وترتيبها ، لكنه في أغلب السور مستعمل بمعنًى آخر غير معنى الكلمة التي تشبهه . كما أنه ، كعنوان ، قد يختلف بلفظه محركاً بصيغةٍ غير صيغة اللفظة التي يشبهها . فعنوان سورة آلً عمران التي عرضت بعض تاريخ أُسرة عمران ، جد مريم ، حملت عنواناً مماثلاً لاسمهم ، إلا أنه كعنوان للسورة مَعنِيٌّ بالعمران بمعنى نشوء الحضارة والمدنية للأمة المخاطبة وشروطه . وسورة القلم التي يشبه اسمها كلمة القلم في آيتها الأولى ، إنما يأتي موضوعها القلْم بسكون اللام ، ليصف إحدى سنن الله تعالى في استعادة من يستحقّ الاستعادة من عباده قبل أن يبتعد في الضلال . وسورة البلد التي يتصدرها شِبْهَ قَسَمٍ بالبلد بمعنى مكّة ، يدور موضوعها حول البلادة أو التبلد وهو تراجع مستوى الإنسان وانخفاضه بعد ارتفاع .

ودليلٌ على صدق هذه الرؤية للعنوان وطريقة استعماله ورود سُوَر بعناوين غير عربيَّة كإبراهيم والرّوم . ولكن في العربيَّة كلماتٍ لها نفس الألفاظ . فكانت السور تدور حول معاني الألفاظ العربيَّة المماثلة للأسماء الأعجمية . فتأتي هذه الحالة لتؤيد منهج الكتاب في الربط بين العنوان وبين موضوع السُّورة .

وقد يجدها المستهزئون فرصةً للتندر عندما نقول إن سورة القلم تدور حول القلْم بمعنى التقليم . ولكن عندما يتبين أن عناوين السور تنزلت وفق نظام ينطبق على كلّ الحالات لا يبقى مجال للتمحل والتهكم .

من جهةٍ أخرى كان معظم السور يتبع عنوانه بمعنًى واحدٍ من معانيه كالأعراف والأنفال وسواهما . ولكن سورة المائدة كانت مائدة باثنين من معانيها يلتقيان على

مائدة اللقاء . المائدة الأولى هي مائدة الطعام ؛ والثَّانية بمعنى مائدة الحوار . وجاء عنوان سورة النحل بمعانٍ ثلاثةٍ للنحل تخدم هدفاً واحداً .

وكي لا يشعر القارئ بالخداع عُرِضت كلّ آيةٍ من السورة لنثبت صدق ترؤس العنوان للسورة . ولنثبت أن لا أحدَ غيرُ الله تعالى يستطيع أن يضع هذه العناوين للسور .

ولكن كيف عرفنا هذا ؟ وكيف سندفع به شكوك الشاكين التي ستواجهنا؟

القصة القرآنية تقوم بهذا الدور . فهي تُوجِّه معنى السُّورة . أي أن القصة مثلٌ تطبيقي على موضوع السُّورة . ولو أخذنا سورة القلْم مثلاً ، وتأملنا قصة أصحاب الجنّة ، سنجد أن الله تعالى أدَّبهم بحرق ثمار جنتهم لأنهم هموا بالبخل على الفقراء ؛ ففهموا الدَّرس وعادوا إلى الله وأعلنوا ندمهم . فكأنَّ الله تعالى قلَّمهم ليحررهم من بخلهم ونجاهم من تزيين الشيطان لهم بتلك المصيبة .

ووصلت القصة القرآنية قمةَ إعجازها وجمالها في سورة سبأٍ ، إذ واصلت الجنُّ خدمة سليمان بعد موته وهم لا يعلمون . فكأنَّ الله مدَّد مفعول نعمته على عبده بعد حياته ؛ لأنه قام بحقّها وكان لله شكوراً عليها . بينما كان موضوع السُّورة نزعَ النعمة عن قبائل سبأ لأنها لم تصن نعمة الله ولم تؤد حقّها . وكلمة سبأ كعنوان للسورة تعني كشط النعمة . فهل بلغ أحدٌ هذا المبلغ في الإعجاز وهل قدر عليه بشرٌ؟

وكما خدمت قصتا سليمان وسبأ موضوع السُّورة بحالتيه : المرغوب بها والمنهي عنها . فكذلك الأمر في كلّ سورة عندما ننظر إليها من زاوية عنوانها . فالعنوان هو رسالة السُّورة . ثم تقوم السُّورة بمناقشة العنوان كموضوعٍ للسورة من كلّ جوانبه المحتملة ترغيباً وترهيباً وأمراً ونهياً وتخاطب كلّ ما يمكن مخاطبته في الإنسان من عقلٍ وقلبٍ وسواهما . ولو أخذنا سورة «المؤمنون» مثلاً لوجدناها ، كما جاء عنها في متن هذا الكتاب ، تبدو كبيانٍ عامٍ يفصل في أمري الإيمان والكفر بطريقة حاسمة . وكعادة القرآن في عرضٍ موضوعه تعرض أسباب الإيمان وأسباب نقيضه وهو الكفر ، ونتائج كلّ منهما في نهاية الحياة الدنيا التي لا تزيد عن كونها قاعة امتحان . وتتعمق السُّورة في النفس البشرية لنرى من خلالها الكفر انحرافاً نفسيًّا واضطراباً في العقل والقلب يحول بين صاحبه وبين الإيمان . ويبدو الإيمان احتراماً للذات واعتزازاً بقيمة الإنسان وموقفاً عادلاً في العلاقة بين الإنسان وبين ربّه الخالق المنعم . وبمثل هذا العرض المحيط قدم القرآن سوره .

وكان لدراسة موضوع العنوان نتائج تجاوزت إثبات الإعجاز فيه إلى أمـر آخـر لا يقل أهميةً . فعند اعتبار العنوان محوراً للسورة ، والتحقّق من أنه عنوانها بـالمعنى الحقيقي المتعـارف عليـه فـي أصـول الكتـابـة ، واستعماله كأحـد ضـوابط التفسـير ، لا تبقـى حاجـةٌ لأحاديـث أسـباب النـزول ؛ الـتي يفتقـر معظمهـا إلى المصـداقية . وكذلك يُستغنى عن فكرة مكّية الآية أو مدنيتها في التفسير لأنها الأخرى غير مؤكدةٍ إلا في بعض الحالات . كما يُستغنى عن أخطر بل أسوأ جزءٍ في تراث الأمة ، وهـو معظم الأقوال المنسوبة لصحابةٍ أجلاء كابن عباس ، والجيل الثّاني مـن المفسـرين ، حيث تتناقض الروايات المنسوبة لشخصٍ واحدٍ حول نفس الآية . ووصفناها بالسـوء لأنها قَيَّدَت عقولَ علماء التفسير ، وحرمت الأمة من معرفة المعنى الحقيقـي لآيـاتٍ كثيرةٍ ؛ خصوصاً عندما رفع معظم علمـاء الأمـة شـعار أولوِّيـة النقـل علـى العقـل ؛ وفعلاً تعطل العقل .

ومما تجلى من علاقة العنوان بالسُّورة أن العنوان يصـف أحيانـاً أسـلوب صـياغة السُّورة . وقد تجلت هذه العلاقـة في سـورة الأحقـاف وسـورة المـدثر والمرسـلات . ففي الأحقاف كانت الآية تتحرك كأنها حقفٌ ممتـدٌ بانحنـاء ، ولم تكـن تسير بخـط مستقيم . وفي سورة المدثر ترتبت الآيـات منضـدةً داخـل الفقـرة درجـةً بعـد درجـةٍ مطبقةً أحد معاني كلمة دثر . ولو تعمقنا أكثر في دراسة هذا الجانـب لربّمـا وجـدنا نفس العلاقة مع سورٍ أخرى .

ومن النتائج العرضية لدراسة العلاقة بين عنوان السُّورة وموضوعها فائدةٌ أخـرى ، إذ صار القرآن مُعجِزاً لغير العرب . فإثبات معجـزة العنـوان وإمامتـه للسـورة لزمـه تفكيك السُّورة وتحليلها ، ودراسة طريقة صـياغتها وترتيـب المعـاني الـواردة فيهـا ، وعلاقة أجزائها بعضها ببعض . فظهر ضربٌ آخر من إعجازها وهو إعجـاز ترتيـب الأفكار فيها ، وتفوقها من زاوية فن كتابة النثر بأنواعه . وليس إعجاز الآية أو الجملة فقط . وبالنسبة للعرب ففي الكتاب ما ينشئ عند القارئ مهـارة الفهـم ومهـارة كتابـة النثر بأنواعها جميعاً وخصوصـا المقـال والقصـة القصـيرة والروايـة . فهـذه النمـاذج موجودة في القرآن بأبهى صورها .

وعند وصف بلاغة النص القرآني وتحليله توخيت الحذر ما استطعت . ومع هذا ألجأتني الضـرورة لاستعمـال مفرداتٍ تستعمل عـادةً فـي وصـف أعمـال البشـر . مما يتيح للمعطِّلين والمتمحلين الإساءة للكتـاب . خصوصـا أنـه لا توجـد مفـرداتٌ تليق بعظمة إعجاز القرآن وفخامة العمل الإلهي .

وكما تحدثت عن نشوء فكرة هذا الكتاب ؛ يحقّ لقرائه أن يعلموا ما كان في فترة حمله وميلاده . فبزاد يسير بدأت هذا العمل الشاق . لم يكن لي من مراجع حول الموضوع الدقيق سوى النَصِّ القرآني الكريم ومعاجم اللغة . وأول المعاجم عندي « كتاب العين » للخليل بن أحمد لأن العين هو الأقدم فكان الأقل تأثراً بما طرأ على معاني المفردات بعد نزول القرآن . وحيثما وردت الإشارة إليه فالمقصود به « مختصر كتاب العين » للخطيب الإسكافي . ثم « معجم مقاييس اللغة » لأحمد ابن فارس الرازي . وهو تنظير للعين لا أكثر . وإذا عجزا عن تقديم المعنى المناسب للكلمة كنت ألجأ إلى « لسان العرب » لابن منظور ثم « القاموس المحيط » للفيروزآبادي ولسفره الآخر « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » . ونادراً ما اضطررت إلى « صحاح اللغة » للجواهري وإلى « مختار الصحاح » للرازي . وفي كلّ الحالات لم أُسلِم قيادي لأي من هؤلاء ، فلا أقبل معنى يحتمل شبهة خلافٍ إلا بشاهد من الشعر الجاهلي لا اختلاف على معناه . وبذا ضمنت الدقة في فهم معاني المفردات خصوصاً عناوين السور .

وعودة إلى معجم المقاييس فهو متخصص بمعاني المفردات فقط . وعندما يستعمل كلمة « أصل » بحق كلمة فإنه يقصد المعنى الأصلي للكلمة . وعندما يقول إن كلمة ما على أصلين فإنه يكون قد حصر معانيها بمجموعتين من « المعاني ». ولا علاقة لكلمة أصل التي يستعملها بالتركيب اللغوي للكلمة كما يستعملها علماء الصرف .

وواجهتُ سورَ القرآن والمهمةَ الصعبة بما اجتمع لدي من خبرة في معالجة النصوص ، وما اختزنت ذاكرتي مما درست في كتب النقد الفني ومدارسه العربيَّة والغربية . وكانت أساليب كتابة المقال في الأدب الغربي من أهم مراجعي . فقد رجعت إليها مع معظم السور لمقارنة بناء السُّورة بمكونات نوع المقال الذي يشبهها . ولم يكن المقال هو الأسلوب البنائي الوحيد لسور القرآن . بل شاركه البيان السياسي كما في سورة التَّوبة ، والخطبة في سورٍ كثيرةٍ ، والروايةُ التي تجلت بأبهى صورها وأحكم شروطها في سورة يوسف ، والقصة القصيرة في آيات سورة البقرة (٢٤٣-٢٥٢) .

وعندما نقول إن سورة تنزلت بأسلوب المقال أو الرواية فهذا لا يختلف عن قناعة كلّ علماء الأمة أن القرآن يلتزم بقواعد النحو والصرف العربيَّة . فكلاهما ، القواعد وفنون النثر ، مما ألهم الله للبشر . أقول هذا كي لا يجدها المُتَمَحِّلون فرصةً للطَّعن بالكتاب .

واصطحبتُ في البداية خمسة مراجع من التفاسير وعلوم القرآن لأن أصحابها قاموا بمحاولات لتنظير السور . وهم سيد قطب في تفسيره « في ظلال القرآن » ، ومحمد حسين الطباطبائي في تفسيره « الميزان » ، ومحمد رشيد رضا صاحب « تفسير المنار » الذي أجازه الإمام محمد عبده ، ومحمد الغزالي صاحب كتاب « نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم » . وقبلها جميعاً كتاب « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » للفيروزآبادي الذي كان يلخص سور القرآن كما فهمها . ووضعت ما نقلته عنهم بزاوية سميتها مطالعات من التراث .

وفي مواطن قليلة وجدتني مضطراً للاقتباس من مراجع في فلسفة التاريخ أو مراجع علمية لتوضيح فكرة السُّورة أو فكرة منها . كلّ هذا من أجل تنظير السُّورة ، كطريق لاكتشاف موضوعها وليس لتفسير آياتها . وفي عملي كنت أكتفي بفهم السُّورة فليس التفسير موضوعي . إنما أفهم لنفسي كي أصل إلى هدفي .

وكان أول اختباري لمنهجي في العمل دراسة سورة الكهف . ونشرت ما توصلت إليه بشان سورة الكهف على مدونتي (إحياء)، عندما كانت ضمن مدونات مكتوب، في شهر نوفمبر ٢٠١١م . وقدمته على شكل قصةٍ قصيرةٍ لتقريبه للقراء . وتوقفت بعدها عن العمل لضيق الوقت . وبقيت فكرة الموضوع تراود عقلي طيلة الوقت لكن متطلبات العمل كانت تمنعني من البدء بالعمل ، حتى حان موعد تقاعدي من العمل نهائيًّا في نهاية آذار (مارس) ٢٠١٢م . وكنت في الأشهر الأخيرة من العمل شديد الحياء من الله ، خصوصاً أن معجزة أسماء السور قد نضجت في عقلي مدركاً الحاجة إليها . حتى كرست كلّ وقتي للكتابة فيه منذ ليلة الثُّلاثاء السابع والعشرين من آذار(مارس) عام ٢٠١٢م الموافق للرابع من جمادى الأولى لعام ١٤٣٣ هجرية . وانتهيت من المسودة الأولى بعد منتصف ليلة الخميس / الجمعة ٢٨-٢٩ رمضان ١٤٣٥ هجرية الموافق لليلة ٢٥-٢٦ تموز(يوليو) ٢٠١٤ م . أي بعد ٢٨ شهراً من العمل بتفرغٍ كاملٍ له .

ومع إشراق شمس يوم الاثنين التاسع من شوال ١٤٣٥هـ الموافق للرابع من آب (أغسطس) ٢٠١٤م بدأت المراجعة الأولى للكتاب . وروجع الكتاب بعد ذلك أربع عشرة مرة من قبلي . وقام أخي وصديقي الأستاذ ياسر مسمار مشكوراً بقراءة الكتاب وقدم لي نصائح مفيدة اعتمدت معظمها . كلّ ذلك ليكون هذا الكتاب مما يليق بالقارئ الجاد المثقف ، العارف بفنون الكتابة ، الغيور على الحقّ وعلى كتاب الله . واستغرقت المراجعات عشرين شهراً .

ويبدأُ الكتاب بتقديم **سورة البقرة** التي تضم أكثر من ستين موضوعاً . وكان يجب التأكد أنها مقدمةٌ للقرآن باسمها وحجمها ومواضيعها جميعاً . ولحسن الحظ أن كلمة « بقرة » كانت سهلة الإثبات . ففي المعاجم (مقاييس اللغة للرازي) أن لها معنيان الحيوان المعروف وقد استُعمِل في قصة بقرة بني إسرائيل ؛ واستعمل بالمعنى الثَّاني كعنوان للسورة وهو بَقْرُ العلم أي افتتاحه والتبقر فيه أي التَّوسع . ومنه صفة الباقر لمن يتوسع بعلم ما . وجاءت قصة البقرة وِفقاً للأصل الأول . واشتُق اسم السُّورة من الأصل الثَّاني . وهذا النمط في التسمية نجده في أسماء معظم سور القرآن الكريم . يؤخذ الاسم من كلمةٍ مستعملةٍ في السُّورة بأحد معانيها الأصلية ثم تستعمل نفس الكلمة أو كلمة مشتقةٌ من نفس مادتها اللغوية لتكون عنواناً للسورة بمعنى أصليٍّ آخر من معانيها . ولكن المستحيل وجوده في القرآن أن يكون عنوان السُّورة كلمة عابرة لا علاقة لها بموضوعها الرئيسي كما يظن كثيرٌ من أهل العلم من المسلمين ومن غير المسلمين .

ونعود إلى السُّورة لنثبت أن البقرة تلخص القرآن الكريم . وأن معظمَ مواضيعها مرتبٌ ترتيباً يشبه ترتيب ورودها في سور القرآن الكريم من آل عمران حتى الناس . كما أن سورة البقرة قامت بوظيفةٍ أخرى غير التقديم والتلخيص وهي التَّوجيه . فرأس الموضوع القرآني وقيادته موجودٌ في سورة البقرة ؛ لتقوم سورةٌ أخرى أو أكثر بتفصيله . وبذا يستطيع المفسر الاستئناس بآيات سورة البقرة إذا احتار بآيات الموقع الثَّاني التابع لآيات البقرة . وكمثل على ذلك تأتي الآية (١٨٠) لتوجه موضوع المواريث الوارد في سورة النساء انطلاقاً من موضوع الوصية . وأدنى درجةٍ من التفكير تدلنا على أنه لا يمكن تقديم موضوع المواريث بآيةٍ أو آيتين إلا انطلاقاً من الوصية . فهي الخطوة الأولى في توزيع التركة . وهي الأداة التي يعالج بها

صاحب التركة ما يكون في أحكام توزيعها من ثغرات يعلمها هو لا سواه ، كمشاركة أحد أولاده بالعمل أو حاجة إحدى بناته لدخل يحفظ كرامتها ولا ييسره نصيبها الشرعي من التركة . ومثل موضوع المواريث كان معظم المواضيع التي بدأتها السُّورة لتُستَوفَى في بقية سور القرآن . وليس هذا وحسب ، بل قدمت السُّورة القرآنَ على أنه كتابٌ تَنزَّل لإحياء أمةٍ .

وكما فتحت لنا سورة البقرة قلبها ؛ وتحقّقت فيها نظرية العنوان كمحورٍ للسورة ، استجابت بقية سور القرآن على تفاوتٍ ، فلم تأت الرعد كالحجر ولا يس مثل فاطر . ولم يكن التفاوت إلا عجزاً منا .

وفي دراسةٍ تزعم أن العنوانَ محورُ السُّورة ، وتعد بعهدٍ جديدٍ في علوم القرآن ، يلزم بيان منهجها في فهم القرآن . فبقاءُ المناهج الحالية في الفهم ، وما تؤدي إليه من اختلافاتٍ عميقةٍ في الفهم والتفسير والتأويل ، لا يسمح بالاتفاق على موضوع السُّورة عدا عن دورانه حول محورٍ يضبطها ويوجه معاني آياتِها هو العنوان .

فكان منهج الفهم ولا أقول التفسير قائماً على الأصول التالية :

١- رسالة القرآن الكلّيةُ كما تحددها الآية الثَّانية من سورة البقرة « هدى للمتقين » :

والهدى هو السير على طريقٍ مستقيمٍ لا عوجَ فيه ولا تراجع باعتبار القيم العليا . والمتقون هم الذين نالوا قدراً من الثَّقافة والخلق الرفيع ، خصوصاً الحياء ، مقارنة بمجتمعهم القريب . فامتنع عليهم المجاهرة بالمعصية وممارسة أي عمل لا يليق بإنسان يحترم نفسه ويحافظ على مكانته في المجتمع . وبالتالي لا يجوز تفسير آيةٍ على أنها تسمح بأدنى درجةٍ من التساهل بكسر القيم العليا كالعفة ؛ أو تسمح بأيِّ احتيالٍ يبيح ممارسةً كبيرةً محرمةً كالزِّنا . فإن حدث ذلك فالتفسير خطأٌ محض . وليس هذا وحسب . فالرسالة الهدى تكون عند المتقين للالتزام والتنفيذ . لذا يجب أن يكون المعنى فيها واضحاً والتَّوجيهُ مفهوماً بدقةٍ ومحدداً . وغيرُ هذا يكون عبثاً وتضليلاً ؛ وحاشا لله أن يلهو بعقول عباده . وأمرٌ ثالثٌ يلزم ذكره هنا وهو أن القرآن كتابُ هدايةٍ للإنسان وليس أيَّ شيءٍ آخر كما يبالغ بعض المتحدثين عنه . فهو كتاب هدايةٍ فقط وليس مرجعاً علميًّا ولا سجلاً للتاريخ . وإنما وردت فيه إشاراتٌ علميةٌ

ليزداد المؤمنون إيماناً والمتقون هدى . وكلّما احتار مفسرٌ بين معنيين لآيةٍ ولم تُسعفه معاجم اللغة فأقرب المعنيين لهداية المتقين هو الصواب .

٢- منهج فهم معاني مفردات القرآن : من الطبيعي أن تُفهم معاني المفردات كما كانت تُستعمَل على عهد التنزيل وفي الشعر الجاهلي . ولا عبرة في المعاني التي طرأت بعد عهد النزول . ويلزم هنا حذرٌ شديد . فعلى المفسر أن لا يكتفي بقبول المعنى لأنه ورد في معجمٍ محترمٍ كالقاموس المحيط أو لسان العرب . بل يجب أن يصل إلى المعنى الذي يتفق مع أصل المادة اللغوية التي اشتقت منها الكلمة . ولا يجوز تفسير كلمات القرآن إلا وفق المعنى الأصلي للمادة اللغوية . والشعر الجاهلي هو الحَكَم في معرفة المعنى الحقيقي للكلمة . ولعله من أجل هذا قال عمر بن الخطاب : « أيها الناس ، احفظوا ديوان شعركم في جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم » (أوردها كبار المفسرين عند تفسيرهم للآية ٤٧ من سورة النحل باختلافاتٍ ضئيلةٍ في النص) .

ولعل من المناسب هنا التذكير أن بعض مفردات اللغة الكثيرة الاستعمال قد اتّسع معناها لتشمل مدى أوسع من حدودها . وانعكس هذا على القرآن . ولعل الكلمات الأساسيَّة الثَّلاث « الأرض والناس والعالمون » هي الأمثلة الأوضح على هذه الظاهرة . وهي الأكثر إفسادا لمعاني آيات من القرآن . فكلمة الأرض إن ذُكِرَت وحدها دون قرينة فهي أرض العرب الأصليّة . وكلمة الناس لا يتّسع معناها لأكثر مما تتَّسع له كلمة الشَّعب الناطق بلغة واحدة ، ولا تتَّسع لكلّ الجنس البشري . فهي في القرآن لا تعني أكثر من العرب وتضيق أحياناً لتقتصر على أهل مكّة أو بعض أهل المدينة . وكلمة العالمين تعني النوع أو الصنف من المخلوقات ، ولا تعني كلّ سكَّان الأرض . فقد قال الله لقوم لوطٍ ﴿ **أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ (الشعراء:١٦٥) فالعالمون هنا هما صنف الرجال وصنف النساء من قوم لوطٍ . وليس كلّ سكان الكرة الأرضيّة .

٣- وقواعد اللغة العربيَّة نحواً وصرفاً ضابطٌ آخر في فهم القرآن . فلغفلة بعض علماء التفسير عن قوانين علم الصرف أخطأوا بفهم الآية الثَّلاثين من سورة البقرة ؛ وظنوا أن كلمة خليفةٍ الواردةَ فيها اسمُ فاعل . وفهموا منها أن آدم يخلف كائناً كان قبله في الأرض ؛ مع أنها اسم مفعول ، فيكون معناها أن آدم

مَخلوفٌ أي ستخلفه ذريتُه في الأرض . لأن حكم كلمة خليفة كحكم كلمة قتيل سواءً بسواءٍ . فالخليفة هو المخلوف كما القتيل مقتولٌ والجريح مجروحٌ ؛ وقد استعملت بهذا المعنى في سورة ص : ٢٦ ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (ص:٢٦) فداود لم يخلف أحداً من آبائه في موقع الحكم لكن خلفه ابنه سليمان ثم أبناء سليمان . فكانت الآية بشرى لداود أن ابنه وأحفاده سيحكمون بعده . ولو أُنزلت الآية على داود كحدَّادٍ لامتهن أبناؤه نفس المهنة ولو أنزلت عليه كإنسان فقط لكانت بشرى له بذريةٍ كبيرة تخلفه .

٤- وحدة موضوع الآية أو مجموعة الآيات إذا كان الموضوع معروضاً في أكثر من آيةٍ تِباعاً . وهذه أدنى درجات ترابط القرآن . وسنلاحظ أن أحد أسباب أخطاء بعض المفسرين أنه كان يتعامل مع أجزاء الآية الواحدة وكأنها جمل منفصلةٌ لا رابط بينها . وهي حالةٌ موجودةٌ في تفسير آياتٍ عديدة . من أمثلة ذلك ما وقع به المفسرون جميعاً عندما ظنوا أن الجملة الأخيرة من آية سورة النُّور (٣٣) تبيح الزِّنا . ووقعوا بذلك بسبب عدم ربطهم أجزاء الآية المذكورة بعضها ببعض . فالآية تأتي لتحل مشكلة الزّواج في بؤر الفقر من المجتمع وليس فيها أي إباحة لما حرم الله بالفطرة .

٥- واعتبار الدِّقَّة في الخطاب القرآني عاملٌ مساعدٌ على الفهم الدقيق للقرآن . وبعكس ذلك تضيع الحقيقة . وكمثلٍ حاضرٍ في الذهن فَهْمُ معظم المسلمين حتى زمن قريب لآية سورة لقمان (٣٤) التي تقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان:٣٤) . فانطلاقاً من جزء الآية «وينزل الغيث» كان الناس يظنون أن التنبؤ الجويَّ حرامٌ . ولم يدركوا الفرق بين تنزيل الغيث وبين العلم بوقت نزوله بعد تَكوِّن عناصره في الطبيعة . وتورط في هذا بعض المفسرين فجاء في تفسير الجلالين أن معنى هذا الجزء من الآية بأن الله يعلم وقت نزوله . والنص القرآني يتحدث عن إنزال الغيث فقط ، ولا يوجد في النص تلميحٌ لوقت نزوله . وهنا تكفي المعاجم للفهم بينما يُفسدُ النقلُ المعنى ، ويُظهر القرآن وكأنَّ فيه خللاً ، وعند تقدم المعرفة يستغله المغرضون والمعطلون من أعداء القرآن .

٦- العدل الإلهي مَعْلَمٌ في أحكام القرآن ، يعينُ على فهم آيه الكريم . فمثلاً كلمة «خصيم» الواردة في سورة النساء (١٠٥) ما كان يمكن أن تُحْصَر بمعنى المجادل عن الخائنين لولا أن هذا المعنى يتفق مع العدل الإلهي .

٧- العنوان : يأتي هذا الكتاب ليثبت أن العنوان هو موضوع السُّورة وكلّ آيةٍ فيها يجب أن تخدمه وتعمقه ؛ ولا يجوز أن تتناقض معه أو تعرض فكرةً لا تتصل به . وتشكل الآياتُ أو فقرات السُّورة نظريتَها الكبيرة . فمُنزل الكتاب هو الله الحكيم العليم . لا يتناقض كلامه ؛ ولا يليق به أن يكون كلامه الذي يتنزل في سورةٍ واحدةٍ مبعثراً دون ضابط ، ودون محور يدور حوله ، ودون إطارٍ يضبط أطرافه ؛ فلا يكون فيه استطراد ولا شرود . وإذا كان الخروج عن الموضوع لا يليق ببشرٍ عاقلٍ ؛ فكيف يرضاه الله لكلامه العزيز الكريم الحكيم؟ بل كان من إعجازِ القرآن انسجامُ مكوناته بعضِها مع بعض ، وتناسقه وتعاضدُ آياتِه . بعكس كلام البشر الذي لا يمكن أن يخلو من تناقضٍ أو اختلافٍ . ولذلك أشارت آية ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء:٨٢) . وبعد اكتشاف نظرية السُّورة يسهل تفسير آياتها مع الالتزام بالشروط السابقة .

٨- وقد يبقى لأسباب النزول المؤكدة دورٌ في فهم آيات من القرآن بما لا يتناقض مع أي أصل من الأصول المذكورة سابقًا ، هذا إن لم تحسِم الضوابطُ السابقة أمرَ آيةٍ ما . وهو أمرٌ مستبعَدٌ عند من يعرف كيف يبحث ويصبر على مصاعب البحث العلمي الدقيق . مع ملاحظة أن بعض ما ورد في كتب أسباب النزول زاد الأمر غموضاً وأعطى نتيجةً معاكسةً . مما يدل أنه وضع عمداً لتبرير معنًى خاطئ أو لتمريره عندما عجز المفسرون عن الوصول إلى المعنى الصحيح . وهو كثيرٌ ومن أمثلته ما اخترعه أصحاب أسباب النزول من قصص لتمرير سوء فهمهم للجزء الأخير من الآية (٣٣) من سورة النُّور أو للجزء الأوسط من الآية (٣) من سورة المائدة .

٩- لا تُفَسَّرُ الآيةُ القرآنية وفقاً لأحكامٍ أو مسلماتٍ سابقةٍ ، سواءً أكانت مستنتجةً من آيةٍ أو حديثٍ أو قاعدةٍ شرعيةٍ . بل تُفسر انطلاقاً من نصها معالجاً حسب الأصول المسجلة هنا .

١٠- منهج القرآن في الخطاب : نظراً للتداخل الذي يحدث بين القصة القرآنية وبين التعقيب عليها أحياناً قد يحتار القارئ بالمخاطب بها أو المَعْنِيّ . وتنتهي هذه

الحيرة عندما نعلم أن في القرآن نَسَقًا ونهجاً لا يخرج عنهما في توجيه الخطاب . وقد أشار بعض المفسرين لبعض سنن الله في الخطاب . فلاحظ بعضهم أن الله لا يخاطب المنافقين خطاباً مباشراً إطلاقاً . بل يتحدث عنهم بصيغة الغائب أو يخاطبهم من خلال النبيّ بعد كلمة «قل» . لأن الخطاب المباشر من الله لشخصٍ أو جماعةٍ هو قمة الاحترام وعلامة رضاً من الله عن المخاطب ، إلا إذا تَضمَّن الخطاب إهانةً أو تهديداً واضحاً فهو لكافر . ولا تخرج وسائل الخطاب القرآني عن الأساليب التالية حسب ما وجدت أثناء دراستي له :

مفرداً أو جمعاً . وهذان النوعان غالبان في القرآن بينما ظهر الخطاب المباشر للمثنى في سورة الرحمن ونترك الحديث عنه إلى فصل السُّورة الخاص بها .

أما الخطاب المباشر المفرد . فهو حالتان : الأولى وفيها يكون ودِّياً ويدل على احترام وهذا لا يكون إلا للنبيّ مثل ﴿ **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ** ﴾ (الكوثر:١) . ومثلها كثيرٌ في القرآن . وفي الثَّانية يدل على إهانةٍ ويكون لكافر في الدنيا أو الآخرة كقوله تعالى ﴿ **ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ** ﴾ (الدخان:٤٩) .

والخطاب المباشر للجمع على وجوه . فإن كان وديًّا ويوحي بالاحترام فهو للنبيِّ ومعه المؤمنون أو للمؤمنين وحدهم ، وخوطب به بنو إسرائيل أحياناً . فمن خطابه للمؤمنين قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ (الأنفال:٢٧). ومما خوطب به بنو إسرائيل خطاباً مباشراً : ﴿ **يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ** ﴾ (البقرة:٤٠) .

وإن كان خطاب الجمع المباشر يدل على الإهانة والتحقير فهو للكافرين في الحياة الدنيا أو ضمن مشاهد يوم الحساب ومن أمثلته ﴿ **أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ** ﴾ (النجم:١٩–٢٠) . وقد يكون لأهل الكتاب وهم يقفون في طريق انتشار الإسلام أو يتآمرون عليه مع أعداء الله ومن أمثلة ذلك لأهل الكتاب ﴿ **يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ (آل عمران:٧١) . وإن كان مع الخطاب قرينةٌ فهي تدل على المخاطب كقوله للمؤمنين : ﴿ **لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ**

كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ (التوبة:٢٥) . فمعركة حُنينٍ قرينةٌ واضحةٌ تمنع كلّ لبس .

والحكاية عن الغائب المفرد يمكن أن تكون وديةً وتدل على الإكرام للمؤمن كقوله تعالى ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ (الليل:٢١) التي يظن أنها نزلت بحقّ أبي بكر الصديق . أو تدل على إهانةٍ فتكون عن كافرٍ أو منافقٍ كقوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ (القلم:١٦)

والحكاية عن الغائب الجمع يصعب تأطيرها لأنها شملت مؤمنين وكافرين ومخلوقاتٍ غير بشريةٍ كالنَّمل . وغالباً ما تكون القرينة فيها كافيةٌ لمعرفة المقصود بها .

والقرآن بعامةٍ ككلّ رسالةٍ سماويةٍ كاملةٍ ، جاء لينظم ثلاثَ علاقاتٍ في حياة الإنسان هي علاقته بربّه وعلاقته بالإنسان وعلاقته بالطبيعة . واعتاد علماء الأمة إطلاق اسم العبادات على العلاقة الأولى واسم المعاملات على الثَّانية . ولم يفصلوا الثَّالثَّة عن الثَّانية . ولكنها تشمل أحكام الطعام ما يحل وما يحرم منها ، وورد ذكر مكونات الطبيعة الستة وهي الأرض والماء والهواء ومصادر الطاقة والنبات والحيوان.

من جهةٍ أخرى فإن القرآن ككتاب هدايةٍ وتغييرٍ يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام أساسيةٍ :

الأول : رؤيتُه للأمة التي سينشئها والدولة التي ستدير أمورها الداخلية والحفاظ عليها على منهج الهدى لأطول زمن تستطيع . وهذا هو موضوع السور السبع الأُول بعد الفاتحة والبقرة .

والقسم الثَّاني : هو صناعة طليعة التغيير بقيادة النبيّ . فهي منذ سورة يونس مخصصة لتثبيت النبيّ والمؤمنين معه وتوجيهه ليصبر على قومه ويرد على أسئلتهم ويفند اعتراضاتهم ويتابع الدعوة حتى النصر . ويستمرُّ هذا الجزء دون انقطاع حتى الحجّ .

والقسم الثَّالثَّ : يأتي لتربية الأمة وتحريرها من عيوبٍ نفسيةٍ وسلوكيةٍ . وفيه بيان لسنة الله بتحريك تاريخ الشعوب . ويبدأ هذا الجزء بسورة « المؤمنون » حتى نهاية القرآن . وفيه سور تلتقي فيها أهداف الأقسام الثَّلاثة أو اثنين منها .

وحيثما وردت كلمة « النبيّ » أو« نبيُّنا » دون قرينة تحدِّدُها في هذا السفر فالمقصود بها رسول الله محمد عليه السلام .

وحيثما وردت كلمة «المؤمنين» في هذا الكتاب دون تحديد أو قرينة فالمقصود بها الجيل الأول من المسلمين الذين آمنوا بالله وبرسوله من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم ممن عاصر نزول القرآن . وحيثما وردت كلمات : مشركون ، كافرون ، منكرون أو معاندون دون قرينة فالمقصود بها العرب المشركون وهم يرفضون الإيمان بالنبيّ وبالقرآن .

وحيثما وردت كلمة «الناس» دون قرينة فالمقصود بها العرب . وحيثما وردت كلمة «الأمة» أو «القوم» فالمقصود بهما العرب

وحيثما وردت كلمة الجزيرة فالمقصود بها جزيرة العرب .

وحيثما وردت كلمة «اللغة» فالمقصود بها اللغة العربية .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن كلّ المفردات التي تتعلق بمخاطبين مباشرين أو غير مباشرين في القرآن إنما فُهمت كما تنزَّلت أوّل مرةٍ . فكلمة الناس مثلاً عندما يقصد بها أهل مكّة فقد عوملت هنا على أنها لأهل مكّة ؛ أو قصد بها المؤمنون كما في سورة الحجرات (١٣) فقد فُهمت كذلك . وعندما يَذكُر القرآن مصطلح «أم القرى وما حولها» فنفهم النص المقدس بهذه الحدود فقط . ولم نعتبر الفهم الذي جاء لاحقاً لبعض مفردات القرآن كالناس والعالمين .

ومن جِهةٍ أخرى فإن القرآن نزل أوَّل مرةٍ منجَّماً ليتربّى عليه المؤمنون ولُينفِّذ النبيّ توجيهاته . وفي أواخر عُمُر النبيّ اكتمل نزول القرآن ككتابٍ يتكون من سور . وقد قرأه جبريل على النبيّ ككتابٍ بترتيبه الحاليِّ وأعاده النبيّ على مسمعٍ من جبريل بنفس الترتيب . وعلى ذلك الترتيب جمعه الصحابة الكبار الثِّقات ديناً وعلماً في مصحفٍ ، ووزعوا نسخاً منه على الأمصار وما زال على نفس ترتيبه . ولكن علماء الأمة وخصوصاً المفسرين واصلوا التعامل معه على أنه آياتٌ لا علاقة بينها إلا قليلاً . ولم تكن السُّورة عندهم إلا مجموعة آياتٍ مرتبةٍ وفق نظام حافظوا عليه دون أن يستفيدوا منه إلا قليلاً . فيأتي هذا السفر ليقدم القرآن كسورٍ ولكلّ سورةٍ موضوعُها . وتشكل هذه المواضيع معا فلسفة حياة ومنهج تغييرٍ للأمة . وبذا لا ينتهي دور القرآن مع الجيل الذي استقبله ، ولا يبقى كتاباً يتلى للبركة على أرواح الموتى وعند أسرة المرضى ؛ بل قاعدةَ انطلاقٍ لحياةٍ جديدةٍ تتناسب مع المستوى الفكري الذي وصلته البشرية في هذا الزَّمن .

وأخيراً وليس آخراً يمكن القول بقدرٍ كبيرٍ من الثِّقة أن هذا الكتاب ينفع قاعدةً لإصلاح العلاقة بين الأمة وبين دينها . فيمكن أن يُبنى عليه تفسيرٌ سليمٌ للقرآن يخلو من التناقضات وينير مساحاتٍ جعلها التفسير بالنقل غامضةً وغير مقنعةٍ . وعلى ضوء التفسير السليم المقنع للعقل والملتزم بقواعد فهم النصوص يمكن إصلاح السُّنَّة . فيُقبَل منها ما يتفق مع التفسير السليم للقرآن أو يتماشى مع روح القرآن وقيمَه الأساسيَّة . ويُبعَد ما يخالف تفسير القرآن وروحه . خصوصاً ما كان من الأحاديث ذا بُعدٍ تشريعيٍّ أو سلوكيٍّ أو يؤثر بالعقيدة .

وعلى ضوء الكتاب والسنة يمكن إصلاح الفقه . فمثلاً عند تفسير آيات المواريث على ضوء الآية (١٨٠) من سورة البقرة ستسقط القاعدة الفقهية « لا وصية لوارث » (التي تقوم على حديث غير متفق على صحته) لتناقضها التام مع الآية المذكورة . خصوصاً إذا اتفق علماء الأمة على أن سورة البقرة مقدمةُ القرآن وموجهةٌ له في المواضيع التي ذكَرَتْها وجاء تفصيلٌ لها في بقية القرآن ، كما أثبتنا . وعند فهم الآيتين (١٥-١٦) من سورة النساء على ضوء ما جاء في هذا السفر تسقط أحاديث قتل ممارسي المثلية الجنسية من الذكور وجلد الإناث ورجمهن عند ثبوت ارتكابهم الذنب . ويصير الحكم الموجود في الآيتين معقولاً ومكافئاً للذنب . خصوصاً أن بعض الأقوال التي شوهت الحكمين المذكورين على أنها أحاديث نبويةٌ هي في الحقيقة أحكامٌ مأخوذةٌ من مصادر يهوديةٍ كما بينت في متن الكتاب ولا تليق برسول الله لا من حيثُ أحكامها الجائرة ، ولا من حيث لغتها المضطربة .

وبتفسير آيات السُّورة على ضوء عنوانها سيتغير معنى مفرداتٍ كثيرةٍ من القرآن . فكلمة التَّوبة أو الكفر عندما تُفهَم على ضوء العنوان لن تبقى عائمةً تحتمل كثيراً من المعاني . وبالتالي تُحَلُّ كثيرٌ من الخلافات التي نشأت في الماضي وقام عليها مبادئ وفرقٌ . فالاختلاف حول منزلة مرتكب الكبيرة مثلاً ، كانت سبباً في نشوء فرقة المعتزلة .

وأرى أن أذكر شيئاً عن توثيق المراجع والمصادر . فاحترت لوهلة بين منهجين في التَّوثيق : المنهج الدارج في الكتب الدينية العربيَّة ويضع اسم الكتاب في البداية ثم يذكر المؤلف ويكتفي بالقليل من المعلومات حوله . والمنهج الغربيّ الدارج في المجلات العلمية المُحكَّمة ؛ ويبدأ بذكر صاحب المرجع لأنه صاحب الفضل .

ولكن قلة المراجع المستعملة وشهرتَها من جهةٍ وطبيعةَ استعمالها في هذا السفر من جهةٍ أخرى جعلتني أختار طريقاً وسطاً ولكنه أقرب للمنهج الغربي . فأبدأ باسم المؤلف فهو صاحب الفضل . ولأن معظم المراجع تراثية أتبعت اسم المؤلف بسنتي ولادته ووفاته أو المتيسرة منهما ثم بلده أو البلد الذي قضى به معظم حياته كعالم ، ثم عنوانَ المرجع وناشرَه وسنةَ طباعته أو مصدرِي للحصول عليه . ولم أذكر أرقامُ الصفحات التي اقتبست منها . فلا لزوم لها في حالة هذا الكتاب . فمعظمها مراجع لغويةٌ أو تفاسير للقرآن . وفي كلا الحالين فإن المكان الذي اقتبست منه معروف لدى القارئ المثقف . وهو أفضل من رقم الصفحة المرتبط بالطبعة المستعملة وتتغير من دار نشرٍ لأخرى . وفي حال لزوم ذكر الصفحة كنت أذكرها في متن الكتاب قبل العبارةٍ المقتبسة أو بعدها . وآمل أن أكون قد وُفِّقتُ باختياري .

وما اقتبست من المراجع كنت أنقله على طريقة النسخ واللصق فلم أتدخل بحرف ولا بحركة حرف . ولهذا لم تأت المادة المقتبسة محركةً بعلامات الإعراب إلا إذا كانت مزدانة بها في مصدرها .

وأكاد أجزم أن من يواصل قراءة هذا الكتاب حتى النهاية ، سيكتشف عند إتمامه أنه امتلك فهماً جديداً للقرآن خصوصاً ، وللدين بعامةٍ . وسيتكون لديه تصورٌ مريحٌ للدين خالٍ من التناقضات التي تملأ رءوس غالبية البشر .

وأكتفيٍ بهذا القدر في تقديم الكتاب عسى أن أكون قد أعطيت فكرةً كافيةً وجذابة للقارئ ليستمر بالقراءة . سائلاً الله أن أكون قد وُفقت في تنفيذ المهمة التي ندبت نفسي لها . فإن أصبت فبفضل الله . وحيثما أخطأت فهو ذنبي وأسال الله الغفران .

عمان ـ الأردن ١٤٣٧ هـ

الموافق ٢٠١٦م

على راضي أبوزريق

سورة الفاتحة

فكرةُ الكتابِ بالمعنى الحديثِ ، كانت جديدةً على العرب حينَ نُزولِ القرآن الكريم . وكذلك كلّ مُكَوِّناتِ الكتابِ بالمفهومِ الحديث . وبالتالي كانت فكرةُ فاتحةِ الكتاب جديدةً تماماً ؛ ولمْ يعرفْ لها تراثُ الأمة مثيلاً قبلَ فاتحةِ القرآن . فتَعلَّمْنا منها أنَّ فاتحةَ الكتابِ تُصاغُ بِلُغةٍ شاعريةٍ تحومُ حولَ فكرةِ الكتابِ الرئيسيةِ الضيقة . ويُحبذ أن لا تتجاوزَ الفاتحةُ صفحةً بل لا تزيدُ عنْ أسطُرٍ قليلةٍ . تماماً كما جاءت فاتحةُ القرآن الكريم .

بأسلوب رشيق تقدم الحمدَ لله بصفتِه ربّاً يقوم على أمر عباده . وهو الرحمنُ الرحيم ، ينظر جميع خلقِه بالرعاية والرحمة ويخصُّ المؤمنين برعاية أكبر . وهو مالكُ يومِ الحساب والدينونة . وبهذه الصفاتِ الأربع يستحقّ العبادةَ من البشر ؛ وله حقّ محاسبتهم يوم القيامة على ما يفعلون في حياتهم الدنيا . والمؤمنون يتوجهون إليه سبحانه بإعلان العبودية له ، وطلب العون منه ، بقلوبٍ مؤمنةٍ تخشى الوقوع في الضلال أو في ما يغضبه .

ولم تلخِّص الفاتحة القرآن كما يزعم بعض المشتغلين بعلوم الدين . وليس فيها حكمٌ واحدٌ من أحكام الإسلام التي جاء بها القرآن . ولم تذكر من صفات الله سوى أربعاً من أصل تسع وتسعين . ولم تذكر نبيَّ الإسلام . إنها مجرد إعلان تَوَجُّهٍ إلى الله بالعبادة التي تُرضيه سبحانه ، وتوحيدُ الله وعبادتُه هما جوهر الدين المقبول عند الله حسب القرآن الكريم . أي أن الفاتحة افتتحت القرآن على أنه يدعو المخاطبين لعلاقة سليمة بالله ، مُبَرِّرَةً ذلك بصفات الله الأكثر أهمية للخلق جميعاً ، والأقوى تأثيراً بحياتهم الدنيا وبمصيرهم يوم الحساب .

وسُمِّيتْ الفاتحةَ من عند الله مع أنها تخلو من أي لفظةٍ مشتقةٍ من مادة فتح .

* * *

سورة البقرة
مقدمة القرآن الكريم

سورة البقرة هي السُّورة الثَّانية حسب ترتيب المصحف . وهي مقدمة القرآن الكريم . ليس بفعل موقعها بل بقيامها بوظيفة المقدمة على أتم وجه . وبصفتها مقدمةً فهي لا تقتصر على موضوعٍ محددٍ كبقيةِ سور القرآن بل تُلخص المواضيع الرئيسية للقرآن . وبترتيب يتطابق إلى حدٍّ كبيرٍ مع ترتيب سور القرآن منذ آل عمران حتى الناس . فهي مقدمةٌ باسمها وبمواصفاتها الشكلية وبوظيفتها وبمضمونها . بل أضافت وظيفةً جديدةً للمقدمة لم تعرفها الخبرةُ البشرية بعد ؛ ولم يمارسها كاتب مقدمةٍ حتى الآن وهي توجيه القارئ لفهم الكتاب الذي تقدمه .

وتبدو السُّورة في كلّ من هذه المقومات الخمسة قمةً في الإعجاز ، لم يصل إلى مستواها فيه مقدمةُ سفرٍ من صنع البشر . فاسمها البقرة تعني فاتحةً لشيء أو المدخل إليه ؛ وحجمها يعادل مثل عُشر حجم القرآن بدونها . وتقوم بوظيفتها على خير وجه وهي تقدم القرآن بآيتها الثَّانية ، وتعرفه ككتاب هداية للمتقين ، وتوجه مواضيعه بآياتها التي تشكل رءوس أقلامٍ لبقية القرآن .

ومع مضمونها نقضي بقية هذه المقدمة لنحكم لها أو عليها . بل ننجح بهذه المهمة أو نفشل .

بعد تعريف الكتاب تقوم بتعريف المخاطبين به ، وتصفهم باعتبار مواقفهم من القرآن بأنهم ثلاث فئات : المتقون والكافرون والأغلبيةُ غيرُ المعنية بالأمر العام ولم تسمهم منافقين . وبذا تكون الآيات العشرون الأولى تعريفاً بالكتاب وبفئات المجتمع المستهدف به والمتفاعل معه قبولاً أو رفضاً أو تذبذباً بين الموقفين .

والمطلوب الرئيسي من المخاطبين بالقرآن هو توحيد الله وعبادته مع تبرير طلب العبادة لله (٢١-٢٢) .

ثم تأتي ثلاث آيات بالشرط الثَّاني للإسلام وهو التصديق برسالة محمد . ويأتي هذا الطلب من حيث لا يمكن إنكاره ؛ وهو ينطلق من التحدي بإعجاز القرآن . ويُذكَر موضوع التحدي بإعجاز القرآن وبأدلة صدق الرسول في سورٍ لاحقة .

ومما يلزم لسورةٍ تقدم كتابَ هدى أن تبين سنة الله في هداية الناس كي يتحرى المخاطبون سلوك طريقها ؛ ويطمئن النبيّ فلا يلوم نفسه عندما يدعو أحداً فلا يستجيب له (٢٦-٢٩) .

والمخاطبون بالقرآن من ذرية آدم كسواهم من البشر . ولا بد من شيءٍ مشتركٍ ورثوه عن أبيهم . لذلك تأتي قصة خلقِ آدم وسقوطِه في سورة البقرة بعشر آيات .

ثم تواجهنا رسالةٌ موجهةٌ إلى بني إسرائيل تتكون من أربع وثمانين آية (٤٠-١٢٣) يتخللها توجيهات للنبيِّ بشأن بني إسرائيل أو ردودٌ على أقوال منهم . وفي وجودها وموضوعها وفي توظيفها معجزات لا ينكرها إلا جاهلٌ أو مكابر . خصوصاً عندما ننظر إليها على ضوء خبرة الجنس البشري كلّه في القرن السابع الميلادي حيث نزل القرآن الكريم . وفي مكان ليس الأكثرَ تقدماً في العالم يومذاك . ومن معجزات القرآن أن الرسالة تلخص ما ورد عن بني إسرائيل في القرآن . وتقريباً بنفس ترتيب ورود ذكرهم فيه من آل عمران حتى سورة سبأ .

المعجزة الثَّانية أن الرسالة تقدم بني إسرائيل كأقليةٍ معارضةٍ في المجتمع العربي المسلم بشكله الجديد . تقوم بدور المعارضة كما نفهمها على ضوء الخبرة البشرية المعاصرة ؛ وما سجل علماء التاريخ المعاصرون . والمعجزة الأكبر هي وجود هذه الرسالة في سورة البقرة بالذات ؛ وهي التي تلخص القرآن كمشروعٍ سياسيٍّ يهدف لإحياء أمة ، لم ينس الواجهة المعارضة للأمة التي يسعى لإحيائها . فتؤدي دورها كمعجزةٍ على ترتيب القرآن . وتكون دليلاً ساطعاً على دور السُّورة كمقدمة للقرآن . ثم توظِّف حالة بني إسرائيل يوم نزول القرآن كجزء من الأمة العربيَّة تقوم بدور الأقلية النافعة والمزعجة في آنٍ واحدٍ . فما كان ليخطر ببال أيِّ عبقريٍّ في القرن السابع الميلادي أن يفكر بكلٍّ هذا وينفذه بهذه الطريقة المحكمة . ودليلي على ذلك أن الرسالة الإسرائيلية لم تأخذ حقّها من الدراسة . ولم يقدمها أي مفكرٍ أو مفسرٍ برؤية نافعةٍ موحيةٍ للأمة ؛ مما يدل أن وضعها في موقعها مع ما تحقّقه من تصوراتٍ إنما هي فوق مستوى العقل العربيّ باعتبار زمن التنزيل ومكانه . دون أن ننسى أنها قامت بواجبها بمخاطبة بني إسرائيل يوم نزولها محاولةً ردهم إلى الله .

ونصل المحطة الأخيرة والمقصودة من القرآن كلّه . وهي الأمة المخاطبة بالقرآن . فتواجهنا الآية (١٢٤) باختيار إمام للأمة ، هو أبوها إبراهيم ، لتقتدي به . تليها آيةٌ

عن البيت العتيق لتلتف الأمةُ حوله وتتجهَ إليه في صلاتها وتؤدي فيه وحوله حجّها ، ويكون ملجأً آمنا للمظلوم والمطارد من أبنائها .

وكي لا تضيع الأمةُ بالأوهام تأتي الآيات (٦٥-٦٨) من سورة آل عمـران لتـبين موقع إبراهيم من سلالتيه . وأنه كان رسـولاً للعـرب فقـط بالحنيفيَّـة . وأن الحنيفيَّـة أُوتيت للعرب قبل أن يكون لبني إسرائيل يهوديـةٌ أو نصـرانيةٌ . ويـدرك الإنسـان في هذا الزَّمن أهمية هذه الآيات في إيضاح العلاقة بين الأديان الثَّلاثة . فمعظم سوء فهم الناس للإسلام ولموقعه بـين الأديـان السـماوية سـببه عـدم فهمهـم لهـذه الآيـات مـن سورتي البقرة وآل عمران .

ثم تواجهنا الآية (١٥١) بالعهد الجديد للأمـة وبرسـولها الجديـد ، وتطلـب مـن المسلمين بخطابٍ مباشرٍ ذِكرَ الله وشكرَه على هذه النعمة الكبيرة . وبعـدها مباشـرةً يبدأُ حديث العبادات التيٍ يُعِدُّ الله بها الأمة للحياة والـذِّكر الحسـن . والعبـادات الـتي فرضها الله على الأمة لتحيا بها وتواصل بها حياتها في رضا الله هـي الصَّـلاة والزَّكـاة والصِّيام والحجّ . ويأتي ذكر العبادات في سور القرآن اللاحقة ليزداد أمرُها وضوحاً.

وتتحدث السُّورة عن القتال حديثاً معجزاً . فقد ذُكِرَ القتالُ فيها ثلاث مراتٍ غـيرِ متصلات . وفي كلّ مرةٍ تُلخِّص السُّورة مجموعةً من الآيات تَظهر في سورةٍ لاحقةٍ . وكان يجب فهم أمر الجهاد في الإسلام على ضـوء هـذا ، بالإضـافة إلى مـا تتعـارف عليه الأمم في علاقاتها وضرورات الحياة الكريمة .

فالمجموعة الأولى (١٥٤-١٥٧) تشير إلى ما تعرض سورة آل عمـران (١٢١-١٨٠) من أحداث معركة أحد . ومع أن في السُّورة إشارة خفيفـة لغـزوة بـدر وهـي سابقة زمناً لأُحد . ولو كان مجرد التسجيل هو الهدف لذكر أحداث القتـال ، لبـدأت المقدمة بما يخص غزوة بدر . لكنها مقدمة لكتاب إحياء أمة . فتذكر ما يلزم لهدفها عندما يلزم .

والمجموعة الثَّانية هي الآيات (١٩٠-١٩٧) يقابلها وبنفس الأجواء ما يـأتي في سورة النساء (٧٤-١٠٤) .

والمجموعة الثَّالثَّة هي الآيات (٢١٦-٢١٨) وهي تقـود أوامـر القتـال في سـورة التَّوبة التي أُنزلت لاسترجاع الأمة وتوحيدها ؛ كما سنثبت عند دراسة سورة التَّوبة .

ولأحكام الطعام دور في البقرة . وذكر الطعام حلالِه وحرامِه مرحلةٌ متطورةٌ من الدين ؛ ونعمة كبرى من الله لم يحظ بها إلا قليل من الأمم . فوردت مقدمة أحكام الطعام في الآيات (١٦٨-١٧٣) من سورة البقرة ليأتي تفصيلها في سورة المائدة . يتبعها مزيدٌ من التفصيلات في سورتي الأنعام والنحل .

والحفاظ على حياة الإنسان من أولويات كتاب يتنزل لصنع أمة . فكان له في المقدمة نصيبٌ . فجاءت الآية الأولى منه لمعالجة أكبر أسباب القتل والقتال عند العرب وهو القتال الجماعي . وذلك بالآيتين (١٧٨-١٧٩) . لتؤدي سورٌ لاحقةٌ تفصيلاتِ عقوبة قتل الإنسان .

ولا بد للمجتمع من أحكامٍ لتوزيع تركة الميت فهي أكبر مصادر الدخل في بيئة قليلة الموارد . وتعرضها سورة البقرة (١٨٠-١٨٢) من أكثر جوانبها حرجاً وهي الوصية . التي غالباً ما تتعارض مع رغبة الوارثين . ولكنها تراعي التكوين النفسي لصاحب الثَّروة . وتأتي أحكام المواريث بتفصيلاتها الدقيقة في سورة النساء .

ومواضيع الخمر والميسر بما تُسبِّبُه للمجتمع من إحراج وما تعالج به من مشكلاتٍ تُعرَض هنا تحت عنوان الاعتدال في السلوك وتجنب السرف (٢١٩) . ومع التفكير بصياغة الآية وفهمها على ضوء ذلك نجدها مقدمةً لكلّ آيات تحريم الخمر والميسر في القرآن ؛ ومُوجَّهةً لفهم ما اشتبه على الناس بشأن آيات سورة المائدة (٩٠-٩٣) . والنحل (٦٧) .

وفي مجتمعٍ فقيرٍ شحيح المصادر تتهاوى قيمةُ الإنسان المجرد ؛ ويصير للمال قدرٌ أعظمُ من الإنسان . فكيف إذا كان الإنسان يتيماً ومالُه سهلُ المنال على يد كفيله؟ ولا تستطيع قوانينُ المجتمع حمايتَه حتى لو علمت بمعاناته ؛ فهو من أضعف حلقات المجتمع وأكثرها هشاشة . لذلك تأتي آيةٌ ملحقةٌ بآية الاعتدال لتوقظ ضمير الكفيل وتذكره بعذاب الله إذا لم يُحسِن كفالة يتيمه (٢٢٠) . ثم نراجع ما ورد في القرآن عن حماية أموال اليتيم فنجدها جميعاً تميل لتهديد من يعتدي ولا تكتفي بالتشريع والنصح والوعظ . وفي كلّ منها نرى ملامح من آية سورة البقرة (٢٢٠) .

والأسرةُ وحدة بناء المجتمع لذلك كان لها حضورٌ ظاهرٌ في السُّورة المقدمة مسايَرةً لاهتمام القرآن بها . ويبدأ الموضوع بالآية (٢٢١) التي تنهى عن البداية

الخاطئة ببناء الأسرة واختيار شريك الحياة . وتَنْهَى الآياتُ (٢٢٢-٢٢٣) عن الممارسات الخاطئة في الاتصال الجسدي بين الزّوجين . ولأن المجتمع بأعرافه وقوانينه لا يستطيع التدخل في هذا الأمر فقد ذَكَّرَت الآياتُ الرجلَ أن له بناتٍ سيتزوَّجن يوماً ؛ فليُقدِّم لنفسه ؛ ولْيعامل امرأتَه كما يرضى لبناته منها .

وانفصام عرى الزّوجية بالطلاق قد يحدث . فلا يُترك بلا قيود . فتسبقنا الآيات (٢٢٦-٢٤٢) لتعرض كثيراً من أحكام الطلاق وما يتنج عنه ، وما يلزم لحماية أطفال الأسرة المنفصمة . لِيَردَ تفصيلُها في سورتي الأحزاب والطلاق .

ثم يرد موضوعٌ مُشرِقُ الدلالة على أن البقرةَ مقدمةُ كتابٍ أُنزِلَ ليُحيي أمةً . فتتضمن الآيات (٢٤٣-٢٥٢) سنة الله في إحياء الأمم التي فقدت مقومات الحياة العزيزة الكريمة . وتتفق هذه الفقرة مع أحدث ما وصلته الخبرة البشرية بفهم حركة التاريخ البشري .

وقبيل الختام تواجهنا توصياتٌ اقتصاديةٌ هامةٌ تنظم العلاقات المالية في المجتمع . وتُعرض كلّها بعلم الخبير بالنفس البشرية . فتبدأ بالدعوة للنفقة في سبيل الله (٢٦١-٢٧٤) . وهذه قاعدة السلامة الاقتصادية في المجتمع .

وتليها آيات تحريم الربا (٢٧٥-٢٨١) . ثم يَرِدُ موضوعُ توثيق الدين (٢٨٢-٢٨٣) بما يلزمه من شروطٍ قانونيةٍ ، لا تختلف عما توصلت إليه الخبرة البشرية في هذا الزَّمن .

وتُختَمُ السُّورة بتعظيم الله تعالى لتعليمنا كيفية عبادته وتسبيحه ودعائه .

وبذا تأتي خاتمةُ السُّورة استجابةً مباشرةً لافتتاحيتها إذ وصفت القرآن بأنه هدى للمتقين. وهي تقدم هنا النبيّ والمؤمنين معه كأُنموذجٍ للمتقين في الآية قبل الأخيرة. وتُذكِّرنا أواخرُ سورة البقرة بالسور الأخيرة من القرآن . فهل وصل عمل بشري هذا المستوى من الإتقان؟

ولا ننسى أنها نزلت في بداية العهد المدني . ومع هذا لخصت ما نزل قبلها وما جاء بعدها وبترتيبٍ قريبٍ من ترتيب سُوَر القرآن . مما يدل على أن القرآن كان جاهزاً بوضعه النهائيِّ قبل تكليف النبيّ بالرسالة . بل قبل خلق السموات والأرض . وإنما كان يتنزل حسب المناسبات التي علمها الله تعالى سلفاً ووظفها في تهذيب الأمة وتعليمها وتزكيتها .

وكان بإمكاننا الاكتفاءُ بهذه المقدمة عن السُّورة . لكن لأن الموضوع جديدٌ ولن يكون الاقتناع به سهلاً . لذلك نواصل فيما يلي تفصيل ما أوجزناه من أمر السُّورة . بل نحللها آيةً آيةً كي لا يبقى لمتمحل حجّةٌ . ونظراً لكبر السُّورة سنكتفي بذكر أرقام الآيات حيث تكفي توفيراً لوقت القارئ .

ونبدأ بالاسم : فهي البقرة ، وكمعظم سور القرآن يأتي اسمها مماثلاً لكلمة واردةٍ فيها . وكلمة البقرة وردت في الآية (٦٧) حيث قصةُ بقرة بني إسرائيل التي أمرهم الله بذبحها ، لتكشف لهم سرَّ قتيلٍ قتلوه وادَّارءوا في قاتله .

وكلمة بقرةٍ في ذاتها ليست بعيدةً عن معنى مقدمة العلم أو مفتتحِ كتابٍ خُصص لأفضل العلم وأشرفه . جاء في مقاييس اللغة : « التبقر التَّوسع والتفتح » وفي لسان العرب : « أصل البقْر الشق والفتح والتَّوسعة ، والتبقر التَّوسع في العلم والمال وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين الباقر لأنه بقَر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه ».

فهي (البقْر بسكون القاف) تعني شقًّا أو فتحاً . وعندما تكون اسماً لفصل من كتاب فلا بد أنها بدايته وفاتحته والأكثر توسعاً في موضوعه . ويأتي التشابه بين خصائص الاسم كما تبينه معاجم اللغة وبين معناه ومفعوله في قصة البقرة ، إعجازاً لم يعرف العرب مثله قبله ولا وصلوا مستواه في صناعة الأدب حتى اليوم .

ومما جاء في مقاييس اللغة تحت مادة « بقر » يقول : بقر ، {الباء والقاف والراء أصلان ، وذلك البقر(الحيوان المعروف) والأصل الثَّاني التَّوسع في الشيء وفتح الشيء} . وجاءت قصة البقرة وِفقاً للأصل الأول . واشتُق اسم السُّورة من الأصل الثَّاني . وهذا هو الغالب على منهج القرآن في تسمية سوره . ونعود إلى البقرة كعنوان للسورة الأولى في القرآن فهي تعنى الشق أو الفتحة التي ندخل منها إلى القرآن الكريم .

مواصفاتها الشكلية تعادل البقرة عُشر القرآن حجماً . وهذا هو الحجم المناسب للمقدمةِ المستوفية لشروطها حجماً . ففي المقدمة يجب إعطاءُ فكرةٍ كاملةٍ عن الكتاب . ولا يمكن تعريفُ كتاب ، وتلخيصُه تلخيصاً يبرز معالِمَه الرئيسية ، ويعطي فكرةً واضحةً ومختصرةً عنه ، ويوجِّهُه ، بأقل من مثل عُشر حجمه ، خصوصاً إذا كان موضوعُ الكتاب تطويرَ مجتمعٍ وتغييرَه نحو الأفضل تغييراً شاملاً

لكلّ مناحي حياته . وإذا أخرجنا سورة البقرة من القرآن وقارنَّاها حجماً ببقيته وجدنا أنها تعادل عُشر حجمه تماماً .

الموضوع : تتفق مراجع فن الكتابة على أن وظيفةَ المقدمةِ التعريفُ بالكتاب وتبريرُ ظهوره وتلخيصُه وإعطاءُ تصورٍ موجزٍ عنه وفقَ ترتيبٍ معين ، بحيث تغني عن قراءته للقارئ المتعجل . كما تعمقُ رسالةً الكتاب وتوجه القارئ إلى الهدف منه ، كي لا يضيع بين الاحتمالات التي قد يتيحها النص . فهل ينطبق هذا على سورة البقرة ؟ وهل تتحقّق بها شروط المقدمة المناسبة للقرآن الكريم؟ سنرى فيما يلي .

الكتاب ورسالته والمستهدفون به :

نبدأ مع السُّورة من بدايتها لنرى هل تُحقّق شروط المقدمة وكيف تحقّقها؟

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١،٢) : أما الآية الأولى (ألم) فلا يعرف معناها على وجه اليقين أحد من البشر . وربّما تكون وأمثالها علامةً أو آيةً لمرحلة أخرى من الهداية بالقرآن لم يأت أوانُها بعد .

وأما الآية الثَّانية : فقد بلغت قمة الإعجاز باعتبار دورها في مقدمة القرآن ووفق أعلى مواصفات الكتابة المعاصرة . فهي منذ كلمتها الأولى تقدم القرآنَ على أنه كتابٌ ، ثم تصفه بحزمٍ يليق بجلاله على أنه فوق الشبهات فلا ريب فيه . ثم تصف وظيفته بأنه كتابُ هدايةٍ . وهذه هي أهم وظائف المقدمة : التعريف بالكتاب الذي تقدم له وإظهار رسالته أو الهدف منه . فهل عرفت البشرية مذ بدأت تأليفَ الكتب حتى يومنا هذا ، مقدمة نجحت في التعريف بكتابها بهذه القوّة ، والوضوح ، ومنذ جملتها الأولى كما فعلت هذه الآية العظيمة؟ وتُحدد الآية المستهدفين بالكتاب الذين يستحقّون أنواره وهم المتقون .

فرسالة القرآن هي الهدى . ويجب أن توضَع هذه الحقيقةُ في الاعتبار عند تفسير كلّ آيةٍ في كتاب الله . والهدى للمتقين المخاطبين بلغة القرآن . والمتقون كما أفهم من مقارنة ورود الكلمة في القرآن وفي الشعر الجاهلي هم المهذبون الذين قطعوا شوطاً ما على طريق التقدم والتمدن مقارنةً مع الجيل الذي يعيشون معه من قومهم . وهم حسب السُّورة : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (البقرة:٣-٥)

وصفات المتقين هنا تُعرض قبل صفات فئتين لاحقتين هما «الذين كفروا» وغيرُ المعنيين بالهدى . ولم يسمهم منافقين بل قال إنهم من الناس . وهذا العرض والتقسيم هو الذي جعل بعض المفسرين يرى فيه تقسيماً للناس من زاوية الإيمان والكفر . ومن الطبيعي أن يرد مثل هذا التقسيم قي مقدمة كتاب أُنزل هدًى للأمة ؛ ليعرف كلّ مكانه من الكتاب ، فيرضى به أو يسعى لتغييره . وفي الآيتين (٦-٧) وصف الذين كفروا . وفي الآيات (٨-٢٠) وصف غير المعنيين بالهدى القرآني والإيمان عموماً وهم العامة .

عقيدة التَّوحيد : الآيتان (٢١-٢٢) موجهتان للمتقين من الناس ليعبدوا الله خالقهم ، وتُذكِّران بفضل الله عليهم ليوحدوه ويعبدوه . وهذا يتماشى مع فكرة المقدمة . فتوحيد الله وعبادته جوهر الدين الذي جاء به القرآن . فكان جديراً أن يكون أول الأركان ذكراً .

النبيّ والقرآن : بعد الحديث عن توحيد الله وأحقّيته بالعبادة تأتي الآيات (٢٣-٢٥) لتؤكد الركيزة الثَّانية في الدين وهي صدق نبوة رسول الله من زاوية إثبات الأصل السماوي للقرآن وتحدي المخاطبين أن يأتوا بمثله . ومرة أخرى نلفت النظر إلى أسلوب السُّورة المقدمة بتوظيف المعلومات بطريقة مختلفة عن بقية القرآن . فطبيعة المقدمة الجيدة أن تقدم أكبر قدر من المعلومات بأقل قدر من الكلمات . فالتحدي بإعجاز القرآن هنا جاء متحداً بصدق نبوة النبيّ . ومع التحدي تذكر الآيات مصائر الناس على ضوء تفاعلهم مع التحدي . وهي مقدمةٌ لكلّ ما ورد في القرآن حول إعجاز القرآن ووظيفة النبيّ .

سنة القبول والرفض : تبين السُّورة بالآيات (٢٦-٢٩) منهجَ الله في هداية أناس وإغلاقِ باب الهدى في وجوه آخرين بناء على سنةٍ محكمةٍ . وهذا امتدادٌ وتوضيحٌ لموضوعِ الآية الثَّانية من السُّورة ويلخص عشرات المواقف القرآنية اللاحقة . فهو سبحانه يهدي من يشاء ويحرم من الهدى من لا يستحقّ بناء على ما قدم من عملٍ . ودار حول هذا الموضوع نقاشاتٌ كثيرةٌ في القرون الماضية ، وتأسست عليه مذاهبُ وطوائف كالجبرية والقدرية وسواهما .

قصة خلق آدم وخطيئته :

وفي مقدمة كتاب جاء لهداية الإنسان لا بد أن ترد قصة خلق آدم ، الأب الأعلى

للبشرية كلّها (الآيات ٣٠-٣٩) وما واجه ظهورَه كمخلوق جديد من تحدياتٍ وعداوات . ليزرع الله في فطرته معالمَ الهداية والصعود ، ويحذره أسباب السقوط والانحدار . وتُكرس إبليس عدواً لآدم ولذريته من بعده . فهو الذي أغواه بالأكل من الشجرة المحرمة . وما زال يُغوِي ذريته بنفس الطريقة .

وترد قصة خلق آدم هنا بما يناسب ذكرها الأول في القرآن . وكمقدمة لذكرها تالياً في القرآن عشر مراتٍ متباينة الطول والتفاصيل . ففي كلّ مرة تذكر من زاوية أطروحة السُّورة التي وردت فيها . ولكنها هنا المثال الأصلي للقصة . وكلمة أخيرة عن القصة فهي هنا موجهةٌ للعرب بصفتهم أمةً من بني آدم . فهي معنيةٌ بالجزء المشترك بين اهل العربيَّة وبين بقية البشر .

رسالة إلى بني إسرائيل :

ثم تنتقل بنا السُّورة إلى قصة بني إسرائيل تعرضها على مدى ٨٠ آيةً أو تزيد منذ الآية ٤٠ . وفي أسلوب عرض الرسالة الإسرائيلية هنا أكثر من معجزةٍ ولا يقدر على أيٍّ من معجزاتها إلا اللهُ تعالى . ونعلم أهمية وجود هذه الرسالة في مقدمة القرآن عندما ندرك دور بني إسرائيل في حياة العرب بعد الإسلام . وخصائص الرسالة هي :

١- تأتي الرسالة بعد قصة الخلق مباشرة . ومن أبرز معالم قصة الخلق التحذيرُ من إبليس كعدوّ للبشر . وهذا جزء من منهج الله تعالى في تطوير الإنسان كما أنه ركنٌ من أركان بلائه . ثم تأتي قصة بني إسرائيل الذين يُعمِّقون دور إبليس بالنسبة للعرب المسلمين . فهم جزءٌ من منهج الله في صنع مستقبل الأمة . ويقومون بهذا الدور بصفتهم اقليةً نموذجية زمن نزول القرآن .

٢- خاطبت الرسالةُ بني إسرائيل بنداءٍ مباشرٍ . وهذا تكريمٌ لهم . وذكَّرتْهم الرسالة بفضل الله عليهم وأيامِه معهم . وذَكَرتْ فئاتِهم المقبولةِ عند الله وهم : من آمن منهم على نهج النُبُوَّة قبل التَّوراة ثم اليهود والنصارى منهم والصابئون ؛ وهم الذين اتبعوا يحيى من بني إسرائيل (الآية ٦٢) . دون أن تنسى مواطنَ إخفاقهم في التعامل مع الله . كلّ ذلك بأسلوبٍ رحيمٍ حافزٍ للعودة إلى الله . ودون أن يلفتَ ذلك انتباه أتباع الدين الجديد فيؤثرَ عليهم سلباً أو يضعف علاقتهم بدينهم . ولا يقدر بشر على صنع هذا التَّوازن الذي خفي حتى على علماء الأمة .

فلم يروا في الرسالة إلا إخفاقات بني إسرائيل! ولتؤدي كلّ أغراضها تتكلّم الرسالةُ على مستويين لتعليم الأمة أن إيمانَ بني إسرائيل وقبولَهم عند الله لا يعني أنهم صاروا ملائكةً لا يَحسُدون ولا يمكرون فاحذروهم . فكان هذا درساً عظيماً في علم نفس الشعوب . وليعلم العرب ، بين يدي نهضتهم ، حدود العلاقةِ مع الآخر حتى لو كان صالحاً ومقبولاً عند الله . فللمصالح على مستوى الأمة اعتباراتٌ أخرى غيرُ الإيمان والصلاح .

٣- تلخص الرسالةُ معظم ما ورد عن بني إسرائيل في القرآن منذ آل عمران حتى سورة سبأ وبترتيبٍ قريبٍ من ترتيب ذكرهم في القرآن . ومع الترتيب عاملٌ آخر هو الزَّمن الإسرائيلي . فنجد أوامر بالصَّلاة والزَّكاة مثلا في بدايات الرسالة بصيغة الخطاب المباشر . ثم تأتي آياتٌ أخرى في أواخر الرسالة بنفس الأوامر لكن تتحدث عنهم بصيغة الغائب لتخبرنا أنها تشير إلى زمن انحطاط بني إسرائيل ؛ بينما يشير الخطاب المباشر إلى زمن نهضةٍ ونجاحٍ وقريبٍ من عهدهم بموسى .

وفيما يلي تفصيل ذلك ، لكنا سنستثني الآياتِ الموجهةَ للمؤمنين تعقيباً على ما في الرسالة :

﴿ يَبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠)

- هذه هي الآية الأولى في الرسالة وهي تخاطبهم مباشرةً باسمهم . والخطاب المباشر من الله يدل على منزلة عالية للمخاطَب عنده سبحانه . فلعل الخطابَ المباشر لبني إسرائيل وتذكيرَهم بأيام الله معهم يُلِين قلوبهم ، أو يستحون من الله ولا يغلب عليهم الحسد والعداوة للدين الجديد ولنبيه .

- وفي الآيتين الثَّانية والثَّالثَّة (٤١-٤٢) من الرسالة **﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾** (البقرة: ٤١،٤٢) يدعوهم للإيمان بالدين الجديد الذي يُصدِّقُ ما معهم من دينٍ وأن لا يكونوا حجر عثرةٍ في طريقه ، ولا يستغلوا معرفتهم السابقة بأمور الدين ليفتنوا الناس عن اتّباع النبيّ . ونجد نفس الدعوة لهم في سورة آل عمران وبنفس المفردات تقريباً .

يقول تعالى في آل عمران (٦٩- ٧٨) : ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٩-٧٨)

والتشابه واضحٌ بين آيات آل عمران ومُلخصِها في السُّورة المقدمة وآيات آل عمران أكثر توضيحاً وعزت سلوك أهل الكتاب إلى الحسد بوضوح . وهكذا تكون العلاقة بين ما يرد في المقدمة وبين ما يُفَصِّله في الكتاب .

- الآيات (٤٣-٤٦) من الرسالة الإسرائيلية تأمرهم بإقامة الصَّلاة وتنهاهم عن عصيان أوامر التَّوراة التي يعلمونها بل يعظون قومهم بها. ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة:٤٣-٤٦)

وفي هذه الآيات تكريمٌ للقائمين على أمر الدين منهم ، فالله سبحانه إنما يأمر بالصَّلاة من يرضى من عباده ومن يستحقّ أن يتلقى أوامر الله . ونفس هذه الأجواء نجدها في سورة المائدة . ولكن ذكر بني إسرائيل والخطاب الموجه إليهم في المائدة واسعٌ ومتعددُ المواضيع وإن كان يبدأ بالدعوة إلى إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة

وطاعة رسل الله إليهم (المائدة:١٢) .وتختتم الآية (١٣) من المائدة بدعوة النبيّ أن يعفو عن خياناتهم .

- الآيات (٤٧-٦٦) من البقرة تُذكِّر القوم بنعمه عليهم . يقابلها الآيات (١٠٣-١٧١) من سورة الأعراف فكلا الفقرتين تذكر معظم الأحداث البارزة في حياة بني إسرائيل . ولكنها مذكورة بتفصيلٍ أكبر في سورة الأعراف . حيث تكاد تتكرر نفس الآيات وبنفس المفردات :

وإذا إخذنا الأحداث فرادى نجد كلّ واحدٍ منها مذكوراً في أكثر من سورة . فمثلا تظهر قصتهم مع فرعون في أكثر من عشر سور . ولو استعرضنا ذكر حرمة السبت لوجدناها تُذكَرُ أربع مرات بعد سورة البقرة . وحادثة مسخهم قردة تظهر في القرآن ثلاث مرات عدا البقرة . وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الأحداث التي استعرضناها حتى الآن من الرسالة الإسرائيلية . وهذا من خصائص المقدمة . فهي كما أسلفنا تلخص عادةً ما يرد في الكتاب الذي تقدم له . ولم نورد آيات الأعراف (١٠٣-١٧١) لطولها آملين أن يعود إليها القارئ في المصحف الشريف .

ومنذ بداية الرسالة حتى الآية (٦٦) كان الخطاب مباشراً إلى بني إسرائيل . وبعدها ، حيث قصةُ البقرة تحول معظم الحديث عن بني إسرائيل إلى صيغة الغائب.

- الآيات (٦٧-٧٣) وهي قصة البقرة . ولم ترد إلاَّ في المقدمة . ولم تتكرر بعينها . وهي قصةُ خارقةٌ ولا يبدو أنها يمكن أن تحدث مع غير بني إسرائيل لخصوصية نشأتهم ومكانتهم عند الله على عهد موسى .

من جهةٍ أخرى وصلنا سورة الأعراف مقابل الآيات (٤٧-٦٦) . وبعد الأعراف لا يرد ذكر هامٌ لبني إسرائيل حتى سورة يوسف؟ فهل تقابل قصة البقرة أجواء سورة يوسف؟ نعم هناك شبهٌ ما . فالبقرة معجزةٌ إلهية جعلها الله ليكشف بها قاتل رجل بريء قتله قومه . وفي قصة يوسف الذي هَمَّ إخوته بقتله ييسر الله سبحانه عدداً من الموافقات ليبرئ يوسف من تهمة الاعتداء على امرأة العزيز . لكن منام البقرات السبع كان مفتاحَ الخروج من السجن ثم البراءة التامة ليوسف من التحرش بامرأة العزيز .

- الآية (٧٤) من سورة البقرة تختم هذه الجولة من الرسالة الإسرائيلية قائلة : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (البقرة:٧٤) . وبالمقابل وصفت قسوة قلوبهم كثيراً بعد هذه الآية .
- الآيات (٧٥-٨٢) موجّهة للمؤمنين من أتباع النبيّ تحذرهم من مكر اليهود وتصف نفاقهم ومداهنتهم للمسلمين . وتنزع صفة العلم الحقيقي عن غالبيتهم ؛ كي لا يتخذهم المسلمون مرجعاً موثوقاً إلا الصادقين منهم . ونجد معاني هذه الآيات مفرقةً في سورأخرى من القرآن الكريم لكن ظهورها في سور القرآن لم يأت متتابعاً كبقية آيات الرسالة الإسرائيلية .
- الآيات (٨٣-٨٦) تذكرهم بمرحلةٍ مختلفةٍ عما سبق . تقول الآيات الكريمات : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ (البقرة:٨٣-٨٦)

نلاحظ هنا دعوةً لأمور معظمها فرديٌّ حتى لو جاءت بصيغة الأمر الجماعي ، كالإحسان للوالدين والصَّدقة والصَّلاة . وهي تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ ما يوجِّهه القرآن للعرب في سورة الإسراء بالآيات (٨-٣٩) ويُختَم بقوله تعالى ﴿ . . . **ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ** . . . ﴾ . فهي من النصائح التي توجّه لأمّةٍ في حال انهيار نظامها وتفكّكها . فتكون الحكمة أقل ما يرضاه لهم تمهيداً لعودتهم إلى كتابهم . ومما يستحقّ الملاحظة هنا أن الخطاب ليس مباشراً إلا ما كان منه للتقريع . بينما

صيغت الآية الأولى (٨٣) برشاقةٍ حتى ليحسبها القارئ المتعجِّل خطاباً مباشراً وليست كذلك .

وتقابل هذه الآيات سورة الإسراء حسب الترتيب الذي نتابعه هنا . فلعلها تشير إلى مرحلةٍ من حياة بني إسرائيل مماثلةٍ لحياة العرب وهم يتلقون تبكيت سورة الإسراء التي تشير إلى قيام دولة إسرائيل الحالية في جيرة الأقصى . حيث كان بنو إسرائيل قد وقعوا تحت حكم الغرباء وأُخرجوا من ديار كانت لهم مع نهاية دولتهم الأولى . وانتشرت بينهم الفتن الداخلية وصار بعضُهم يقتل بعضاً ويأسر بعضُهم بعضاً . ويأتي حالهم هذا مقدمةً لما تصف سورة مريم من سوء أوضاعهم ، ويتفق هذا مع تسلسل تاريخ بني إسرائيل تماماً .

- الآيتان (٨٧، ٨٨) تختتمان تاريخهم الذي بدأه موسى برسل لم تذكرهم لتصل مرحلة المسيح ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (البقرة:٨٧،٨٨) .

ونتابع مسيرنا مع القرآن لنجد هاتين الآيتين تقابلان سورة مريم . فهي أول سورةٍ يرد فيها ذكر بني إسرائيل بعد الإسراء . وتبدأ سورةُ مريم بوصف حالة بني إسرائيل من خلال دعاء زكريا وشكواه إلى ربّه مما آل إليه حال بني إسرائيل . وحسب قوله الذي سجّله القرآن الكريم لم يبق في بني إسرائيل شخصٌ واحدٌ يُؤتمن على دين الأمة . وذلك بعد أن أسفر ميلاد امرأة عمران عن أنثى هي مريم . فتبشره الملائكة بميلاد ولده يحيى . ونتذكر أن حال بني إسرائيل منذ السبي الأكبر الذي أنهى دولتهم الأولى حتى ظهور المسيح كان في تراجع دينيّ وخلقيّ وسياسيّ ؛ فالمسيح بُعث وهم تحت حكم الغرباء . وبذا تساير الآيات تاريخ القوم وتسلسل ذكرهم في القرآن معاً .

ثم تتحدث السُّورة عن ميلاد عيسى ابن مريم وما رافق ذلك من معاناةٍ ومعجزاتٍ . ومن لغطٍ غير لائقٍ من بني إسرائيل بحقّ مريم . وكان زكريا من الأنبياء الذين قتلهم بنو إسرائيل بعد أن اتهموه بالفاحشة وافتروا عليه مع مريم . وهذا يشبه ختام الآية (٨٧) المذكورة سابقًا .

- الآيات (٨٩-٩١) تعرض موقف بني إسرائيل من الإسلام والقرآن والنبيّ . ولأنه موضوع حي فلم يتبع نفس الترتيب الذي ورد مقابل آيات الرسالة الإسرائيلية . ومع هذا يظهر هذا المعنى في أكثر من سورة .

- الآيتان (٩٢-٩٣) : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٩٢،٩٣). ورد تفصيلٌ واسعٌ لهما في سورة طه التي اتسعت لأكثر منهما بقصة موسى وقومه . أي أنّهما في موقعهما من ترتيب ذكر بني إسرائيل في القرآن .

- الآيات (٩٤-١٠١) فيها رد على ما يدافع به بنو إسرائيل عن مواقفهم تجاه النبيّ ومعاداتهم للنبيِّ ولجبريل . وكان هذا موضوعاً حيًّا فلا مقابل له من تاريخ بني إسرائيل قبل القرآن ولا يلزم تكراره بعين الأحداث فهو أقرب للنقاش الفكري .

- الآيتان (١٠٢-١٠٣) : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة:١٠٢،١٠٣)

وقصة تسخير الجن لسليمان مذكورةٌ بتفصيلٍ أكبر في سورتي النَّمل وسبأ .

وبعد هذا تستمر الآيات بوصف مواقف بني إسرائيل يهوداً ونصارى من النبيّ والقرآن والإسلام . وما من آيةٍ هنا إلا لها نظيرٌ في سور القرآن بعد البقرة ، دون أن تتبع الترتيب المقابل للرسالة الإسرائيلية بل هي كبقية الآيات التي تعرض موقفهم من النبيّ والإسلام .

وهكذا نتأكد أن الرسالة الإسرائيلية تلخص كلّ ما ورد عن بني إسرائيل في القرآن وبنفس الترتيب تقريباً . كما تفعل المقدمة المتقنة الأمينة . وتأتي دليلاً على

أن ترتيب سور القرآن هو من عند الله ، وأنه كما شاء الله حفظه لم يتدخل به بشر . كما تساير تسلسل تاريخ بني إسرائيل في نفس الوقت . فهل يمكن أن يصدر هذا عن أميٍّ عربيٍّ في ذلك الزَّمن . فإن افترى مُفتر وقال نقله محمدٌ عن اليهود . فهل يعترف اليهود بمضمون هذه الفقرة كلّه أو يسجلونه في كتبهم؟ بل هو من عند الله العليم .

رعاية الأمة الجديدة :

في بقية السُّورة تلخيصٌ للقرآن كلّه بما يخدم رسالة القرآن الأساسيَّة ؛ ويُوجِّه دارسَ القرآن للمهمة التي أنزل من أجلها . ويندُرُ أن يكون في هذا الجزء من السُّورة موضوعٌ ليس له امتدادٌ أو تفصيلٌ أو مجرد ذكرٍ في بقية القرآن . تماماً كما يجب أن تكون المقدمة . ويعرض هذا الجزء من السُّورة نشوء الأمة العربيَّة الحديثة منذ أبيها إبراهيم وبناء بيتها العتيق الذي يجمعها في كلّ الظروف . ثم يَذكُر للأمة أركان دينها الجديد وهو الإسلام ، انطلاقاً من أركان دينها السابق وهو الحنيفيَّة ، بتفاوتٍ من ركنٍ إلى آخر حسب التعديلات التي أُدخلت على الركن . ويهتم بما يُحيي الأمة بدينها الجديد ، ويضع لها قواعد حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، ويزودها بما يحفظها من عوامل الفساد والعدوّان . مما يؤكد أنها مقدمةٌ لكتاب يهدف لبناء أمةٍ ذات دولة . وفيما يلي الموضوعات الرئيسية للسورة وبيان تفصيلها في بقية القرآن وسنشير إلى هذا الجزء من السُّورة بالجزء العربي .

١- الأب والبيت :

بالآيتين (١٢٤-١٢٥) تبدأ قصة صنع الأمة المخاطبة بإعداد إبراهيم إماماً ورَفْعِ قواعد الكعبة ، بيت العرب العتيق . وهذا أوّل ما يلزم لإنشاء أمة : بيتٌ يتّجهون إليه وإمامٌ يقتدون به ويسيرون وراءه . يقول تعالى : ﴿ **وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ** ﴾

(البقرة:١٢٤،١٢٥)

الأب : هكذا كانت البداية . كان الشعب موجوداً على الأرض . وكان إبراهيم قد أصهر إلى أهل مكّة إذ تزوَّج ابنه إسماعيل من جرهم . القبيلة التي كانت تسكن

مكّة . وإسماعيل نشأ أصلاً بين أهل مكّة وأتقن لغتهم حتى سمي أبا الفصاحة . ولكن إبراهيم لم يكن يتكلّم العربيَّة بطلاقة ولده ولا بطلاقة أهل مكّة . وإن كان مذخوراً في قدر الله ليكون رسول الله إلى العرب بالحنيفيَّة . فاحتاج وقتاً ليتقن العربيَّة . وراقبه الله تعالى فلما أتقن لغة المخاطبين جعله إماماً لهم .

وتاه مفسرو القرآن بعيداً وباتجاهات شتّى في موضوع الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم . وقالوا ما لا يليق في تخمين الكلمات . ولم تكن سوى مفرداتٍ من اللغة لم يكن يعرفها إبراهيم فلما أتقنها بصحبة أهل مكّة استحقّ أن يكون رسولا لهم . لأنه حقّق الشرط الأخير لحمل رسالة السماء إليهم حسب ما جاء في سورة إبراهيم (٤) ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (إبراهيم:٤) .

ويَتبعُ هاتين الآيتين ستَ عشرة آيةً تتحدث عن إبراهيم وإسماعيل بدءاً من رفعهما قواعد البيت ودعائهما للأمة ، ورجائهما أن يرسل الله لها رسولاً منها بعد إسماعيل . .

وإنشاء الأمة الجديدة ابتداءً من إبراهيم يظهر كثيراً في القرآن الكريم . ففي سورة آل عمران تواصل الآيات (٦٥-٦٨) النقاش الذي يدور مع بني إسرائيل حول موقع إبراهيم من الأديان الثّلاثة . وتؤكد أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانيّاً بل حنيفاً مسلماً .

وقد ذُكِرَ إبراهيم في القرآن نحو سبعين مرةً . منها ثلاث عشرة مرةً في البقرة وحدها . وذُكِر الحادث الواحد من أحداث حياته أكثر من مرةٍ . ولكن سورة البقرة لم تلخص كلّ أحداث حياة إبراهيم كما فعلت مع بني إسرائيل . بل اكتفت بما يلزم ذكره من زاوية موضوع السُّورة . وهو إعداد إبراهيم ليكون رسول الله إلى العرب .

ولا نكران أن إبراهيم كان نبيّاً لكلّ ذريته وإنما اقتصرت رسوليته على العرب : ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (البقرة:١٣٢) والإسلام هنا بمعنى التَّوحيد وقد طلبه من كلّ أبنائه . لتكون ملةُ إبراهيم الحنيفيَّة لإسماعيل والعرب فقط : ﴿ **وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (البقرة:١٣٥)

ولم نستعرض كلّ آيات إعداد إبراهيم للنُبُوَّة والرسالة ، ولكن لو تأملنا ما ورد في القرآن عن إبراهيم مما لم يرد في البقرة لوجدناه من شئون إبراهيم التي لا تتصل بالعرب ولا بالحنيفيَّة كقصته مع قومه في العراق أو مع لوطٍ وقومه .

القِبلة (بيت الأمة) : تنتقل السُّورة المقدمة بالآيات (١٤٢-١٥٢) إلى موضوع القبلة وتخصيص كلّ قومٍ بقبلتهم ورسولهم ونقتبس منها ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٤٤-١٥٠)

وتبدو مسألةُ القبلة كما تعرضها الآيات مسألةً أساسيةً ، فهي جزءٌ من هويّة الأمة لا يجوز التهاون بها أو المساومة عليها . وتكررت الإشارة إلى الكعبة كقبلةٍ للعرب في سورة آل عمران (٩٦-٩٧) : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .
وعلى غير عادة المقدمة جاء ذكر البيت في البقرة أطول وأكثر تفصيلاً لأنه جاء تأصيلاً للموضوع وفي إطار الردِّ على شبهات أثارها بنو إسرائيل .

كما ورد ذكر البيت الحرام مرتين في سورة المائدة (٢ ، ٩٧) وفي سورة إبراهيم (٣٥-٣٧) . وأعيد ذكر بنائه بواسطة إبراهيم في سورة الحجّ (٢٦) . وذكر في نفس السُّورة مراتٍ أُخر كركنٍ من أركان الحجّ . وأقسم الله بقبلتنا في الطور (٥٢ : ٤) وذكرها في قريش (١٠٦:٣) . وبذا لم يخرج موضوع إبراهيم والبيت في البقرة عن تقاليد المقدمة إجمالاً .

العبادات :

الصَّلاة : وتنتقل الآية (١٥٣) إلى ركن العبادة الأول في الإسلام وهو الصَّلاة تقول : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ** ﴾ (البقرة:١٥٣) . فهو أمرٌ مباشرٌ بالصَّلاة . وورد ثانية في البقرة (٢٣٨) ﴿ **حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ** ﴾ (البقرة:٢٣٨) وذكرت الصَّلاة في القرآن أكثر من مائة مرةً . وفي البقرة كما في بقية القرآن لم تُذكر أركان الصَّلاة ولا شيءٌ من أحكامها أو طريقة أدائها . فهي العبادة الرئيسية في كلّ الأديان . وأهم أركانِها التَّوجُّه إلى الله بكلّ مكونات المصلي : روحِه وعقلِه وقلبِه وجسدِه . وهذا التَّوجه لا تُذكَرُ معه شروطٌ وأحكامٌ بل نيةٌ صادقةٌ وإقبالٌ حقيقي على الله . وكلمة صلاةٍ ليس لها معنًى سوى التَّوجه باستقامة نظرٍ وانجذاب حواسٍ وتعمد قلبٍ كحال الذي يَصلي ببندقيته على هدفٍ يحرص على إصابته . والدعاء أو القراءة فيها إنما هي لشغل وقتها بما يحبُّ المرء أن يخاطب به ربّه ويعبر به عن حبه له سبحانه وخضوعه لجلاله واستسلامه لإرادته ورضاه بقدره . وتأتي أوضاع الجسد فيها من ركوعٍ وسجودٍ إكمالا لحالة التَّوجه لله بخضوع . وهي استمرار لصلاة العرب كما قاموا بها في الحنيفيَّة .

الصِّيام : صدر الأمر به واكتملت أحكامه في سورة البقرة . وهو الركن الوحيد الذي جاء مفصّلاً هنا . وذكر مجرد ذكر في بقية سور القرآن . فقد تضمنت الآيات (١٨٣-١٨٧) كلّ أحكام الصِّيام وزيادة ، بحيث لا يحتاج المؤمن أن يسأل بعدها عن شيء . والصِّيام عبادة عربيَّة نزلت معظم أحكامها في الحنيفيَّة وكان المشركون يؤدونها حتى جاء الإسلام . وليس لها مقابلٌ يشبهها من جهة المدة والموعد وطريقة أدائها في أديان بني إسرائيل .

الحجّ : عُرِضَ موضوع الحجّ في السُّورة ثلاث مرات : الأولى : كان لبعض شعائر الحجّ أو أمكنته وذلك في الآية (١٥٨). تقول الآية ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:١٥٨) . وواضحٌ من الآية أن الصفا والمروة كانتا من شعائر الحجّ في الحنيفيَّة .

الثَّانية : في الآية (١٨٩) التي ذكرت الحجّ من زاوية الزَّمن عامةً ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة:١٨٩) .

وكان العرْض الثَّالثَّ لموضوع الحجّ في الآيات (١٩٦-٢٠٣) وتضمن معظم أركان الحجّ ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (البقرة:١٩٦-٢٠٣) .

ونصُّ الآية « وأفيضوا من حيث أفاض الناس » يؤكد أن هذه الإفاضة من أركان الحجّ في الحنيفيَّة فهي تعني أفيضوا من حيث كنتم تفيضون . فهو عبادةٌ عربيَّة أخرى لا مثيل لها في أديان بني إسرائيل .

وبذا تكون السُّورة قد عرضت موضوعَ الحجّ مكاناً وزماناً وشعائر . وكلّ ما ورد في القرآن عن الحجّ تبعٌ لهذه المواقف الثَّلاث . ففي آل عمران (٩٧) ذكر الحجّ

من زاوية البيت الحرام ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٧) .

وفي سورة الحجّ ذكر أكبر عددٍ من شعائر الحجّ .

الزَّكاة والصَّدقة : الزَّكاة هي الركن الثَّالثَّ في الإسلام (بعد الشهادتين والصَّلاة) وكان لها نصيبٌ من الذِّكر في سورة البقرة فهي من صفات المتقين الذين ينفقون مما رزقهم الله حسب تعبير الآية الثَّالثَّة من السُّورة . وكانت مع الصَّلاة أوَّلَ فرض أَمرت به السُّورة . وفي سورة التَّوبة (٥) ما يؤكد أنها كانت مفروضةً في الحنيفيَّة . تقول الآية (١١٠) ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ (البقرة:١١٠) . ثم أمرت بها الآية (١٧٧) مع الصَّلاة ومجموعة من قيم البر . وقد يرد الأمر بالزَّكاة بلفظ الصَّدقة أو مجرد الإنفاق في سبيل الله . واستوفيت أحكام الزَّكاة في سورة (التَّوبة:٦٠) حيث ذُكرت مصارف الزَّكاة .

وفي سورة البقرة يرد الأمر بالإنفاق بأسمائه الثَّلاثة (الزَّكاة والإنفاق والصَّدقة) . ففي الآية (١٩٥) التي تقع بين آية جهادٍ وآية حجّ يقول تعالى ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥) . فهي هنا الإنفاق للجهاد العام . تدفع لقيادة الأمة التي تعلن الجهاد وتبدأُه .

وما جاء في القرآن بعدها تبعٌ لها . وورد الأمر بالإنفاق في سبيل الله وبالزَّكاة أو بمدح الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله في سورٍ كثيرةٍ منها آلُ عمران والنساء والأنفال والتَّوبة والحجّ والنُّور والنَّمل والسَّجدة والشُّورى وسواها .

وتفرد السُّورة فقرة من أربع عشرة آيةً كلّها للإنفاق في سبيل الله على المحتاجين والفئات المحتاجة في المجتمع القريب ، وهي الآيات (٢٦١-٢٧٤) . وقد جعلت هذه الآيات قبل آيات الرّبا مباشرة . ونظراً لخصوصية هذه الفقرة وأهميتها في تكوين المجتمع سنفرد لها مساحةً خاصةً بها .

القتال : بعد أركان العبادة وقيام المجتمع بالتّكافل الاقتصادي يحتاج المجتمع إلى القوّة القتالية لتحميه من قوى الشر ؛ التي لا يخلو منها مجتمع بشري مهما بلغ من النضج . أو هذا هو وضع البشر حتى الآن . كما يحتاجها لحماية نفسه من الأعداء الخارجيين . ويندر أن يعيش مجتمعٌ دون عدوّ خارجي . وذكر القتال في

البقرة ثلاث مرات ذِكراً مباشراً كما هي العادة في آيات الأحكام . ومرةً رابعةً ضمن قصة تتحدث عن القتال دفاعاً عن الحقّ والكرامة كعلامةٍ على حيويَّة الأمة ؛ وسنفرد لها لاحقاً فقرةً مستقلة .

والمرات الثَّلاث التي ذكر بها القتال هي :

الأولى في الآيات (١٥٣-١٥٧) ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ** ﴾

(البقرة:١٥٣-١٥٧) .

والآيـة ﴿ **وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴾ (البقرة:١٥٤) تأتي ضمن باقةٍ من الآيات تأمر بالصَّبر والصَّلاة وتعد بتحديات الخوف والجوع وشحِّ الموارد الأساسيَّة للحياة . وشاء تعالى أن يبدأ ذكرَ القتال في القرآن بالشهادة التي هي أصعب ما في الحرب على النفس من وُجهة نظر الأحياء . فبشرتهم الآية بأن الذين يُقتلون في سبيل الله أحياءٌ وليسوا أمواتاً .

ونتقدم مع القرآن الكريم بحثاً عن آيات تشبه في أجوائها الذِّكر الأول للقتال ، فنجد أول ذكر للقتال في آل عمران يدور بالتفصيل حول معركة أُحُد . وهي معركة لم تنته بنصر الفئة المؤمنة وكان فيها شهداء كثرٌ وكان فيها حزن وتلاوم . ويبدأ ذكرها بالآية (١٢١). وفي تفصيلها للآية (١٥٤) من البقرة تقول الآيات ١٦٩-١٧٤ : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ (آل عمران:١٦٩-١٧٤)

وبذا نوقن أن الذِّكر الأول لموضوع القتال في سورة البقرة إنما هو تلخيصٌ لأول قصة قتال في آل عمران وهي قصة معركة أحد . وهذا يتماشى تماماً مع منطق المقدمة . ويؤكد الإرادة الإلهية المُتعمَّدة بعناية وحكمة بالاختيار . فمعركة بدر كانت قبل أحد . ولكن أُحد تُذكر هنا قبل بدر وكذلك الإشارة إليها في السُّورة المقدمة .

الثَّانية : في الآيات (١٩٠-١٩٤) حيث يقول سبحانه : ﴿ **وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ (البقرة: ١٩٠-١٩٤)

وواضحٌ من معنى الآيات أنها نزلت في قتال قريش . فكان الأمر بالقتال تحريضاً لرد عدوان قريش . وللقتال هنا سببان وكلاهما من أعمال قريش : فهم أخرجوا النبيّ والمهاجرين من بيوتهم أن قالوا ربّنَا الله . وهم يسعون في الفتنة ليصدًّوا الناس عن الدخول في الإسلام أو التحالف مع المسلمين . وفي أمر القتال هنا محظوران : الاعتداء والقتال عند المسجد الحرام ؛ إلا أن يبدأ المشركون بقتال المسلمين وهم عند المسجد الحرام . فللبيت العتيق مكانته ولكن حياةَ المؤمن وكرامتَه أعظمُ حرمةً . فتحريم القتال عند البيت محترم إلا إذا اعتدى جيرانه المشركون على المؤمنين .

ونتقدم مع القرآن الكريم لنجد باقةً من آيات تُحرِّض على القتال في سورة النساء ابتداءً من الآية (٧٤) وتمتد بأنوارها الكاشفة مع آياتٍ بمعانٍ قريبةٍ منها حتى الآية (١٠٤) . وكلّها تتحدث عن قتال الأقارب من قريش لما فعلوه بالنبيّ والمهاجرين واستمروا به للنهي عن الإسلام . وننقل فيما يلي بعض الآيات لنرى مقدار التشابه بين آيات النساء وآيات المجموعة الثَّانية موضوع دراستنا هذه : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ (النساء: ٧٥-٧٦)

والآيتان (٨٩-٩٠) من النساء تعرضان موضوع القتال من زاوية ما يفعله أهلُ مكّة ضد الإسلام وهي فتنتهم كما تحدثت عنها المجموعة الثَّانية .

ونجد نفس المعاني في سورة الأنفال التي تصفُ معركةَ بدرٍ وتذكر مشاعر المؤمنين وهم يسيرون إلى المعركة كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . تقول آيات الأنفال (٥-٧) : ﴿ **كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ** ﴾(الأنفال:٥-٧)

وهذا التشابه بين آيات المجموعة الثَّانية وآيات القتال في سورتي النساء والأنفال عين ما يجب أن تقوم به المقدمة . ومرّةً أخرى نُذكِّرُ أنّ غزوة بدر كانت قبل أُحدٍ ولكن السّورة المقدمة معنية بترتيب القرآن أكثر من اهتمامها بالتسلسل الزمني . وهذا ما يتفق مع خصائص المقدمة كما ألهمها الله لعباده بعد نزول القرآن بقرون .

والمرة الثَّالثَّة : في الآيات (٢١٦-٢١٨) وواضحٌ من نصها أنها تُحَرِّضُ أناساً لا يحبون القتال . فهي تصفهم بأنهم يكرهون القتال مع أنّه شرط للحياة الكريمة عندما يكون لاسترداد حقٍّ أو ردٍّ اعتداءٍ . ونكاد نسمعهم وهم يُبرزون حججهم لاجتناب القتال ، كسؤالهم عن القتال في الأشهر الحرم ؛ فيأتيهم الجواب أن كرامة الإنسان وحريته واسترداد حقّه المغتصب أكبر عند الله من حرمة الأشهر الحرم . تقول الآيات : ﴿ **كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢١٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ (البقرة:٢١٦-٢١٨)

ونستعرض السور التي ذكرت القتال بعد سورة الأنفال فنجد سورة التَّوبة . ونجد فيها نفس أجواء هذه الآيات سواءً من حيث القتال في الشهر الحرام أو خشية المؤمنين من القتال عامةً وحياؤهم من قتال قومهم في مكّة . ونقتبس من سورة التَّوبة الآية الخامسة المعروفة بآية السّيف . وهي تأمر ببدء القتال بعد انقضاء الأشهر الحرم حيث موعد انتهاء الإنذار الموجّه للمشركين عامةً إلا من كان بينهم وبين المسلمين عهدٌ محترم : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:٥) .

وفي الآيات (٧-١٣) من سورة التَّوبة تحريضٌ شديدٌ على قتال مشركي العرب تحديداً ولننظر قوة الأمر وشدة التحريض فيه : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(التوبة:٧-١٣)

وتؤكد الآيات ٢٣-٢٤ من نفس السُّورة أن صلة القربى بين المهاجرين وبين قريش كانت ماثلةٌ في تخذيل المؤمنين عن القتال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:٢٣،٢٤)

وفي الآية (٢٨) تحريضٌ من زاويا أخرى . فكأنَّ الآية تقول لهم إن كان المسجد الحرام عزيزاً عليكم فأنقذوه من نجاسة المشركين . ومع الآية (٣٨) تبدأ موجةٌ أخرى من آيات اللوم على التّراخي في تلبية نداء القتال ؛ وذلك بمناسبة الحديث عن غزوة تبوك أو العسرة كما سماها القرآن .

ومما يقابل الآية الأخيرة من المجموعة الثَّالثَّة نقتبس من سورة التَّوبة ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴾

(التوبة: ١١١)

إذا فآيات المجموعة الثَّالثَّة تشير إلى موضوع سورة التَّوبة وتعكس أجواءها .

ونسمح لأنفسنا باستطراد صغير للذين لم يفهموا فكرة القتال في الإسلام لنشر الدين . فقد جعلت الآية الخامسة من سورة التَّوبة شرط توقف قتال المشركين بالتَّوبة والصَّلاة والزَّكاة . فهي مجرد توبة يعودون بها إلى دينهم بنسخته الجديدة . فما الإسلام إلا تجديدٌ لدينهم الحنيفيَّة التي يزعمون أنهم عليها وأنهم أتباع جدِّهم إبراهيم . ولم يكن القتال لتحويل نصراني عربي عن دينه . أو لتحويل يهودي أو مجوسي إلى الإسلام . ولذلك نرى أنه قتال لجمع الأمة وتوحيدها تحت قيادةٍ واحدةٍ . وهذا ما يجعلنا نقول إن القرآن في أَحدِ وجوهه وبطريقة نزوله الأول كان مشروعاً قوميًّا سياسيّاً !! ويلزم أن نذكر أن معظم الآيات التي تأمر بفعل القتال موجهةٌ للنبي عليه السلام وتصف علاقات لم تعد موجودة بين الفئات المتقاتلة . لذلك لا يحق لأحد بعد النبي وصحابته الأولين أن يبدأ حرباً بناءً على هذه الآيات في مواقعها الثلاث من سورة البقرة وتفصيلها ببقية القرآن . لكنها موظفةٌ كلُّ آيةٍ أو مجموعة آيات في سورتها لخدمة هدف فكري سيتضح عند تحليل السور القرآنية . وليس معنى هذا أن القتال محرم على الأمة حتى يكون نبي . بل للأمة أن تدافع عن حدودها وكرامتها كبقية أمم الأرض . وفي القرآن عموماً وفي سورة البقرة خصوصا إشارات إلى هذا سنمر عليها .

ترتيب السور : قبل الانتقال إلى موضوعٍ جديدٍ تجدر الإشارة إلى أن ترتيب آيات القتال وكذلك ترتيب مواضيع الرسالة الإسرائيلية وتطابقهما مع ترتيب القرآن

إلى حدٍّ كبيرٍ يؤكد فكرة التَّوقيف في ترتيب السور . فالذي أنزل سورة البقرة هو الذي رتب سور القرآن سبحانه وتعالى . ولم يكن في الأمر أيُّ تدخلٍ من بشر ، ولا حتى من النبيّ .

الطعام :

في مكانٍ مبكرٍ من موضوعات الجزء العربي من السُّورة نجد موضوعَ الطعام حلالَه وحرامَه باختصارٍ . وهذا ترتيبٌ طبيعيٌ . فالطّعام هو الحاجة الأولى للإنسان . ومن المناسب أن يسبق بقيّةَ مواضيع الحياة . وتبدأ آياتُ الطعام بالآية (١٦٨) وتستمر حتى الآية (١٧٣) بذكر حلال الطعام وحرامه . وتَرُدُّ على خرافات الجاهليين في مجال تحريم بعض الحيوان : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (البقرة:١٦٨-١٧٣)

وتلخصُ هذه الآياتُ موضوعَ الطعام الذي ورد مفصلاً في سورة المائدة . ثم وردت أجزاءٌ منه في سورة الأنعام . وورد موضوع الطعام باختصار شديد في سورة النحل . وفي السور الثَّلاث نهيٌّ عن ما أضافه المشركون إلى دينهم من محرماتٍ ومعتقداتٍ باطلةٍ . وهو ما تشير له الآيات المذكورة (١٦٩-١٧١) . وسورتا المائدة والأنعام خيرُ من يوضح المقصود باتباع الشيطان ومتابعة الآباء المشركين في موضوع الطعام .

عقوبة القتال الجماعي : نمضي مع سورة البقرة متتبعين آيات الأحكام غاضين الطرف عن الآيات الوعظية ، فنجد أمامنا الآية (١٧٨) . ونصَّها الشريف ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ**

بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (البقرة:١٧٨)

وهي آيةٌ مفردةٌ لم يُمهَّد لموضوعها ولا تبعها تفصيل لها . عدا تعقيب يبرر مبدأ القصاص في الآية التالية لها (١٧٩) : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٩) فالقصاص لدرء الشرِّ وتجنب المزيد من القتل وليس رغبةً بالانتقام .

والآية موضوع حديثنا أربكت المفسرين لأنهم لم يلاحظوا صيغة الجمع في كلمة القتلى . ولم يدركوا المسافة بين القتل والقتلى ففسروها وكأنَّها تتحدث عن القتل العادي الفردي . فأضاعوا معنًى لم يتكرر في الكتاب العزيز . إلا إذا اعتبرنا الآية التاسعة من الحجرات مكملةً لها أو الوجه الآخر لها . تقول الآيتان (٩-١٠) من الحجرات : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (الحجرات:٩،١٠) .

والقسط المشار إليه هنا هو الحكم الوارد في الآية (١٧٨) من سورة البقرة موضوع حديثنا هذا .

ولعل ذكر حكم قتلى القتال الجماعي دون حكم القتال الفردى أن هذا كان أكثر حدوثاً بين العرب ؛ وهم الذين خرجوا لتوِّهم من جاهليةٍ تقوم على عصبيةٍ قبليةٍ ، ما زلنا نعيش بقاياها بعد أكثر من أربعة عشر قرناً . فكانت حاجتنا لهذا الحكم أكبر من حاجتنا لقصاص مؤمنٍ يقتل أخاه وهو أمرٌ نادر الحدوث .

وتأتي آيتا الحجرات المذكورتان جانباً مكملاً لآية البقرة .

تقسيم التَركَة : ذكرت الآيات (١٨٠-١٨٢) موضوع انتقال الثَّروة بعد الموت ابتداءً من الخطوة الأولى بقسمة الميراث تاركةً بقية الموضوع لسورة النساء التي لم تُغفِل منه كبيرةً ولا صغيرةً . يقول تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ

بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(البقرة: ١٨٠-١٨٢)

والخطوة الأولى في تقسيم تركة الميت هى تنفيذ وصيته . والاكتفاء بذكر الوصية في مقدمة القرآن الكريم توجيهٌ للأمة لتفهم خصوصيةَ أحكام المواريث الواردة في سورة النساء . كما أنه لا يمكن اجتزاء حكمٍ واحدٍ من المواريث لتُقدَّم به ، فكلّها على نفس المستوى إلا الوصيَّةَ فهي حكمٌ عامٌ . ولأن الناس قد ينسَون الوصيّةَ خصوصاً للوالدين أو لفقراء الأقارب الذين لا تشملهم أحكام التَّوارث ؛ فتأتي سورةُ البقرة بهذه الآيات الثَّلاث لتلافي النقص الاضطراري سواءً لفقراء الأقارب أو الوالدين عندما يشعر صاحب التركة أن نصيبهما من التركة ، حسب قوانين سورة النساء ، قد لا يكفيهما وأنهما يستحقّان أكثر بما قدَّما وبعجزهما في مرحلة الشيخوخة عن الكسب . ولتُوجِّه الناس إلى السبب في ورود أحكام التَّوارث على الوجه الذي نزلت به . وهو مراعاة الوضع النفسي لجامع الثَّروة ورغبته في توزيعها كما يحبُّ دون السماح له بالمبالغة في ذلك (فمن خاف من موص جنفاً . . .) . وحالة أخرى تلافت الوصيّة نقصها وهي حالة الزّوجة التي عرضتها الآية (٢٤٠) من السُّورة فقد يشبه حالُها حال الأبوين من الفقر والعجز عن الكسب ؛ وكانت وصيتُها لعام واحد فقط : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٠) .

وفي حالتي الوصيَّة المذكورتين كما في كلّ قوانين الميراث روعيت مشاعرُ صاحب الثَّروة في توزيعها بعد موته . كي ينشط الناسُ للعمل ولا يميلوا للكسل والملل إذا أحسوا أن نتيجةَ عملِهم ذاهبةٌ لمن لا يفضلون . فجاءت أحكامُ الميراث بما فيها الوصيَّة مراعيةً للحالة النفسية لغالبية العرب إلا الظالمين منهم . وقد نُفصِّل هذا الأمر عند الحديث عن سورة النساء .

الخمر والميسر ودعوة للاعتدال : ونتقدم مع السُّورة المقدمة متجاوزين المواضيع التي سبق الحديث عنها كالصِّيام والحجّ ، فنجدنا أمام الآية (٢١٩) . وموضوعها مستمرٌ في الآية التالية بقوة تركيبها . يبدأ النهي عن الإسراف في السلوك

بتصرفين يكادان يشكلان عنوانَ الإسراف والبعد عن العقلانية في ثقافات الأمم جميعا وهما الخمر والميسر .فتقول الآية (٢١٩) :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة:٢١٩) .

يظنُّ بعض المفسرين أن الآيةَ بدايةُ تحريم الخمر والميسر. ولكنها ليست كذلك. وإنما هي قاعدةٌ لموقف القرآن من هذين السلوكين . وبطريقةٍ لا يقدر عليها إلا الله عز وجل . فهما يُذكَران في بداية مجموعة مواعظ كلّها تنهى عن التطرف في السلوك والتصرف . فالآية لم تجزم بحرمة الخمر بل ذكرتنا أن ضررها أكبر من نفعها . والإثم الوارد هنا بمعنى الضرر الناتج عما يسببه الخمر لمتعاطيه من ضياع للوقت والثَّروة وتعطيل لطاقة الإنسان . والآية هنا تخاطب العقلَ الناضجَ بطريقةٍ علميةٍ ولا تهدده بالعقوبة الدنيويّة أو الأخرويّة . وبمثل ذلك تعرض موضوعَ القمار الذي يجتال الإنسان من ساحة العمل الجديِّ البنَّاء إلى دوائر التعطل والتسكع وطلب الرزق من غير مكانه وبغير وسائله ؛ بل بالبحث عن ضربة حظٍّ أو خدعةٍ . وما يتبع ذلك من انحراف في التفكير والسلوك . ومرةً أخرى لم يستعمل الترهيب والتخويف بالعقوبة .

ولو انتبه علماءُ الأمة ومفكروها إلى أجواء هذه الفقرة من سورة البقرة واهتموا بتوجيه الإنسان نحو عقلانيّة السلوك وإبعاده عن السّرف والتطرف لكان حالُ الأمة الآن مختلفاً من حيث النُّضج في الفكر وفي والسلوك . ولكنهم ركزوا على المنع وحسب . من جهةٍ أخرى فإن هذه الآية مُوجِّهٌ وضابطٌ لكلّ ما ورد في القرآن حول الخمر والميسر . وهي تحل مشكلتي آية المائدة (٩٣) والنحل (٦٧) ؛ وهذا هو الدور المثاليُّ لعناصر المقدمة .

ونعود لنصِّ الآية الكريمة فنجد فيها توجيهاً آخر لا يضبطه إلا العقل والتفكيرُ السويُّ **﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾** (البقرة:٢١٩)

وقبل أربع آياتٍ نجد آيةً بتمامها لِنفس السؤال لكن بجوابٍ مختلفٍ تقول الآية (٢١٥) : **﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾**(البقرة:٢١٥)

وكانت الآية (٢١٥) لتوجيه السؤال عن الأُولى بتلقي النفقة . ويأتي الجواب محدداً على طريقة آيات الأحكام . ويختلف الأمر مع الآية (٢١٩) فهي تتحدث بصورة عامّة لتوجيه العقل وإنمائه . فتجعل الاعتمادَ عليه والأمرَ إليه في تقدير الإنفاق متى يكون وكم يكون : ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ . والعفو هو ما زاد عن حاجة الإنسان . وهو وحده يقدره لا يشاركه في ذلك أحدٌ . فما زاد عن حاجته ينفق منه . ونفسُه وحبُه لله وللنّاس هي التي تحكم مقدار حاجته ، ليتصدق مما يفيض ليس عليه رقيبٌ سوى نفسه . فهي دعوةٌ للاعتدال يُصدِّقها التفكير السليم . ووصول الإنسان المثقف إلى استنتاجاتٍ خُلقيةٍ اعتماداً على تفكيره وقناعته أرسخُ في حياته وأبقى في سلوكه .

ولكن موضوع الآيةِ لم ينته بعد ونعلمُ هذا عندما ننتقل للآية التي تليها (٢٢٠) : ﴿ **فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٢٠)

« في الدنيا والآخرة » شبه جملةٍ ينـدر أن يبـدأ بمثـلها جملـةٌ أو فقـرةٌ . ولكنها ليست بدايةً بل هي تتمةٌ لفكرة الآية السابقة . ووضعُها في هذه الآيـة يعـني استمرارَ الفكرةِ التي تشير إليها في موضوع الآية التي حلت فيها . ولتكون في موقعها شمعـةً تضيء الفكر وهي تـدعو للتفكير في أمـور الـدنيا والآخـرة . لـيس في أمـر الخمـر والميسر والصَّدقة فقط ، ولكن فيما هو أهم وهو التعامـل مـع اليتـامى . تلـك الفئـةُ المستضعفة في بيئةٍ فقيرةٍ لا تراعي عرفًا ولا عهدًا عندما يتعلق الأمر بالحصول على مالٍ ، أيِّ مال! حتى لو كان مالَ يتيمٍ أو أرملةٍ .

ونعود لآيتنا لنتفكر فيها على ضوء ما جاء حول موضوعها في القرآن الكريم باعتبارها قائدةً لكلّ ما ورد بعدها حول رعاية اليتامى وحفظ حقوقهم : ﴿ **فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٢٠). والآية كما نرى تبدأ وتنتهي بالتهديد بعقوبة دنيوية .

وفيما يلي عرض لمعظم آيات اليتامى :

النساء :٢ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾ (النساء:٢)

النساء :٦ ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ (النساء:٦)

النساء : ١٠ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (النساء: ١٠)

الأنعام :١٥٢ ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٢)

الإسراء :٣٤ ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (الإسراء:٣٤)

الفجر : ١٧ ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ (الفجر:١٧)

الضحى :٩ ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ (الضحى:٩)

الماعون :٢ ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ (الماعون:٢)

بعد قراءة هذه الآيات الممثلة لتوجيهات القرآن بشأن معاملة اليتامى التي يرضاها الله تعالى نفهم لماذا وردت آيةُ سورة البقرة بصيغتها التي وردت بها ، ولماذا نُقلت شبه الجملة الظرفية (في ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡآخِرَةِ) من الآية السابقة إليها لتكون في بدايتها . وورد معظم الآيات كما نرى في جو من التهديد والترهيب لمن يستغل ضعف اليتيم ويعتدي على حقّه وشاءت الآية الأخيرة أن تجعل دَعَّ اليتيم من علامات الكفر والتكذيب بالدين .

لذلك وردت الآية المقدمة لتلخص كلّ ما ورد بعدها وبنفس الأسلوب فلم تخل من التهديد بالعنت لمن يستغل ضعف اليتيم وتذكيره بأن الله يعلم العمل والنيَّة من

وراء العمل . وكذلك نفهم لماذا أُخِّرت شبه الجملة الظرفية عن مكانها لتكون مطلع هذه الآية . فهي طبيعيًّا جزء من الآية السابقة (٢١٩) . فلا عاقل على وجه الأرض إلا ويعرف أن الخمر والميسر ضاران بالفرد والمجتمع وضررهما قائمٌ وملموسٌ في هذه الحياة الدنيا . ولكن الاستيلاء على مال اليتيم الضعيف قد يبدو زيادةً في الرزق . ويحُولُ ضعفُ المعتدى عليه وجهلُه بحقوقِه دون المطالبة به ومتابعته . لذلك تأتي عبارة (. . تتفكرون * في الدنيا والآخرة . .) لتؤكد أن الاعتداء على مال اليتيم له عواقب دنيويةٌ تماماً كما له عواقب أخرويةٌ . ولهذه الالتفاتة حضور في نفس الآية (٢٢٠) فهي تنتهي بقوله تعالى ﴿ **وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ** ﴾ (البقرة: ٢٢٠) والعنت هنا هو العقوبة الدنيوية لمن يعتدي على مال اليتيم .

نستطيع الآن أن نقول بكلّ ثقة : إنها آية مقدمة لموضوعها في القرآن كلّه . تماماً ككلّ ما يرد في سورة البقرة .

الأسرة : الأسرة هي وحدة بناء المجتمع . وهي من المجتمع كالخلية في جسد الكائن الحي . وفي كتابٍ موضوعُه إنشاء مجتمعٍ على هدى من الله يكون للأسرة فيه حظٌّ كبيرٌ من التَّوجيه والأحكام الضوابط . لذلك كان نصيب بناء الأسرة وأحكامِها ظاهراً في البقرة . ويليق بالمقدمة أن تبرز الموضوع الأهم اجتماعيًّا . وتبدأ موضوعات الأسرة بالآية (٢٢١) أي بعد آية اليتامي تمامًا . وكان يمكن اعتبار موضوع اليتامي من موضوعات الأسرة فنصف موضوع اليتامى يعتبر من شئون الأسرة . ولكن لموضوع اليتامى بعداً اقتصاديًّا .

١- **النهي عن البداية الخاطئة :** بدأت الآيات بأكثر أمور الأسرة تطرفاً لتنهى عنها . فالآية (٢٢١) تنهى عن الإصهار إلى المشركين : ﴿ **وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ (البقرة: ٢٢١) ولهذا أهميته في بناء المجتمع المسلم على أسسٍ ثقافيةٍ سليمةٍ . وورد موضوع الآية مفرقاً في عدة سورٍ من القرآن فالنساء (٢٥) تنهى عن زواج الإماء إلا للضرورة وخشية العنت . ومع هذا فالزّواج منهن أفضلُ من زواج المشركات حسب الآية (٢٢١) . ثم تأتي الآيتان (٣٢-٣٣) من سورة النُّور

لتنظم زواج الفقراء والعبيد والإماء . بينما تضع سورة النُّور(٣) المشركة والزَّانية في مكانة واحدة . وتحرِّم سورة الممتحنة (١٠) إبقاء المرأة المؤمنة مع زوجها الكافر . وتجعل تكاليف انفصالهما على حساب المجتمع المؤمن إذا طلبت المرأة ذلك . وبذا نجد أن الآية (٢٢١) لم تخرج على تقاليد المقدمة من حيث هي قائدةٌ ومُوَجِّهةٌ لكلّ آيةٍ عرضت مثل موضوعها في القرآن . لأنها تعرض الأمر باعتبار الإيمان و مُحصِّلته في الحياة الآخرة . بينما اقتصرت بقية آيات القرآن بعد البقرة على الأحكام لتنفيذها بأسلوب القرآن المُقنِع . وكانت هي الأشمل موضوعاً فاتسعت لكلّ الآيات المذكورة بينما ناقشت كلّ واحدةٍ منهن الموضوع من زاويةٍ واحدةٍ .

٢- **النهي عن ممارسات خاطئة :** الآيتان (٢٢٢-٢٢٣) تدعوان إلى الطُّهر في الحياة الزّوجية وتنهيان عن أخطر الأخطاء التي يمكن أن يرتكبها الأزواج مع نسائهم : ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾
(البقرة:٢٢٢-٢٢٣)

وانتهت الآيتان بالتهديد بقانون طبيعيٍ يظهر أثرُه في الحياة وبتذكير بلقاءِ الله يوم الحساب ، ولم تَذكر عقوبةً محددةً لمن يعصي ويخالف أمر الله . والقوانين الطبيعية جزءٌ من إحاطة الله بالناس . وهنا تذكيرٌ لمن يسيئ استعمال جسد امرأته بأن له بنات وقد يُساءُ إليهن بنفس الطريقة . وكانت الصيغةُ القرآنية أكثرَ جمالاً وأدباً من لغتي الصريحة فاكتفى سبحانه بالقول ﴿ **وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ** ﴾ (البقرة:٢٢٣) . وأجواء هاتين الآيتين مما يليق بالمقدمة لأولية موضوعهما . وللحقّ فإن مضمون هاتين الآيتين لم يتكرر في القرآن الكريم لنفس الأحكام الواردة فيهما ولكن ورد ذكر الحيض كعلامةٍ ضابطةٍ في موضوع الطلاق وأحكامه .

٣- **الإيلاء مقدمة للطلاق :** الإيلاء يمينٌ بالهجر وقد يكون مقدمةً للطلاق . وهو يعني يمين الرجل أن لا يمسَّ امرأته مدةً معينةً من الزَّمن . ولم تأذن الآيةُ بأن تتجاوز مدةُ الإيلاء أربعةَ أشهر ؛ فإما عودةٌ بعدها إلى الحياة الزّوجية أو الطلاق. ولكن الصيغة التي ورد بها أقرب إلى النهي عنه . ﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ**

تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (البقرة:٢٢٦،٢٢٧) . ولم يتكرر ذكره في القرآن . ولعل علم الله بتوقف الأمة عنه أغنى عن تكرار ذكره .

٤- **الطّلاق** : يبدأ عرضُ موضوع الطّلاق انطلاقاً من عدةِ المطلقة وما يمكن أن يظهرَ في العدة من بقايا الحياة الزّوجية . كلّ هذا اهتماماً بالإنسان . تقول الآية (٢٢٨) : ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٢٨). ويستمر عرض الموضوع حتى نهاية الآية (٢٣٣)

وقد وَسِعَت هذه الفقرةُ معظمَ مواضيعِ الطلاق : العدة والجنين المتكون قبل الطلاق ومراجعة الزّوجين وإصلاح أمرهما وموقع كلّ منهما في الأسرة وعلاقتهما المتبادلة بينهما . ودارت الآيات التالية لها في فلكها .

وموضوع الطلاق كما عرضته سورة البقرة يتكرر بمعظم أحكامه وزيادةً في سورة الطلاق . ومن يقرأ آياتِ الطلاق هذه ثم يقرأ سورةَ الطلاق يكتشف أنهما يناقشان نفس المواضيع . لكن الموضوع الواحد ينـاقَش من زاويتين . فكأنّ سورة الطلاق تكمل آيات البقرة أو تبررها أو تفسرها حتى لو كانت الأخيرة أقل في عدد كلماتها . فمثلاً : الآية ٦ من سورة الطلاق التي تتكون من ثلاثة أسطر تجدها تعرض نفس مواضيع الآيات ٢٣١-٢٣٣ التي تتمدد على مساحة خمسة عشر سطراً من نفس النسخة .

ومع هذا يبقى أسلوب صياغة آيات البقرة هو أسلوب المقدمة من حيث انطلاقها من الهدف الرئيسي وهو انتصارها للإنسان وانطلاقها من القواعد الرئيسية حتى لو اشتملت أحكاماً نهائيةً بينما أسلوب سورة الطلاق هو أسلوب عرض الحدود والحقوق بوضعها النهائي .

٥- **طلاق المخطوبة :**يتخلل موضوعَ الطلاق آيتان عن زوج المتوفى وتعريض الرجل بمشاعره تجاه المرأة تمهيداً للزواج . ثم يعود النص لطلاق المخطوبة قبل الزّواج بها . و تعرض الآيتان (٢٣٦-٢٣٧) حقوق المخطوبة عند طلاقها .

وعلى طريقة السُّورة المقدمة يوضع الحكم على خيارين ليؤكد أن الهدف هو حمايةُ كرامة الإنسان المستضعف . ولم يتكرر هذا الحكم في القرآن لبساطته ووضوحه ولانعدام إمكانية تطور الحالة مع الزَّمن .

٦- **الوصية للأرملة :** ذُكِرت الوصية لمن مات عنها زوجها في فقرة التَّوارث . وهو موضوع الآية (٢٤٠)

٧- **حقوق المطلقة :**تذكر الآية (٢٤١) متاع المطلقة وأن لها حقوقاً . ونجد تفصيل ذلك في سورة الطلاق (٦-٧)

وبهذه الآية ينتهي موضوع الأسرة في سورة البقرة . ومعظم ما فيه مذكور بتفصيلٍ أكبر أو بلغةٍ أكثر تحديداً في بقية سور القرآن الكريم .

ووضع بعض مواضيع الأسرة في المقدمة مع عدم تكراره في القرآن دليل أهميته القصوى .

إحياء أمة :

قصة تليق بمقدمة كتابٍ جاء ليُحيي أمةً . ومع أن المثل المضروب هنا عن قوم من بني إسرائيل إلا أن القصة التي عرضتها الآيات (٢٤٣-٢٥٢) لا علاقة لها بالرسالة الإسرائيلية ، بل هي جزءٌ من خطاب السُّورة للعرب . وقد نهجت الآياتُ نهجَ القصة القصيرة تماماً بشروطها الفنيَّة التي ألهمها الله للبشر واستقرت في هذا الزَّمن . وفيما يلي دراسة القصة التي تصف منهج الله تعالى في إحياء الأمم : ﴿ **أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ** ﴾ (البقرة:٢٤٣)

هذه هي أطروحة القصة . يُفهم منها أن من شروط اعتبار المجتمع حيًّا أن يكون عزيزاً مهابَ الجانب وقادراً على حماية حدود وطنه . فإن عجز عن ذلك وآثرت غالبيتُه النجاةَ بأجسادِها ورضيت بحياة الذلِّ والهزيمة وهربت من ديارها أو استسلمت للمعتدي فهي أمةٌ ميتةٌ . ميتة الكرامة والعزة وإن كان أفرادُها أحياءَ الجسد وقادرون على ممارسة الأمور الحيويَّة . فإن ظهرت بهم بوادر حياةٍ وشوقٍ إلى حياة الكرامة والحرية تعهدتهم إرادة الله حتى يحقّقوا ما يستحقّون بفعلهم لا بأمانيهم .

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (البقرة:٢٤٤-٢٤٥) هاتان هما الآيتان الثَّانية والثَّالثَّة من القصة ، وهما يشيران إلى شروط الحياة الكريمة للجماعة . وهي : الجهاد في سبيل الله والإنفاق في سبيل الله . وهي شروطٌ يعرفها الناس جميعاً لكن الأحرار وحدهم يمارسونها ويعلمون أنها مهر حريتهم . ويجبن أمواتُ الكرامة ويبخلون ، فيبقون في الأموات المستعبدين .

فمن يتغلب على تحدي خوف الموت (الجبن) وخوف الفقر (البخل) وحده يستحقّ أن يكون سيداً . وهذه شروطٌ أساسيةٌ . ولكن في القصة تحدياتٍ أخرى يجب التغلب عليها لتستحقّ جماعةٌ صفة الحياة وتعتبر مجتمعاً كريماً . وتدور بقية القصة حول التحديات التي تواجه الجماعة المشتاقة لحياة الكرامة والعزة انطلاقاً من مثل استحضرته من حياة جيلٍ من بني إسرائيل . تقول الآية الرابعة في القصة : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٤٦)

بنفس المفردات التي بدأت بها الآية الأطروحة بدأ المثل الذي سيعرض أحداث القصة ويعرفنا على مادتها وهم جماعة من بني إسرائيل من بعد موسى . كانوا في عداد الأموات بسبب جبنهم وهربهم من ديارهم أمام عدوان عدوّهم . ثم أيقظ فيهم الزَّمن شوقاً إلى حياة العزة فطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً يحاربون تحت لوائه ويستعيدون أرضَهم وأبناءهم المستعبدين تحت العدوّ .

وبعد هذا الشوق المعلن للكرامة تشير الآية إلى فشل غالبيتهم أمام عدد من التحديات التي واجهتهم . فطَلَبُ الكرامة ليس بالادعاء بل بإثبات صدق الادعاء . وتستمر آيات القصَّة بسرد تلك التّحديات . التي تغلبت عليها فئةٌ منهم . فأفرزت لهم مواجهةُ التحديات المتتابعة قيادةً حقيقية استحقّت مكانها بأفعال الطاعة والإيمان ومواجهة العدوّ بشجاعة . وهكذا تنشأ الأمم . وتسير على طريق التّقدم . ولكن ما هي التحديات التي واجهت تلك الجماعة :

١- بقية نفاق مرحلة الموت : لما عَيَّن لهم نبيُّهم ملكاً مؤهلاً بمقاييس الله اعترض غالبيتُهم لأنه لم يؤتَ سعةً من المال . وهذه من بقايا العبوديّة لقيم الجاهليّة . أما قيم المجتمع الحيّ فتنظر للإنسان بما يملك داخل جلده من قوة جسد وسمو قيم . ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:٢٤٧) .

٢- عجز الغالبيّة عن الانضباط وطاعة القيادة وهو أمرٌ طبيعيٌّ لجيل نشأ في الهوان وبدأ طريق الكرامة ولم يكمله بعد . فالانضباط والطاعة من خصائص الأتقياء المتمدنين . فبأي تحدٍّ فُتِنَت تلك الجماعة لاختبار درجة نضجها؟ : ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾ (البقرة:٢٤٩) .فنجح الذين لم يشربوا واستمروا بمسيرتهم نحو النصر والعزة ، تاركين الفاشلين وراءهم يتلاومون أو يعتبون على قيادتهم التي أحرجت ضعفهم .

٣- الخوف من المواجهة : فَشِلَ في فتنة المواجهة فئةٌ نجحت في الامتحانين السابقين ، وذلك عندما وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع قوات جالوت . ويبدو أن حياة الهوان والوهن أورثتهم هيبة جالوت وجيشه : ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ** ﴾ (البقرة:٢٤٩)

٤- النجاح الكبير لمن اجتاز التحديات السابقة ولا نجاح حقيقي دون استجابةٍ صحيحةٍ للتحديات التي تقف في وجه المجتمع النامي باتجاه الحرية : ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (البقرة:٢٤٩،٢٥٠)

٥- وبنى اللهُ لذلك الجيل دولةً ابتداءً من مؤسسها الشجاع داود : ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (البقرة:٢٥١) .

وفي نهاية القصة برر الله لنا حصر نشوء الأمم الحية بكفاءتها في القتال لاسترداد حقوقها وكرامتها ؛ لأن وصول المجتمع القويّ وبقيادة الأقوياء المخلصين هو الضمانة لحفظ الأرض وأهلها من الفساد . وتلتها آياتٌ تتحدث عن الاختلاف الديني كسببٍ لاقتتال الجماعات . وأن ذلك من قدر الله للإنسانية .

هذا مثل ساقه الله في مقدمة كتابٍ أنزله ليحيي به أمةً بالهدى ودون الخروج على سننه سبحانه في نشوء الأمم وانهيارها . ولو راجعنا مسيرة نبينا الأمين والمؤمنين معه مقابل المشركين لوجدناهم قد تعرضوا لتحديات واستجابوا لها بما أوصلهم يوم الفتح الأكبر ، يوم فتح مكّة . ويبقى هذا ، منهجُ الله تعالى في إحياء الأمم التي يُكتب لها حياة . وبعد هل لهذه القصة من مكانٍ غير مقدمة الكتاب لتؤدي رسالتها؟

العلاقات المالية في المجتمع :

في ثلاث فقراتٍ متتابعةٍ نوقشت العلاقات المالية في المجتمع المؤمن . وتخللها أعظم آيات التَّوحيد في القرآن . ولعل السبب في جمع هذين الموضوعين أن حبّ المال في بيئةٍ فقيرةٍ عائقٌ على طريق الإيمان . والفقرات الثَّلاث هي الإنفاقُ في سبيل الله وحرمةُ الرّبا وتوثيقُ الدَّين .

١- الإنفاق في سبيل الله : تبدأ الفقرة بالآية (٢٦١) وهي الأشد ترغيباً بالصَّدقة في القرآن الكريم : ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٦١) .

ثم تتلوها ثلاث آياتٍ تحضّ على الإنفاق في سبيل الله دون منةٍ أو أذىً من المنفق . وهذا يدل على أن الإنفاق المقصود هنا هو إنفاق التكافل الاجتماعي وليس أيُّ نوعٍ آخر من الصَّدقة . وتُذكِّر الآية (٢٦٦) صاحب المال أن المال قد يذهب ويبقى لصاحبه ذريةٌ ضعفاء ! والنفقة حسب الآية (٢٦٧) يجب أن تكون من رزقٍ حلالٍ طيبٍ وليس من مالٍ خبيث . وتحض الآيات على النفقة وعدم الخوف من الفقرِ . فالشّيطان هو الذي يُخوِّف الناس من الفقر كما يأمرهم بالفحشاء . وتشجع الآية (٢٧٣) على إعطاء الصَّدقة للمتعففين الذين لا يسألون الناس إلحافاً . وتنتهي آيات الحض على الصَّدقة بالآية (٢٧٤) التي تشكل خاتمةً للفقرة وتحض على الصَّدقة سرًّا وعلانيةً . وفي كلّ خير : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا**

يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (البقرة:٢٦٢)

ومثل سواها من موضوعات سورة البقرة تشكل فقرة الإنفاق هـذه وآيـات الأمـر بالإنفاق التي سبقتها مقدمـةً وأطروحـةً لكـلّ مـا ورد في بقيـة القـرآن في موضـوع الصَّدقة والإنفاق في سبيل الله . علماً أن الأمر بالزَّكاة ومدحَ مؤديهـا ذُكـر في القـرآن حوالي ٣٠ مرة . وذكر الإنفاق في سبيل الله قرابة ٥٠ مرة .

٢- **الرِّبا :** هو الانحراف المقابل للصدقة . فعندما تكون الصَّدقة هي الطّاعة والإحسان يكون الرّبا هو الإثم والعصيان . ولم يُذكر الرّبا في القرآن إلا وسبقه ذكر الصَّدقة أو تبعـه . ويُذكَر الربا فـي الآيـات (٢٧٥-٢٨١) ومنـهـا نقتبس : **﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾** (البقرة:٢٧٥)

وهذه الآية وحدها كافيةٌ للنهي عنه . ومع هذا ورد النهي عن الربا في آل عمران وفي الرّوم . فكانت آيات الربا في البقرة مقدمةً وموجهةً لمـا جـاء بعـدها في النهـي عن الربا .

٣- **توثيق الدَّين :** بعد أن حض على الصَّدقة عندما تلزم ولا يغني عنها سواها ، وحرم الربا ؛ بقي تبادل المال كقرضٍ حسنٍ أو دينٍ يستحقّ السداد . وفي بيئة فقيرةٍ قليلة الموارد يكون المال هو القيمة الأعلى في نفوس الناس . وكي يطمئن المقرض على ماله ولا يرتاب فقد أمر القرآن بتوثيق الدين كتابةً مشهودةً . وحددت الآية الأولى من فقرة التداين شروط الكتابة والكاتب والشهود بطريقة محكمةٍ : **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا**

يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢)

ولعل دقة تفصيلات كتابة الدين هي التي لم تبق حاجةً لإعادة طرح الموضوع مرةً أخرى في القرآن . فكان توثيق الدين من المواضيع القليلة التي استأثرت بها سورة البقرة . و الدين كحقّ مثل أي أمانةٍ يجب ردها لصاحبها كما ورد في أكثر من سورة .

توحيد الله وتعظيمه : عبادة الله هي الهدف من خلق الإنسان . وتوحيد الله هو العقيدة الحقيقيّة التي تأتي الأديان السماوية لتأكيدها وتثبيتها في الناس وتخليصها مما قد يعلق بها من شرك . والقرآن كأيِّ كتابٍ سماويٍ أُنزل لبناء أمةٍ من آل إبراهيم وإسماعيل على العقيدة الصحيحة وهي عقيدة التَّوحيد . فهي الأساس الذي يقوم عليه الدين ، وهي القاعدة التي تقوم عليها الأمة المؤمنة . والسُّورة من بدايتها تدعو لعبادة الله الواحد . وتُختتم بصنع تصور سليم لله ، وتُظهر طرفاً من عظمته ؛ التي لا يستطيع خيال بشرٍ أن يحيط بها . لكنها تتكلّم بلغة البشر وبما يكفي لاستلامهم الرسالة ؛ ليعظموا الله سبحانه وينزهوه عما لا يليق بجلاله ، ويسبحوه ويعبدوه بما يستحقّ سبحانه مقارنةً بعظمته ، بل بما يقبله منهم ويرضيه عنهم .

وآيات العقيدة في أواخر سورة البقرة تتكون من الحقائق التالية التي ورد بعضها على صورة قصصٍ إخباريةٍ وليست كحقائق مجردة .

١- **العلي العظيم** : لعل آيةَ الكرسي (٢٥٥) أعظمُ نصٍّ بلغة بشريةٍ في التعريف بالله تعالى وإعطاء فكرةٍ عن بعض عظمته سبحانه . فهو سبحانه واحدٌ لا شريك له . حيٌّ قيوم منذ أزلٍ لا نستطيع تخيل بدايته إلى أبدٍ بلا نهاية ؛ وهو الحيُّ القيوم الذي لا يغفل عن القيام على ملكوته ، فلا تأخذه سهوةُ نعاسٍ ولا يقترب منه ظلُ نومٍ . وحده يملك كلّ ما في الكون بأرضه وسماواته . وعلى مدار الزَّمن يدير ملكوته الذي لا نستطيع تخيل حدوده بما فيه من أبراجٍ ومجراتٍ وشموسٍ وكواكبَ ونجومٍ . وما في أرضه من كائناتٍ حيةٍ وميتةٍ متحركةٍ

وجامدةٍ ، يضبط كلّ كائنٍ ويهيمن عليه ، ويعلم مِن أمره ما لا يعلم الكائن عن نفسه . ليس لأحدٍ من خلقه عليه منةٌ ليشفع عنده إلا من رضي الله عنه ، فأكرمه بشفاعةٍ محدودةٍ أو سلطةٍ مقيدةٍ بما لا يفسد خططه لملكوته . يعلم كلّ كائنٍ على الأرض ويراقبه ويسجل حركاته وسكناته . ويعلم ما حدث معه حتى اللحظة وما هو حادثٌ بعدها . ترى هل يستطيع عقلنا أن يتصور قدرة الله في هذه فقط؟ يرى في عين اللحظة كلّ مخلوقٍ على الأرض من بني آدم وسواهم . ويسمع كلمَه وهمسَه ويسجله ! وسعت سيطرتُه وإدارته لشئون ملكه كلّ ما في الكون بسمواته وأرضه ولا يمسه نصبٌ أو لغوبٌ بإدارة هذا الكون ورقابته وحفظه وتسييره على المدارات والسبل التي وُضع عليها . إنه العلي العظيم . هذه الآية أُمُّ التَّوحيد وقاعدتُه وكلّ ما بعدها تبع لها . والقرآن هو كتاب التَّوحيد الذي لا يشوبه شبهة شرك . فهي التَّوحيد المقدمة وتليها تفصيلاتٌ في سورٍ أخرى من القرآن كمعظم ما في سورة البقرة . وكانت سورة الأنعام هي الأكبر حظًّا في هذا الموضوع .

٢- **لا إكراه في الدين** : واضحٌ أن المقصود بالدين هنا الممارسة التي ينفذها الإنسان بقناعاته . ولذلك كان المرجع لهذه الحرية أنها تقع بين الرشد والغي كما تقول الآية (٢٥٦) . وكلاهما ممارسةٌ ، فالرشاد هو السلوك المستقيم ، والغي الجهل والتخبط في السلوك . وهذه الآية مقدمةٌ عامةٌ لما ورد في بقية القرآن حول الموضوع . وقد يقول قائل إنها تناقض ما جاء في سورة التَّوبة . إذ أمر الله بمحاربة المشركين حتى يتوبوا ويعودوا لدينهم الأصلي وهو الحنيفيَّة التي جاءتهم بواسطة أبيهم إبراهيم . فما الإسلام إلا تجديدٌ لدين إبراهيم . مع بقاء معظم العبادات والأحكام كما جاء بها إبراهيم . فهو عودةٌ للدين الذي ارتضاه القوم واعتنقوه باختيارهم منذ أجيال . ولكن حتى التَّوبةَ المذكورة في سورة التَّوبة إنما كانت لضمان اعتراف القوم بالقيادة الجديدة للمجتمع ، وليس لإجبارهم على إيمان ما ، فقد كان في المدينة منافقون كما تقول سورة التَّوبة ولم يأمر تعالى بقتالهم بل اكتفى منهم بإظهار الإسلام . وتدَخُّلُ اللهِ تعالى بهذه الأمة كان كرماً منه بحقّها ، ليكون لها ذكرٌ كما جاء في سورة طه (١١٣) :
﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ**

ذِكۡرٗا ﴾ (طه:١١٣). ولذلك أسلفنا أن القرآن بطريقة نزوله الأول كان مشروعاً قوميًّا سياسيًّا. ولعل ذلك كان استجابةً إلهيةً لدعاء إبراهيم وإسماعيل لذريتهما.

٣- **هو الهادي :** في الآية (٢٥٧) يثبت سبحانه سنته في هداية الناس وإضلال من يستحقّ الإضلال منهم. وهو موضوعٌ كبيرٌ تاه به علماء الأمة منذ مئات السنين، واضطربت أقوالهم فيه وضاعوا بين مسيرٍ ومخيرٍ، لأنهم لم ينظروا للموضوع نظرةً شموليةً انطلاقاً من هذه الآية التي تقود كلّ آيات الهداية والإضلال في القرآن الكريم: ﴿ **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ (البقرة:٢٥٧). فالبداية من الإنسان يسلك طريق الإيمان ويحافظ على قيم الفطرة الأصلية فيزيده الله هدى. ومن يكفر بقيم الفطرة ويفسق يضع نفسه على أول طريق الكفر. وذكر هذا الموضوع في القرآن عشرات المرات ويبقى ما جاء في البقرة هو رأس الموضوع وموجهه.

٤- **خضوع الكون لله وحده :** مع أن توظيف عناصر الفضاء كالشمس والقمر للدلالة على عظمة الله ورد كثيراً في القرآن إلا أن الآية (٢٥٨) كان لها جوٌّ خاصٌّ وجاذبيةٌ. لأن حركة الشمس استعملت للدلالة على قدرة الله بواسطة إنسان من البشر وهو جد المخاطبين بالقرآن. وانتصاره في الحوار على ملكٍ ظالمٍ يلقَى قبولاً بل سعادةً من المخاطبين عندما يروا جدهم ينتصر بحجّةٍ عقليةٍ مجردة على ملكٍ ذي سلطان وقدرةٍ على شعبه تبدو له مطلقةً من كلّ قيدٍ: ﴿ **أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (البقرة:٢٥٨). إنها مقدمةٌ محكمةٌ لكلّ ما تلاها في القرآن من توظيفٍ لعناصر الفضاء خصوصاً والطبيعة عموماً، للتدليل على أن الله هو الخالق فالمستحقّ للعبادة. وإذا كانت سورة الرعد كلّها تدور حول هذا الموضوع فقد أُشير لها في عشرات السور غيرها.

٥- **إمكانية البعث والإحياء بعد الموت :** هذا هو موضوع الآية (٢٥٩) ولا يمكن أن يعبر عن موضوعها نصٌ أفضلُ من نصها الشريف. يقول تعالى: ﴿ **أَوۡ كَٱلَّذِي**

مرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٥٩) . ولم تخرج أقوال المشركين المكذبين للبعث عما دار بخلد هذا الرجل . فكانت قصته مقدمةً وملخصاً أميناً لكلّ ما جاء في القرآن بعدها حول موضوع البعث. وبذا تكون هذه القصة مقدمةً لموضوع البعث الذي كانت قريشٌ تنكره ؛ وعرضه القرآن في عشرات السور . خصوصاً السور منذ يونس حتى الحجّ ، وفي سورٍ أخرى كثيرة .

٦- **كيفية البعث والإحياء :**ونصل الآية (٢٦٠) لنجدها تروي قصةً أخرى من قصص يقين أبينا إبراهيم : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(البقرة:٢٦٠). يأمر الله تعالى إبراهيم أن يأتي بأربعة طيور ويحتفظ بها عنده . وأن يأخذ من كلّ طيرٍ جزءاً . يكفي أن يأخذ منه ريشةً أو جزءاً صغيراً من طرف جناحه . وأن يضع الأجزاء الأربعة التي ينتزعها من الطيور على رءوس أربعة جبال ؛ أيْ جزءَ طيرٍ على كلّ جبلٍ .ثم يعود إلى طيوره التي انتزع منها الأجزاء الأربعة . ويدعو الطير فتأتيه سعياً . فيقارنها كلاًّ بالطير الأصلي الذي انتزع منه الجزء الذي تحول إلى طيرٍ كاملٍ ليجد أنه يشبهه تماماً كأنه هو . ويُفهم ضمناً أن إبراهيم رضي بالنتيجة لأن الطير الجديد شابه أصله تماماً . وكذلك تبعثون . وقد تكرر هذا المعنى كثيراً في القرآن . وفي القصة جوابٌ لتساؤل المشركين باستغرابٍ عن كيفية البعث الذي ظهر في عشرات السور .

٧- **استجابة النبيّ وأصحابه :** سجلت السُّورة في أواخرها استجابةَ النبيّ وأصحابَه للسورة في مجال العقيدة فتقول الآية (٢٨٥) : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ**

مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥)
آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ولم يفرقوا بين رسول ورسول . وهنا نقطة تحتاج إلى توضيح وهي أن إيمانهم بالكتب السابقة والرسل قبل نبينا محمد عليه السلام إنما كان إيمان تصديقٍ واحترامٍ وليس إيمان اتباع . ثم جاءت تفصيلاتُ كلِّ هذه المكونات العقدية في كتاب الله . وكانت هذه الآية مقدمةً لمِثل موضوعها في بقية القرآن . وكانت ختاماً مناسباً واستجابةً للآيات الأولى من السُّورة التي تذكر صفات المتقين (٢-٥) .

٨- **ابتهال ختامي** : تُختتم السُّورة بدعاءٍ جميلٍ على لسان المؤمنين ونصه الشريف :

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦) .

وهكذا تثبت السُّورة بموضوعاتها وطريقة صياغة أحكامها واعتدال نصوصها واهتمامها بأساسيات الحياة التي يسعى القرآن لإنشائها بأنها مقدمة مثالية للقرآن الكريم ككتابٍ جاء لإحياء أمة .

* * *

الباب الأول

الرؤية : بناء دولة والحفاظ عليها

يشمل هذا الباب سبعة سور هي آل عمران المهتمة بأسس النهضة ، ثم النساء المعنية بفئات الشعب التي يمكن أن ينسأ المجتمع حقوقها وما يمكن أن تسببه للمجتمع من عطب حالة غياب العدل . ثم سورة المائدة المعنية بالحوار الداخلي بين فئات المجتمع وبناء المجتمع على علاقات سليمة واضحة . ثم سورة الأنعام التي تشكل قاعدةً فكريةً للمجتمع بما تقدمه من تصوراتٍ ذهنيةٍ لأوليات الحياة فهي بمثابةٍ فلسفة الأمة المؤمنة ؛ وتؤدي غرضَها من خلال تنظيم العلاقة بين الإنسان وبين البيئة مركزة على أهم عناصر البيئة وهي الأنعام . نعمة الله الكبرى على الإنسان ، وحقّه تعالى في التعامل معها . ثم سورة الأعراف التي تأتي لحماية المجتمع من الفساد والتدهور . وتأتي سورة الأنفال لتضمن مشاركة أفراد الأمة بالثَّروة وتحمي حدودها من الأعداء ومجتمعها من المنافقين . وما يمكن أن ينعم به الله على الأمة إن التزمت بطاعة الله . وتختتم هذه المجموعة بسورة التَّوبة التي تضع أسس استعادة العرب إلى الطريق السليم وتوحيدهم في دولةٍ بأقل الخسائر وحفظهم في دائرة المجتمع المقبول عند الله .

سورة آل عمران

آل عمران . . اسم السُّورة ، وهو مأخوذٌ من اسم والد مريم أم المسيح . وكعنـوان للسورة قُصِدَ به العمران . والعمران هو الحياة والعلو الذي قدره الله للعـرب بـالقرآن وبالنبيّ . ويتفق العلـم والمنطـق أن العمـرانَ هـو موضـوع السُّـورة الأولى في كتـاب الهدى والإحياء ، وأن اسمها معبر عن موضوعها . وسنثبت في هـذا الفصـل أن كـلّ ما في السُّورة من قصصٍ ومعلوماتٍ ومواعظَ ، إنما جيء به ليخدم فكرة إحياء الأمة ، ووضعَها على بداية طريق النهضة والعمران ، وحفظَها عليه حتى يستقر أمرها ، أمـةً ذاتَ نظامٍ وعمرانٍ وحضارةٍ راسخةٍ . وكلّ ذلك وفق ما توصلت إليـه خـبرةُ الأجيـال البشرية حتى هذاً الزَّمن . ونظراً لأهمية السُّورة وعُمق موضوعها ستُعرض هنا بشيءٍ من التفصيل .

وانطلاقاً من عنوانها يمكن تقسيمُ السُّورة إلى ثلاثة أقسام . كلّها يخدم هدفها مـن زاوية ما ، لتكتمل حالة العمران . فهي تصنع الحالة ولا تكتفي بتعليمها للمخـاطبين بها .

القسم الأول حتى الآية (٣٢) يضع قواعد العمران الست اللازمةَ لإحياء العـرب . وحددنا العرق المخاطـب هنـا لأن هـذا هـو الواقـع ؛ ولنُفـوِّت الفرصـة علـى دارسٍ لقوانين التاريخ يرى أن شروط النهضة أكثر من هذه أو أقـل . فـالقرآن الـذي ينطلـق من ظروف الأمة المخاطبة ، وضع هذه القواعد لنهضتها وعمرانها وهي :

١- تثبيت الأساس الفكري للنهضة (الآية : ٧) .

٢- اختيار الطليعة القادرة على قيادة الأمة وتربيتها بـالقرآن وبـالنبيّ (نهايـة ٧-٩) . ثم ذكر تحدياتها الرئيسية في الآيات التالية (١٠-٢٥) .

٣- مواجهةُ عتاةِ الأمة المخاطبـة وهُـم عِليـةُ القـوم الـذين يرفضـون التغـيير ابتـداءً ؛ حفاظاً على مكاسبهم في وضعهم القـائم كمركـز للسـلطة والقـوّة في المجتمـع (١٠-١٣) .

٤- تحديد عوائق التغيير والإيمان في النفس البشرية ؛ ليتجنبها المؤمنون ويتحرروا منها ويحرروا الفئات الأقرب إليهم وللفطرة ؛ كي تزداد الطليعة عَدداً وقوة (الآيات ١٤-١٧)

٥- مواجهة الأعداء الفكريين وهم ، في بيئة القرآن يوم نزوله : الفئاتُ المتنازعةُ من بني إسرائيل ومشركو العرب (١٨-٢٥) .

٦- تَمَيُّز الطليعة المؤمنة (٢٦-٣٢) .

والقسمُ الثَّاني مخصصٌ لشجرةِ العمران البشرية وكيفيةِ اختيارها ورعايتِها من الله، وضمانِ بقائها في الأرض لتجديد فطرة الناس كلّما لزم (٣٣-٥٨) ؛ مع نموذجٍ حيٍّ على ذلك من حياة المسيح ونتائج دعوته . ثم الرد على المعتقدات الخاطئة المستقرة في بيئة التنزيل (٥٩- ٩٢) . فتعرضت الآيات للتصورات الخاطئة حول المسيح وإبراهيم والحنيفيَّة ، وتعرضت لبعض خصائص أهل الكتاب لبيان كيفية التعامل معهم ؛ وتشديد اللوم على الذين يَرتدُّون عن دينهم من المسلمين . ويُذكرون هنا لأنهم كأتباع الأديان السابقة بنقدهم للدين الجديد .

وبلفتةٍ لا يقدر عليها إلا الله تأتي آيةُ تشريع الطعام لتقول إن التكوين الوراثيَّ يقف وراء أحكام الطعام . فما حرَّم الله على بني إسرائيل إلا ما حرَّم يعقوبُ على نفسه . والعاقل لا يحرم على نفسه من الطعام إلا ما يضر جسده . وهذه صفةٌ وراثيةٌ تنتقل عادةً من الأب لأبنائه . وتأتي هذه الآيةُ منسجمةً مع الحديث عن شجرة العمران وما تضمنته من بعدٍ عرقيٍّ أو قوميٍّ ودور ذلك في التشريع .

القسم الثَّالث : الأسس المادية والفكرية لبناء الدولة ومواجهة تحديات مرحلة التكوين : تبدأ الآية (٩٥) بذكر الأب المؤسس إبراهيم الذي كان حنيفاً مؤمناً ولم يك من المشركين . وتدعو العرب للعودة إلى الحنيفيَّة ملة أبيهم . ثم تُذكِّرُهم السُّورة ببيتهم العتيق الذي يجتمعون على تقديسه واحترام تقاليده منذ أبيهم إبراهيم . وبمناسبة البيت والكعبة تعاتب الآيات (٩٨-٩٩) أهل الكتاب لتشكيكهم بالبيت وأركان العبادات التي تؤدى به دون سائر الأرض . وهو ما يشكل عندهم عنصر حسدٍ يخفونه ، فيُنَفِّسُون عنه بالتشكيك بالكعبة والقِبلة وأركان الحجّ . وتحذر الآيات (١٠٠-١٠١) المؤمنين من حسد أهل الكتاب ومن طاعتهم فيما يشككونهم به . وتستمر الآيات بتوجيه المؤمنين إلى ما يلزمهم من الاعتصام بكتاب الله

والتَّواصي بالمعروف والتناهي عن المنكر في مجتمع المدينة حيث الدولةُ الأولى التي أسسها النبيّ بتوجيهٍ من الله .

وتنتقل الآيات (١٢١) وما بعدها لأخذ العبرة من نتائج معركة أحد . ومقارنتها بما كان في غزوة بدر . فبالصَّبر والتقوى والالتزام بأوامر القيادة يكون النصر . وباستعجال الغنائم والخروج على أوامر النبيّ كانت الهزيمة . ثم تنظر إلى علاقات المجتمع الداخلية فكي ينتصر مجتمع يجب أن يكون متكافلاً لا ظلم فيه ولا ربا ولا فواحش . ثم تتحدث منذ الآية (١٤٠) عن سنن الله في تدافع الشعوب . وتأتي بعض السنن من دروس يوم أُحُد . ومن أهم دروس أُحُد التزام الشُّورى وخصوصاً من قبل القيادة . فالنبيّ الذي يتلقى الوحي يُطلب منه مشاورة أصحابه والالتزامُ بما يتفقون عليه . ومهما كان فضل القائد أو الحاكم فلن يكون بمنزلة النبيّ . فإذا كان الأخذُ من الغنائم خارجَ القانون محرمٌ على النبيّ وسيعاقب عليه يوم القيامة إنْ فَعَلَه؛ فكيف بسواه من أصحاب السلطة والقرار؟ إنها تشريعاتٌ حاسمةٌ حازمةٌ وضروريةٌ لإنشاء أمةٍ تصنع عمراناً باقياً على الدهر .

ومنذ الآية (١٦٤) حتى الآية (٢٠٩) تهتم السُّورة بصقْلِ المجتمع المؤمنِ ووضعِ أسسٍ لتقييم الناس ؛ لتبقى القيادةُ والمواقع العليا بيد المؤمنين الصادقين ، القادرين على الجهاد والتضحية من أجل المجموع في سبيل الله . تبدأ الآيات بذكر مركز الأمة وشخصيتها الرئيسية وهو النبيّ كمُربّ للأمة ومُوجهٍ لها . ثم تتحدث عن القتال كعقبةٍ لتمييز الناس مؤمنهم ومنافقهم ، قويِّهم وضعيفهم . ويتكرر التحذير من المعارضة ؛ وهي هنا بعضُ أهلِ الكتاب والمشركون والمنافقون . فالآيات تسعى لبناء أمةٍ قويةٍ مُضحيةٍ بالمال وبالنفس ، لتكون مصونةً مهابةَ الجانب . فلا عمران دون هذا . وتأتي خاتمةُ السُّورة متممةً لرسالتها : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾ .

خاتمةٌ تليق بسورةٍ تنزلت لتصنع أمةً قويةً ذاتَ عمران تذكُرُه الأيام إذا استقامت على طاعة الله وتنفيذ أوامره .

في المراجع اللغوية :

المادةُ اللغوية المجردةُ لكلمة العمران هي « عمر » . ومن معانيها في مقاييس اللغة لأحمد بن فارس الرازي « عمارة الأرض » ويضيف قوله « ويسمى الحي العظيم

عمـارة». وعنـد الخليـل بـن أحمـد صـاحب كتـاب العـين : «وعمَـر النـاس الأرض يعمرونها عمارة فهي عامرة ومعمورة ومنها العُمران واستعمر الله النـاس ليعمروهـا والله أعمر الدنيا عمراناً فجعلها تعمر».

وكتب **الفيروزآبادي** في كتابه بصائر ذوي التمييز تحت مادة «عمر»: «العِمَارة : ضدّ الخراب . عَمَر أَرضَـه يَعْمُرهـا فَعَمَـرت هـي . ومكـانٌ معمـور وعـامر ، . . . . والعِمَارة أَخصّ من القبيلة ، وهى اسم لجماعة بهم عمارة المكان».

ولعل أقرب الاستعمالات لمعنى السُّورة ما صـدر عـن مؤســس علــم العمــران عبد الرحمن بن خلدون . يقول في كتابه المشـهور بمقدمـة ابـن خلـدون في وصـف العمران ونقيضه : «والعُمْرانُ ووُفـورُهُ ونَفَـاقُ أسـواقِهِ ، إنَّمـا هـو بالأَعمـال ، وسَـعْيِ النَّاسِ في المَصَـالِحِ والمَكَاسِـبِ ذاهـبينَ وجـائينَ ، فـإذا قَعَـدَ النَّـاسُ عـن المَعـاشِ ، وانْقَبَضَتْ أيـديهمْ عـن المَكَاسِـبِ ، كسـدَتْ أَسـواقُ العُمْـرانِ ، وانتقضَـتْ الأَحـوالُ ، وابْذَعَرَّ النَّاسُ في الآفاق منْ غيرِ تلكَ الإِيَالَةِ في طَلَبِ الرِّزْق فيما خرجَ عن نِطاقِهـا ؛ فخفَّ ساكنُ القُطْرِ ، وخَلَتْ دِيارُهُ ، وخَربتْ أَمْصَارُهُ ، واختلَّ باخْتِلالِـهِ حـالُ الدَّولـةِ والسُّلطانِ ؛ لِمَا أَنَّـها صورةٌ للعُمْرانِ ، تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَادَّتِها ضَرُورَةً» .(الفصـل الثَّالـثَّ والأربعونَ في أن الظلم مؤذن بخرابِ العمران ص ١٢٧)

ويقول أيضاً «الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلـك العمران من الأحوال مثل التَّـوحش والتـأنس والعصبيات وأصـناف التغلبـات للبشـر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحلـه البشـر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسـائر مـا يحـدث مـن ذلك العمران بطبيعته من الأحوال» (الكتاب الأول من المقدمة) .

وينقل عـن المسـعودي قولـه : «إن الملـك لا يـتم عـزه إلا بالشـريعة والقيـام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عـز للملـك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سـبيل للعمـارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الـربّ وجعـل لـه قيمـاً وهـو الملك» (الكتاب الأول من المقدمة)

نخرج من مطالعة المراجع اللغويـة وممـا ورد في مقدمـة ابـن خلـدون أن كلمـة العمران تدور حول ثلاثة أمور : الحياة والعلو ، واجتماع الناس على سـبيل التمـدن ،

وما يلزم للتمدن من إقامة دولة أو نظام يضبط حياة المجتمع وييسرها . وعلى ضوء هذه المعاني سندرس سورة آل عمـران . فـإن وجـدناها تؤسـس لهـذه الأحـوال فقـد صدقت نظريتنا . وإن لم تؤسس لهذه الأحوال فقد خاب الظنُّ منا وعلينا البحث عـن نظريةٍ أخرى لفهم السُّورة .

وقبل البدء بدراسة السُّورة نغلق باباً في وجه المتمحلين . فنذكر أننا عندما نقـول إنها سورة العمران لا نقصـد أبـداً تغـيير اسـم السُّـورة . فقـد سماهـا الله آل عمـران . وستبقى كما سماها الله . فهـي سـورة للعمـران متخـذة اسمهـا مـن قصـة آل عمـران الواردةِ فيها .

قواعد العمران في السُّورة :

أسلفنا اعتماداً علـى المصـادر اللغويـة الموثوقـة أن العمـرانَ هـو الحيـاةُ والنمـو وحيويَّة القوم ضمن نظام سياسي . واستفدنا من ابن خلدون أن من العمـران الحركـةَ الاجتماعية النشطةَ وما يرافقها من نهضةٍ اقتصـاديةٍ وسياسـيةٍ في ظـلِّ نظـامٍ مسـتقر . وسنبحث في السُّورة عن مبادئ هذا العمران مشترطين على أنفسـنا أن نثبـت أن كـلّ آيةٍ في السُّورة تدور حول العنوان وتخدم فكرة تحقيقه للأمة . ونضع في اعتبارنـا أن المجتمع المخاطب موجود على أرضـه ، وأن السُّـورة تبـدأ مـن واقـع معـروف هـو القبائل المخاطبـة باللسـان العربـي ، وأنهـا علـى بقيـة ديـن سمـاوي هـو الحنيفيَّـة . ويعيش مع الأمة المخاطبة أقلياتٌ عرقيةٌ ودينيةٌ أبرزها اليهود والنصارى . وتتـداخل العلاقات بين فئات المجتمع باعتبـار الاتفـاق والاخـتلاف في العـرق والـدين . ومـن وسط كلّ هذه العوامل ستنشئ السُّورة عمراناً بدينٍ جديدٍ موجهٍ رئيسيًّا للعرب الذين كانوا على الحنيفيَّة . وتقدم لهم ما يلزمهم فقـط ، بانيـةً علـى مـا لـديهم مـن مبـادئ العمران .

١- **الأساس الفكري** : الفكرُ مهما كان مصدره هو أساسُ العمل . وهنا يقدمُ القرآن القاعدةَ الفكرية لإنشاء الأمةِ الجديدةِ : يقول تعالى في الآيات (٢-٥) : ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ**

شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٢-٦) .

فالقاعدةُ الفكريةُ والمنطلَقُ للعمران الجديد هو القرآن الكريم . والآياتُ الأربع معاً تشكل أطروحةَ السُّورة ومنهجَ الله تعالى في هداية البشر وفي تحريك تاريخهم .

الفقرة الأولى هي الأطروحة . وهي تنطلق من زاوية الآية الأولى منها ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾(آل عمران:٢). وهي بمثابة الآية الموجهة لفقرة الأطروحة وبالتالي للسورة كلّها . فما معناها؟

الله سبحانه قيوم على ملكه جميعاً . يرقبه ويدير أموره ضمن سُنَّتِه التي لا تختل ولا تتغير . وملكوت الله تعالى واسعٌ متعددُ العناصر ، فأيها المقصود هنا بالعناية والقيومية؟ هذا ما تدلنا عليه الآية الثَّالثَّة ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران:٣) . فالقيوميةُ هنا بتنزيل القرآن على النبيّ بالحق أي وفق خطة مسبقة مصدقا لما بين يديه . وهو كتاب إبراهيم الذي كان هاديا للعرب ببقية تعاليمه حتى نزول القرآن . كما أنزل التوراة والإنجيل على بني إسرائيل .

ولكن التغيير السياسي والاجتماعي عندما يحدث في قومٍ لا بد أن يؤثر على أممٍ أخرى محيطةٍ بالأمة المخاطبة . فهو عالمٌ واحدٌ تتشابك فيه مصالح الأمم قبل التغيير وقد يشتد التفاعل بعده . لذلك جاءت الآيةُ الثَّالثة من الأطروحة . وهي الرابعة من السُّورة لتقول ﴿ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (آل عمران:٤)

وسبق في علم الله أن ذلك الزَّمن سيكون زمن تغييرٍ بالقرآن لكفر القوى المسيطرة على العالم يومها ؛ وظهورُ بوادرُ شوقٍ للعدل في حواضر الجزيرة العربيَّة. فكان حلفُ الفضول ، مثلاً ، وشعرُ حكماء الشعراء كزهير بن أبي سلمى أدلةً على صدق العلم الإلهى وعلى بزوغ الفجر القادم .

ونعود إلى نص الآية التي تبرر عملية التغيير ، فهي تبدأ بشبه جملةٍ عبارةً عن ظرف زمان ، وجاءت بهذه الصيغة غير المألوفة عند العرب لتربط آيتها بما قبلها وتقول لنا إنها تناقش نفس الأمر الذي تناقشه الآية السابقة ، وهو موضوع هداية الله

لأمم الأرض جميعاً . وإذا كان سبحانه وتعالى قد اختار للناس أي لآل إبراهيم توجيهاً مباشراً بكتب إبراهيم وموسى والإنجيل والقرآن مصداقاً لقوله تعالى عن إبراهيم ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ (العنكبوت:٢٧) . فإنه زود بقية الأمم بالعقل القادر على التفريق بين الحقّ والباطل والنافع والضار ، والصواب والخطأ ، والجميل والقبيح . فكان الفرقان ، الناتج عن العقل والخبرة البشرية ، بمثابة الرسالة لبقية أهل الأرض الذين لم تصلهم رسالة سماوية .

وتضمنت الآية كما أسلفنا مبرراتِ التغيير وتوقيتِه . وكلّ ذلك تحت أطروحة قيومية الله على شئون عباده ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ . قائمٌ على أمر الكون كلّه ويتولى أمر بني آدم بالعناية والتدخل بحركة التاريخ . لتقوم الأرض ومن عليها وفق خطة الله . نعم ، وفق خطةِ الله الأصليةِ الموضوعة قبل خلق العالم تقررَ زمنُ إنْزَالِ القرآن على النبيّ . وهذا معنى (بالحقّ) . فالله سبحانه أنزل التَّوراة والإنجيل والقرآن بالحقّ أي طبقاً لما كتب في اللوح المحفوظ من حيث موعد إنزال كلّ منها .

وفكرةٌ أخرى في الآية الرابعة تستحقّ الإبراز . وهي استعمال مصطلح « الكفر بآيات الله » من قِبَل أممٍ ولَّى اللهُ أمرَها لعقلِها . وهذا مختلف عن الكفر بالأديان السماوية . فقد كفرت تلك الشعوب أو الفئات الحاكمة وفق مقاييس العقلِ والحكمة والفطرة . وإنه كفرٌ بقيم الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها . وأولها توحيدُ الله وعبادتُه وتحريمُ الزِّنا وعدمُ ظلم الآخرين . وبذا يزول كلّ تناقضٍ يمكن أن يثيره مُتَمحِّلٌ في ظل هذه الآية العظيمة .

ونعود للتوقيت الذي تفيده كلمة « بالحقّ » . وهو سبحانه مطلع على أوضاع خلقه أجمعين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (آل عمران:٥) كما تقول الآية الخامسة . وبناء على اطلاعه على شئون خلقه فهو يعلم الوقت المناسب للتغيير ، كي لا تفسد الأرض فوق ما تطيق . وأسلفنا أن خطة التغيير الإلهية تتضمن وقت تنفيذها . ويبدأ تنفيذها عند انحراف القوى المسيطرة على العالم انحرافاً يؤدي لفساد فطرة البشر . مع وجودِ بيئةٍ تستحقّ أن تكون حاضنةَ التغيير . فكان نزول القرآن عندما وصلت المجتمعات في جزيرة العرب وما حولها ، حدًّا يستحقّ تدخل السماء .

ففي مركز التغيير الذي استقبل الحدث مباشرةً ازداد عدد ناضجي الضمير القادرين على تقبل الحقّ في مكّة وفي بقية الجزيرة . وبلغ محمدٌ (مركز التغيير)عُمُراً ونُضجاً يستحقّ بهما استقبال نور القرآن . وكان كلّ ذلك كما ورد في اللوح المحفوظ . فنزل القرآن بالحقّ أي وفق الخطة التي راعت منذ البدء كلّ الاعتبارات المذكورة . وكان في الكتاب من الهدى والمواعظ والأحكام والتَّوجيهات ما يكفي لإحياء أمة .

٢- **صنع الطليعة المؤمنة** : ما زلنا ندرس أطروحة السُّورة ؛ ولكنا نفرد عنواناً خاصًّا للآية السادسة والأخيرة من أطروحة السُّورة ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (آل عمران:٦) . ولكن لماذا اعتبرنا هذه الآية جزءاً من الأطروحة وليست بداية تفصيل الأطروحة ؟ لأن موضوع الآية لا يشبه موضوع أيٍّ من الآيات السابقة ، وليست تكراراً أو تفسيراً لأي من الأفكار الواردة في الآيات السابقة لها إلا كونها جزءاً من مظاهر قيومية الله تعالى . وهذا في حد ذاته يكفي لمعرفة موقع الآية ويساعد في تحديد معناها . والآية ، زيادةً على ذلك ، تؤكد أصالتها وعدم تبعيتها ، وتُظهِر جانباً فريداً من تدخل إرادة الله بصنع التغيير . فالآيات الأربع السابقة تخاطب النبيّ بصيغة المفرد لا تشرك معه في الخطاب أحداً من خلق الله . ولا عجبَ في ذلك فهو محورُ التغيير ومحطةُ النُّور الآتي من السماء . ثم يتغير الخطاب في هذه الآية ليتوجه مباشرةً إلى الطليعة التي ستتبع النبيّ وتنصرُه وتحملُ معه عبء التغيير . إنها قوة التغيير البشرية والقيادةُ القادمة . فهي تستحقّ أن تخاطَب مباشرة . لهذه الأسباب اعتُبِرَت آيةَ الطليعة . وتدل الآية أن الله سبحانه يبدأ إعداد عملية التغيير منذ أن يكون طليعةُ التغيير أجنةً في بطون أمهاتهم . فهم كطليعة لا بد أن يتمتعوا بأشكال مقبولةٍ وغيرِ منفرةٍ لمن يراهم وبتكوين نفسي وذهني يُسَهِّلُ عليهم اتباعَ الحقّ ومغالبة الباطل ومواجهة تحديات قيادة شعبهم عندما ينتصرون . لهذا يبدأ الله صنع طلائع التغيير ومواعيد ظهور أفرادها والأماكن اللازمة لظهورهم بما يخدم خطته سبحانه . وربط بعض المفسرين هذه الآية بخصوصية خلق عيسى ابن مريم الواردة في السُّورة (الطبري والزمخشري والرازي والقرطبي وابن كثير والشوكاني وآخرون) . ولم يلاحظوا أنها موجهة

للمخاطبين بالقرآن ولا لاحظوا مكانها من السُّورة لاستنتاج معناها الصحيح . ويأتي تفصيلها في أواخر السُّورة حيث يكون النصر والنجاح في مواجهة التحديات لمن يمتلكون القيم الأعلى كالصَّبر والجُوْد والقدرة على الالتزام والتصديق بالغيب . ومبادئ هذه الصفات مما يُحمَل على العوامل الوراثية للإنسان وتؤثر فيها البيئة سلباً أو إيجاباً .

٣- **صياغة القرآن والطليعة** : بعد الأطروحة عاد الحديثُ إلى حيث بدأت الأطروحةُ في وصف إنزال القرآن . ثم انطلق مسرعاً إلى إحدى خصائص القرآن التي لا يقدر عليها إلا الله العليم الحكيم . وهي جَعْلُ النصِّ نفسِه مقياساً وضابطاً لانضمام الطليعة إلى صحبة النبيّ ، وإغلاقِ الباب في وجه من لا يصلح لتلك المكانة العالية . ولننظر في نص الآيات ٧-٩ من السُّورة :

﴿ **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ** ﴾ (آل عمران:٧-٩)

بدأت الآية السابعة بذكر إنزال القرآن وذلك استمراراً للآية الثَّانية من السُّورة . ثم تحدثت عن آياتِه التي صيغت بعنايةٍ لا يقدر عليها إلا الله . فمنه آياتٌ محكماتٌ تقوم بهن الحياة ويحدث على نورهن التغيير . وفيه آياتٌ متشابهاتٌ يحفظن طلائعَ التغيير من أن يندس بينهم من لا يصلحون للتغيير . الذين لن يزيدوا الطليعة ، لو كانوا معها ، إلا خبالاً لما في قلوبهم من زيغ . وتأتي هذه الآيات تفصيلاً لما سبق في سورة البقرة (٢٦) .

وقد يتساءل متسائل : كيف يرضى أولو الألباب وهم الطليعةُ الفعالة ذاتُ الهمة والإرادة والإيمان ، كيف يرضون لأنفسهم التسليم وفي النص ما يُحرِج عقولهم ؟ فهم أمام آيات لا يعلمون تأويلها فكيف يقولون : آمنا به ، كلّ من عند ربّنَا! وما هو هذا الكلّ الذي آمنوا به؟ وجوابي على ذلك وبناءً على حالة عشتها مع الآية الرابعة من سورة الرعد ، أن في الآية المتشابهة من القوّة والإعجاز ما يؤكد أنها من عند الله .

ولكن فيها حقيقةً لم يكشف الزَّمن سرها بعد . فيغضون الطرف عن الجزء الغـامض منها بسبب قوة الجزء الواضـح . وينظـرون للجـزئين كوحـدةٍ واحـدةٍ مُتأكـدين أنهـا جميعاً من عند الله .

وينشغل الذين في قلوبهم مرضٌ بالجزء المتشابه يريدون تفكيكه ليحـول عملُهـم دون دخولهم في الدين . فترتاح الفئةُ الجادةُ منهم ومن تمحلـهم النـاتج عـن ضبـاب عقولهم وزيغ قلوبهم . وما كان ذلك الضباب إلا من آثار ذنوبهـم وفسادهـم وهـم لا يعلمون .

ونعود إلى ما كنا فيه ، ندور حول الآيات (٧- ٩) . فبعد ضمانِ اجتذاب الطليعةِ الحقيقيّة وتصديقِهم القرآنَ والنبيّ وتسليمِهم وجوههم لله ، يترقى هؤلاء في معارج الإيمان . ويصلون مرحلةَ الشعور بالامتنان لله على ما هم فيه ، وينمو إيمانهم حتى يصير أغلى عندهم من الحياة ، ويكونون أحرصَ عليه من الوالدة على ولدها متوجسين خيفةً أن يفقدوه . يدعم شعورهم ذاك إيمانهم بيوم الحساب . فيخلصون لله ولا يُخشى انحرافهم في حال امتلاكهم للقوة والسلطة . فيكونون ضمانةً حقيقيةً للتغيير . كما أنهم بقوة إيمانهم قادرون على مواجهة عتاةِ المجتمع المتسلطين الأشداءِ والمحاطين بغالبيةٍ عظمى من المستفيدين من الوضع القائم والمحافظين إخلاصاً وخوفاً من التغيير . إن معركة التغيير صعبةٌ وقاسيةٌ ويحتاج القائمون بها إعداداً دقيقاً وأصيلاً ، يبدأ من البداية المبكرة للإنسان كما رأينا في الآية السادسة . أي مذ هم أجنةٌ في بطون أمهاتهم . ومن حيث الصياغةُ صار الخطاب صادراً عنهم علامةً على توحدهم مع إرادة الله بالتغيير . فجاءت الآيتان (٨-٩) على لسانهم وكأنها صادرةٌ عنهم . . ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ** ﴾ (آل عمران:٨،٩)

٤- **مواجهـة العُتـاة :** العتـاةُ هـم قيـادةُ المجتمـع وقـواه الظالمـة الـتي تسـتميت في المحافظة على مواقعها ، وترفض التغيير بـل تقاومـه وتحاربـه . ويبـدأ الحـديث عنهم بالآية العاشرة وكأنه قاعدةٌ عامةٌ موجهةٌ للـنبيِّ . والعتـاة المقصـودون هنـا هم صناديد الكفر من قريش . وتضـرب الآيـة الحاديـة عشـرة مثلاً للعتـاة بـآل فرعون . وهي التفاتةٌ ذات قيمةٍ كبيرةٍ ولا نكاد نشعر بها كحقيقةٍ اجتماعيـةٍ ، إلا عندما تبدأ معركة التغيير . قبل ذلك يَظُن الناس أن فرعـونَ وحـدَه سـرُّ الشـقاء

والظلم . فإذا بحاشيته أشدُّ منه عتواً . ثم يتوجه النص إلى النبيّ يأمره بإبلاغ الكفار أنهم مغلوبون لا محالةَ ، وبعد الهزيمة تنتظرهم جهنم . وفي آيةٍ موجهةٍ للطليعة المؤمنة تؤكد لهم انتصارهم بعون الله وبدليلٍ شهدوه بأنفسهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (آل عمران: ١٠-١٣)

وهكذا تُوظَّفُ الآياتُ لرفع معنويات الطليعة المؤمنة ، وتخذيلِ العتاة من المحافظين على عهد الظلم القديم . ومن حيث الصياغةُ نلاحظ قاعدةً أساسيةً في الخطاب القرآني تعمق الجانب الفكري فتزيد المؤمنين بهجةً والكفار خذلانا . وهي أن الخطاب المباشر من الله تكريمٌ للمخاطب ؛ وبه خوطبت الطلائع المؤمنة . بينما يُذكَر الكفارُ بصيغة الغائب أو من خلال النبيّ « قل للذين كفروا ».

٥- فتن الطليعة والقيادة : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران: ١٤-١٧)

احتار كثيرون بشأن كلمتي الناس والنساء في الآية الأولى (١٤). وما زالوا يتساءلون عن سر صيغتها . فكلمة الناس بالمفهوم الشائع تشمل الرجال والنساء فكيف تقتصر هنا على الرجال أم أن المقصود بالنساء شيء آخر؟ ولكن سورة آل عمران ما زالت تعرض شئون الطليعة التي ستكون قيادةَ المجتمع المؤمن القادم . فهي تنبه تلك الطليعة إلى ما سيواجهها من فتنٍ عندما تؤول إليها الأمور وتقود عمليةَ العمران . فبصفتهم قيادةً سيقترب منهم من يزين لهم الشهوات المذكورة في

الآية . المنافقون يزينون لهم والبطانة تزين لهم والشيطان يزين لهم فليحذروا . فالناس هنا وردت بمعناها الأصلي أي خيرة المجتمع وقيادته . أو الفضلاء من الناس كما يقول الفيروزآبادي في البصائر (مادة نوس) . وقد يُقرب فهمها قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٥٤) . فالناس هنا من كانوا بمنزلة الأنبياء والملوك وهم جميعا رجال يوم تنزل القرآن . فمع وجود مؤمنات بين المهاجرين إلا أن القيادة بقيت بيد الرجال . ومِثلُ هؤلاء من يتعرض لإغواء شياطين الإنس والجن . وتتيسر لهم شهوةُ النساء كما لا تتوفر لعامة الناس ، ويليق بهم اقتناء الخيل ويحرصون على جمع الذهب والفضة لتكتملَ به أبهةُ السلطة . وبهذا الفهم للآية ينتهي التداخل بين الناس والنساء .

ولأن فتنتهم شديدةٌ تطلب الآيات من النبيّ أن يخبرهم بأن ما ينتظرهم عند الله ، إن صبروا على الشهوات ، خيرٌ من كلّ الملذات التي يحرصون عليها في حياتهم الدنيا . فحسب الآية (١٥) عند الله جناتٌ تجري من تحتها الأنهار وأزواجٌ مطهرةٌ ورضوان الله الذي يفوق كلّ متعةٍ حسيةٍ . وتأتي كلمة «قل» في بدايتها لنعلم أنها للمؤمنين الذين يمكن للنبيِّ أن يخاطبهم مباشرةً فهم صحابته . وتأتي الآية (١٧) لتؤكد أن المطلوب ليس مجردَ إيمانٍ عادي . بل هو إيمانٌ طليعة التغيير التي تتفاعل مع المجتمع وتصارع النفس حتَى تنتصر . ولذلك تحتاج أن تَصدُقَ وتَصبِرَ وتُنفِقَ في سبيل الله . لا أن تجمع وتستمتع بما ييسره الجاه والمنصب .

٦- **مواجهة أتباع الأديان السابقة** : انتهى الحديث عن الجماعة المُستهدفة مباشرةً . ويبدأ الحديث عن مواجهةٍ فكريةٍ مع أتباع الأديان القديمة الذين يقاومون الدين الجديد حسداً وتمسكاً بمعتقداهم القديمة . فقد تربّوا على أنهم أتباعُ الحقّ الوحيد على وجه الأرض . ولا يتحملون صدمةَ ظهور دينٍ جديدٍ سواءً أكان تجديداً لدينهم كحال المشركين الذين يعبدون الله ببقيةٍ الحَنيفيَّة وما أضافوا إليها ، أم مختلفاً عن دينهم كاليهود والنصارى الموجودين في منطقة الدعوة الجديدة .

وتبدأ الفقرة بآيتين حاسمتين بتعريف العقيدة التي يدور حولها الدين الجديد . ثم تتحدث عن سبب الاضطراب في عقائد الدينين السابقين . وهو اختلافٌ ناتج عن

الاجتهاد البشري في النص الإلهي كما هي طبيعة البشر . في الآية (٢٠) توجيهٌ للنبي إلى كيفية الحوار مع الفئات الثّلاث التي كانت تعترض سبيل الدين الجديد ، وهم المشركون واليهود والنصارى .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:١٨-٢٥)

تبقى ملاحظة جديرة بالذِّكر وهي إبراز أحد نماذج انحراف أتباع الأديان القديمة . وهو اتباعهم فتاوى رجال الدين المتساهلة ؛ التي تكون عادة في عهود الترهل الخلقي وما يرافقه من تراجعٍ وتفككٍ لأواصر المجتمع . فيلجأ الوعاظُ للتساهل طمعاً في اجتذاب الناس للدين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ (آل عمران:٢٤) .

٧- **تميز الجماعة المؤمنة** : تبدأ مجموعة الآيات (٢٦-٣٢) بدعاء يُعلِّمه الله لرسوله . ويكاد الدعاء يُلخص فكرةَ السُّورة ، ويُبرز منهجَ الله في تدبير شئون الحكم ورفع قومٍ وخفضِ آخرين . فهو مالك الملك يُديلُه بين الناس لما فيه خيرهم . فالأنفع أولى بإدارة شئون الناس ، على أن لا يبتعد بهم عن العرف القائم على سلوك الفطرة . وللرزقِ أو الشأنِ الاقتصادي دورٌ في إدارة شئون الناس كما نفهم من الآية (٢٧) . ثم تبدأ التَّوجيهاتُ الملزمة . فالمؤمنون أمةٌ دون الكافرين . والكافرون هم الذين يعترضون على الدعوة الجديدة ويرفضون

التغيير . ومن يخُن هذه التعليمات ويستمر بإقامة علاقات مع المعاندين للتغيير المعطلين لنمو الأمة فليس بمؤمن ، ولا مكانةَ له عند الله إلا أن يكون ذلك تقيةً لسببٍ قاهرٍ . فالله لا يخفى عليه شيءٌ ، وهو سبحانه يُحذِّرُ هؤلاء المعاندين من يوم حسابٍ شديدٍ . ويؤمر النبيّ بالحزم في موضوع الموالاة ، ليجعل منه فيصلاً بين الطاعة والعصيان كما تقول الآية (٣١) . وتنتهي الآية (٣٢) بنداءٍ على لسان النبيّ بضرورة طاعة الله ورسوله ؛ وإلا فإن الله لا يحب الكافرين :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:٢٦-٣٢) .

في قسمها الثَّاني (٣٣-٩٤) تعرض السُّورة سنة الله في إحياء الشعوب بواسطة سلالاتٍ من الأمة المقصودة بالإحياء سميناها شجرة العمران . ويتضمن العرض نموذجاً من تنفيذ سنة الله على جيلٍ من بني إسرائيل أرسل الله إليهم عيسى ابن مريم. ويبدأ سرد المثل منذ معاناة الحمل بعيسى ويحيى . ليشمل موقفَ بني إسرائيل من المسيح وانقسامهم إلى يهودَ ونصارى وصابئة . ليصل إلى موقفهم من العرب بعد أن أنعم الله عليهم بنبيٍّ وكتابٍ وبتجديد الكعبة . فيظهر في المنافسة بين الفئتين بُعدٌ قوميٌّ يثير فيهم رغبتهم أن يكونوا شعب الله الوحيد على الأرض . فتحرمهم الآيات بأدلةٍ قاطعةٍ من احتكار بركة إبراهيم ومكانته . وتؤكد أنه كان رسول الله للعرب فقط . واستمراراً للتنافس القومي تُختَمُ آيات هذا القسم بالبعد القوميِّ للتشريعات التي

جعلها الله لهم ؛ ليذكرهم أن مُحَرَّمات الطعام مثلا كانت مما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه . وهم غالباً تبعٌ لأبيهم في ما ينفعه وما يضره من الطعام . فلماذا يحسدون العرب أن أرسل الله لهم نبيًّا بشريعةٍ تناسب ظروفَهم وتكوينَهم الجسديَّ والنفسي كما كان لبني إسرائيل؟

شجرة العمران : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (آل عمران:٣٣،٣٤)

منذ البدء وضع الله خطةً ثابتةً لإحياءِ الأممِ عند موتها ، ولاستعادتها عند تراجُعها وتدهورها باعتبار قيم الفطرة التي فطر عليها ذرية آدم . وذلك من خلال بيوتٍ أو سلالات رجالٍ صفَّاهم اللهُ واصطفاهم ؛ كي يكونوا مؤهلين لاستقبال نوره سبحانه ونشره في قومهم . ومن أبرز من خلصه الله لهذه المهمة بعد آدم آل إبراهيم وآل عمران . فالله سبحانه يجدد الأمم بأفرادٍ منها ينتمون لعائلاتٍ معينةٍ قادرةٍ على التجدُّد والاحتفاظ بقيم الفطرة والإيمان .

وعائلاتُ التجديد والإحياء بعضُها ينشأ من بعضٍ ، فإبراهيم من شيعة نوح وعمران من ذرية إبراهيم . ونحن هنا نتكلّم عن تجديد العمران والإحياء على يد نبينا الأمين ، وهو من آل إبراهيم ، وبواسطة القرآن الكريم . والقرآن يتكلّم عن شعوب المنطقة التي تَوَلَّد معظم سكانها من إبراهيم أو اختلطوا بدماء آل إبراهيم . وأتوقف هنا لأُذَكِّرَ بموضوع الآية السادسة وما كتبت تحتها عن دور العوامل الوراثية في صنع الطليعة ولعلمي أن فهمي للآية سيتعرض لنقدٍ شديدٍ . فتأتي هاتان الآيتان لتؤكدا أمراً مشابهاً لما أسلفت وعلى مستوًى أعلى كثيراً وهو النُبُوَّة مركز التغيير .

من نماذج الإحياء وتجديد العمران : شاء الله أن يكون المثلُ الذي ضربه للنبيِّ مُمَثلا لسنتِه في إحياءِ الشعوب وتجديدِها ، هو الذي استعمل فيه أضعفَ أدواتِ التغيير وأنعمها . ومع هذا نجحت الخطة وآتت ثمارَها كسواها من مناشئ العمران الربّانية . فبدأ القصةَ من ميلاد مريم ابنة عمران . بل نراها أوَّل ما نراها جنيناً بلا حولٍ ولا قوةٍ لامرأةٍ أرملةٍ تُنذِرُ ما في بطنها محرراً لله (الآية ٣٥) . ثم يولد الجنين فإذا به أنثى . وماذا تفعل أنثى لأُمةٍ ميتةٍ في تلك الأيام؟

ثم يدخل على خط الإحياء يحيى . الذي سماه الله ولم يجعل له من قبل سميًّا . وفي اسمه دلالةٌ أخرى على العمران . وميلاده لم يكن عادياً فالأب زكريا بلغ من

العمر عتيًّا . وكانت امرأتُه عاقراً حسب ما كان يعلم زوجها . وكلّ هذه المعطيات ليتأكد نبيُّنا المخاطب بالقرآن أن الله يفي بوعده ؛ وأن سنةَ الله ماضيةٌ في إصلاح الشعوب وإحيائها بعد الموت . ولن يعدَمَ القديرُ الوسيلةَ . فمن أرملة عمران تأتي الصديقةُ مريم . ومن امرأةٍ عاقرٍ يأتي يحيى .

وتصل مريمُ العمرَ الذي تستطيع به أن تستقبل نفحةَ الله لتكون روحَ المسيح . ولا أجد أفضل من القرآن راويةً للقصة فلنقرأ منه قصة إحياء بني إسرائيل رغماً عنهم :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ٤٥-٥٨)

هذه قصةُ إحياءِ بني إسرائيلَ وتعميرِهم بابنة عمران . وإذا كان سرُّ دعاء زكريا المليءِ باليأس من قومه واضحٌ في سورة مريم ، فإن في هذه الآيات دلالاتٌ قويةٌ على طبيعة موت بني إسرائيل والتي جعلت غالبيتَهم تنكرُ المسيح ولا تتبعه .

ونفهم سبب اختيار هذا المثل التاريخي لسورة آل عمران دون سواه . فقد اجتمعت له كلّ عواملِ الفشل بالمقاييس البشريةِ لكن اللهَ يسر له كلّ عواملِ الحياة فنجحِ بما تطيقُه قوانينُ اللهِ لأهل الأرض . آمن بالمسيح فئةٌ من بني إسرائيل هُم خيرتُهم . وكانت للذين آمنوا بالمسيح حياةٌ وعزةٌ على الذين كفروا من معاصريهم فكانوا أشرف قدراً وما زالوا يذكرون بالاحترام وسيبقى ذكرهم بإجلالٍ إلى يوم القيامة كما تخبر الآيات .

العلاقة مع الأديان السابقة : ونعود إلى شجرة العمران وتفاعلاتها ، فمعروف أنه كلّما تبرعمت شجرةُ عمرانَ وانطلقت بنموٍّ جديدٍ نشأ دينٌ جديدٌ حتى لو كانت تهدف لإصلاحِ دينٍ قديمٍ . فكان مولود شجرةِ آل عمران الجديدُ هو النصرانية . وبذا فإن على الإسلام كدينٍ جديدٍ أن يواجه ثلاث مجموعاتٍ دينيةٍ قديمةٍ بدل الواحدة التي جاء يجددها وهي الحنيفيَّة المشوهة بالشرك . والدينان الآخران هما اليهودية والنصراينة باعتبار قلة أعداد الصابئة من أتباع يحيى بين العرب .

فتأتي الآياتُ (٥٩-٨٥) لتوجيه النبيّ بشأن أتباع هذين الدينين . وكانت البداية مع الأقرب منهما دماً وخلقاً وهو النصرانية . فكانت المباهلةُ المعروفة واكتفى الله من النصارى أن يوحدوا الله ولا يتخذوا سواه ربّاً وأن لا يتجاوز رجالُ الدين حدودَ وظيفتِهم إلى استغلال رعيتهم . يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾

(آل عمران:٥٩-٦٤)

ولكن الأمر كان مختلفاً مع اليهود . فبدأ الحوار معهم من قضيةٍ رابحةٍ من زاوية الإسلام وخاسرةٍ من زاويتهم . وهي قضية إبراهيم . فإبراهيم أبٌ مشتركٌ لأتباع الأديان الثَّلاثة . لكنه رسول الله للعرب بالحنيفيَّة مع ولده إسماعيل . ومع هذه الحقيقة الساطعة يزعم أناسٌ من اليهود والنصارى أن إبراهيم على دينهم . ويرد عليهم القرآن مستعملاً الحجّة التاريخية . فعندما كان إبراهيم لم يكن يهودية ولا نصرانية . فاليهودية بدأت بالتَّوراة التي نزلت بعد موته بقرون . وتؤكد الآياتُ أن أتباع إبراهيم هم العرب الأحناف ومحمدٌ والذين آمنوا معه . وفي هذا إشارةٌ لهم أن العرب أسبقُ إلى الدين السماوي وأعرقُ من بني إسرائيل .

وتوظف قضيةُ إبراهيم القويّةُ الواضحةُ ، لفضح موقف طوائفَ من أهل الكتاب وإلزَّامِهم بحجمهم الحقيقي الذي تجاوزوه كثيراً بسبب ظنهم أن الله وإبراهيم لهم وحدهم . دون أن تنال الآياتُ من منزلة الأمناء من بني إسرائيل : ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران:٧٥)

وتستمر الآياتُ بين تشجيعِ الفئات القريبة منهم لتقريبها من الإسلام أكثر ، أو على الأقل وضعها في موضع المُهادن للدين ، وتجنب تشويشِها على الدين الجديد ، وبين فضحِ الفئاتِ المعادية وإظهار تناقضاتِها . وتحرص الآياتُ على إبراز حقيقةٍ هامةٍ للموقف يومها ، وهي أن أهلَ الكتاب ليسوا مرجعاً سليماً للحقائق الدينية (آية ٧٨ المصاغة بطريقةٍ تهكميةٍ لكنها صادقةٌ) فهم يلوون ألسنتهم بما يشبه الكتاب وليس منه . وهي معلومةٌ هامةٌ تحطم هالةَ أهل الكتاب ومكانتهم في نفوس أميين مفطورين على احترام من يفضلهم بالعلم . وبذا فإن الحوار مع أهل الكتاب كان يهدفُ إلى تعظيمِ المشتركِ وإلغاءِ المخالف للعقيدةِ القويّمةِ ليقوم المجتمعُ كلّه على أرضٍ صلبة .

ولِيكفَّ بنو إسرائيل عن حسدهم للعرب ومحاربتهم للدين الجديد تُذكرُهم الآيات بالبعدِ الوراثي والعرقي لأحكامِ الطعام فهي خاصةٌ ببني إسرائيل ولا تصلحُ لغيرهم ﴿ **كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن**

﴿قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (آل عمران:٩٣،٩٤) .

ونعود إلى نصِّ الآية ودورها في نشوء الأمم. فهي تتكلّم عن ما يحرُم من الطعام. وتقول إن يعقوبَ كان مقياساً ومرجعاً لذريته في ما حُرِّم عليهم من طعام . ويفهم ضمناً أن يعقوبَ يحرم على نفسه ما يضر جسده وما لا تستسيغ نفسه . والأولى قضيةٌ وراثيةٌ والثَّانية بيئيةٌ تؤكدها التربية . وهاتان مما يُورثُ الآباءُ للأبناء . وبذا فإن التحريم لا يكون إلا لضررٍ يسببه الطعامُ لجسم الإنسان أو أذًى يسببه لنفسه . وليس في الأمر استبدادٌ ولا تضييقٌ على الإنسان . وبذا نعرف فلسفةَ التحريم وبعدَها القومي والوراثي .

الأمة الجديدة :

١- **الأب المؤسس** : كما كان يعقوبُ لبني إسرائيل كان إبراهيمُ للعرب . وكان لهم أولاً : أبوةً ورسالةً ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:٩٥) . وبذا يُذكِّر العرب بجدهم وبأنهم الأقرب إلى أبيهم إبراهيم من بني إسرائيل . الذين بدأ كيانُهم كشعبٍ بيعقوبَ وكأصحابِ رسالةٍ بموسى والتَّوراة . وفي هذا حافزٌ للعرب ليعرفوا تميزهم وينحازوا لنبيهم الذي سيجددُ لهم المجدَ والدين .

٢- **البيت والقبلة** : بإن التَّوكيدية الابتدائية تبدأ الآية (٩٦). فالبيت الذي تلتف حوله الأمة وتتجه إليه ، وتلتقي على احترامه وتقديسه ، شرطٌ أساسي من شروط إحياء أمةٍ بالدين كأمة العرب . ولا توجد أمةٌ واعيةٌ إلا وتحاول اتخاذ مقدساتٍ لها على غرار الكعبة . ولا تكتفي الآيةُ بتحديد الكعبة بيتاً للعرب بل تؤكد أنه أولُ بيتٍ وضع لهم ، مباركاً وهدًى لهم جميعاً ، ما داموا على دين محمدٍ وإبراهيم . وهو قبلتُهم ومحجّهم وساحة أمنهم وأمانهم . واكتفت آيةُ البيت بذكر الحجّ تلك العبادة العربيَّة التي لم ينزل نظيرٌ لها على بني إسرائيل ولا على أي أمةٍ من الأمم . ويرد موضوع القبلة هنا ردًّا على شبهات بني إسرائيل عليها :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦،٩٧)

٣- **أمة الإيمان** : ردا على شبهات يثيرها بنو إسرائيل حولَ موضوع القبلةِ حسداً وجهلاً بالدين . تتنزل باقةٌ من الآيات تبدأ بخطاب بني إسرائيل بصيغة الخطاب غير المباشر دليلَ غضبِ الله عليهم . ثم تتجه الآيات بخطابٍ مباشرٍ للمؤمنين ، تحذرهم من طاعة أعدائهم وتنصحهم بمفاصلة المعارضة ؛ وبحصر موالاتهم بجماعتهم المؤمنة ، وبالتقوى والوحدة وعدم التفرق . وهذا ما يلزم لجماعةٍ منذورةٍ لتكون نواة أمةٍ حيةٍ . وهو موضوع الآيات (٩٨-١٠٩) : ﴿ **قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ (آل عمران:٩٨-١٠٨) .

٤- **الطليعة المؤمنة والتعامل مع الأقليات الدينية** : تبدأ الآية (١١٠) خطابَها للطليعةِ المؤمنةِ مبينةً سبب خَيريتهم أمام عجز يهود المدينة عن دورٍ نزيهٍ تجاه الدين الجديد . يقول تعالى :﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ** ﴾ (آل عمران:١١٠) . والطليعة المخاطبة هنا هم المهاجرون . وليس كلّ الأمة الإسلامية كما يظن أناس في هذا

الزَّمن . فهم الذين أخرجهم الله من مكّة إلى المدينةِ فيكون معنى كلمة الناس الواردة في الآية أهلُ المدينة . أي أن الأنصار لا يدخلون في الخطاب ، ولا ينقصهم هذا حقّهم شيئاً بما قدموا . وتبين الآيةُ مناط الخيرية : الإيمانُ بالله والهجرةُ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر . أي حملُ الدين والتحركُ به في المجتمع . ولنعلم المكان الذي تتحرك فيه الطليعة ، ختمت الآية بذكر موقفِ يهود المدينةِ من نشاط الطليعةِ المؤمنة . فمن يهود المدينة مؤمنون ومنهم فاسقون . ولم يسمهم كافرين !

وكان اليهود أكثرَ عدداً من المهاجرين . فهم عدةُ قبائلِ بينما كان عدد المهاجرين حوالي مائةَ رجلٍ . فنزلت الآيات تطمئنهم وتزيل رهبةَ اليهود من قلوبهم . ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ** ﴾ (آل عمران: ١١١،١١٢) . وهذا الوعدُ بهزيمةِ اليهود وذلِّهم خاصٌّ بيهود المدينة يومها . ولا يجوز تعميمه على كلّ بني إسرائيل على امتداد الزّمان والمكان كما يظن بعض الناس .

ولم تَضَع الآياتُ كلّ أهل الكتاب في صفٍّ واحدٍ مُعَادٍ . فمنهم جماعات مؤمنة ويمارسون الصلاح والإصلاح ويحسب لهم ذلك عند الله كما تقول الآيات (١١٣-١١٥): ﴿ **لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ (آل عمران:١١٣-١١٥) . وبذا تفتح الآيات باباً للود مع هذه الفئة مع إمكانية دعوتها للإسلام . وفي نفس الوقت يرتاح المؤمنون من عداوتها ومكرها . ونزول هذه الآيات قد يدفع الفئةَ المؤمنةً من أهل الكتاب للمصالحةِ مع الدين الجديد وطلائعِه .

وتعود الآيات (١١٦-١٢٠) إلى الفئة الكافرة من اليهود وتنذرهم بسوء العاقبة ، وتحذر المؤمنين من صداقتِهم واتخاذ بطانةً منهم يستشيرونها ويوالونها ؛ لأنهم لا يتمنون للمؤمنين إلا الشر والهزيمة . ولعل بعضَ المؤمنين كانت تنطلي عليه

عذوبةُ كلامهم وظاهرُ كرمهم مع المؤمنين ؛ لذلك كان عتابٌ شديدٌ للمؤمنين بسبب موالاةِ بعضِهم لبعض اليهود . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران:١١٨-١٢٠)

وتأتي قسوة العتاب هنا بسبب عدم انتباه العرب الأميين لمكر أقليةٍ منظمةٍ عريقةٍ معتادةٍ على العمل السري كبني إسرائيل . . فقد سبق وحذرتهم الآية (١٠٠) من موالاة اليهود ، ولم يطيعوا فجاءت هذه الآيات لتقول لهم إنهم أخطأوا . وبعدها مباشرةً يأتي ذكر معركة أحدٍ ويبدو أن لموالاة اليهود دوراً بهزيمة أحد!

٥- **أسباب النصر والهزيمة** : بالإضافةِ إلى موالاة الأعداء والمعارضة كسببٍ للهزيمة تذكر الآيات (١٢١-٢٠٠) أسباباً أخرى للهزيمة ، وأسبابَ النصر في دروسٍ عمليةٍ عاشها المؤمنون في غزوتي بدرٍ وأحد . وتختلط عِبَر الغزوتين مع توجيهات في السياسة والإدارة ، لا بد منها لقيام أمةٍ وعمران . ولكننا في هذه الفقرة معنيون بأسباب الهزيمة وأسباب النصر . والنصر والهزيمة ، للفئة المؤمنة التي صنعها الله ، مقرران سلفاً وقبل المعركةِ بناء على ما قدمته الجماعة المؤمنة من عملٍ صالحٍ وطاعةٍ لله أو معصيةٍ .

وكمثل يعرفه المخاطبون حول أسباب النصر تذكرهم الآيات (١٢٣-١٢٩) بغزوة بدر وكيف نصرهم اللهُ وهم أقلةٌ أذلة ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٣) وتواصل الآيات ذِكر طرفٍ من عون الله للمؤمنين يومَ بدر .

ونعود إلى بداية هذه الفقرة لنشاهد النبيّ وهو يُدير أمور المعركة في أُحد ، ويُحرض المؤمنين على القتال ، ثم نُفاجأُ بفئتين مؤمنتين توشكان على الفشل : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

(آل عمران:١٢٢).

ونفهم هنا طرفاً من قَدَر الله في النصر والهزيمة . ويأتي هذا الدرسُ في بداية ذِكرِ معركة أحدٍ ليكون مقدمةً لِما بعده . طائفتان من المؤمنين الصادقين توشكان على الفشل . ولا نعرف سبباً حتى الآن سوى موالاةِ المعارضة . ولكن الله منعهما من الفشل لإيمانهما وسابقِ عملهما . وكذلك يتدخل الله لحماية العبد المؤمن إذا هم بفعلٍ لا يليق به بناءً على سابق أعماله .

الآية (١٣٠) تذكر سبباً آخرَ للهزيمةِ هو انتشار الربا في الجماعة المؤمنة : **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾** (آل عمران:١٣٠) ولا أجدُ الأمر بعيداً عن المنطق ؛ فوجودُ الربا يدل على عدم التكافل في الجماعة المؤمنة . وكيف ينتصرُ من يزعمون الإيمان إن تخلوا عن أول صفاتِ الجماعة المؤمنةِ وهي الأخوة .

الآية (١٣٥) تذكر الإصرار على الذنب في مجال تعليلِ هزيمة أحدٍ بعرض الفعل الإيجابي المقابل تماماً : **﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾** (آل عمران:١٣٥) . طاعةُ الله ورسوله والإنفاقُ في سبيل الله وسرعةُ التَّوبة والالتزامُ بالجماعة المؤمنة من أسباب النصر يكتبه الله للمؤمنين .

وبعيداً عن المجاملة تقول الآية (١٥٥) للمؤمنين وفي ساعة الشدة والهزيمة القاسية : **﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾** (آل عمران:١٥٥) . وهؤلاء الذين تولوا صحابةٌ مؤمنون . نقول هذا لا لنشهر بصحابة النبيّ لكن لنذكر بأن الله تعالى جدُه لا يحابي ؛ وإن كان يسجل للسابق سابقتَه ويُقدرُها له .

٦- **القائد والشُّورى** : نظراً لقوة الدروس التي سجلتها السُّورة من معركة أحدٍ يشعر الدارس أن الهزيمة كانت مقصودة . فما كان لنصرٍ أن يصنع مثل هذه القيم الأساسيَّة والضرورية لبناء المجتمع . فلا تستطيع قوةٌ في الأرض أن تُجبِر منتصراً على تغيير سلوكه السهل إلى أصعبَ منه ، ليحافظ على مكانته كمنتصر . ولكن المهزوم مؤهلٌ للتواضع والتغيير . وهذا ما كان لازماً لإرساء قيمةٍ عظيمةٍ في بناء المجتمع كالشُّورى . وتبدأ الآيةُ (١٥٩) بالنبيِّ الغاضب على أتباعه لأنهم اضطروه للخروج إلى المعركة ؛ ولم يكن هذا توجهُه في البداية ؛ ثم عصى

الرماةُ أمره وتركوا مواقعهم التي حدَّدها لهم بنفسه ؛ وأمرهم ألا يتركوها مهما كان الأمر . لكنهم لم يستطيعوا أن يصبروا عن الغنائم عندما ظنوا أن المعركة انتهت لصالحهم . لهذا توجهت الآيةُ إليه تأمرُه أن يستمر معهم باللين الذي عُرِفَ عنه ، وأن يشاورهم في الأمر ، فهو حقّ لهم وأن يلتزم بما يتوصل إليه معهم من رأي . فنتائج الشُّورى ملزمةٌ حتى للنبيِّ الموحى إليه عندما يتعلق الأمر بمصالح الأمة الدنيوية المحضة ، كالشأن الاجتماعي والشأن العسكري والاقتصادي وراء حدود الله . . ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (آل عمران:١٥٩)

٧- **حقوق القائد** : بعكس ما كان عليه شيوخُ العرب في الجاهلية ، حيث حقوق الشيخ تعادلُ أكثرَ من حقّ بقية القبيلة من الأنفال ؛ تأتي سورة آل عمران بالحُكم السليم لتقول إنه حتى النبيّ الذي يعطي كلّ وقته للأمة ؛ بل عَلَّمَ الله الأمة أحكام الدين بِعِرضِ النبيّ ، هذا النبيّ بصفته قائداً لا يحقّ له الغلول . والغلول هو الأكل من المال العام خارج القانون الذي ينزله الله أو تتفق عليه الأمة . فإن غل يأتِ بما غل يوم القيامة ويحاسب عليه!! وتحديداً فإن الغلول بعد المعركة أخذ شيءٍ ، ولو قليلٍ ، من الغنائم قبل القسمة بين المحاربين وبقية أصحاب الحقوق المعينين في القرآن . تقول الآية (١٦١) : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران:١٦١)

٨- **التربية بالعقبات** : تركز معظم الآيات منذ الآية (١٣٨) حتى نهاية السُّورة على موضوع التحدي والاستجابة الذي لا تقوم مدنيةٌ إلا به . وصاغه القرآن بلغةٍ قريبةٍ من مفاهيم المخاطبين . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في الآيتين (١٤٠،١٤١) : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾(آل عمران:١٤٠،١٤١)
فكي يُمحِّص الله المؤمنين ، ويُميِّزهم عن ضعفاء الإيمان ، لا بد أن يمروا بتجارب صعبةٍ كهزيمة أحد . بل يقال لهم هذا صريحاً في الآيتين (١٦٦-١٦٧) :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٦،١٦٧)

وتأتي الآية (١٧٩) لتعلمنا أن هذه التربية بالتحديات أمرٌ لا يُستغنى عنه لصُنع طليعةٍ حقيقيةٍ للمجتمع المنشود : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ (آل عمران:١٧٩) . بل تعدهم الآية (١٨٦) بمزيد من صنوف الابتلاء فليستعدوّا وليكن الصَّبر سلاحَهم فهو الخُلقُ الأكثر فاعلية في مقاومة الشدائد : {﴿ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦)

وتستمر السُّورة بتركيز هذه الفكرة وحول الاستجابة الناجحة للتحديات حتى الآية (١٤٨). ولا تكون استجابةٌ ناجحةٌ إلا ممن امتلك أخلاق القوّة بأصل تكوينه .

٩-المبدأ فوق الأشخاص : من الواقعية في تحليل الأمور تُبرز الآية (١٤٤) فكرةً أهم وهي مكانة محمدٍ الرسول على ضوء سنة الله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٤) . وتعرض الآيات أموراً أخرى كلّها تُنضِج العقل على أسسٍ علميةٍ . فالآيات (١٥٢-١٥٤) تُبرز الأسباب المادية (العسكرية) للهزيمة : ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ

أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (آل عمران:١٥٢-١٥٤)

والآية (١٥٤) تُبرز تَدَخُّلَ الله لمعالجةِ العواقب النفسية للهزيمة بأدواتٍ ماديةٍ وعلى أسسٍ علمية . وتخبرنا في نفس الوقت عدم استفادة ضعفاء الإيمان من المعالجة الإلهية للأمر ، لضعف إيمانهم وجهلهم بقوانين الله الطبيعية .

وتعيد الآيات في أكثر من موقف ذكر قضيتين لأهميتهما ، وهما الإنفاق بسخاء على الجهاد . وعدم الاستماع للأعداء . وتنتهي الآياتُ باستجابةٍ جميلةٍ تصدر كدعاءٍ عن المؤمنين . والمؤمنون هنا هم المهاجرون والأنصار ؛ ولكن تُمَيز الآيةُ المهاجرين ، فهم الطليعةُ التي أشرنا إليها في مطلع السُّورة إذ يستحقّون الخطاب المباشر من الله ويُصنعون كما يُصنعُ النبيّ الآية (٦) . وذكرتهم السُّورة ثانية بالآية (١١٠) : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ . . . ﴾ ثم تأتي الآية لتقول لنا إنهم المهاجرون . ولا ينقص هذا حقّ الأنصار ومواقفهم الصابرة واستشهاد كثيرٍ منهم يومَ أحد . ولكن للطليعة السابقة مكانةً خصوصيةً في تأسيس العمران وإحياءً الأمة . فتقول الآية (١٩٥) : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٥)

وفي ختام السُّورة آيتان : الأولى تنصف المؤمنين من أهل الكتاب كي لا يُساء فهمُ الآياتِ التي فضحت بني إسرائيل ؛ فلا يُظن أن كلّ أهل الكتاب على شاكلة الموصوفين . فمنهم المؤمنون الصادقون . والآيةُ الأخيرة تذكر بالصَّبر فهو أهم ما يلزم للذين اختارهم الله ليحيي بهم الأمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠)

خاتمة :

يكفي أن نقرأ السُّورة وحدها أو ندرسها بعمق لنتعلم منها مبادئ إنشاء حضارة أو عمران . ولكن قراءتها إلى جانب كتاب من كتب فلسفة التاريخ ، يشعرنا بعظمة حكمة الله وهو يصنع الحدث العظيم ؛ الذي أثر في تاريخ البشرية كلّها ؛ وقوَّم

اعوجاجَها بكلمات كتابٍ ، أنزله في أكثر بقاع الأرض هدوءاً ، بل خمولاً وفقراً بالناس والموارد والطبيعة والأحداث .

بواد غير ذي زرعٍ نَزَّلَ اللهُ آياتِ كتابه . فاستلمها رجلٌ أميٌّ اتبعته فئةٌ قليلةٌ من الصادقين . فتحركت البيئةُ الساكنةُ ، وماجت أمواجُ الرمل الخامل فكأنها أمواجُ بحرٍ مضطربٍ . فما تنزلت الآياتُ الأخيرةُ من الكتاب ، حتى كانت القبائلُ المتعاديةُ أمةً دون الناس يقودها رجالٌ منها ، كانوا بالأمس ، متسكعين أو رعاةً أو تجاراً أو أهل قمارٍ وخمرٍ ونساءٍ ؛ فإذا هم قادة يهدون أهل الحضارات القديمة إلى طريقٍ غيرِ ذي عوجٍ!

قبل أن أبدأ كتابة هذه الفقرة نظرت في كتاب مختصر دراسة للتاريخ للمفكر البريطاني أرنولد توينبي[1] ، فوجدته في بدايته يصف كيفية ظهور الحضارات ، وتحول المجتمعات من حالة السكون التي سماها حالة الين ، إلى حالة الحيويَّة والنشاط والنهضة التي سماها حالة اليانغ ؛ مستعيرا مصطلحي الين واليانغ من اللغة الصينية . يقول ما ترجمته في تفسير نشوء الحضارة : «لا تتغير ـ الجماعة من حالة الين إلى حالة اليانغ ـ إلا بفضل دافع أو باعث يفد عليها من الخارج . فإذا رأينا أن الحالة حالة توازن طبيعي ، علينا أن ندخل في الموضوع فلكا آخر لإحداث التغيير . وإن صورناها كحالة سعادة روحية ، يجب إدخال ممثل آخر على المسرح : أي ناقد يدفع العقل إلى التفكير مرة أخرى بواسطة إثارة الشكوك ، أو خصم يدفع القلب إلى الشعور بواسطة بث اليأس أو عدم الرضا أو الخوف أو النفور في النفس . . . . إلا أننا نستطيع القول ، بلغة العلم إن وظيفة العامل الدخيل هي أن يُهيئ للشيء الذي أدخل عليه حافزاً من النوع الذي يكفل تماماً استثارة أقوى التغيرات المبدعة».

وفي كتابه القيم الذي درس فيه محللاً حالة عشرين حضارةٍ بشريةٍ وخرج بنظريته المشهورة وهي التحدي والاستجابة . يستنتج أن العمران ينشأ عندما تتعرض جماعةٌ بشريةٌ لتحدٍّ ما بيئيٍّ أو بشريٍّ أو فكريٍّ ؛ وتستجيب له بإيجابيةٍ وقوةٍ وفي الاتجاه الصحيح . ثم يعقد بعد هذه النظرية فصلاً يؤكدها بعنوان فضائل الشدائد .

---

(١) (توينبي ، أرنولد ؛ ١٩٧٥م ؛ مختصر دراسة للتاريخ ؛ (١٩٤٨م) ترجمة فؤاد محمد شبل ؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ الطبعة الثَّانية :١٩٦٦م ؛ ص١٠٦

وأتى بأمثلةٍ كثيرةٍ من التاريخ كانت قاعدة لاستنتاج نظرية التحدي والاستجابة . ولكنه لم يخرج فيما استنتج من فكرٍ عمّا جاء في سورة آل عمران . فكأن ما قاله كان تصديقاً لها . وعلى ضوء المقابلة بين ما جاء في السفر المذكور وبين سورة آل عمران نستنتج أن ليس في السُّورة آيةٌ واحدةٌ لا تخدم غرضَ السُّورة على ضوء عنوانها . كما توظف السُّورة الأحداثَ للمساعدة في صنع تصورات الأمة الجديدة . وهذا سر اجتزاء لقطات من معركتي بدرٍ وأحدٍ مما يناسب غرض السُّورة . وليس بغرض تسجيل الحدث وتوثيقه وتعزية المؤمنين على الهزيمة كما يُظن .

وختاماً هل كان يمكن أن يصدر هذا الفكر العميق المحيط بموضوعه ، عن رجلٍ من العرب أو غير العرب في ذلك الزَّمن؟ وإن كان ممكناً فلماذا لم يرد في تراثنا كلمة واحدةٌ عن سورة آل عمران كمؤسسةٍ لعمران الأمة وإحيائها ؟

* * *

سورة النساء

«النساء كحالة»

كما تنزلت سورة آل عمران لتضع أسس عمران المجتمع ؛ تأتي سورةُ النساء لحفظِ قاعدته ، ومنعِ الفئة الأقوى من ظلم الفئة الأنعم والأضعف . وبذا تَتَفعَّلُ كلّ فئاتِ المجتمع وتشاركُ بنهضةِ الأمة . ولا تبقى فئةٌ كبيرةٌ من المجتمع عبئاً على القيادة والطليعة أو مصدر إزعاجٍ وإعاقةٍ للمجتمع . فهي تأمرُ بتنظيم العلاقاتِ الاجتماعية مع الفئات الأقلِّ قوةً في المجتمع وهي النساءُ عامةً واليتامي ذكوراً وإناثاً والمستضعفون من الرجال والنساء ، والأقليات . وبما أن النساء هن الغالبية العظمى من هذه الفئات وهن الفئة الأصدق تمثيلاً لها فقد أخذت السُّورة اسمها من اسمهن ، فسبحان الذي أحسن الاختيار .

السُّورة معنيةٌ بمن قد لا يستطيعون الدفاع عن حقوقهم حَيَاءً أو عجزاً ؛ مقابل طمع الأقوياء من رجال المجتمع أو المستبدين بالأمور . ولذلك تتكلّم عن النساء كحالةٍ ، سواء أعاش هذه الحالة نساءٌ أم رجالٌ ، وسواءً أشملت أفراداً أم جماعةً بحالها .

فالمقصودُ بالسُّورة الفئاتُ التي يمكن أن تخاطَب من خلال الصف الأول أو يخاطَب الصفُّ الأول في المجتمع ليتعامل معها بالعدل ؛ أو لحمايتها إن كانت في خطرٍ لا يمكنها دفعه ؛ أو للحذر منها إن كانت أقليةً ثقافيةً تعزل نفسها وتمكر بالمجتمع . فمنها المرأةُ التي تستحي من إخوتها فتتنازلُ عن حقّها لهم . واليتيمُ المضطرُ لمسايرة ولِيِّه من جدٍ أو عمٍّ أو من هو أبعد . فيضطر للتغاضي عن بعض حقّه ؛ هذا إن عرف حقوقه وعلم بحقّه المهضوم . وللمستضعفين لدى مجتمعٍ آخر ولهم حقّ على المجتمع القادر ان يتدخل لحمايتهم وإنصافهم . وللأقليات مكانها في السُّورة سواءً أكانت تلك الأقلياتُ ظالمةً أو مظلومة . فكأن السُّورة تذكر كلّ حالة ضعف تصاحب نشأة المجتمع فتجعل بعضه مظلوماً . وتبين السُّورة طريقةَ معالجة كلّ حالة . فهي لحماية ضعفاء المجتمع ولحمايةِ المجتمع من أن يستضعفَه بعضُه .

فهي سورة النساء ؛ وسواءٌ أبقيت بمعنى الجنس الناعم من البشر أوجمع نسيءٍ وهو الذي يتناساه الناس ويؤخرونه دون أن ينسوه .

والأوامرُ المباشرةُ في السُّورة دعوةٌ للعدلِ والإنصاف برحمةٍ تشمل الجميعَ حتى المذنبين! ولم تكتف بوضع تشريعاتٍ لرفع الظلم عن المستضعفين ، بل أشارت إلى أسباب تلك الانحرافات ، كي تجففَ منابعَها إن أمكن ، وتحذر منها أو تخفف من حضورها . وعرضت السُّورة أسبابَ الفساد بنظرةٍ عميقةٍ بعيدةٍ ، لا يمكن أن تخطر على قلب بشرٍ في تلك الأيام . وكذلك كان استقصاءُ مواقف الضعف التي يلزم الاستجابةُ لها بالعدل . .

مطالعات في التراث :

الفيروزآبادي في كتابه البصائر لخص مواضيع السُّورة كالعادة فوجد فيها أربعة وأربعين موضوعاً نقتبس منها : « . . والأَمر [بصلة] الرّحم ، والنَّهى عن أَكل مال اليتيم ، وما يترتَّب عليه من عظم الإِثم ، والعذاب لآكليه ، وحفظ المال من السّفهاءِ ، وتَجربة اليتيم قبل دفع المال إِليه ، والرِّفْق بالأَقارب وقت قسمة الميراث ، وحكم ميراث أَصحاب الفرائض .. وجواز التزوَّج بالأَمَة ، . . وحكم السّكران وقت الصَّلاة ، وآية التيُّمم ، . . وردّ الأَمانات إِلى أَهلها ، . . ووجوب رَدِّ السّلام ، والنَّهى عن موالاة المشركين ، وتفصيل قَتْل العمد والخطأ ، وفضل الهجرةِ ، ووزْر المتأَخِّرين عنها ، والإِشارة إِلى صلاة الخوف حال القتال ، والنَّهى عن حماية الخائنين ، وإِيقاعُ الصّلح بين الأَزواج والزّوجات ، وإِقامة الشهادات ، ومدح العدل . . »

عنوان السُّورة وموضوعها :

كلمة النساء قد تكون مشتقةً من المادة اللغوية « نسأ » . ومعناها تأخير الشيء . ومنه النسيء وهو الشهر المحرم يُؤَخَّر عن موعده دون أن يُنسى . ومنه البيع نسيئةً أي إلى أجل . فهو نسيء ولكنه لا يُنسى . لذا يمكن أن تكون النساء جمع نسيء . فهي تعالج الفئات التي يؤخرها المجتمع عادةً . ولا يمكن تبرئةُ مجتمعٍ إنسانيٍّ حتى هذا الزَّمن من هذا الخلل ولو بدرجةٍ ما . وقد تكون النساء جمع لكلمة امرأة من غير لفظها كما يرى لغويون ومفسرون . وفي المحصلة ولأغراض وضع نظرية للسورة لا يوجد فرق كبير بين حالتي الكلمة كعنوان للسورة . فالنساء ومن يعيش

حالهن ينطبق عليه فعل التأخير عندما يكون التقدم للرجال وللفئة الأقوى وصاحبة القرار .

مواضيع السُّورة على ضوء عنوانها :

صار عندنا الآن تصورٌ مبدأيٌ عن موضوع السُّورة والمقصودِ بالنساء . ولكن هذا التصور لا يجوز اعتمادُه والاعتمادُ عليه حتى يصدقُ على ضوء تحليل السُّورة . فإن وجدنا غيرَ ما بدأنا به فعلينا البحث عن نظريةٍ أخرى لتفسير السُّورة . فلا يمكن أن تكون بلا نظريةٍ ، ولا يمكن أن تكون حشداً لمواضيع لا علاقة بينها .

وسنبدأ معالجةَ السُّورة بطريقةٍ مختلفةٍ عما أسلفنا في سورتي البقرة وآل عمران . وذلك لجعلِ نظرية السُّورة على مستوى من الوضوحِ لا يمكن المراءُ فيه . قلنا إنها سورةُ المستضعفين لحمايةِ حقوقهم ومعالجة مشكلاتهم وتجنب شرورهم في الوقت نفسه . وفيما يلي سرد للفئاتِ التي تعرضت لها السُّورة والزَّاوية التي عُرضت منها :

- اليتامى لحماية حقوقهم المالية (آية ٢)
- يتامي النساء لحفظ حقوقِهن في المهر والزّواج (آية ٣)
- النساءُ لحفظ حقوقِهن في حال التعدد مع كراهيةِ التعددِ لاستحالة العدل (آية ٣)
- النهي عن الاعتداء على حقّ المرأة بالمهر مظهراً وجوهراً (آية ٤)
- حفظُ مال المجتمع من عبث السفهاء به (آية ٥)
- حقّ المرأة في الميراث كحقّ الرجل في الوجوب (آية ٧)
- حقّ أولي القربى والمساكين واليتامي بتركة الميت من غير أصحاب الفرائض المذكورين في السُّورة (آية ٨)
- تقسيم التركة مع البدء ،غالباً ، بحقّ المرأة فيه (آية١١)
- حكم انحرافَي المِثلية الجنسية : «السحاق للفتيات ،والشذوذ للغِلمان» . ومعالجته بأقل الخسائر بل برحمةٍ واضحةٍ بهدف استردادهم للمجتمع النظيف (الآيتان ١٥-١٦)
- النهي عن وراثة النساء وتحريم إكراههن على البقاء مع زوجٍ يَكرههن ظلماً لهن ورغبةً بمالهن (آية ١٩)
- نهي الرجال عن طلب العوض عن المهر عند الطلاق (٢٠-٢١)

- النهي عن وراثة نساء الأب المتوفى (٢٢)
- محرمات النساء في الزّواج (٢٣-٢٤)
- زواج الفقراء من الإماء وتخفيف عقوبتهن عند الزَّنا مقارنة بالحرائر والتذكير بالخيار الأفضل وهو الصَّبر (آية ٢٥)
- النهي عن تحكم صاحب الثَّروة باسم التجارة وطلب الشفافية عند التعامل التجاري (٢٩-٣٠)
- قيادة الرجل المشروطة للأسرة ومعاملة المرأة الناشز (٣٤)
- معالجة خلافات الزّوجين عن طريق حكماء المجتمع القريب وليس بانفراد الرجل وعائلته بالتحكم بالمرأة (٣٥)
- الإحسان للوالدين ولذي القربى والمساكين والجيرة وملك اليمين (٣٦)
- النهي عن الاختيال والتفاخر وربط هذه الصفة بالبخل وبالإنفاق رياءً (٣٧-٤٠)
- معالجة موضوع الصَّلاة في حالات الضعف الطارئة كالسكر والمرض والسفر والجنابة وعدم توفر الماء (٤٣)
- معالجة ضعف الحداثة أمام عراقة القدم التي تمتع بها اليهود في المدينة خصوصاً وفي الجزيرة عموماً وظنهم احتكار المعرفة دون المسلمين (٤٤-٥٧)
- الأمر بأداء الأمانة والعدل في الحكم (٥٨)
- فضح المتمردين على الحكم القرآني من المنافقين (٦٠-٦٨)
- دعوة الجماعة المؤمنة إلى الحذر لأنهم محاطون بأعداءٍ ، وعتابُ من يضعف عن الجهاد (٧١-٧٣)
- القتال من أجل مستضعفي قريش من المؤمنين الذي يكتمون إيمانهم (٧٤-٧٦)
- عتاب شديد لمن يجتنبون القتال جبناً وخوفاً من الناس وتحليل وضعهم النفسي (٧٧-٨٣)
- الاستجابة السِّلمية لمن يعرض السلام حتى لو كان تحت السيف (٨٦-٨٧)
- النهي عن موالاة مشركي مكّة التزاماً بصداقةٍ أو قربى (٨٨-٨٩)
- التَّوصية بالمسالمين من المؤمنين الضعفاء (٩٠-٩١)
- حقّ ولي القتيل عمداً أو خطأً (٩٢-٩٣)

- قبول ظاهرِ إيمانِ الناس حتى لو أعلنوه وهم في موقف ضعف (٩٤)
- طلب التساهل مع ضعفاء المؤمنين الذين لا يريدون قتالاً لأسبابٍ اجتماعيةٍ (٩٥-٩٩)
- تشجيع المستضعفين على الهجرة وما يواجههم (١٠٠)
- صلاة الخوف!!! (١٠١-١٠٣)
- تعزية للمؤمنين بعد هزيمة أحد (١٠٤)
- عدم الدفاع عن الضعفاء الذين يدارون ضعفهم بخيانة وكذب طاعة لإبليس (١٠٥-١٢١)
- النهي عن أماني الضعفاء الخادعات بدل العمل النافع (١٢٣-١٢٦)
- عودة لحقوق يتامى النساء ومعالجة من تخشى ظلم زوجها وإعادة كلّ ذلك للشُّح (١٢٧-١٢٨)
- النهي عن تعدد نساء الرجل الواحد والنهي عن ظلم المرأةِ وحبسِها مع كراهية الزّوج لها (١٢٩)
- نداء مشترك للمؤمنين وأهل الكتاب للتقوى والتهديد بالعقاب كي لا يستقوي أحدٌ على أحدٍ (١٣٠) .
- دعوة قويةٌ للعدل مرفقةً بتهديدٍ (١٣٥)
- تهديد المنافقين العاجزين عقلاً وخلقاً عن اتخاذ موقفٍ واضحٍ من الحياة (١٣٧-١٣٨)
- نهي عن الضعف والاستكانة عند سماع استهزاء بدين الله وطلب الانسحاب من مجلس يُستهزأ فيه بآيات الله (١٣٩)
- فضح موقف المنافقين المذبذبين بين المؤمنين والكافرين والنهي عن موالاتهم (١٤١-١٤٥)
- من تعرض لظُلمٍ فليجهر بشكواه (١٤٨)
- تحذير من فتن اليهود (أقلية دينية) كأهلِ علمٍ متفوقين على الجماعة المسلمة بفعل الأسبقية الزَّمنية وتراكم الخبرة ، ونماذج من عصيانهم وعقابِ الله لهم ومن الأمثلة موقفهم من مريم وعيسى . ونموذج من عقوبة الله لهم بالتشديد عليهم في

الأحكام كي لا يضعف المسلمون أمام أباطيلهم ثم مدحُ الفئة المؤمنة منهم (١٥٣-١٦٢)

- التذكير بأن الرسالة المحمدية ليست بدْعاً من الرسالات بل تخضع لنفس السنن الإلهية (١٦٣-١٦٦)
- نهي أهل الكتاب (أقلية أخرى) عن الغلو بدينهم ودعوتهم للتواضع اقتداءً بالمسيح . وذكر عقاب المستكبرين منهم (١٧١-١٧٢)
- تختتم السُّورة بذكر أضعف أصحاب التركات وهو الذي يورث كلالة فيرثه أبناء أمه (١٧٦)

وبذا تعالج السُّورة تسعاً وأربعين حالةً . ست وأربعون منها حالاتُ ضعفٍ تمرُّ بها فئاتٌ من المجتمع . وثلاثُ دعواتٍ للاعتدال . لذلك كانت سورةَ النساء ومن شابه حالُه حالَهن ممن نسأه المجتمع . فهن عادةً يتعرضن للظلم لضعف منهن أو حياءً أو نقصِ معرفتهن بحقوقهن . وكلّ من يقع عليه ظلمٌ بنفس الطريقة ولنفس الأسباب فإنه يمر بنفس الوضع النفسي ، ويحتاج عوناً قد يكون بنفس الطريقة . وقد يكون في هذا الملخصِ كفايةً لإثبات نظرية السُّورة والتزامها بعنوانها كما بيناه . ولكنا سنمر على آياتِها مرةً ثانيةً زيادةً في التبيين ولمزيدٍ من الفائدة .

عرض السُّورة على ضوء نظريتها :

أطروحة السُّورة : منطلقُ السُّورة أو أطروحتها كما توحي بها الآية الأولى **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴾** (النساء:١) الدعوةُ إلى تقوى الله مع التذكير برقابة الله التامة ، ودعمُ ذلك باستجاشة صلة الرحم ، وتذكيرُ المخاطبين أنهم خلقوا من نفسٍ واحدةٍ قبل أن يكونوا رجالاً ونساءً فهم أقارب وأرحام؟

ثم تتقدمُ الأطروحةُ بالآيات ٢-٥ التي تشكل مع الآية الأولى الفقرةَ الأولى ، أو فقرةَ الأطروحةِ حسب قواعد فنِّ النثر . وتقول بقيةُ الأطروحة **﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِى ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا**

تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ (النساء:٢-٥) .

وبين يديِ الحديث عن معاني الآيات نُجيبُ على سؤالٍ فنيٍّ قد يخطر ببال القارئ وهو لماذا توقفنا عند نهاية الآية الخامسة كنهايةٍ لأطروحة السُّورة ولم ندخل الآية السادسة في الأطروحة؟ وجوابنا أن فقرة الأطروحة تحتوي عادة العناوين الرئيسية للسورة . وتليها عادة آيةٌ أو آياتٌ تشرح بالتفصيل موضوع الآية الثَّانية من فقرة الأطروحة أو الأخيرة . وهنا بدأت الآية السادسة بإعطاء تفصيلات عن موضوع الآية الثَّانية . فكانت جواباً لسؤالٍ ينبثق من الآية الثَّانية : متى أو كيف نعيد أموال اليتيم له؟ فبدأت تفصيل الموضوعٍ بقوله تعالى ﴿ **وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ** ﴾ (النساء:٦) فهي جوابٌ مباشرٌ ومحكمٌ لقوله تعالى في الآية الثَّانية ﴿ **وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ** ﴾ .

ومواضيعُ فقرة الأطروحة هي : إعادة أموال اليتامى دون تلاعُبٍ ، وعدم استغلالهم في موضوع الزّواج ، وتنطلق من ذكرهم إلى موضوع الزّواج ، وتعددُ نساء الرجل معالجةً لإمكانية الوقوع في الظلم ، وليس كحالةٍ طبيعية . وتشترط الآيةُ عدم إيقاع ظلم على المرأة بالتعدد . وتوصي الآيةُ الثَّالثة باجتنابِ ما يُعرِّضُ العائلة للفقر والعوَز بالتعدد . ثم التحذير من أكل حقّ المرأة بالمهر إلا ما تطيب عنه نفسها بعد أن تتمكَّن منه ، ليكون هذا مفتاحاً لعرض حقوق المرأة المالية . وتنطلق الآية الخامسة والأخيرة في الأطروحة من موضوع السفهاء كفئةٍ يمكن أن تسيئ استخدام المال ؛ بحجّةِ أن مجموع ممتلكات الأفراد هي ملكٌ لجميع الأمة ، فمن حقّها متمثلة بقيادتها الحجرُ على السفهاء وتقييدُ حريتهم المالية . وقياساً عليه تعرض السُّورة من خلال قوانين تقسيم التركة حقّ الأُمةِ بمال الأفراد ، وإمكانية التدخل للحفاظ عليه ، وحسنُ إدارته لصالح المجموع ؛ وضمن المحافظة على الملكيةِ الخاصة بما يدفع الأفرادَ للعمل والإنتاج . وبقيةُ السُّورة لها صلةٌ بالآية الأولى وبالعنوان .

ونقف قليلاً مع الآية الخامسة لأنها لم ترد ثانية في السُّورة كبقية عناصر الأطروحة ، كما سنرى منذ الفقرة التالية . ولكنها موجودةٌ كقاعدةٍ عامةٍ عند كلّ

عمليات تقسيم للتركة . فالسفيه لا يُعطى حقّه من التركة ، ولا يستفيد من الوصية أو ما وراء الفرائض المحددة إذا استحقّها . ولكن يؤتى ما يكفي لسد حاجاته فقط ، حتى لو كانت تركتُه أضعافَ أضعافِ حاجتِه . لأنه بسفهه لا يجيد استعمال الثَّروة فيما جُعلت له . فلا يعطى فرصةً لتبديد موارد الأمة!!

حقوق اليتامى : تبدأ الفقرة الثَّانية بالموضوع الأهم في السُّورة وهو حقوقُ اليتامى . فهم الفئةُ الأضعفُ في المجتمع : **﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾** (النساء:٦) .

وهكذا جعلتِ الآيةُ موافقةَ المجتمع على تزويجِ اليتيم ، حسب العرف ، الحدُّ النهائي للوصايةِ عليه . ويجب تسليمه كافةَ أمواله عند وصوله إليها . وقبل هذا ، إذا تبينتْ مخايلُ الرشد عليه يقوم وليُّ أمره مع المعنيين من أقاربه باختباره نفسيًّا وذهنيًّا . فإن أبدى رُشداً وقدرةً على استعمال ماله فيما ينفعه ، وينمي ذلك المال ؛ فيجب دفعه إليه حتى لو لم ينو الزّواج في موعدٍ قريب .

وتَنْهَى الآيةُ الوصيَّ عن أكل مالِ اليتيم إسرافاً أي ظلماً وتجاوزاً لحدودِ العرف والعدل . وكذلك تُحذِّره من تضييعه وأكله بَداراً أي قبل أن يصل اليتيمُ المرحلةَ المناسبة لاستلام ماله .

ثم تحتاط الآيةُ لحفظ حقّ الوصي ، فتجعل تسليمَ المال لليتيم بشهادةِ شهودٍ وتوثيقٍ رسميٍ . كي لا ينقلبَ عليه يوماً ما .

تستمر الفقرةُ الثَّانية حتى الآيةِ العاشرة ، ببيان مصدرِ أموال اليتيم ولتكون مرحلةً وسطى بين مال اليتيم وأحكامِ تقسيم التركة . فأصلُ مالِ اليتيم موضوعُ الوصية ، هو تركةُ وليِّه الميت وما يستحقّه من تركةِ ذوي القربى والجيرةِ إن كان فقيراً . ففي التركةِ حقوقٌ لغير أصحاب أسهم الميراث المعرفة . وهذا مما تُفَصِّلُه الآيات (٧-١٠) :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٨﴾ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (النساء:٧-١٠) .

وهكذا تحددُ الآيةُ السابعة مصادرَ مال اليتيم وكلّ وارثٍ من ذكرٍ أو أنثى . وتهتم الآية الثَّامنة بالمساكين واليتامى وذوي القربى من غير أصحاب الفروض . وتولي اهتماماً خاصًّا باليتيم حرصاً عليه وحمايةً له ولماله . فتُحذِّر الآية التاسعة وَلِيَّ اليتيم من الإساءةِ إليه بأي شكل من الأشكال أو إساءةِ توجيهه أو استغلاله لأي غرضٍ . وتُذَكِّرُه تذكيراً يصل أعماق قلبه . فهو الآخر قد يموت عن ذريةٍ ضعفاءٍ وقد يتولى أمرهم رجلٌ مثله . بل هذا هو الأمر الطبيعي . فلا يُعَرِّضُ نفسَه لقسوة انتقام قوانين الاجتماع المحيطة بالبشر كقوانين الطبيعة سواءً بسواء . بل تَـذْكُر الآيتان (١٥-١٦) حالتين أكثر من يتعرض لهما من أُسيئ إليه بالطفولة ؛ خصوصاً ممن حُرِمَ رعاية الأبوين وحمايتهما له وهما السحاق واللواط .

ويحقّ لنا أن نتساءل أليست كلّ هذه التحذيرات والأحكام مما يلزم لحماية من لا يستطيع حمايةَ حقوقه بنفسه إلا أن يحافظ عليه أحدٌ؟ فهو في مثل وضع النساء من هذه الناحية بل في مثل أقسى حالات النساء ضعفاً .

أحكام المواريث : الفقرةُ الثَّالثَّةُ تشمل الآيات (١١- ١٤) وهي مخصصةٌ لأحكام المواريث . وهي تحرص على حقوق المرأة . فمعظمُ الأحكام التفصيليةِ بدأت بِذكرِ حقّ المرأة . وتحفظُ الأحكامُ حقّ المرأة بنتاً وزوجاً وأمًّا ؛ بما لا يعطل الأُمَّةَ عن العملِ ولا يزرع الوهنَ في قلبِ جامعِ الثَّروة . فالحفاظُ على الملكية الخاصة وتنميتُها كان حاضراً في أحكام المواريث . وهذا ردنا على من يعترض على نصيب الأنثى بأنه في حالة الوراثةِ من تركةِ الوالد يماثلُ نصفَ حقّ أخيها الذَّكر . فقد روعيت هنا الحالةُ النفسية لجامعِ الثَّروة . فغالبيةُ العرب يفضلون إبقاءَ معظم تركتِهم أو كلّها لأبنائهم الذكور . والحالةُ التي وجدنا عليها العرب قبل عصر التنوير الحالي كانت تُصدِّقُ هذا الزَّعم ؛ فكانت الأُمَّةُ مجمعةً على حرمان البنت من الميراث . وردًّا على اعتراض المعترضين أسألهم أن يفكروا قليلاً ثم يجيبوا على هذا السؤال : هل تحب فعلاً أن تحصلَ ابنتُك المتزوِّجة من تركتِك على مثلِ نصيب شقيقها؟ وأنا موقن أن الجواب سيكون لا وبنسبةٍ عاليةٍ جدًّا .

ويُلاحظ تساوى نصيبى الأب والأم من تركة ابنهما . لأن الابن لا يفرق بين والديه . وتختمُ الفقرةُ بالآيتين (١٣-١٤) . الأولى منهما تذكر أن هذه الأحكام من حدودِ الله التي لا يجوز تجاوزها أو التهاون بتنفيذها من قبل الأمة المخاطبة بالقرآن . والثَّانية تقول إن العصيان بحقّ هذه الأحكام يقود إلى خلودٍ في نار جهنم وعذابٍ مهين . ويبدأُ تنفيذُ أحكامِ المواريث الواردةِ هنا بعد الاطلاع على الوصية التي أشارت إليها سورةُ البقرة (١٨٠-١٨٢) لاتخاذها إماماً في عملية تقسيم التركة بالإضافة إلى ضوابط أطروحة هذه السُّورة .

انحرافات التفكك الأسري : تعتني الآيتان (١٥-١٦) بمسألة اليافعين من الجنسين الذين يتعرضون لاستغلال أو إهمال في طفولتِهم ، فتقع الإناثُ في السحاق والذكور في اللواط . وغالباً ما يتسبَّب اللواطُ والانحراف عن موت أحد الأبوين وإهمال اليتيم من قبل زوجِ أمه أو امرأة أبيه . وفي كلّ الحالات لا يخلو الأمرُ من إهمالٍ للطفل من أبويه أو من يحل محلهما . فيستغلُّ رفاقُ السوء تلك الثَّغرةَ في حياة اليافع ، أو مذ يكون طفلاً ، فيقع في الممارسة القذرة . وعلى ذكر تسميتها بالقذرة فإن الطفل الذي تعتني به أمه وتعوده على النظافة حتى تصير النظافةُ خلقَه وأسلوبَ حياته لا يمكن أن يمارس اللواط . فهو لا يطيق قذارته ولا نتن أجوائه .

وهذه الفئةُ مستضعفةٌ ثلاثَ مرات : مرةً وهي تتعرض للإهمال والإهانة في الأسرة ؛ ثم تتعرض للاستغلال ممن يمارس معها العمل الشائن المخزي ؛ وثالثةً من المجتمع عندما ينفضح أمرها . لذلك وضعَ لها الشرع حلاً كي يُخففَ من معاناتها وكي لا تنتشرَ كظاهرةٍ مرضيةٍ بين الناس . أما الإناثُ اللواتي يأتينها فاشترط لإثباتِ الفعل عليهن أربعةَ شهودٍ من المؤمنين . فإن شهدوا فيُحبسن في بيوتهن بقيةَ العمر حتى الموت أو الزّواج إن جاء إحداهن طالبُ زواج . وهذا هو السبيل المقصود بالآية ؛ وليس ما جاء في حديثٍ مضطرب لا يليق نصُّه برسول الله ولا بأي عربيٍّ من زمنه عدا عن مخالفة ذلك لأحكام وردت في سورة النُّور . وأما الذِّكران فجعل عقوبتهما الإيذاء بضرب خفيفٍ لا يضر بالجسم وبكلام يشعرهما بخزيِ فعلتِهما ويشجعهما على التَّوبة . وجاء هذا الحكمُ الذي يبدو خفيفاً لأن قذارةَ الفعل أقوى واعظٍ لمن يقع فيه . فإن تابَ تابَ اللهُ عليه . وإن استمر واستمرأ الأمر

فحسبه ما هو فيه من قذارة ، وحسبه انتقام الطبيعة منه ، فليس بعد الرجس إلا المرضُ والعذاب ، عدا الهوان واحتقار المجتمع له . وشُبهة قتل الممارس مأخوذة من التَّوراة (وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ ، فَقَدْ فَعَلاَ كلاَهُمَا رِجْسًا . إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ . دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا (أحبار ٢٠ : ١٣) وليس كذلك حكم القرآن .

وتستمر الآيتان التاليتان (١٧-١٨) بمعالجة موضوع توبة مرتكبي الفعلتين بسبب صغر أعمارهم واحتمال تعرضهم لاستغلال أو عدوان في الطفولة المبكرة . ثم تنتقل إلى موضوعِ التَّوبة من هذين الذنبين لتؤكد أن التَّوبةَ لا تُقبلُ ممن يُصِرُّ على فعل السيئات والاستمرار بممارسة الفاحشة المذكورة حتى إذا شاخ قال تبت الآن : ﴿ **إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ (النساء:١٧،١٨) .

ونلفتُ النظرَ إلى أن إثباتَ تهمةِ الفتاة هنا احتاج أربعةَ شهودٍ وليس كذلك تهمةَ الغلام . مما يدل على أن الشهود الأربعة في تهمةِ الزِّنا إنما قُصِدَ بها حمايةُ عرضِ الفتاة وليس الفتى . فهن أحوجُ للحماية . وتَدخُّلُ اللهِ تعالى لصالحهن بسبب ضعفِهن أمامَ قسوةِ المجتمع برجاله ونسائه . وهو مما يتناسب وجوَّ سورة النساء .

وفي ختام هذه الفقرة نقول : لا يستطيع ناقدٌ أدبيٌّ خبير أن يعترضَ على مناقشةِ قضيةِ مثليي الشهوة في هذه السُّورة . بل لا يوجد أنسبُ منها لهذا الموضوع . وقد يظن بعضُ الناس أن سورةَ النُّور مناسبةً لها . لكن وضعَها هنا باعتبار أسبابِها أنسبُ من سورة النُّور . فتلك سورة العفةِ تنهى عن الزِّنا كشهوةٍ طبيعية . ولكن المثليةَ انحرافٌ ناشئٌ عن إهمالٍ واستضعافٍ يليه استضعافٌ فكأنها في بؤرةِ سورةِ النساء كحالة!!!

المرأة إنسانٌ لا متاع : تنتقل السُّورة إلى عادةٍ من إرث الجاهلية ، وتنطلقُ منها لنقل المجتمع من همجيةِ الجاهليةِ إلى تمدن الإسلام من زاوية أنسنة المرأة . وكانت قبله شيئاً يُورَث مع بقيةِ تركةِ زوجِها الميت . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ**

خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

(النساء:١٩-٢٢) .

كانوا يرثون النساء كما يرثون المتاع . ترى كيف تشعرُ المرأة التي تـورث؟ كما لو أنها شيءٌ لا بشرٌ . نعـم هـذا هـو شعور المـرأة عنـدما يقسـو عليها المجتمـع ، فيقتسمها كبقية تركة زوجها الميت ! ولإعادة مكانتها وإنسانيتها إليها حَرَّم الله وراثتها تحريماً لا مجال للجدال فيه .

ثم تنهى الآيات عن النذالةِ في التعامل معها بحبِسها على ذمة زوجها كي تُعوِّضَـه مالاً ثَمَن خلاصها منه! وتنصح الآية (١٨) من يَكره امرأتـه كرهـاً حقيقيًّـا لا ذريعـةً لمكسب مالي ، أن يصبر على معايشتها ، ففي معاملتها معاملةً زوجيـةً كريمـةً رغـم كراهيته لها خيرٌ كثيرٌ للزوج . وهو خيرٌ ينالُه في تكوينه الداخلي ، إذ يعتاد معايشـة من يكره معايشةً كريمةً وباحترامٍ حقيقي! وتُذكِّرُ الآيةُ (٢١) بالودِّ وساعات الصـفاء والانسجام التي كانت بين الزّوجين . مما يجعلُ من غيرِ اللائق مطالبتَها بمهرِ الخلـع بعد الإفضاء الذي كان بينهما . فالإفضاءُ الذي كان بينهما أعظمُ من كلّ قيمـةٍ ماديـةٍ . وعدم تقديره يعني تَشْيِئَ العلاقة بين الـزّوجين . لـذلك سمينـا هـذه الفقـرة «المـرأة إنسانٌ لا متاع» ، أي نقلُها فـي عـقـلِ الرجلِ مـن شيءٍ يتمتع به ويستغلُّه ثـم يلقيـه أو يكسره عندما يستغني عنه ، إلى إنسانٍ يرتبط به بعواطـفَ صـادقةٍ غاليـةٍ لا تُقـدَّرُ بثمنٍ ولا يتبدل به عَرَضاً مادياً مهما عظُمَ .

محرمات الزّواج : تتمةً لاحترامِ الحياةِ الزّوجية وإجلالاً لقدْرها تأتي الآيات (٢٣-٢٨) فتعرض محرماتِ الزّواج ومن يحل الزّواج بها ليكون لعلاقة الزّوجين مراسمٌ وحدودٌ وقيودٌ مما يرفع قدرَها ولا يجعلها مستباحةً أو رخيصةً ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟**

بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

(النساء:٢٣-٢٨)

وتعالج الآية (٢٥) زواج الفقراء الذين لا يستطيعون الزّواج من محصنةٍ حرةٍ فيُؤذَنُ لهم بالزّواج من الإماءِ المؤمنات ذوات الخلق الحسن . وتُذكِّرُ الآيةُ الشابَ المضطرَ لهذا الزّواج أن الصَّبر حتى يتمكن من زواج الحرة خيرٌ له . فهو هنا في حالة النساء التي تحتاج مساعدةً بسبب فقره وضعفه وتأخره عن أترابه . ولم تنس الآياتُ معالجةَ ضعف خلقِ الأمةِ فخففت عقوبتها إذ تخطئ . ولعله من أجل هذين الضعفين : ضعفِ الفقر وضعفِ الرق جاءت الآية (٢٨) مذكرةً بضعف الإنسان عموماً ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٢٨) . وصياغةُ الآية على هذا الوجه تبين لنا سببَ وضعها في سورة النساء . وتحرصُ الآيةُ (٢٤) على حقّ المرأة في المهر وضرورةِ التأكد من استبدادِها به دون أي درجةٍ من التدخل بشأنها إلا برضاها التام .

حماية المال والدم : بالآية (٢٩) تبدأ فقرةٌ بموضوعٍ مختلفٍ لكنه لا يخرج عن محور السُّورة المخصصة لحماية حقوق المستضعفين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ

نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلًا كَرِيمًا ﴾ (النساء:٢٩-٣١) .

والآيات موجهةٌ للمؤمنين لأقويائهم أو ليضعوا حدًّا لأقويائهم كي لا يَظلموا ضعفاءهم في أموالِهم وأرواحهم . في المال ، تُحَرِّم الآيات الاعتداءَ المباشر المكشوف . ولاتكتفي بهذا بل تنهى عن الاعتداء الخفيِّ فتطلب من التاجر الكشفَ عن تكلفةِ بضاعتِه ومقدارِ ربحه للمشتري . فيشتري وهو على علمٍ بحقيقةِ ما اشترى . وهذا شرط التراضي في التجارة .

ومثل المال ، الروح فلا يحقّ لمؤمن أن يقتل أخاه تحت أيِّ ذريعةٍ . وهذا معنى ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ (النساء:٢٩) أي لا يقُتل بعضُكم بعضاً فكأنهم نفسٌ واحدةٌ تقتل نفسها إن قتلت مؤمناً آخرَ .

مشكلات المرأة بعد حمايتها : الآيات (٣٢-٣٥) تبدو ثمرةً لما مر من رفع شأن المرأة ومساواتها بالرجل . فهي تناقش موضوعَ العلاقة بين الرجل والمرأة عموماً ، وفي الحياة الأسرية على مستوى من المساواة ، . كما تناقش ما ينشأ من مشكلاتٍ في بيئةٍ ذكوريةٍ عندما تشعرُ المرأة بحقّها الإنساني وبمساواتها بزوجها . هذه الآياتُ الأربع لا يصلح لها إلا هذا المكان من السُّورة ككلّ آيةٍ في مكانها . ولكنا نبرز هذه الحقيقة هنا لأن جو انقلابٍ طبيعي ينشأ في النفس عند إدراك هذه الحقيقة . فالتصورات للعلاقة بين الجنسين والأحكامِ القائمة عليها تنمو وتتطور على طريقة الأحداث الدرامية ، لتصل مع هذه الآيات مرحلةً تستحقّ الالتفاتَ إليها بإعجابٍ . تطلعنا الآية (٣٢) على مشاعرَ ومطالباتٍ ما كانت لتخطر ببال امرأةٍ في ذلك الزَّمن ، لو لم تتنزل الآياتُ السابقة من سورة النساء . شعرت المرأةُ بذاتها ، ووجدت نفسَها تقف على أرضٍ صلبةٍ من الأحكام القرآنية غيرِ القابلة للنقض . فتطلب الآن المساواةَ الكاملة حتى في أصلِ التكوين . ولعل الرجلَ حسدَ المرأة فتمنى أن ينال بعضَ ما أصابت من مكاسب ، فردت الآيةُ على الفئتين : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٣٢) . كانت شيئاً يُورَث مع تركةِ زوجِها الميت وإذا بها مع هذه الآية تتمنى ما فضلَ اللهُ به الرجلَ من خصوصيةٍ ؛ وللرجل تجاهَها مشاعرُ مماثلةٌ! أيُّ تحولٍ هذا في المجتمع وبمدةٍ قصيرةٍ من الزَّمن .

وتأتي الآية (٣٣) لتهتم بفئةٍ أخرى من الفقراء هم موالي الوالدين والأقارب من أصحابِ أنصبة التركة . أي الذين يأتون بعدَهم بدرجة القرابة ؛ لكن درجةَ قرابتهم لا تجعل لهم حصصاً مفروضةً في الميراث . وجمعت معهم المُعاهِد والحليفَ لتجعل لكلّ منهم نصيباً في الميراث . ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا** ﴾ (النساء:٣٣) . وعُرِضَت حالُ هؤلاء هنا لأنهم في مثلِ وضعِ النساء من حيث إمكانيةُ نسيانِهم وعدمُ إعطائهم من التركة .

تنظيم العلاقات داخل الأسرة : عند وجودِ تشريعٍ جديدٍ يعطي حقوقاً لمن كان محروماً منها منذ خُلِق ، لا بد أن يظهر في المجتمع من يسيئ فَهمَ الجو الجديد ويتعدى حدوده . فيلزم وجودُ حكمٍ جديدٍ ينظم العلاقة ، ويجعل الأسرةَ قاعدةً صلبةً للجيل القادم ، وحضناً دافئاً لكلّ أفرادها . وما دامت الأسرةُ وحدةَ بناء المجتمع فهي المجتمعُ المصغر . ويلزم تحديدُ الصلاحياتِ فيها كي لا تصيرَ أمورها فوضى . فقد انطلقت المرأةُ من عقالها بعد قيودٍ شديدةٍ كثيرةٍ . فعينت الآية (٣٤) الرجل رئيساً للأسرة مُعلِّلةً ذلك بأنه المصدرُ الرئيسيُّ للإنفاق في البيت . وما دام هو الذي يعملُ ويجلبُ الرزقَ فإنه ، غالباً ، الأكثرُ خبرةً والأفضلُ إدارةً . فعمليةُ طلبِ الرزق مصدرُ خبرةٍ ، ووسيلةُ نضجٍ نفسيٍّ وذهنيٍّ ، تجعل صاحبَها أولى بالقيادة . وتدافعُ بقيةُ الآية عن حقّ الرجل إن تمردت عليه زوجُه ، كي لا يكون في موضع المغلوبِ المظلوم . فإن أطاعت المرأةُ زوجها المستوفي لمنزلةِ الرئاسةِ فلا سبيل إليها بظلمٍ أو إذلال . ﴿ **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا** ﴾ (النساء:٣٤) . ونشوزُ المرأة هو تكبرها على زوجها وعصيانه والخروجُ على العرف في العلاقة الزّوجية الذي قد يصل حدَّ الخيانة كما توحي الآية .

وإن استحكم الخلاف بين الزّوجين فلا تُتركُ المرأة تحت رحمة زوجها وأهله يتحكمون بها ؛ بل تأمر الآية (٣٥) بعملية تحكيمٍ يديرها حكمان ، أحدهما يمثل الرجل والثَّاني يمثل المرأة ليصلحا بينهما أو يدبرا لهما ما فيه خيرهما سواءً بسواءٍ .

﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴾

مع نهاية الآية (٣٥) تكون قد غُطيت جميع أمور اليتامي والمواريث والنساء إلا بقية حُكمين سنشير إليهما كلٌ في موقعه (الآيات : ١٢٧-١٣٠ ، ١٧٦) . وذلك لتهتم بقيةُ السُّورة بشئون المؤمنين وهم يمرون بظروفٍ تشبه حالة النساء ، أو يعالجون أمور فئاتٍ منهم تعيش نفسَ الحالة ؛ أو تعلمُهم الردَّ على من يستغل قوته أو علمه أو ماله ليجعل سواه يذوق مرارةَ حالة النسيء ؛ وسواء أكان هذا الذي يستغل قوته منهم أم من سواهم . وفي معظم الأحوال تبقى الأسبابُ الرئيسيةُ لحالة الاستضعاف ، وهي حبُّ المال والبخلُ به وما يتبعهما من حسدٍ وخُيلاء ، دوافعُ خفيةٌ وراء معظم ما تعرضه بقيةُ آيات السُّورة .

إحسان معاملة الأبوين والمحتاجين من المجتمع القريب : مع الأمر بعبادةِ الله دون شريكٍ توصي الآيات (٣٦-٤٢) بالأبوين ، وبذي القربى واليتامى ، والمساكين والجار ذي القربى والجار القريب والزَّميل وابن السبيل وملك اليمين . وكلّهم في حالة ضعفٍ وحاجةٍ أمام منٍ يجب عليه القيامُ بأمرهم أو مساعدتهم ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾ (النساء: ٣٦-٤٢)

آية التيمم وعلاقتها بالسُّورة : تكاد آيةُ التيمم (آية٤٣) أن تكون معجزةً في مكانها فلا يمكن لغير الله (مُنزلها) أن يضعها في هذا المكان من السُّورة . وهي بهذه الصفة لا تكون إلا لمؤمنين يصعب عليهم خسران مكانتهم عند الله . يقول تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء:٤٣) .

وقد يقول قائل إنَّ نفسَ الأحكامِ الواردةِ في هذه الآية تكررت في الآية السادسةِ من سورة المائدة . وجوابُنا له أن قراءةً دقيقةً تُظهِر فرقاً كبيراً بين الآيتين فهي في سورة النساء لتركيز معاني سورة النساء ؛ فاختتمت بالعفو والغفران لضعفٍ وتقصيرٍ ؛ وكان التيممُ العنصرَ الرئيسي فيها . بينما تركز آيةُ المائدة على الوضوء استعداداً لأجواءِ المائدة . وبدل ذكر العفو والغفران يأتي تعقيبها إتمامَ نعمةٍ وطلبَ شكرانٍ . وسيتجلى الفرقُ وعلاقةُ صياغةِ الآية بعنوان سورتها عندما نعرض سورة المائدة .

ونقرأ الآيةَ على ضوء موقعها من سورة النساء فنجدُها تبدأ بِسُكارى تنهاهم عن اقتراب الصَّلاة حتى يصحوا من سُكرهم . وهذا جانب مما يخسرون بسكرهم . ولكن وضع هذا التحذير في سورة النساء يدلنا على سلبياتٍ أخرى لحالةِ السكر لا تقل سوءاً وضرراً عن الحرمان المؤقت من الصَّلاة . فالسكير صار سكيراً نتيجة أسرةٍ مفككةٍ ، وهو في نفس الوقت بذرةُ تدميرِ أسرةٍ أخرى كان يُتوقَّع منه بناؤها . وقد لا يشعر بحاله هذا بسبب غلبةِ جانبه الذكوري . لكنه قد يشعر بالحرمان من الصَّلاة . فحرمانُه من الصَّلاة ومن الوقوفِ بين الرجالِ في المسجد إعدادٌ له للتخلي عن سوءِ عمله وستكون امرأتُه أولَ مستفيدٍ من عودته عن عادة السكر . فالحكم بدايةُ تحريرٍ له من سوء خُلُقِه ، الذي هو حالةُ ضعفٍ ؛ وإنقاذٌ لزوجِه المستضعفةِ بسوءِ خلقه وسكره . فيندر أن يوجد سكيرٌ لا يؤذي امرأتَه وأفرادَ أسرته .

ثم تضعُ الآيةَ حلاًّ لانعدام ماء الوضوء . وكلّ الحالات المعالَجة هي حالاتُ ضعفٍ يحتاج بها الإنسان إلى المساعدة . واختُتِمت الآيةُ بتعقيبٍ يناسب الحال وهو ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء:٤٣) . ولو لم يكن سبحانه كذلك لكان عقاب . لأنها حالاتُ ضعفٍ . وإذا كان الله العفوُّ الغفور قد وضع لها حلاًّ مؤقتاً ، فإن التعقيب بأن الله عفوٌّ غفور يحث الناس على الانتقال إلى الحال الأفضل .

المعارضة الدينية : تعالج السُّورة موضوعُ أهلِ الكتاب بأكثر من فقرةٍ ومن أكثر من زاوية . فاليهود في المدينة لم يكونوا أقليةً بل كانوا أكثر عدداً من المسلمين .

لكن لأن الأرضَ عربيَّة وقبليةٌ وهم طارئون على الأرض فقد رضوا بدور الأقلية حتى قبل الإسلام . من جهةٍ أخرى يتمتعون برصيدٍ متراكمٍ من المعرفة والخبرة في الدين فهم أهلُ كتاب ، مقابلَ العرب الأميين . وكأقليةٍ فإنهم يتصرفون وكأنهم حزبٌ واحدٌ سرِّيٌّ يتبادل الأخبارَ والمعلومات ويندس داخلَ المجتمع المقصود بمكائدهم دون أن يشعر المجتمعُ بذلك إلا قياداتِه الواعيةَ . ولذا جاءت فقراتٌ من السُّورة لتعالج وضع أهل الكتابِ استجابةً لكلّ ما ذكرنا من أحوالهم وخصائصِهم ونشاطهم . فلا تسمح لهم الآياتُ بتمرير مكائدهم ولا تسمح للمؤمنين بالإساءةِ إليهم بغير حقّ .

تأتي الآيات (٤٤- ٥٦) كشفاً لمساوئ فئةٍ من اليهود فتفضحهم بدءاً من دواخِل نفوسهم وحقدِهم على النبيّ وتآمرهم على المؤمنين وتحالفهم مع المشركين .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٤٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٤٤-٥٦) .

وتتراوح حالة الأقليات بين انتقاص حقوقِها وبين مكرِها بالمجتمع ؛ ومحاولاتِها الدائمة سراً وعلناً لتدمير الأسسِ الثَّقافية والفكرية للمجتمع . وإذا كانت الآياتُ السابقة تعرضت لمكر أهل الكتاب بالنبيّ وبالمؤمنين معه ووقوفِهم إلى جانب المشركين ، فإنا سنطلع في فقراتٍ لاحقةٍ من السُّورة على جوانب أخرى من العلاقة بأهل الكتاب بعضُها لحفظ حقوقهم أن يُظلموا . وجميعها مما يليق به أن يعرض في سورة النساء .

ونتجاوز ترتيب السُّورة لنرى الصورة الأخرى لأهلِ الكتاب : تقول الآية (١٦٢) ﴿ **لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء:١٦٢) . فتأتي هذه الآية لتُنصف المؤمنين من يهود بني إسرائيل . وتمدحهم بما يستحقّون . وذلك ليعلم الناسُ أن الحملة عليهم ليست بصفتهم بني إسرائيل أو يهوداً ، بل بسبب انحرافهم وكفرهم بدينهم واعتدائهم على النبيّ وعلى المسلمين ، وتحالفِهم مع أعداء الإسلام بغير حقّ ، وهم يعلمون أنهم ظالمون وكاذبون بنصرتهم المشركين على النبيّ .

وبذا عالجت الآياتُ كلّ ما يتسبب عن القبائل اليهودية في المدينة من أذًى للمجتمع ، وأصلحت الصورةَ الموجودةَ عنهم في أذهان المسلمين . ووضعتهم بحجمهم الحقيقي ، وحدت من قدرتهم على التأثير الفكريِّ السلبيِّ بالمجتمع . وأنصفت المؤمنين الطيبين منهم .

القِسطُ لحماية المُستضعفين : الآيتان (٥٨-٥٩) دعوةٌ للحكم بالعدل وعدم الظلم وردِّ الأمانة لصاحبها . وفي العادة فإن الظلمَ وعدمَ ردِّ الأمانة يقع على الضعيف والمستضعف . ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾
(النساء:٥٨،٥٩)

إن الدعوةَ إلى العدل والمساواة حيثما كانت إنما هي لصالح الضعفاءِ والمستضعفينَ في المجتمع . وهي ضدُّ مطالب الأقوياء غير المنصفة . وتستمر تعاليم العدل ودلالاته الإيمانية حتى الآية (٧٠)

النفاقُ ضعفٌ خلقي : تدعو الآية (٧١) للحذر لتفاجئنا الآيتان (٧٢ -٧٣) أن بين المؤمنين فئةٌ تتأرجحُ بين الإيمان والنفاق لا تستحقّ الخطاب المباشر ، فتتحدث عنها الآية بصيغة الغائب ﴿ **وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا** ﴾ (النساء:٧٢) .

وكملخصٍ لما جاء بحقّ المنافقين هنا فإنهم بسلوكهم وبحيرتهم واختلافِ ظاهرهم عن باطنهم وعدم قدرتهم على المواجهة بقولٍ واضحٍ صريحٍ ومستقيمٍ ، استحقّوا أن تُعرَض حالتُهم في سورة النساء للشبه بينهما .

نصرة المستضعفين خارج حدود الدولة : الآية (٧٤) مقدمةٌ لفقرةٍ طويلةٍ تمتد حتى الآية (١٠٤) يدور معظمها حول نصرة المستضعفين من المؤمنين في قريش ؛ ودعوةٌ لهم للهجرة . وكلّ مواضيعها نصرةٌ للمستضعفين ومناقشة أمور فئاتٍ منهم لا تقدر على الجهاد رغم إيمانها وفيما يلي ملخص للفقرة :

- الآية (٧٥) تدعو للقتال لتحرير مسلمي مكّة الذين يُسامون عذاباً من كفار قريش . ﴿ **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ (النساء:٧٥) والمستضعفون رجالٌ ونساءٌ وولدان . وتأتي الآيةُ بصيغة التحريض على أمرٍ ثقيلٍ وهو قتال الأهل والعشيرة من قريش . لذلك نجد التحريض شديداً في الآية التالية (٧٦) . ثم يتلوها عتابٌ شديدٌ للممتعضين من القتال في الآيات (٧٧-٧٨) . وتستمر الآيات بفضح هؤلاء ومحاورتهم حتى الآية (٨٣) لدرجة أن الله يأمرُ النبيّ بالقتال بمن يحضر معه (٨٤) ﴿ **فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا** ﴾ (النساء:٨٤) .

وتأتي الآيتان (٩٠-٩١) لوضع أحكامٍ لكلّ حالةٍ من حالات المستضعفين ؛ الذين اضطروا للبقاء مع مجتمعاتهم المعاديةِ للنبي وللمؤمنين ؛ وجعلت لكلّ حالةٍ حكمَها ، وتبريرِ ذلك الحكم . ولكن ضمن أساسياتٍ لا تجوز المساومةُ عليها مثل تحريم قتل المؤمن عمداً أو خطأً سواءً أكان يعيش مع المؤمنين أو في مجتمعٍ آخر . وهذا أحد محددات قتال المشركين عندما يكون بينهم مؤمنون يُخْشَى قتلُهم (الآيات ٩٢-٩٣) .

- وفي حال القتال يجب أن تُقبلَ كلّ بادرةِ سلامٍ أو إيمان ، فالهدفُ ليس القتلُ بل توبةُ العرب عن شركهم ، وعودتُهم إلى دينهم كما تقول سورة التَّوبة (٥) .
- تعالج الآيةُ (٩٥) موضوعَ المؤمنين الضعفاء الذين لا يرغبون بالقتال رغم إيمانهم . وتَعِد الآيةُ هؤلاء بالحسنى ، ولكن درجتَهم دونَ درجةِ المجاهدين بأنفسِهم وبأموالِهم . ﴿ **لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء:٩٥) . وهؤلاء مختلفون عن الذين تخلفوا عن القتال في غزوة العسرة .
- ومقابل الإعراضِ الحسن عن مسالمي المجتمع المؤمن تدعو الآيات (٩٧-١٠٠) مؤمني دارِ الحرب إلى الهجرة ، وتعيبُ موقفَ من يقدر منهم على الهجرة ولا يهاجرُ ، بل يقبلُ حالةَ الذلِّ بين المشركين ، وتستثني المستضعفين الذين لا يجدون للخلاص سبيلاً . وتعد بالمكافأةِ الحسنةِ من يبدأ الهجرةَ حتى لو مات على الطريق دون دارِ الهجرة . وفي هذه الآيات تَسامُحٌ للذين يعيشون مغلوبين على أمرهم ، مع تذكيرهم أن القوّة والمبادرةَ أفضلُ وأكرمُ حالاً لمن يقدر عليها . ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (النساء:٩٧-١٠٠) . وهذا التشديد بحقّ الذين لم يهاجروا لا يكون إلا حيث يكون نبيٌّ مرسلٌ .
- الآيات (١٠١-١٠٤) عالجت حالةَ ضعفٍ أو خوفٍ أصابت المجاهدين المؤمنين مع النبيّ وهم في حالة قتال . فجعلت لهم أحكاماً مناسبةً لما سمي بصلاة الخوف ، لينال الجميع بركةَ الصَّلاة مع النبيّ . وأمرتهم بالحذر ولجأت لحقائق علمِ النفس لتشجعهم على قتالِ العدوّ الذي ربّما كان يفوقهم قوة ﴿ **وَلَا تَهِنُوا۟ فِى**

ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١٠٤) .

إنصاف الأقليات : الآيةُ (١٠٥) تبدأ فقرةً تأمر بالعدل وفيها الآية (١٠٦) التي ما تزال تحمل سببَ نزولِها عندما سرق مسلمٌ متاعاً ووجه تهمةَ السرقة ليهوديٍّ . وتُوجِّه الآياتُ عتاباً للنبيِّ والمؤمنين لأنهم صدَّقوا اللص الكاذب ، وأوشكوا أن يدينوا اليهوديَّ البريء . لكن الله ربّ الجميع يأبى إلا الحكمَ بالحقّ ، ولا يرضى أن يُظلَم إنسانٌ بحكم نبيٍّ ، لأنه ينتمي لأقليةٍ أو ليس من الفئة الغالبة . ولا شيء يُغني عن قراءة الفقرة (١٠٥-١١٣) لإدراك عظمتها أمام ضعف الإنسان . وهي معنيةٌ بمستضعف لا بسبب ضعفه شخصيًّا ، بل بسبب انتمائه لأقلية . ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء:١٠٥-١١٣)

قبل أن تعود السُّورة لحديث النساء كحقيقةٍ وليس كحالةٍ تبدأ الآية (١١٤) فقرة طويلة تمتد حتى الآية (١٢٦) تشكل تعقيباً على ما سبق من شئون الأقليات ومنافقي المجتمع . ثم تعلل مواقفهم من الإسلام بأسبابها الحقيقيّة وعلى رأسها طاعةُ إبليسَ عدوّ البشر منذ أبيهم آدم . وتنتهي الآياتُ ببيانِ نهايةِ كلّ فريق حسب موقفه وعمله الحقيقي من زاوية طاعة الله أو الانحراف وراء فتنةِ الشيطانِ . ومنذ آيتها الأولى (١١٤) تتحدث الفقرةُ عن قوم يتناجون ضدَّ قيادةِ المجتمع المؤمنةِ كما تتناجى النساءُ ضد من يغلبهن زوجاً أو أباً أو أخاً!! ثم تذكر أن آلهة المشركين

المزعومةَ إناثٌ (اللات والعزى ومناة) ولعل المقصود بإظهار أنوثتها هنا بيانُ ضعفها وعجزها بما يتماشى مع عنوان السُّورة وجوها .

الخاتمة :

وتعود السُّورة إلى النساء ومعهن اليتامى والمستضعفون من الولدان في الآيات (١٢٧-١٣٤) ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

(النساء:١٢٧-١٣٤) .

بصيغة تقابل صيغة الأطروحة تنزلت آيات هذه الفقرة . وهذا هو الأسلوب الحديث بكتابة المقال . فهو أفضل وأحدث ما توصلت إليه الخبرة البشرية مما ألهمها الله في الكتابة المؤثرة القائمة على المنطق . وتسمى هذه الفقرةُ الخاتمةَ أو النتيجة . وتأتي في مكانها حيث يكون القارئُ قد استوعبَ الموضوع وآمن بما ورد فيه . ولم تخل صياغة هذه الفقرة في ذاتها من بلاغةٍ معجزةٍ من حيث دقتها وصدقها.

وتأتي الآيةُ (١٢٧) لتُذكِّر بهدف السُّورة المركزي ، فأبرزت أضعف الأيتام موقفاً وهن يتامى النساء يقعن بين يدي وَلِيٍّ فقير ، وطامعٍ بمالهن يجدهن غنيمةً سائغةً لزواجٍ مجاني . وخصت بالذِّكر الولدان من المستضعفين . وذكَّرت بضرورةِ

معاملة اليتامى بالقسط، وعدمِ أهمال أمرهم ما داموا يحتاجون رعايةَ الوصي عليهم. وقبل كلّ هذا أفادتنا أن موضوع النساء لم ينته بعد؛ فما زال للمؤمنين أسئلةٌ حول الموضوع؛ وتجيب السُّورة عليها ابتداءً من الآية التالية. ولكن ما نزل في الكتاب حتى الآن يكفي لمعاملة بقية الفئات المذكورة في الآية بما يرضي الله ويجنب المجتمع انحرافاتٍ سيدفع ثمنها إن لم يطع الله. كما تلمح السُّورة فيما سلف منها وما سيأتي.

تعرض الآية (١٢٨) موضوع المرأة تخشى نشوز زوجها وظلمَه. فتُوجِّه الآية المجتمعَ للتدخل بينهما بالصلح، وتؤكد مرةً أخرى أن الشح، من أكبر أسباب الخلافات الأسرية.

ثم تنهى الآيةُ (١٢٩) عن تعدد النساء للرجل الواحد لأن العدل مستحيلٌ بينهن. وإن كان الرجل مصرًّا على تعددهن، وهن مضطراتٌ لقبول العيش معه، لظروفٍ قاهرة كالفقر، فهو مدعوٌّ للاعتدال وعدم المبالغة في انحيازه. وهذا لا يعني أن انحيازه مغفورٌ مهما كان قليلاً. بل تشجع الآية التالية (١٣٠) المرأةَ هنا، والمرأةُ التي وصفت الآية (١٢٨) معاناتها مع زوجها الناشز، تشجعهن على التخلي عن هذه الشراكة المُهينة «فإن يتفرقا يغن اللهُ كلاً من سعته» كما تقول الآية الكريمة. فالله يملك ما في السموات والأرض من رزقٍ ومن تقديرٍ؛ فلماذا ترضخُ المرأة للظلم خوفاً على لقمة العيش، فترضى بالحياة مع من يظلمها، أو يصرُّ على الزّواج بسواها مع وجودها؟ بل تذكر الآيةُ أن الله يوصي المسلمين كما أوصى أهل الكتاب بتقوى الله في النساء! وتهددهم الآيات التالية بعقابٍ شديدٍ إن ابتعدوا عن وصاياه بشأن النساء.

توصيات وتعقيبات:

قد يقول قائل ما دامت الآيات (١٢٧-١٣٤) عبارة عن خاتمة السُّورة فما بال السُّورة لم تنته؟ سؤالٌ منطقيٌّ ويتماشى مع بلاغة النص. ولكن مما يطيقه النص البليغ أيضاً أن يكون بعد الخاتمة توصياتٌ ملحقةٌ، خصوصاً في النص الطويل العميق، الذي يناقش مواضيعَ كثيرةً واسعةً، تثير أسئلةً مُلحةً خارجَ حدود أطروحته، أو أسئلةً لا يجوز الرد عليها داخل الجسم الأصلي للنص تجنباً للاستطراد والخروج على قواعد الإتقان والإعجاز. فتناقَشُ مثلُ هذه الأمور في

فقراتٍ تاليةٍ على طريقة التَّوصيات أو التعقيبات أو الهوامش ، حسب ما يطيق العمل الفني المتقن .

وقد أثارت سورةُ النساء أموراً جديدةً على الثَّقافة العربيَّة ، وأخرى تتعارض مع أحكامِ التَّوراة مما يثير خلافاً مع أكبر الأقليات في مجتمع المدينة ، وأصلبها فكراً وثقافةً ، كما أثارت قضايا في علم النفس وأسباب انحراف فئاتٍ من المجتمع . وكلّ هذه قضايا مفصليةٌ تحتاج إلى توضيح . فلزم أن تظهر في نفس السُّورة دون الإخلال بأسس البلاغة . فكان هذا التقسيم للسورة . وإذا كانت البشرية لم تعرفه قبلَ القرآن ولا بعده بقرون ؛ فإن الخبرةَ المتراكمةَ التي ألهمها الله للبشر قادت إلى مثلِه شكلاً في القرون الأخيرة . وسنرى في تحليل بقية السُّورة تطبيقاً عمليًّا لهذا الأسلوب في الكتابة . وستدلنا الأفكارُ المطروحة على نوع الأمور التي يمكن أن تكون في الملحق ، وليس في جسم السُّورة الرئيسي . ونعرض فيما يلي الأمور الواردة في التعقيبات :

- الآية (١٣٥) تقول ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ (النساء:١٣٥) . فهي تدعو إلى القسط خصوصاً مع النفس والأقارب . فهي هنا دعوة عامة للعدل تختلف عما ورد من دعوات للعدل مع الأقليات والمستضعفين الواردة في السُّورة بل هي الوجه المقابل تماماً لها . وكي لا يُظنَّ أن العدلَ مع الأقليات فقط .
- الآية (١٣٦) تقول ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا** ﴾ (النساء:١٣٦) . فهي تثير موضوعاً فكريًّا ؛ لعل الهدف الأساسيَّ منه حفظُ حقّ أهل الكتاب وحمايتِهم . فالسُّورة قد حملت على أهل الكتاب وبينت أخطاءهم وبعضَ انحرافاتِهم . ثم أتت أحكامُ المواريث لتشكل أهم أجزاء السُّورة . وأحكام المواريث القرآنية تختلف تماماً عن أحكامِ توزيعِ الثَّروةِ في التَّوراة . وكلّ من عند الله . وكلّ هو الأنسب لمن أُنزل إليهم بناءً على تكوينِهم النفسي وظروف بيئتهم . فأتت هذه

الآية تأمرُ المسلمين بالإيمان بما في التَّوراةِ وعدمِ تكذيبه أو الشكِّ به لمجرد أنه مختلفٌ عما في القرآن خصوصاً عندما يتعلق الأمرُ بالأحكام . لكنَ الإيمانَ المطلوبَ بالتَّوراة والإنجيل من المسلم هو إيمانُ تصديقٍ وليس إيمانَ اتباعٍ . فلا يحقّ للعربيِّ المسلم أن يتبع غيرَ القرآنِ فيما ورد فيه من أحكام . ومن يكفر بالإسلام بعد إسلامِه وتكرر منه ذلك فَلا توبةَ له ولا غفرانَ كما تقول الآية (١٣٧) .

- موضوع المنافقين تنوع في السُّورة فبعض ضعاف الإيمان اعتُبِر منافقاً . ومسلمو دار الحرب الذين يُخفُون إسلامهم اعتبروا منافقين ودُعوا إلى الهجرة ليصيروا من المؤمنين .

وتأتي الآيات (١٣٨-١٤٣) لتصف منافقين يترددون بين الإيمان وبين الولاء لأهل الكتاب . وقد تخلل فقرةَ المنافقين بضع آيات تخاطب المؤمنين مباشرة وتحذرهم من الوقوع في مثل أعمال المنافقين منها الآية (١٤٠) ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** ﴾ (النساء: ١٤٠) .

- سبق أن نهت السُّورة عن النجوى (الآية١١٤) . وكي لا يظن أحد أن الكلام ممنوع بحقّ أهل السلطة جاءت الآية (١٤٨) لتأذن للمظلوم أن يجهر بما يقع عليه من ظلم وأن يُطالِب بحقّه . ولا يُعتبر حديثُه غيبةً ولا يُلام عليه ما دام صادقاً . وتُتِم الآية (١٤٩) هذا المعنى لتتضح الصورةُ ويُعرفَ المقبولُ والمرفوضُ من قول العامةِ بحقّ القيادةِ وأقوياء المجتمع .

- بنو إسرائيل أقليةٌ عرقيةٌ ودينيةٌ تعيش مع العرب وتشاركُهم المكان . فلا فَكاك عن التعامل معها . وقد تحدثت السُّورة عنهم بإسهاب ، فذكرت طرفاً مما يحسب لهم وكثيراً مما يحسَب عليهم . وخاطبتهم بنداءٍ مباشرٍ كالمؤمنين تماماً وهو ما لم تحظَ بمثله فئةٌ من غير المؤمنين في القرآن الكريم . فما هو القولُ الفصل بهم وما المطلوبُ منهم كي تكون مصالحةٌ أو معايشةٌ ممكنة؟ تجيب الآيات (١٥٠-١٦٢) على هذا السؤال بالتفصيل .

- وتختم السُّورة بموضوع تركةِ من يورَثَ كلالةً وهي أضعف حالاتِ المورثين .
وكانت موضوعَ الآية الأخيرة لتقول لنا إن كلّ ما في السُّورة ينضوي تحت عنوانها . وأزالت الآيةُ اللبسَ بشأن من يورث كلالةً وله إخوةٌ . لأن الآية التي ذكرت من يورث كلالة (الآية١٢) تركتهم في حيرةٍ بشأن بعض حالات الكلالة .

تعقيب أخير : وهكذا لم تختتم السُّورة بمثلِ ما اختتمت به بقيةُ السور من دعاءٍ أو توجيهٍ شموليٍ للنبيِّ أو ذِكرِ سنةٍ من سنن الله . بل بآيةٍ فيها حكمُ ميراثِ الكلالةِ وكأنها في وسطِ السُّورة . وذلك لأن الفقرةَ الختاميةَ للسورة هي الآيات ١٣١-١٣٤. وجاءت الآيات الأربع الأخيرة من تلك الفقرة بنفس أسلوب خواتم السورِ القرآنية . وكان ما بعدها كما أسلفنا تعقيباتٌ لتبيين أمورٍ عُرِضَت نتيجةَ مناقشةِ المواضيع الأساسيَّة للسورة .

* * *

سورة المائدة

سورة المائدة ، جاء اسمها مشابهاً لمائدة المسيح التي ذُكِرَت في أواخرها . ولكن موضوعَها أكبر من ذلك . تماماً كما كان الحال مع سورة البقرة التي تَشابَه اسمها مع قصة بقرة بني إسرائيل . وكلمة المائدة معروفةُ المعنى . قال الخليل في العين : المائدة معروفة . قصد أنها لا تُعرَّف بكلمة أبسط منها .

وكعنوان للسورة جاءت بمعنيين معاً : مائدةُ الطعام ومائدةُ الحوار لفئات المجتمع . أمّا كمائدةٍ للطعام فشملت الموضوع بما لا يقدر عليه عقلٌ بشري . جعلته استمراراً للعقود بين الله وبين الإنسان . وبدأته من معالجة ما يدور في النفس الإنسانية تجاه ذبح كائنٍ حيٍّ وأكل لحمه . لذلك سمت الحيوانات المباحة للأكل بهيمة الأنعام . فهي بهيمةٌ لا عقلَ فيها ولا روحَ لها . فكأنها كتلةُ لحمٍ بصورة كائنٍ حيٍّ . والحياةُ غيرُ الروح .

وفي آيةٍ مبكرةٍ من السُّورة يعلن اللهُ رضاه عن الأمة إذ تطورت ونمت مع تعاليم الوحي حتى استحقّت مرحلةَ تلقي أحكامِ الطعام . وهذا هو مقصودُ الإعلان الذي تخلل الآية الثَّالثَّة ﴿ . . . **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ** . . . ﴾ . وتذكر الحالاتِ التي يَحرمُ بها أكل لحوم الأنعام كختامٍ للموضوع .

وفي آيةٍ لاحقةٍ (٥) تلتقي معاني المائدة : الطعام والعلاقة بأهل الكتاب وفي أحسن حالاتها ، حيث يمكن أن يُصهر المسلمون إلى أهل الكتاب ، ويأكلوا معاً نفس الطعام . وكي لا تأتي الآيةُ نشازاً أو مختلفةً عما يحيط بها طرحت موضوع زواج الكتابيةِ انطلاقاً من موضوع الطعام . لترتبط الآيةُ بعنوان السُّورة بسببٍ طبيعي . ولنعلم أنه كتابٌ متماسك ؛ وللسورة حدودٌ منضبطةٌ بأصول الكتابة . وأمرٌ آخر نستنتجه ، وهو أن الآيةَ ليست دائماً جملةً واحدةً ، بل قد تكون فقرةً تعرض فكرتَها بعدةِ جملٍ ، لتحتويها من نواحيها المناسبة المنسجمة مع العنوان وموضوعِ السُّورة .

هذا عن مائدة الطعام . وعن مائدة الحوار وما تنظمه من علاقاتٍ بين فئات المجتمع نجد عجباً . بل مستوًى من النضج والتعايش لم تصله البشريةُ حتى اليوم .

وتبدأ السُّورة من الأغلبيةِ العربيَّة المسلمة . فتحـرص علـى حرمـةِ البيـت العتيـق وعدمِ الأخذ بالثَّأر فيه أو داخلَ حدوده . ليبقى ساحةَ أمان لمن لجـأ إليـه . اسـتمراراً لما كان عليه منذ الحنيفيَّة وربّما قبلَها . بل تضع السُّورة أَحكاماً صارمةً ليأمنَ الناسُ على أرواحهم وأموالهم وهي تذكر حكمَ الحرابةِ والسرقةِ .

وبعد ذلك تنظمُ العلاقةَ بين الفئاتِ الدينيةِ التي تشكل المجتمع ، وهي هنا اليهودُ والنصارى والمسلمون . فالآيات (٤٢-٤٩) تأمر كلاًّ من الفئاتِ الثَّلاثِ باتباعِ كتاب الله المُنزَّلِ لها . وأن تتسابق الفئاتُ الثَّلاثُ بطاعـة الله كـلّ وِفـقَ كتابهـا . وهـو مـا لم تعهده البشَريةُ ، خصوصاً من دينٍ منتصرٍ قادر على اتخاذ ما شاء من قـراراتٍ بشـأن المخالفين بالعقيدة . ورضـا الله عمـن يلتـزم بـالتَّوراة والإنجيـل لا يعـني أن المسـلم يمكنه التحول لأحدهما . فللبعد العرقـي دور مُحَـدِّدٌ للـدين . فـذانك الكتابـان لـبني إسرائيل ولا يُقبلان من العربي الذي كان آباؤه على الحنيفيَّة أو وجد أباه مسلماً .

وبأبعادٍ عرقيةٍ راسخةٍ تُعلِّم السُّورة الأميين حدودَ العلاقةِ مع الآخر . كي لا تنماع حدودُ الجماعة المسلمة . وتسألهم المحافظةَ على حدود ديـنهم وكرامـةِ جمـاعتهم ، وأن لا يتساهلوا مع مـن يسـخرُ مـن ديـنهم ، أو يسـتهزئ برسـولهم ، أو يهـزأُ مـن صلاتهم . ولا تُجامل النصـارى بموضـوعِ العقيـدةِ مـع أنهـم أقـرب فئـاتِ الجزيـرة للمؤمنين . وتعود لضعفاء المجتمـع المسـلمِ لتـأمرَ بتشـكيل لجـانٍ لحـل مشـكلاتِ التركة والوصية عندما يحدث خلافٌ . واللجنةُ نوعٌ من مائـدةِ الحـوار . وقـد أمـرت الآياتُ بتشكيل لجنةٍ وراء لجنةٍ في حالِ عدمِ قناعةِ أحـدِ طـرفي النـزاع . ولكنهـا لم تسمح بقتالٍ داخلَ الجماعة لانتزاع الحقّ بالقوّة (١٠٧-١٠٩) . فهذه سـورة المائـدةِ والحوار .

مطالعات في التراث :

محمد الغزالي في كتابه التفسير الموضوعي لسور القـرآن الكـريم : يقـول : « وتسمى كذلك سورة العقود ، والتسميةُ الأخيرة أدلُّ على موضـوع السُّـورة الواسـع! أما الأولى فهي تشير إلى اقتراحِ الحواريين علـى عيسـى أن ينـزل علـيهم مائـدةً مـن السماء يأكلون منها ويستبشرون بها . وهو اقتراحٌ مـثيرٌ للدهشـة ، ولكـن الله سـبحانه قَبِلَه تأييداً لنبيه وتصديقاً لرسالته . .! وقصةُ المائـدة لا تسـتغرق مـن السُّـورة سـوى أربـعَ آيـاتٍ . أمـا قضـيةُ العقـودِ فتشـمل أغلـبَ السُّـورة . . . . (ثـم يسـرد النـداءات

المباشرة وغير المباشرة في السُّورة إلى أن يقول مُقتنعاً أنها تستحقّ اسم سورة العقود وليس المائدة) قائلاً : والعلاقاتُ المؤكدةُ تَتَطَلَّبُ مسالكَ صارمةَ ، وعملاً محكماً ».

ويمكن الاستنتاج مما سبق أن الغزالي لا يعتبر أسماءَ السور من عند الله أو أنها جزءٌ أصيلٌ في السُّورة . لذلك تراه يقارن بين اسمين وكأنهما اقتراحان بشريان . ويُرجِّح اقتراحَ البشر على ما جاء من عند الله . ولو كان يعلم أن العنوانَ من عند الله ما خاض في هذا الأمر ولما قال ما قال !!

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها :

كلمة المائدة تعني الخُوانَ أو الطاولةَ التي يجلس الناس إليها لتناول الطعام أو الحديثِ أو أي أمرٍ يمكن ممارستُه في حالة الجلوس إليها . واتُخِذَت كلمة المائدة عنواناً للسورة من مائدةِ الطعام التي أُنزلت من السماء على المسيح وحوارييه لتكون آيةً لهم من الله تعالى . ولكنها وُظفت لتشمل أهمَّ وظائف المائدة . فجاءت السُّورة كاسمها معنيةً بأحكام المائدة ؛ فكانت أحكامُ الطعام من مواضيعها الرئيسية . وهي مائدةُ الحوار بين فئات المجتمع المخاطب بالقرآن الكريم . وهي لا تكتفي بحصر أسبابِ الخلاف لإزالتها ، أو التخفيف من قسوتِها على المختلفين ، بل عالجت الأسبابَ النفسيةَ والذهنية التي تُوصِل الخلاف إلى ميدان القتال ؛ وكانت مائدةَ حوارٍ قادرةٍ على الحيلولة دون الاقتتال .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : جاءت أطروحة السُّورة مختلفة قليلاً عما جرت به عادةً صياغةُ الأطروحة ؛ فقد تكرر ذِكرُ الصيد في نفس الأطروحةِ مما يُربكُ الدارسَ وهو يتعرف على حدودها ، متى تنتهي لتبدأَ السُّورة بتفصيلها . ومما زاد الأمور تعقيداً اختلاف القراء بشأن الآية الأولى : هل تنتهي عند كلمة العقود أم تنتهي بعبارة « إن الله يحكم ما يريد ».

وبناءً على تقاليد كتابةِ جملةِ الأطروحةِ فيحسن أن تقتصر الآية الأولى على قوله تعالى ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾. ثم تأتي فقرة الأطروحة لتبين العقود المقصودة ولتكون جميعُ العقود على مستوًى واحدٍ . ولو أخذنا برأي الذين جعلوا الآيةَ الأولى تنتهي بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾ فإن العقود ستقتصر على

موضوع الذبائح وما يتصل بها . ولكن فقرة الأطروحة تشتمل على عقودٍ أخرى غير أحكام الذبائح .

وعلى ضوء هذا تتكون فقرةُ الأطروحة من الآيات الثَّلاث الأُوَل ، حسب ترتيب المصاحف التي قصرت الآيةَ الأولى على قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ . وبما هو أقرب لأسلوب القرآن في بدء الآيات وإنهائها تنتهي الآية الثَّانية بقوله تعالى ﴿ . . يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ وتبدأ الثَّالثَّة بقوله تعلى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ﴾ . مع ملاحظة أن الاختلافَ هو في وضع علامةِ نهاية الآية ، ولا خلاف على حرفٍ واحدٍ من السُّورة . فتكون الأطروحة كاملة هي :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (المائدة:١-٢)

{سنتبع في الترقيم النظام السائد في المصاحف وهو إعطاء الرقم (١) للآيتين الأولى والثَّانية حسب تقسيمنا مع اعتبار وجود علامة نهاية الآية بينهما . وهو ما فعله بعض نساخ المصاحف الذين رأوا ما رأينا . وذلك كي لا نُربك القارئ وهو يراجع الآيات بأرقامها الواردة هنا}

العقود التي عرضتها السُّورة : بناءً على ما تقدم تكون العقود التي تعرضها السُّورة هي

١- حِلُّ أكل لحومِ الأنعام وسمَّاها بهيمةً لإزالةِ أيِّ تحرجٍ من ذبحها لأن فيها حياة .

٢- حرمةُ صيدِ حيوان الحَرم أثناء الإحرام للحجّ والعمرة

٣- حرمةُ شعائرِ الإسلام جميعاً بما فيها العقيدة

٤- حرمةُ الأشهرِ الحرم كما ورثها العرب عن الحنيفيَّة

٥- حرمةُ الهدي والقلائد

٦- حرمةُ المتعبدين بالبيتِ واللاجئين إليه .

٧- حلُّ الصيدِ بعد التحلُّلِ من الإحرام

٨- حرمةُ الاعتداءِ انتقاماً ممن حَرَم المؤمنين حقّهم بالبيت قبلَ فتح مكّة

٩- دعوةُ المؤمنين للتعاون على البر والتقوى

١٠- حرمةُ التعاون على الإثم والعدوان

وتبدأ السُّورة بتفصيل هذه العقودِ وأحكامها وطرقِ تنفيذها اعتباراً من الآية الثَّالثَّة . وأحياناً تقطعُ الحديثَ لتأتي بأمثلةٍ من الأمم التي سلفت خصوصاً بني إسرائيل . ولكنها في جميع ما تعرضُ لا تَخرجُ عن فكرةِ المائدة بمعنييها الاثنين المذكورين .

وحسبَ أسسِ النثر الفني كما توصلت إليها خبرةُ البشر في هذا الزَّمن تكون الفقرةُ الثَّانية عادة تفصيلاً للجملةِ الثَّانية من أطروحة المقال . وكذلك كان الأمرُ في ترتيب آياتِ السُّورة ؛ فالآيةُ الثَّالثَة تفصيلٌ للجملة الأولى من الآية الثَّانية (الأولى حسب المصحف) التي تقول : ﴿ **أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ (المائدة:١) لتكون الآية الثَّالثَّة ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (المائدة:٣) .

والآية الرابعة تأتي تفصيلاً للجملة الثَّالثَّة من الآية الأولى (حسب المصاحف) فكلاهما تدور حول الصيد متى يَحرُم وكيف يُباح .

وعن الطعام تأتي الآيةُ الخامسةُ وتتوسع فيه فلا يبقى مقتصراً على الذبائح بل الطعام ِكلّه . وهي تبيح طيباته . فهي ترتبط بالسُّورة لأنها تنتمي تماماً لعنوانها وهو المائدة . وتجعل طعامَ أهل الكتاب حلالاً للمسلمين وطعامَ المسلمين حِلٌّ لأهل الكتاب . وانطلاقاً من حِلِّ الطعام ومن فكرة المائدة يُحِلُّ الله للمسلمين الزّواج من نساء أهلِ الكتاب تماماً وبنفس شروطِ الزّواج من المسلمات . وبذا تُمهد الآيةُ لمائدة الحوار والتعاون بين أتباع الأديان الثَّلاثة . وفي هذا قاعدةٌ للتعايش الذي تهتم به السُّورة لاحقاً وتضع أُسُسَه .

والآية السادسةُ آيةٌ أخرى كلّيةُ الموضوع ترتبط بالأطروحة لأن تنفيذَها جزءٌ أساسيٌ من عقد المسلم مع ربّه وهو الصَّلاة عمودُ الدين وأحدُ الشعائر المذكورةِ في الآية الثَّانية . وهي في نفس الوقت تُمهد لمائدة الطعام والحوار فكلاهما يحتاج لغسل اليدين ونظافةِ الأعضاء الظاهرة من الجسد . لذلك ختمت بقوله تعالى ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة:٦) . يُذكر الوضوء هنا مقابل الشعائر في الأطروحة . لكنه لم يُذكر مع الصَّلاة في سورة الإسراء مثلاً . لأنه وإن كان شعيرةً فهو سلوكٌ متمدنٌ فيه اهتمامٌ بالناس الذين يختلطُ المتوضئُ بهم واحترامٌ لهم . فهو مقدمةٌ لاجتماع الناس في الصَّلاة . وهو يُذكر من زاوية سورة المائدة إذ يلتقي الناسُ حول مائدةٍ أو ما يشبهها . لذلك جاءت خاتمةُ الآية بما يتفق مع جوِّها السعيد الاحتفاليِّ من تمام النعمةِ المستحقّةِ للشكر .

وتواصل الآياتُ الأربع التاليات الحديثَ عن العقود خصوصاً عقدَ القسط وعدمَ التأثر بإساءاتٍ سابقةٍ أو ظلمٍ . ثم مكافأةٍ من يلتزم بعهدِ الله وعقوبةٍ من يكفر به .

إعداد المؤمنين لمجتمع التعايش المشترك : الآيةُ الحاديةُ عشرة توَظَّف لعدة أغراضٍ كلّها مما يناسب سورةَ المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المائدة:١١) . فهي تتمة لموضوع الآية الثَّامنة التي تأمر بالعدل حتى مع من سبق منه الظلم والإساءة . فتُذكِّر بنعمة الله وأن الذين انتصرتم عليهم وصاروا تحت حكمكم كانوا قادرين يوماً على هزيمتكم لولا نعمةُ الله عليكم وتدخلُه لصالحكم . ولعل الآيةَ تشير إلى غزوة الخندق حيث اجتمعت أحزابٌ وقبائلُ عربيَّة عديدةٌ بقيادة قريش على مهاجمة المدينة . فردَّهم الله دون تحقيق غايتهم . والشكرُ على مثل هذه النعمة يكون بعدم الظلم ، وعدمِ استعمال القوّة ، إلا بحقّها المتعارفِ عليه بين البشر ، وفي إطارِ ما أمر الله به أو أباحَه . وهذا عقدٌ مع الله يجب الوفاء به !

أمثلة من بني إسرائيل :

١- اليهود : وتنتقل السُّورة من حديث العدل والنهي عن اللجوء للقتال بطراً إلى أكبر أقليةٍ في المدينة وهم بنو إسرائيل . فهم أيضاً على عهدٍ وميثاق مع الله . ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى

مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٢-١٣) .

وهوعقدٌ شبيهٌ بعقد الله مع العرب . وتشير الآيةُ التاليةُ إلى نقض أجيال منهم للعقد وتفسيرِهم لكلام الله على غير ما وُضِع له ؛ وليس تغييرَ الكلام كما يزعم بعضُ الناس . وتُختَم الآية بدعوة النبيّ للعفو عما يصدر عن بعضِهم من خيانةٍ أو إساءةٍ . وهذا مما يتماشى مع فكرةِ المائدة كدعوةٍ للتعايش والحوار . ويتفق مع ما سبقَ من دعوةِ المؤمنين لتجنب الانتقام ، وعدم الردِّ على الإساءةِ بمثلِها ما دام المؤمنون في موقع قوةٍ ، وبيدهم زمامُ الأمور . وهي الظروفُ المناسبة لنزول سورة المائدة .

٢- النصارى : الآيات (١٤-١٧) تتحدث عن عقد الله مع أقليةٍ أخرى في المجتمع العربي هي النصارى . وبهذه المناسبة أتذكر سؤالاً سُئلته مرتين : مرةً من نصرانيٍّ عربيٍّ ومرةً من يهوديٍّ إسرائيليٍّ . وفي المرتين كان السؤال : لماذا تعرض القرآن لنا ولديننا وشئوننا؟ وجوابُ السؤالين موجودٌ في أجواء هذه السُّورة وفي هذه الآيات . فهما أقليتان تنتميان للمنطقة ؛ ولا بد للمسلمين العرب من التعايش معهما ؛ فكان القرآن كما نرى في هذه السُّورة يضع أسسَ التعايش المشترك بين الفئاتِ الثَّلاث . ويُصححُ تصوراتٍ أثَّرَ بها الزَّمن واجتهادُ العقلِ البشري . وبما أن غالبيةَ العرب مسلمون فهم أولى بالخطاب وبتنفيذِ إرادة الله في أمرِ هذه العلاقات بالعدل والحسنى .

ولكن العدلَ والحسنى لا تعنيان السكوتَ عن الخطأ ، فجاءت آياتُ النصارى أشدَّ دعوةً للإيمان بالنبيّ ، فهم عرب باللغة والثَّقافة حتى من كان منهم من أصلٍ إسرائيلي . كما أن بعضَ مذاهبهم قد انحرفت عن العقيدة بحقّ الله . فأشارت الآياتُ لأسباب الانحراف وأشَّرت عليه ليُصحح . وما تطلبه الآياتُ من مذاهبهم يتفق مع العقل ، وهو الصِّدقُ الذي لا يمكن الجدالُ فيه . فلا يُعقلُ أن يكون المسيحُ البشرُ

إلهاً كما تظن فئةٌ منهم ، وكيف يكون لله شركاءُ في الألوهية ، وهو خالقُ كلّ ما في الكون ومن فيه؟

وفي الحالتين تحذيرٌ للمسلمين من نقضِ ميثاقهم مع الله كي لا يقعوا فيما وقع به سواهم .

القتال أم الحوار : وتصل سورةُ المائدة قمتَها في الدعوة للحوار والنهيِ عن القتلِ والقتال ما أمكن . والقتالُ لم يكن في سنة الله للقتل ، وإنما للنصر ، ولهزيمةِ الباطل ؛ عسى أن يتخلى عنه أصحابُه ، وينحازوا إلى الحقّ المتفق مع الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها .

نجد هذه الفكرةَ السابقة للزمن الإنسانيِّ بقرون عديدةٍ في الآيات (٢٠-٣٢) : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (المائدة: ٢٠-٣٢) .

في الآيات (٢٠-٢٦) نرى بني إسرائيل يعصون نبيهم ، ويرفضون القتال لأنهم لا يقدرون على تدمير عدوّهم . وهذه هي نفسية بني إسرائيل . لا يقاتلون إلا وهم يضمنون النتائج . ومع أن موسى وعدهم بالنصر إلا أن الوقائع على الأرض تقول لهم إن العدوّ قوي ، ولا يمكن القضاء عليه . ونرى رجلين صالحين يعرفان سنة الله في تداول القوّة ينصحان القوم بدخول المدينة ، ويعدانهم بالغلبة . لكنهم لا يكتفون بالغلبة ، بل يريدون الانفراد بالأرض .

وبعد قصة عصيانِهم لموسى ، ورفضِهم دخولَ المدينة كما أمرهم ، تردُ قصةُ ابني آدم إذ قتل أحدُهما الآخرَ حسداً ورغبةً في التفوق بغير حقّ . فخسر أخاه الوحيدَ وندم على فعلتِه . وكان التعقيبُ عليها مُوجهاً لبني إسرائيل : ﴿ **مَن قَتَلَ نَفۡسًۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا** ﴾ . ولم يُوجَّه للعرب مثل هذا التَّوجيه !!

والقصتان تسيران في نفس الاتجاه . فهما حالةٌ واحدةٌ هي الرغبةُ بالقضاءِ التامِّ على المنافس . وفي القصتين دعوةٌ للتعايش رغم اختلافِ المصالحِ والحسد . فلعل المدينةَ كانت تتسعُ للفئتين فإن غلبت فئةٌ تعايشت معها الأخرى فاستفادت الفئتان تبادُلَ المعرفة ، وعجَّلت كلّ منهما تطوُّر الأخرى ونموَّها . وفي قصة ابني آدم يتجلى خطأُ قاتلِ أخيه بما لا يدع مجالاً للاختلاف حوله ، فهو أشدُّ الناس حاجةً لإنسان من نوعه يعيش معه . فخسره بسبب الحسد الجارفِ الذي لم يتحمل معه رؤيةَ أخيه متفوقاً عليه .

الأمن من ضرورات التعايش : وفي مجتمعِ المائدة والحوار المتمدن لا بدَّ من الأمن لذلك تأتي آياتُ الحرابة (٣٣-٣٤) بحكم من يسعى في الفساد ليكون الناسُ أمناءَ على أنفسهم . ثم تأتي آيةُ حكم السرقة (٣٨) . فلا حوارَ ولا موائد مع من ينحدر إلى درجةِ القتل من أجل مال أو عبثاً وإفساداً .

وعرضت الآيات (٣٥-٤٢) ألواناً من مظاهر تعويق المجتمع ونشرِ الفتنة التي كانت تصدرُ عن منافقين وعن يهود . وبأسلوبِ القرآن الرشيق تنتقلُ الآياتُ إلى أنموذجِ القرآن في التعايش العادلِ بين فئاتِ المجتمع الثَّلاثِ وهي اليهود والنصارى والمسلمون تحت قيادةِ النبيّ .

تعايش أتباع الأديان المختلفة : إنه أرقى نماذج التعايش بين البشر حتى المختلفين منهم . وفيها من النظريات القانونية ما لم تعرفه البشرية بعد . بل إن قيادات المجتمع الغربي الحالية لم تصل بسلوكها وممارساتها مستوى فكرةِ التعايش الموجودةِ في الآيات (٤٣-٤٨) . فحسب هذه الفقرة القرآنيةِ لا يجوزُ تطبيقُ قانونِ شعبٍ على شعبٍ آخر . لأن القانونَ يراعي عادةً العواملَ الوراثية للشعبِ كما يراعي الظروفَ البيئية . بعكس ما يظن الغربيون المعاصرون الذين يريدون فرضَ ثقافتهم وقوانينَهم على العالم . ومن لا يطبقُها يعتبرونه متخلفاً . وبالمقابل تأمرُ الآياتُ بني إسرائيل في المجتمع العربي المسلم أن يتحاكموا إلى التَّوراة ؛ وتأمر النبيّ بصفته قائدَ الأمة أن لا يحكم بينهم بالقرآن ؛ وتلومُهم على محاولةِ التحاكم إلى القرآن وعندهم التَّوراة : ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (المائدة:٤٣) .

وللنصارى تقول الآية (٤٧) : ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾ (المائدة:٤٧)

وتأمر الآيةُ (٤٨) النبيّ أن يحكم بين المسلمين بالقرآن . ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ (المائدة:٤٨)

لعلمه تعالى باختلاف ظروفهم وما آتى كلاًّ منهم جعل سبحانه لكلّ فئةٍ منهم شريعةً ومنهاجاً فليتنافسوا بعمل الخير كلّ حسب شرعته . أو كما قال سبحانه ﴿ **فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ** ﴾ (المائدة:٤٨) . كما أن إلزام القيادةِ لفئاتِ المجتمع ، كلّ بتنفيذ شريعتِها جزءٌ من ميثاق الله مع المسلمين في دولتهم . فهل وصل مجتمعٌ بشري بتشريعه وسياسته هذا المستوى من التعايش والتمدن ، حتى هذا الزَّمن من القرن الحادي والعشرين الميلادي؟

وهذا هو جوهر سورة المائدة! التعايش وليس الصراع . والتعايش الذي يضمن لكلّ فئةٍ الالتزام بكتابها .

وفكرةٌ أخرى تستحقّ الذِّكر مع أنها ليست من موضوعِ هذا الفصل وإن لم تكن بعيدةً عن موضوع الكتاب . وهي أن هذه الآيات (٤٣-٤٩) لا يمكن أن تصدرَ عن بشر . خصوصاً إذا كان منتصراً ، وبيده القوّة كحال النبيّ عندما نزلت عليه هذه الآيات . فما الذي يضطره لإعطاء شرعيةٍ لأتباع دينين سابقين وفي ذلك الزَّمن . بل إننا شهدنا في عصرنا هذا ، وفي واحدة من أرقى بقاع العالم وفي يوليو من عام ٢٠٠٧م مجلس الفاتيكان يسحب الغطاء عن معظم الكنائس غير الكاثوليكية ويعتبرها ليست طريق خلاص للإنسان . أي أنها حسب رؤية المجلس الموقر غير مقبولة عند الله[1] .

فهل يمكن أن يصدر عن ابن مكّة الأمي قبل أربعةِ عشرَ قرناً ونيفاٍ من عمر البشرية قراراً باعتبار اليهودية والمسيحية وكتبهما شرعيةً ومقبولة عند الله ، ويأمر أتباعَهما بالالتزام بهما؟ إنـي لم أشاهد مثل هذا ولم أسمع بمثله حتى في هذا الزَّمن . كما أن أتباعِ القرآن غفلوا عن هذه الآيات بعد موت النبيّ بقرن أو قرنين ، وتصرفوا كبشر وكَفَّرُوا اليهود والنصارى . وهذا هو السلوكُ الطبيعي للبشر . هذا عندي دليلٌ قاطعٌ على المصدر الإلهي للقرآن .

حدود الولاء والعلاقات بين فئات المجتمع : ونعود إلى سورةِ المائدة وهي تعالج ما يمكن أن ينشأَ عن النصِّ السابق من سوء فهم . وهذا أمرٌ شائعٌ في القرآن . أعني معالجةَ ذيولِ النص إذا وُجدت شبهةٌ تتيح إساءةَ فهمه .

بعد التكريم العظيم لليهود والنصارى في الفقرة القرآنية السابقة ، يُحذرُ القرآنُ المسلمين الذين قد لا يُقدرون الأمرَ بحجمِه ، فيتحالفون مع اليهود والنصارى على حسابِ قومهم ، يُحذرُهم من الوقوعِ في هذا الخطأ ويُذكرُهم بأن اليهود والنصارى

---

(1) *Keyword : catholicism - Free Republic*
freerepublic .com/tag/**catholicism**/5271859
Pope Benedict XVI *reasserted the primacy of the* **Roman Catholic Church***, approving a* **document** *released yesterday that* **says** *other* **Christian communities** *are* **either defective** *or* **not true churches** *and* **Catholicism provides** *the* **only true path** *to salvation . . . . Fox News ^ |* **July 10, 2007** *| Associated Press.*
LORENZAGO DI CADORE, Italy — For the second time in a week, Pope Benedict XVI has corrected what he says are erroneous interpretations of the Second Vatican Council, reasserting the primacy of the Roman Catholic Church and saying other Christian communities were either defective or not true churches . Benedict approved a document released Tuesday from his old office, the Congregation for the Doctrine of the Faith, which repeated church teaching on Catholic relations with other Christians .

ينتمون لخطٍّ دينيٍ واحدٍ مختلفٍ عن خطكم . فهم يتبعون سلالةَ يعقوب التي خاطبها الله باليهودية ثم النصرانية ؛ وأنتم أيها العربُ من نسلِ إسماعيل وخوطبتِم بالحنيفيَّة ثم الإسلام ، فاعرفوا هذه الحدود . وهذا هو ضابطُ الموالاةِ الواردةِ في الآية (٥١). ثم تشير الآيةُ (٥٢) لقومٍ يسارعون في أهل الكتاب نفاقاً ومرضاً في قلوبهم ، وعدمَ ثقةٍ بوعد الله لهم ولأمتهم . وتصفُ الآية (٥٤) عملهم بالردَّة . وتختتم الآيتان (٥٥-٥٦) الفقرةَ بتعريف الولاء الحقيقيِّ للمسلم كي لا ينماعَ المجتمعُ المسلم بسبب عدمِ فهمه لأفكار المائدةِ الحوارية الجامعةِ دون أن تُلغى الحدود . وهي معادلةٌ صعبةٌ على أناسٍ بسطاءٍ كالعامة من العرب . ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ۝٥٣ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ** ﴾ (المائدة:٥١-٥٦) .

وتنتقل بنا السُّورة إلى فقرةٍ جديدةٍ تبدأ بالآية (٥٧) التي تعالج مع الآية (٥٨) بقيةَ موضوعِ العَلاقة مع أهل الكتاب انطلاقاً من التكوين النفسي للعامةِ من العرب . فهم (أي العامة) يميلون عادةً للتطرف والإسراف في الانفعال . مبتعدين عن الوسطية والاعتدال . فتتمةً لموضوع الفقرة السابقة الذي ينهى عن موالاة أهل الكتاب ، تحددُ هاتان الآيتان الفئةَ التي يجب مقاطعتُها منهم ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾ (المائدة:٥٧-٥٨) . فلا يحقّ للمسلم أن يصادق من يتهكمُ على دينه ويهزأ بشعائر الإسلام .

ولهذه الفئةِ الضالة من أهل الكتاب وكي يقومَ الحوارُ والتعاون على أسسٍ سليمةٍ يؤمر النبيّ بالآيتين (٥٩-٦٠) بمواجهتهم بحقيقة موقفِهم ويُذكرُهم بغضب الله عليهم يومَ جعل منهم قردةً وخنازير . ثم تصف الآيات (٦١-٦٤) نفاقَ بعضهم وتُحمِّل الربّانيين والأحبارَ منهم مسئوليةَ ما يفعلون . وفي هذا العتاب للربّانيين والأحبار تكريمٌ وحثٌّ لهم ليتخلوا عن ضعفهم ، ويقوموا بواجبِهم تجاه قومِهم . **﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾**

كما أن فيه تذكيراً بسلامة دينهم وصلاحيتِه لإصلاحهم . وتأتي الآيتان (٦٥-٦٦) تصديقاً لهذه النظرة **﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾** (المائدة:٦٥-٦٦) . وبذا تؤكدُ الآية (٦٦) أنه كان مازال فيهم أمةٌ مقتصدةٌ مقبولةٌ عند الله .

وحرصاً على أهل الكتاب وكي يقوم التعايشُ على احترامِ حقيقيٍّ لا دَخَل فيه ، يُؤمر النبيّ أمراً فيه تهديدٌ مُبَطَّنٌ بمخاطبتهم ، ومصارحتِهم بأنَّ قبولَهم عند الله منوطٌ بإقامتهم التَّوراة والإنجيل (٦٧-٦٨) **﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾** (المائدة:٦٧،٦٨) ونقفز إلى الآيات (٨٢-٨٦) لنجد فيها منهجاً في الحوار والتحالف وما يتبعهما من علاقاتٍ بين جماعات الأمةِ وبما ينسجمُ مع مواضيع السُّورة : **﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾** (المائدة:٨٢) . فأساسُ التحالفِ والصداقةِ هنا الموقفُ الخلقيُّ وليس العقيدةُ وقرابةُ الدم . كان النصارى أقرب الناس مودةً للمؤمنين مع أن اليهودَ أقرب منهم عقيدةً للمسلمين ، والمشركون أقرب من النصارى نسباً وديناً ؛ ولكن الموقفَ الخلقي للنصارى كان الأفضلُ . فهم

لم يجاملوا المشركين ولم يقولوا لهم أنتم أفضلُ عقيدةً من محمدٍ كما فعلَ اليهود . ولم يُحرِّضوا على قتال المسلمين قطُّ على عهد النبيّ كما فعل اليهود وأحزابُ المشركين . لذلك اعتبروا الأقرب مودةً ولأسبابٍ أخرى تتعلق بتكوينهم النفسي ذكرتها الآيات (٨٣-٨٥) . وقد يقول قائل إن هذه الآياتِ تناقضُ ما جاء في الآية (٥١) التي تنهى عن موالاةِ اليهود والنصارى . ولكن لو انتبه إلى استعمال صيغِ التفاضل أو أفعل التفضيل لعلمَ أن الأمور نسبيةٌ . فاليهود كالمشركين اشدُّ الناس عداوةً والنصارى خيرُ الجماعات التي تشاركهم الحياة في المكان فوصفَهم بأنهم أقربهم مودةً . ولم يستعمل فعلاً بصيغة تدل على الإطلاق بحقّ أي من الفئات . فهي مقارنةٌ دقيقةٌ وبصيغةٍ محكمة .

المقبولون من بني إسرائيل : الآية (٦٩) تأتي لإزالة أي لبس أو سوء فهم من قبلهم أو من سواهم فتذكر الفئات المقبولة منهم عند الله إذا استقاموا على ما اختاروا من مذاهبهم : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (المائدة:٦٩) . والذين آمنوا هم الذين آمنوا بالله على منهج النُبُوَّة منذ يعقوب حتى نزول التَّوراة على موسى ؛ والذين هادوا هم الذين صدَّقوا موسى واتبعوه ومن تبعه من الأنبياء حتى يحيى . والصابئون هم الإسرائيليون الذين آمنوا بيحيى واتبعوه واستقاموا معه على التَّوراة . والنصارى هم الإسرائيليون الذين آمنوا بعيسى ابن مريم واتبعوه مستقيمين على التَّوراة والإنجيل . ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (المائدة:٦٩) . ورفعت كلمة الصابئين وكان حقّها النصب وذلك للفت الانتباه إلى أن في الكلمة أمراً ما . فيكون التقدير «والصابئون منهم والنصارى» على أنها مبتدأ والنصارى معطوف عليها ، ويكون معناها الصابئون والنصارى من اليهود . وذلك تمشياً مع سياق السُّورة التي تتحدث عن بني إسرائيل وعن فئاتهم باعتبار مذاهبهم الدينية ، ولأن يحيى وعيسى لم يأتيا بشرع جديد بل دعيا للتمسك بالتَّوراة فتبقى اليهودية هي القاعدة التي لا يحقّ للصابئ أو النصراني الإسرائيلي الخروج عليها . وبالتالي لا يشمل هذا الحكمُ أتباع هذه الأديان من غير

بني إسرائيل . ثم نعرف حكمةَ هذه الالتفاتة اللغوية عندما نعلم بعد ظهور الإسلام بمئات السنين أن هناك فئة تسمى الصابئةَ وتعبد النجوم أو تعتبرها في عقيدتها . وبذلك يكون القرآن قد احتاط سلفاً لتجنب الوقوع في وهم اعتبار الصابئةِ غير الإسرائيلية مقبولة عند الله .

إصلاح أعراف طعام جاهليَّة : بالآية (٨٧) تعود السُّورة إلى موضوع الطعام ، وموضعِ استعماله ككفارةٍ ، ثم تحريمِ الخمر واقتسامِ الذبائح بالأزلام ، وكلّها مما يوضع على المائدةِ ليأكله الإنسان أو يشربه . لتعود الآيات (٩٤-٩٦) إلى موضوع الصيد وأحكامه توضيحاً لما جاء في أطروحة السُّورة . وتتلوها الآيات (٩٧-١٠٤) لتدور حول بقية ما جاء في الأطروحة من نقاط تتصل بالشعائر وحرمة الكعبة . وتحذر من التهاون في أمر هذه الشعائر خصوصاً أن للعرب تاريخاً في الاحتيال على حرمة الأشهر الحرم قبل الإسلام . وتَختتِم الآيةُ (١٠٣) الردَّ على انحرافات الجاهلية بقوله تعالى ﴿ **مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ** ﴾ (المائدة:١٠٣) والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام هي تقدمات من الإبل كانوا يقدمونها للأصنام قبل الإسلام فحرمها بهذه الآية . وتَرُدُّ الآية (١٠٤) على مبرراتهم . والأصل في هذه البُدنِ أنها ثروةٌ وطعامٌ خلقَه اللهُ للناسِ ليعيشوا به ؛ فضيعوه بخرافاتهم وانحرافِ عقيدتِهم . فالبَحيرةُ هي الناقة يُترَكُ درُّها للأصنام لا يستفيد منه بشر . والسائبةُ التي كانت تُساب للأصنام لا يستفيد منها أصحابها في الحمل والنقل ، والوصيلةُ الناقةُ التي تلدُ الإناثَ ثلاث مراتٍ متتاليةٍ ليس بينهن ذكر فتُمنح للأصنام ، والحامُ الفحلُ من الأبل يُستعمل في التلقيحِ عدداً محدوداً ثم يُترك للآلهة المزعومة . وهذه بعكس الهديِ البالغِ الكعبة . الذي يُهدى ليأكل منه الفقراء وضيوف بيت الله المعتكفون فيه أو اللاجئون إليه .

وإذا عدنا إلى الآية (٩٧) ونصِّها الشريف ﴿ **جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (المائدة:٩٧) لوجدناها تصفُ علاقةَ العرب بالكعبة في كلّ الظروف ، مذ كانوا على الحنيفيَّة إلى أن تراجعوا إلى الجاهلية هملاً لا دولةَ لهم حول البيت ، حتى صاروا مسلمين لهم نبيٌّ قائدٌ ودستورٌ

من عند الله . وكانت الكعبة لهم بحكمة الله مصدرَ طعامهم حمايةً لهم من الجوع ، وأمانَ أنفسهم حمايةً لها من القتل ؛ فكانت هنا كما كانت في الأطروحة ، قلبَ الحياة في جزيرة العرب . جعل الله الكعبةَ للعرب قياماً ، أي تقوم بأمرهم كما تقوم الدولةُ بشعبها فتؤمن لهم الطعام هدياً لمن يحتاجه ، وتحفظُ نفوسهم بالقلائد من أن يَقتل بعضُهم بعضاً . فالقلائد في التقليد العربي الحنيفي للناس اللاجئين إلى الله والبيت هرباً من طالب ثأرٍ أو من ظالمٍ . وتكون لنوعٍ من الهدي يُقلد كي لا يُعتدى عليه قبل أن يصل لمستحقّيه . ولضمانِ نفاذِ أمر الله بجعل الكعبةِ قياماً للناس أتت الآيتان (٩٨-٩٩) مُوقظتين حسَّ مخافةِ الله عند أناسٍ يعرفون قُدرة الله ويتعارفون على اعتبارها في حياتهم وفي علاقاتهم ﴿ **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** ﴾ (المائدة:٩٨،٩٩). ولعل هذا أهم جزءٍ في سورة المائدة وهو جوهرها ورأس الحكمة فيها . فهي تضبطُ أهم جزء في علاقات أمةٍ كانت تعيش جاهليةً ، وكانت مائدةُ الطعام حاضرةً فيها بقوة .

لجان تنفيذ الوصية : الآية (١٠٦) تلفتُ انتباهنا إلى موضوعٍ آخر ، كثيراً ما يختلف الناس حوله في مجتمعٍ فقيرٍ وأرضٍ شحيحةٍ بالخير ، وهو تنفيذُ وصية الميت . وتنتهي هذه الفقرة بالآية (١٠٨) بعد أن تتخذَ احتياطاتٍ محكمةٍ دالةٍ على طبيعةِ المجتمع الذي تُخططُ له ، ولحمايتِه من نفسه . فالوصيةُ تتبعها لجنةٌ وراء لجنةٍ ، ولا يُركن إلى القَسَم المُشَدَّدِ وحده في ضمان الوصول إلى الحقّ ، بل ينضمُّ إليه الحياءُ من المجتمع والخوفُ من الفضيحة . وملاحظةٌ أخرى تستحقّ الإظهار هنا ، وهي أن عضوي اللجنة قد لا يكونان مسلمين ، ولكن لا بد أن يكونا معروفين بالاستقامة . ومن الطبيعي في بيئةٍ شديدةِ الفقر أن تَغلبَ المصلحةُ المادية على حكم الضمير ، فالناسُ مهتمون بلقمةِ عيشِهم قبل الحقّ . ولكن القرآن هنا مُصرٌّ على الوصول إلى الحقّ ، وبوسائل بشرية . ليزرع في عقول الناس وقلوبهم خُلُقَ العدل . لأنه الحقّ الحافظ للفطرة السليمة ، ولأنه أساسُ الاجتماع . ولا يكون اجتماع ولا لجنةٌ دون مائدةِ حوارٍ وتباحثٍ . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ**

بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة:١٠٦-١٠٨) . ولأنها تضع حلاً لخلافٍ جاءت هذه الآياتُ في المائدة ولم ترد في النساء التي تضمنت أحكامَ قسمةِ المواريث وموضوعَ الوصية . فسورةُ المائدة أولى من النساء بموضوعٍ يحتاج لجنةً وراء لجنة . وما كان هذا ليخطر على بال بشر .

بينما رأينا كيف برأت الآيات (١٠٥- ١٠٩) من سورة النساء اليهوديَّ المتهم ، وأمرت بمعاقبةِ المسلم الذي سرق ، معلنةً أن العدل هو الأساس . والموضوع هناك موضوع أقليةٍ قد تتعرض للظلم من الأغلبية . ولا يحتاج حواراً بل أمراً للقيادة . فلم يرد في المائدة .

مائدة المسيح : ثم نصلُ قصةَ مائدةِ المسيح التي وافقت إحدى مفرداتِها عنوانَ السُّورة . وهي في مظهرها مائدةُ طعامٍ ، وفي حقيقتها مائدةُ عهدٍ وميثاقٍ بين الله من جهةٍ وبين المسيحِ وحوارييه من جهةٍ أخرى . ويبدأ المشهدُ من يوم القيامةِ الذي لا يعلم حقيقةَ ما يدور به إلا اللهُ الواسعُ العليم . ويومَها يتوجه بالحديث إلى عيسى ابن مريم ذاكراً نعمَهُ عليه . وينتقل النصُّ إلى مشهدٍ دنيويٍّ من حياة المسيح وحوارييه . ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المائدة:١١٢-١١٥) .

وفي الحوارِ الذي يدور بين المسيحِ وبين ربّه يومَ القيامة تصويبٌ لتصورات النصارى بحقّ المسيح . فهو رسول الله وعبده وليس إلهاً ولا ابنَ إله . وتصويب العقيدةِ من مُكملاتِ التلاقي بين أتباعِ المسيح وأتباعِ الدين الجديد . ويعرضُه

القرآن ، وبه تُختمُ السُّورة عنايةً بدين مَـنْ يُسـمُّونَ أنفسَـهم نصـارى واهتمامـاً بهـم . وليس إساءةً لهم . فالقرآن الذي يشهد للإنجيل بأنه طريقُ خلاصٍ ومقبـولٍ عنـد الله ، ويأمر النصارى باتباعه ، يكملُ رعايتَه لهذه الفئةِ من الأمة بتصويبٍ عقيـدتها . فلـيس هناك إلهٌ إلا الله . وما يرد على لسان المسيح في ختام سورةِ المائدة يتفق تمامـاً مـع الإنجيل ، فليس في الإنجيل تأليهٌ للمسيح ، بل هو مرسلٌ من الله إلى بـني إسـرائيل . وهذا ما يتفق مع القرآن . وما يليقُ اعتقاده بأتباع الـنبيّ العظـيم عيسـى ابـن مـريم . وهو ما يُمكن أن يُسهِّل التعايشَ بين المسلمين والنصـارى ويوثـقُ الوصـفَ الجميـل الوارد في الآيات (٨٢-٨٥) .

وختاماً : وبعد أن أثبتنا ارتباطَ كلّ آيةٍ في السُّورة بعنوانها «المائدة» بزاويـةٍ مـن زواياها ، حتى زواجُ الكتابيات انطلقت به السُّورة من أحكامِ مائدة الطعام ؛ بعـد هـذا يحقّ لنا أن نسال هل يستطيع بشرٌ أن يضع للسورة عنواناً بهذا الإحكام وهذه الدقـة؟ وهل يستطيع أحدٌ غيرُ الله عز وجل اختيار كلمة المائدة عنواناً لها ، وموجهاً لآياتهـا الوجهةَ التي تسلكُ كلّ آياتها مسلكاً واحداً ، رغم تبـاين مواضـيعها ؟ لـو كـان هـذا ممكناً لانتبه علماء الأمة لسبب تسميتِها! وهذه في حد ذاتهـا معجـزةٌ! نعـم ، أن يمـر على السُّورة أكثرُ من أربعة عشر قرناً من الزَّمان ولا يستطيع أحدٌ حل لغز تسميتها، رغم كثرة العلماء الذين حاولوا ولم يتمكنوا ؛ حتى وصل الأمر ببعضـهم أن سماهـا سورة «المائة وعشرين آية»[(١)] .

وأخيراً تعلمنا السُّورة نظريةَ الدين في ظل الحوار بين عدة أديان . فتقول آيتها الثَّالثَّة» ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (المائدة:٣) . وتعمدت إثبات الآية كاملة هنا لوضع الأمور في نصابها مقابل ما تعرضت له من

---

(١){منيرة الدوسري : أسماء سور القرآن الكريم ؛ دار ابن الجوزي للنشر ١٤٢٦ هجـري ص : ١٨٤،١٨٣}

تشويهٍ وما بني حولها من خرافات . فالآية تبدأ بمحرمات الأنعام التي لم تذبَح ابتداءً وفق شروط الذكاة الشرعية . فاعتبرت كالميتة والدم ولحم الخنزير . ثم يأتي إعلان إكمال الدين وإتمام النعمة على الأمة . وبفاء تعقيب لا تخطؤها العين تواصل الآية أحكامَ الطعام . فإكمال الدين المقصود هنا شأن من شئون الطعام أو يتعلق به . ففاء التعقيب في قوله «فمن اضطر في مخمصة . .» لا تجيز غير هذا فالآية موضوع واحد . وقد صيغت بهذه الطريقة لنفهمها ، ونستنتج منها فهماً لنظرية الدين . ونظرية الدين التي تذكرنا بها الآية أن الدين ، أي دين سماوي كامل يأتي ليضبط ثلاثة أنواع من علاقات الإنسان : وهي علاقة الإنسان بالله أو ما اصطلح على تسميته بالعقيدة والعبادات . ثم علاقة الإنسان بالإنسان وهو المعاملات بين البشر ، وحدودها وما يلزم لتنفيذها من أحكام . ثم علاقة الإنسان بالبيئة . وأخطر ما في البيئة وأحرجه موضوع الحيوان واستعمال لحومه طعاماً . فإن التزم الشعب المخاطب بما يتنزل عليه من تعليمات ركن العقيدة والعبادات ثم ركن المعاملات بما يرضى الله عنه فإنه يستحقّ أحكام الطعام ، ما يجوز منها وما لا يجوز .

فالله سبحانه يبدأ الدينَ للشعب المخاطب من موضوعِ العقيدة ليعبد الله ربّه الواحد ، عبادةً ترضيه لا شِركَ فيها . ثم يتقدم معهم إن كانوا قابلين للنمو فيُنزل عليهم أحكامَ المعاملات . فإن استجابوا وتطوروا على ضوء ذلك أنعم عليهم بأحكام الطعام . فإذا استحقّت أمةٌ هذا المستوى من التشريع فقد اكتمل دينها كهيكل أساسي . لذلك تأتي الآيةُ بجوٍ احتفاليٍّ سعيد . ولا يمنع هذا أن يتنزل بعدها مزيدٌ من الأحكام الشرعية والتعليمات الإلهيةِ في نفس الموضوع ، أو سواه مما سبق تأصيلُه في حياتها . ويُجمع علماءُ القرآن أن هذه الآيةَ ليست آخر ما نزل . وبذا تُحلُّ مشكلةُ مكونات الآية المذكورة دون أن نفتتها لمواضيع لا رابطَ بينها ، أو ننسبُها لما لا يجوز ، بل بما يتعارض مع آياتٍ أخرى .

* * *

سورة الأنعام

سورةٌ جليلةٌ مهيبة . قرأتها مئات المرات في حياتي وحفظتها غيباً ذات صيف . ولكني عندما قرأتها لغرض هذا السِّفر هبتها كما لم أهَبْ عملاً فكريًّا من قبل . قرأتها كاملةً ثم مجزأةً إلى فقراتٍ عدة مرات . ولكني بقيت حائراً أتردد . وطال ترددي . فلجأت إلى كتب الأدب والنقد لعلي أجد قطعةً أدبيةً عربيَّة تشبهها شكلاً فلم أجد . وراجعت كتبا في النقد الأدبي عند الغربيين . لعلى أحظى بشيء قريب منها في أسلوبها الذي جمع بين الخطابة والشعر في الجملة الواحدة . فوجدت عندهم ما يسمى المقال الإقناعي ؛ ووجدته الأقرب لأسلوبها وفيها كثيرٌ من خصائصه .

أعود لما وصفتها به من أنها جمعت بين فنَي الشعر والخطابة . فالشعر فيها تحريك مشاعر أكثر منه موسيقى وعروض . والخطابةُ فيها صدقُ كلمة وقوةُ منطق أكثرُ منه تكرارُ عبارةٍ وجزالةُ لفظٍ ؛ مع أنها لم تُغفِل أيا من هذه الأدوات . فلا غرابةً أن احتفل بها الأقدمون وقالوا صادقين أو متوهمين أنها عندما نزلت (أو معظمها) من السماء إلى الأرض شيعها سبعون ألف ملكٍ يسبحون الله طالما كانوا يرافقون نزولها . فكأنها عروسٌ تهدى من السماء إلى الأرض فيزفها أهلُ السماء فرحاً بمستقرها الجديد وسعادةً بما سيصيب الأمة التي تستقبلها من ذكر عَطِرٍ ونور هدًى .

والسُّورة معظمُها مكّي . فهي رسائل إلى أهل مكّة يحملها رسول الله . فتردُ فيها كلمة «قل» ستًّا وأربعين مرةً وبعد كلّ مرةٍ توجيهٌ ما للنبيِّ أو رسالةٌ مباشرةٌ للرد على انحرافٍ في عقائد المشركين أو في تصوراتهم الأصلية للحياة . سماها الله تعالى الأنعام . وقد ذُكرَت الأنعامُ في السُّورة ست مرات . وذكرت من زاويتين هما الأنعام كنعمة من الله على سكان الجزيرة فهي لهم مأوى وطعام وشراب وكساء ووسيلة نقل . والزَّاوية الثَّانية التي عُرض منها الموضوع هي عبثُهم بهذه النعم وإفسادُ أحكام دينهم (الحنيفيَّة) في التعامل معها . وما افتروا من أحكامٍ مجافيةٍ للعدل والعقل السوي بشأنها ، كمورد رزقٍ ونعمةٍ من الله .

وفكرةٌ أخيرةٌ يلزم ذِكرُها في هذه المقدمة لعلها تكون عظةً للذين قد لا يحيطون بموقفٍ قرآني فيسرعون للاتهام أو الاستنتاج الخاطئ . فبعد أن كتبتُ الفصلَ الخاص بهذه السُّورة ونتيجة تأثري بآيات الحِجاج فيها لم أفهم سر وجودها في موقعها هذا . أقصد بين سور الجزء الأول الخاص ببناء الأمة وحفظها . وظننت أن مكانَها المناسب في بدايةِ سور الجزء الثَّاني أي قبل سورة يونس . ومع مزيد من التأمل تجلى لي وجهُها الحقيقي كصانعةٍ لفلسفة الأمة وضابطةٍ لكلّيات ثقافتها وقاعدةٍ فكريةٍ لها . فهي تعرض أساسياتِ التصور الإسلامي لله والملائكة والرسل والأنبياء واليوم الآخر والبعث والحساب والكون والحياة والرزق وسنة الله في هداية المؤمنين وإضلال من لا يستحقّ الهداية ، وقيم الحقّ والخير والجمال . وتعرضُ كلّ ذلك من زاوية خير الإنسان وبما ينفعه في إدارة شئونه وتوجيه حياته . إذاً ، لا مكان لها إلا هذا المكان الذي أمر الله أن توضع به . حمدت الله أن تحررت من ذلك الوهم الخاطئ وتبيَّنت لي الحكمةُ بمكان هذه السُّورة من كتابه . ولكنها لا تبدأ عرض مواضيعها من الكلّيات كما يفعل الفلاسفة الغربيون وتلاميذهم ، بل تبدأ من ممارسات المخاطبين اليومية والأفكارِ الدارجة على ألسنتهم ، تنطلقُ منها وتصلحُ الأخطاء وتُقَعِّدُ القواعد على ضوء ذلك . وهذا هو منهج القرآن . فالحقّ والجمال مثلاً ، يُعرضان في القرآن من زاوية خير الإنسان ونفعه . فليس في نهج كتاب الهداية والتَّوجيه جمالٌ للجمال وفنٌّ للفن . ومن نفس المنطلق تُعرض الأساسياتُ الكبيرة في سورة الأنعام . فالتصور الذي تعرضه السُّورة للألوهية والنُبُوَّة إنما يأتي من زاوية ما يلزم للإنسان كي تستقيمَ حياتُه ويسيرَ حسب الفطرة التي فطره الله عليها . وأثَّرَ هذا على طريقة دراستي لها . فبعد حيرةٍ شديدةٍ وظني أن الدراسة المناسبة لها أن تقدم كمواضيع على طريقة كتب الفلسفة . فأبدأ بما ورد عن الله عز وجل وأقدم تصورها للألوهية ثم الربوبية ثم أنتقل للنُبُوَّة وأواصلَ على هذا النهج . غيرت اتجاه الدراسة وقررت الخضوع لمنهجها الربّاني وتقديمها كما وردت انطلاقاً من أطروحتها التي تضبطها وتحكم ترتيب آياتها .

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها :

الأنعامُ جمع نَعَم وهي نفس المادة اللغوية التي تشتق منها كلمة النعمة . والنعمة ما يجود الله به على الإنسان من رزقٍ وطيب عيشٍ . وأولُ ما يخطر بالبال عند ذِكر

كلمة الأنعامِ الحيواناتُ الداجنة التي خلقها الله لراحةِ الإنسان وطعامِه وتيسير حياته وبهجةِ نفسه . فقد كانت الرزقَ الأساسيَّ لأهل مكّة يوم نزول السُّورة . ويتداخل بآيات الأنعام (١٣٦-١٤٢) آياتُ رزقٍ أخرى مما ذرأ الله من الحرث وما أنشأ لهم سبحانه من جناتٍ كما تقول الآية (١٤١) .

ومن زاويةٍ أخرى فالأنعامُ مشتقةٌ من مادة «نعم» وهي الحجّةُ الواضحة . جاء في لسان العرب لابن منظور «النعامة : الحجّة الواضحة». واستعملت كلمة نعمة في القرآن بمعنى الآية الدالة على قدرة الله . كما في الآية (٢١١) من سورة البقرة ﴿ **سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ (البقرة:٢١١) . فالنعمةُ هنا هي الآيةُ وما الآية سوى حجّةِ الله على من تنكشف لهم . وفي النحل (٨٣) وردت بنفس المعنى ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ (النحل:٨٣) . وتأتي الآية بعد ذكر عدد من آيات الله يُذَكَّر بها أهل مكّة . فهم يعرفونها . والمعرفة صفة لما يُدرك بالعقل . فهي آياتٌ أو حججٌ من الله على خلقه يحجّهم بها ليؤمنوا . وليُصوِّبوا بها تصوراتِهم للحياة ومكوناتها .

فالآياتُ هي الخط الثَّالثَّ والرئيسي للسورة . ثلاثةُ خطوطٍ توحدها كلمة الأنعام . وفي الحقيقةِ كلّها نعم حتى بالمعنى القريب . فالحجج أو الآيات هنا للإقناع وليس للحجاج والجدال . حججٌ صيغت بطريقةٍ وديةٍ ، وأُخذت من رموزٍ محببةٍ إلى قلوب المخاطبين . كحجج إبراهيمَ على طريق الهداية ، ثم حجّته على المَلك المنكر لله . وكلّ ما يُذَكِّر بإبراهيم يَسُرُّ أهلَ مكّة ، ويُبهجُ قلوبهم ، فهم يفخرون بانتسابهم إلى إبراهيم أبا لهم ونبيًّا ورسولاً .

وانطلاقاً من هذا الحال يكثر في السُّورة ذِكر نعم الله عليهم ، وسوءُ تصرفهم بها . ثم ينعمُ عليهم مرةً أخرى وهو يمهد لهم طريقَ الهداية مرةً ثانية ، ليعيدهم إليه سبحانه بنور القرآن ؛ الذي يتنزل على رجلٍ منهم . فهي سورة الأنعام والإنعام يُقدَّمان فيها من كلّ زاويةٍ يمكن أن تطيقها حياةُ مكّة أو تحتاجها .

فالعنوان يشمل كلّ موضوعات السُّورة ؛ وأهمُّها آياتُ الإقناع التي تُذكِّر بنعم الله وبرزقه لهم من الأنعام ، ومن النِّعم تصويبُ تصورات المخاطبين بشأن الأنعام التي جعلها الله أغلبَ رزقهم . كلّ ذلك لتصويب عقيدتهم بالله وبنعمه عليهم .

وإجمالا لكلّ ما سبق يمكن القول إن السُّورة تهدف إلى تكوين تصور سليم لدى المخاطبين عن الله والكون والرسل والملائكة والإنسان ووسائل الحياة والقيم الضابطة لحياة الناس وعلاقاتهم بالله . فهي قاعدة فكرية لثقافة الأمة التي يسعى القرآن لصنعها ابتداءً من قريش ، وهي نعمةٌ كبرى على الأمة . فهي سورة الكلّيات تعرضها انطلاقاً من تفاصيل حياتهم اليومية ومقولاتهم التي يرفعونها في وجه النبيّ ليبقوا على شركهم وممارساتهم الجاهلية .

مواضيع السُّورة على ضوء نظريتها :

استنتجنا أنها القاعدةُ الفكرية لثقافة الأمة . فهي معنية بصنع تصورٍ سليمٍ عن الله ورسله والكون ووسائل الحياة . وتعرض السُّورة كلّ هذا من زاويةٍ إنعام الله على الإنسان لتُظهر حقّ الله وحده في أن يُعبد وفق رؤيةٍ سليمة .

عن الله تقول السُّورة : هو الواحد لا إله سواه (الآيتان:١٩، ١٠٣) ، خالق الكون كلّه مكانا وزمانا (الآية:١) وخالق الإنسان ومُحَدِّدُ عمره في الحياة (الآية:٢) وبيده مصيره النهائي (الآية:١٢) ورزقه (الآية:١٤) بل هو خالق كلّ شيء والمسيطر على كلّ ما خلق (الآية:١٠٢)

كيفية اتصال الله بالبشر : يخاطب اللهُ الإنسانَ بواسطة الوحي ويختارُ رسلاً من البشر يستقبلون الوحي ويبلغون تعليماته للناس .(١٩ ،٥٠ ، ١٠٦) . والرسل مبلِّغون عن الله ، لا يعلمون الغيب ولا يختلفون عن بقية البشر في الأمور الجسدية والحيويَّة . كما تصف السُّورة وظيفة الرسل وواجباتهم وحدودهم (١٤-١٩، ٣٥، ٤٨، ٥٠-٥٢، ١١٢) . ولا يبعث الله للناس ملائكةً رسلاً كما طلبت قريشٌ إلا للعذاب (٨-٩) . وتذكر السُّورة بعض أعمال الملائكة ليُكوِّن الناس صورةً سليمةً عنهم (٩٣ ، ١٥٨) . وتَبرِزُ السور بقوة سنة الله في هداية من يستحقّ الإيمان وصرف الضالين الذين لا يستحقّون الهدى بسبب فسقهم (الآيات :٣٧ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٧٠ ، ١٠٧ -١٠٨ ، ١١١-١١٣ ، ١٢٢-١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٤٩)

نعم الله على الإنسان : وتتداخل في السُّورة آيات الكون المادي وخلقه (١، ٦، ٥٩، ٧٣، ٩٥-٩٩) وخصائصه التي تتيسر بها حياة الإنسان (٩٧، ٩٩،١٤١-١٤٤) مع آيات خلق الإنسان (٢) وتصويب عقيدته بالله وبالملائكة وبالرسل وبالبعث والحساب (٣، ٥١، ٩٠- ٩٤، ١٠٠-١٠٤) . ومن ومنطلق تصويب

التصورات تأتي آيات الحلال والحرام في المأكل والرزق (١٣٦-١٤٥) . وقد تشمل الآية الواحدة أكثر من معلومة مما يلزم لتصويب تصورات المخاطبين .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

رغم كلّ ما يبدو من أسلوبها الخطابي وأجوائها الشاعرية وتدفق أنوارها أمواجاً متلاحقة ، فإنها لم تخرج عن أسس فن النثر ، سابقةً الخبرة البشرية بأكثر من عشرة قرون باعتبار الشكل ؛ ومتحدية بجمالها ودرجة إتقانها وتقصيها لموضوعها نحارير بلغاء العالم إلى يوم القيامة ، أن يأتوا بسورةٍ متقنةٍ مثلِها . فبدأت بجملةٍ افتتاحيةٍ تشكل قاعدةَ السُّورة تماماً . وتُرسي جذراً قويا لفرعها السامق الذي انتهت به . ثم تَتطورُ الجملةُ الافتتاحية إلى فقرةِ الأطروحة كما رأينا في السور السابقة .

أطروحة السُّورة : تبدأ الأطروحة بآيةٍ افتتاحيةٍ تضعنا في جو السُّورة وهي تبرز حقّ الله في العبادة مقابل شرك أهل مكّة ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ (الأنعام:١) . ونردد معها الحمد لله على نعمه . وتبدأ بنعمةٍ عامةٍ هي قاعدةُ كلّ النعم . وقالت كلّ هذا بأسلوبٍ رشيقٍ لطيفٍ لا يكاد القارئ العادي يلاحظه . فالنعمة الأولى وأمُّ النعم جميعاً هي القاعدة المكانية ، وهي خلق السموات والأرض . فهما مكان كلّ المخلوقات . والمخاطبون بعض هذا الخلق من سكان الأرض . ثم تمنُّ على السامعين بنعمةٍ أخرى لا تقل عن المكان قيمةً وهي الزَّمانُ وعاءُ حياةِ المخاطبين . والزَّمان يُستنتج من تبادل الظلمات والنُّور . والظلماتُ والنُّور لا يتعاقبان إلا بحركة المكان وهي بالنسبة لنا حركة الأرض . فمن حركة المكان يتولد الزَّمان ، أو بها يعرف من خلال تعاقب نور النهار وظلمة الليل . وبالمقابل تأتي الجملةُ الأخيرة من الآية لتعيب على أهل مكّة موقفهم من هذه النعم . فهم أو بعضهم يَعدِلون بالله سواه . فبدل أن يعبدوا المنعم ويطيعوه . يتخذون آلهةً سواه يعبدونها بغير حقّ مع أنها لا تصنع لهم خيراً ولا تستطيع التأثير بحياتهم . فيستحقّون اللهجةَ الحادةَ التي ظهرت في أواخر الآية .

ثم تُفَصَّلُ الجملةُ الافتتاحيةِ بآيتين ، من زاويةِ حياة الإنسان ، : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** ﴾ (الأنعام:٢،٣)

والآيتان كما نرى توقيعٌ للآيةِ الأولى على الإنسان . فكما خلق السموات والأرض تخبرنا الآية الثَّانية بخلق الإنسانِ من طينٍ . وكما جعل النُّور والظلمة دليلاً على الزَّمن ، جاء تحديدُ عُمرِ كلّ إنسان بنفسِ الإرادة التي خُلِق بها . كما جعل الخالق سبحانه أجلاً نهائيًّا للبشر جميعاً هو يوم القيامة . ومع هذا فالمخاطبون يشُكُّون بهذه الحقائق بدل أن يشكروا الله على نعمة الحياة . وفي الآيةِ الثَّالثَة والأخيرةِ من الأطروحة صفةٌ من صفاته سبحانه ، لكن وجودنا بدونها لا معنى له . فتفعيلها في حياتنا نعمةٌ كبرى . فما نفع جهدنا وجهادنا وإيماننا لو لم ينظر الله تعالى إلينا ويعلم سرنا وجهرنا ، فيكافئ محسننا ويعاقب مسيئنا . كم هي عبثيةٌ ومقيتةٌ حياتنا لولا سمْعُ الله وبصرُه وعلمُه بما في صدور البشر واطلاعه على ما يكسبون ويكتسبون!

إعراض قريش : لأن إعراضَ المشركين هو المشكلةُ الرئيسية التي تواجه النبيّ ، تبدأ السُّورة بعرضها بالآيات (٤-١٠) . ثم تعلل الظاهرةَ بذِكرِ الأسباب النفسيةِ الكامنة وراءها . وهي هنا تصف مظاهرَ رفضِهم المبدأيِّ للدعوة الجديدة وأسبابَ ذلك الرفض . مما يجعلهم كما وصفتهم الآية الأولى «بربّهم يعدلون» ﴿**وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ**﴾ (الأنعام: ٤-١١) .

يُعرِضون عن آيات الله ابتداءً ، لعجز عقولهم أن تدرك أن الآيات من عند ربّهم ، المنعم عليهم والقادر عليهم في آن معاً . كما لا يتعظون من مصائر أجيال سابقةٍ في مواقع قريبةٍ منهم ؛ أهلكها الله بذنوبها . وإن لم يكن العجز في عقولهم أَن تدرك ،

فهو عجزٌ في إرادتهم أن تضبط أمورهم ، دون حدود الهلاك . بل يصل الأمر بضعفهم أن ينكروا حتى ما تحسه حواسُّهم حسب الآية (٧) .

وتظهر الآيةُ الثَّامنة سبباً آخر يختلط فيه النفسي بالذهني إذ قالوا ﴿ **لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ** . . ﴾ ولطلب المَلَك هنا وظيفتان نفسيتان : إزالة الشك ، فهم يعجزون بعقلهم العادي عن إدراك البعد القويّ للمعجزة ، وتمييز طبيعةِ الخطاب الإلهي في القرآن وفي دعوة النبيّ . والثَّانية دعمُ الإنسان بقوةٍ خارقةٍ غير إنسانية ، لأنهم لا يحترمون الإنسان كإنسان . ويحسبونه غير أهل لاستقبال خبر السماء ، فليكن النبيّ مَلكاً أو مصحوباً بمَلَك . وتنطلق الآيات من تصوراتهم الخاطئة لطبيعة النبيّ والرسول لتصوب تلك التصورات وتُحِلَّ محلها التصور السليم لرسل الله وأنبيائه ! وستعود السُّورة لموضوع هذه الفقرة مما يليق بالخطاب الإقناعي وهو كثيرٌ في سورة الأنعام .

الرّبوبية الحقّة : رداً عليهم وتفصيلاً للآية الأولى وانطلاقاً منها تأتي الآيات العشر التالية (١٢-٢١) ﴿ **قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ (الأنعام:١٢-٢١)

هذه الآيات العشر تفصيل للآية الإفتتاحية ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ**... ﴾ وتفصيل لأبعادها في حياة الإنسان . وتصنع تصوراً سليماً لربوبيةِ الله .

وهذا الطرح رغم إقناعه إلا أنه عبارةٌ عن موجةٍ من الحقائق ، تتبعها موجاتٌ أخرى حول نفس القضايا بصيغ أخرى . وهذا ما جعلنا نصف أسلوبها بالخطابي الإقناعي .

حقيقة شركهم : الآيات (٢٢-٣٦) موجهةٌ إلى النبيّ لِتُعزيه بسبب إعراض قومه وتكذيبهم . وتبدأ بمشهدٍ من مشاهد يوم القيامة تفصيلاً للأجل المسمى في الآية الثّانية ، ولما يعدلون بربّهم من آلهةٍ مزعومةٍ كما ورد في الآية الأولى ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ (الأنعام: ٢٢-٣٦)

وتقوم هذه الآياتُ بوظائف لا يقدر على جمعها في نصٍ واحدٍ إلا الله عز وجل . فهي تجعل من عزاء النبيّ أن شِرْك قومه قشرةٌ خارجية ، وفي أعماق نفوسِهم يؤمنون بالله . فتعرضهم الآية (٢٣) في مشهدِ يوم القيامة وهم ينكرون شركهم ﴿ **ثُمَّ**

لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ (الأنعام:٢٣) وتتكرر هذه الفكرةُ بأكثر من صيغةٍ بنفس هذه الباقة من الآيات . فيكون هذا عزاءً آخرَ للنبي ، يخففُ من غضبه على قومه . كما تصف بعضَهم بأنه لا يُكَذِّبُ النبيّ شخصيًّا ، ولكنه يجحدُ آيات الله (آية ٣٣) . والجحود لغةً الإنكارُ مع اليقين بحقيقة ما ينكر . وهو نفسُ طبعِهم المشهور بإنكارِ نعمةِ المنعم وهي قضية بارزةٌ في السُّورة .

ومن أجمل ما في السُّورة بشرى للنبي أن أَحياءَ القلوبِ منهم سيستجيبون له ، ومعهم سيبعث اللهُ الأمةَ حتى يتبعهم لاحقاً بقيةُ القوم . وقبل هذه البشرى تقول له الآية (٣٥) لا مفرَّ لك من الصَّبر عليهم ، وتَحَمُّلِ جهلتهم . وبذا تسجلُ هذه الفقرةُ من الآيات نعمةً أخرى على الأمة ، وهي تُصَبِّرُ نبيهم عليهم وتجمع أتقياءهم حوله لِصُنع مستقبلٍ جديدٍ حميدٍ لهم .

وتَرُدُّ الآيات (٣٧-٤٩) على طلبهم آيةً مع النبيّ . وينطلق الرد مما يعلمُ الله عما في نفوسهم وعقولهم ، فهو ردٌّ خاصٌّ بهم ويكفي حجّةً لهم : ﴿ **وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٧).

فبدل الآية التي قد تكون مقدمةَ هلاكٍ ودمارٍ لهم إن لم يصدقوها ، يُنعم الله عليهم بتذكيرهم بآياتِه الماثلةِ أمامَ عيونهم . ويُذكِّرهم بسلوكِهم العفويِّ الفطري عندما يتعرضون لمصيبةٍ فيلجأون إلى الله . ويُذكرهم بنعم الله في أجسادهم وقدرتِه تعالى على انتزاعها عسى أن يعترفوا بإيمانهم . ثم يُذكرهم بحدودِ وظيفةِ المرسلين . فهي مجردُ الدعوةِ إلى الله فمن صَدَّقهم وآمن بهم فقد نجا . ومن كذَّب فليتوقع العذاب في جهنم . وبالتالي فهذه الفقرةُ تلقي ضوءاً على وسائل الهداية وتفاعُلِ الناسِ معها . وهي قضيةٌ كلّيةٌ .

استجابة الأتقياء : بعد فقرةِ العزاء السابقة تأتي الآياتُ (٥٠-٥٥) تعريفاً بالنُّبُوَّة وردًّا على تصورات المشركين الخاطئةِ حولها وتوجيهاً للنبي بما يلزم للموقف تأتي الآيةُ (٥١) وتأمره الآية (٥٢) بالتمسك بالمؤمنين مهما كان مستواهم الاجتماعي . ولأنهم كانوا من فقراء المجتمع فقد اعتبرت الآية (٥٣) هذه الظاهرة فتنةً لعلية القوم من أعداء الدعوة ، وكأنها جزءٌ من خطةِ الله لصرفِ المتكبرين عن دينه . ﴿ **قُل**

لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

(الأنعام: ٥٠-٥٥) .

وبذا تَذكُر هذه الفقرة نعمتين : نعمةَ إيمان الطليعة ، وتوجيهَ النبيّ للاهتمام بها لتكون نواةَ الأمة المؤمنةِ وطليعتَها . والنعمةُ الثّانية تتجلي بخطة الله المُحكَمةِ بحرمان المجرمين والمنحرفين أن يكونوا ضمن طليعة الأمة . وبذا تتميز الفئةُ المؤمنة من الفئة المجرمة وتستبين سبيل المجرمين .

الربوبية الحقّة مقابل شركهم : تطلب الآيات (٥٦-٦٨) من النبيّ أن يُعلن تبرُؤه من عبادةِ المشركين وفيها كثيرٌ من الوعظ والتذكير بنعمِ الله وبسيطرتِه على الكون كلّه بما فيه أجسادُهم التي يقومون بها . فهي تصنع تصوراً عن ربوبية الله للبشر انطلاقاً من الرد على تصورات أهل مكّة للأمر ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ

عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ (الأنعام:٥٦-٦٧) .

وتكثر الآيات التي تبدأ بكلمة (قل) فالله تعالى لا يخاطب المشركين مباشرة بل من خلال النبيّ .

صيانة المؤمنين لإيمانهم : هذا ما يمكن أن نصف به الفقرة التالية من الآيات (٦٨-٧٣) . فالمؤمنون صاروا فئةً معدودةً ومعروفةً في مكّة . ولها اجتماعاتُها ولقاءاتها التي يعلمها قادةُ قريشٍ بل يرونها . ويتهكمون عليها بسبب فقر أفرادها أو تدني مستواهم الاجتماعي حسب عُرف المجتمع . فتأتي هذه الفقرةُ لتأمر النبيّ والمؤمنين أن يبتعدوا عن مجالس المشركين وهم يخوضون في آيات الله : ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الأنعام:٦٨-٧٣)

درجةٌ جديدةٌ من العلاقة مع أهل مكّة تتضمن مقاطعة مجلسهم إذا سخروا من آيات الله . وتبرئ الآية (٦٩) المتقين بينهم من الإثم ، إن سمعوا لغو الجاهلين على أن يتجنبوا مجلسهم . ومع ما فيها من تعليماتٍ تنفيذيةٍ فإنها تعرض سلوكَ المجتمعات تجاه دعوةِ التغيير كسُنّةٍ ثابتةٍ ، من خلال سلوك قريشٍ تجاه النبيّ وأصحابه .

حجّة إبراهيم : حجّةُ إبراهيم وطريقُه إلى الهدى تساق هنا نعمةً للنبيِّ ولقومه ، وأجمل ما فيها أنها تَذكُر فضل إبراهيم الذي تنتمي إليه قريشٌ نسباً ، فهو أبوها ونبيُّها الذي تعتنق دينه . وتتفاخر به . وهي موعظةٌ للنبي في محاججة قومه اقتداءً بجده إبراهيم وهو يحاجج قومه . هذا مضمون الآيات (٧٤- ٨٣) ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الأنعام: ٧٤-٨٣) .

والآيات كما نرى تضع أمام المخاطبين قصة هدايةٍ مقنعةٍ يراها كلّ إنسان . فهي آياتٌ لهم كافيةٌ لإقناعهم كما أقنعت أباهم الأول . وهي عظةٌ للنبي ليصبر عليهم كما صبر جدُّه إبراهيم على قومه ؛ وكي يَثبت في وجه الباطل كما ثبت إبراهيم . فهي آيات نعمةٍ بمعنى حجّةٍ للنبي ولقومه على حدٍّ سواء! وفيها أيضاً أدلةٌ عقليةٌ على وجود الله وربوبيته للكون كلّه . فهذه السُّورة هي المكان الأنسب لهذه القضية العقلية .

مكافأة إبراهيم: على ما اهتدى بجهده وعقله، وعلى صبره وثباته في وجه قومه، كانت مكافأتُه عظيمةً في الدنيا، فكان كلّ الأنبياء بعده من ذريته. وهي في الآخرة أعظم. وفي هذا عظةٌ ونعمةٌ للذين يستقبلون الرسالة ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الأنعام: ٨٤-٨٦)

عقوبة المكذبين: تَرُدُّ الفقرة التالية على بعض ترهات العرب في مواجهة نبيِّهم: ﴿ **وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ (الأنعام: ٩٢-٩٤).

من نِعَم الربوبية: الآيات (٩٥-١٠٤) فقرةٌ جديدةٌ موجهةٌ في معظمها للنبيّ ومن آمن معه من قريش. وفيها ذِكرٌ للمعرضين من أهل مكّة. لذلك يأتي ذكر النِّعم أكثرَ وُدًّا من ذكرها ردًّا على الجاحدين. فهي نعمةٌ تقدم بنعمة. فمنها مثلاً (٩٧-٩٩) ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأنعام: ٩٧-٩٩). فهي نِعَمٌ بمعنى العطاء الإلهي وهي نعمٌ بمعنى آياتِ الله الهاديةِ للمخاطبين. ثم تتواصل الآياتُ بذكر صفات لله تعالى ليزداد إيمانُ المؤمنين زيادةً تكافئ زيادة معرفتهم بالله!

الذين يستحقّون الضلال : هذا هو موضوع الآيات (١٠٥- ١١٧) . وإن مجردَ ذِكرِ الحقائق بالطريقة التي ذُكرت بها نعمةٌ كبرى لأنها تحفز المستمع إلى الهداية . فهي لا تدعوه مباشرة بل تشعره بحرية اختيارِه من جهة وبأنه هو المحتاجُ إلى الهداية . وليس الله بحاجةٍ إليه أو إلى عودتِه إلى الحقّ .

تشكل الآيات موجةً جديدةً لها أصلٌ في الأطروحة وخصوصاً قوله تعالى ﴿ **وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ** ﴾ (الأنعام:٩) . ولا يكون هذا اللبسُ والصرفُ عن معرفة الهدى إلا نتيجة ما قدم الإنسان من إعراضٍ أو تكبرٍ على الحقّ ، أو ذنوبٍ كبيرةٍ أخرى ملأت قلبَه ظلاماً وحرمته من القبول في طريق الهدى . ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ** ﴾ (الأنعام:١٠٥-١١٧)

فالآية (١٠٥) تظهر إحدى فتنهم وهي ظنهم أن النبيّ أتي بالقرآن من بشر علمه إياه وليس من عند الله عجزاً عن إدراك المعجزة والهداية الإلهية به .

وكما رأينا تدعو هذه الفقرة النبيّ والمؤمنين معه للصبر وتَحَمُّلِ أذى قومِهم ، وعدم اليأس منهم أو الدعاء عليهم ؛ لأن ذلك لو حدث لانتهت المحاولة بالفشل ، ولحُرم العرب من الرسالة . ولتصل الفقرةُ إلى هدفها تلفت انتباه النبيّ والمؤمنين أن الله هو الذي زينَ للمشركين عملهم ، وليعلم المؤمنون أن إيمانهم نعمةٌ عليهم من الله بما قدموا . ويصلُ الأمرُ قمته عندما يأمر المؤمنين أن لا يسبوا آلهةَ قومهم ، كي لا تزداد العداوة ولا تتحطم نفوس الجاهليين فيزدادون كفراً وشرًّا .

وتبرر الآيتان (١١٢-١١٣) جعلَ أعداءٍ للنبيِّ ، ليتبعهم مَن يُفضلُ زخرفَ القول والكذب ومن يقترف المعاصي . وذلك حمايةً للدعوة من الضعف ، وتثبيتاً للنبيِّ بالصَّبر والعزم ومقارعةِ الصعاب . ونستنتج من هذه الآيات أن صنعَ الطليعة القويّةِ الصادقة الإيمان ، يبدو بهذه الفقرات أهمَ من مجردِ حشد الناس وراءَ الرسول .

التذكية باسم الله : الأنعامُ نعمةُ الله على البشر ، وهي بعضُ خلقه الأحياء . فهو سبحانه صاحبُ الحقّ بوضع شروط ذبحها .

لذلك تعرض الآياتُ (١١٨-١٢١) أحكامَ تذكيةِ الأنعام لتصير لحومُها مباحةً كطعامٍ للمؤمنين . ويلاحَظ أن الآيةَ (١١٨) تبدأ بفاء . فكأنها تشير لأمرٍ سبقها يدور حول موضوع الطعام من الذبائح . وسبقها تماماً قوله تعالى ﴿ **وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ** ﴾ (الأنعام:١١٦،١١٧). وهما آيتان تبدوان في الظاهر متعلقتان بالعقيدة . ولكن ورودَ آيةِ أكل لحومِ الأنعام المُذكاةِ باسم الله دليلٌ على أن المقصودَ بهما مما يتعلق بالطعام من لحوم الأنعام . وهذا دليل على أن العنوان يحكمُ كلّ آيةٍ في السُّورة . وأكثر ما تلزم هذه القاعدة عندما يبدو معنى الآيةِ عامًّا وعقديًّا كالآيتين (١١٦-١١٧) . فهما تشيران إلى كلام من ظنون المشركين الخاطئةِ حول أحكام الذبائح . وبدون هذا الضابط يمكن أن يكون للآيتين كثيرٌ من المعاني المحتملة ؛ ويستطيع المُغرضُ أن يوظفهما لما يخدمُ هواه ؛ وهو حالٌ غير لائقٍ بكتاب الله الذي تنزل رسالةً لإحياء أمةٍ وليس لضياعها كما يريده المغرضون .

ثم تشير الآية التالية لها (١١٩) إلى أن أحكام الذبائح قد فُصِّلَت من قبل ومعها الاستثناءات المحرمة . تقول الآيات ﴿ **فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ**

مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(الأنعام:١١٨-١٢١) .

الذي يستحقّ الهداية : هذا هو موضوعُ الآيات (١٢٢-١٢٧) . وتبدأ الآياتُ بنعمة تحويل خيرةِ أهل مكّة من الضلال إلى الهدى . وعبر عن الضلال بالموت لأنه من أسبابِ خمولِ الذِّكر وضياعِ الطاقات وسوءِ العمل وسوءِ العاقبة ؛ بينما الإيمان حياةٌ لأنه سير وفقَ الفطرة ، وفيه ذكرٌ حسنٌ وتوفيقٌ في العمل وينتهي بحُسنِ العاقبة . كما تنتهي الآياتُ بنتائج هذه النعمة على من أصابت من أهل مكّة . ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٢-١٢٧)

وتأتي الآيات بهذه الصيغة لنعلم أن من يستحقّ الإيمان هو من لا يتبع مجرمي قومه ولا تُغويه منزلتُهم الدنيوية . بل يتبع دعوة العقل والفطرة السليمة . لعل بعض الكفرة يفكرون ويتأملون فيدركون الفرق الذي يمكن أن يصنعه الإيمان في حياتهم!

أسباب الارتكاس والفناء : تَعرِضُ الآياتُ (١٢٨-١٣٥) مشهداً مما يكون يوم القيامة من خطابٍ مُهينٍ للكافرين جنًّا وإنساً يتبعه تعقيبٌ وتذكيرٌ لأهل مكّة . ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ

خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(الأنعام:١٢٨-١٣٥)

مشهدٌ من مشاهد القيامة حيث لا مجال لكذبٍ أو توريةٍ بل كلام مستقيم. فالاستمتاع بغير حقّ والتعامل مع قوى الظلام من أسباب ارتكاسهم في جهنم.

ظن مفسرون أن الآية (١٣٣) عامةٌ للمشركين وأنها تصلح لخطاب كلّ قوم. واحتار الطبري ففسر كلمة ذريةٍ على أنها بمعنى الخلق ومشتقةٌ من الذرء وليس نسلِ الرجل التي هي من مادةِ ذرٍّ. كلّ ذلك لأنهم لم يتذكروا أن قريشاً من ذرية قومٍ آخرين. وليس من ذريةِ قومِهم العرب. وهذا من دقةِ القرآن وإحاطةِ مُنزِّله سبحانه. فقبل إسماعيل وإبراهيم كانت قبيلةُ جرهم العربيَّة تسكنُ مكّة ثم أصهر إليهم إسماعيلُ فجاء نسلُه ومنه قريش. وإسماعيلُ ليس عربيًّا أصلاً. واختفت جُرهم العربيَّة ولم يبق لها ذريةٌ تُعرفُ إلى جانبِ قريش. فهذا الذي يُهددهم اللهُ بمثله. أن يخفيهم كما اختفت جُرهم، ويجعل خلفاءهم في مكّة ذريةً لقوم آخرين دون أن تشعر الأرض بفنائهم وغيابهم ولا يعبأُ قومهم بهذا التغيير!

وكلّ هذا تذكيرٌ لقريشٍ بنعم الله التي تعتز بها. فهم دائماً يفاخرون بأنهم ذريةُ إبراهيمَ وعلى دينه! وفي نفس الوقت تهديدٌ لهم بالإفناء البطيء أو السريع إن لم يعودوا إلى الله.

إساءة استعمال النعم: وبهذه الفقرة (١٣٦-١٥٠) نصل الآياتِ التي اشتقَّ منها عنوانُ السُّورة. وهي تبدأُ بعرض نماذج من تحريفهم لدين الله وممارستِهم لأسوأِ ما يمكن أن تُستخدمَ به نعمُ الله عليهم. يقول تعالى ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ**

ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام:١٣٦-١٤٠)

وبعد تذكيرهِم بنعم الله عليهم واستخدامِها لغير ما قصد المنعمُ سبحانه بل توجيهِها بالضلال لآلهةٍ أخرى لم تخلقها ، حتى وصل الأمر بهم قتلَ أبنائهم وتقديمَهم قرابين لآلهةٍ اخترعوها ، وجعلوها شريكةً لله في إدارة أمورهم . وما كانوا ليقعوا بهذا الشر والخسران لولا فسادُ عقيدتهم وتصورهم الخاطئ للألوهية . وتأتي هذه الآياتُ تفصيلاً لشركهم المذكور في الآية الأولى . بعد هذا تُذكر نِعمٌ أخرى لم يعبثوا بها إلا قليلاً ، وهي ما نسميه اليوم الثَّروة النباتية . وأتبعها بذكر نعمة الثَّروة الحيوانية مع توجيههم للاستفادة منها بعيداً عن تلاعب الشياطين بهم وبعقيدتهم وبنعم الله عليهم : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:١٤١،١٤٢)

الآيات (١٤٢-١٤٤) من نفس الفقرة تُذكِّرهم بنعم الله عليهم من الأنعام بأزواجها الثَّمانية وتُذكِّرهُم بأسلوبٍ استنكاريٍّ بما أفسدوا من أمر دينهم وهم يجعلون منها حراماً وحلالاً على غير ما أذن الله لهم به ؛ استمراراً لما ورد في بداية الفقرة (١٣٨-١٣٩)

الآية (١٤٥) تَذكُرُ محرمات الطعام ﴿ **قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الأنعام:١٤٥) وصيغتها بحصر المحرمات توحي بجوِّ الودِّ والنعمة التي يوسع الله بها على المسلمين مقارنةً بما حكم به لليهود من قبلهم وهو موضوع الآية التالية تماماً (١٤٦) ﴿ **وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ** ﴾ (الأنعام:١٤٦) .

وكأتباع أيِّ دينٍ سماويٍّ يَظنُّ بنو إسرائيل أن ما نزل عليهم هو الحقّ الوحيدُ الذي يمكن أن ينزله الله على البشر . وهو عين ما وقع به علماؤنا ومازالوا يقعون به . ولو علموا أن اللهَ يختارُ لكلّ قومٍ ما يناسب طبيعتَهم لما اعترضوا . وقد سجلتِ الآياتُ التاليةُ اعتراضَهم واعتراضَ المشركين وردَّ الله على الفئتين معاً من خلال النبيّ: ﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ (الأنعام:١٤٧-١٥٠) .

وبذا تصنع هذه المجموعةُ من الآياتِ تصوراً عامًّا للطعام بشقيه النباتي والحيواني ومنهجِ الله في تحريمِ ما يُحرمُ منه . وتُصوِّبُ تصوراتنا حول سنة الله في تحريم الطعام وما به من بعد قومي ووراثي .

أعمدة الحكمة : في كلّ آياتِها تنطلق سورةُ الأنعام من أن أهلَ مكّة على الحنيفيَّة ، لكنهم حرفوا فيها ، وأنهم يؤمنون بالله ويعرفون كثيراً من صفاته ، ويلجأون إليه في المواقف الصعبةِ لكنهم يشركون به سواه . ولذلك تأتي هذه الفقرةُ من الآيات (١٥١-١٥٣) لتخاطبهم من خلال النبيّ داعيةً القوم إلى إدارةِ حياتِهم بالحكمة . والحكمةُ هي الحدُّ الأدنى الذي يمكن أن تقوم به حياةُ المجتمع . وهي

دون الشريعة السماوية . وإنما دعاهم لهذا رحمة بهم عسى أن يتأهلوا للإيمان والتَّوبة ، ثم العودةِ إلى الإسلام وريثِ الحنيفيَّة دينهم الذي جاءهم بواسطة جدهم إبراهيم ﴿ **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣) .

هذه تسعُ وصايا وصاهم بها نعمةً جديدةً لعلهم ينتقلون بها من الشرك والجاهليةِ إلى التَّوحيدِ الخالص والتقوى . وكلّها مما يتفق مع الفطرةِ السليمة ، فلا يرفضُها عقلٌ سويٌّ .

وللمحسنين مزيد : ما سلف كان الحد الأدنى . وسميناه الحكمة لأن الله سبحانه سماه كذلك في سورة الإسراء (٣٩) وهو ما تقوم به المجتمعات التي لم تخاطب بدين . ونصح به أهل مكّة تأهيلاً لهم ، وكخطوةٍ على طريق استحقاق الفضل . ثم تأتي الفقرةُ التالية (١٥٤-١٦٠) لتكون دليلاً على ما يرضاه الله لهم كأمة مخاطبة من الله بدين كاملِ الأحكام ونعمةٍ تامة . يقول تعالى ﴿ **ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ**

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام:١٥٤-١٦٠) .

دقةٌ لا يقدر عليها إلا الله . ولولا رحمته لما انتبهنا إلى بدء هذه الآيات بحرف العطف« ثم » ليقول لنا الكثير . فهو أولا : احتياط لئلا يظن الناس أن هذه الوصايا هي كلّ المطلوب منهم . فقد أعطي موسى وصايا تشبهها في أول عهده ثم آتاه الله التَّوراة ؛ التي خُتمت بتفصيلاتٍ دقيقةٍ وجليلةٍ مكافأةً له ولمن أحسن من قومه كما تقول الآية (١٥٤) . فتفيد « ثم » أن هذه مرحلة فإن أُتقنت هذه الوصايا أنعمَ عليكم بمرحلةٍ أعلى وهي الكتاب المفصل كالذي أنعم به على بني إسرائيل .

ثانيا : يفيد حرف العطف « ثم » أن ما بعدها معطوف على ما قبلها أي أن الله سبحانه ما زال يخاطب الجاهليين من خلال النبيّ . وأن كلمة « قل » مقدرة في بداية آيات هذه الفقرة ما لم ترد قرينة بغير ذلك . وهذا ما استنتجه الطبري في تفسيره للحرف « ثم » . وتشير الآية الثَّانية من الفقرة إلى أن القرآن كلّه للمسلمين كتاباً مباركاً لعلهم يستحقّون باتباعه الرحمة . وتحتاط الآيتان (١٥٦-١٥٧) لما يمكن أن يقوله أهل مكّة بحجّة عدم نزولِ كتابٍ عليهم لمدةٍ طويلةٍ بعد كتاب إبراهيم . كما تُحذِّرُ الآيةُ مما يحدث للأمم عادةً من تفرقٍ بعد أن يأتيها كتابٌ من الله (١٥٩) بسبب اختلاف اجتهادات البشر وتدخل أهوائهم (سورة البينة) . وتَعِدُ الآية المحسنين بمثل أضعاف ما يقدمون .

الخاتمة : كعادة القرآن تصاغ خواتم سوره بآياتٍ تكاد تكون شعراً لجمال صياغتها المميزة . وهي في نفس الوقت تأتي جواباً لأطروحة السُّورة ، وملخصاً لفكرتها الأساسيَّة ، بأسلوبٍ رشيقٍ لطيفٍ بعيداً عن الأسلوب الوعظي الثَّقيل أو التكرار الممل . ولننظر في آياتِ الخاتمة (١٦١-١٦٥) . يقول تعالى موجهاً الحديث لنبيه ليبلغه لأهل مكّة ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ

ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ (الأنعام: ١٦١-١٦٥)

هذه هي العقيدة التي يريدها الله لأهل مكّة . وقد جاءت الآياتُ بأسلوبها الرشيق لتؤدي عدة وظائف . فهي موجهةٌ للنبي إكراماً له . وليسمعها أهل مكّة فيشعروا بالذنب وهم لا يطيعون نبيَّهم . فهو على ملةِ أبيهم إبراهيم حنيفاً مخلصاً لدين جده ، لم يحرف فيه ، ولم يشرك بربّه كما يفعلون . بينما هم يعدلون بربّهم ، ويبتغون سواه كما وصفتهم الآية الأولى . ثم يقول لهم بأمر الله أن كلّ واحدٍ منكم مسئول عما يفعل ، ولا أحدَ يحمل عن الوازر وزرَه عندما تعودون إلى ربّكم يوم القيامة . ويذكرهم مرةً أخرى بنعمة الله عليهم إذ أسكنهم مكّة وجعلهم أصحابَها وأسيادَها دون منازع . وتُختتَمُ الآيةُ الأخيرة بتعقيبٍ يناسب نوعي المخاطبين من مؤمنين ومعرضين فهو للمعرضين سريعُ العقاب وللمؤمنين غفورٌ رحيم . وإن مجردَ وجودِ النبيّ وثباته ، ووجودِ إشارة إلى مؤمنين وأتباع له هو انتصار يحرك الغيرة في نفوس الجاهليين ويحثُّهم على الإيمان .

وعندما تجمع تفصيلات الموضوع الواحد معاً يتبين أن السُّورة تضع للأمةِ تصوراتٍ كلّيةٍ . هي في مجملها قاعدةٌ فكريةٌ لمؤسسةٍ ثقافيةٍ شاملةٍ قادرةٍ على النمو لمواجهة احتياجات الأمةِ مع تقدم الزَّمن . وهي كذلك قادرةٌ على ضبط أمورها الفكرية وحمايتها من الأوهام والأفكارِ التي تقود للتفكك والاختلاف والخروج عن حدود الفطرة . ويمكن سردُ بنود التصور الكلّي الذي تنزلت به السُّورة بالآتي : الألوهية والربّوبية ودورهما في حياة الإنسان ، دور الرسول ووظيفته وحدود عمله ، الوحي ودوره الذي يهُم الإنسان ، الجن والملائكة ، سنة الله بصنع الطليعة التي سيحيي بها الأمة المخاطبة ، سنته تعالى في الهداية والإضلال ، وإحياءُ الأمم وإفناؤها ، صنع الكون وصورته من زاوية حاجات الإنسان وتيسير طعامه ، وسنة الله في تحريم ما يحرم من الطعام .

وهذه التصورات هي أبرز ما يبحثه الفلاسفة لوضع أسس فكرية توجه حياةَ أممهم . ولكن الفلاسفة لا ينطلقون من مثل تفصيلات سورةِ الأنعام ليصلوا إلى فلسفةٍ كلّية . بل يبدأون عادة من الكلّيات وقد يتوقفون عندها .

* * *

سورة الأعراف

حوائط الحماية

لفتت سورةُ الأعراف انتباهي منذ نيفٍ وثلاثين عاماً . أي منذ بدأتُ أدرك أن لكلّ سورةٍ موضوعاً واحداً ونظريةً تفسرها . فقرأتها قراءة تأملٍ عميقٍ ودراسةٍ جادةٍ عشرات المرات . ولم أتمكن من كشف سرها إلا بعد ثلاث سنواتٍ من الدراسة . ومما كان يزيدها غموضاً يومذاك ما أحيطت به من أقوالٍ منسوبةٍ لصحابةٍ باعدت بيني وبين موضوعها إلى حين . من ذلك زعمَ بعضهم أَنها سورةٌ مكيةٌ إلا بضع آياتٍ منها . مع أن موضوعَها يليق بخطاب مجتمعٍ متمكنٍ في الأرض معظمه مؤمنٌ. وبدأ الخوفُ عليه من انحرافات السعةِ والقوّة كالزِّنا والكسل عن الصَّلاة ، والتقصيرِ بطاعة الله . بعد أن ارتاح واسترخى .

وتنفرد السُّورة بموضوعٍ هامٍّ ينفع لكلّ أمةٍ استقرت وأمِنت وبدأت مرحلةَ التمتعِ بإنجازاتها . حيث تختلط الأمورُ ويتداخل الباطلُ والحقّ ، وحيث تولدُ أفكارُ الترف ويتبعها حبُّ الشهوات . ويجد إبليسُ محطاتٍ له في قلوب الناس بقَدْرِ أهوائهم وبقدر ازديادِ نسبة أتباعه في الأمة .

هنا تأتي سورةُ الأعراف لتُذكِّر الناس بمواطن الانحراف المحتملة . وترفعُ في وجوهِهم أعرافاً من المواعظ والتَّوجيهات ، لا لتمنَعهم وتكسرَ سنة الله بحريتِهم في الاختيار؛لكن لتنهاهُم بالموعظة الحسنةِ وتنبِّهَ عقولَهم لمخاطر الانحرافِ والتساهل، وتنبه قلوبَهم الغافلةَ لتعود إلى طاعة الله .

تبدأ السُّورة بالذنب الأكبر بعد الشرك بالله وهو الزِّنا ، وتعرضُه منذ الخطيئةِ الأولى لآدمَ وحواء ، وكجزءٍ من المعركة بين إبليس والإنسان . ثم تقفز إلى زمنِ المخاطبين لتنهاهم صراحةً عن الفعلةِ المحرمةِ معبرةً عنها بكشف السوأة (الآية:٢٧).

وتنتهي السُّورة إلى أكبر الذنوب ، وهو الشركُ ، وتحذر الأجيالَ من الوقوع به وبأسبابه ؛ والزِّنا أكبرُ أسباب الشرك حسب السُّورة . ومن أسباب حرمان الناس من الإيمان ، الهوى والتكبر على الحقّ طمعاً بالدنيا ومتاعها .

وهكذا جاءت سورةُ الأعراف ابتداءً من اسمها . فاسمها الأعراف جمع عُرف . وهو الحد المرتفع كعرف الفرس . وهي في السُّورة بمعنى حواجز قليلة الارتفاع يقصد منها التذكيرُ دون الانطلاق إلى باحاتِ المعاصي والسقوط ؛ الذي يؤدي إلى تدهور المجتمع وترهُلِه . وإن أَخذت اسمها من أعراف محاشرِ الأمم يوم الحساب . حيث يتراءى مؤمنوا كلّ أمةٍ وكافروها . وبهذا الحجم نأخذ النصائح والتَّوجيهات الواردة في السُّورة فهي أعرافٌ تعيق حركة الإنسان إلى المعصية .

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها :

اسمها الأعراف . ولا خلافَ بين اللغويين على أن الأعرافَ جمع عُرف فهي من مثلِ عرفِ الديك الذي يعلو رأسه ، وعرفِ الفرس وهو الشعرُ المصطفُّ بغزارةٍ فوق عنقها . جاء في مقاييس اللغة للرازي «العين والراء والفاء أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على تتابع الشيء مُتَّصلاً بعضه ببعض ، والآخر يدل على السكون والطمأنينة» . وعن الأصل الأول يقول «عرف الفرس وسُمِّي بذلك لتتابع الشعر عليه . . .ومن الباب العُرْفَة وجمعها عُرَف وهي أرض منقادة مرتفعة بين سهلتين تنبت كأنها عرف الفرس». فالأعراف هي مرتفعاتٌ تفصل مناطق سهليةً بعضَها عن بعض .

ومشهدُ الأعراف الذي تذكره السُّورة من مشاهد يوم الحشر وفي ساحاته . ولعل لكلّ أمة محشراً ، بحيث تتراءى فئتا الأمة الواحدة المؤمنةُ والكافرةُ ؛ وبين فئتي الأمة عرفٌ يقف عليه رجالٌ هم أصحاب الأعراف المذكورون في السُّورة .

من مواقف هؤلاء الرجال اتخذت السُّورة اسمها . ولكنها لم تخرج عن منهجِ القرآن في التسمية . فكلمة «أعرافٍ» في السُّورة تشير إلى مرتفع بين سهلين . ثم يُستعملُ الاسمُ وفقاً لنفس المادة اللغوية التي اشتق منها ليقوم بوظيفةٍ مختلفةٍ . فما جاء في سورة الأعراف من قصصٍ وأخبارٍ ومواعظ وتعقيباتٍ بين القصص والأخبار ، إنما حُشد جميعُه ليكون أعرافاً تحفظ المجتمعَ المؤمن داخل دائرة الإيمان وتنهاه عن السقوطِ أو الانسيابِ خارج الدائرة ، التي يرضاها الله لعباده المؤمنين . وهي مجرد أعراف للتذكير والتفكير ؛ لكنها لا تمنع المُصِرَّ على ممارسة ذنبه . كي لا تؤثر على حدود الحرية التي منحها الله للبشر . وقد استعرضت السُّورة أبرزَ أنواعِ السقوط التي تقعُ بها المجتمعات ، عندما تشعرُ بالراحة والأمان . وأولها الزِّنا وهو

السقوط الذي تُحَذِّر منه قصةُ آدمَ وإبليسَ وتَعرض أسبابَه . وسنمر على تلك الأنواع جميعاً ونحن ندرسُ السُّورة بالتفصيل . وبذا نجد أن اعتبارَ عنوان السُّورة في تفسيرها ، يحل كلّ المشكلات التي صنعتها الأحاديثُ الموضوعة ، والآثارُ المنسوبةُ لصحابةٍ أجلاء . والتي أربكت المفسرين . وبمعرفتنا لموضوع السُّورة باعتبارِ عنوانها ، ودراستِها على ضوئه ، ينتجُ عملٌ منسجمٌ لا تناقضَ فيه . بعكس ما كان عليه الحالُ عند تفسيرها آياتٍ منفصلاتٍ وعلى أنها سورةٌ مكية .

موضوع السُّورة كما أسلفنا لا يناسب مخاطبةَ أمةٍ جاهليةٍ كافرةٍ ، فهو في مجمله تحذيرٌ من السقوط . ولا يكون التحذيرُ والتذكير إلا لأمةٍ مؤمنةٍ ، يُخشى عليها من التراجعُ عن مستواها الإيماني . كذلك تأتي سورةُ الأعراف لتخاطب جماعةً مؤمنةً تنفعها النصيحة ، ويَخشى عليها من السقوط والانحراف .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

السُّورة في معظمها مدنية ، موجهةٌ لمؤمنين بشكل رئيسي تعيش معهم فئةٌ لم تؤمن بعد ؛ ويشاركهم المكانَ جماعةٌ إسرائيليةٌ كما نفهم من صياغة الآية (١٦٣) . وليست موجهةً لمجتمعٍ جاهليٍّ فيه أقليةٌ مؤمنةٌ كسورة الأنعام مثلاً .

الأطروحة : وهي الآيات (١-١٠) : **﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾**

(الأعراف:١-١٠)

وأول سؤال نوجهه لأنفسنا وقبل أن يُوجَّه إلينا : كيف قررنا أن هذه الآياتِ العشر هي الأطروحةُ ولم نضف لها مما يليها أو ننقُصْ منها؟ وجوابنا أن معاني هذه الآيات جميعاً هي مما تُفَصِّله السُّورة وتدور حوله . بينما كلّ ما جاء بعدها كان تبعاً لها . وهذه بعض شروط الأطروحة . وكان الشك الوحيد يدور حول الآية

العاشرة هل هي من الأطروحة أم مما يليها؟ وروجعت السُّورة لغرض تحديد مكان الآية العاشرة أهي من الأطروحة أم من الفقرة الثَّانية . فلم نجد لها دوراً مع الفقرة الثَّانية بينما تدور حولها الآيات (٥٤-٥٨) التي تشكل الفقرة الثَّالثَة من السُّورة . وهي التي تصف إعداد المكان لذرية آدم وصُنعِه ليناسب حياتهم بعد خلقهم . وذلك من زاوية ربوبية الله ، وما يتوجب من مقابلة الربوبية لله بصدق العبودية له ، وإلا كان العذاب الذي تُحَذِّرُ منه السُّورة . لهذا كانت الآية العاشرة على صغرها معلماً بارزاً في رسالة السُّورة ، وفي حياة المخاطبين خصوصاً والبشر عموماً .

وقد يُظن أن الآيات (٤-٧) ليست من الأطروحة . لأنها تنزلت بأسلوب قصصي أو إخباري ليأتي تفصيلها قصصاً بالآيات (٥٩-١٣٦) . ولكنها رشاقةُ القرآن القادرةُ على تطويع ما لا يقدر عليه بشرٌ .

ونغض الطرف عن الآية الأولى (المص) لأن كلّ ما يمكن أن يقال بشأنها الآن إنما هو ظن لا يقين . وعسى الله أن يفتح بها وبمثلها على الأمة يوماً ؛ لتكون معجزةً أخرى يُوطَّدُ بها إيمان الأمة عندما يلزم ذلك . فلا يمكن أن تكون قد نزلت وأمثالَها عبثاً . فتكون الآيةُ الثَّانية هي القاعدةُ الرئيسية والصلبة للسورة كلّها .

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٢)

وقد اتفق عدد من المفسرين على أن المقصود بكلمة الكتاب هنا سورة الأعراف وليس القرآن كلّه ، حسب كلّ من الزَّمخشري والنسفي والقمي النيسابوري . بينما ظن آخرون أن المقصود بها القرآنُ كلّه . وتقتضي أصول الكتابة السليمة التي ألهمها الله للبشر أن يكون المقصودُ بها هنا سورةَ الأعراف ، فالآية تقدم سورة الأعراف وليس القرآن كلّه ؛ وبقيةُ الآية شاهدٌ على هذا .

﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ ﴾ (الأعراف:٢) : احتار المفسرون بنوع الحرج الذي سيسببه القرآن للنبي . ولأنهم ظنوا أن السُّورة مكية ، حسبوا أن تكذيبَ قريشٍ للنبي ، وهو يخاطبهم بهذا القرآن ، هو سببُ الحرج . بل هو حرجٌ حقيقيٌّ يصيب قلبَ أيِّ مخلصٍ لأهله ، عندما يأتيه من يُلمحُ له أن من ربّاهم على الإيمان قد ينحرفون ؛ وإنَّ إبليسَ متربّصٌ بهم ، ومهاوي السقوط تنتظرُهم كبشر ؛ فليحذروا ، وليتقوا الله ، وليراقبوا أنفسهم . ألا يصيبُ النبيّ الرءوفَ الرحيمَ حرجٌ ، بل همٌّ ثقيلٌ عندما يعلمُ

أن أتباعَه مهيأون للسقوط إن لم يحذروا؟ ثم يأتي العزاء بل الدواء بأن في هذه السُّورة ذكرى تنفعُ المؤمنين ، وتحفظُهم من السقوط ، ومن التراجعِ عما هم فيه من نعمةِ الإيمان ، إن تيقظوا وتمسكوا بما في السُّورة من مواعظ وهدًى .

هذا هو منطلق السُّورة . ثم تأتي الآيةُ الثَّالثَةُ بخطابٍ مباشرٍ لا مجاملةَ معه فالمخاطبون بشرٌ قد ينسَونَ وقد يتكاسلون . فتأتي الآيةُ الكريمة : ﴿ **ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ (الأعراف:٣) لترسم طريق النجاة .

وبخطوةٍ أقرب إلى التهديد تقول الآيات (٤– ٧) ما معناه لستم بدعاً من البشر بل ينطبق عليكم ما انطبق على غيركم ممن كان قبلكم ؛ فالله سبحانه لا يحابي : ﴿ **وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ** ﴾ (الأعراف:٤–٧)

ويومُ الحساب يومُ عدلٍ وجدٍّ ؛ فالناس يحاسبون وفق موازين لا تزل ، فليكن الاستعداد لها بالجد والتقوى : ﴿ **وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ** ﴾ (الأعراف:٨–٩)

وهذه الآيات (٨–٩) تخاطب مؤمنين يحسنون ويسيئون . فتوزَن حسناتُهم وسيئاتهم يوم الحساب ، بميزانٍ دقيقٍ ، فمنهم من يفلح ومنهم من يخسر نفسه . وليس هكذا يكون الحديثُ عنِ المشركين ، ولا هكذا تكون نهايتهم . فللشرك نهايةٌ واحدةٌ هي نارُ جهنم .

ونصل الآيةَ الأخيرة من الأطروحة : ﴿ **وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ** ﴾ (الأعراف:١٠). فهي خطابٌ مباشرٌ لمجتمعٍ مؤمن . فالخطاب الجمع المباشر إذا لم يكن معه قرينة تعرف المخاطب به يكون للمؤمنين .

السقوط الكبير : من الطبيعي أن تبدأ السُّورة تفصيلَ أطروحتِها بأكبر أسبابِ السقوط . السقوطُ الذي يلزم تحذير المؤمن منه كما قد ينتفع الكافر بالنهي عنه . إنه يتعلق بالسؤال الإجباري في امتحان الحياة !

وليست هذه هي المرة الأولى التي تُعرض فيها قصة سقوط آدم وحواء في القرآن. فقد كانت القصة الأولى في القرآن الكريم. لكنها هنا أكثرُ تفصيلاً وأوضحُ مقصداً. تبدأ القصة بالآية (١١) وتنتهي مع التَّوصيات والتَّوضيحات المبنية عليها بالآية (٣٤).

تبدأُ القصةُ هنا بقرار خلقِ آدمَ وذريتِه جميعاً. والطلبِ من الملائكةِ السجودَ لآدم، ورفضِ إبليسَ السجودَ له تكبراً وحسداً. فيغضب الله تعالى على إبليسَ ويطردُه من الجنة. فيتحول إبليسُ شيطاناً بعصيانِه وبتحديه إرادةَ الله. ولحِكمةٍ ما يأذن اللهُ بإمهالِه حيًّا إلى يوم القيامة. فيكرسُ إبليسُ حياتَه للانتقام من آدم وذريتِه بإغوائِهم وصرفهم عن طاعة الله؛ ليَشقَوا معه بالعذاب والنكد في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وسلاحُ إبليسَ ضدَ آدم وذريتِه بدأ بإيقاع أبويهما بالذنب الكبير، عندما زينَ لهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها. فما هي الشجرةُ وما هو الذنبُ الذي تتوارثه البشريةُ منذ أبيها، ويلزم تحذيرُ المؤمنِ منه كما يلزمُ إنذارُ الكافرِ سواءً بسواءٍ؟

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٩-٢٣).

إنه الفعل الذي يمكن أن يمارسه ذكر وأنثى بسوأتيهما! ماذا يمكن أن يكون غير الزِّنا؟ ومع أن الصورة الصحيحة للخطيئة مغروسة في عقول البشر جميعاً. فتجدهم يقولون في أحاديثهم عن شخصين وقعا في المعصية «أكلا من الثَّمرة المحرمة». ومع هذا تاه علماؤنا في الشجرةِ المحرمةِ وظنوها شجرةً نباتيةً ذاتَ جذور وسوق وأغصانٍ. ولم يلاحظوا الرمزَ المهذبَ في استعمال الكلمة. ولو جاز لهمٍ الضياعٌ عن القصدِ وتضييعُ الحقيقة في ظلال القصة عندما وردت في سورة البقرة، فما كان جائزاً لعاقل أن يجهل طبيعةَ الشجرة كما وردت في سورة الأعراف. ففي الآية (٢٠) يوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما. ويومها كانا

عاريين لم يعرفا الملابس بعد . فما أراده إبليس ليس تعرية جسديهما لكن كشفَ وظيفةٍ للسوأة كانا غافلَين عنها .

وبعد نجاح خطته في دفعهما للمعصية ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (الأعراف:٢٢). ذاقا الشجرةَ وعرفا وظيفةً للسوأة كانت خافيةً عنهما . فخجِلا مما فعلا وطفِقا يواريان سوأتَيهُما . ولو كان التذوقُ المحرم بالفم لأخفيا ثغرَيهُما !

ورغم وضوحِ الأمر توقف مفسرونَ كبارٌ عند ظاهر الكلمات وعجزوا عن الوصول بالفكرةِ إلى نهايتِها ، فظنوا أن مجرد الكشفِ عن العورةِ هو الذنب ، أو كما قال الزَّمخشري في تفسيره للآية « {لِيُبْدِيَ} جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره ، وأن لا يُطلع عليه مكشوفاً . وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول». وتابعه على ذلك البيضاوي قائلاً « {لِيُبْدِيَ لَهُمَا} ليظهر لهما ، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ، ولذلك عبر عنهما بالسوأة . وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزّوج من غير حاجةٍ قبيحٌ مستهجنٌ في الطباع». ولم يلاحظ أيٌّ من المفسرين أن الإنسان كان عارياً يومها ؛ وأن أولَ لباسٍ يواري العورةَ كان بعد تلك الحادثة

مفسرٌ واحدٌ توصل إلى الحقيقةِ على سبيل الظن هو سيد قطب صاحبُ كتاب « في ظلال القرآن» عندما فسر الآية (١٢٠) من سورة طه . فجعل السقوط الجنسي كاحتمالٍ للخطيئةِ التي وقعا بها .

ومما أربك المفسرين في الماضي ويربِك الناس حتى هذا الزَّمن استعمال كلمة زوج بحقّ حواء فهي زوج لآدم . ومع أن كلمة زوج تعني (نوعاً) ، إلا أن استعمالها بمعنى الزّواج الشرعي لا يبيحُ لأول مخلوقين أن يمارسا الاتصالَ الجسديَّ الذي يؤدي للذرية إلا بإذن الله . والمعصيةُ هي في مخالفة أوامرِ الله حتى لو أبيحَ ما كان ممنوعاً بعد ذلك . فهي كحرمةِ أكل الصائم في نهار رمضان مع أن الأصل في الطعام الإباحةُ .

حرم الله على آدم وحواء الاتصال المؤدي للذرية لحكمةٍ يعلمها ، وليختبر قدرتَهما على الطاعة وليكون الممنوعُ مادةَ بلاءٍ باقيةٍ في ذريتهما . وقد وصفناه بالسؤال الإجباري لكلّ إنسان في امتحان الحياة . لأن الإنسان يُبتلى في ما يُؤتَى من نعمةٍ ؛ فبلاءُ المال للأغنياء ، وبلاء الفقر لمن قُدِر عليه رزقه ، وبلاءُ العلم لمن أوتيه ، وبلاء السلطةِ لمن امتلكها . وهكذا إلا بلاءُ الجنس ، فإنه لكلّ إنسانٍ سليم التكوين ولو جزئيًّا ، فكلّ من يشتهي لقاء الجنسِ الآخر معرضٌ لهذا الابتلاء . لأن مادتَه الجسدُ وحسب ، ولا يحتاج لفضلِ مالٍ أو علمٍ أو سلطةٍ .

ويَدُلُّ التحذيرُ الواردُ في الآية (٢٧) أن الذنبَ كان بمنزلة الزِّنا ﴿ **يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأعراف:٢٧) .

والتحذير هنا من أن يستجيب المخاطبون لإبليس كما استجاب أبواهم ، فينزع عنهم لباسهم وليس بعدها سوى الفاحشة الكبرى . وإلا فلماذا يتكاشف ذكر وأنثى بغير حقّ؟ وفي الآية السابقة (٢٦) تحذيرٌ يجمع المظهرَ والجوهرَ في الحفاظ على العفة ﴿ **يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ (الأعراف:٢٦) .

فهي تحضُّ على الاحتشامِ بلباسِ الضرورةِ الذي يسترُ السوأةَ ، وتزيدُ عليه لباسَ الجمال وهو ما يتباهى الإنسانُ بارتدائه والمُعبَّرُ عنه بالريش . ولم تكتف الآيةُ بهذا ، فمعَ الملابسِ والستر قد يسقط الإنسانُ ، ولكن التقوى الداخليةَ أو العفةَ الصادقة هي التي تحفظ الإنسان من السقوط ، بمعونة الالتزام بالمظهر المناسب . ولو كان المقصودُ سترَ السوأة فقط فلماذا التركيز على لباسِ التقوى واعتبارِه خيراً من اللباس الساتر الواقي الذي يقوم بتمامِ الوظيفةِ لو كان مجردُ الكشف هو الذنب؟

وتُرَسِّخُ هذه القصةُ في نفس السامع عداوةَ إبليس للإنسان ، كلّ إنسانٍ ، وتزرع في نفسه ضرورةَ مخالفةِ إبليس فهو لا يوسوس إلا بما يُغضب الله ويخالفَ الفطرة .

ثم تستمر القصة في معالجة أمرين : الأول : تذكير المؤمنين بما يُبعدهم عن الله ويُسقطهم في المعصية ، ليحذروا . والثَّاني : معالجة ما قد يقع به الذين يبالغون في الحذر ، خوفاً من الوقوع في فاحشة الزِّنا ، فيُعطلون نصف المجتمع .

ويربط بعض الناس بين ارتداء الملابس الجميلة ، والاهتمام بصحة الجسد وقوته وبين ممارسة الفاحشة، خصوصاً أن جمالَ الجسد وقوتَه قد تستعمل وسائل للإغواء، فتأتي الآيتان (٣١-٣٢) لتخففا من هذه المشاعر ، وليحل محلها نوايا طيبة من حسن العبادة وقيم التمدن واحترام الناس بعضِهم بعضاً ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾(الأعراف: ٣١، ٣٢)

ومن تذكير المؤمنين بما يمكن أن يوقعهم بين يدي الشيطان ، ويقرِّبهم من الفاحشة ، اتخاذُ الشيطان وليًّا يُطاع من دون الله (الآية ٣٠) والإثمُ والبغيُ والظلمُ بكلّ أنواعه والشركُ الخفي (٣٣) . . .إلخ .

وبذا تكون قصة آدم هذه أول عُرفٍ من الأعراف أو سياجٍ من الأسيجة التي تحصن المؤمنين من أسباب السقوط . وبدأت السُّورة بأكبر الذنوب وهو الزِّنا ، مُحذرةً مما يُوصِل إليه ؛ فهو ليس بالذنب البسيط الذي يمكن أن يبدأ منه الإنسان سقوطه ؛ بل هو نتيجة لمقدمات من الذنوب أصغر منه ، تؤدي بصاحبها إلى السقوط الكبير ، إن لم يتلاف نفسه ويستغفر اللمم وصغائر الذنوب ، قبل أن تجتمع في قلبه مساحةٌ سوداءُ تُمكِّنُ الشيطان من الاستقرار في ذلك القلب ؛ فيوقعُ صاحبَه بأكبر الذنوب بعد الشرك بالله أو الكفر مهما كانت صيغته .

وكما اختتمت قصة الخلق في سورة البقرة بقوله تعالى ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ تُختتَم القصة هنا بقوله تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (الأعراف:٣٥) . وخاطب المؤمنين هنا بصفتهم من ذرية آدم يشتركون مع بقية البشر في قابلية السقوط . وتربط الآيتان بين الهدى المتجدد بالنبوَّات وبين عدم انتشار السقوط في الشعوب لتستحقّ النُّبوَّة وهدي السماء .

ونختتم الحديث عن قصة الخلق هذه بأن إيرادَ مثل هذه القصة لا يكون إلا لقوم ٍمؤمنين فهي بالتأكيد قصةٌ مدنية بكلّ آياتها . وهي تأتي في السُّورة امتداداً لما جاء في الآية الثَّانية تذكيراً للمؤمنين .

الحائط الأخير : عُرف آخر من الأعراف ولكني آثرت تسميته الحائط الأخير ، لأنه يحفظ المؤمن عندما يقترب من حافة الكفر ، ويغالبُ ضعفَه ، فيبقى الخوفُ من الله ومن العقاب المخزي يوم الحساب حائطاً يزجره من السقوط . وهذا هو موضوع الفقرة الثَّالثَة من السُّورة بآياتها (٣٥-٥٣)

تبدأ الفقرة بوسيلةِ هدايةٍ خص الله بها بعض الأمم ومنه العرب . وتنطلق الفقرة من الآية الأخيرة في قصة الخلق وهي قوله تعالى : ﴿ **يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (الأعراف:٣٥) . ففي حال إرسال الرسل يكون المنطلق والمعيار ما يأتي به الرسول من عند الله إلى قومه . وعندها ينقسم الناس إلى فئتين : مؤمنةٍ مصدقةٍ وكافرةٍ مكذبةٍ . وتكذيبُ الرسل والاستكبارُ على دعوة الله ليس لهما جزاءٌ إلا النار . ولكنَ الفقرةَ تنقل لنا بعض ما يكون يوم الحساب وبين يدي الدخول إلى دار القرار . ولا تنسى أن تُذكر العرب أن الله خصهم بكتابٍ مفصلٍ مبينٍ ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأعراف:٥٢) فليتبعوه أو تكون النارُ هي المأوى!

عرضٌ مليءٌ بما يُرهب الفؤاد ؛ فالخلق جميعاً في ساحات المحشر المتقابلة ، وقد انتهى الحساب ، وعرف كلّ أناسٍ مكانَهم الأخير بناءً على ما قدموا في هذه الحياة . ويُفهَم من العرض أنَّ لكلّ جيلٍ من كلّ أمةٍ محشران بينهما حائطٌ أحدهما لأهل الجنة والثَّاني لأهل النار . وعلى عرف الحائط رجالٌ استحقّوا هذه المكانةَ العليةَ بصلاحهم ، ونضج ضميرهم في الحياة الدنيا ؛ فهم يطلون على الفريقين ، فيسعدوّن بالذين نالوا جزاء إيمانهم وسعيهم وصبرهم في الحياة الدنيا ، فكُتبت لهم الجنة وإن لم يدخلوها بعد . ويُطلون على الجانب الآخر من الحائط ، فيشمتون بما آل إليه مصير المكذبين المستكبرين بغير حقّ ؛ الذين كانوا في حياتهم الدنيا ينكرون حقّ الله وحقوق العباد . ويُذَكِّرونهم بما كان منهم من عصيان وتكبُّرٍ على المؤمنين ، واستخفافٍ برسل الله ونذره .

قلنا إنها محاشرُ تتقابل ليكون العدلُ أتم ، فأبناء الجيل من كلّ أمةٍ ، يتقابلون في محشرين متجاورين بينهما عرفٌ لا يمنع التراءي . ليعلم كلّ منهما ما فعل ، وما جنى ، فيسعد الصابرون المتقون ، ويتحسر الذين لَعِبوا ولَهَوْا وفسقوا وتكبروا

على أترابهم من الصالحين . فهذا جزءٌ من عدل يوم الحساب . لذلك سماها الله أعرافاً لكثرتها . ولو كان محشراً واحداً لكلّ الخلق على امتداد عمر البشرية لما احتاج إلا لعرفٍ واحد .

والمشهد المعروض يأتي بعد الحساب وقبل دخول الجنة والنار . وهذا واضحٌ من التعقيبات مثل قوله تعالى لأهل الجنة (٤٣) **﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾** (الأعراف:٤٣) . فهم لم يدخلوا الجنة بعد ، ولكن وُعدوا بها ويُشار إليها من بعيد « تلكم الجنة » .

مثلُ هذه المشاهد والحواراتِ الموحية ، وتقسيم الناس حسب نتائج أعمالهم ، يفعل في نفس السامع الواعي فعله القويّ المؤثر . ويشكل حائطاً يحميه من السقوط فيما سقط فيه أصحاب النار . ومن الناحية الفنية تشكل هذه الفقرة تفصيلاً للآيتين (٨-٩) من الأطروحة . حيث الموازين العادلة تحكم بالحقّ ، فمن ثقلت موازينه فهو في عيشةٍ راضيةٍ ، ومن خفت موازينه فأمه هاويةٌ . وأصحابُ الأعراف يشهدون .

تذكيرٌ للمؤمنين : سبق أن قلنا إن الآيات (٥٤-٥٨) تُفَصِّل الآيةَ العاشرة من الأطروحة . وهي تتحدث عن تمكين المؤمنين بالأرض وعلاقة البشر بالأرض كمكان ومصدر حياة . وتُختتم الآيات بذكر البلد الطيب وغزارة نباته وسهولة الوصول إليه مما يذكر بطيب المدينة المنورة . وما كنا لنصل هذا الاستنتاج لولا ربط هذه الآيات بالآية العاشرة التي اعتبرناها خاتمة الأطروحة . ولا تكون هذه الفقرة إلا لمؤمنين يعيشون في بلدٍ زراعيٍّ وهذا ما ينطبق على المدينة أكثر مما ينطبق على مكّة . ويأتي هذا التذكير بالوطن والرزق في معرض أعراف الحماية لِيَعرف المخاطبون فضل الله عليهم فيحذروا الانحراف ؛ فالرزق والوطن لا يعوضان ، إذا كان الحرمان منهما عقاباً لذنب!

الوعظ بمصائر الأمم السابقة : تفصيلاً للآيات (٤-٧) من الأطروحة تأتي الآيات (٥٩-١٣٦) لتسرد قصص نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ مع أقوامهم ثم قصةَ موسى مع فرعون وملأه . وكلّها إنذارٌ للمشركين وصدًى لقوله تعالى في الآية الثّانية لتنذر به (الآية : ٢) مثلما أنها تفصيل للآيات (٤-٧) . بينما نجد بقية قصص بني إسرائيل مع موسى ثم في عهودٍ لاحقةٍ تعرض تراجع بني إسرائيل عن مستوى الإيمان الذي يرضاه الله لهم . فهذه القصص لا تكون لمخاطبة المشركين ، بل هي

موجهةٌ لوعظ المؤمنين كي يلتزموا بإيمانهم ولا يتراجعوا عنه مع تقدم الأيام فهي آياتٌ مدنية .

ترد القصصُ حسب ترتيبها الزَّمني . كان أولُها قصة نوحٍ مع قومه . وقد واجه منهم كفراً لعله الأعند في تاريخ البشرية المسجل . قضى معهم قرابة ألف عام منذ قال لهم (٥٩) ﴿ **يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ** ﴾ (الأعراف:٥٩) . فكان جوابُهم له (٦٠) ﴿ **قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ** ﴾ (الأعراف:٦٠) . نعم هكذا ظنوا : أنهم المهتدون وأن نبيهم على ضلالٍ مبينٍ . واستمر هذا الحوار بينهم أكثر من تسعة قرون ؛ مما أهَّلهم للفناء بطوفانٍ ما زالت البشرية تتحدث عنه لشدته وقسوته .

القصة الثَّانية قصة هودٍ مع قومِه عادٍ ؛ ويعرف أهلُ مكّة أطلال عادٍ ، ويعرفون ما كان من أمرهم . وبين قريشٍ وبين عادٍ شَبَهٌ تَعرفُه قريش . ولعل الشَّبَه يتجلى في الحوار التالي بين عادٍ وهودٍ : (٧٠-٧١) ﴿ **قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٧٠،٧١) . وانتظروا غير مصدقين فجاءتهم ريحٌ صرصرٌ عاتيةٌ حتى صاروا كأعجاز نخلٍ خاويةٍ ونجى الله هودًا والمؤمنين معه .

قبيلة ثمود ظهرت بعد عادٍ ومع هذا كانوا أكثرَ عنادًا . فأرسل الله لهم ناقةً مع رسوله إليهم صالح . وكانوا أهل قوةٍ وثراءٍ ويعيشون حياةً مترفةً . فكذبوا صالحاً واستكبروا وعقروا الناقة بعد أن شاهدوا وجه الإعجاز فيها . فأخذتهم رجفةٌ وأصبحوا في ديارهم جاثمين .

ثم يتقدم الزَّمن لنصل زمن لوطٍ وقومِه الذين استساغوا فاحشةً دنسةً وأسرفوا بها . ووصلت الوقاحة بهم أن قالوا عن لوطٍ والمؤمنين معه (٨٢) ﴿ **أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ (الأعراف:٨٢) . نعم وصلوا حد التَّوافق على التبرؤ من الطهر بل معاقبة أهله . فأخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ .

ثم قوم شعيبٍ من أهل مدين الذين استباح بعضُهم حقوقَ بعضٍ ، وأصروا على كفرهم وظلمهم فأخذهم الله برجفةٍ ، ونَجَّا شعيباً والذين آمنوا معه .

وفي موعظةٍ عامةٍ تعقيباً على الأحداث المذكورة يفهمها أهل مكّة تقول الآيتان (٩٤-٩٥) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (الأعراف:٩٤،٩٥) .

وكان الإنذار نافعاً لقريشٍ فاتعظوا ودخلوا في الإسلام ونجوا مما أصاب من سبقهم من الظالمين . وهكذاً آتت السُّورة أكلها في هذا الجانب من هدفها . وكان التحذير مما فعلت تلك الأمم الهالكة أعرافاً تنهى الأحياء عن فعل مثل ما استحقّت به الهلاك .

ذكرى للمؤمنين : مما يمكن أن يُصاب به المؤمنون شعورهم أنهم أحباء الله دون الخلق ؛ ومهما يفعلوا من سوءٍ يُغفر لهم . فاحتاطت أطروحة السُّورة من البداية ليعلم المؤمنون أن عدل الله لا يُجرح ولا يُحرج (٨-٩) ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾ (الأعراف:٨-٩) . ثم تأتي قصص بني إسرائيل منذ نجاهم الله من فرعون ؛ لتكون واعظاً للمؤمنين بأكثر من وجه . فهؤلاء القوم الذين اختارهم الله على علم على العالمين ، وتقدم معهم في التشريع والتربية ما لم يفعل مع أمةٍ أخرى من أمم الأرض . فلما تجاوزت فئةٌ منهم أمرَه مسخها قردة . وكتب على فئات منهم أن يسلط عليهم من يسومهم عذاباً إلى يوم الدين . فلندرس ما جاء عنهم بالتفصيل ليكون ذكرى وعظةً لنا معشر المسلمين .

تعرض الآيات (١٣٨-١٧١) أحداثاً بارزةً من تاريخ بني إسرائيل منذ غادروا مصر ، وانفصلوا عن المجتمع المصري ، وبدأوا حياتهم كأمةٍ مستقلةٍ بقيادة نبي الله موسى ، وبرعايةٍ مباشرةٍ من الله تعالى . وتُعرَض الأحداث ضمن ثلاثة خطوط ، هي خط الرعاية الإلهية لهم ، ويتجلى بالرسول والرسالة التي معه ، ثم المعجزاتِ القويّة التي شاهدها الجيلُ المعاصر لها جميعه ، ونقل أخبارها للأجيال التالية بما لا يدع مجالاً للتكذيب . وخط الذنوب والانحرافات وما يتبعها من عقوبة . والأحداث تُعرض للأمتين معاً فهي لمن تصلهم باللسان العربي من بني إسرائيل الذين يعيشون مع العرب زمن التنزيل وبعده . كما تُعرَض للمؤمنين مع النبيّ ليتعظوا ويحذروا ، وهذا أهم أغراض الآيات . فالمخاطب الأول بالقرآن هو النبيّ ، ثم أتباعه من

المؤمنين . وما يهمنا هنا المواعظ التي تقـدمها حيـاة بـني إسـرائيل للمـؤمنين . وفي خبر كلّ حادثٍ من أحداث القصة عُرْفٌ يحمي السامع مـن انحـرافٍ أو مـن تصـورٍ خاطئ يؤدي لانحراف ما .

مكانة النُبُوَّة مقابل مكانة الله : وتأتي القصة الأولى لتحرير العقول من التصورات المغالية للنُبُوَّة ، ولوضع الأمور في نصابها . وكي لا يتجاوز بشرٌ مكانتَه مقابل جلال الألوهية . وذلك في قصة موسى عندما يذهب لميقات ربّه على الجبل . حيث يقع موسى بالمحظور ، وهو يطلب رؤية الله سبحانه . فيُعاقَب ، ثم يستغفر ، فيُغفَرُ له ، وتسلم تصوراته من أوهامٍ غير لائقةٍ بجلال الله . وتُعرض القصةُ لتسلِّم تصوراتنا من نفس الأوهام ، ومن أوهامٍ أعمقَ بشأن النُبُوَّة والأنبياء . وما زلنا نعاني من تلك الأوهام بشأن النُبُوَّة ، خصوصاً فكرَة عصمةِ الأنبياء خارج حدود التبليغ . ووقوع فئاتٍ من المسلمين بتقديس أئمتهم . فلنتأدب مع الله! يقول تعـالى (١٤٣) **﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾** (الأعراف:١٤٣) . كان تجاوز موسى لقَدْرِه مقابل جلال الله خطأً كبيراً من نبيٍّ . وأدرك ما وقع به فبادر بالتَّوبة . فهل يليق بشعبٍ خوطب بهذه القصة ، أن يرفع منزلة النُبُوَّة إلى موقعٍ قريبٍ من موقع الألوهية؟ إنها عُرفٌ من أعراف السُّورة تحمي من يعقلها من التجاوز على الله تعالى ، ومن الانحراف مع الذين يقدسون بَشَرًا ، على حساب ذي الجلال والإكرام .

بشرى لموسى ولقومه : يُبلِغُ اللهُ موسى باختياره رسولاً إلى قومه ، ويطلب منه الشكر على ذلك . كما يكلّفه أن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن ما في التَّوراة . ثم يبشرهم بأن يجعل لهم مكاناً يُقيمون فيه كما تقول الآية (١٤٥) **﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾** (الأعراف:١٤٥) .

واحتار المفسرون جميعاً بكلمة (سأوريكم) . وهي تعني التسكين والإقامة إقامة متمكنة مع شعب آخر وبعون الله . فاستعملتها العرب لتأرية الـدواب في حظائرهـا عندما تُضافُ دابةٌ إلى معلف أخرى . ومن خصـائص هـذه التأريـة عمقُهـا وتمكّنهـا

فهي تشبه التصاق الطعام بقعر الإناء . ولتبرير الموقف سماها دار الفاسقين . وهي نفس فلسطين التي وصفها بالمباركة في الآية (١٣٧) . ولكن لاستعمال كلمة دار الفاسقين هنا وظيفتان : الأولى : ليخفف عن السامع قسوة إدخال شعب إلى أرضٍ لم تكن له وفيها شعبها . فهي هنا عقوبةٌ لفسق أصحاب الأرض المباركة ؛ التي لا يرضى الله أن يُعصى بها . والثَّاني : تحذيرٌ لنا معشر العرب لنعلم أن الله قادرٌ على إخراج الناس من أرضهم ، إن عصوا بها ؛ فنحن نسكن أرضاً مقدسةً أو مباركةً ولا يحقّ لنا أن نلوثها بالمعاصي ؛ كما تفعل شعوبٌ أخرى بأرضها . فتشكل الصيغةُ هنا عُرفاً عالياً لمن كان له قلبٌ يفقه به .

وعودةً لكلمة «سأوريكم» فإني لم أجد كلمة في اللغة أدقَّ منها ، أو بمثل دقتها في وصف إدخال بني إسرائيل إلى فلسطين . ومع هذا تجاهل المفسرون حرف الواو فيها واعتبروها «سأريكم» وتاهوا بتفسير الآية بين عدة احتمالات كلّها غير سليم . وللأسف تابعهم قراء القرآن جميعاً وقرأوها دون واو ، مع أن الواو مثبتةٌ في المصاحف رسماً وفي وصف القراءات عند أئمة القراء الأوائل جميعاً .

سنة الله في هداية الناس : كي ترتاح قلوب المؤمنين تَعرض الآيتان (١٤٦-١٤٧) سنة الله بهداية الناس وصرفهم عن الهدى ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (الأعراف:١٤٦،١٤٧)

ويحرم الله من الإيمان من لا يستحقّ من المتكبرين بغير الحقّ وأصحاب الأهواء والمكذبين باليوم الآخر! وفي صرف هؤلاء حمايةٌ للمجتمع من أسباب التدهور والسقوط . فبناءُ مجتمعٍ قويٍ نامٍ يحتاج قواعدَ من الصادقين المخلصين كما أسلفنا في تحليل سورة آل عمران .

وتأتي هاتان الآيتان وصفاً لإحدى سنن الله في الهداية والإضلال بين يدي فتنة العجل .

بقية الجاهلية : كان بنو إسرائيل حديثي عهد بالإيمان لم يرسخ في نفوسهم بعد . ومع غياب نبيِّهم عنهم أغواهم الشيطان فصنعوا عجلاً اتخذوه إلهاً (١٤٨-١٥١)

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

(الأعراف:١٤٨-١٥١)

ولما صحا إيمانُ بعضهم وصاروا فئتين : ضالةٍ ومؤمنةٍ ، جاء حكم الله بالحادثة عدلاً ورحمةً (١٥٢- ١٥٣) **﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** (الأعراف:١٥٢،١٥٣)

وفي الآية (١٥٠) فضحٌ لموقف الجماهير الجاهلة التي توشك أن تقتل نبيَها وقائدها ، وهو يدعوها إلى الحقّ . ويكون رجاءُ هرون لأخيه أن لا يُشمت به الأعداء . والأصل في القائد ومن يحل محله أنه رمزٌ للمجموع ، يحترمه الشعب علامةً على احترام الشعب لذاته . ويطيعه لأنه يأمر باسم الشعب وللمصلحة العامة . وهي معان قليلة الحضور في حياتنا . لذلك احتجنا أن ترد في كتابٍ أنزله الله لهدايتنا . ولتكون الآيتان درساً قائماً بذاته ، وعرفاً من أعراف السُّورة ؛ فقد وردتا بعد أن اكتشف بعض أهل العجل خطأهم وتابوا إلى ربّهم . وقبل أن يرد حكم الله بأصحاب العجل .

بعد الإعصار : أقصد بالإعصار حالةَ الدمار والارتباك التي أصابت الشعب والقيادة نتيجة عبادة العجل . وهي مصيبةٌ شديدةٌ ، فالذين اختارهم الله وأنعم عليهم بالهدى ، ويربّيهم على عينيه سقطوا بكفرٍ بُواحٍ ، واتخذوا العجل إلها ، وبينهم نبيهم هرون ، ورسولهم موسى ليس بعيداً عنهم! إنها كارثةٌ بكلّ المقاييس . ولم تذكر الأعراف كلّ نتائجها . بل اكتفت بما يغني نظرية السُّورة فقط .

ورغم أن مفعولَ الحادث كان قويًّا على موسى ، إلا أنه استطاع أن يعود إلى هدوئه ، ويجمع قواه وقوى شعبه ، ليشكل منه نبتاً جديداً ويبدأ معهم وبهم حياةً

لبني إسرائيل ، بدل الاستسلام للموت والكفر واليأس . فاختار موسى أفضل رجاله المؤمنين ؛ ولعلهم من الذين ندموا على بِدعة العجل قبل عودة موسى من الجبل . ومع ذلك لم تكن لملمةُ الجراح سهلةً كما تصف الآيات(١٥٤-١٥٦) . ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٤-١٥٦)

وقدمت الآياتُ القصةَ بطريقةٍ موحيةٍ بقدر ما هي موجزةٌ ومباشـرةٌ . فاستعاد موسى أولاً القاعدة الفكرية للشعب وهي التَّوراة . لتكون قاعدة الهدى ومصدر الثَّقافة ، ونبراس العبادة وضابط العلاقة بالله . ثم اختار الرجال الذين سيحملون عبء العمل . وكانت عبارة « فاختار قومه سبعين رجلاً » قوية الإيحاء . فكأنَّ هؤلاء السبعين هم كلّ الشعب مع أن رواية التَّوراة توحي أن الشعب كان مئات الآلاف!

وأعلن سبحانه رضاه عن المتقين الملتزمين بأوامره من بني إسرائيل . وتستمر أجواءُ الرضا لتتجاوز قروناً من الزَّمن ، وتقفز بنا الآية التالية تماماً إلى عهد النبيّ والقرآن ، لِتَعِدَ من يستمر على نهج المتقين من بني إسرائيل ، بنقلهم إلى مرحلةٍ جديدةٍ ، تسقط بها الأحكام المتشددة التي أُنزلت عليهم بسبب انحراف أجيال منهم ، وذلك إن آمنوا بالنبيّ ونصروه . ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ومع الآية التالية لها (١٥٨) نكاد نظن أن قصة بني إسرائيل في الأعراف قد انتهت . فالخطاب يستمر للنبيِّ . ثم تعود بنا الآية (١٥٩) إلى مرحلةٍ أخرى من

حياة بني إسرائيل ، تبدأ مع موسى بنعم الله ، تتلوها أحداثٌ بعد موسى ذاتُ قيمةٍ وعظيةٍ عاليةٍ .

تعالى جده : تبدأ الآية (١٥٩) بوصف حالهم من زاوية الإيمان وطاعة الله ثم تتلوها آياتٌ تتحدث عن استجاباتهم لنعم الله وآياته لهم (١٥٩-١٦٢) ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ** ﴾ .

ومن زاوية سورة الأعراف فإن هذه الباقةَ من الآيات إنما توقظ فينا روح الجد وعدم التهاون بحقّ الله . فقد بدأت بأن من بني إسرائيل فئةٌ ملتزمةٌ قائمةٌ بأمر الله ، وبما يجب عليها تجاه مجتمعها . ولأن هناك فئةً لم تلتزم بأمر الله رغم ما رأت من معجزات موسى ، التي كانت نعمةً على بني إسرائيل كانبجاس الماء ينابيع بعدد قبائل بني إسرائيل ؛ لا يغض الله الطرف عن هذه الفئة بل يصفها بالظالمة لنفسها . ولظلمهم أدخلهم الله تعالى تجربةَ توبةٍ فلم يزدادوا إلا ظلماً فاستحقّوا رجزاً من السماء .

وفي هذا تحذير للمخاطبين بضرورة الالتزام ومن قبل الجميع ، إذا أراد المجتمع أن ينجو من عقاب الله . ولكن الالتزام المطلوب يجب أن يكون بدافعٍ من الإيمان وليس تحت إكراه من أحد . فالله سبحانه يريد أن نتوجه إليه حبًّا واقتناعاً ومعرفةً بقدره العظيم .

العقاب يتناسب مع المنزلة عند الله : من الآيات (١٦٣-١٦٦) نطلع على أقسى عقابٍ تعرض له شعبٌ مخاطبٌ بسبب مخالفة أحد أوامر الله . ﴿ **وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾**

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ (الأعراف:١٦٣-١٦٦)

في هذه الآيات تحذيرٌ شديدٌ للمؤمنين . كما أنها تبرر قول الله تعالى في بداية السُّورة ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ (الأعراف:٢) . هنا قصة قريةٍ على شاطئ بحرٍ يسكنها أناسٌ من بني إسرائيل . يعيش بعض أهلها على الصيد البحري . وكيهودٍ فإنه محرمٌ عليهم العملُ يوم السبت . وبسبب فسقهم ضَيَّق الله عليهم سبلَ الرزق ، فوجه الله سبحانه حيتان بحرهم للابتعاد عن الشاطئ كلّ أيام الأسبوع ، لتعود إليه شُرَّعاً يوم السبت . فاحتالوا لذلك واصطادوا الحيتان يوم السبت مخالفين أوامر الله لهم . وهو ليس بالذنب الكبير مقارنةً بذنوب الأمم الأخرى عندما يتعلق الأمر بالرزق . ولكن لبني إسرائيل عند الله مكانةً مختلفةً . فقد اختارهم وأنعم عليهم بنعمٍ شتى ونجاهم بمعجزاتٍ رأوها بأعينهم ، وأنزل عليهم كتاباً مفصلاً . وعين لهم كهنةً يقيمون لهم الدين ويعرفونهم الحلال والحرام والحدود التي وضعها الله لهم . فلم يعد لهم حجّةٌ بالمخالفة . وعند ممارستهم الذنب ذكَّرهم المتقون من قومهم بحرمة ما يفعلون وبعواقبه عليهم . فلم يرتدعوا وأصروا على مخالفة أحكام السبت ليحصلوا على رزقهم بالقدر الذي يريدون . فمسخ الله المخالفين قردة .

إنه عقابٌ شديدٌ مقارنةً بالذنب الذي اقتصر على الاعتداء على حقّ الله دون أدنى إخلال بعقيدتهم به سبحانه . ولم يكن فيه اعتداءٌ على حقّ بشر . فهو تحذيرٌ شديدٌ للأمة المخاطبة بالقرآن لتعلم المكانة التي ترتفع إليها بتقبل الرسالة . ومع ارتفاع المكانة تشتد العقوبة لمن يذنب . وهذا هو منهج القرآن ؛ فعقاب الأَمَةِ نصف عقاب المحصنة إذا مارستا نفس الذنب . وهدد القرآن نساء النبيّ أن يكون عقاب إحداهن ضعفي عذاب المؤمنة العادية إذا ارتكبتا نفس الذنب .

هذه القصة تظهر ارتفاع منزلة بني إسرائيل عند الله . ويجب على المسلمين أن يحرصوا على الوصول إلى المكانة الأعلى بالطاعة ، ويحذروا مثل هذا العقاب إن عصوا . فقصة القرية حاضرة البحر عُرْفٌ مرتفع من أعراف السُّورة .

مآل ذرية إسرائيل : تُختتم قصص بني إسرائيل في الأعراف بالآيات (١٦٧-١٧١) واصفة حالهم وأوضاعهم على عهد تنزيل القرآن . مما يؤكد ما أسلفناه من أن أخبارهم منذ خروجهم من مصر إنما قصد بها تذكير المؤمنين ، وتحذيرهم من الوقوع فيما وقعت به فئاتٌ من بني إسرائيل . وفي هذه الفقرة زيادة تبين للناس كيف يبارك الله تعالى ذرية رجل من بني آدم ، لتكون هذه الخاتمة جسراً لما يليها من السُّورة . تقول الآيات الشريفة ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾(الأعراف:١٦٧-١٧١)

نعلم من القرآن أن الله تعالى اختارهم على علمٍ . وعلم الله واسعٌ ولا يُحرَج . فهو يعلم لماذا اختارهم وماذا يريد بهم وماذا يريد منهم . ويعلم أنهم بشرٌ لا يستطيعون أن يقابلوا جَدَّ الله . فكلّ ما يكون منهم محسوبٌ سلفاً في علم الله وموظفٌ لخدمة خطته التي وضعها لبني آدم إلى يوم القيامة .

وتبدأ الآيات بإعلان الله سبحانه أنه سيسلط عليهم من يسومهم العذاب إلى يوم القيامة . ويأتي هذا الإعلان بعد ذكر أمثلةٍ من إخفاقهم بطاعة الله على الوجه الكامل المطلوب منهم . فيكون عذاب الناس لهم جزاءً على عصيانهم ، ويتناسب مع درجة تقصيرهم بطاعة الله . ويقوم بوظائف أخرى تتماشى مع خطة الله . كأن يُذكِّرهم العذابُ الدائم بخصوصيتهم ويعيدهم إلى ربّهم . وهم بموقعهم هذا الذي يبدو مُهيناً إنما يُنفذون خطة الله بنشر عقيدة التَّوحيد من موقف الضعف . وهو أحب إلى الله . فنشرها من موقف الضعف يقصر أثرها على الصادقين ؛ بينما تجتذب القوّة والسلطة والنجاح المنافقين والطامعين قبل الصادقين الذي يَعِفُّون عند المغانم الدنيوية .

وللقيام بهذا الغرض بكفاءةٍ ، فرقهم الله في الأرض كما تقول الآية (١٦٨) ؛ فمنهم من كان أهلاً للطاعة ومنهم دون ذلك . فكان جزاءً يناسب أحوالهم مع الله . ثم تتحدث الآية (١٦٩) عن جيلٍ لاحق حمل الرسالة شكلاً ولكن قلبه معلقٌ بالدنيا وأعراضها . ومع هذا الانجراف مع الدنيا الغرارة وأهلها ، بقيت منهم فئةٌ صالحةٌ تدعو قومها للتمسك بالكتاب وتقيم لها الصَّلاة والعبادات . ويحسبُ لهؤلاء صدقهم وجدهم وجهادهم . ولعلهم من بقايا الفئة التي اختارها الله من آل هرون لإقامة الصَّلاة وإدارة العبادات لقومها .

ولكن ما سر استمرار هذا الصلاح في آل إسرائيل؟ تأتي الآية الأخيرة (١٧١) لتذكر المعجزة التي رسخت في عقولهم وزرعت اليقين في قلوبهم فحفظت لهم إيمانهم على امتداد الزَّمان . ﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٧١)

وفي الفقرة الأخيرة هذه أكثر من عظةٍ وأكثر من عُرف حمايةٍ ، وإشارة تحذير وشمعة هدايةٍ للمؤمنين المخاطبين بهذا الكتاب المبين . فهل نبقى على العهد كما بقي المؤمنون من بني إسرائيل؟ فحادثة الجبل كانت وبقي خبرها . ولكن القرآن بإعجازه وهدايته باق معنا ما بقينا .

نشوء الذرية الطيِّبة : بعد أن تثير قصص بني إسرائيل غيرةَ الذين يفهمونها من أهل القرآن ، تأتي ثلاثُ آياتٍ (١٧٢-١٧٤) تتحدث عن نشوء الذرية الطيبة من بني آدم . ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٤).

ومما أربك بعض المفسرين في الآية (١٧٢) ورود كلمة ذريتهم بالمفرد بينما ضميرها المتصل بها بالجمع وهو يعود لبني آدم جميعاً . فظن الطبري ومن تبعه أن الآية تعرضت لخطأ من النساخ فكتبها في تفسيره وفي كلّ المرات التي وردت بصيغة الجمع (ذرياتهم) . ولو فكر هو ومن اتبعه قليلاً ، لعلموا أن الله وهو يراقب عباده سبحانه ، يبارك الرجل الذي يظهر علامات التقوى ويلتزم بطاعة الله ، ويعف عن الشهوات ومتاع الدنيا ، فيكافؤه بأن يبارك ذريته ويحفظها على طريق العفة ما التزمت بعهد الله تعالى . وهذا يعني أن الاختيار يتم لحالاتٍ فرديةٍ أي ذريةً ذرية .

فتكون صيغة المفرد قد أفادت إضافة معنى ، وعلَّمت المخاطبين كيف تنشأ الذرية الصالحة ؛ ليعمل من يستطيع كي تكون له ذرية . والعهد الذي يؤخذ هو توجيه لرأس الذرية ولذريته بالرؤى الصالحة ، وبلفت انتباههم لسريان سنن الله في حياة الناس من حولهم . وبحمايتهم من الفاحشة التي تُفسدُ الذرية وتحبطها وهي الزِّنا . وكلّ ما يطلع عليه الإنسان في يقظته من أحداثٍ موحيةٍ ، أو في منامه من رؤًى صالحةٍ ، إنما يعتبر جزءاً من عهد الله معه . فهو رسالةٌ وصلته من الله . ويحاسب على أساسها كما حوسب بنو إسرائيل حساباً مشدداً ، لأنهم علموا بالرواية أن الله رفع الجبل فوق آبائهم ، وأخذ عليهم عهداً وهم على ذلك الحال . وفي هذه الآيات عرفٌ آخر ، فهي تدل على خيرٍ عظيمٍ وتنهى عما يفسده . ولعل من المناسب لفت النظر أن كلمة «ظهورهم» تشير إلى تحديد النوع الذي يبدأ الذرية وهو الرجل . ويعجبني تفسير الزَّمخشري للآية «قوله : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ** ﴾ (الأعراف:١٧٢) من باب التمثيل والتخييل ! ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربّكم؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربّنَا ، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك» . وقصد الزَّمخشري أن الآية لا تشير إلى حوارٍ مباشرٍ بين الله تعالى وأرواح البشر كما توحي الآثار الموضوعة التي سجلها الطبري .

خسران المكانة : ومقابل الذرية الناجحة لرجلٍ صادقٍ مع ربّه تروي الآيات (١٧٥- ١٧٨) خبر رجلٍ آتاه الله آياته أدِلَّةً عرفها ثم انسلخ منها . ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴾

(الأعراف:١٧٥-١٧٨)

ونسب بعض المفسرين القصة لرجل قالوا إنه من بني إسرائيل . ولا أجد مبرراً لمثل من بني إسرائيل ، وفي الناس أمثلة قريبة . وكانت كتب التفسير قد ذكرت

أسماء عربيَّة هي أمية بن الصلت الثَّقفي وأبي عامر الراهب . وكلاهما يليق به الوصف .

والعبرة في القصة شديدة الإيحاء . فصاحب العلم والجاه إما أن يكون أصلاً لذرية صالحة باقية أجيالاً (كما في الآيات ١٧٢-١٧٤) ، وإما أن يصير كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث! وله أن يختار .

رسالة إلى المشركين : منذ الآية (١٧٧) حتى الآية الأخيرة تتجه السُّورة بالحديث إلى النبيّ والمؤمنين معه ، وترسل من خلالهم رسائل للمشركين العرب ، تتمةً لما جاء في الآية الثَّانية التي تلخص هدف السُّورة بقوله تعالى ﴿ **لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ وبما أن الشركَ بالله كان الانحرافَ الأكبر عند الأمة المستهدفة بالقرآن . فقد استغرق تحليل الشرك وتفنيده معظم هذا الجزء من السُّورة (١٧٧-٢٠٦) .

متعةٌ تقود إلى الشرك : تعود بنا الآيتان (١٨٩-١٩٠) إلى طرف من قصة الخلق أو إحدى ذيول فعلةِ آدم وحواء التي وردت في بدايات السُّورة (١١-٣٥) . وتربط الآيتان الشركَ بخطيئة آدم وحواء إذ مارسا الحياة الزّوجية قبل أن يأذن الله ؛ فوقعا بالشرك حتى بعد توبتهما المقبولة فما الذي حدث؟ تقول الآيات ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ (الأعراف:١٨٩، ١٩٠)

ولكن لماذا جاءت الآيتان هنا منفصلتين عن القصة ولم تردا استمراراً للقصة؟

السبب لذلك فني محض . فقد توصلت الخبرة البشرية التي ألهمها الله لعباده أن القصة القصيرة يجب أن تدور حول فكرة واحدة . وقصة الخلق في بداية السُّورة كانت لتعريفنا بحقيقة السقوط . بينما الآيتان (١٨٩-١٩٠) تعرضان موضوع الشرك الذي ينتج عادة عن أسبابٍ أكبرها الزِّنا . فكان هذا هو المكان الطبيعي للآيتين حيث مناقشة موضوع الشرك بالله .

الآيتان (١٨٩-١٩٠) تتحدثان عن أول شرك وقع به بشر . والبشر هنا هما آدم وحواء وليس سواهما . حملت حواء بطفلها الأول . ولأن الندم كان قد رافق الاتصال الجسدي الأول لهما . ولعله نفس الاتصال الذي تولد به ذلك الحمل كما توحي الآية برشاقتها . لذلك كانت خشية الأبوين أن لا يأتي الوليدُ سليماً عقاباً لهما على الفعلة الخطيئة . ونذرا إن جاء سليماً ليكونان من الشاكرين لله . فلما جاء سليماً وفَرِحا بِمَقْدِمه تَذكَّرا الذي دلهما على الفعلة ودلاهما بغرور ؛ فشعرا بالامتنان له وأشركاه بالشكر الذي كان يجب أن يكون محضاً لله صاحب الأمر كلّه .

وفي هذا درسٌ للمخاطبين فالله وحده الخالق ؛ ولو شاء أن لا يكون حملٌ لما كان ؛ ولو شاء معاقبتهما وخَلْقَ الطفل مشوهاً لفعل . لكنه عفا عنهما وقبل توبتهما ورزقهما طفلاً سليماً . فكان عليهما أن يوجها الشكر لله وحده . وكان عليهما أن يَعلما أن إبليس لم يُرد الخير لهما بل السقوط! وكان عملهما هذا قاعدة كلّ شركٍ بعده . وهو وإن لم يتجاوز حد الشكر لإبليس ، إلا أنه عند الله تعالى شركٌ . فهل من تحذيرٍ أشدُّ من هذا للإنسان؟ إنها حقّاً سورة أعرافٍ لحماية الإنسان من أدنى درجات الشرك والضياع؟

ويتبع القصة توجيهاتٌ للمؤمنين بشأن المشركين ، كيف يحجّونهم ، وكي لا يتحسرون عليهم . وبينها آياتٌ موجهةٌ للنبي ليحاجَّ المشركين . وهذه التعقيبات مما يليق بمخاطبة مشركي مكّة . فلعلها نزلت منفصلةً عن قصة الشرك الأول ؛ وإن بدت قاعدةً لشرك العرب عندما اجتمع شمل الآيات في سورة الأعراف .

الخاتمة : تختتم السُّورة بآيات توجه النبيّ والمؤمنين لتلاوة القرآن والاستماع إليه والتأمل فيه . ومداومة ذكر الله والتضرع إليه . وأتاهم بنموذجٍ يحبه الله ليقتدوا به ، وهم الملائكة بآيتين موجهتين للنبي فهو الأقرب للمنزلة العالية ﴿ **وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ** ۩ ﴾ (الأعراف:٢٠٥-٢٠٦)

هذه هي سورة الأعراف ! فهل فيها غير أعراف الحماية والوقاية والنهي عن الخروج من محيط أعرافها؟ بل هو قرآنٌ مبينٌ وحكيمٌ وعظيم .

* * *

سورة الأنفال

الأنفال ، هكذا سماها الله تعالى . وبعد قراءتها وفهمها لن يجد القارئُ كلمة أصدق من الأنفال وصفاً لها . وتظهر كلمة الأنفال في أول آيةٍ من السُّورة . لتعود إلى غنائم غزوة بدر . وكان يمكن أن تُسمَّى «الغنائم» خصوصاً أن فعل الحصول عليها كما وصفته الآية (٤٠) كان «غنمتم». فهي غنائم . ولكن الله سبحانه اختار الاسم الذي يمكن تطويره ليكون وعاءً لموضوع السُّورة كلّها ؛ وليشمل كلّ ما أراده الله تعالى منها . ولا تفي كلمة غنائم بهذا الغرض . بل كانت ستغير فكرة السُّورة تماماً ، فالغنيمة تكون نتيجة جُهد بينما الأنفال مِنَحٌ مجانيةً . والكلمتان مستعملتان في السُّورة لوصف نفس الشيء . غنموا بعون الله لجهد بذلوه . ولكن ما كان جهدهم وحده ليحقّق النصر ولا الغنائم . بل بعون الله الذي بارك جهدهم ونصرهم . ونفلهم بالسُّورة أموراً أخرى فلم يتسع لموضوعها سوى كلمة «الأنفال» . فهل في هذا إشارةٌ كافيةٌ ومقنعةٌ بوجود الإرادة الواعية والفائقة للعقل البشري في اختيار عناوين السور؟

وتنطلق السُّورة من اختلاف المؤمنين على توزيع أنفال المعركة ، لتتحدث عن أنفالٍ أخرى كثيرةٍ أنعم الله بها على المؤمنين. فكلمة «الأنفال» تعني المنح المجانية. وهي هنا نعم الله على المؤمنين . وهي تفوق قدراتهم كثيراً كما نرى في النعمة الكبرى التي تدور حولها السُّورة ؛ وهي الانتصار يوم بدر ، رغم الفارق الكبير بين عدد المؤمنين وعتادهم من جهة وبين المهاجمين من قريشٍ عدداً وعتاداً .

من جهةٍ أخرى ، تعرض السُّورة حدثاً شاهده المخاطبون ابتداءً من معركة بدر . وصيغت السُّورة بأسلوبٍ يناسب أحداثها . وقد توصلت الخبرة البشرية في القرون الأخيرة إلى نوع من المقال يسمونه بالإنجليزية «Observation Essay» ويعني بالعربيَّة «مقال المشاهدة» . ولعله الأقرب إليها شكلاً . فهو حسب واضعيه مخصص لوصف حدث عاشه المخاطبون . ويبدأ من النقطة الأقوى تفاعلاً والأبرز في ذاكرة المخاطبين . ثم يصاغ على طريقة الفيلم السينمائي بنقل صور مشاهد الحدث الكبير تباعاً ، وما يتعلق به من مشاهد خَبَرَها المخاطبون . ويتخلل

المَشاهِدَ تفسيراتٌ وتعليقاتٌ من وجهة نظر صاحب المقال . هذا الشكل من المقال لم يكن معروفاً عند نزول القرآن لا عند العرب ولا عند سواهم . بل توصلت إليه خبرة البشر بعد نزول القرآن بقرون عديدة . ولا يعني هذا أن مقالات البشر يمكن أن تصل مستوى سورة الأنفال . لكنها تشبهها شكلاً .

ومن أنفال السُّورة تذكيرُ النبيّ بحمايته يوم كان في الغار مغادراً مكّة ، لتكون تلك الهجرةُ قاعدةَ النصر يوم بدر . ومن أبرز أنفال المعركة حضور الملائكة ليقاتلوا إلى جانب المؤمنين . وتدَخُّل الله المباشر برفع معنويات المقاتلين . وتعليمُ الأمة كيف تدير معركةً ناجحةً منذ التَّوجيه المعنوي لها . وتُظهر السُّورة أسباب هزيمة المشركين عقاباً لهم على شركهم ، وتكذيبِهم رسول الله وهو يدعوهم إلى الإيمان . وتتحدث عن مسألة الأسرى وما كان يجب أن يكون بشأن معاملتهم . وفي السُّورة أسسُ معاملة الأسرى وعقد المعاهدات والحذر بالتعامل مع الفئات المعاهدة. وتعلمهم حدود المجتمع المؤمن المنحاز للنبيِّ . مقابل المؤمن الذي لم يهاجر وحقوقَ كلّ فئةٍ في السلم والحرب . وتدعوهم للالتفاف حول الإيمان الذي يجمعهم عندما يتعارض الإيمان مع علاقة القربى والدم . وكلّها أمورٌ جديدةٌ على الأمة ، وأسسٌ ضروريةٌ لبناء دولةٍ سيكون لها شأنٌ في قابل الأيام . وكلّها نافلةٌ من الله للمؤمنين مكافأةً على صدق إيمانهم وتضحياتهم في سبيل الله .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

عنوان السُّورة «الأنفال». والأنفال من مادة «نفل». جاء في مقاييس اللغة للرازي: «النون والفاء واللام أصل صحيح واحد يدل على عطاء وإعطاء . منه النافلة : عطية الطوع من حيث لا تجب ، ومنه نافلة الصَّلاة . . . ومنه النفل : الغنم» .

والسُّورة التي تبدأ بموضوع أنفال معركة بدر ، تواصل الحديث بأسلوبٍ ربّاني فائق الإعجاز عن أنفال منحها الله للمؤمنين ، منذ نَجَّى النبيّ وهو في الغار مهاجراً من مكّة ، حتى صارتً لهم دولةٌ تنتصر على أعتى عتاة المشركين . وبعددٍ قليلٍ وعتادٍ أقل . وتصف إدارةَ الله للمعركة منذ أرى الله نبيه في المنام أنه سيواجه فئةً قليلةً . وأنفالاً أخرى قيِّمةً على صورة نصائح وتعليماتٍ على طريق إنشاء الدولة .

أطروحة السُّورة : تُكتَنز أطروحة السُّورة بالآية الأولى فقط فهي كافيةٌ ، ومتسعةٌ لكلّ ما في السُّورة من معانٍ حتى لتشملُ خبر الفئتين المتحاربتين على طرفي ماء بدر . وهو موقع المعركة التي تدور السُّورة حولها .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:١)

نعم ، تكاد هذه الآيةُ أن تختصر السُّورة خصوصاً أنها تخاطب الذين حضروا الحدث . لذلك لم يلزم أن تبدأ السُّورة بأطروحةٍ طويلةٍ . فهي تقول أكثر من ألفاظها لقوم يعلمون . وتقول دون تمحلٍ أو تكلّفٍ .

وننظر في الآية الأطروحة ، لنجد أنها تبدأ بذِكر الأنفال انطلاقاً من خلاف المؤمنين حولها . فقسمتها بين المحاربين أشدُّ ما حدث بينهم ، فور انتهاء المعركة واستقرار نتيجتها العسكرية . وكلمة الأنفال ، الواضحةُ المعنى ، تدل على وجود معركةٍ وأنهم المنتصرُ بها . لأن الأنفال لا تكون إلا للمنتصر . وكذلك كان الأمر في بدرٍ التي شهدها المؤمنون وشاركوا بها . فالخطاب لمن شارك بالمعركة . ثم تحسم الآيةً قضية الأنفال بطريقةٍ واضحةٍ وحازمةٍ فهي أنفالٌ ؛ ولا تكون أنفالُ المعركة إلا من الله . ولمن لم يقتنع أنها حقّ لله ؛ فعلى السُّورة أن تثبت أن الفاعل في المعركة هو الله . وبالتالي فله وحده حقّ قسمتها من خلال رسوله . ويكفي هنا أن نتذكر قوله تعالى في وصف المعركة ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال:١٧) . ثم تقسوا آيةُ الأطروحة على المخاطبين من المؤمنين عندما ذكرتهم أنهم بتنازعهم على الغنائم إنما يتصرفون بما لا يليق بمؤمنين .

تعريف المؤمنين : وهكذا أتاحت الجملةُ الأخيرة من الأطروحة أن تبدأ الفقرةُ الثَّانية بتعريف المؤمنين كما يريدهم الله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال:٢-٤)

فكان هذا الوصف نعمةً من الله على المؤمنين يدخل تحت اسم الأنفال ، لأنَّه يُعرِّف المؤمنين بالمستوى الذي يجب أن يرقَوا إليه . وهو في مقدورهم وله من العواقب الحسنة ما تخبرهم به الآيات . كما أن الإيمان بعد هذه الآيات لم يعد أماني وأوهاماً ومزاعم ، بل عملاً ومشاعرَ صادقةً قابلةً للوصف والتقدير . وفي هذا التعريف نعمةٌ وراحةُ بالٍ لمن يحققه .

المعركة : حكمة الله وهدف المؤمنين : ثم تنتقل السُّورة في فقرتها الثَّالثَّة (٥-٨) إلى المشهد الأول من المعركة . وتمزج الآياتُ بين الحالة النفسية للمؤمنين ورغبتهم بقافلة قريشٍ دون معركةٍ وبين مشاهد الإعداد الإلهي للمعركة ، فالله تعالى أرادها لأمرين : عقابِ المشركين على كفرهم ، وتغيير قيادةِ المجتمع العربي . وقد ابتعد العرب كثيراً عن حالة السواء . فكان حضور عُتاةِ قريشٍ إلى ماء بدر ، أمراً مُدبَّراً ليحقّق الله قدرَه بإصلاح حال الأمة . كان كلّ شيءٍ بترتيبه سبحانه ؛ فلطالما وعد نبيَّه بهذا اليوم ، الذي سماه يومَ الفرقان يومَ يلتقى الجمعان فكان يومُ بدر . وهذه هي النعمةُ الأكبر في حياة الأمَّة بيومٍ كلّه أنفالٌ . ﴿**كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ**﴾ (الأنفال:٥-٨) . وهكذا يأتي وصف موقف المؤمنين من المعركة ، تبريراً لمنطلق السُّورة من موضوع الأنفال ، وتسميتها بالأنفال وليس الغنائم .

الإعداد الإلهي للمعركة : وتستمر السُّورة بسرد ما يثبت أن كلّ العوامل الفاعلة في المعركة كانت نعمةً من الله على المؤمنين . فيبدأ وصف المعركة بمشهد المؤمنين وهم يستغيثون ربّهم (٩) . فينعم عليهم باستجابةٍ مباشرةٍ وينزل ألفاً من الملائكة تشهد المعركة ، تقوم بدورٍ معنوي ، فكأنها تدعم بقوتها الروحانية الروح المعنوية للمؤمنين . ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (الأنفال:٩،١٠) .

ثم تُذكِّرهم الآيات (١١-١٤) أن الله غشَّاهم نعاساً وعندما يستيقظون ينعم عليهم بمطرٍ يثبت به رمل المنطقة تحت أقدامهم ، ويطهرهم من رجس المنام ، فيريحهم نفسيًّا . ثم يُنزل الملائكةَ لترفع معنوياتهم ، ويلقي الله رعباً في قلوب المشركين مما حقّق لهم النصر ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى**

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (الأنفال:١١-١٤).

درسٌ في القتال : ثم تأتي الآيات (١٥-١٩) لتختصر سير المعركة مؤكدةً أن إرادة الله وحده هي التي صنعت النصر وبعد الحدث القويّ البارز الذي عاشه المؤمنون يوم بدرٍ ، يلزم تثبيت فكرته وحكمته في قلوبهم وعقولهم . وما أحوجهم للاستفادة من نعمة ذلك اليوم . لأن عددهم سيبقى أقلَّ من عدد عدوّهم لسنين لاحقات . فكانت الآيات (١٥-١٩) تُرسِّخ في نفوسهم أن النصر من عند الله ، وما عليهم إلا أن يقدموا جهدهم البشري بثباتٍ وإخلاص . فنتائج الحرب عادةً تمتد لما بعد مكان المعركة وزمانها ، لتصنع واقعاً اجتماعيًّا وسياسيًّا جديداً . وهذا لا يكون إلا بإذن الله ووفق خططه القديمة لهذا العالم . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنفال:١٥-١٩)

وننتقل إلى الآية (٤٢) التي تخاطب المؤمنين مباشرةً تشريفاً لهم ، مُذكِّرةً إياهم بتفاصيل المعركة وتحديد مكانها وزمانها بعنايةٍ تليق بخطط الله تعالى ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٤٢) .

ثم تتوجه الآية التالية (٤٣) إلى النبيّ لتذكره بما أراه الله في المنام تحريضاً على القتال ، ودرساً في التَّوجيه المعنوي للأمة في المستقبل ، وتتوجه الآية (٤٤) للمؤمنين بنفس الفكرة تقريباً ، لكن بتحقيق الرؤيا لاحقاً على الأرض فيا لها من نعمٍ وأنفال تترى : ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ

﴿ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الأنفال:٤٣-٤٤). فهو نصرٌ من صنع الله . وما كان ليتحقّق لولا تدخل الله الذي وصفته السُّورة حتى نهاية الآية (٤٤). فهي محض أنفال ؛ ولله وحده حقّ قسمة غنائمها .

وهكذا نخرُج من هذه الفقرات مقتنعين أن كلّ ما أصاب المؤمنين إنما كان بفضل الله . ولم يعد لهم حقّ بوضع قانونٍ لاقتسام الغنائم ؛ بل الله يقسم بينهم نتائج نعمته عليهم . وليكون عملاً مؤسسيًّا لا يخضع لأهواء الناس .

عودة إلى الأنفال ومشاهد من المعركة : تعود بنا الآية (٤١) إلى البداية لتكمل موضوع قسمة الأنفال . وكأنَّ ما سبق من آيات (٢٠-٤٠) كان مقدمةً لتحضير المؤمنين لقبول حكم الله بالأنفال . فيكون الحكمُ نعمةً أخرى ينفل اللهُ بها المؤمنين . ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال:٤١) .

هذا هو حكم الله بالأنفال . وهو نعمةٌ جديدةٌ يستحقّها المؤمنون . لذلك كان شرطها ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال:٤١) ولولا إيمانهم لما استحقّوها . إنها ليست أخذاً من حقّهم وإعطاءً لمن لم يشارك في المعركة . لكنها نعمةٌ جديدةٌ يتطهر بها المجتمع من التحاسد والكراهية ، وينعَم بالأمن وتبادل المودة عندما يعم الخير حتى يصل كلّ فئات الفقراء .

الهجرة النبوية قاعدة الدولة والنصر : ومع الانتصار الأول للمؤمنين لا بد من التطرق لقاعدة الانتصار وهي الهجرة النبوية للمدينة وتأسيسُ الدولة النبوية ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال:٣٠) . وتصف الآية حادثةً من خارج أحداث معركة بدر لكنها معروفةٌ تماماً للمخاطبين . إذ بيتت قريش النية لقتل النبيّ . فنجاه الله منهم وجعل له دولةً ومجتمعاً خيراً منهم . . وهاهو ينتصر عليهم في أول لقاءٍ بين المجتمعين . إن هجرة النبيّ إلى المدينة إحدى أكبر نعم الله على قومه وهي نافلةٌ خالصةٌ من الله .

الأسرى نافلة أخرى : وهو كموضوع الأنفال كان مصدر خلافٍ بين المسلمين ، قبل أن يميل النبيّ لرأي المؤمنين الخاطئ بشأن الأسرى . لذلك بدأت فقرة الأسرى بعتابٍ شديدٍ للرسول وللمؤمنين ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (الأنفال:٦٧-٦٨)

والحكم الوارد في هاتين الآيتين خاصٌّ بمعركة بدر . فقد أثخن الرسول بعدها في الأرض . وعرفت الأمّة قوتَه وهابته .

ثم تتقدم الآيات بنعمها وأنفالها لتسمح للمؤمنين بقبول الفداء الماليِّ أو الماديِّ من الأسرى والأكل منه . وهكذا بدأت السُّورة بقضية الأنفال المثيرة للخلاف وانتهت بقضية أنفال أخرى مختلفٍ على مبدأها . وفي كليهما نعمةٌ ينفلها الله المؤمنين : ﴿ **فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الأنفال:٦٩)

وبما أن المال والمنافع المادية ليست هي الهدف من قتال المسلمين ، بل استعادةَ العرب إلى الله وعودتهم إلى دينهم ، وهو الإسلام وريث الحنيفيَّة فقد وجهت الآيتان (٧٠-٧١) رسول الله لمخاطبة الأسرى ودعوتهم لطاعة الله ، وأن يعدَهم بتعويضهم عن الفداء الذي دفعوه بخير منه؛ ويحذرَهم من المشاركة بقتال ضد النبيّ مرةً أخرى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال: ٧٠-٧١) .

نصائح وتوصيات : وبعد هذه الأنفال وحُكمِ الله بها تُوظِّف السُّورة الحدثَ الرئيسي لتوجه المؤمنين لما يلزمهم لبناء دولةٍ قويةٍ ومجتمعٍ مؤمنٍ متماسكٍ متكافلٍ يحقّق مزيداً من الانتصارت ، حتى يجمع الأمةَ كلّها على الدين ويصنع لها ذكراً . فالآيات (٢٠-٢٢) تُعدُّهم لمرحلةٍ جديدةٍ وانتصاراتٍ قادمةٍ ، وبناء مجتمع منهم على أسسٍ متينةٍ بحيث يستحقّون النصر المستمر ما سمعوا أمر الله واتبعوا هدي رسوله . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ (الأنفال: ٢٠-٢٣)

ثم تأمرهم بطاعة النبيّ وهو يدعوهم لخيرهم ولحياة الكرامة ، وبعدم خيانة الله ورسوله ، وعدم التقصير بواجبهم تجاه إيمانهم وجماعتهم ويحذرهم من المعاصي التي قد تحول بينهم وبين إدراك الخير في طاعة النبيّ . . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٢٤-٢٧)

وينهاهم الله عن الانشغال عن الأمر العام بالأمر الخاص ، كتنمية أموالهم لضمان مستقبل أبنائهم المادي بما يتجاوز حد العدل والاعتدال ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(الأنفال:٢٨،٢٩)

وتستمر الآيات تُبرر تدخلَ الله تعالى بالمعركة ، ومنحَه النصر للمؤمنين على المشركين ، مستحضرةً بعض أفعال المشركين وردودهم الظالمة على النبيّ والقرآن الكريم قبل الهجرة : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال:٣١،٣٢)

وتجعل خروج النبيّ من مكّة حرماناً لها من بركة وجوده ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنفال:٣٣-٣٥). وكذلك ليعلم المؤمنون في المدينة فضلَ وجود النبيّ بينهم وبركةَ الحياة بمعيته . فبفضل وجود النبي بينهم وبفضل جهاد المهاجرين وصبرهم وما نالهم من عذاب في سبيل الله . وبفضل تضحيات الأنصار وإيثارهم إخوانهم المهاجرين وإيثارهم للآخرة على الدنيا

كان نصر بدر وكان التدخل الإلهي . ولا يتكرر هذا النصر وهذا التدخل الإلهي إلا باجتماع كل هذه الظروف . وبما أن ذلك مستحيل ولو من زاوية اختتام النبوة بسيدنا محمد عليه السلام ، فيجب تذكير العاملين في مجال الدعوات الدينية أن بدر حادثة غير قابلة للتكرار . أقول هذا كي لا تتكرر أوهام ضارة بل قاتلة يعيشها بعض قادة الحركات الدينية وأعضاؤها .

وتتضمن السُّورة توجيهاتٍ للنبي والمؤمنين بضرورة الاستعداد الدائم للقتال وإظهار قوة الدولة لتخويف الأعداء الخارجيين والمنافقين في الداخل . كما توجه النبيّ بشأن العلاقة مع المجتمعات الأخرى والتصرف المناسب في حال المعاهدات مع الجماعات الأخرى . وتنظم العلاقات داخل المجتمع بما يضمن استمرار التآلف بين أفراد المجتمع وحفظ حدود المجتمع من أن يخترقها عدوّ أو منافقٌ . وكلّ ما في السُّورة أنفالٌ لا زمةٌ لبناء مجتمعٍ قويٍ عزيزٍ منتصر .

ونظراً لوضوح العلاقة بين عنوان السُّورة وموضوعها نكتفي بهذا القدر من عرض آياتها .

* * *

سورة التَّوبة

اسمها التَّوبة ليس لها سواه . وإن نافست كلمة «براءة» الاسمَ الحقيقي لأنها الكلمة الأولى في السُّورة . حتى في المراجع العلمية سماها البعض «براءة» . وليس الاسم نقطةَ الخلاف الوحيدة بشأنها فقد افتتحت بدون آية «بسم الله الرحمن الرحيم» التي حظيت بها كلّ سور القرآن إلاَّها . حتى ظن بعض علماء القرآن أنها ليست سورةً قائمةً بذاتها بل استمراراً لسورة الأنفال . ولم يلاحظ أيٌّ من المفسرين وعلماء القرآن الفرق الكبير بين موضوعي السورتين . فالأنفال لذكر منح الله تعالى للمجتمع المؤمن ، بينما التَّوبةُ معنيةٌ باستعادة العرب إلى الإسلام بصفته وريث الحنيفيَّة دين أبيهم إبراهيم ، ولأهدافٍ أخرى تدخل تحت اسم التَّوبة بمعنى الرجوع إلى الأصل .

كما لم يلاحظ المفسرون اختلاف أسلوبها البنائي عن نظيره في الأنفال . فقد تنزلت سورة الأنفال بأسلوبٍ أقرب إلى أسلوب مقال المشاهدة ، وقد أثبتنا هذا عند الحديث عنها . ولكن سورة التَّوبة تنزلت على هيئة بيانٍ سياسيٍ شديد اللهجة . استقصى كلّ أسباب القضية التي نزل من أجلها ، وبنبرةٍ خطابيةٍ عاليةٍ تصل حد الغضب أحياناً . وجاءت السُّورة بناءً محكماً ، لكلّ آيةٍ فيه مكانها ومكانتها المعادلة لسواها . وهو ما لا تتمتع بمثله مكونات المقال أيٍّ كان نوعه .

رسالة السُّورة هي التَّوبة بمعنى الرجوع إلى الأصل والصواب . وتبدأ السُّورة بإنذار المشركين ليعودوا إلى دينهم الذي ارتضاه لهم وهو الحنيفيَّة وبنسخته الجديدة وهي الإسلام . لذلك اعتبِرت الآية (١١) عودتهم للإسلام مجرد توبةٍ ﴿ **فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ** ﴾ (التوبة:١١) وتُفصِّلُ بدايةُ السُّورة بتعليماتٍ محددةٍ موعدَ تنفيذ استتابة المشركين . وفي السُّورة إرجاعُ فواصل الزَّمن إلى طبيعتها كيوم خلقها الله . وتُنهي إلى الأبد أُلعوبةَ النسيء التي اخترعها المشركون . فالأشهر عند الله اثنا عشر شهراً قمريًّا لا يجوز العبثُ بها أو تغيير مواعيدها أو تأخير بعضها عن موعده أو تقديمه . وهذا يتفق مع روح التَّوبة من

وجهين : الأول إعادةُ الأمر إلى أصله ، والثَّاني إلغاءُ تقاليد الشرك والتلاعب البشري بالزَّمن .

ثم تلتفت السُّورة إلى فئتين تعيشان مع المشركين يحتاجان إلى التَّوبة والعودة إلى الأصل الذي ارتضاه الله لبني إسرائيل ، وهما اليهود والنصارى منهم . فطلبت منهم العودة إلى العقيدة الحقّة ، وهي التَّوحيد الخالص لله تعالى ، والالتزامُ بالكتب المنزلة عليهم . وأداءُ الحقّ المالي للدولة مقابل خدماتها ، والتزام رجال الدين (خصوصا النصارى) بوظيفتهم الدينية دون تلاعبٍ ، أو استغلالٍ للوظيفة ولمكانة الدين ، للحصول على مكاسب شخصيةٍ . فإن استقاموا وقاموا بواجبهم كمواطنين في الدولة الإسلامية الجديدة معترفين بقيادتها فلا عدوان عليهم .

وتعرض السُّورة حال فئاتٍ من ضِعاف الإيمان ، انطلاقاً من أحداثٍ عاشها المجتمع ، ليعودوا إلى الله ويتوبوا كالمتخلفين عن غزوة العسرة . ونعلمُ أن في المدينة منافقين يعلمهم الله ولكنهم يلتزمون بواجباتهم كمواطنين على مضض . فيُتركون لنفاقهم ولا يُحاربون . وهنا نقطة يلزم إبرازُها خصوصاً في هذا الزَّمن الذي تضيع فيه بعض حقائق الدين . فقتال المشركين لم يكن لكي يؤمنوا ، فالإيمان لا يكون بالسيف ، لكن كي يلتزموا بحقّ المواطنة في دولة الإسلام التي كان الله يبنيها بقيادة رسوله . ولم يكن الهدف أيضاً قتلَ المشركين بل استتابتَهم . فمن تاب صادقاً فله الأجرُ ، ومن تظاهر فله الأمن وعند الله حسابه . فهو سبحانه أدرى بما تخفي الصدور . ثم تكون بقية السُّورة لإعداد المؤمنين لتنفيذ أمر الله باستتابة مشركي الجزيرة . وتأتي غزوةُ تبوك ، وكانت تبوك جزءاً من بلاد الشام ، لتقول للمؤمنين إن تحريرَ بلاد العرب جزءٌ من وظيفتكم ، بعد تمكين الدين والدولة في الجزيرة جميعاً . فالقتال لبناء الدولة يكون من القريب إلى الذي يليه . ولا يكون لأفرادٍ ولا لمن يسالم ولو خوفاً ، بل للمجموعات والقبائل ، حتى تعلنَ توبتَها وعودتَها إلى الإسلام ، وتدفعَ الزَّكاة وتقيمَ الصَّلاة . ولم تنس السُّورة حكم من يتآمر على المجتمع كأصحابِ مسجد الضرار فهؤلاء لا جدالَ لهم ولا تسامحَ معهم . وتُختتم السُّورة بتذكير الناس بفضل الله عليهم ، إذ يُرسِل لهم رسولاً منهم رحيماً بهم حريصاً عليهم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ . فهو ليس من قوم آخرين !!

مطالعات حول السُّورة :

لخصها الفيروزآبادي في البصائر على طريقته بحوالي خمسين موضوعاً وذكر لها من الأسماء ثمانية أَسماء : «الأَوّل : براءَة ؛ لافتتاحها بها ، الثَّانى : سورة التَّوبة لكثرة ذكر التَّوبة ؛ ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ (التوبة:١١٨) ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ (التوبة:١١٧) الثَّالثَّ : الفاضحة ؛ لأَنَّ المنافقين فيها افتَضَحوا عند نزولها . الرّابع : المبعثِرة ؛ لأَنَّها تبعثِر عن أَسرار المنافقين . وهذان الاسمان رُويا عن ابن عباس . الخامس : المُقَشْقِشَة ؛ لأَنَّها تبرئُ المؤمن ، فتنظِّفه من النفاق وهذا عن ابن عمر . السّادس : البَحُوث ؛ لأَنَّها تَبْحَث عن نفاق المنافقين . وهذا عن أَبى أَيُّوب الأَنصارى . السابع : سورة العذاب ؛ لما فيها من انعقاد الكفَّار بالعذاب مرّة بعد أخرى «﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾ (التوبة:١٠١) الثَّامن : الحافرة ؛ لأَنَّها تحفر قلوب أَهل النِّفاق بمثل قوله : ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ ﴾ (التوبة:١١٠)

محمد رشيد رضا في تفسير المنار الذي أجازه محمد عبده يتحدث عنها من زاوية علاقتها بالأنفال : «وأما التناسب بينها وبين ما قبلها فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض فهي كالمتممة لسورة الأنفال».

الطباطبائي في الميزان يقول : سمّوها سورة التَّوبة أو سورة البراءة ، وقد اختلفوا في كونها سورة مستقلة أو جزء من سورة الأنفال ، واختلاف المفسرين في ذلك ينتهي إلى اختلاف الصحابة ثم التابعين فيه ، وقد اختلف في ذلك الحديث عن أئمة أهل البيت (ع) غير أن الأرجح بحسب الصناعة ما يدل من حديثهم على أنها ملحقة بسورة الأنفال».

محمد الغزالي في كتابه «التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم» يسميها سورة براءة في ما كتب عنها ولم يذكرها باسم سورة التَّوبة إلا في عنوان الفصل المخصص لها . ويقول عنها : «وقد جاءت سورة براءة لتغربل المجتمع بقوة وتنفي خبثه إلى غير رجعة . فاستنكرت السُّورة كلّ تقاعس عن القتال . . . ورفضت الأعذار الكاذبة التي يختلقها الجبناء والكسالى ..»

وهكذا نرى عجز المفسرين وعلماء القرآن عن قراءة السُّورة كموضوع واحد متصل ، وضياعهم بين آياتها كجمل غير متصلة ، وعدم قدرتهم على اكتشاف الخيط الذي يربط كلّ آياتها معا ويَعقِدُه حول عنوانها السماوي الوحيد وهو التَّوبة . نتيجة

كلّ أسباب الضياع هذه وضعوا لها عدة أسماء . حتى تغلب أحد أسمائها المُفتريات على الاسم الحقيقي .

دراسة السُّورة على ضوء عنوانها :

عنوانها في المصحف هو « التَّوبة » وليس « براءة » ولا أيُّ اسمٍ آخر . ونظراً للحضور الكبير لكلمة براءة ، الكلمة الأولى في السُّورة ، وتفضيلها على « التَّوبة » عند كثيرٍ من علماء الأمة سنركز في هذا الفصل على ما يثبت أن اسمها الحقيقي « التَّوبة » . وأن اسم « براءة » لا يتفق مع ما جاء فيها . ولتكون هذه الظاهرة دليلاً آخر على صدق مصدر القرآن الإلهي ، وعلى وفاء الله بوعده بحفظ كتابه كلمة كلمة حتى العنوان الذي يشكل قاعدة السُّورة ومحورها . وليس غير الله سبحانه بقادرٍ على تسمية السُّورة بهذا الاسم ، الذي خفي على معظم علماء الأمة . وقد حفظ الله اسم السُّورة كما أنزله رغم توجه علماء الأمة لاسمٍ آخر هو براءة .

لذلك سيختلف أسلوبنا في دراسة هذه السُّورة عما سلف من السور . فسنعرض فقرات السُّورة ونحللها على ضوء الكلمتين : التَّوبة وبراءة ، لنرى تحت أي العناوين تؤدي الفقرة وظيفتها ويتضح الغرض منها .

ونبدأ بالكلمتين نحدد معنى كلّ منهما على ضوء معاجم اللغة الأكثر دقة :

التَّوبة من التَّوب . وعن معنى هذه المادة يقول الرازي في مقاييس اللغة : « التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع . يُقال تاب من ذنبه ، أي رجع عنه ، ويتوب إلى الله توبة ومتاباً ، فهو تائب ».

والبراءة من البرأ ؛ وجاء في المقاييس : « فأما الباء والراء والهمزة فأصلان إليهما ترجع فروع الباب أحدهما الخلق ، . . . . والأصل الآخر : التباعد من الشيء ومزايلته ».

والمزايلة تعني امتياز شيءٍ عن شيءٍ أو طائفةٍ من جماعةٍ بحيث يسهل الفصل بينهما . ومن الواضح أن الذين ظنوا اسم السُّورة براءة لم يقصدوا المعنى الأول وهو الخَلْقِ فيبقى الثَّاني وهو المزايلة .

وبذا علينا أن نعرض آيات السُّورة على حالتي الرجوع إلى أصل والمزايلة بين فئتين .

إعلان الحرب على الشرك : هذا هو موضوع الفقرة الأولى التي تمتد حتى نهاية الآية الثَّامنة والعشرين وتتجزأ إلى عدة أجزاء ؛ الأول ينتهي بنهاية الآية السادسة وفيه إعلان الحرب الشاملة على الشرك :

﴿ **بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ (التوبة: ١-٦)

قبل هذه السُّورة وبيانها الحاسم كان المؤمنون والمشركون يعيشون معاً في معظم أجزاء الجزيرة . وأن كلا الفئتين تعظم البيت وتقدم طقوس العبادة فيه خصوصاً الحجّ والعمرة والطواف والاعتكاف . فأنزل الله هذه السُّورة ليمنع المشركين من ممارسة عبادتهم في البيت لما تتضمن من شركٍ وانحرافٍ عن الأصل الذي كانت عليه في الحنيفيَّة دين العرب السابق . واعتبرت تحولهم إلى الإسلام وأداء نفس العبادات بِنية طاعة الله والنبيّ توبةً مقبولةً . فدخولهم في الدين الجديد كان توبةً من الشرك لأن الدين الجديد لم يكن غير تجديدٍ للحنيفية التي اختارها الله لهم بواسطة أبيهم إبراهيم وابنِه إسماعيل .

ورغم الأمر بقتالهم لم تأمر الآيات كما نرى بمفارقةٍ ومزايلةٍ بل بمعايشة . فالتبرؤ المذكور في الآيات هو تبرؤ من الشرك وليس من الناس فإن تخلوا عن شركهم وتابوا فهم والمؤمنون أمةٌ واحدةٌ .

وهكذا فهذه الفقرة رغم حدة لهجتها وأمرها بقتال المشركين لا تريد منهم غير التَّوبة . ولم تأمر بمفاصلتهم أو مقاطعتهم إن تابوا ؛ فهو قتالٌ لردهم إلى دينهم . وقد يَساء فهم قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ**

وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة:٥)

فيظن السامع أن المطلوبَ قتل المشركين وإماتَتهم خصوصاً مع قوة لفظة « فاقتلوهم » . ولكن استمرار الأوامر المطلوبة بعد لفظة « فاقتلوهم » تؤكد أن المعنى هنا ليس القتل بمعنى الإماتة . إنما هو الهجوم عليهم بعدد كبير من المقاتلين ، لإرعابهم وإشعارهم بالذل والضعف أمام قوة المسلمين ، ليعجل ذلك بإيقاظ ضميرهم ودفعهم للاعتراف بالحقّ ، والتَّوبة من المكابرة . فمعنى كلمة القتل في اللغة كما جاء في مقاييس اللغة للرازي : « القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة .» ويواصل الرازي شرح معاني الكلمة فيقول : « ويقال تقتلت الجارية للرجل حتى عشقها كأنها خضعت له» ثم يروي قول شاعر :

« تقتلت لي حتى إذا ما قتلتني تنسكت ما هذا بفعل النواسك »

فالمرأة المخاطبة تقتلت له حتى قتلته دون أن يموت أو تموت هي .

ونخلص من هذا إلى أن المقصود بأوامر هذه الفقرة إخضاعُ المشركين ليتوبوا ، وليس لمقاطعتهم ومزايلتهم . ولو كان كذلك لما لزم قتالهم ، بل لتُرك كلّ قبيل في مكانه ، ولاكتفى سبحانه بحرمانهم من الوصول للبيت العتيق ، وهو أهون على المؤمنين من تلك الحرب الضروس . والأوامرُ هنا تشمل كلّ المشركين في الجزيرة لاستعادتهم إلى التَّوحيد الذي كانوا عليه قبل شركهم . ولا يشمل البيان أحداً سوى هذه الفئة . ولم تسمح السُّورة لهم بالبقاء على الشرك . ومرةً أخرى نقول هذا حكمٌ خاصٌّ بالمشركين الذين كانوا على بقية حنيفية إبراهيم رغم شركهم . وبالمحصلة فالأمر بهذه الآيات يسعى لتوحيد الأمة على دينها وليس تقسيمها إلى فئتين أو دينين .

تحريض المؤمنين على القتال : لا مناص من وصف الحرب هنا بأنها حرب أهلية ، وإن كانت من أجل العقيدة . إنها حرب بين أقارب : أشقاء وأبناء عمومةٍ وخؤولةٍ وذوي نسبٍ وصهر . ولعلاقات القربى والصداقة مكانةٌ بين العرب تفوق علاقات الدين والثَّقافة أحياناً . فيلزم تحريض المؤمنين على القتال لأنهم لم يُبدوا حماساً كافياً له . فكان الجزء الثَّاني من الفقرة (الآيات ٧-١٥) مخصصاً لهذا الغرض ، ولإزالة معيقات القتال النفسية عند المؤمنين .

بدأت الآية (٧) باستنكار وجود عهد للمشركين عند الله ، وبالتالي عند المؤمنين إلا الملتزمين بعهدهم منهم . ثم تُذكِّرهم الآية الثَّامنة بما كان من المشركين في معارك سابقةٍ كبدرٍ وأحدٍ والأحزاب . وتُحذرهم من حلاوة لسانهم عند الحديث بعيداً عن ساحة القتال . وتُذَكِّر الآية التاسعة المؤمنين بمحاربة قريشٍ للنبي والإسلام بما لديها من قوةٍ ومالٍ وجاهٍ بين القبائل . لتعيد الآيةُ العاشرةُ ذكرَ قسوة قلوب المشركين تجاه المؤمنين ، وتنكيلِهم بهم عندما تمكنوا من ذلك . ومع هذا تقول الآيتان (١١-١٢) للمؤمنين إن أمر القتال هذا ليس مطلقاً فإن تاب المشركون وعادوا إلى الله فلا تقاتلوهم . وإن نكثوا ما يتفقون عليه معكم فلا بد من قتالهم ، ولا تقبلوا منهم عهداً بعد ذلك النكث غير الدخول في دين الله والتَّوبةِ من الشرك . ثم ترتفع درجة التحريض في الآيات (١٣-١٥) مُذكرة بما فعله المشركون بالنبيّ قبيل الهجرة ، وببدئهم قتال المؤمنين يوم بدرٍ وتعذيبهم للمؤمنين قبلَ الهجرة . وكلّ واحدٍ من هذه الأسباب مبررٌ كاف لقتالهم !

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:٧-١٤)

وفي ختام هذه المجموعة من الفقرة الأولى نُذكر أن الهدف من القتال هو التَّوبة من الشرك ، لتتخلص الجزيرة لعقيدة التَّوحيد ، وليس لمقاطعة المشركين ومدابرتهم ، بل لجلبهم إلى دائرة التَّوحيد والإيمان بالله . فالتَّوبة هنا هي القصد النهائي وليس المقاطعة بين فئات الأمة وتبرؤ بعضها من بعض .

في المجموعة الثَّالثَّة (١٦-٢٤) تنضم عناصرُ جديدةٌ لتحريض المؤمنين على قتال المشركين ، وهو تهديد المؤمنين بإيمانهم . فالقتال هنا له غرض آخر هو اختبار المؤمنين ، ومعرفة مدى تمسكهم بعقيدتهم وقدرتهم على التضحية في سبيل الله .

ومن عناصر الإقناع الأخرى في هذه المجموعة من الآيات : عدم أحقّية المشركين برعاية البيت العتيق وقد كفروا بالله وبنبيِّه. وقصر هذا الحقّ على المؤمنين الذين يعبدون الله كما يأمر سبحانه . ثم يلفت انتباهَ المؤمنين إلى أن سقاية الحجيج وعمارة المسجد لا تعادل الإيمان بالله واليوم الآخر وجهادٍ في سبيله . فلا يكن لهما تقديرٌ عند المؤمنين! فالأولوية بإعمار بيت الله المحرم تكون لمن آمن بالله مصدقاً رسوله مؤدياً ما يؤمر به في سبيل الله . كما تذكرهم الآيات بمنزلة المجاهدين في سبيل الله ناهيةً إياهم عن تفضيل علاقة الدم على الجهاد في سبيل الله . بل تهددهم الآية (٢٤) بغضب الله وبتسميتهم فاسقين إن آثروا علاقة القربى اللصيقة على العلاقة بالله :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ

﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:١٦-٢٤)

وبطاعتهم لله استطاعوا استتابة الأمة وتوحيدها . ولو آثروا صلة القربى على أمر الله لبقيت الأمةُ متفرقة .

وفي المجموعة الأخيرة من الفقرة الأولى (٢٥-٢٨) تذكيرٌ للمؤمنين أن معظم انتصاراتهم كانت نافلةً من الله وليس بجهدهم الخالص . وتأتي الآية (٢٥) بمَثَلٍ من غزوة حُنين التي أوشكت أن تنتهي بهزيمة المؤمنين إذ أعجبتهم قوتهم . فتداركتهم رحمة الله إكراماً للنبيِّ وللخيرة من المؤمنين ، وأنزل الله ملائكته ليتغير مسارُ المعركة لصالح المؤمنين . وتنتهي الفقرةُ بموضوعها الذي بدأت به واصفةً المشركين بأبشع وصفٍ لإنسان ، كي يقتنع المؤمنون أن المشركين لا يستحقّون بنجاستهم دخول حرم الله المقدس الطاهر ، ومُطَمْئِنةً المؤمنين على رزقهم الذي قد ينقص بسبب حرمان المشركين من دخول المسجد الحرام . وفي العادة فإن حجّةَ الرزق هي أولُ ما يفكر به ضِعاف الإيمان بمثل هذه المناسبة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٢٨). وقد يظن أحدٌ أن في هذه الآية شيءٌ من البراءة بمعنى استبعاد المشركين وفصل العرب إلى فئتين . ولكن عندما نتذكر أن بقاء الشرك ممنوعٌ على العرب حسب السُّورة تنتهي هذه الحجّة . كما أن رسوخ قدسية البيت في نفوس المشركين ستدفعهم للانضمام إلى المؤمنين .

توبة أهل الكتاب : تخصص السُّورة فقرتها الثَّانية (٢٩-٣٥) لأهل الكتاب في الجزيرة. وتحدد المطلوب منهم ليكونوا جزءاً من المجتمع الجديد بقيادته الإسلامية. والمقصود بأهل الكتاب هنا كما في القرآن كلّه بنو إسرائيل من يهود ونصارى وصابئة . وليس سواهم إلا من اختلط بهم من العرب قبل الإسلام . وإذا كانت عبارة أهل الكتاب قد تتيح للقارئ أن يفهم أنهم من اعتنق دين الكتاب ، فإن الصفة الأخرى لهم وهي «الذين أوتوا الكتاب» لا تسمح أن تشمل غير من خوطبوا بالكتاب ، وهم بنو إسرائيل ، فلهم وحدهم كانت التَّوراة ولهم وحدهم أُرسل عيسى ابن مريم حسب القرآن والإنجيل ، وبكتابهم (التَّوراة) وعظ يحيى بن زكريا الذي

انتسب إليه الصابئة . ويؤكد القرآن أن هذه الكتب أوتيت لبني إسرائيل فقط . فالمقصود بالآيات (٢٩-٣٥) بنو إسرائيل فقط ما داموا يعيشون على الأرض العربيَّة . ولا تنطبق أحكامها على سواهم . فماذا تريد الآيات منهم؟

أن يلتزموا بكتابهم المؤيد بالقرآن ، وأن يعطوا الجزية كعلامةٍ على اعترافهم بقيادة المجتمع وطاعتهم لها ؛ تماماً كما يدفع أي إنسانٍ الضريبةَ المستحقّة للدولة التي يعيش بها ، حتى لو لم يكن من مواطنيها الأصليين .

ولكي يدفع المؤمنين لقتال من يرفض الاعتراف بالوضع الجديد ، ذكرت الآيات أكبر انحرافاتهم كزعم بعضهم أن الله ولد ، وسوء استغلال رجال الدين عندهم لوظيفتهم في التحليل والتحريم ، وجمعُ رجالِ الدين منهم المالَ لأنفسهم باسم شعائر الدين .

فهي إذاً توبةٌ من انحرافاتٍ ، وعودةٌ إلى دينهم كما جاء من عند الله ، واعترافٌ بالدولة الإسلامية الجديدة . وليست دعوةً للبراءة منهم أو مقاطعتهم . وما كان أسهل ذلك تلك الأيام . فطردهم من الجزيرة أو عزلهم في منطقة منها ، لا يحتاج إلى أكثر من أمر يصدر عن النبيّ . لكن الله يريد بقاءهم مع المسلمين وإصلاح علاقتهم بالله . وهذا ما يدخل في باب التَّوبة ويليق أن يناقش في سورةٍ اسمها التَّوبة وليس براءة . فلنقرأ الآيات الخاصة بهذا الموضوع :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ

﴿ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ (التوبة:٢٩-٣٥)

وقبل مغادرة هذه الفقرة يجدر الحديث عن نقطتين يعترض عليهما أهل الكتاب حتى هذه الأيام . فاليهود يزعمون أنهم لم يقولوا أن عُزير ابن الله ولا أي من مذاهبهم . ولكن الله أعلم منهم فقد ضاع كثيرٌ من تراثهم في السبي . كما أنهم لا ينكرون المكانة المميزة لعُزير الذي أعاد كتابة التَّوراة وبنى أسوار القدس . ولا يستطيعون أن ينكروا أن اختلافاً شديداً وغموضاً كبيراً يحيط بشخصه واسمه . فبعض المراجع تسميه (عزراياهو أي عزير الله) ترى هل يعادل هذا قولهم «عزير ابن الله».

ويتحرج نصارى العرب من كلمة «صاغرين» المرافقة لدفع الجزية . والحقيقة أن كلّ مواطنٍ يجب أن يكون صاغراً أمام سلطة بلاده ، وهو يدفع الحقّ للدولة ضريبةً أو زكاةً . فهو لا يمن عليها ولا يتصدق بل يؤدي واجبه صاغراً مطيعاً . وعكس الصغار الكبر . فهل يحقّ لأحد أن يتكبر على الدولة التي هي رمز المجتمع كلّه وعنوان سيادته ؟

التَّوبة من النسيء والرجوع إلى الأصل : وتعود السُّورة بفقرتها الثَّالثة إلى العرب لتذكرهم بأصل دينهم فيما يتعلق بالزَّمن . وتأمرهم بالرجوع عما حرفوا من أحكام الزَّمان بالآيتين (٣٦-٣٧). أما الأولى فانطلقت من الموعد الذي حددته بداية السُّورة لمنع المشركين من التعبد في المسجد الحرام . مثبتةً التقاليد الحنيفيَّة للزمن ؛ ففي العام أربعة أشهر حرم لا يتقاتل فيها الناس . وفي الآية الثَّانية أمرٌ بالعودة عما حرفه المشركون بشأن الأشهر الحرم . فنهتهم عن عادة نسء الشهر وتأجيله إلى شهرٍ آخر . ووصفت عملهم بتأخير الشهر الحرام عن زمنه الطبيعي زيادةً في الكفر ، بإشارة إلى كفرهم الأكبر وهو الشرك . فموضوع هذه الفقرة موضوع توبةٍ بمعنى الرجوع إلى الأصل ، والتراجع عن الخطأ وعن التلاعب بالزَّمن . ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةًۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾
(التوبة:٣٦،٣٧)

تأطير ما سبق من السُّورة : إذا شئنا أن نضع ما سبق من أوامر السُّورة في إطارٍ واحدٍ سنجد أنها بدعواتها للتوبات الثَّلاث إنما تشكل أساساً لتوحيد الأمَّة ، وإقامة دولةٍ لها انطلاقاً من الجزيرة . ففي الأمر الأول تطلب توبةَ المشركين من شركهم والرجوع إلى دين الله الذي جاءهم بواسطة إبراهيم وإسماعيل . ثم تطلب من اليهود والنصارى من سكان الجزيرة الذين يتكلمون لغتها العودةَ إلى عقيدتهم التي جاءتهم بواسطة أنبيائهم ، والتَّوبةَ مما أضافوه لعقائدهم مما لم يكن موجوداً في البداية . كما تدعوهم لإصلاح المؤسسة الدينية فلا تتجاوز حدودها بالتشريع ولا تعتدي على حقوق رعاياها ، والاعتراف بالقيادة الجديدة للمجتمع وذلك بدفع الجزية لها والخضوع لسلطتها .

ثم تلتفت إلى المسلمين وتأمرهم بإصلاح ما أفسده قومهم من ضوابط الزَّمن ومواقع الأشهر الحرم .

والفئات المخاطبة هنا (المشركون واليهود والنصارى والمسلمون) هم كلّ الناطقين بالعربيَّة تلك الأيام .

ماذا يمكن أن يجمع هذه الفئات ، ويخاطبها بهذه الأمور الكلّية غيرُ مشروع توحيد الأمة ، وإقامة دولةٍ قوميةٍ لها؟ وهذا ما جعلنا نقول : إن القرآن وهو يتنزل منجماً أول مرةٍ إنما كان «مشروعاً قوميًّا سياسيًّا» .

ولكن هل يكفي ما نزل من السُّورة حتى الآن لتنفيذ هذا المشروع الكبير بدون قاعدةٍ إيمانيةٍ صلبةٍ بقدر ما هي صادقة؟ لا . ولذلك كانت بقية السُّورة .

تقوية الطليعة لتحقيق التَّوبة : نقصد بالطليعة قاعدةَ الإسلام من المؤمنين في بيضة الإسلام وعاصمة النبيّ وهي المدينة . فمُعظم الآيات الباقية من السُّورة موجهةٌ للمؤمنين من أهل المدينة تحضهم على الالتزام بأوامر الله وقيم الإسلام ، وتحذرهم من المنافقين الذين يعيشون بينهم . بل تحذرهم من الكسل والعجز والتقصير ، وبقية أخلاق الضعف التي قد تحيل المؤمن منافقاً . وتندد السُّورة بمنافقي المدينة لعلهم يتوبون ويعودون إلى دائرة الإيمان التي دخلوها ثم تكاسلوا عن الالتزام بشروطها ، أو تظاهروا بدخولها دون إيمان . وتحارب بشدة الذين يتظاهرون بالإسلام ويعملون على تقويضه من سكان المدينة . وذلك لتتمكن الطليعة من تنفيذ العمل الصعب الذي كلّفها الله به ، وهو استتابة المشركين وإرجاع أهل الكتاب إلى دينهم الحقّ ،

وتوحيد الأمة في دولة . فأدوات الإصلاح يجب أن تكون صالحةً ونظيفةً قدر الإمكان .

ومن حيث الزَّمان تنزلت معظم الآيات بعد فتح مكّة وبعد غزوة حنين وبعد غزوة العسرة ، التي وصلوا بها الجزء الجنوبي من بلاد الشام . وللعلم فإن غزوة العسرة التي حازت نصيب الأسد من بقية السُّورة ، لم يشارك بها إلا سكانُ العاصمة وضواحيها من القرى والبوادي ، كما يفهم من الآيات التي سنعرضها بالتفصيل . فالمؤمنون من أهل المدينة (المهاجرون والأنصار) هم قاعدة الأمة التي ربّاها الله تعالى بآيات القرآن على مهلٍ ، لتتم إرادته سبحانه باستعادة العرب وإقامةِ دولةٍ لهم .

تهديدٌ شديدٌ للمؤمنين : نعم! هذا ما يمكن أن توصف به الآيات (٣٨-٤١) الموجهة للمؤمنين تلومهم على تراخيهم في تنفيذ أمر الله لهم بالجهاد : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾

(التوبة:٣٨-٤١)

فهي كما نرى تهددهم بالعذاب وبصرفهم من دائرة الإيمان واختيار سواهم . فكأنها تقول لهم : إن الله شرفكم بقبولكم مؤمنين . كما تؤكد لهم أن الله يكرمهم ويشرفهم بطلب الجهاد والمشاركة بتحقيق إرادته . وهو قادرٌ سبحانه على العمل بدونهم كما نصر نبيَّه في حادث الهجرة . وتُختَم الآيات بمخاطبتهم بالنصيحة الحازمة : انفروا خفافاً وثقالاً . . . إشارة إلى أنهم يستحقّون النداء المباشر وأنهم سيطيعون نبيَّهم بالتَّوجه إلى الله مجاهدين تائبين من كسلهم ، ومن رغبتهم بالحياة السهلة . فهي توبةٌ بوجه من الوجوه . والعلامات الزَّمنية الموجودة في الآيات تدل

على أن هذه الآيات خاصةٌ بمن أُنزلت إليهم من معاصري النبيّ . ولايحقّ لأحدٍ غيرهم أن يدعي أنها نداءٌ له فيقاتل الناس على أساسها .

أسباب الانزلاق من الإيمان إلى النفاق .

جولة من ٢٩ آيةً تستعرض الأفعال التي تنقل فاعلها من الإيمان إلى النفاق تحذيراً لمن لم يبتعد بعد ويُخشى عليه ، واستعادةً لمن وقع في وهدة النفاق ويمكن استعادته . فهي دعواتٌ للتوبة حيث تلزم وتحذيرٌ من فعلٍ لا يكون بعده توبة .

فالآيات (٤٢-٤٨) تُظهر الكسل وضعف الهمة كسبب رئيسي للانزلاق إلى منزلة النفاق . بينما تشير الآيات (٤٩-٥٧) إلى فئةٍ منحرفةٍ خلقيًّا ، اعتادت الفاحشة فحرمت نفسها من الجهاد في سبيل الله ، وارتكست في النفاق . وتعرض الآيات (٥٨-٦٠) منافقين يلمزون النبيّ بتوزيع الصدقات ، فإن أُعطوا منها رضَوا وإذا لم يُعطوا منها يسخطون . فهم يعيشون مثال النفاق الأصليِّ . والآيات (٦١-٦٦) تشير إلى مثلٍ من المنافقين شائعٍ في كلّ المجتمعات . إنهم المستهزئون لغير سببٍ حقيقي . وهم ثرثارون مزَّاحون يختبئون وراء فكرة المزاح إذا عوتبوا . وتعزو الآيتان (٦٩-٧٠) سبب نفاق بعضهم إلى حب المتعة بالمال المتوفر لديهم .

ثم تأتي الآيتان (٧١-٧٢) بالوجه المقابل للنفاق وهو الإيمان . فتصفانه وصفاً دقيقاً ، وتذكران مصير المؤمنين السعيد في الجنة . وتُختَم الجولة كلّها بآيتين موجهتين للنبي تفتحان باب التَّوبة لمن يستطيع من المنافقين : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ (التوبة:٧٣-٧٤) وبذا تكون التَّوبة هي الغرض النهائي لفقرة النفاق التي بدأت بالآية (٤٢) . وواضح من نص الآيتين أن الجهاد المطلوب في هذه الآيات ليس قتالاً بل دعوةً بأسلوبٍ شديدٍ نسبيًّا لا يتجاوز حد مصارحة المنافقين وضعفاء الإيمان بحالهم ليعودوا إلى الله .

النفاق الذي لا تقبل معه التَّوبة : بعد الحملة المركزة لاستعادة من يمكن استعادته من منافقي المدينة وكفارها تنتقل الآيات (٧٥-٨٠) إلى درجة شديدة الانحدار من النفاق . انحدر أصحابها إلى حيث لا يستطيعون عودة ، ولا تقبل منهم توبة . لأنهم كانوا على درجة من الإيمان فأنعم الله عليهم بدعائهم . فلما أغناهم الله من فضله بخلوا به ، وأداروا ظهورهم لجماعة المؤمنين : ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾

(التوبة:٧٥-٨٠)

فهذه فئةٌ فقدت منزلتها نهائيًّا عند الله بسبب البخل وتفضيل المال على مرضاة الله . وتتحدث مجموعة الآيات التالية (٨١-٨٥) عن فئةٍ أخرى من المنافقين أركسها الجبن والبخل معاً يزينهما شهوات الجسد والنفس :

﴿ **فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ** ﴾ (التوبة:٨١-٨٥).

تحذير : وقد يقول قائل ما دامت هاتان المجموعتان من الآيات لم تنزلا من أجل استتابة أحدٍ ، بل أكدتا عدم قبول توبة الفئتين الموصوفتين بهما ، فلماذا وردتا في سورة التَّوبة؟ وجواب هذا السؤال أن هذه الآيات تأتي لتحذير المسلمين من

الوقوع بمثل ما وقعت به الفئتان وهو البخل بالمال والنفس على الأمة وفي سبيل الله والوصول إلى حالٍ لا تقبل معه توبةٌ ؛ ليبقى المخاطبون في دائرة الإيمان ، أو على الأقل في موقعٍ يقدرون معه على التَّوبة . وهذا هو أسلوب القرآن بطرح مواضيعه . وتلخص الآيات (٨٦-٨٩) موقف الفئتين : المؤمنين والمنافقين ليكون الناس على بينة من أمرهم : ﴿ **وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴾

(التوبة:٨٦-٨٩).

وبذا تعمل الآيات الأربع معاً ومن جهتين متقابلتين لحفظ المجتمع على طريق الإيمان والجهاد لتحقيق أهداف السُّورة كبيانٍ سياسيٍّ واجب التنفيذ .

مثل من غزوة العسرة : ينتقل النص الشريف إلى مثلٍ من حدثٍ قريبٍ هو غزوة العسرة . وتَستعرِض فيه الآيات (٩٠-١٠٦) مواقف المسلمين من الغزوة ذات الظروف الصعبة . فوجهت لوماً شديداً للمتخلفين ، كلّ حسب دوافعه للتخلف عن المعركة ؛ وانتهت الفقرة باستعادة التائبين صادقي التَّوبة .

وتقول الآيات (١٠٢-١٠٦) عن صادقي التَّوبة : ﴿ **وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ** ﴾

(التوبة:١٠٢-١٠٦)

مسجد الضرار : مقابل الذين تابوا بعد أن تخلفوا ، واعترفوا بذنبهم تُحْضِر الآيات (١٠٧-١١٠) أنموذجاً من الذنوب التي لا يمكن أن تُغفر أو تُقبَل توبة فاعلها ، ليكون الناس على بصيرةٍ من الأمر . إنها قصة الذين بنوا مسجداً يتسترون

بمظهره الإسلامي ليحاربوا به الإسلام وليكون قاعدة للكفر : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:١٠٧-١١٠) .

بُناةُ مسجد الضرار أعداءٌ لا تهاون معهم . ولا بقاءَ لهم في المجتمع . وهي الحالة الوحيدة التي لم تسمح السُّورة ببقائها . بينما اكتفت بفضح المنافقين ودعتهم للعودة إلى الله دون الإذن بحربهم أو عقابهم . فتكون هذه الآيات (١٠٧-١١٠) تحذيراً شديداً جدًّا لضعفاء الإيمان أن يصلوا لمثل حالة أصحاب مسجد الضرار . وهذه من علامات بناء المجتمع على أسسٍ ربّانيةٍ .

قادة التَّوبة : تنتقل السُّورة بالآيتين (١١١-١١٢) إلى المؤمنين من أهل المدينة مذكرةً إياهم ببيعتهم للرسول عندما قبلوا الإسلام ديناً . وبما أن موضوع السُّورة توبةُ الأمة كلّها ، ورجوعُها إلى الله ربّها فقد وصف الله المؤمنين الذين سيقومون بمهمة استتابة قومهم بأنهم « تائبون » . نعم لا بد أن يكون جيش التَّوبة تواباً ؛ وكانت هذه أولى صفاتهم (الآية ١١٢) . ومع صفتهم كتائبين سردت الآية مجموعة أخرى من صفاتهم اللازمة للمناسبة . فهم مع صدق إيمانهم والتزامهم إيجابيون في علاقتهم بمجتمعهم ، يغارون على قومهم كما يغارون على الحقّ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحافظون على حدود الله أن تُنتهك منهم أو من سواهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:١١١-١١٢)

خالصون لله : تواصل الآيات تحريرهم من بقايا علاقة القربى ، التي قد تؤثر على كفاءتهم في تنفيذ أمر الله ومجاهدة قومهم من المشركين . وتصاغ الآيات (١١٣-١١٦) بأسلوبٍ رفيقٍ لكنه حازمٌ ، ثم تدعم ذلك بمثلٍ مؤثرٍ من أبيهم إبراهيم . وتؤكد الآية (١١٥) أن الله هو مصدر الهدى للمؤمنين ، وهو مالك الكون كلّه وبيده وحده حياة الخلق ، وليس للمؤمنين سواه سبحانه وَلِيٌّ ولا نصير . وكلّ جزئيةٍ في هذه الآيات تخدم فكرة تخليص قلوب المؤمنين لله وتحريرها مما يمكن أن يشغلها عن طاعة الله وهمة الجهاد في سبيله سبحانه : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ** ﴾ (التوبة:١١٣-١١٦)

تطهير تام لبداية جديدة : الآيتان (١١٧-١١٨) تتحدثان عن توبتين : **أما الأولى** : فكانت للنبي والمؤمنين على ما كان من بعضهم قبيل غزوة العسرة ، رغم أن مجرد مشاركتهم في تلك الغزوة كان عملاً عظيماً . وباعتراف القرآن كان عملاً شاقًّا لا يقدر عليه إلا المؤمنون الصادقون . ومع هذا فإن قليلاً من الكسل والتساؤل من قبل قليلٍ من المؤمنين المشاركين في الغزوة اعتبر ذنباً واحتاج توبةً . وهنا تبشرهم الآيةُ بقبول توبتهم . ولهذه التَّوبة كما أسلفنا دورٌ نفسيٌّ مؤثرٌ . فمن حاك الإثم في صدورهم مما قد يضعف معنوياتهم ، تأتي هذه التَّوبة تطهيراً لقلوبهم فيُقبلون على تنفيذ طاعة الله بكلّ طاقتهم ، خصوصاً أن النبيّ جُمع معهم في التَّوبة . والدور الثَّاني لهذه التَّوبة هو تحذير من الوقوع بمثل ما كان على بساطته وصغره . ولكن الله العليم ، العظيم السمع والبصر ، ذا الجد الذي لا يُحدُّ ليس عنده أمرٌ صغيرٌ أو بسيطٌ .

والتَّوبة الثَّانية (١١٨) : هي لِفِئَةٍ تخلفت عن غزوة العسرة ، ثم ندمت فقاطعها المجتمع وفرض عليها حصاراً بعدم التعامل معها . فلما علم الله صِدقَ توبتِهم ونَدَمَ قلوبِهم الشديد ، تاب عليهم ، وبذا تَطهَّر مجتمع العاصمة مهاجروه وأنصاره : ﴿ **لَّقَد**

تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٧-١١٨)

وعد الله للمجاهدين المؤمنين :بعد الآية (١١٨) صار الجو مناسباً لينادي البيان السياسي العظيم كلّ فئات العاصمة للمشاركة في الجهاد ؛ ولا صِدقَ ولا تقوى لمن لا يجاهد . ولا يليق بسكان العاصمة وبواديها أن يتخلفوا عن النبيّ . والنبيّ يُذكر هنا تشجيعاً فما دامَ النبيّ يجود بنفسه ، ويشارك بكلّيته بالجهاد فكيف يبخل أحدٌ بماله أو نفسه على الجهاد مع النبيّ . ومع هذا فالله يعتبر للمشارك كلّ ما يقدم حتى لو كان خطوةً على الطريق إلى أرض المعركة ، أو مجرد الشعور بجوعٍ أو تعبٍ في سبيل الله ، فهل عرفت البشرية بياناً سياسيًّا بمثل هذه القوّة والتأثير والإحاطة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴿١٢٠﴾وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(التوبة:١١٩-١٢١)

تعليمات القتال : تتضمن الآيتان (١٢٢-١٢٣) تعليمات القتال الذي أمرت به السُّورة في بدايتها ويحل موعده مع نهاية الأشهر الحرم . وقد سبق تعريف الأشهر الحرم والتَّوبة ، وتحريرها مما طرأ عليها من تحريف . ثم تأتي الآيات (١٢٣-١٢٧) . بوصف طريقة تنفيذ القتال . وقد يتساءل بعض المحاربين من المؤمنين : لماذا لا نبدأ بكفار المدينة ومنافقيها الذين يعيشون بيننا قبل مشركي القبائل الأخرى؟ فتأتي الآيات التالية لتقول إن القتال يكون لمجتمعٍ أو جماعةٍ ترفض الانصياع لقيادة الأمة ، والاعتراف بالإسلام دينا للأمة (وهذا مضمون الآية ١٢٣) . فمن اعترف به ظاهراً وقدم التزاماته كمواطنٍ معترِف بشرعية القيادة فلا عدوَان عليه .

والله يعلم أن إيمان الناس جميعاً مستحيلٌ ؛ ففيهم من يؤمن ويطمئن لأمر الله ، ومنهم من يأباه بما قدم من سوء :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ (التوبة:١٢٣-١٢٧)

إذاً فهو الأمر للمؤمنين بالقتال . ولا يبدأ من داخل المدينة رغم علم الله بمن فيها كما تقول الآيات (١٢٤-١٢٧) . بل ينطلق من المدينة إلى أقرب القبائل والقرى المشركة ويمضي إلى ما يليها حتى تطهر الجزيرة ممن يعلن الشرك ، ويرفض الاعتراف بالقيادة الجديدة .

ترى أليس في هذا دليلٌ كافٍ على أن القرآن بطريقة نزوله أول مرة كان مشروعاً قوميًّا سياسيًّا؟ وأن التركيز على غزوة العسرة ، وتشديد أمر الله على تنفيذها واعتبارها مقياساً لتقييم المؤمنين في هذه السُّورة دليلٌ على البعد القومي ، وتذكيرٌ لأهل الجزيرة أن أرض الشام أرضٌ عربيَّة يجب تحريرها وبقيةَ أرض العرب .

وأخيراً تُذكرهم السُّورة في ختامها بفضل الله عليهم إذ أرسل إليهم نبيّهم العربي؛ جعله الله منهم حريصاً عليهم رءوفاً بهم ، فَلْيُلبوا النداء . وإلا فهو الخزي والفشل لهم ، فليختاروا : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (التوبة:١٢٨،١٢٩)

وتلح علي رغبة شديدة أن أنهي الحديث عن السُّورة باقتباس ما كتبه في تفسير الآية قبل الأخيرة محمد بن جعفر الطبري يقول :« يقول تعالى ذكره للعرب : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ ﴾ أيها القوم ﴿ رَسُولٞ ﴾ الله إليكم ﴿ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ تعرفونه لا من غيركم ، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ أي عزيز عليه عنتكم ، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى . ﴿ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم ﴾

يقول : حريص على هدى ضلاّلكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحقّ . ﴿ **بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ**﴾ : أي رفيق ﴿ **رَّحِيمٌ** ﴾ ».

هذا ما فهمه مفسر مسلم غير عربيٍّ . فهل يفسر فهمه ورود هذه الآية (١٢٨) في ختام هذه السُّورة بالذات (سورة توحيد العرب) وليس في أي مكان آخر من القرآن؟

إذا فهي سورة التَّوبة ، وبعض التَّوبة المطلوبة فيها توبةٌ سياسيةٌ ، بالإضافة إلى التَّوبة الحقيقيّة . وفي كلّ توبةٍ رفعٌ لمستوى فئةٍ من العرب انطلاقاً من واقعها . فهل يليق بها اسم آخر ؟

* * *

الباب الثَّاني

إبطال عقائد المشركين
وتثبيت النبيّ والمؤمنين على العقيدة الصحيحة

ويشمل هذا الباب السور التي تبدأ بسورة يونس وتنتهي بسورة الحجّ . وتهتم هذه السور بتفنيد عقائد المشركين وما أضافوه إلى الحنيفيَّة مما لم يأذن به الله . وترد على أباطيلهم التي كانت تتولد كلّما واجههم النبيّ بجديدٍ من كتاب الله . وذلك في إطار تثبيت النبيّ وشد أزره في مواجهتهم . وإثبات العقيدة السليمة بالله والبعث والحساب والنُبُوَّة والملائكة . ولعلها التي سميت بحديث منسوب للنبي « هود وأخواتها » . وإن صح الظن فلا يكون نص الحديث شيبتني هود وأخواتها بل ثبتتني هود وأخواتها . ولذلك جاءت .

سورة يونس

سماها الله تعالى سورة «يونُس» علماً أن يونس لم يُذكر بها شخصيًّا . بل ذكر قومُه في آيةٍ واحدةٍ هي قوله تعالى ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (يونس:٩٨) . وقد تميزوا عن بقية الأمم المخاطبة بأنهم تابوا إلى الله بمجرد أن رأوا العذاب ؛ فقبل الله تعالى توبتهم . وتأتي السُّورة لتواجه بآياتها الوحشة التي كان يعيشها النبيّ نتيجة إعراض قومه . فتُبَدِّد وحشته بردودٍ ووعودٍ تبعث الأنس في نفسه . فكان عنوانها يونس لتؤنس النبيّ والمؤمنين معه . ولذلك كان معظم آيات السُّورة حديثاً مباشراً للنبي ، وتزويداً له بما يلزم للرد على المشركين وتبديداً لما يسببونه له من غمٍّ ووحشةٍ . وهي أولى مجموعةٍ من السور هدفها الرئيسي تسلية النبيّ عما يصيبه من قومه ، وتثبيتُه والمؤمنين معه . وبقية سور هذه المجموعة هود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل والإسراء والكهف ومريم وطه والحجّ . ولعلها التي سماها النبيّ «هود وأخواتها» .

ويونس سهمٌ أطلقه الله تعالى ليكون نصفُه الوحشي في صدور المشركين ونصفه الإنسي انشراحاً لصدر النبيّ والمؤمنين . ففي أربع فقراتٍ تنتهي بالآية (٧٠) تتكون كلّ فقرة من مجموعتين : الأولى ، ردٌّ على المشركين أو تقريعٌ لهم ، والثَّانية ودٌّ وأنسٌ للنبي والمؤمنين معه . ثم تعرض السُّورة نماذج من صراعٍ مماثلٍ بين أوليائه وبين أعدائه ينتهي كلّ مرةٍ بانتصار المؤمنين .

وتنتهي السُّورة بعرض سنة الله في هداية الناس وإضلالِهم . ولهذه الفقرة فائدتان : الأولى : تخفيفٌ عن النبيّ كي لا يظن بنفسه تقصيراً عندما يرى إعراضَ قومه عن دعوته . والثَّانية : تحقيرٌ لرافضي الإيمان ، وليعلموا أن الله رفض هدايتهم بسبب ما اكتسبوا من عملٍ غير صالح . فيأتي ضلالُهم عقاباً لهم ؛ وليس موقفاً اختاروه بقناعةٍ كما يظنون .

نظرية السُّورة على ضوء اسمها :

يونس فعل مضارع ، ويُستعمل اسم علمٍ ويجوز في نونه الحركات الثَّلاث (القاموس المحيط) والثُّلاثي المجرد منها «أنس» وعنه يقول الرازي في مقاييس اللغة : «الهمزة والنون والسين أصل واحد ، وهو ظهور الشيء وكلّ شيء خالف طريقة التَّوحش . . . يقال آنست الشيء إذا رأيته ، قال الله تعالى (فإن آنستم منهم رشداً) ويقال آنست الشيء إذا سمعته . والأنس : أُنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه» انتهى الاقتباس من المقاييس .

ابن منظور في لسان العرب لا يختلف في كثيرٍ مما أورد عما جاء في المقاييس لكنه أتى بمعنًى جميلٍ يستحقّ الذِّكر وإن كان لاً يخرج في مضمونه عما سلف . يروي «قيل : إنسي القوس ما ولي الرامي ووحشيها ما ولي الصيد» ومما يسجل أيضا : «الوحشي من الإنسان الجانب الذي يلي الأرض .

ويمكن تلخيص معاني الأنس بالعلم بأي من وسائله الحسية سمعاً وبصراً وشعوراً ، مع حالة من الاطمئنان للمعرفة المتحصلة ، وبأجواء من السمو ، فالأنس يرتبط بالجزء العلوي من الإنسان وهو العقل والقلب ، بينما يرتبط الجزء الأرضي وما معه من طاقة الشهوات بالوحشة والتَّوحش كما نفهم من ابن منظور . وفي مَثَلِه عن القوس إنسيه ووحشيه ما ينطبق على السُّورة فكأنها سهم يطلقه الله بواسطة نبيِّه والمؤمنين على المشركين فكان أنسا وإشراقاً للنبي ومن معه من المؤمنين ووحشةً وظلمةً للمشركين .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بوصف الكتاب بأنه محكم ﴿ **الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ** ﴾ (يونس:١). وتشكل الآيةُ الثَّانية الجملةَ المُوَجِّهة للسورة ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ** ﴾ (يونس:٢) . والجملة الموجِّهة تتحدث عن وظيفة النبيّ ، وتصف باختصارٍ شديدٍ ما حدث بينه وبين قومه ؛ فبناءً على أمْرِ ربّه أنذر قومَه . وسمتهم الآية «النّاس» وتعني هنا أهل مكّة (الجلالين) . فتزيلوا إلى فئتين مؤمنةٍ وكافرةٍ ، فصار النبيّ بشيراً للمؤمنين وصار عليه وعلى المؤمنين معه مواجهة الكافرين الذين اتهموه بالسحر . وتليها الآيات (٣-٦) لتشكل

الآيات الست معاً فقرة الأطروحة وهي تتوجه إلى النبيّ والمؤمنين مجتمعين تعرفهم بربّهم من خلال أبرز نعمه عليهم ؛ ولينطلقوا بهذه الحقائق لمواجهة قومهم ودعوتهم إلى الإسلام . ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ (يونس:٣-٦)

وهكذا قدمت الآيات نعم الله تعالى من زاوية الأنس والوضوح . فالشمس ضياءٌ وهي أكبر عوامل الأنس وأدواته ، والشمس بضوئها وبحركتها إحدى ضوابط الزّمن خلال اليوم وخلال العام . والقمر أيضا عامل أنسٍ بنوره وبمراحله الشهرية وحركته خلال الليل وكلّها عوامل أنسٍ تبدد الوحشة ، ومعالمُ معرفةٍ تبدد جهلاً . ثم يأتي اختلاف الليل والنهار وما في السموات والأرض من آياتٍ عواملَ أُنسٍ أخرى للمؤمنين لأنها أدلةٌ ساطعةٌ على قدرة الله ربّهم الذي آمنوا به . وقبل ذلك قررت الآية (٣) أن الله هو الربّ الحقيقي للناس والكون ، فهو خالق السموات والأرض ، وإليه المعاد ، وهو الذي يحاسبُ الناس يوم الحساب .

وفي الآيات (٧-٦٢) فقراتٌ تتبادل البشارة للمؤمنين والإنذار للكافرين . ومع البشرى أنسٌ وفرجٌ ونورٌ وإشراقٌ بصريٌّ ومعرفيٌّ . ومع الإنذار همٌّ وغمٌّ وقترٌ وظلمةُ بصرٍ وبصيرةٍ . وسنوقع هذه الحقيقة على الآيات لنرى أن السُّورة جديرةٌ باسمها كمؤنسةٍ للنبي وللمؤمنين ؛ ووحشةٌ على الكافرين . وكلّ فقرتين متتابعتين منها يشكلان سهماً نصفه القريب أنسٌ للمؤمنين ونصفه البعيد وحشةٌ للكافرين . وتتكئ بعضُ آيات السُّورة على عناصر الطبيعة بصفتها نِعمَ الله التي أنعم بها على البشر جميعاً ؛ وهي رواسخ لا ينكرها عاقل . ويكثر في السُّورة استعمال كلمة «قل» موجهة للنبيِّ لتعلمه كيف يردُّ على الكافرين ، لا ينافسها في هذه الظاهرة كثرة إلا (الأنعام) و(ص) .

- الآيتان (٧-٨) : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (يونس:٨،٧) تقضيان بالنار نهايةً للمنكرين الذين ركنوا إلى الحياة الدنيا واطمأنوا إليها وغفلوا عن الحياة الحقيقيّة . وكلّها عوامل سكونٍ يشبه الظلمة ؛ لأنه سكون إلى ضرورات الحياة التي تشغل القلب عن نور الله وتصده عن الإيمان بما وراء جدر المادة التي حصروا أنفسهم بها . فهي الجزء الوحشي من السهم يستقر في صدور المشركين .
- الآيتان (٩-١٠) : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس:٩، ١٠) نرى المؤمين بوضعٍ مختلفٍ تماماً عن المنكرين . فهؤلاء في جناتٍ تجري تحتها الأنهار يتبادلون التحيات ويحمدون الله . ويستأنسون بهداية ربّهم ونرى الإشراق في جو الآيتين معنًى وبناءً : في الدنيا والآخرة وفي جرس الكلمات ومعانيها . وهذا هو الجزء الإنسي من السهم يشرح صدور المؤمنين .
- الآيتان (١١-١٢) تتحدثان عن ضعفاء الخلق الذي لا يقدرون على الصَّبر من مشركي مكّة ، فيزيد ذلك درجة كفرهم . وجمعت الآية برشاقةٍ ولطفٍ بين التهديد بهدف التحذير وبين سوء المصير الموحش ، مصير المجرمين ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١١،١٢) .
- الآيتان ١٣-١٤ : تنطلقان من مصير المجرمين في الآية السابقة وتستمران بمخاطبة المؤمنين ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١٣،١٤). وتبشرهم الآية أنهم الباقون في الأرض بعد إهلاك المجرمين . وهذا هو النصف الإنسي من السهم ليبشر النبيّ والمؤمنين .

- الآيات ١٥-٢٤ تقيم حواراً طويلاً مع المشركين من خلال النبيّ . ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس:١٥-٢٤).

وتُظهِر الآيـة (١٥) جهلَهـم بطبيعـة النُبُـوَّة وبقَـدْرِ كـلام الله . وتـبرز الآيـة (١٦) عجزهم عن التفكير السوي ولو بطريقـةٍ بسيطةٍ ، وتعقيبـاً علـى هـذا تصفهم الآيـة (١٧) بالظلم والكذب . وصفاتهم هذه مما ينـتج عـن ظلمـة العقـل والفكـر والظلـم الذي لا يأنس صاحبه بنـور الحقيقـة . وتصـل عتمـةُ عقـولهم قمتهـا عنـدما يعبـدون أصناماً يصنعونها بأيديهم . ثم تتحدث الآيات عن ضعف ذاكرتهم ، ونكـثهم لوعـودٍ

يقطعونها وهم في ساعة ضنك لا تُنسى . حتى زهرة الحياة التي قد تبدو لهم مشرقةً وجميلةً هي زائلةٌ قصيرة العمر وهي بيد الله تصير حصيداً في لحظات بأمر الله . وتمثل هذه الفقرة من الآيات الجزء الوحشي من السهم .

- الآيتان ٢٥-٢٦ كلُّهما أنس للمحسنين : ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (يونس:٢٥،٢٦). ولا يستطيع القارئ أن يتجاوز عن رشاقة صياغتهما ولطف ارتباطهما بعضهما ببعض . فلا شك أن الذين احسنوا (٢٦) هم الذين استجابوا للدعوة إلى دار السلام واستحقّوها باستقامتهم . وأي انسٍ أعظم من بشرى دخول الجنة !

- ويعود النص إلى المعاندين بباقة كبيرة من الآيات (٢٧-٦٠) . ونجد فيها مشاهد من يوم القيامة تشهد بخزي رافضي الإيمان ثم حواراتٌ يواجه فيها النبيّ بأمر الله أوهامَ المشركين وظنونهم . الآية الأولى من المجموعة (٢٧) تقابل الآية السابقة لها (٢٦) التي تصف حال المؤمنين بعد يوم الحساب بوجوه مشرقة ناضرة لا يرهقها قتر ولا ذلة ثم نشاهد الوضع المقابل تماماً في وجوه المشركين كما تصفهم الآية (٢٧) : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (يونس:٢٧) وحشة وظلمة وأدواتها رَهَقُ الذل على الوجوه حتى تصير كأنما أغشيت قطعاً من الليل مظلماً . وأي وحشةٍ تفوق هذا الوصف؟

ثم تأتي الآية التالية (٢٨) لتزيد حالهم نكداً وهي تجردهم من وهمٍ كان يؤنسهم ، هو شركاؤهم الذين كانوا يأنسُون بهم في الدنيا فيعبدونهم مع الله . فيُزَيل بينهم يوم القيامة ؛ وأمام رهبة الموقف يتبرأ الأرباب من الذين عبدوهم ويا له من موقف! ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ (يونس:٢٨-٣٠)

ويستمر التهديد للمشركين حتى الآية (٦٠) باستثناء الآيتين (٥٧- ٥٨) فهما وجهٌ مقابلٌ لمزيد من إثارة المشركين .

وهذا هو نصف السهم الوحشي الكبير .

- ويأتي سهم إنسي مكافئ للوحشي في الآيات (٦١-٧٠) حيث المكافأة العظمى لأولياء الله في الآية (٦٢) وتعرفهم الآية (٦٣) لتشمل كلّ مؤمنٍ تقيٍّ ولهم البشرى (آية ٦٤) .وتكون قمة الأنس في الآيات (٦٥-٧٠) عندما يَنهَى الله نبيَّهُ عن الحزن ؛ فلله العزة جميعاً ؛ وليس للمشركين منها شيءٌ مهما ظنوا أنفسَهم أقوياء . وتستمر الآيات في الرد على ظنون المشركين ؛ وتؤكد سيطرة الله التامة على الأمور ؛ فمن كان مع الله فليطمئن . ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾** ﴾ (يونس: ٦١-٧٠)

- بالآية (٧١) يبدأ فصلٌ جديدٌ من السُّورة موجهاً إلى النبيّ ، ليتلو على قومه قصص أقوامٍ سبقتهم زماناً وإعراضاً ، فكان مصيرهم الهلاك والدمار في الحياة الدنيا ؛ وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ! تبدأ الآية بجملة « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ . . » فالرسول يحمل رسالةً لقومه ولا ينتهي الكلام عنده لأن الهدف أولا

زرع الأنس في قلب النبيّ فهو المؤمن الأول بما سيحمل لقومه . فيكون الأسلوب خادماً للرسالة إذ يزداد النبيّ أنساً ؛ ويحصد القوم الوحشة والخوف من أن يصيبهم ما أصاب قوم نوحٍ ؛ كما تقول الآيات ٧١-٧٣ : ﴿ **وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ** ﴾ (يونس: ٧١-٧٣)

ونلاحظ المفردات المستعملة ومدى توافقها مع عنوان السُّورة . فأمر قوم نوحٍ عليهم غمةٌ . وهي من عوامل الوحشة ؛ وينتهون بغرق فيختنقون تحت أمواج الماء المتصلة . وأي وحشةٍ يعانون وهم يحسون بضعفهم أفراداً يدفع كلّ منهم عن نفسه ، فلا يطيق دفاعاً أمام قوة الله ، وهي تقهرهم وتنتزع أرواحهم من أجسادهم . وبالمقابل ينجو نوحٌ والمؤمنون معه ويصيرون خلائف الأرض أي يورثونها لذراريهم! فيا له من خبرٍ مؤنسٍ للمؤمنين وأولِهم رسولِ الله! وبذا تكون هذه الفقرة شِقَّيِ السهم معاً : الوحشي للمشركين والإنسي للنبي وللمؤمنين .

- الآية ٧٤ تأتي بصيغة قاعدةٍ عامةٍ لتكون أشدّ وحشةً وثقلاً على قلوب المشركين ، لأنهم رفضوا نور البينات الذي يأتي به المرسلون : ﴿ **ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ** ﴾ (يونس: ٧٤) وبعد هذه الآية مثلٌ واحدٌ من الرسل المشار إليهم .مثل اختاره الله لأنه الأقرب شبهاً بحال النبيّ وأتباعه مع كفار قومهم .

المثل من قصة موسى وقومه من جهةٍ ، وفرعون وملئه وجنده من جهةٍ أخرى . وتظهر الآيات (٧٥-٩٣) أمثلةً من الجدال الذي كان بين الفئتين والتُّهم التي افتراها فرعون وملؤه على موسى وأخيه هرون . وتنتهي المواجهات بين الفئتين بغرق فرعون وجنوده . ومُنِحَ موسى وقومُه مُبوأ صدقٍ ورزقاً من الطيبات . وكانت حاجة النبيّ والمؤمنين معه ماسةً لهذا المثل الذي اختيرت كلماته وأحداثه الأقرب لحال

المؤمنين في مكّة . فهم قلةٌ مستضعفون في مكّة وبالمقابل ما آمن لموسى إلا ذريةٌ ضعفاءُ من قومه على خوفٍ من فرعون وملئه . وكما واجهت قريشٌ النبيّ بتهمة السحر (الآية :٢ من هذه السُّورة) اتهم فرعون وملؤه موسى بأنه ساحرٌ . وكانت نتيجة ذلك الصراع كما سجلتها السُّورة أنساً للنبي وظلمةً ووحشةً للكافرين كمصير أشباههم الذين أغرقوا ، ثم ألقيت جثثهم على الشاطئ لتكون مثلاً لمن يسلك مثل طريقهم . ومثل سابقتها تشمل هذه الفقرة شقي السهم وحشيَّه وإنسيَّه معاً

- **تثبيت للنبي :** بعد مثل موسى وفرعون تأتي أربع آيات (٩٤-٩٧) لتثبيت النبيّ . ومن قراءة الآيات يمكن استنتاج حالة الوحشة واليأس التي كان النبيّ قد وصلها . وفي قراءتها غنًى عن أي تعليق عليها ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ** ﴾ (يونس:٩٤-٩٧)
- ثم نصل الآية التي تبعثُ على الأمل وتصنع إشراقاً وأنساً في نفس النبيّ والمؤمنين معه . إنها آية قوم يونس الذين آمنوا بمجرد أن رأوا العذاب فنفعهم إيمانهم . ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (يونس:٩٨). ولما كان اسم السُّورة مأخوذاً من هذه الآية ومن قوم يونس ، وليس من يونس ؛ فهي تلميح للنبي أن قومك سيؤمنون كما آمن قوم يونس !
- ولم تبدأ الآية بيونس بعكس ما كان الأمر في قصتي نوح وموسى ؛ لأن نبينا العظيم لا يحتاج مثلاً من يونس الذي قد يكون أدنى الرسل منزلةً وأقلهم عزماً . لكنه يحتاج تشجيعاً يوحي له بإمكانية إيمان قومه كما آمن قوم يونس . فهل يستطيع كاتبٌ من البشر أن يكون على هذا المستوى من الدقة في اختيار القصص وتوجيهها لخدمة أطروحته؟

سنة الله في هداية الناس وإضلالهم : تُختتَم السُّورة بإحدى عشرة آيةً موجهةً للنبي تُسَليه وتؤنسه ، وترفع عنه الحرج أمام نفسه فلا يظن نفسَه مقصراً ، وتُذَكِّرُ

المؤمنين بنعمة الله عليهم أن هداهم للإيمان ، وتشعر المعرضين بالخزي عندما يكتشفون أن الله تعالى رفضَ إيمانهم بسبب معاصيهم ورجسهم . وكلّ آيةٍ منهن تشارك في صنع هذه الحقائق . فلا يبقى أمام النبيّ إلا أن يصبر مُنتظِراً حكم الله تعالى ، راضياً عن نفسه رضا المؤمن الحريص على رضا ربّه ، الخائف من الخطأ والتقصير . الممتلئ ثقةً بنصر الله ، وله من وعد الله ما يؤنسه ويُذهب عنه اليأس والوحشة ، مهما اشتد أمر المشركين عليه وعلى أصحابه . ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (يونس:٩٩-١٠٩)

وهكذا تنتهي السُّورة برفع الشعور بالتقصير عن النبيّ . فالله هو الذي يقبل إيمان من يستحقّ بسلامة قلبه ، وهو الذي يحول دون إيمان الفاسدين الذي رَجَّسُوا أنفسهم بالمعاصي . وما على النبيّ بعد هذا إلا أن ينقل ما يأتيه من قرآن إلى قومه ، وأن يتبع وحي ربّه ، ويصبر منتظراً فتح الله بالطريقة التي يقضي بها الله . فهو وحده سبحانه يعلم ما في نفوس الناس ، وما يستحقّون من هدًى أو عذابٍ . فهل يقدر بشرٌ على صياغة سورة كهذه باسمها وموضوعها وتوظيف قصصها ، وما اشتملت عليه من حقائق لفكرتها المختصرة بعنوانها؟ بل هو الله !

* * *

سورة هود

سماها الله تعالى «هود» وهو أدرى بما يريد بها . وعلى عادة القرآن أُخذت كلمة هودٍ من اسم النبيّ هودٍ رسول الله إلى القبيلة العربيَّة عاد . وقصة هودٍ مع قومه عادٍ واردةٌ في السُّورة مثلها مثل قصص أنبياء آخرين مع أقوامهم . فقد ورد فيها خبر نوحٍ مع قومه بتفصيلٍ لا نظير له في القرآن فشغلت حوالي ثلاثة أضعاف المساحة التي شغلتها قصة هودٍ وقومه . كما وردت قصة صالحٍ وثمودَ ثم خبر لوطٍ وقومه . وخلالها بُشِّرَ إبراهيمُ بولده إسحق . تلاها خبر شعيبٍ وقومه . وورد باختصار طرفٌ من قصة موسى وفرعون .

فلم تكن قصة هودٍ هي الوحيدةَ ولا الأطول ، ولكن اسم هودٍ من بين أسماء الأنبياء المذكورين استعير اسماً للسورة ، لأنه الاسم الوحيد الذي يمكن توظيفه عنواناً لسورة أنزلت لتقول للنبي : هَوْداً يا محمد! ترود يا عبد الله فلست بِدْعاً من الرسل ، فكلّهم واجه مثلما تواجه مع قومك ، ولا تَقْسُ على نفسك فإن الله راض عن أدائك ، ولا تتراخ بتنفيذ أمر ربّك؟

هَوْداً يا محمد! وعن معنى هودٍ يقول الرازي في مقاييس اللغة «الهاء والواو والدال أصلٌ واحدٌ يدل على إرْواد وسكون . يقولون التهويد المشي الرويد ، والهوادة الحال تُرجى معها السلامة بين القوم» . وهذه المعاني جميعاً موجودةٌ في سورة هود . وبذا نعلم سر اختيار الاسم دون سواه . ولا يقدر على هذا الاختيار إلا الله . ويجمع مفسرو القرآن أن سورة هودٍ نزلت بعد سورة يونس . وهي المرحلة الأقسى في العهد المكي من الدعوة ، ففيها فقد النبيّ عمه أبا طالب ؛ سياجه والحائط المتين للدعوة أمام شراسة قريشٍ وعدائها للدعوة الجديدة . وماتت خديجةٌ الصدر الحاني والعقل الناضج والوزيرة الصبور المخلصة لزوجها . لكلّ هذا وسواه كان النبيّ يعيش ظروفاً قاسيةً موحشةً لا يرى فيها إلا إعراضَ قومه ، ويتعرضُ لعدوانهم الذي ازداد مع موت أبي طالب . لذلك نزلت السورتان لإيناس النبيّ وترويد حزنه وتخفيف اضطرابه .

مطالعات في التراث :

يقول **سيد قطب في ظلال القرآن** مقترباً من جو السُّورة مدركاً لهدفها دون أن يربط ذلك بعنوانها : « ففي هذه الفترة (بعيد موت خديجة وأبي طالب) نزلت سورة هود ويونس قبلها ، وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلّها تحمل طابع هذه الفترة ؛ وتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها . وآثارُ هذه الفترة وجوُّها وظلالُها واضحةٌ في جو السُّورة وظلالها وموضوعاتها ! وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله ﷺ والذين معه على الحقّ ؛ والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي »

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أُخذ العنوان من اسم هودٍ ليكون ، كمادةٍ لغويةٍ ، محوراً للسورة ؛ تماماً كما رأينا في أسماء بقية السور . وكمادةٍ لغويةٍ تشمل الكلمة هَوْدَ الترود والتمهل والهدوء واللين ، وبالتالي يليق معها انخفاضُ حدة الغضب وانكماشُ حالة الحزن ، والانتقالُ إلى حالة الرضا والاطمئنان . فهل تقود السُّورة إلى هذا ؟ كي نتحقّق نبدأ من الواقع لنرى ماذا عالجت منه السُّورة : النبيّ يعيش حالة وحشة وحزن شديد لأنه فقَدَ أحب الناس إليه : زوجه خديجة التي كانت تقوم بدورٍ عظيمٍ في تهدئته وتشجيعه ؛ فهي عاملٌ داخليٌ في دعمه وتسهيل حياته ليتفرغ للدعوة . وعمَّه أبا طالب ؛ ودورُه في حماية النبيّ لا يخفى على أحد . وبقي وحده بمواجهة قبيلةٍ عنيدةٍ متغطرسةٍ مصرةٍ على شركِها ، قويةٍ بمالها وسلطتها ، وعلاقاتِها المؤثرة مع بقية قبائل العرب . فكان النبيّ يعيش حالة حزنٍ بل يأسٍ لم يصل إلى مثلها فيما سبق . فماذا قالت له سورة هود لتخفف عنه بل لتنقله إلى درجةٍ من الرضا وهدوء البال ؟

تكاد السُّورة أن تكون مناجاةً للنبي . وفيها آياتٌ معدوداتٌ تجمع المؤمنين مع النبيّ في الخطاب كالآية (١١٣) .

أطروحة السُّورة : بصياغةٍ نادرةٍ لأطروحة مقالٍ وبتكريمٍ للنبي عز نظيره تنطلق الآيات (٢-٤) على لسان النبيّ مُخاطِبةً أهل مكّة . فلم تبدأ بكلمة « قل » كما هي العادة . بل ينطلق بها النبيّ إلى قومه وكأنها من عنده . وهي مَنزِلة يعرفُ النبيّ مقدار رفعتها . وهذا في حد ذاته عزاءٌ عظيمٌ وتكريمٌ للنبيِّ . كما كانت صلة الآية الأولى بالآيات الثَّلاث من اللطف بحيث لا يظهر فرق الخطاب بينها وبين الآيات التالية لها .

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (هود:١-٤). وفائدةُ صياغة الأطروحة بهذه الطريقة زرعُ اليقين في نفس النبيّ. فكأنه هو المتحدثُ المتيقنُ مما يقول الواثقُ بما يعد وليس ناقلاً لحديث.

وتستمر الأطروحة بصيغة الحكاية مؤكدةً للنبي سيطرة الله التامة على هذا العالم وإحاطته بأمر كلّ دابةٍ. فلا يعبأْ بردهم الذي يدل على جهلهم. فربّه هو خالق السموات والأرض: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (هود:٥-٧).

وتبدأ السُّورة تفصيل الأطروحة بالآية (٨) مؤكدةً أن عقابهم آتٍ لا محالة إن استمروا على كفرهم كما ورد في الأطروحة. لكن الله يؤخره لتكتمل أسبابه ثم تتلو الآيات (٩-١١) تناجي النبيّ بمنهج الله في ابتلاء الناس لتكون الآيات تعليماً ومواساةً في نفس الوقت ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

(هود:٩-١١).

حض على الصَّبر والتحدي: وبِرِقَّة تفيض حناناً، يناجي الله نبيَّه ليخفف عنه الحزن الذي يصيبه من إعراض قريشٍ وافترائها عليه وعلى القرآن الكريم، رغم وضوح حجّته وصدقه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ

بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (هود:١٢-١٦) .

ولا تخرج آيات التحدي بالقرآن عما جاء في الآية الأولى من الأطروحة التي تصف القرآن وإحكام آياته . وكما نرى تلتفت الآيات الثّلاث الأخيرة (١٤-١٦) إلى أتباع النبيّ تشركهم معه في الدعوة وتحثهم على التمسك بدينهم وبنبيهم وبجو من الجدية ليخففوا عن نبيِّهم ولا ينشغلوا عنه بمتاع الدنيا .

مصير أعداء النبيّ : ثم تتلو سبع آياتٍ تخاطب النبيّ ؛ الخمس الأولى منها وصفٌ لظلم المفترين على الله ورغبتهم ببقاء الباطلِ في الأرض ، وما ينتظرهم من عقابٍ دنيويٍّ وخسرانٍ في الآخرة . وتصب الآياتُ عليهم غضب الله ولعناته مما يُطَيِّب خاطر النبيّ تجاه ظلمهم . فيهدأ باله ما دام الله معه يسمع ويرى ما يفعل المشركون . وبالمقابل تبشر الآية (٢٣) رسول الله أن المؤمنين الطائعين مصيرُهم الجنة . وتقارن الآية (٢٤) بين الفريقين فتجعلهما كالأعمي الأصم مقابل البصير السميع . ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود:١٨-٢٤)

أمثلة من التاريخ : على مدى ستٍّ وسبعين آيةً وبحديثٍ مباشرٍ للنبيِّ تعرض السُّورة نماذج من مصائر أقوام خمسةٍ من رسل الله هم حسب ترتيب السُّورة قوم نوحٍ ثم قوم هودٍ فقوم صالحٍ فقوم لوطٍ فقوم شعيبٍ ، ثم طرفاً مما حدث بين موسى وفرعون ولم يكن مصير فرعون وجنده أقلَّ سوءاً من مصير أقوام الرسل الخمسة المذكورين . وفي كلّ مثلٍ عبرةٌ للنبيِّ تؤكد له أن الله عندما يرسل نبيًّا لقوم فإنه

لا بد أن ينصر رسوله ومن يتبعه ، ويجعل الهلاك والعذاب الشديد لمن يحارب الرسول والمؤمنين معه . وكانت قصة نوحٍ هى الأطول والأكثر تفصيلاً . ووُصِف الطوفان بتفصيلٍ لا مثيلَ له في القرآن مع كثرة ما وردت قصةُ نوحٍ . كما يرد في السُّورة كثيرٌ من التفصيلات مما كان يدور بين نوحٍ وقومه . وهو شبيه بما قالت قريشٌ للنبيِّ وزيادة . وفي هذا عزاءٌ للنبيِّ . . ثم تورد قصص الأنبياء الخمسة المذكورين . ولا نجد ضرورةً لاستحضار قصصهم هنا فقراءة السُّورة من القرآن تكفي لوضوحها .

وتُختتم قصصُ الرسل الستة بقاعدةٍ تصف منهج الله بأخذ أعدائه ، ليعلم النبيّ أن الذي حدث لأقوام الأنبياء لم يكن عملاً انتقائيًّا ، إنما هو منهجٌ إلهيٌ ينطبق على الجميع، بما فيهم قومُ محمدٍ إن سلكوا نفس الطريق: ﴿ **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ** ﴾

(هود:١٠٠-١٠٢)

ثم تعود السُّورة إلى مناجاة النبيّ بما يُذهِب حزنه ويُبدِّدُ وحشتَه (١٠٣-١٠٨) وتبين له ما ينتظر قومه ؛ فالمعاندون في جهنم يشقون بين شهيق وزفير ؛ والمؤمنون يسعدون بالجنة ونعيمها ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ۝١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ** ﴾ (هود:١٠٣-١٠٨) وأي حزنٍ يبقى بعد هذا الوعد؟

عبادة المشركين : الآيات (١٠٩-١١١) تدخل في عقل النبيّ ونفسه ، لتمحو ظنوناً تتعلق بالمشركين . فهو يراهم يعبدون ؛ يذكرون الله في الحرم فتلمح له الآية (١١٠) أن اختلاف الناس في تفسير الدين ، وبعدهم عن الطريق المستقيم طبعٌ في البشر . فكما ابتعد قومك عن دين إبراهيم وهم يظنون استقامتهم عليه ، اختلفت

بنو إسرائيل في التَّوراة من بعد موسى . والله وحده يعلم مقدار الانحراف ؛ وسيحاسب كلّ إنسان على عمله ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (هود:١٠٩-١١١) . وفي هذا إزالةٌ لأي حيرةٍ من نفس النبيّ تجاه عبادة قومه .

نصائح للنبيِّ وللمؤمنين :تخاطب الآيات (١١٢-١١٥) النبيّ والمؤمنين معه تحثهم على الاستقامة وعدم الركون إلى المشركين ، ثم تفرد النبيّ بالخطاب تدعوه للصلاة والصَّبر ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(هود:١١٢-١١٥)

آياتٌ تصنع بهجةً في قلب النبيّ فهو يعلم معنى وقيمة أن يخاطب من ربّه بهذا الود وهذا الاهتمام!

سنة الله في معاقبة الأمم : ثم تأتي أربع آيات (١١٦-١١٩) تبين للنبيِّ سنَّة الله في التعامل مع الأمم التي ترفض هديه ، ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود:١١٦-١١٩) . والآيات تُثلجُ صدر النبيّ عندما يعلم أن كلّ ما في الكون تحت سيطرة الله ويسير وفق سنةٍ إلهيةٍ لا تُجرح ولا تُحرج . وتأتي الآيات التي تناجي النبيّ في مكانها تماماً من زاوية اسم السُّورة وغرضها ؛ وهو التهوين على النبيّ مما هو فيه . فكأنها تجلو آخر غِشاوة حزنٍ عن فؤاده .

فكرة السُّورة تثبيت النبيّ والتخفيف عنه :وتَختَصِر الآياتُ الآياتٍ الأربع الأخيرة من السُّورة (١٢٠-١٢٣) رسالة السُّورة وتخاطب النبيّ بوضوحٍ لا لبس فيه ، أنها تأتيه

بقصص الأقدمين أمثلةً صادقةً لتثبت فؤاده ؛ فهي سنة الله التي لا تنخرم . وتملأ قلبه قوةً وثقةً وهي تدعوه لتحدي الذين لا يؤمنون برسالته (١٢١-١٢٢) وتنتهي السُّورة باليقين أن الأمر كلّه بيد الله ، فليتوكل على ربّه صاحب الأمر كلّه ، وليشغل نفسَه بعبادته وليس عليه أن يحمل هَمّ نجاح الدعوة : ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (هود: ١٢٠-١٢٣) .

ترى هل يصلح لهذه السُّورة عنوانٌ غير كلمة هودٍ من بين الأسماء التي وردت بها؟ وللذين ظنوا أن العنوان مجرد كلمة مفتاحيةٍ ، تفيد التذكر عند التلاوة ، وتستعار من اسم شخصيةٍ في السُّورة ، أو مجرد كلمة وردت فيها ، نقول إن أهم ما ورد في السُّورة من الأحداث قصة قوم نوح والطوفان الذي أغرقهم . فقد استغرقت القصة ربع السُّورة . ومع هذا لم يُسمها الله نوح . بل هي هود . ولا يقدر على تسميتها بهذا الاسم إلا الذي أنزلها وهو العالم بما يريد منها . فالحمد لله الذي هدانا لفهمها .

* * *

سورة يوسف

سماها الله تعالى يوسف . ويوسف تعني يزيد . ومادتها اللغوية «وسف» ليست بعيدةً عن الازدياد . فكأنها بهذا الاسم رسالةٌ إلى النبيّ تقول له : أبشر بتحقيق وعد الله لك بالنصر وزيادة . وعرضت رسالتها الجميلة بصيغة روايةٍ مستوفية الشروط . ووفق ما استقرت عليه الخبرة البشرية في فن الرواية .

بدأت السُّورة الروايةَ بعقدةٍ قصصيةٍ قويةٍ ، تكفي لجذب القارئ والسامع حتى تسرد كلّ أحداثها دون ملل أو استعجال للنهاية . كانت العقدة رؤيا الفتى يوسف تبشره أن الله سيجعل له قدْراً عظيماً ، فتتبارك به عائلته جميعاً حتى أباه وأمه . والرؤيا رؤيا نبيٍّ والمخاطب نبيٌّ فلا بد من تأويلها على أرض الواقع ولو بعد حين .

ثم يُباع الفتى الموعود بضاعةً ، ويعيش عبداً ، ويتعرض للغِواية ويدخل السجن . وتتحرك الأحداثُ بما يمكن أن يحدث في الواقع دون أيِّ استبدادٍ عقليٍّ . فيَصِلُ يوسفُ مجلس الملك ، ليصير بعلمه وخلقه أميناً على خزائن مصر . ثم تتلو ذلك أحداثٌ طبيعيةٌ قابلةٌ للحدوث في ظروف تلك الأيام . ليلتقي يوسف بأبويه وإخوته معاً فتتحقّق الرؤيا . وتُختتَم السُّورة المخصصة للنبيِّ بتوصياتٍ مناسبةٍ هدفها توجيه النبيّ لأخذ العبرة بصبر يعقوب ، ويقينه بتنفيذ وعد الله له ولولده يوسف بالرؤيا . نعم ، يعقوبُ كان موضوعَ العظة ، وليس يوسفَ كما ظنَّ معظمُ دارسي السُّورة . ولذلك بقدر ما كانت شخصيةُ يوسف مسطحةً لنا (على حد مصطلحات فن الرواية) كانت كرويةً ليعقوب ليكون له بلاءُ الصَّبر . إنها نصٌّ سرديٌّ رائعٌ . أو كما وصفها تعالى في مقدمتها :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (يوسف:٣). ولم تصل البشريةُ لأحسن مِن مِثل هذا الأسلوب في السرد . خصوصاً من زاوية القارئ العادي الذي لا يطيق التعقيد الشديد في البناء الروائي .

عنوان السُّورة وموضوعها :

يوسف في العبرية تعني يزيد . فهل هي كذلك بالعربيَّة ؟ يقول الرازي في

معجم مقاييس اللغة « وسف : الواو والسين والفاء كلمة واحدة يقال توسَّفت الإبل : أخصبت وسمنت وسقط وبرها الأول ونبت الجديد» . وهو كما نرى قريب في المعنى مما قصد يعقوب عندما سمى ولده يوسف . ولا غرابة فالعبريةُ والعربيَّة لغتان شقيقتان تشتركان في الكثير من الألفاظ ومعانيها .

فكأن السُّورة تقول للنبيِّ : أبشر بتحقيق وعد الله لك بالنصر وزيادة . هذا ما سنبحث عنه في سورة يوسف .

ملخص السُّورة :

تبدأ السُّورة بمخاطبة المؤمنين بأن الله أنزل عليهم القرآن بلغتهم ليتدبروا حكمته. ثم تتوجه منذ الآية الثَّالثة للنبي معلنةً أنها ستقص عليه قصةً من أحسن القصص . وتستمر السُّورة موجِّهةً خطابها للنبي وحده دون سائر الخلق . وتقول في نهايتها أن في قصصها عبرةٌ لأولي الألباب .

عقدة القصة : تبدأ القصة بالآية الرابعة : ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (يوسف:٤-٦) وتشكل هذه الآياتُ الثَّلاث عقدةَ القصة التي يلزم حلها قبل نهاية السُّورة . فسورة يوسف مصاغةٌ وفق أسلوب الرواية . ووظيفة العقدة أن تشد القارئ بانتظار حلها . ولكنها قبل أن تُحلَّ تسيرُ في طريقٍ صاعدٍ حتى تصل قمتَها في التعقيد والإثارة عندما يفقد يعقوب ولده الثَّاني . ثم تبدأ عقدة الأحداث بالتحلل .

ويوقِن يعقوب أن رؤيا ولده من الله وأنها متحقّقةٌ لا محالة ، ويفسرها لولده شاعراً بما ينتظره ، مُحذِّراً إياه من حسد إخوته له .

ورغم ما يُتوقع ليوسف من المعاناة فإن نصيب يعقوب من المعاناة هو الأكبر . فكان الامتحان له . فهل ينجح ويستمر بالأمل ويثق بوعد ربّه الذي تلقاه برؤيا ولده . أم يقنط من رحمة الله وينسى أمر ولده يوسف؟هذا ما سنصله قبيل نهاية السُّورة .

البناء الفني الروائي للسورة :لا يلزم لأغراض هذه الدراسة تحليلٌ وافٍ للسورة كروايةٍ ولكن نمر سريعاً على أبرز ملامحها . فبالنظر إليها كرواية فإن شخصية

يوسف تظهر مسطحةً مكشوفةً لنا بكلّ تفاصيلها . بينما تكون منذ غياب يوسف غامضةً بل مختفيةً تماماً عند يعقوب إلا من ذكرى الرؤيا التي رآها يوسف . لذلك نرى أن يعقوب هو موضوع العظة وليس يوسف بعكس الشائع بين دارسي السُّورة .

وكما في الرواية المحكمة يقوم الزَّمن بدوره في تطوير شخصية يوسف ، وشخصياتٍ أخرى في القصة كامرأة العزيز التي نراها ممتلئةً شهوةً ورغبةً بيوسف قبل سجنه . ثم تتحول مع الزَّمن إلى زاهدةٍ منصفةٍ تعترف بالحقّ مع خروج يوسف من السجن . ويتطور إخوةُ يوسف بدرجةٍ أقل قليلاً من تطور امرأة العزيز ، فاعترفوا بذنبهم بعد أن لم يجدوا مفرًّا من الاعتراف . والمكان له دورٌ في السُّورة فيظهر الفرق البيئي والإنساني بين أرض كنعان وأرض مصر . وتعكس الرواية المظاهر البارزة للحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعوب والأماكن التي عايشتها شخصياتُ القصة ؛ وقد وُظفت تفاصيل ذلك كلّه لخدمة الخط الروائي الصاعد في السُّورة ؛ ولكي تصل نهايتها طبيعيًّا دون افتعالٍ أو تكلّف .

المؤامرة : تبدأ أحداثُ القصة بمؤامرة أبناء يعقوب على أخيهم بحجّة أن أباهم يفضله عليهم : ﴿ **لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ** ﴾

(يوسف:٧-١٠)

تنفيذ المؤامرة :استقر رأيهم على مقترح أخيهم بعدم قتله بل إلقائه ببئر ، يلتقطه منه أحدٌ فيبقى حيًّا . ويبدأون تنفيذ خطتهم بمراودة الأب عن يوسف ليسمح لهم باصطحابه برحلةٍ قصيرةٍ للعب والسرور . ﴿ **قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ** ﴾ (يوسف:١١-١٧)

يقين يعقوب : وهو مَحك المحنة ومَكمنُ رسالة السُّورة . في الآية (١٨) يجتمع الدليل والنفي فالأبناء جاءوا بقميصه ملطخاً بدم ، ويقابله إنكار أبيه ثقةً منه بما بُشر به يوسف من مستقبلٍ زاهر ﴿ **وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾(يوسف:١٨)

ونحن هنا كمستمعين ننتظر استجابة يعقوب لِتَحَدِّيَين : الأول : هل يستمر في يقينه حتى النهاية؟ والثَّاني : هل سيتحقّق الوعد الذي وعدته رؤيا يوسف؟

سير الأحداث :تبدأ الآيات بإزالة الخوف من نفوس السامعين على حياة يوسف ، فيعثر عليه قافلةٌ متجهةٌ إلى مصر ؛ فتسعد به لما فيه من رزق لها . وفي مصر يشتريه رجلٌ من علية القوم ليتخذه ابناً ويكرمه . وتنتهي المرحلة السعيدة بإلهامه علماً وحكمةً من الله . أي أن يوسف لم يكن في مأزق حتى الآن ؛ ولم يظهر في الآيات ما يدل على شعوره بالغربة . فلنقرأ معا الآيات (١٩-٢٢) : ﴿ **وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (يوسف:١٩-٢٢) . وما دام قد أوتي حكمةٌ وعلماً ، فهذا يعني أنه أُعد لبلاءٍ ، فإن نجح فيه فأمامه ما وعدته به الرؤيا من عزٍ ونعمةٍ .

البلاء والغواية : والبلاء الذي كان ينتظر يوسف هو الأشد ؛ والفشل في مواجهته يعني الذنب الأكبر بعد الشرك بالله : إنه الزِّنا وفي ظروف يصعب أن ينتصر فيها رجل . فداعيته إليه سيدة مجتمعٍ ، وذات مال وحسَبٍ وتمدن ، لا أظن أن الأرض عرفت أرقى منه تلك الأيام . فهي في عاصمةً الدنيا يومها ، وامرأةُ أحد كبار رجال الدولة ؛ وهي سيدته التي يلزم عليه طاعتها . وهما في بيت واحد لا تتهم خلوتهما! ولا كلام يمكن أن يصف الأمر ككلام القرآن الكريم﴿ **وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ**

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف:٢٣،٢٤) نعم! بدون عون الله لا يمكن النجاة من مثل تلك الغواية!

البراءة : لم يكن بلاؤه سهلاً سواءً أوَقَع في المعصية أم نجا منها . فقد انكشف أمرها أمام خادمها . ومثلها لا ترضى بمثل هذه الهزيمة ، وأصعب منها الفضيحة . فلا بد أن يستسلم أو يدفع ثمناً غالياً . فهَمَّ بالهرب فالتقطته يدها ، وظفرت بقميصه فقدته فكان ذاك طوق نجاته . ولكنها ليست نجاةً كاملةً . فالموازنة ليست بين صدقٍ وكذبٍ فقط ، بل بين خادمٍ وسيدتِه أيضاً . إلا أن في القوم بقيةَ ضمير . فكيف وصف القرآن الأحداث؟ ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾

(يوسف:٢٥-٢٩)

الفضيحة والتحدي :انتهت المصيبة الكبيرة ونجا . ولكن فضائح عِلية القوم لا تمر مر الكرام ؛ فالحسدُ والشماتةُ وتحقيقُ الذات على حساب عِلية القوم ؛ كلّ ذلك يفعل فعله . والآية (٣٠) أصدق من يصف الأمر : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(يوسف:٣٠) .

وعَلِمَت امرأة العزيز بما تتناجى به نساء علية القوم ، فقررت معاقبتهن ، ولِيعذرنها فالفتى غير عادي . ونلجأ للآيتين (٣١-٣٢) لنسمع ونرى ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾(يوسف:٣١،٣٢)

وهكذا أقنعتهن عمليًّا أن السقوط مع يوسف يستحقّ ما لحقها من هوان وزيادةٍ ؛ لذلك تُعلِنُ أمامهن جميعاً أنها مصممةٌ على إغوائه حتى يستسلم . ويبدو أنهن أيدنها وشاركنها الهدف .

السقوط أو السجن : هذا ما أعلنته امرأة العزيز بحقّ يوسف ؛ فإما أن يستسلم لرغباتها وإما أن يسجن! ويبدو أن يوسف بدأ بعد ذلك اللقاء يتلقى عروضاً وإغراءاتٍ من سواها ممن رأينه وأكبرنه! ففي دعائه ربّه يتحدث عن نسوةٍ وليس عن امرأةٍ واحدةٍ . ويختار السجن مخرجاً مما هو فيه ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ** ﴾ (يوسف:٣٣-٣٥)

تألق في السجن : كان السجن هو الميدان الفسيح وحياة الطلاقة . فمِثْلُ يوسف لا يشعر بالحرية وهو في قصرِ فتىً لأصحابه . لا يستطيع أن يقول ما في قلبه ولا يعبر عن مشاعره . لا يُعطى فرصة التعبير عن عقيدته ومعتقده ، ولا يبوح بما في صدره ورأسه ، فهو هناك مع عِلية القوم ذوي التقاليد الضابطة للحركة والكلمة . بينما يجد نفسه في السجن أستاذاً وواعظاً ومتحدثاً جذاباً لسامعيه . هنا يعطِي حيث يعجز الآخرون . لذلك نجده يتباهى بعلمه وعقيدته أمام رفاق السجن . فمرحلة السجن لم تكن خلاصاً من الغواية وحسب ، بل فرصةً لإظهار مواهبه . ثم يتدخل لطف الله بتوظيفها لينال بها ما قدر الله له من عز ﴿ **وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ**

ﭐلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾(يوسف:٣٦-٤٢).

كم يبدو سعيداً بسجنه . لا يوجد أي أثرٍ لحزن ؛ فلا هو الذي سجن مظلوماً لأنه رفض السقوط مع سيدته ، ولا هو الذي بيع رقيقاً يوماً من الأيام ، ولا هو الغريبُ الذي لا عائلةَ له . كأنه لا يشعر بأيٍّ من هذا ولا نرى فيه إلا شخصية الواعظِ الواثق ومصدرِ العلم الذي لا يشق له غبار . وتأتي الأحداث لتصدق قولَه . فيُعدم من بشره بالإعدام ويعود الساقي إلى سيده! إنه المُعلِّم هنا !

رؤيا الملك : وهو في سجنه ، تمنى يوسفُ أن يصل خبر علمه إلى الملك . ولكن الأمر لم يحدث كما تمناه يوسف . بل حدث بالطريقة التي يريدها الله وهي أكرم ليوسف مما تمنى . نسي ساقي الملك طلب يوسف . ورأى الملكُ رؤيا فلم يجد في ملئه من يعبرها له . وسمع الساقي بحيرة القوم فتذكر يوسف . فاستأذن بزيارته في السجن ففسرها له . وأدرك الملك بفطنته أن وراء التفسير شخصاً يستحقّ أن يعرفه فطلبه للمقابلة . والسرد القرآني أجمل وأدق تعبيراً عن القصة : ﴿ **وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ** ﴾

(يوسف:٤٣-٤٩)

طلب البراءة : يعلم يوسف أنه بريء ، ويعلم أن الناس يعلمون ببراءته ، لكنه أرادها براءةً ملكيةً ، وليعلم الملك قدره ومستواه الاجتماعي . ولهذا سعى أصلاً عندما قال للساقي «اذكرني عند ربّك» وسارت الأحداث كما تمنى ﴿ **وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ**

أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٠-٥٣)

أمين خزائن مصر : بعد أن مر بما يكفي من التجارب ، وما يسر الله تعالى له من علمٍ وحكمةٍ ، سواء أكانت مما حصل عليه من بيت سيده الوزير أو من السجن أو من التأمل ، صار أهلاً لما كتب الله له من منصبٍ وسلطةٍ وقوة . وبسهولةٍ لم يكن يتوقعها قرر ملك مصر توظيفه مستشاراً له . فطلب أن يكون على خزائن مصر : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ (يوسف: ٥٤-٥٧)

وجاءت الآية الأخيرة ليطمئن يوسف ومحبوه أن الولاية عندما تأتي بعون الله وبعد إعداد إلهي لامتلاك السلطة والقوّة فإنها تكون في ميزانه يوم الحساب .

لقاؤه بإخوته : منذ ألقاه إخوته في البئر لم يرد أي ذكر ليعقوب وبنيه . ولم يشعرنا النص أن يوسف تذكرهم أو اعتبرهم في تصرفاته إلا تفاخره بآبائه الموحدين . ونفاجأ بالآية (٥٨) وما بعدها بإخوة يوسف يأتون إلى مصر ، يتاجرون ببضاعةٍ يجلبونها من فلسطين ويشترون بها طعاماً من مصر . وهنا تبدأ مرحلةٌ مسليةٌ وسعيدةٌ ليوسف مع إخوته ، فهم أمامه شخصيةٌ مسطحةٌ مكشوفةٌ ؛ وهو أمامهم شخصيةٌ كرويةٌ معقدةٌ زادتها سلطته هيبةً وغموضاً . بينما تصل مأساة يعقوب قمتها : ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا

كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾

(يوسف:٥٨-٦٥) .

وهكذا بدأ يوسف يلعب بإخوته ، وهو يطلب منهم أخاهم ، ويعيدهم إلى بلدهم دون تبديل بضاعتهم وهم لا يشعرون . لكنه كان يتوقع ما سيدور بينهم وبين أبيهم عندما يطلبون مرافقة أخيهم شقيق يوسف إلى مصر .

مأساة يعقوب تصل قمتها : يضطر الأب للموافقة على إرسال ولده شقيق يوسف مع إخوته . يضطر تحت إلحاح بنيه واستمرار تجارتهم مع مصر مصدر رزقهم المهم . وعلى مدى اثنتين وعشرين آيةً كريمةً نرى مزيداً من مكائد يوسف بإخوته ومزيداً من تأجج حالة يعقوب المكلوم أصلاً باختفاء يوسف . ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا

نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٦٦-٨٦) .

بعد سنين طويلةٍ من انتظار يوسف ، وبدل أن يعود يوسف ينضم إليه في ضياعه ابنُ آخر . ولكن فقد الثَّاني أقل ألماً فمكانُه معروف . وتبقى مأساته تتصاعد . ولكن إيمانَه بالله وثقتَه بصدق الوعد يجعله يتمسك باستمرار البحث عن يوسف .

تحلل العقدة : لم تزد المصيبة الجديدة يعقوب إلا إيماناً وثقةً بوعد الله . ورغم مضي عشرات السنين على غياب يوسف ، واختفاء خبره تماماً دفع أبناءه للبحث عن ولديه يوسف وأخيه ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف:٨٧-٩٢)

ونلاحظ من الآية (٨٨) أن أبناء يعقوب لم يأخذوا كلامه مأخذ الجد . فلم يرد في النص أي إشارةٍ لقيامهم بالبحث عن أخويهم . وأن همهم كان الحصول على بدل لبضاعتهم التي جُمعت بطريقة تدل على قحط في بلادهم وضيق شديد . وهنا

فاجأهم يوسف بعتابٍ لم يتوقعوه . وكان التعارف والاعتذار ثم المسامحة بين الإخوة .

الفرَج الكبير : يرسل يوسف قميصه يحمل البشرى لأبيه . ويَشْعُر الأب باقتراب ريح ولده ؛ ولا يكاد القميصُ يُلامسُ وجهه حتى يعود بصيراً . وتكتمل فرحته بخبر العثور على ولده الحبيب . يقول تعالى ﴿ **ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (يوسف:٩٣-٩٨)

تحقيق الرؤيا : ويختصر النص القرآني ما لا لزوم له ، ليرينا يعقوب وزوجه وأبناءه في مصر بل في ديوان يوسف . ويتحقّق مشهد الرؤيا كما رآه يوسف في منامه وكما فهمه يعقوب وصدقه وآمن به ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ** ﴾ (يوسف:٩٩-١٠١) .

وبذا نفهم أن القدوة التي عُرِضَت ليقتدي النبيّ بصبرها وثباتها هي يعقوب وليس يوسف . ولم يكن في حياة يوسف نقطةٌ واحدةٌ يمكن أن يقتدي بها النبيّ أو يحتاج التأسي بها . ولكن صبر يعقوب ويقينَه بتحقّق وعد الله هو الذي كان يلزم لنبيِّنا الكريم الموعود من الله بالنصر . قد يقول قائلٌ إن يوسف كان أيضا ينتظر تأويل رؤياه . وهذا صحيح لكنه كان ينتظر وهو في سعةٍ بل سعادةٍ أهل الحكم وعزتهم ونعيمهم . لكن الذي انتظر الرؤيا انتظار المضطر المعذب بغياب ولده ، وينتظر عودته على أحرٍّ من الجمر هو يعقوب . وبالمقابل فإن يوسف كان يعرف مكان أبيه وأهله . وكان يستطيع العودة إليهم بعد خروجه من السجن لو أراد . بل يستطيع

زيارتهم لمدةٍ قصيرةٍ بعد أن صار أمين خزائن مصر ليُطمئن أباه على نفسه . لكنه لم يفكر بالأمر . مما يدل على استقراره النفسي وسعادته بوضعه سعادة شغلته عن الشوق لأبيه المكلوم من أجله!

تعقيبات ومناجاة للنبي : انتهت قصة يوسف وتحقّق الوعد ليعقوب وعاد له ولده وزيادة . فلم يعد الفتى الذي فقده ، بل ازداد علماً وثقافةً وخُلقاً وإيماناً ومنصباً . وكلّ هذه الزِّيادات ما كان ليحصل عليها بنفس المستوى لو بقي مع أهله في فلسطين . وبذا يكون اسم السُّورة يوسف بمعنى الزَّيادة وليس لأنها تدور حول قصة يوسف فقط . وهذا هو منهج القرآن في تسمية السور جميعاً . ويتحقّق وعد السُّورة لنبينا كما تحقّق ليعقوب . فسيؤمن له قومه من قريش وزيادة . وأول الزَّيادة ، إيمان أهل يثرب الذين بدأوا يأتون النبيّ مؤمنين مبايعين في نفس زمن نزول هذه السُّورة .

ومع نهاية القصة التي تُسرَدُ مباشرةً وحصريًّا للنبيِّ ، يتجه النص إلى النبيّ ليقول له ، أن الله خصه بهذا القصص الذي ما كان له أن يعرفه لولا النُّبُوَّة ﴿ **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ** ﴾ (يوسف:١٠٢)

وتتواصل المناجاة تعالج ما يصيب النبيّ من مشاعر الحزن بسبب عدم إيمان قومه ، فتقول له ما أكثر الناس بمؤمنين ؛ فليسوا جميعاً مؤهلين للإيمان بسبب ما اكتسبوا . ولا تنس أنك لم تطلب منهم أجراً ولا شيئاً يكلّفهم مقابل إيمانهم . ولهم من التاريخ الذي يعرفونه نماذج لكنهم يُعرِضون . وبسبب ما قدموا من ذنوبٍ لا يستطيعون إيماناً خالصاً بل يكون في إيمانهم شِرك ؛ بقدر ما اختلط من أعمالهم صالحها بفاسدها . وإن اعترضوا على نبوتك لأنك بشرٌ فما أرسلنا قبلك إلا بشراً عاديين من أقوامهم . . الى آخر المناجاة التي تعالج ما يعاني النبيّ من محيطه . ولنقرأ في بقية السُّورة : ﴿ **وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ**

يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف:١٠٣-١٠٩)

وتَختَتِم السُّورة المناجاةَ الخاصة بالنبيّ لا يشاركه فيها أحدٌ ، ولا حتى المؤمنين من أتباعه . فالاعتبار بها ، وهو نموذج يعقوب ، لا يصلح إلا لمحمدٍ . لذلك كانت المناجاةُ فيها بصيغة المفرد . وفي الآيتين الأخيرتين تحدثه عن منهج الله في نصر رسله . فلا بد أن يصلوا حد اليأس قبل النصر ؛ ليخرج حظُ النفس من عملهم ، ولا يبقى إلا الإخلاصُ والطاعة لله وحده . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِى قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

(يوسف:١١٠،١١١)

ولنكون أكثر دقةً فقد ذُكِر أولو الألباب ، في الآية الأخيرة ، كأناس قادرين على التقاط العبرة من قصص الأنبياء لا ليقتدوا بيعقوبٍ بل ليزدادوا بها إيماناً فينتصر المؤمنون منهم للأنبياء .

* * *

سورة الرعد

« الرعد » كلمة تتباين الانطباعات عند سماعها فتارةً هو يُسبح بحمد الله دون أن ندرك كيف يُسَبِّح ، وتارةً هو كالحرب يُولَد من تناقضٍ ويصنع رعباً . وهو ابن البرق رمزِ الخوف والطمع معاً .

ومن الناحية الفنية فإن السُّورة تجمع بين أسلوبي المقال الإقناعي والمقال الحِجاجي . فهي تأتي لإقناع المؤمنين أن لا أمل بعد الآن بإيمان أحدٍ من مشركي مكّة ضمن ظروفهم تلك . وأن طلبهم معجزةً ماديةً مع النبيّ تَمَحُّل وتَهرب من الإيمان ؛ لأن آيات الله المبثوثةَ في الكون كافيةٌ .

وهي حِجاجيةٌ في ردها على دعوى المشركين تلك . فبدل الآية الخارقة للعادة التي يطلبون (في الآيتين ٧، ٢٧) تعرض لهم السُّورة عشراتِ الآيات التي يعرفونها . وتركز على ظواهر غير راتبةٍ كالرعد ليروا قدرة الله فيها . وتنتهي السُّورة بمثل ما بدأت به إذ وصفت المشركين في آيتها الأولى أنهم « لا يؤمنون » وانتهت بقولهم وهم يواجهون نبيهم « لست مرسلاً » . ويأتي الرد من عند الله على لسان نبيه : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

وبهذه الأجواء نظن أنها نزلت في أواخر العهد المكي عندما وصل اليأسُ من الكفار قمته فلم يبق بين مشركي مكّة من يُتَوَقَّعُ إيمانُه حتى ذلك الزَّمن ؛ وقد آمن كلّ قابلٍ للإيمان من أهل مكّة حتى الهجرة . ومع حالة السكون لموروثاتهم تأتي السُّورة لترعدهم وتهزهم من أعماقهم عسى أن ينهضوا من حالة السكون على ما اعتادوا من ضلال . وتثيرهم عسى أن يتخلصوا من حالة الركون لشركهم وقيوده .

تشبثاً بشركهم يطلبون آيةً مع النبيّ . فترد عليهم السُّورة بِذِكر آيات الله المبثوثة في الطبيعةِ ويدركها العقل ببساطة . وتَذكُرُ معها ظواهرَ طبيعيةً غيرَ راتبةٍ كالرعد والبرق والصاعقة . التي تثير الناس وتخبرهم صراحةً أن وراءها مدبر . وكذلك تتحدث الآية الرابعة عن ظاهرة تدل على التدخل الإلهي في عوالم النبات وثمارها ونعلم في هذا الزَّمن أن لها شبهاً بظاهرة الرعد . وبما يشبه الرعد أيضاً تشير الآية (١٧) إلى ظاهرةٍ اجتماعيةٍ تنبئ عن سنة الله في هداية الناس وإصلاحهم ، عندما

يبتعدوّن عن الحقّ الذي يحفظ فطرتَهم ويضبط مسيرةَ مجتمعهم . وكلّ هـذه ظـواهر غير راتبةٍ لا مجال لنسبتها للعادة والطبيعة . بل هي ظـواهر طارئـةٌ وإن كانـت تتبـع قوانين الله وسننه في سلوك المجتمع ، وفي عالم النبات كما في الطبيعـة . ومـا تبقّـى من الآيات جاء قويًّا حازماً بل قاسياً بحقّ المشـركين ليَرْعَـدَهُم ويَهُـزَّ سـكونهم إلى كفرهم ومُسلَّماتِهم . ففي الآية (١١) تهديدٌ بأن لا رادَّ لإرادة الله إن أراد بهـم سـوءاً ، وفي الآية (١٨) لهم سوء الحساب ، وفي الآية (٢٥) لهـم اللعنـةُ ولهـم سـوءُ الـدار . وكلّ واحدةٍ من هذه الآيات تكفي لهزهم وإرعادهم عندما يسمعونها من الـنبيّ وهـو يتلوها بصلاته في ساحات الحرم .

فهي الرعد الظاهرة الطبيعية التي يوظفهـا الله لإزالـة تناقضـاتٍ تطـرأ في الطبيعـة والمجتمع . وهي رعدٌ يهز المشركين عسى أن يعودوا إلى رشدهم .

اسم السُّورة وعلاقته بالموضوع : .

لنحيط بمعنى كلمة الرعد نتوجه إلى أهل اللغة . يقول الرازي في مقاييس اللغة : « الراء والعين والدال أصل يـدل علـى حركـة واضـطراب وكـلّ شـيء اضـطرب فقـد ارتعد» . ويقول ابن منظور في لسان العرب : « الرعـدة النـافض ويكـون مـن الفـزع وغيره ؛ والارتعاد الاضطراب ؛ والرعد الصوت الذي يُسمع من السحاب» .

ومن جهة صفات الرعد كظاهرة طبيعية فهو صاعقةٌ تنتج عن البرق . والبرق هـو عبـارة عـن الضـوء الناشـئ نتيجـة تصـادم سـحابتين إحـداهما تحمـل الشحنة الكهربائية السالبة والأخرى تحمل الشحنة الكهربائية الموجبة . ويـؤدي هـذا التصادم إلى زيادة كبيرة في كلّ من الضغط الجوي ودرجات الحرارة في منطقة البرق مما يـؤدي إلى تمـدد سـريع في الهـواء المحـيط بمكـان حدوثـه . فقـد تصـل درجـة الحرارة إلى ٣٠٠٠٠ درجـة فهرنهايتيـة . فينشـأ الرعـد ليعـالج حالـةَ التنـاقض الـتي تكونت بسبب البرق . ومع التسـخين والتبريـد السـريعين للـهواء القريـب مـن مكـان صاعقة البرق هذه ، تتولد موجةُ صدمةٍ ؛ حيث « ينفجر » الهواء القريب منها فعليًّا ، وهذا الانفجار يدوي بصوتٍ مروعٍ عالي الشدة والقوّة ، وهو ما نعرفه بالرعد .

فالرعد تابع للبرق وهو معالجة لما يَنتُجُ عن البرق من خللٍ أو تناقضٍ في البيئة. والبرق هو الأصل وليس الرعد . ومع هذا سميت السُّورة الرعد وليس الـبرق . لأنهـا تعالج تناقضاتٍ في عقول المشركين ؛ وتذكر قدرة الله تعالى في صنع الكون ورقابته ،

وإصلاح شذوذه بظواهر كلّها تشبه الرعد . حتى المجتمع إذا خرج عن حالة الاعتدال يعالج بصدمة تشبه الرعد ، لكن بوسائل بشريةٍ تماماً يديرها الله بلطفه وحكمته وقضائه كما يُفهم من الآية (١٧). وفي الآية الرابعة تستعمل فكرة الرعد للتدخل في حياة النبات بل مذاق ثماره وبما يتفق مع مكتشفات علمية حديثة . ولكنها كانت كافية للتأمل والإيمان قبل المكتشفات الحديثة وبما يتماشى مع المستوى الثَّقافي للناس عند نزولها .

كان الرعد هو الاسم المناسب للسورة . وحضوره ليس بمعناه فقط كأسماء السور السابقة ؛ بل هو حاضر في السُّورة بمعنى اسمه وبخصائصه . وسنثبت هذا عند تحليل السُّورة وشرح معاني آياتها العظيمة . نقول هذا ردًّا على الذين ظنوا أن اسم السُّورة يُختار اعتباطاً من كلمة واردةٍ فيها . وسنثبت دائماً أن اسم السُّورة معجزةٌ إلهيةٌ لا يقدر عليها بشر . وهو مختارٌ بعنايةٍ وقصدٍ محددٍ .

عناصر السُّورة :

السُّورة رسالة تطمين إلى النبيّ والمؤمنين معه على سلامة موقفهم وهم يختارون عبادة الله وطاعته ؛ وَرَدٌّ قاطعٌ على من يطلب آيةً محدودةً تكسر رتابة الطبيعة ليصدقوا دعوة النبيّ . وتؤدي هذين الغرضين من خلال المحاور التالية التي تؤكد استحقاقه سبحانه للعبادة والطاعة .

١- إتقانُ صنع الكون وحفظُه بقوانين طبيعيةٍ خلقها الله كقانون الجاذبية تغني عن العُمُد والأدوات المادية . [مثال ذلك الآيات : ٢ ، ٣ ، ٨]

٢- قيام حياة الكائنات الحية جميعاً على قوانين تحفظها من التدهور وتضمن استمراريتها لتقوم بها حياة الإنسان . ومادة حفظها هي العوامل الوراثية والقوانين التي تضبط حركتها . [مثال ذلك الآيات : ٤ ، ٨]

٣- وجود قوانين وسنن تسير المجتمعات البشرية وتتدخل بحياتها وتكون العلاقة بالله سر سريان تلك السنن .[مثال ذلك الآيات : ١١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤١]

٤- الرعد كظاهرةٍ طبيعيةٍ غيرِ راتبةٍ لكن تطرأ لظروف تلزم لإعادة توازن الكون وموجوداته ولها نظائر في حياة الكائنات الحية وسلوك المجتمعات البشرية .[مثل ذلك الآيات : ٤ ، ١٧]

٥- الردُّ على المشركين وهم ينكرون نبوة النبيّ ويطلبون آيةً كمعجـزةٍ ماديـةٍ علـى صدقه [مثال ذلك الآيات : ٧ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٤٣]

والنتيجة أن الله القادر على كلّ هذا ، قـادرٌ علـى صـنع رعـدٍ اجتمـاعيٍّ وسياسـيٍّ وحيويٍّ كما الرعد الجوي وبنفس نهجه يقلب به الأوضاع في المدينة الساكنة .

تحليل السُّورة وتفسير آياتها :

أطروحة السُّورة : بالآية المركزية التالية تبدأ السُّورة : ﴿ **الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الرعد:١) وآية الأطروحة هذه تقدم القرآن بصدق مصدره ودقّة نصّه مقابل شكّ معظم المشركين من أهل مكّة و مِن ورائهم بقية العرب . تبدأ الآية باسم الإشارة تلك مشيرة للسورة التي تتضمن آياتٍ مقنعةٍ دالةٍ على صدق القرآن . وتواصل الآية مؤكدةً أن القرآن حقّ ، أي أن ما فيه مطابقٌ لحقيقة ما يصف من الطبيعة والخَلْق ولما يناسب فطرة الإنسان . وهذا هو المعنى الدقيق لقوله تعالى ﴿ **أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ** ﴾ . وفي هذا ما يغني عن الآية المعجزة التي يطلبها المشركون .

ثم تستمر الأطروحة بالآيات ٢-٤ بتوجيه السامع والقارئ إلى عناصر الكون . وهي تمهيدٌ للرد على طلب المشركين آيةً معجزةً : ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (الرعد:٢-٤) .

فالله الذي أنزل القرآن على رسوله ليخاطبهم به ، هو الله خالق السـموات والأرض الذي يرون آياته في كلّ ما حولهم ؛ فالسماء رفعها بغير عمدٍ يرونـهـا ، بـل بقـوانين لا تُرى ولا تشغل حيزاً هي قوانين الجاذبية . وخلق الأرض وأعدها لتناسب حياتهم . ثم تأتي الآية الرابعة بطعام يأكلونه ويرون قدرة الله في صنع رزقهم من عوامـل بيئيـة ليس لها في ذاتها قدرةٌ على شيء . وفي ثنايا الآيـة سـر يتكشـف بعـد قـرون طويلـة يشبه ظاهرة الرعد لكن بأدوات نباتية .

آية من عالم النبات : تتوجه الآية الرابعة للذين يعقلون ، بأسلوبٍ علميٍّ لم يكن للناس عهد به . لكن العاقل يلتقطه بسهولةٍ ولا يملك إلا التأمل فيه . فالآية توحد كلّ العوامل المادية التي تتدخل بصنع الثِّمار وهي التربة والماء والجو ، وعاملٌ آخر ، يسهُلُ التقاط رسالته هو النظام الوراثي للشجرة . وَحَدَتْهُ الآية عندما ذكرت أن الأشجار قد تكون صنواناً أي شقائقَ متماثلةً تماماً في التكوين الوراثي لأنها تخرج من جذرٍ واحدٍ بل ساقٍ واحدةٍ ، أو غيرَ صنوانٍ أي مختلفةٍ وراثيًّا . وبذا تُحَيِّدَ فروقَ العوامل البيئية والوراثية من أن تكون السبب في اختلاف مذاق الثَّمار . ومع كلّ هذا التماثل تتفاضل الأشجار بطعم ثمارها لأن إرادة الله تتدخل بما يصنع مذاقَ كلّ ثمرةٍ.
ولا مجال للقول مع الصياغة العلمية المحكمة أن يقال لعله قصد اختلاف مذاق ثمار أنواعٍ مختلفةٍ ، فيأتي عنصر الصنوان ليبطل هذه الحجّة . ونعلم مع تقدم الزَّمن أن في النبات عوامل وراثية ـ جينات ـ احتياطية ككلّ كائنٍ حيٍّ آخر ، يُفَعِّلُها الله تعالى عندما يشاء ؛ فتؤثر بمذاق الثِّمار وبكلّ عمليةٍ حيويَّة أُخرى تعتمد على العوامل الوراثية . وتشبه عملية تفعيل الجينات النائمة عملية الرعد فهي تتحرك بسرعة وعنف يناسب حجمها وبفعل قوة كهربيّة[1] . والوسيلة الثَّانية التي يصنع بها مذاق الثَّمرة هي التلقيح فغبار اللقاح موجود في محيط الشجرة بالملايين وهو يؤثر بشكل الثَّمرة الناتجة عنه ومذاقها كما لاحظت كباحث علمي في مجال الأشجار المثمرة .
والله يحرك غبارَ اللقاح بالريح كما يشاء ليصنع به ما يريد . وللمنكرين نقول إن الله تعالى يتدخل بهذا وبما هو أدق منه حجماً ومفعولاً .

صدى الأطروحة : تبدأ السُّورة بالرد على قريشٍ بالسخرية من إنكارهم البعث ، فتتوجه الآيات (٥-٧) إلى النبيّ تشركه السخريةَ مما تقول قريشٌ وهي تنكر البعث ، وتستعجل العذاب بدل الرحمة وتطلب آيةً ماديةً .

﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ

---

١١) «الأصول البيولوجية للسلوك البشري» تأليف تيموثي جولد سميث المحاضر في جامعة أكسفورد البريطانية ، الفصل الثَّالثَّ» .

لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد:٥-٧) . والآيات صيغت بطريقةٍ مثيرةٍ للانفعال لتكون كالرعد تضطرب منه نفوس المشركين وقلوبهم .

إرعاد قلوبهم : مقابل طلبهم أن ينزل الله آيةً على النبيّ تعرض الآية (٨) نموذجاً من قدرة الله عليهم بأمر يعرفونه ويلجأون إلى الله فيه عندما يضطرون للولد ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد:٨)

ثم تأتي الآيات الثّلاث (٩-١١) بخبر من أخص خصوصياتهم ليعلموا أنهم تحت السيطرة التامة لله ولا يخفى عليه شيءٌ من أمر خلقه ولن يشعر أحدٌ منهم بالأمن إلا بإذن الله . ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾

(الرعد:٩-١١) .

فكلّهم تحت سمع الله وبصره ، وبيده ما يصيبهم وفق سننه وقوانينه سبحانه . فلكلّ إنسان معقبات تراقبه وتحرسه فتحفظه أو تخلي بينه وبين ما قَدر الله له من أمرٍ بناءً على ما في نفسه . فالأمر كلّه لله وحده .

رعود الطبيعة : تعرض الآياتُ (١٢-١٦) ظواهرَ طبيعيةً ليست راتبةً كالمطر الموسمي ، لكنها معروفةٌ تطرأ عندما تتوافق عواملها كالبرق والرعد والصواعق وهم يرون هذا ويعاينونه ، ومع هذا يجادلون في الله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ

فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ (الرعد:١٢-١٦) .
وذُكرت هذه الظواهر دون الظواهر الأكثر حدوثاً كالمطر لإبعاد شبهة التكرار والرتابة ، التي تجعل الناس ينسون المسبب .

وتقول هذه الباقة من الآيات : لله يخضع كلّ ما في الكون خضوعاً لا يقل انتظاماً والتزاماً عن سلوك الظل ؛ وهو يتبع صاحبه حيث يتحرك ويطول ويقصر حسب موقع الشمس من السماء .

رعدٌ اجتماعي : الآية (١٧) تبدأ بما يشبه ظاهرة الرعد لكن مجال عملها المجتمع الإنساني . فهي تتحدث بالرمز أو بلغة الأمثال عن طبيعة الشعوب في الانحراف عن الحقّ الذي يناسب الفطرة . ثم سنة الله في معالجة الانحراف وإعادة الناس إلى الحقّ حتى بدون أنبياء . ولعل سبب هذه الآية هنا التأكيد للنبيِّ وللمؤمنين أن الباطل طارئٌ ، وأن قوانين الحياة مصممةٌ لتقوم بالحقّ ، وتعود إليه بعد كلّ ابتعادٍ عنه . يقول تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ (الرعد:١٧) .

وتتضمن الآية بمعناها المجمل بشرى للنبي بانتصار الدعوة لأنها من نوع الماء الذي أنزله الله من السماء حسب وصف الآية . وهي قيم الفطرة التي لا تقوم الحياة سويةً إلا بها . وعليها تحرص إرادة الله رحمةً بالبشر . فليطمئن قلب النبيّ ولتضطرب قلوب مكذبيه .

رعود نفسية : وفي بقية السُّورة تُعرُض أنواعٌ من الرعد النفسي ترتعد بها نفوس أهل مكّة وعقولهم :

١- الآية (١٨) تعرض مصير الفئتين : الفئة التي استجابت لدعوة الله فكانت لها الحسنى والتي لم تستجب لأنها مشغولةٌ بالدنيا مبهورةٌ بزبدها . لذلك عرضت الآية مصيرها مقرونةً بما تملك : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ (الرعد:١٨) . وهل يمر وعدٌ من الله بسوء الحساب والاستقرار في جهنم دون اضطراب؟

وتواصل الآية (١٩) المقارنة بين الفئتين لكن من زاوية المستوى الفكري لكليهما فالمؤمن من أولي الألباب يعلم صدق النبيّ والآخر أعمى ؛ . وتواصل الآيات (٢٠-٢٥) وصف الفئتين وما ينتظر كلاً منهما في الآخرة ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:١٩-٢٥) . ومرةً أخرى تأتي اللعنة والوعد بسوء الدار هزةً عنيفةً للمشركين !

ويُلاحظ أن الآيات هنا لا تدير حواراً مع المشركين بل تتحدث عنهم . وتُظهِر رضا الله عن الفئة المؤمنة وللمقارنة بين الفريقين . ويسمع أهل مكّة هذا ويفهمون القصد من الحديث عنهم بضمير الغائب وإخبار المؤمنين عن مصير الفئتين! ومن يعرف التكوين النفسي لأهل مكّة حينذاك يقدر قوة الهزة النفسية التي تصنعها هذه الآيات بهم .

٢- واستمراراً لما في الآية (١٧) التي وصفت الرعد الاجتماعي وردًّا على المأخوذين بزبد الحياة تأتي الآيات (٢٦-٣٢) تعرض ترهاتهم وتذكرهم أن الله يبسط الرزق فيفرح عشاق المتعة والزُّخرف به ؛ مع أن رضا الله والاطمئنان إليه أهنأ في الدنيا وفي الآخرة . ويعيد المعاندون حجّتهم بطلب آيةٍ . وكي لا يُخدَع المؤمنون بحجّة المشركين تؤكد الآية (٣١) أن قومهم لن يؤمنوا حتى لو أنزل الله عليهم آيةً ، وتهدد المشركين بقوارع تحل بهم أو قريباً منهم مما يستقيم مع اسم السُّورة . وتُذكِّر الآية (٣٢) النبيّ أن سلوك قومه هو سلوك معظم الشعوب التي خوطبت قبلهم فأخذهم الله عقاباً ، ويفقد المشركون زهوهم بحجّتهم عندما يعلمون أنها ليست جديدةً فقد سبقهم إليها كثيرون : ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا

فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (الرعد:٢٦-٣٢) .

٣- بمناجاةٍ دافئةٍ للنبي تلخص بقية آيات السُّورة معالم الموقف العام في مكّة وما حولها من زاوية بعث السكينة في قلب النبيّ والمؤمنين معه ، وترك المكذبين في ضلالهم واضطرابهم . وتستغربُ الآية (٣٣) شركهم انطلاقاً من حرص الله على البشر ورقابته الدائمة لهم ؛ وبالمقابل يشرك به أهل مكّة ! فاسألهم يا محمد عن أسماء الشركاء المخترعين ، وكيف يكون لله شركاء لا يعرفهم ، وهو القائم على كلّ نفس ويعلم ما في السموات والأرض . بل هو مكر المشركين الذي استحقّوا به الضلال وحُرموا من الهدى ، وسينالهم به عذاب الدارين لا يحميهم من الله شريك ولا سواه : ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ (الرعد:٣٣،٣٤). وبالمقابل فإن المتقين سيكافؤون بجنة نعيم : ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ (الرعد:٣٥) .

وبجو مؤنس تخبره الآية (٣٦) أن أهل الكتاب يفرحون بما أنزل إليه إلا أصحاب الأهواء منهم :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾ (الرعد:٣٦) ولم تنس الآية تحذيره ما سيحاول أصحاب الأهواء من أهل الكتاب معه . بل جاءت الآية التالية

(٣٧) لتؤكد له أن كتابه غير كتابهم فهو حكمة وقانون للعربِ وبالعربيَّة وأولئك قوم آخرون : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴾ (الرعد:٣٧) بل تنتهي الآية بتحذير شديد من الركون لمُنحَرِفي أهل الكتاب! ثم تعود الآيات (٣٨-٤٣) للرد على طلب المشركين آية وتؤكد للنبيّ أنه ليس مختلفاً عن بقية الرسل . بل كلّهم يرسلون وفق نفس السُّنة . ويؤكد له انتصاره وخيبة الكفار فإن قالوا له« لست مرسلا» فليقل لهم بثقة « كفى بالله شهيداً بيني وبينكم» . ترى ألا يصنع هذا التهديد المصحوب بإهمالهم وإشعارهم أنهم محرومون من الهدى بسبب انحرافاتهم وليس باختيارهم ، ألا يصنع هذا رعداً في قلوبهم وعقولهم .

وختاما تطميناً لقلب النبيّ وتأكيداً له أنه على الجانب السليم وأن رسوليته لا تخرج عن سنة الله في الرسالات ؛ وأن المشركين يسعون بأرجلهم إلى نهايةٍ سيئةٍ محتومةٍ يقول تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ (الرعد:٣٨-٤٣) . فهي سلامٌ لقلب النبيّ ورعدٌ يضطرب في صدورهم .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر حيرة العلماء بشأن الآية (٤١) . فلم يستقروا على قول بشأن نقص الأرض من أطرافها ولم يأتوا بقولٍ مقنعٍ . وتذكرني الآية

بحديث النبيّ الذي رواه مسلم (لـن تقـوم القيامـة حتـى تعـود أرض العـربِ مروجـاً وأنهارا) . فهو يصف حالـة تصـحر شـديدٍ أصـابت جزيـرة العـرب . ولعلـهم كـانوا يعيشون أواخرها كما يصف لهم آباؤهم أوينقلون لهـم عـن أجيـالهم السـابقة . وإلا فمن أين جاء النبيّ بهذه المعلومة التى صدقتها الأيام . فلولا أن الجزيرة كانت تتمتع بغطاء نباتى كثيف جدًّا ما تكون النفط فى باطنها وبكميات لعلـها الأكـبر بـين أقطـار الدنيا . وكان التصحر يزحف على أطراف الحواضـر مـن الصـحراء كمـا هـي عـادة الطبيعة . وهو ما يتفق مع الوصف القرآنـي : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** . . . ﴾ . وفي هذه الظاهرة غير الراتبة آيـةٌ لمـن يطلـب دلـيلاً ليـؤمن! وهـي تناسب سورة الرعد من حيث أن مصدرها جويٌّ ولها علاقة بالمطر والرعد . فمعظم أمطار المناطق الصحراوية يترافق مع رعد وحالات عدم استقرار جويٍّ .

* * *

سورة إبراهيم

سورةٌ تشرح الصدر وتبعث على الرضا ؛ مع أنها تتحدث عن كفرةٍ مُعْرِضين عن قبول الإيمان ، بل محرومين منه . تخاطب النبيّ بعبارة « ألم تر » التي تدعو النبيّ للتفكر والتأمل . ويشعر القارئ أن مفرداتها تفيض بالبشرى . فكأنها نزلت في أواخر العهد المكي مبشرةً بالعهد المدني وفتحه الإيماني العظيم . ولتكتمل أجواءُ الرضا تسمت باسم الأب « إبراهيم » . فهو مصدر الفخار لقريش ورمز النجاح للمؤمنين . وتَعرِض الدين على أنه نعمةٌ لمن يُرسل إليهم . وتؤكد استمرار دعوة الحقّ ونجاحها ممثلةً بشجرةٍ طيبةٍ راسخة الجذور في أعماق الأرض تتجدد كلّ حين . وبالمقابل تصف الكفر بأنه طارئٌ على النفس البشرية وزائلٌ لا محالة فهو كشجرةٍ قريبة الجذور ، لا تكاد تستقر حتى تُجتَثَّ من فوق الأرض ما لها من قرار .

عنوان السُّورة وموضوعها :

تأخذ السُّورة اسمها من إبراهيم جد قريش المذكور في السُّورة . ثم يتسع موضوع السُّورة لكلّ المعاني التي يمكن أن تُستنتج من مادة « برهم » . ومع أن اسم إبراهيم أعجمي إلا أنه يتفق لفظاً مع مادة برهم العربيَّة . وهي تعني إطالة النظر والتجدد . والمعنى الأول مسجل في مقاييس اللغة للرازي وفي لسان العرب وكلاهما يورد بيتا لعجاج يقول فيه :

بُدِّلن بالناصع لونا مُسْهما ونظراً هون الهوينا برهما

إنها سورة البرهمة أو التأمل والتفكر اللذين أشرنا إليهما في المقدمة .

وجاء المعنى الثَّاني في اللسان : « البرهمة ، برعمة الشجر » حيث يجتمع الجزء النشط في نموه من الشجرة ورقاً وزهراً وثمراً . ولكنه لم يسق دليلاً على هذا المعنى من شعر الجاهلية .

والتبرهم أو التبرعم يعني عمليًّا تجدد الشجرة ونموها وهنا يقابل تجدد الإيمان بالله وانتصاره على الكفر الذي يقابل السكون في ظلمات الكفر ، والركون لحياة الشهوات . بل إن في السُّورة ثلاث آيات (٢٤-٢٦) تربط صراحة بين الكلمة الطيبة

رمز الإيمان وبين الشجرة الطيبة الراسخة في الأرض التي تؤتي أُكلها كلّ حين ؛ والشجرة لا تؤتي أكلها إلا بعد تبرعم يعطي زهراً فيعقد ثمراً . وهذا هو مفعول برهمة النبات . وكذلك تربط بين الكلمة الخبيثة رمز دعوة الشر وبين الشجرة الخبيثة العقيم غير المستقرة بل الطارئة على الأرض .

ويتضافر هذان المعنيان : « التأمل والتجدد » ليجعلا من سورة إبراهيم بشرًى وطمأنينةً للنبيِّ وهو يتلقاها من ربّه بالرضا .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تحدد الآية الأولى الفكرة الرئيسية للسورة : ﴿ **الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ** ﴾ (إبراهيم:١) وفيها تبدو رحمة الله وكرمه مع الأمة المخاطبة بالقرآن . فبهذا القرآن وبإذن الله سيخرج قوم النبيّ من الظلمات إلى النُّور ، بنعمة الله عليهم مُفعلاً لهم اسميه العزيز والحميد ليحمدوه منعماً عليهم بالهدى ؛ وليكون لهم بفضله عزةٌ .

ثم يَتبَع الآية الأطروحة ثلاثُ آيات (٢-٤) تُغني معانيها وتُفَصِّل آلية تنفيذها : ففي الآية الثَّانية أن لله كلّ ما في الكون ؛ وبإذنه يكون كلّ شيء . والآية الثَّالثَّة تصف أهل الظلمات بأنهم الراضون بقيم الحياة المادية ، الكارهون للتغيير ، المعارضون لقيم العدل . وتبين الآية الأخيرة منهن أن الرسل هم وسيلة الله للتغيير . وللرسل مواصفاتٌ أولها قدرتهم على نقل الرسالة للمخاطبين : ﴿ **ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ ۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ (إبراهيم:٢-٤) . واختارت المقدمة صفة اللسان دون صفات الرسل الأخرى لأن رسولهم السابق بالحنيفيَّة إبراهيم لم يكن عربيًّا ، ولم يكن يجيد العربيَّة ، فيسر الله له أن يتعلمها حتى أتقنها ، فاستحقّ أن يكون لهم رسولاً كما تشير الآية (١٢٤) من سورة البقرة . فتكون هذه الآية مقدمةً لذكر إبراهيم في السُّورة ، وأنه سيُذكر كأبٍ للعرب ورسولٍ لهم يتمنى لهم الهدى والتَّوحيدَ والخيرَ إلى يوم القيامة .

أمثلةٌ رسوليةٌ : في أربع آياتٍ تُعرض قصة موسى مع قومه ونجاحهم بالانتقال من العبودية والهوان إلى الحرية ونعمة الله . ويعدهم موسى بالمزيد إذا شكروا الله وقدروا نعمة الله عليهم : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ** ﴾ (إبراهيم: ٥-٨)

ثم تُحضِر السُّورة مثلاً آخر لأقوامٍ عدةٍ لم يستجيبوا لرسلهم فكان العذاب الدنيوي المدمر نهايتهم . وفي كلّ مرةٍ نصر الله رسله وأورثهم أرض قومهم الذين هلكوا .

﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (إبراهيم: ٩-١٣)

وبعد هذا الحوار بين الرسل وأقوامهم يخاطب الله سبحانه الرسلَ مباشرةً ومبشراً لهم بالنصر وميراث الأرض بعد أن يُفنِي المكذبين . ثم يتحول الحديث بلغة الغائب عن مصير كبار المكذبين في الدنيا والآخرة ، ولا ينسى مصير أعمالهم الحسنة في الدنيا ، فهي مرفوضة لأنها لم تنطلق من إيمان بالله ﴿ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ**

بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم: ١٤-١٨)

وبذا تشكل آيات هذه الفقرة نماذج من البرهمة بمعنى التبرعم واندفاعة نمو جديدةٍ ، وتجديد إيمان الشعوب المخاطبة سواءً أقبلت الدعوةَ كبني إسرائيل ، أم رفضتها كعادٍ وثمودَ وقوم نوحٍ وقوم شعيبٍ . تتلوها آيتان تدعوان للبرهمة بمعنى التأمل وإطالة النظر بأحداث الفقرة السابقة ، وتربط ذلك بقدرة الله وإحكام خطته التي وضعها لبني آدم ، ومُذكرةً بما جاء في أطروحة السُّورة . تقول الآيتان (١٩-٢٠) للنبي ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (إبراهيم: ١٩، ٢٠) .

مشهد من يوم القيامة : بلطف ، لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، تنتقل الآيات إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة . ولو قام بهذه النقلة بشر لفقد الاتصال بالنص ، أو جاء بنصٍّ مشوهٍ ثقيلٍ على النفس . انتقلت الآيات من أحداث في الماضي البعيد إلى مستقبل خارج حدود زماننا الأرضي ، دون أن نشعر بالنقلة أو نستغربها . ويأتي مشهد القيامة ليعالج مشاهد التاريخ السابقة ، وما يمكن أن تولده في نفس السامع من سلبيةٍ وعدم اكتراث ، خصوصاً أنها موجهةٌ لأناس ركنوا إلى متاع الحياة ولم يضعوا الآخرة في اعتبارهم . فلا بد من نصٍّ قويٍّ يبصرهم بنتائج موقفهم ، ومواقف أمثالهم ممن عصوا الله ، وأطاعوا سواه ظانين أنهم متكؤون على صخرةٍ صلبةٍ . فإذا بشركائهم يتخلون عنهم ويواجهونهم بالحقيقة . إنه لموقفٌ قاسٍ على النفس أن يخذل المرءَ خليلُه المعتمدُ عليه . ثم يأتي اعتراف إبليس ضربةً صاعقةً لمن اتخذوه هادياً لهم في الحياة . والحديث موجهٌ للنبيِّ : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ

أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢١،٢٢)

وبالمقابل وفي مشهدٍ مزامنٍ نرى المؤمنين الذين اختاروا الله ، وصدَّقوا رسله ونصروهم ، وقد دخلوا الجنة وعاشوا نعيمها ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ (إبراهيم:٢٣)

وفائدة هذين المشهدين من مشاهد القيامة إخبار الفئتين المطيعة لله والعاصية ، أن المعركة بين الحقّ والباطل لا تنتهي بما يكون على الأرض وفي الحياة الدنيا ؛ رغم حتمية انتصار المؤمنين وهزيمة المكذبين ودمارهم . فبعض المكذبين سيرى الموت نهايةً طبيعيةً وأمراً حتميًّا ؛ فليكن! ولا يهم هؤلاء أكان الموت بصاعقةٍ أو ريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ ما دام هو النهاية . فيأتي هذا المشهدان ليقولا : لا ، ليست هذه هي النهاية بل هو خلودٌ بعد الحساب في الجنة أو في النار . وهنا ستختلف حسابات القوم !

كلمتان وشجرتان : ثلاث آياتٍ (٢٤-٢٦) على صورة مثلين للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة أو الدعوة الربّانية والدعوة الشيطانية . ويتفق استعمال الأمثال وعرضها بعد عبارة « ألم تر » مع اسم السُّورة . فالصيغة تأمر بالتأمل والنظر أو البرهمة المتفقة في جذرها مع اسم إبراهيم . تأمر الآيات النبيّ بالتأمل والنظر بالشجرة الطيبة الراسخة في الأرض ، تَتَبرهمُ ويتجددُ نشاطها كلّ حينٍ بإذن ربّها . وكذلك التأمل بالشجرة الخبيثة ، رمز دعوة الشر المخالفة للفطرة ، التي لا تستطيع البقاء في التربة لغربتها عنها ، وعدم قدرتها على التعمق بها ، فهي بلا جذور من الفطرة الإنسانية ، ولا تستطيع التفاعل مع الطبيعة . ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦)

وتوقيعاً لهذين المثلين على الأرض تأتي الآية (٢٧) . فأصحاب الشجرة الطيبة والكلمة الطيبة يُثَبَّتون على الحقّ في الدنيا لا يزيغون عنه ، وكذلك أمرهم في الآخرة يوم يقوم الحساب . ويدفع الله أتباع الشجرة الخبيثة والكلمة الخبيثة للضلال !

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم:٢٧)

دعوة للتأمل والعبرة : باقةٌ جديدةٌ تناجي النبيّ بمصير الذين كفروا ، ليتأمل بما يفعلون بأنفسهم وبقومهم من شرور ، ثم يأمره بتوجيه المؤمنين من قومه إلى سبل الفلاح وبتذكيرهم بفضل الله عليهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

(إبراهيم:٢٨-٣٤)

عظة من قصة البداية : سبع آياتٍ تدعو النبيّ لتُذكِّر قصة إبراهيم كمؤسسٍ لقريشٍ يوم ترك ولده وزوجه بوادٍ غير ذي زرعٍ ، موقناً من رعاية الله لهما . وبلمح البصر تنتقل الآيات إلى مشهد إبراهيم ربّ العائلة السعيدة أصل أُمتين كريمتين على الله . فيدعو هنا لذريته من إسماعيل بإخلاص أن تقيم الصَّلاة . ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٣٥-٤١)

وختاماً : بما يناسب قصة إبراهيم العربيَّة ، وبما يتفق مع أجواء سورة اسمها إبراهيم ، تأتي الآيات الأخيرة من السُّورة تناجي النبيّ بمصير الظالمين من أهل مكّة

يوم الحساب : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (إبراهيم: ٤٢–٤٣)

وفي الآيتين التاليتين يوجه الله رسوله أن يُخوِّفَ المشركين يوم القيامة ، ويُذكِّرَهم بمصائر أممٍ سابقةٍ عرفوها سكنت مكّة قبلهم ، ثم يذكر شدة مكرهم ، لا ليخوفه منهم بل ليعلمه أنه تعالى مطلع على ما في قلوبهم ومحيط بهم : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾

(إبراهيم: ٤٤–٤٦)

ثم يطمئن الله رسولَه أنه سيكون معه ينصره في هذه الحياة كما هي سنته دائماً بنصر رسله . وليس النصر الدنيوي وحسب بل سيواصل الله الانتقام بعد يوم القيامة ممن كذَّبوا رسوله . فالعدل من أسس عمل الله وسننه في هذا العالم ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم: ٤٧–٥٢).

* * *

سورة الحجر

أُعطيت السُّورة اسمها «الحجر» لتصف خُطط الله وتدبيره في حفظ ما يريد حفظه وبقاءه سليماً . وتسخر من حجرِ البشر ممثلاً بما فعله أصحابُ الحجر وهم يَحْتَمونَ ببيوتٍ ينحتونها بالصخر لتحفظهم من أمر الله ومن عدوان نظرائهم من البشر . ففاجأهم الله ذات صباح بصيحة عذابٍ أهلكتهم أجمعين .

وربّما اتفق ترتيبها في المصحف مع زمن نزولها . فهي تشير إلى تفاعلاتٍ متطورةٍ بين مشركي مكّة وتبلور جماعاتٍ معاديةٍ للنبيِّ وللقرآن كالمقتسمين والمستهزئين . وهي مناجاة حميمة للنبي فيها تثبيتٌ له وتطمينٌ لقلبه . فهي أشبه بورقة داخلية خاصة بلغة الدعوات وأحزاب التغيير في هذا الزَّمن . ولم يرد فيها تكليف للنبي ليبلغه لقومه باستثناء تذكيره بالاستمرار في دعوته . حتى التهديد بإهلاك المكذبين الوارد فيها وعذاب المقتسمين والتكفل بمصير المستهزئين جيء به لتطمين قلب النبيّ والمؤمنين معه ، ودعم موقفهم وتخفيف حزنهم . كما تدخل آياتٌ من السُّورة داخل عقولهم وقلوبهم لتخبر النبيّ بما كانوا يفكرون به . من ذلك قوله تعالى في بدايتها ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ (الحجر:٢،٣) . فهم يتمنون الإيمان لكنَّ الإيمان محجوبٌ عنهم بسبب ما كانوا يكتسبون .

مطالعات في كتب التراث :

الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» بدأ وصفها مقترباً من جوهرها مستعملاً كلمة الحفظ وما يؤدي وظيفتها خمس مرات قائلا : « مقصود السُّورة إجمالاً : بيان حقيقة القرآن ، وحفظ الحقّ وبرهان النُّبوَّة وحفظ الحقّ كتابَه العزيز من التغيير والتبديل ، وتزيين السّماوات بمواكب الكواكب وحفظهما برُجوم النجوم من استراق الشَّياطين السّمع ، وتقديره تعالى الماء والسّحاب من خزائن برّه ، ولُطْفه ، وعلمه تعالى بأَحوال المتقدّمين فى الطَّاعة والمتأَخِّرين عنها .» ثم واصل سرد مواضيعها كعادته .

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها :

عنوان السُّورة الحجر . أخذت اسمها من قصة أصحاب الحجر . وهم بإجماع المفسرين قوم صالحٍ المعروفون بقبيلة ثمود . ولكن الله سبحانه ذَكَرَهُمْ هنا باسمهم « أصحاب الحجر » ليشتق من صفة مسكنهم عنواناً للسورة . ووردت قصتهم هنا في خمس آياتٍ هي (٨٠- ٨٤) ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** ﴾ (الحجر: ٨٠-٨٤). وفيما وراء هذه السُّورة ذُكِرت ثمودُ ورسولُها صالحٌ في القرآن ستًّا وعشرين مرةً . وذُكروا هنا باسم أصحاب الحجر لأن فكرة السُّورة هي الحجر الذي يجعله الله حول ما يريد حمايتَه وإحاطته بحجر منه سبحانه .

فما هو الحجر الذي تَسَمَّوا به؟ وما معنى كلمة الحجر؟ أما اسمهم فهو اسم مدينتهم أو صفتها . فهي كما يبدو من الوصف القرآني جبالٌ صخريةٌ تتخللها وديانٌ وتحيط بها لقوله تعالى في سورة الفجر ﴿ **وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ** ﴾ (الفجر:٩) . فاتخذوا من الجبال الصخرية المنيعة حجراً يحميهم من عدوان الغزاة ، ومن عوامل الطبيعة ؛ ونحتوا بيوتهم على سفوح الجبال . فشعروا بأمانٍ من الغزاة ومن عوامل الطبيعة . فهم في نظر أنفسهم محميين بجبالٍ صخريةٍ وبوادٍ ؛ وكلاهما يستحقّ اسم حجرٍ من وجهة نظر البشر . وسواءً أكان الحِجرُ اسمَ مدينتهم أم اسمَ الوادي أم أنه مجردُ صفةٍ للمدينة فالنتيجة واحدةٌ ؛ وهي شعورُهم بأنهم في حجرٍ .

وأما الحجر عند أهل اللغة ، فهو كما جاء في مقاييس اللغة لابن فارس الرازي : « . . المنع والإحاطة على الشيء . . والعقل يسمى حجراً لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي» ومن الاستعمالات التي يذكرها الرازي : الحجر بمعنى الفرس الأنثى وهي تصان ويُضن بها ، والحاجِر ما يمسك الماء من مكان منهبط ؛ وحجر القمر إذا صارت حوله دارة . . ومحجر العين ما يحيط بها ، والقرابة لأنها ذمام وذمار يُحمى ويُحفظ . ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام :١٣٨ ﴿ **وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** ﴾ (الأنعام:١٣٨) أي أنعامٌ محميةٌ ممنوعةٌ على غير من حُفِظت له .

من هنا نخرج بأن معنى الحجر حماية شيءٍ ثمينٍ وإحاطته بما يضمن عدم الوصول إليه بأذى أو إفساد . وظن قوم صالحٍ أنهم بحجرٍ وهم ينحتون من الجبال بيوتاً وإنهم لكذلك لولا أمر الله ! وتأتي سورة الحجر لِتَذْكُر محمياتٍ يحفظهن الله ليطمئن قلب النبيّ .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تطامن السُّورة من قلب رسول الله وهي تناجيه أنه في حجرٍ من الله أو في حماية الله ؛ وكذلك دعوتُه والكتابُ الذي يتنزل عليه وطعامُه وشرابُه . بعكس الذين يكفرون به ويعاندونه فهم في مهب الريح إذا أراد الله ذلك . لأن أقصى ما يستطيع مجتمعٌ بشريٌّ صنعه لحماية نفسه هو ما صنعه قومُ صالحٍ أصحابُ الحجر كما سمتهم السُّورة ؛ فأخذهم الله بصيحةٍ واحدةٍ فإذا هم هامدون . بينما النبيّ ومن كان معه في حجرٍ من الله لا يقدر على النيل منهم إنسٌ ولا جانٌّ . وإلى تفصيلات ذلك في السُّورة :

مقدمة السُّورة :تبدأ الآيةُ الأولى واصفةً السُّورة بأنها قرآن مبين : ﴿ **الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الحجر:١) . فهي بشرى للنبيِّ بأن هذه السُّورة ستُقرأ كثيراً وتُتَخَذُ آياتُها مَراجعَ وحِكَماً على ألسنة البشر . وصدق الله فلا يكاد يوجد مسلمٌ لا يردِّد قوله تعالى ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ ومثلها عددٌ آخر من آيات السُّورة التي صيغت على طريقة التَّوقيعات أو الحِكَم الموجزة الحاسمة .

ثم تتبعها ثلاث آياتٍ تشكل معها مقدمة السُّورة ، وتدخل داخل نفوس المشركين ، تكشف ما يحرصون على إخفائه وتصفهم بما يليق بهم وتهددهم بعذاب يناسب كفرهم . : ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ** ﴾ (الحجر:٢-٤) . وفي داخل كلّ من هذه الآيات حجرٌ يحمي شيئاً أو يمنع شيئاً آخر . فالمشركون يودون لو كانوا مؤمنين لكن أحاط بهم ماضيهم فحال بينهم وبين الإيمان حسب سنة الله في خلقه . وفي الآية الثَّالثَّة يحيط الأمل بالقوم ليشغلهم عن الإيمان . ثم تشير الآية الرابعة إلى خطةٍ إلهيةٍ لا يمكن تجاوزها وهي التي تحدِّد شرط إهلاك قرية وموعد تنفيذه . والآيات الثَّلاث تأتي على طريقة المناجاة الوَدود ، فهي تتحدث عن المشركين كلاماً خاصّاً للنبيِّ ولم يُقصد منه إسماعُهم

أو توجيههم بل تركهم على ما هم فيه من ضلال ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر:٣) . فليس لدعوتهم أو وعظهم تأتي هذه السُّورة بل لمناجاة النبيّ .

وبأجواء آيات المقدمة الأربع تتحرك السُّورة حتى نهايتها مع تركيزها على سنن الله في حفظ ما قدَّر الله تعالى حفظَه من زاوية مناجاة السُّورة للنبي تثبيتاً له وتطميناً . وسميناها مقدمة وليس أطروحة لأن حضورها في بقية السُّورة لم يكن بقوة حضور الأطروحة المعتادة . فهي موجودة لكن تحت غَلَبَـةِ العنوان . أي أن حضور معنى كلمة « الحجر » يأتي أكثر ظهوراً في ترتيب أفكار السُّورة . مع أن المقدمة نفسها منضبطةٌ بحدود العنوان لكن برشاقة الصياغة القرآنية التي اعتدناها .

لكلّ أمة حينها : على طريقة القرآن في الانتقال تأتي الآية الخامسة متممةً لموضوع الآية الرابعة وعلى طريقة قانونٍ طبيعيٍّ للعقاب ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ (الحجر:٥) . ثم تواصل الآيات (٦-٨) عرض أحد مواقف المشركين من النبيّ والرد عليه وذلك استجابة للآية الثَّانية من السُّورة : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ (الحجر:٦-٨) . فنزول الملائكة منضبط بخطة قديمة لا تغيير عليها . وغير قابلة للكسر .

حجر حول الكتاب العزيز : نصل الآية التاسعة المصاغة بإيجاز وحسمٍ وبعهدٍ من الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) لتقوم بأكثر من وظيفةٍ دون أن تكسر قاعدةً من قواعد الخطاب المعروفة . فهي حجرٌ محكمٌ من دارات سورة الحجر . فالقرآن هو الذِّكر المنزل من عند الله والمحفوظُ بإرادة الله تعالى ولطفه وإحاطته بكلّ ما في الكون . وهي للنبيِّ بشرى بأن هذا الذِّكر المُنزَّل عليك باقٍ ما بقيت السموات والأرض ؛ فلا تعبأ بما يقوله المشركون . وهو ردٌّ على المشركين إذ يتهمون حامل الذِّكر بأنه مجنون . فهو لا يأتي بجنونٍ بل بذكرٍ محكم .

حجرٌ لحماية حقيقة الإيمان : وتواصل الآيات (١٠-١٥) مناجاة النبيّ بأن رد فعل قومه تجاه دعوته وتجاه القرآن يشبه سلوك الأمم جميعاً تجاه أنبيائها . فالله يرسل النبيّ لتجديد مجتمعٍ ابتعد عن قيم الفطرة . والإيمانُ نعمةٌ من الله فلا يدخل إلا القلوب التي تستحقّه ؛ وأصحابُها قلةٌ عادةً في الأمة المخاطبة ، وإلا لما احتاجوا

دعوةً ونبيًّا . وسنة الله هذه هي حجرٌ آخر لحماية الإيمان أن يتلوث بالمنافقين ومرتكبي الفواحش : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: ١٠-١٥)

حجرٌ لحماية أخبار السماء : مع الآية (١٦) نلاحظ انتقالاً لطيفاً . فمن العروج في السماء ينتقل النصُّ ليحدثنا عن بروج السماء . في الآيات الثَّلاث التي صيغت بإيجازٍ لنطلع بها على حجر يحفظ الله به السماء أن تتجسس عليها شياطين الجن الطامحة لما لا يجوز لها . ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾

(الحجر: ١٦-١٨)

ودارات حجر لحفظ الأرض وما فيها : ينتقل النصُّ إلى الأرض ليؤكد للنبيِّ أن الأرض صُنعَت بدقةٍ وإحكامٍ ، وأن كلّ ما فيها مقدرٌ بدقةٍ بالغةٍ سلفاً لتكون كافيةً لسكانها ، وهي محفوظةٌ برواسي ثابتةٍ . وفيها أكثر من دارة حجرٍ لتناسب السُّورة اسماً وموضوعاً . فالنبات ينبت بقدرٍ مقررٍ سلفاً في خُطة الخلق ؛ ولكلِّ مادةٍ لازمةٍ لحياة الخلق خزائنُ عند الله لحفظها ، وتتنزل وفق الحاجة إليها ووفق الخُطة الأصلية للكون ؛ حتى الماء ينزل بقدرٍ وهو محفوظٌ بقوانين الله التي لا تُرى ؛ لكنها تقوم بمثل وظيفة المخازن الأرضية . والناس على الأرض ليسوا بحالٍ مختلفٍ أمام علم الله وقدره وقضائه ؛ فالله يحيي ويميت وهو حاشرهم يوم القيامة للحساب ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجر: ١٩-٢٥)

حجرٌ للمخلَصين : باقة الآيات (٢٦-٤٨) تعرض قصة آدم وإبليس بأطروحةٍ خاصةٍ بها لتؤدي معنًى يصلح أن يوضع في سورة الحجر دون سواها ، فتبدأ بأحد أسباب الكفر ؛ وهو التكبر بفعل المَحتِد على طريقة إبليس ؛ إذ ظن أن معدنه خيرٌ

من معدن آدم . ثم تؤكد القصةُ عجزَ إبليس عن غواية المخلَصين من عباد الله فهم في حجرٍ من رعاية الله وعنايته تحفظهم من غواية إبليس . وتنتهي الباقة بمصير أتباع إبليس ومصير عباد الله المؤمنين . وجوهرها دارة الحماية التي أحاط الله بها عباده المخلصين من فتنة إبليس : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ** ﴾ (الحجر:٢٦-٤٨) وبهذه الباقة يطمئن النبيّ ثلاث مرات : الأولى عندما يعلم أن له نصيباً مقسوماً من المؤمنين المخلَصين ، سيتَّبِعونه ويُلبُّون دعوته بما قدموا من صبر على فتنة إبليس ، وبما حفظوا أنفسهم فحفظهم الله . والثَّانية أن الرافضين لدعوته إنما منعتهم انحرافاتهم النفسية والخلقية وتكبرهم ، وذلك الحرمان من الإيمان أشبه بعقاب لهم على ما اكتسبوا فلا أسف عليهم . والثَّالثَة أن العدل الإلهي بانتظار الجميع جنةً وناراً . ومن حيث العنوان نرى في الباقة نوعين من الحجر ، الأول لحماية الإيمان أن يصله أتباع إبليس بسبب تكبرهم على الحقّ وعلى داعية الحقّ . والثَّاني لحفظ عباد الله المخلصين من السقوط بغواية إبليس وخصوصا الوقوع في الزِّنا .

أمثلة من الماضي : كعادة القرآن بعد أن يذكر سنة من سنن الله في الخلق يُتبعها بأمثلةٍ من أحداث الماضي تصدقها أو تكون توقيعاً لتلك السُّنة على الأرض أو في

أمةٍ من الأمم . وتبدأ الأمثلة التاريخية بأمر موجهٍ للنبيِّ ضمن الآيتين (٤٩،٥٠) ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩،٥٠)

وعلى طريقة القرآن عندما ينتقل من القاعدة إلى تطبيقها ، تبدأ الآية (٥١) بنفس الكلمة « نبئ » ، وتبدأ بقصة قوم لوطٍ منذ جاء ملائكة العذاب إلى إبراهيم ليبشروه بغلامٍ حليمٍ ، ثم يبشروه بهلاك قوم لوطٍ ، ونجاة لوطٍ ومن اتبعه بترتيبٍ إلهي . فهي رسالةٌ واحدةٌ تتفق مع موضوع سورة الحجر إذ تجعل حجراً يحمي الإيمان وأهله وأدواته ، وحجراً يحيط بقوى الشر حتى يدمرها . فإبراهيم يُبَشَّر بغلام يجدد حياته بجيلٍ قادمٍ ، ولوطٌ يُبشر بنجاته ، ونجاة المؤمنين معه من عذاب سينزل لهلاك القوم الذين كذبوه ، وعصوا الله ربّهم . ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر: ٥١-٧٧)

وحرصت الآيات كما نرى على استعمال مفرداتٍ تذكر بما تفعله قريشٌ وهي تشك بإمكانية إهلاك الله لها ؛ هنا تقول الملائكة للوطٍ « جئناك بما كانوا فيه

يمترون» ومع أنه لم يبق بينهم وبين الهلاك سوى ساعات ، إلا أنهم يعمهون في سكرتهم . ثم تكون علامات ذاك الهلاك على طريق أهل مكّة للشام ليتعظوا وهي آياتٌ للمؤمنين ليطمئنوا لنصر الله لهم . ولم تكن الآيات موجهة للمشركين كما هي العادة في معظم السور عندما تذكر مصائر الهالكين . وذلك لأن هذه السُّورة مناجاةٌ للنبي ليطمئن ويُطَمئن أتباعه .

وأمثلةٌ أخرى على طريق مكّة إلى الشام التي لا يستغنون عن ارتيادها في تجارتهم :

المثل الأول من قوم شعيبٍ ﴿ **وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ** ﴾ (الحجر:٧٨-٧٩) فآثارهم وبقايا دمار قوم لوطٍ على طريقٍ مطروقٍ يعرفه أهل مكّة فليتعظوا .

والمثلُ الثَّاني نهاية أصحاب الحجر . ثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وظنوا حجرَهم مانعَهم من الله ؛ وجبلَهم يحميهم من الأعداء ومن عوامل الطبيعة . فأخذهم الله بما لم يحسبوا حسابه . بصيحةٍ صعقتهم فأصبحوا هامدين . وربّما ساعدت تضاريس حجرهم ، وسطوح صخوره ، على زيادة مفعول الصيحة ؛ فكان حجرُهم عليهم مع خالقه ولم يكن لهم . ﴿ **وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ** ﴾ (الحجر: ٨٠-٨٤)

فلا حجر إلا حجرُ الله . ألا يكفي هذا ضمانةً للمؤمنين؟

تعقيبات :

كعادة القرآن تُختتم السُّورة بنتائج منطقيةٍ لما يتقدم منها . وفي سورة الحجر كان موضوع حفظ الله للدعوة ورجالها وأدواتهما ،ولنظام الكون والحياة والفطرة البشرية ، كما وضعه سبحانه ، من أن يعبث به عابثٌ من إنسٍ أو جانٍ . وتأتي خاتمة السُّورة مؤكدةً على سلامة خُطة الله في الخلق ، وسريانها كما وضعها الله إلى قيام الساعة . وعليه فعلى النبيّ أن يصبر ولا يستعجل ، بل ليصفح الصفح الجميل عن سوء تصرفات قومه . ويذكره بنعم الله عليه بالقرآن العظيم الذي يفوق أي نعمةٍ حظي بها سواه ، ويذكره بقضاء الله على المستهزئين به ، وعذاب الذين يشككون بالقرآن . ثم تدعوه السُّورة للعبادة حتى يأتي اليقين الذي تبشر به السُّورة وهو النصر ، ووصول

دعوته إلى نهايتها الناجحة وليس أي يقين آخر : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

(الحجر:٨٥-٩٩)

خاتمة : وبذا نعلم علم يقين أن اسم سورة الحجر إنما وضع بعلمٍ محيطٍ هو علم الله . ولو كان باستطاعةِ أحدٍ من البشر أن يختار لها هذا العنوان ، لَفَكَّ الناس لغزَ اسمها منذ ألف عامٍ أو يزيد . اسم السُّورة اختير بعنايةٍ ليكون محوراً لكلّ آية فيها ، وكلّ خبرٍ وكلّ قصةٍ وكلّ موعظةٍ . أرادت السُّورة أن تقول للنبيِّ إنه في حجرٍ من الله ، والكتابَ الذي يتنزل عليه في حجرٍ من الله ، وقوتَ الناس وماءَهم وغيبَهم وأرضَهم وبروجَ سمائهم كلّ منها في حجرٍ من الله . وأن عباد الله المخلَصين في حجرٍ يحفظهم من غواية إبليس ، ولتقول أيضا أنه لا حجرَ يحفظ ما في دارته إلا حجرُ الله . فأصحاب الحجر أحاطوا أنفسهم بأكثر من دارة حمايةٍ ، فلم تحفظهم من غضب الله . فاطمأن قلبُ النبيّ وعبَدَ الله حتى جاءه وعدُ الله نصراً ؛ وتمت رسالتُه المحمية بإرادة الله وبحجر منه ما شاء الله حفظها .

ونتيقن أيضا أن اسم السُّورة ليس أي كلمة تُختار بعفوية من السُّورة كما ظن علماءُ بحثوا هذا الموضوع من قبل . ففي هذه السُّورة مكان لقوله تعالى ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر:٢) خاصة أنها تستحقّ أن يتبعها سؤال : فما الذي يمنعهم من الإيمان؟ فيأتي الجواب : من حجر عزيز وضعه الله على الإيمان لا يخترقه إلا من يستحقّ الإيمانَ بما قدم .

* * *

سورة النحل

اسمها النحل . ومن الجميل أن كثيراً من الذين كتبوا عنها سمَوها سورة النِّعم . لكن المؤسف أنهم لم يربطوا ذلك بالعنوان! ويلتقي الإنعام مع نحل العسل على نفس الكلمة تماماً. تنزلت السُّورة لتخاطب جماعة المؤمنين في أواخر العهد المكي. فهي تختتم العهد المكي لتبدأ العهد المدني . فكأنها رسالةٌ وديةٌ للمؤمنين تبشرهم بقرب النصر . وهي من هذه الزَّاوية جديرة أن تتلو سورة الحجر .

وهي سورة النعم المجانية التي يعطيها الله لعباده وخلقه أجمعين . يعطيهم مِنَحَه ابتداءً رزقاً ووسائل نقل وأرضاً ممهدةً وثابتةً برواسيها ؛ وإن تعدوّا نعمة الله لا تحصوها كما تقول السُّورة . ولكن لمادة « نحل » معانٍ أخرى كان لها حضورٌ في السُّورة . فمن معانيها النحول والضعف ؛ فتتحدث السُّورة عن نحول المجتمعات التي تعصيه في الآيات (٤٥- ٤٧) . كما تعد المؤمنين بنقص أعدائهم مع تهديد الأعداء بالهلاك الكامل إن لم يعودوا إلى الله . وهذا الوجه في حقيقته نحلةٌ للمؤمنين عندما ينقص أعداؤهم في الأرض . كما ورد نحلٌ ثالثَ في السُّورة وهو زعم المشركين نحل القرآن لغير الله بل لأعجمي . وبقية السُّورة مواعظ ومشاهد من يوم القيامة تخدم خطوطها الثَّلاثةَ وتدعمها .

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها :

عنوانها النحل ، وكلمة النحل مذكورةٌ في السُّورة حيث يقول تعالى (٦٨-٦٩) **﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾**(النحل:٦٨-٦٩). وذُكِرَ في السُّورة أنواعٌ أخرى من المخلوقات وبتفصيلٍ أكبر من ذكر النحل ؛ لكن لم يؤخذ اسمٌ للسورة من غير النحل . وهذا دليل أن الكلمة مقصودةٌ ابتداءً ، ولم تؤخذ اعتباطاً أو مزاجياً من كلمة وردت في السُّورة . فما العلاقة بين الكلمة وموضوع السُّورة؟

يقول الرازي في المقاييس : « النون والحاء واللام كلمات ثلاث : الأولى تدل على دقة وهزال ، والأخرى على عطاء ، والثَّالثَّة على ادِّعاء . فالأولى : نحل جسمه نحولاً

فهو ناحل إذا دق ، وأنحله الهم ... والثَّانية : نحلته كذا أي أعطيته ، والاسم النَّحل . . والنَّحل : أن تعطي شيئا بلا استعواض ، ونحلت المرأة مهرها نِحلةً ، أي عن طيب نفس من غير مطالبة ، كذا قال المفسرون في قوله تعالى ﴿ **وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحۡلَةً** ﴾ (النساء:٤) . والثَّالثة قولهم انتحل كذا إذا تعاطاه وادَّعاه» .

وهذه المعاني الثَّلاثة موجودةٌ في سورة النحل . وقلنا في البداية إن كثيراً ممن درسوا السُّورة سمَّوها سورة النعم دون أن يربطوا ذلك بالعنوان . هي سورة النعم ولكنها جميعاً نِحَلٌ . أُعطِياتٌ من الله ينعم سبحانه بها ابتداءً دون مقابل من البشر . فمعظمها موجودٌ في أصل تكوين الكون .

وإلى جانب النِّحل الإلهية تتضمن السُّورة تهمة انتحال القرآن ﴿ **وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (النحل:١٠٣) . ليكون الرد نِحلةً ينعم الله بها على النبيّ ومن ورائه الأمة .

ولم تخل السُّورة من النحل بمعنى الهزال والنقص وقمة ذلك الآية (٤٧) ﴿ **أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (النحل:٤٧) وكلمة التخوف ليست بعيدةً عن النحول فهي بمعنى التنقص . وتنقص المجتمع يقابل نحول الجسد على صعيد الفرد . وبذا تكتمل نِحَل الله على المؤمنين بنحول أعدائهم في الأرض ، وبدفع تهمة انتحال القرآن . ويأتي كلّ ذلك نَحْلاً من الله تعالى دون مقابل من المؤمنين قبله . فالموضوع الرئيسي في السُّورة نِحَل الله للبشر عموماً ، والمؤمنين خصوصاً .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أسلوب السُّورة لا يشبه أسلوبَ أيِّ سورةٍ مما درسنا حتى الآن . فهي أشبه ما تكون ببيانٍ خاصٍ يخاطب جماعة المؤمنين بما يلزمهم في المرحلة التي نزلت فيها السُّورة . فهي تبشرهم بقرب موعد نجاح الدعوة وانتصارها . وتذكرهم بنعم الله عليهم وعلى عباده جميعاً ؛ وبالمقابل تؤكد لهم أن سنة الله تقضي بانحسار أعدائهم . وأن الذي ما زال يزعجهم ، إنما هو من طبيعة المجتمعات في مثل تلك الظروف . والسُّورة في معظمها موجهةٌ للمؤمنين مباشرةً .

الأطروحة : تبدأ السُّورة بآية الأطروحة الرئيسية التي تقول للمؤمنين : ﴿ **أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ (النحل:١) . ومع البشرى بقرب النجاح والنصر ، وزوال المعاناة ، تُختمُ الآية بذكر شركِ المشركين وظلمهم

للحقّ . فهي إشارةٌ إلى انتصار المؤمنين على المشركين . فالله صاحب الأمر سيحكم بين عباده المؤمنين وبين من يشركون به . وتستمر فقرة الأطروحة حتى الآية الحادية عشرة :

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل:٢-٩)

وتأتي الآية الثَّانية لتذكرهم ببداية خطة الله بإعادة المجتمع المخاطب إلى عبادته. وذلك بإنزال الكتاب الموحى به تحمله الملائكة ، ليكون روحاً تحيا به أمةٌ ميتة ؛ يتلقاه نبيٌّ حقّق شروط النُبُوَّة برعاية الله ، لينذر قومه داعياً إياهم إلى توحيد الله وعبادته . ثم تأتي الآيات (٣-٥) لتَذكُر إحدى أعظم خططه في الكون ، وهي خطة خلق السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن ، بإحكامٍ يراه كلّ ذي بصرٍ وبصيرةٍ ، ووفق الخطة الموضوعة لذلك في اللوح المحفوظ . ومع هذا يشرك مكابرون! وبذا تنتهي فقرة الأطروحة بعد أن بشرت المؤمنين بظهورٍ قريبٍ ، وأكدت لهم إحكام خُطط الله من خلق السموات والأرض التي ما زالت تسري بدقةٍ منذ وُضِعت ، ومنذ خُلق الإنسان ، وما جعل الله له من رزق وتسهيلات حياة ، وتُذكر الأنعام كمثلٍ من نعم الله على البشر .

ويأتي ذكر الأنعام في أربع آياتٍ تتحدث عن أهم منافعها وهي مصدر طعام ووسيلة نقل وركوب للسفر وثروةٌ على شكل زينةٍ وكما نرى تذكرنا الآيات بأكبرِ نعمِه على الإنسان بخلق الحيوان ؛ وهي تخفيف صعوبة السفر البعيد تلك الأيام . ووعدٌ بمزيدٍ من التخفيف بخلق وسائل نقلٍ أسهل في المستقبل . ثم تنتهي الفقرةُ بوصف طرق السفر فمنها المستقيم السهل ومنها الجائر الحائد عن الاستقامة ؛ ولو شاء الله لجعل طرق الناس جميعاً مستقيمةً سهلةً . ورغم التَّوسع بذكر الأنعام بما لا عهد بمثله في الأطروحة إلا أن السُّورة تتضمن مزيداً من التفصيل لما جاء في فقرة الأنعام هذه .

ثم تأتي آيتان عن نعمة الماء والنبات ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ١٠، ١١) .

ينزل الماءُ ليشرب منه الناس ، ويكون شجراً ، يأكل الإنسان من ثمره ومرعًى لأنعامه . وحديث النعم هذا كسابقِه موجه للمؤمنين ؛ ليرد مزيد من تفصيل النعم بالماء والنبات في بقية السُّورة .

نِحلة المكان والزَّمان : ثم تأخذ السُّورة بتفصيل أطروحتها بادئة بما يمكن سرده تحت موضوع خلق السموات والأرض الوارد في الآية الثَّالثَّة . فتأتي ثماني آياتٍ تعرض نعمَ الله الأساسيَّة بصنعِ الكون . واختتم سبحانه الآيات بوصفها نعماً بقوله تعالى « وَإِن تَعدوّاْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا . . » . وهي حقّاً نِحل كريمة ، فقد كانت جميعاً في أصل تكوين الكون ، وقبل خلق آدم وذريته ولم تكن مكافأةً على عبادَةٍ ، إنما خلقت ليَنْعم بها الإنسان ، فيعيشَ حياةً سهلةً كافيةً عندما يُخلق على الأرض ، لذلك سميناها نِحلاً لأنها عطاءٌ دون مقابلٍ يسبقُها : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢-١٩) .

فهي كما نرى تشمل معالمَ الزَّمن لنهتدي بها ، ونعرف معالم حياتنا وفصولها . وفيها نعمةُ الألوان والأنواع كي لا يكون مللٌ ، وتُغنى الحياةَ بالمتعةِ والجمال . مع أن بعض ما في الكون يكفي لحياة الضرورة . ويُذكر البحر أداةَ نقلٍ سهلٍ رخيصٍ ، ومصدرَ طعامٍ طريٍّ شهيٍّ ، وحليةٍ جميلةٍ تزين الحياة . وفي الأرضِ جبالٌ تثبتها كي لا تميل بنا أثناء حركتها الدائمةِ السريعة ، وأنهارٌ تروي الإنسان وأنعامَه وزرعه ،

وتجعل الحياةَ مليئةً بالحيويَّة ، وفي الأرض معالمٌ للسبلِ نهتدي بها ، ومن النجم علاماتٌ للسائرين . أفلا يستحقّ الصانعُ الكريمُ الرحيمُ أن يُعبَد ويُطاع إذا أمر؟ وهو على كلّ حالٍ مهيمنٌ على الكون وما فيه ومن فيه ، ومطلعٌ على سرِّ كلّ مخلوقٍ وعلانيته ؛ وهذه في حد ذاتها نعمةٌ للمطيع ، كي يطمئن على سلامةِ موقفه ، وأن طاعتَه لا تذهب سدًى !

واستجابة للآية الرابعة عن خلق الإنسان وخصومته لربّه تأتي الآيات (٢٠-٦٤) تتخللها آيات بالوجه المقابل من ذكر المتقين الذين يحظون برضا الله والجنة في الآيات (٢٩-٣٢) ثم الآيات (٤١-٤٢) المخصصة للمهاجرين والصابرين في سبيل الله . وتدور بقية آيات هذه الفقرة حول أوجه خصومة المشركين لله ووصف سلوكهم وفساد عقائدهم وسوء فعالهم .

نِحلة الذرية والطعام والحياة الميسرة : وتواصل السُّورة سرد نعم الله على الناس مفصلة الحديث عما سبق ذكره في الأطروحة من مطرٍ ونباتٍ وأنعامٍ ونحلٍ ورزق حسنٍ وأزواجٍ وذريةٍ ممتدة : ﴿ **وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل:٦٥-٧٤) .

وبخمس آياتٍ كريمةٍ تلخص نعم الله على الناس ، خصوصاً أهل البادية منهم ، تذكرهم بما يُيَسِّر الله به حياتهم ؛ بعد آيةٍ تصف قدرةَ الله وعلمَه بما في السموات والأرض ، كقاعدةٍ بأن الإنعامَ منه عن قدرةٍ وإرادة . فهو سبحانه خلق الإنسان وجعل له سمعاً وبصراً وعقلاً ليشكر . وسخر له طير السماء صيداً وطعاماً وآيةً على عظيم صنع الله ، وسهل لهم أمر السكن واللباس والطعام من مصدر واحد هو الأنعام . التي تعيش معهم في باديتهم . كما يسر لهم الظل ليحتموا به من حر الصحراء ؛ وجعل لهم من الجبال ملاجئ ، وهداهم لصنع ملابس تقيهم الحر وأخرى تحميهم في الحرب . . . ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ** ﴾

(النحل:٧٧-٨٢)

ونظراً لطول السُّورة ولوضوح نظريتها وهدفها ، ولاستيفاء هذا المعنى من معاني مادة (نحل) في السُّورة ، نكتفي منه لنذكر نماذج لكلّ معنًى من بقية معاني اسم السُّورة .

النحول : من الآيات التي جاءت بمعنى النحول قوله تعالى : ﴿ **أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (النحل:٤٥-٤٧) . ففي الآية الأولى تهديدٌ للماكرين بأن تُخسَف الأرض بهم أو بعذابٍ دنيويٍّ مفاجئ ومجهول لهم . ثم تهددهم الآيةُ (٤٧) بأخذهم على تخوفٍ أي تنقصاً بالتدريجٍ . ويكونُ هذا النحول التنقص لأعداء الله نعمةً على المؤمنين .

ومما يمكن أن يكون ضمن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (النحل:٥٧-٥٩) . وكراهية الأنثى ووأدها هو إفناءٌ للأمة فبدونها لا تتكاثر الأمة . فكأن تصورَهم السيئ للأنثى أحدُ أسباب تنقصِّ الأمة أو نحولِها كمجتمعٍ . مما يهيئ الفرصة لذكر هذا الموضوع في سورةِ النحل كأحدِ محاورها التي يتيحها العنوان .

ومن وجوه النحول عقاباً للعصاة التي وردت في السُّورة قوله تعالى ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾ (النحل:١١٢،١١٣). والعقاب هنا ضرب من النحول الشديد في الرزق والأمن . فهي من مواضيع السُّورة المرتبطة بعنوانها .

الانتحال : من الآيات التي جاءت بمعنى النحل والادعاء اتهامهم للنبي بأنه ينحل القرآن لله ادِّعاءً ؛ بينما هو حسب بهتانهم من قول بشرٍ يعلمه للنبيِّ ؛ ويرد على فريتهم ليكون الرد نعمةً على النبيّ والمؤمنين :

﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ** ﴾ (النحل:٩٨-١٠٥) ورغم اتساع مدى الآيات الثَّماني إلا أن القارئ يجد فيها وحدةً متماسكةً ذلك أنها تدور حول القرآن ، وبمناجاةٍ للنبيِّ لا يشاركه فيها سواه ؛ ودون أن تميل عن عنوان السُّورة التي وردت فيها .

وفي بقية السُّورة فقراتٌ تتضمن كثيراً من نعم الله على الأمّة . وتوظف ذلك لدعوة المشركين إلى الإيمان بالله وباتباع رسولهم . ولذلك تنقل مشاهد من يوم الحساب لتنهى عن الشرك وتُخوِّف المشركين عواقبَ اختيارهم ، وتبشر المؤمنين بنتائج إيمانهم وصالحِ أعمالهم واتِّباعهم لرسول الله إليهم .

نعمة إبراهيم : مع بروز خلاف أو اختلاف مع بني إسرائيل قد يُذكر إبراهيم فهو الأب المشترك . وها هو يُذكر بعد اختلاف أحكام الطعام بين اليهود وبين المسلمين . ولكن ذِكْرَه يُوظَّفُ ليكون قدوةً للنبيِّ وللمؤمنين . ويُنفى عنه الشرك . وتزيل الآياتُ لبساً بأمر أحكام الدين . فالحكم لا يكون إلا للمخاطبين بالدين وليس لسواهم . فوجود أداة الحصر « إنما » قبل ذكر حرمة السبت إنما قصد بها إزالةُ لبسٍ ما ، ربّما وقع به بعض المسلمين عندما رأوا حرص القرآن على حرمة السبت لبني إسرائيل ؛ فهو لبني إسرائيل وحدهم وعليهم فقط إثم من يخالف أحكامه : ﴿ **إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢٤).

تعقيب ختامي : توجِّه الآياتُ الأربع الأخيرة رسولَ الله إلى دعوة الناس بالحكمة ، ومجادلتِهم بالحسنى . ويبدو هنا أجواءُ مجادلةِ اليهود وليس المشركين ؛ فالآيات هنا مدنيةٌ . ثم تنصح المؤمنين جميعاً بالتسامح مع المعتدين ؛ وهم غالباً يهودُ المدينة ؛ وتدعو للصبر عليهم وتكرر هذا التَّوجيه في سور أخرى . وتُكرر الآيات الدعوةَ للصبر وعدمِ الضيق من مكر المعاندين . فالله مع المتقين المحسنين ؛ ومن كان الله معه فلا يخشى سوء العواقب . وهذه التَّوجيهات في ذاتها نعمٌ بل نحلٌ كريمةٌ للنبي وللمؤمنين : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾(النحل: ١٢٥-١٢٨) .

وهكذا تُختتَم السُّورة بأفضل مما ابتدأت به للنبيِّ والمؤمنين . فهناك تعد بقرب أمر الله بالنصر وهنا تؤكد لهم أن الله معهم بعد أن تحقّق معظمُ النصر . تحقّق بوصولهم إلى المدينة وإقامة دولة النبيّ التي صارت تختلف مع اليهود ومشركي المدينة حول تفصيلاتٍ وأحكامٍ غير التي كانت تواجههم في مكّة . وبذا تحقّقت أعظم نِحلِها للمؤمنين .

* * *

سورة الإسراء

سورة الإسراء هي السُّورة السابعة عشرة . وتلفت الانتباه باحتوائها خبر الإسراء بالنبيّ من مكّة إلى بيت المقدس وعودته ببعض ليلة . وهي ثاني أبرز معجزات النبيّ بعد القرآن . كما تتضمن خبر دولتي بني إسرائيل . وتتضمن توصياتٍ من الحكمة تلزم لكلّ جيل تراجع عن الحد الأدنى الذي يستحقّ معه اسم مجتمع . وإذا كان أهل مكّة مستحقّين لتلك الوصايا ليتأهلوا لمرحلة إيمان ، فإن المسلمين يوم تقوم دولة إسرائيل الثَّانية سيكونون أحوج لتلك الوصايا ليستحقّوا أن يكونوا أمةً حيةً . ونجد في السُّورة طرفاً من خصائص النُّبُوَّة وسنة الله في مخاطبة الشعوب .

أُعطيت اسمها الإسراء . ولم ترد الكلمة بعينها في السُّورة . ولكن وردت كلمة « أَسرى » في الآية الأولى . وهي فعلٌ ماض من نفس مادة الإسراء .

وعند دراسة السُّورة دراسةً عميقةً نجدها لم تخرج عن موضوع السرو وهو مصدر الإسراء . فمن معاني السرو الكشف . وقد كشفت السُّورة عن غيب مضى قبل القرآن بستة عشر قرناً . هو خبر دولة إسرائيل الأولى . وكشفت عن غيب يتحقّق بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن وهو دولة إسرائيل القائمة حالياً على أرض فلسطين . وسمينا الأولى غيباً لأنها لم تكن معروفةً لأهل مكّة . فلا فرق بينه وبين غيب سيتحقّق بعد قرون بالنسبة للمخاطبين . وتكشف عن غيبٍ لم يتحقّق حتى اليوم وهو نهاية دولة إسرائيل الحالية ، بأعمالٍ حربيةٍ مختلفةٍ عما كان في نهاية الدولة الأولى . ويأتي وصف القتال الذي تنتهي به الدولة الثَّانية مما يليق بهذا الزَّمن . كما وصفت دخول بني إسرائيل إلى فلسطين في حالتي الدولتين . وكلاهما صَدَّقه الزَّمن . ولم يعد به شك . ونقلت السُّورة خبر اطلاع النبيّ على بيت المقدس ومكان الأقصى وهذا كشفٌ من نوعٍ آخر .

ومن معاني السرو السيرُ ليلاً وهو الخبر الرئيسي في السُّورة إذ أسرى الله بنبيه ليلاً . ومن معاني السرو الارتفاع . وفي السُّورة آيات الحكمة التي تخاطب العرب بما يلزمهم في هذا الزَّمن ؛ كما لزمتهم في جاهليتهم ؛ ليرتفعوا إلى مستوى مجتمع

حي . وهذه المعاني معاً تشكل إسراءً بالأمة لإخراجها من ليل التخلف إلى فجر النهضة .

عنوان السُّورة :

سماها الله تعالى الإسراء شبيها بإسرائه بالنبيّ من مكّة إلى القدس . فوضع لها الذين لا يعلمون اسماً آخر هو سورة بني إسرائيل . وظهرت كلمة «سبحان» كاسمٍ ثالث لها . وسنرى عند تحليلها أنه لا يصلح لها إلا اسم واحد هو الإسراء . وذلكً لنعلم أن الله وحده منزل القرآن وهو وحده سبحانه القادر على تسمية سوره بما يؤدي رسالته .

وكلمة إسراء من السرو . جاء في معجم مقاييس اللغة للرازي تحت مادة سرو : «السين والراء والحرف المعتل باب متفاوت جدًّا لا تكاد كلمتان منه تجتمعان في قياس واحد : . . . والسرو كشف الشيء عن الشيء ، سروتُ عني الثَّوب أي كشفتُه ، وفي الحديث : الحساء «يسرو عن فؤاد السقيم» وقال ابن هرمة :

سرى ثوبه عنك الصبا المتخايل وقَرب للبين الحبيب المُزايل

والسُّرى سير الليل ، يقال سريت وأسريت قال (حسان بن ثابت)

حَيِّ النَّضيرةَ ربّةَ الخِدر أسرت إليك ولم تكن تسري .

وسراة النهار : ارتفاعه .»

فالسُّورة كشفت غيباً مضى وتكشف غيباً سيأتي ، ولتسرو بالأمة وترفع مستواها في فترة تحتاج فيها العودة إلى الله .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تبدأ السُّورة بقوله تعالى : ﴿ **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾ (الإسراء:١) . فالهدف الأول من عملية الإسراء بالنبيّ هي إطلاعه على بعض آيات الله . وهي عملية كشف أمور كانت مستورةً عنه . وهي ليست العمل الوحيد الذي يصنف بأنه سروٌ بمعنى الكشف . بل تتبعه قصة بني إسرائيل وهي أبرز قصص السُّورة . وفيها يُكشف حجاب الزَّمن الماضي والمستقبل . والمستقبل من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله والماضي لا يعلمه إلا قليلٌ من مثقفي

الأمة . فدولة إسرائيل الأولى كان قد مضى عليها حوالي ستة عشر قرناً . ثم تخبر السُّورة عن دولةٍ أخرى لإسرائيل تقوم بعد القرآن . ونعرف الآن أنها قامت بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرناً تقريباً . فأطروحة السُّورة تبرز كشف الحجب أمام النبيّ ليرى ما لا يمكن رؤيته ببصرٍ ولا ببصيرةٍ لولا هذا التدخل الإلهي الكريم .

دولتا بني إسرائيل : هما أول مواضيع السُّورة (٢-٨) : ﴿ **وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا** ﴾ (الإسراء:٢-٨).

وفي هذه الفقرة تذكر الآيات نهايتي الدولتين . فالأولى منهما انتهت قبل نزول القرآن لقوله تعالى في الآية ﴿ **وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا** ﴾ (الإسراء:٥). ومن الملاحظات الأخرى أن صيغ الأفعال قبل هذه الآية كانت بالماضي . وبعدها تتحول الصيغ إلى المضارع والمستقبل . مما يدل أن الدولة الثَّانية ستكون بعد القرآن . كما أن طبيعة معركة النهاية مختلفة في الموعدين ؛ ففي نهاية الدولة الأولى نرى قوات مشاةٍ وخيالةٍ تجوس خلال الديار ، وفي الثَّانية نعلم أن أسلحةً مختلفةً تستعمل في المعركة فهي نيرانٌ تسقط على الأرض من علوٍ لتدمر ما تسقط عليه . وهذا يتفق مع وسائل الحرب الحالية ﴿ **وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا** ﴾ . هذا عن نهايتي الدولتين .

وبالمقابل لا تنتهي السُّورة حتى تَذكر كيفيةَ دخول بني إسرائيل لفلسطين في المرتين . وفي هذا توضيح للذين سيقولون : وما دليلك أن المقصود بمكانِ الدولة فلسطين؟ تقول الآيات (١٠١-١٠٤) ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ**

مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(الإسراء:١٠١-١٠٤)

ففي الأولى دخل بنو إسرائيل مجتمعين بعد موسى بقيادة يوشع بن نون إلى فلسطين بادئين باحتلال أريحا . وفي المرة الثَّانية تقول الآية (١٠٤) إنهم سيأتون فلسطين من مناطق شتى فيدخلونها فرادى أو في زرافاتٍ محدودة العدد . وهذا ما حدث قبيل قيام الدولة الحالية وأثناءها .

علامات الزَّمن : من علامات الزَّمن التي تكشف السُّورة عنها أن إيمان العرب بالله وبالقرآن سيكون مهزوزاً عند قيام دولة إسرائيل الثَّانية . لذلك كان التعقيبُ بعد خبر نهايتي دولتي إسرائيل تأكيداً لدور القرآن في هداية الناس إلى الطريق الأقوم . وفي هذا دلالةٌ على أن الناس يبحثون عن طرق يظنونها أقومَ لحياتهم ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ (الإسراء:٩)

وفي تعقيب مشابه تأتي الآيات (١٠٥- ١٠٩) أي بعد خبر بدايتي دولتي إسرائيل ؛ لتؤكد صدق القرآن وتصديق بني إسرائيل لنبوءته ﴿ **وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩** ﴾ (الإسراء:١٠٥-١٠٩)

وكلّ هذا غيب من الغيب تَسروه سورة الإسراء فيصير غائبه كحاضره لمن كان له عقل يثق به .

العرب يوم تقوم دولة إسرائيل : لعل من المناسب هنا أن نبدأ من قوله تعالى ﴿ **وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ** ﴾ (الإسراء:٤) . فكلمة قضينا تعني أن بداية الأمر تكون من تصرفات البشر ومن معطيات على الأرض . فنتيجة سوءِ أعمال سكان المنطقة ، وافتقارهم إلى مقومات المجتمع الحي ، قضى الله أن يأذن بقيام دولة إسرائيل لتكون مثيرةً لهم لعلهم يرجعون ، ويمتلكون من الخصائص والمعارف ما يرفعهم إلى مستوى الأمم الحية . وعندها يستحقّون

استعادة أرضهم ومسجدهم . فهي ليست إرادةً مستبدةً ولم تصدر ابتداءً من عند الله ، لكنها معالجةٌ لأخطاء البشر الذين وقع عليهم الحدث .

يبدأ التعقيب على قيام دولة إسرائيل الحالية من القرآن الكريم مذكراً أن اتِّباعه هو الطريقُ الأقوم . مما يدل أن ذلك يشكل قضيةً عند العرب المعاصرين لقيام إسرائيل! وقد عشت بنفسي تلك الظروف وأذكر تماماً كيف كان مثقفو الأمّة عموماً وفلسطين خصوصاً ، عند قيام إسرائيل ، يتبرأون من الدين ويحاربون فكرة الإيمان ويتهكمون على من يتحدث حديثاً يُذكِّر بالله وبالإسلام . ويبحثون عن الخلاص بمذاهب من الغرب والشرق . فتأتي الآيةُ بمكانها وللزمان الذي لزمت له ﴿ **إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ (الإسراء:٩) .

إنها علامةٌ زمانيةٌ صادقةٌ . ومثلها الآيات الثَّماني التالية لها (١٠ — ١٧) تنبئ عن حال الأمة زمن تحقّق وعد الله : فالذين لا يؤمنون بالآخرة ينتظرهم عذاب أليم ﴿ **وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ (الإسراء:١٠) وتنبئنا الاية (١١) بحالة يأس غريبة ، لعل الأمة لم تعرفها قبل هذا الزَّمن ؛ فيها يدعو الناس على أنفسهم بالشر يأساً من الحياة ﴿ **وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً** ﴾ (الإسراء:١١) . ثم تعرض الآية (١٢) موضوع الزَّمن لتحفيز الناس لاحترام الزَّمن . فالاهتمام بالزَّمن من خصائص الأمم الحية . ﴿ **وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً** ﴾ (الإسراء:١٢) وبلفتة خطيرة أخرى تُحمِّل الآيةُ (١٣) كلّ إنسان المسئولية الفردية عن عمله ﴿ **وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا** ﴾ (الإسراء:١٣) . ولعل هذا التذكير نتيجة حالة انعدام الوزن عند الأمة . فالمجتمع لم يعد حيًّا ليخاطب مباشرةً ؛ فليُستنهض الأفراد عسى أن تتكون منهم نواةُ مجتمعٍ جديد . ويبدأ هذا بالتذكير أن كلّ إنسان يحمل وِزرَ ما فعل ، لا ينفعه إجماع الناس حوله على الخطأ . وتواصل الآيتان (١٤-١٥) التركيز على المسئولية الفردية ؛ لأن الخطاب الجماعي فقد قيمته عند الأمة ، ولم يعد لفكرة المجتمع قيمة ﴿ **ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ**

فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء:١٤،١٥) . ثم تتحدث آيتان عن سنة الله بإهلاك المجتمعات المنحرفة لتكون عظةٌ ، وليعلم الناس أن عِلية القوم لم يعودوا قادته إلى الهدى بل إلى الهلاك ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء:١٦،١٧) .

وانطلاقاً من هذا الحال ستقوم السُّورة بوعظ الأمة لترفعها إلى مكانةٍ أعلى!

أركان الحكمة للنبي : الحكمة هي الحد الأدنى الذي يصير به المجتمع مجتمعاً يستحقّ الحياة الكريمة . وهي أدنى درجةً من حكم الشريعة . والنبيّ نقل إلينا ديناً كاملاً وشريعةً واضحة المعالم . ولكن السُّورة تخاطبه (الآيات ١٨-٣٩) بأركان الحكمة . حقّا لقد كان النبيّ يعيش في مكّة . وأهلُها مجتمع جاهلي لا يستحقّ الشريعة . فتكون الحكمة هي ما يلزمهم ليرتفعوا درجة على طريق السرو . ثم تظهر الآيات في سورة الإسراء . التي تتحدث عن مرحلة يتراجع فيها العرب عن الحد الأدنى لخصائص المجتمع الحي ، وتَعِظُهم بما يؤهلهم للحياة الكريمة واستعادة الأقصى . ولنقرأ آيات الحكمة موجهةً للنبيِّ يوم نزولها ليبلغها قومه ، ولروح الأمة حين تلزم مرة ثانية : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الإسراء:١٨-٣٩) .

وهذه الفقرة من السُّورة سَرْوٌ وكشف لما تكون عليه الأمة عند قيام دولة إسرائيل. وهي في نفس الوقت إسراءٌ بالأمة يوم نزولها لجلبها إلى سواء الطريق. طريق الحياة القويمة الكريمة . فأهل مكّة أحوج الناس لاتباع الحكمة في سلوكهم عسى أن يستحقّوا الإيمان الذي يدعوهم إليه النبيّ . علماً أنهم لم يكونوا يستحقّونه بوضعهم الذي كانوا عليه كما تقول الفقرة التالية من السُّورة .

وتسرية عن النبيّ مقابل إعراض قومه : تتوجه الآيات للنبي ليخاطب قومه ويدعوهم إلى سواء السبيل منددا بتصوراتهم الخاطئة الظالمة . كقولهم إن البنين لهم وأن لله بنات من الملائكة؟ ويرد على فرية تعدد الآلهة ليردهم إليه وحده . ويُسرِّي عن النبيّ عندما يقول له إنه سبحانه يَصرِف عن القرآن من لا يستحقّ بما اكتسب . وفي الآيات مزيدٌ مما يلزم أن يقال لأهل مكّة ردًّا على تصوراتهم الخاطئة وظلمهم ونتقل منها ما يلي : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٤٠-٥٩) .

وتلتفت الآيات (٥٣-٥٤) إلى بقية الجاهلية والضعف البشري في المؤمنين، فتنهاهم عن الاستجابة لنزغ الشيطان، وتواصل محاولة السرو بهم إلى الطريق السوي. وجيء بداود مثلا دون الأنبياء وبتفضيله بالزَّبور وهناك بين الرسل من هو أعظم منه. ولكنه خُص بالذِّكر هنا لأنه نبي القدس. فتأتي هذه الآية بمكانها من فقرة التسرية عن النبيّ. فكما انتزعت القدس من أتباع داود لما ظلموا تنتزع من قومك عندما يفقدون مكانتهم كمجتمع حيٍّ ناهضٍ. ولسببٍ أكثر حيويَّة ونفعاً للأمة. فزبور داود بمزاميره جميعاً يدور حول حقيقةٍ واحدةٍ هي أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين، وينتزعها من الفاسقين. وهذا ينطبق على فلسطين قبل أي أرضٍ سواها.

أصل الشر : ما دمنا في سورة الإسراء وفي الفقرة التي تتحدث عن إعراض أهل مكّة عن قبول الحقّ . فهو المكان المناسب لكشف السر الذي يصرف الله به الفاسقين عن أبواب الإيمان . وتتحدث الآية عن حادثة الإسراء كنموذج لسنة الله في صرف الفاسقين عن الإيمان واختبار يقين المؤمنين . وسماها «رؤيا» فكانت فتنة لضعفاء الإيمان . ونعلم أن هذا كان لحكمة . ففي بداية تكوين الجماعة المؤمنة لا يريد الله إلا أقوياء الإيمان الموقنين بصدق رسول الله . ثم تَتخذُ الآية مرجعاً لهذا النهج الإلهي بالشجرة الملعونة في القرآن . ولم يَرِد في القرآن لعن شجرةٍ واستبعادها سوى الشجرة التي حرم الله على آدم الاقتراب منها في الجنة وهي رمز ممارسة الاتصال الجسدي بين الرجل والمرأة حيث تشتجر أجسادهم عصياناً . وبالفعل فإن الحفاظ على العفة هو الاختبار الأساسي للبشر . فمن سقط هنا فقد سقط ومن عف فأولئك هم المُخلَصون . ثم تتوسع الآيات بذكر أصل الشر وهو العداء بين إبليس وآدم والذي نتج عنه السقوط بالشجرة الملعونة . وينجو منه عباد الله المخلَصين . ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا** ﴾ (الإسراء:٦٠-٦٥) . وكسر العفةِ وانتشار الزِّنا والتكبر بغير حقّ مما يؤدي لغضب الله على أمةٍ مخاطبة بالقرآن ويكون سبباً كبيراً في فقد العرب لفلسطين وقيام دولة إسرائيل عليها إلى حين! كما كان سبباً لصرف الناس عن الإيمان يوم أسرى الله بنبيِّه .

تذكير بنعمه : سبع آياتٍ تخاطب ضعاف الإيمان بقسوةٍ مذكرةً إياهم بنعم الله ، وعدم وفائهم بحقّ تلك النعم ؛ وتخوِّفهم عواقب ذلك لعلهم يزدادون إيماناً أو يخلص إيمانهم من الشرك ويرتفع مستواهم الخلقي سرواً بهم . ولعل المخاطبين من المسلمين الذين شكُّوا بحادثة الإسراء ﴿ **رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى**

ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(الإسراء:٦٦-٧٢)

إسراءٌ بالنبيّ : في الآيات التالية عتابٌ قاس للنبيّ يصل حد التهديد . ومن حيث علاقتها في العنوان فهي إسراء بالنبيّ ليتسنم أعلى درجات النُبُوَّة ؛ ويبقى في الجادة التي يرضاها الله له . فلنقرأ في الآيات . فلا شيء يمكنه وصفها بالدقة التي تُقَدِّم بها موضوعها : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٣-٧٧)

ولا بأس ما دامت هذه سنة الله مع أنبيائه! يتعرضون لأشد أنواع الفتن ليُختَبَرَ يقينُهم بالله حتى يكاد أحدهم يضعف أمام فتن قومه ثم يثبت الله رسله .

وتتواصل الآيات بمجموعة أوامر يرتفع بها قدر النبيّ عند ربّه وهو ينفذها : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء:٧٨-٨١)

واحتار مفسرون بالآيتين (٨٠-٨١) وأرى مع من رأى أنهما بشرى بدخول مكّة فاتحاً وإعلانه خلوص مكّة لله . وقد استعمل النبيّ عبارة « جاء الحقّ وزهق الباطل » وهو يحطم الأصنام في الكعبة عند فتح مكّة .

وفي المجموعة التالية من الآيات تتراوح المعاني بين التهديد (٨٦) ، وبين إجابة أسئلة المشركين واعتراضهم ، وتأكيد مصدر القرآن الإلهي وتحديه للإنس والجن أن يأتوا بمثله . بل تضع الآيات حدوداً للمستوى الذي يتوقف دونه البشر . فلا يستطيعون الإسراء إلى مستواه ، فهم لا يستطيعون فهم طبيعة الروح ، وأعجز من إبداع عمل بمستوى القرآن . وكذلك تكشف الآيات حدود النُبُوَّة التي لا يجوز تجاوزها مقابل تصورات المشركين للنُبُوَّة . وجميل أن يوضع هذا السقف في سورة الإسراء حتى لا يطمع الناس بفكرة السُّورة فيطلبون ما لا يجوز أو يتوهمون ما لا يكون : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ (الإسراء:٨٢-٨٨)

سر كفرهم : في الباقة التالية من الآيات (٨٩-١٠٠) يكشف الله سر رفضهم الإيمان بالنبيّ . فهم لا يحترمون الإنسان كإنسانٍ مجردٍ ، ولا يقدرونه إلا بما يملك . لذلك يستكثرون على رجل منهم أن يتلقى وحياً من السماء . وإذا قبلوا برجلٍ منهم نبيًّا فليقم بأعمالٍ خارقةٍ تميزه عن سواه ؛ كأن يأمر الأرض فتنفجر أنهاراً أو يأمر الأرض فتتحول جناتٍ من نخيلٍ وعنبٍ ، أو يأتي بشهود من الملائكة . وبالمقابل يبين الله سنته بالمرسلين وبهداية من يهدي وإضلال من يُضل . ثم يؤكد عدله باختياره بإظهار مصير الضالين بعد يوم الحساب . فلولا أن الضالين يستحقّون الضلال ما كانت النار من نصيبهم . ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا**

﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾(الإسراء:٨٩-١٠٠).

وكأن المطلوب هنا أن يحترم الإنسانُ نفسَه ليتمكن من احترام أخيه الإنسان . وأن تكون القيمُ الإنسانية مناطَ الاحترام وليس الحالةُ المالية . وفي هذا سمو بالإنسان وإسراء .

وختاما : بآيتين تختتم السُّورة ويقسمان إسراء الرفعة بين النبيّ وبين المؤمنين فتأمره الأولى بكيفية الصَّلاة من حيث الجهر والسر وأن يعلم أتباعه على ذلك ؛ وأن يعلمهم كيف يحمدون الله حمدَ تسبيحٍ وتنزيه : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء:١١٠،١١١) .

وبذا نعلم أن السُّورة لم تخرج عن عنوانها « الإسراء : الذي اقتبس من إسراء الله بنبيه . ثم استعمل بمعنى الكشف عن غيبيات ، وسرو بالنبيّ وبالمؤمنين معه إلى الطريق السوي والدرجات الأعلى ، وعرفتنا بالسقف الذي لن نسرو فوقه كبشر . ولم نجد آية واحدة لا تنسلك في إطار المادة اللغوية الأصلية لكلمة « إسراء » .

* * *

سورة الكهف

سورةٌ جميلةٌ بأسلوبٍ قصصيٍّ جذابٍ ، سريعة الدخول إلى القلب . وتقول عن نفسها وقصصها الكثير . لكن معظم ما روي حولها أساء إلى جوها ، وأوشك أن يعيق فهمها . فقصة أصحاب الكهف قصة مسيحية ومعروفة بالتراث المسيحي باسم « النائمون السبعة » ، وإن اختلفت ببعض تفصيلاتها عن القرآن . ووردت القصة بعد آيات ترد على من يزعم للرحمن ولداً . وأبرز من يتبنى هذه العقيدة في المنطقة هم النصارى . وبالمقابل سجل المفسرون روايات تفيد أن أصل قصة الكهف من اليهود لاختبار صدق النبيّ . ولو صَدَّقنا قولهم فلماذا تقدم السُّورة قصتهم بين يدي الرد على مقولة نصرانية؟ ثم تأتي قصة موسى والعبد الصالح ويصر مفسرون على تسمية العبد الصالح بالخضر . والخضر شخصية خرافية لها حضور في معظم أديان المنطقة وليس في خصائصها شيء يشبه ما فعله العبد الصالح . واخترع الرواة قصصاً عن ذي القرنين دون مصدر تاريخي موثوق ؛ بل رفعه بعضهم إلى درجة النُبُوَّة دون دليل! وتبقى السُّورة مشرقة في ذاتها رغم كلّ محاولات إحاطتها بظلل من الجهل والوهْم .

من جهة أخرى تسمت باسم الكهف . وقصة أصحاب الكهف واحدةٌ من عدة قصص ، في كلّ منها كهف حماية لأناسٍ تعرضوا لعدوان لا يقدرون على رده ، دون تقصير منهم . فلزم تعويضهم ونصرتهم بقوةٍ غير عاديةٍ . وأدارت السُّورة ذلك بطريقةٍ لا يقدر عليها إلا صانع تلك الأحداث ، المطلع على تفصيلاتها ظاهراً وباطنًا .

عنوان السُّورة وموضوعها : عنوانها « الكهف » ، ولحسن الحظ لم يزعم أحدٌ اسماً آخر لها من صنع البشر . وسنرى بوضوح أن لا أحدَ غيرُ الله يمكن أن يضع لها هذا الاسم . لأنه سبحانه يعلم ما يريد بها .

وكلمة الكهف كما يصفها صاحب مختار الصحاح : « الكهف كالبيت المنقور في الجبل ، وفلان كهف أي ملجأ » . والكهف معروف فهو غار في جبل أو في منطقة صخرية . وصدق الذي وصفه بأنه ملجأ .

فالكهف في المخزون الثَّقافي البشري رمز الملجأ ، ووسيلة الحماية من خطرٍ شديدٍ متوقعٍ . لجأ إليه الإنسان في المراحل الأولى من تاريخ البشرية ، ليحتمي به من عوامل الطبيعة القاسية ، ومن وحوشها الكاسرة . فكان الملجأ الذي يحميه ، عندما يعجز عن حماية نفسه بنفسه ، وبأدواته التي يملكها . وفي سورة الكهف نجد فكرة الكهف بمعنى الملجأ واضحة .

وفي كلّ قصة من قصص السُّورة كهفٌ من نوعٍ ما . ولكن كهفَ أصحابِ الكهف كان كهفاً حقيقيًّا وبالمعنى المطلق . بينما كانت بقية طرق حماية المستضعفين في السُّورة كهوفاً من البشر ، أدوا وظيفتَه تماماً . ومرةً واحدةً كان الكهف حالةً جويةً ، قضت على أسباب تكبر صاحب الثَّروة ، عندما تفاخر بها على صاحبه الفقير . وهذا يتفق مع اسم السُّورة . أي أن الموضوع الرئيسي للسورة ولقصصها جميعاً هو تدخل إرادة الله لحماية من يتعرض دون ذنبٍ منه أو تقصيرٍ ، إلى قوةٍ قاهرةٍ لا يستطيع صدها . وتعرض كلّ قصةٍ أو مَثَلٍ نوعاً من أنواع القوى القاهرة الظالمة التي يعجز المُتَعَرِّضُ لها عن مقاومتها ، سواء أكان المتعرض لها فرداً أو مجموعة أفرادٍ أو شعباً بحاله .

ولكن لماذا تنشأ الأحوال التي تضطر أناساً إلى ملجأٍ أو كهف ، حتى تكون فكرة الكهف سُنَّةً دارجةً ولازمةً لبني آدم؟ جواب هذا السؤال نجده في أطروحة السُّورة . ولكن نلخصه هنا باختصار : إنه نتيجة فشلِ أناسٍ بامتحان الثَّروة والسلطة والقوّة . وكي لا يُغلبَ أحدٌ ظُلماً دون ذنبٍ منه ، وُضِعت هذه المعالجة كسُنَّةٍ من سنن الله تعالى .

مقدمة السُّورة ودلالاتها : تأتي الآيات السبع الأُول لتُذكِّر بمناسبة نزول السورة كي تكون منطلقاً لها وتحديداً لمسار القرآن ومجالات عمله . فهي تعلل موضوع السُّورة وتعطي دلالاتٍ على موضوع أصحاب الكهف مختلفةً عن روايات مفسري القرآن وروايات الكنائس حول القصة . فالآية الرابعة ترد على الذين قالوا اتخذ الله ولداً . وفي المنطقة ينطبق هذا أكثر ما ينطبق على المسيحيين . ثم نكتشف أن قصةَ أصحاب الكهف موجودةٌ في كتب التراث المسيحي في الشرق والغرب تحت عنوان « النائمون السبعة » . وليس لليهود علاقةٌ بالأمر كما تزعم روايات أسباب النزول .

ونتوقف هنا عن مواصلة هذا الموضوع لنُفَصِّله مع قصة أصحاب الكهف ونعود إلى أطروحة السُّورة .

افتتاحية السورة ومقدمتها هي الآيات الست التالية : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: ١-٦)

وتأتي الآية الثَّانية لتعمق معنى الآية الأولى ، وتوجهها لجهة وظيفة القرآن الأساسيَّة ، وهي الإنذار للعصاة والبشارة للمؤمنين . وتركت موضوع الإنذار مفتوحاً إلا من حيث شدته ، لتجعلنا ننتظر الحديث عن مخطئين كباراً يستحقّون أشد العقاب !

الآية الثَّالثَّة واصلت وصف البشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات لتخبرهم أنهم ماكثون في أجر خالد أبدي كي لا يظنوا أنه أجر لمرةٍ واحدةٍ وينتهي . والمؤمنون هنا هم أصحاب النبي الذين اتبعوه من أهل مكة وما حولها .

وتفاجئنا الآية الرابعة بإنذار الذين زعموا لله ولداً . ونعلم أن السُّورة مكيةٌ ونحن نعلم أنه لم يكن في مكّة من يزعم لله ولداً من البشر . فلم يكن في مكّة نصارى . فما المناسبة وما علاقة الآيتين (٤-٥) بالأطروحة؟ في الآية السادسة كلمة تشير إلى أن الجماعة التي جادلها النبي بالأمر هي جماعةٌ مارةٌ بمكّة ، وليست مقيمةً بها ، فهم ليسوا من أهل مكّة . والكلمة المفتاح هنا « آثارهم » . وقد أحسن جلال الدين المحلي عندما فسرها في الجلالين بقوله « بَعدَهم أي بعد توليهم عنك » . ولو كانوا مقيمين بمكّة لما قال « على آثارهم » ونتساءل عن الحديث الذي لم تشر إليه السُّورة حسب المفسرين وأسباب النزول . ونبحث عن أصل قصة أصحاب الكهف التي زعم المفسرون أنها من اليهود ، لنكتشف أنها قصة مسيحية ولا علاقة لليهود بها . ونعلم أن الجدال الذي في السُّورة إنما قصد فئةً مسيحيةً ، قابلت النبيّ وتحدثوا أمامه بالقصة . وربّما استعملوها ليثبتوا رضا الله عنهم وهم على عقيدتهم ، التي هم عليها يوم قابلوه . ونتحرى في كتب التاريخ الأوربّية لنجد تناقضاً في الروايات الكنسية

للقصة ، وخللاً في بعض أجزاء قصتهم باعتبار الرواية القرآنية . ولعل هذا سر الآية السادسة التي قد تكون ردًّا على تمسك القوم بروايتهم رغم الأخطاء التي بها مما سنبينه عند تحليل القصة .

ويبقى وصف القرآن في الآية الأولى ﴿ **وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ** ﴾ (الكهف:١) فما مناسبة هذا الوصف الذي لم يتكرر في القرآن . وهل له من علاقة بعتاب الله للنبي في الآيتين (٢٣-٢٤) اللتين تتخللان قصة أصحاب الكهف ونصهما الشريف ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا** ﴾ (الكهف:٢٣،٢٤) . نعم لو استجاب الله للنبي وأنزل عليه خبر أصحاب الكهف بحضور الذين سألوا عنها لكان جوابا لهم وخطاباً . ولكان اعوجاجاً في مسيرة القرآن الذي وصفه تعالى في سورة الشورى ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (الشورى:٧) وقوله تعالى في سورة الأنعام (٩٢) ﴿ **وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ** ﴾ (الأنعام:٩٢). وبذا عللت السورة للنبي عدم نزول آيات القصة عندما انتظرها مع غرباء جاءوا من خارج الجزيرة ، لا علاقة لهم بالقرآن ولا نزل من أجلهم . بل هو كما وصفته الآية الثانية من السورة : لينذر مشركي مكة ويبشر مؤمنيها الذين صدقوا نبيهم . ولكن الله العليم وظف قصة أصحاب الكهف التي أعجبت النبي لتكون قاعدةً فكريةً محكمةً وبعد أن أضاف لها قصصاً أخرى تنسلك معها تحت نفس النظرية لتصير مناسبة لخطاب أهل مكة خصوصا والعرب عموما ، ولتطلع النبي والمؤمنين والمشركين على إحدى سنن الله تعالى في حماية عباده الذين يتعرضون إلى ما لا قبل لهم به دون ذنب جنوه .

أطروحة السورة : تشكل الآيتان ٧-٨ أطروحة السورة وتستوعبان كل مواضيعها بأسباب تلك المواضيع ونتائجها باعتبار العنوان كموجه للأطروحة وللسورة ﴿ **إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ (الكهف:٧،٨)

وأمام هاتين الآيتين نتساءل : ما علاقة زينة الأرض بموضوع السُّورة ؟

زينة الأرض كما تذكر الآية هي مادة ابتلاء البشر . إذاً فهي ليست للزينة بل لما فيها مما يتنافس عليه البشر . فهي مصدر الثَّروة . ولا مصدر للثروة إلا ما خرج من الأرض . وعندما تنتهي الحاجة إليها يجعلها الله صعيداً جُرزاً تراباً لا حياة فيه . فما علاقة الثَّروة الناتجة من نبات الأرض وحيوانها ومعادنها بسورة اسمها الكهف؟

قلنا آنفاً إن الكهف رمز الملجأ ، وهو سبيلٌ جعله الله لحماية المستضعفين ، الذين يتعرضون لظلمٍ لا يقدرون على دفعه بوسائلهم الذاتية ، ولا ذنب لهم بوجوده . وبقراءة السُّورة نكتشفُ أن سبب الظلم هو سوء استعمال الثَّروة والسلطة ، الناتجُ عن الفشل في بلاء القوّة والسلطة والثَّروة المجتمعة ، والمتراكمة مما تخرج الأرض وهي تتزين للبشر . ولعل قصةَ صاحب الجنتين وقصةَ أصحاب السفينة نموذجان واضحان تماماً لسوء استعمال الثَّروة والسلطة ، وإيذاء الآخرين بدون حقّ ، أو بدون عملٍ جناه المعتدى عليهم . فيجعل عدلُ الله ملجأً لهؤلاء المستضعفين . وبذا نرى سورةَ الكهف وقد أخذ بعضها برقاب بعض ، وبانسجامٍ وتلاؤم يعجز عنه البشر ؛ ويكون اسم السُّورة معجزةً لا يقدر عليها إلا الله ولهذه النقطة عودةٌ أخرى .

تحليل السُّورة على ضوء الأطروحة والعنوان :

قصة أصحاب الكهف : هي القصة الأولى في السُّورة ، وتبدأ بقوله تعالى : ﴿ **أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا** ﴾ (الكهف:٩) ونفهم من الآية أن النبيّ سمع قصةَ أصحاب الكهف ، فعجب مما يدل أنها ذُكِرت له بطريقة ودية ، وليس على سبيل التحدي والفحص كما جاء في أسباب النزول!

يروي الطبري في تفسيره من سبب نزولها أن قريشاً استعانت بيهود ليخبروهم بحقيقة النبيّ : « فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنّ ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيٌّ مرسلٌ ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل ، فَرَوْا فيه رأيكم : سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوّل ، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجلٍ طَوّاف ، بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك ، فإنه نبيٌّ فاتَّبعوه » .

ويهمنا الآن من الخرافة التي أوردها الطبري خبرُ الفتية أصحاب الكهف . وقد أثبتنا مسيحيتهم عند الحديث عن أطروحة السُّورة . ووجدنا خبرهم في مراجع مسيحية . وبالتالي فهم ليسوا يهوداً ولا علاقة لهم ببني إسرائيل ؛ ولا مثيلَ لقصتهم

في التراث اليهودي . وليس من عادة بني إسرائيل أن يُظهروا أخبار غيرهم ، خصوصاً المسيحيين ، فحقدُهم على المسيحية شديدٌ . ثم قول القصة إنهم ذهبوا في الدهر الأول يوحي أنهم كانوا قبل اليهودية ، باعتبار أن المتحدثَ يهوديٌّ . وزمنَه سابقٌ على زمن النصرانية . وهذا عامل آخر في كشف زيف ما نقله الطبري . ثم يصفون الخبر بالعجيب ، ولم نعهد بني إسرائيل يُعجبون بمسيحيين ، أو يُبرزون حسنةً من حسناتهم ؛ فكيف بقصةٍ عجيبةٍ تدل على قوة إيمان فتيةٍ منهم . تُخلدُها بعض الكنائس وتحتفل بذكراها كلّ عام؟

وبالمناسبة لابن كثير تعقيبٌ لطيف حولها عند تفسيره للسورة يقول « وقد ذُكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم ، فالله أعلم ، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلّية ، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية ، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم ؛ لمباينتهم لهم » . وسبب توصل ابن كثير لهذا الاستنتاج تصديقه لرواية أسباب النزول . ولو انطلق من نص القرآن ، لوصل إلى الصواب بشأنهم خصوصاً أنه فكر بطريقةٍ سليمةٍ . وكان مع ذلك قد اطلع على روايةٍ مسيحيةٍ تشبه روايةَ الكنيسة الكلدانية . وهذا مثلٌ على فساد منهج التفسير بالنقل .

ما نستنتجه من جو نص القصة أن جماعةً مسيحيةً مرت بمكّة ، وسمعت بالنبيّ أو جاءت لزيارته عمداً ؛ فأحبوا أن يلتقوه ويسمعوا منه ويُسمعوه قصة الفتية العجيبة ، التي حدثت بعد المسيح ولم ينزل بها شيء من السماء . ولعلهم أحبوا التأكد من أمرها ما دام في الأرض نبيٌّ . فكان ردُّ فعل النبيّ لما سمع القصة أن عجب وسعد ، ولكنه انتظر خبر السماء بشأنها ، فجاءه قرآنٌ بها بادئاً بتلخيص ما سمع مؤكداً صدقه بثلاث آياتٍ (١٠-١٢) هي ﴿ **إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا** ﴾

(الكهف: ١٠-١٢)

ثم تأتي الآياتُ بخبرهم الحقّ من عند الله تعالى ﴿ **نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى ١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ**

مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾ (الكهف:١٣-١٦)

وبهذه الآيات السبع نعلم عن بداية القصة ، ولماذا لجأ الفتيةُ إلى الكهف ؛ ولا نرى حتى الآن تناقضاً بين الروايتين بل تكاملاً .

ثم تواصل السُّورة سردَ القصة بوصف الكهف ، الذي آواهم ، والفتيةَ نائمين فيه ، بآيتين كريمتين هما : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ (الكهف:١٧،١٨)

وفي الفقرة قبل الأخيرة تتحدث السُّورة عن بعثهم من نومهم بعد ٣٠٩ سنوات وما ينجم عن ذلك من مفاجأةٍ لهم وللمجتمع وما قررت قيادة المجتمع بشأنهم بعد أن عادوا لنومهم الأخير ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ (الكهف:١٩-٢١)

وفي الفقرة الأخيرة من القصة عرضٌ لاختلاف الناس حول قصتهم مما يؤكد أن قصتهم قبل القرآن كانت بشريةً ، ولم توثق توثيقاً دقيقاً ، ففيها خلافات حول عددهم وحول مدة بقائهم نائمين في الكهف . وفي القرآن المنزل من عند الله نسمع الخبر اليقين في الآيات الخمس التالية : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ

مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾
(الكهف: ٢٢-٢٦)

وفي المجموعة الأخيرة آيتان موجهتان للنبيِّ تُذَكِّرانِه وتخبراننا أن أمر إنزال القرآن حقّ لله وحده . وذلك ردًّا على النبيّ عندما وعد محدثيه أن يأتيهم بخبر السماء حول قصتهم في اليوم التالي فتأخر الخبر لأنه ما كان للنبيِّ أن يَعِدَ بالطريقة التي صدرت عنه . فأمر إنزال القرآن لله وحده . وهو سبحانه وحده يعرف خطته في مخاطبة من شاء من خلقه .

وننتقل إلى التراث المسيحي لنجد القصة مُسجلةً بطرق مختلفةٍ باختلاف الكنائس . تذكر الكنائس قصتهم تحت عنوان «النائمون السبعة» أو «الفتية النائمون السبعة» . وأبدأ بنقل القصة كما يرويها القس الكلداني فيليكس الشابي على صفحة كلديا نت [١].

«في القرن (٣م) حكم الإمبراطورية الرّومانية ملك وثني اسمه داقيوس (٢٤٩-٢٥١م) وكان هذا كارها ومضطهدا للمسيحية . إذ أصدر أمرا بمتابعة المسيحيين وقتلهم إن لم يرجعوا إلى عبادة الأصنام . وفي أحد الأيام ذهب الملك إلى إفسس في آسيا الصغرى (تركيا الحالية) وسمع بوجود سبعة شبان من ضباط الجيش قد أصبحوا مسيحيين ، فناداهم ووبخهم ليرجعوا إلى الوثنية ، إلا أنهم أبوا ذلك . فأمر بإن يُطردوا من الجيش ، وأمهلهم مدة يسيرة للتفكير ريثما يكمل جولته ثم يعود إلى أفسس!» ويواصل القصة قائلا : «استغل الفتية فترة غياب الملك فذهبوا إلى بيوت أهاليهم وأخذوا منهم المال والذهب وتصدقوا به على الفقراء ، ثم اختبأوا في كهف بجبل (أنكليوس) كي لا يتابعهم الناس».

وتحتفل الكنيسة الكلدانية بذكراهم السنوية يوم ٤ تشرين الأول (أكتوبر)

وعلى صفحة الكنيسة الأرثوذوكسية الأردنية ، وفي المكان المخصص لأخبار المطرانية ذكرت القصة تحت عنوان « القديسون الفتية السبعة النائمون»[٢] . وفيما

---

(١) www.kaldiya.net/ . . ./SevenSleepers_Sep29_06 .html
Sep 29, 2006 قصة النائمين السبعة .. إعداد القس فيليكس الشابي . . .

(٢) http ://www .orthonews .org/ar/node/3838 : القديسون الفتية السبعة النائمون في إفسس .

يلي النص الذي يتوسع بنقل الروايات المتباينة حول القصة : « كان هؤلاء السبعة إخوة وقد وردت أسمائهم في التراث . . . . وقد فروا في زمن الاضطهاد من وجه عمال الإمبراطور واختبأوا في مغارة في أفسس (في اليونان حالياً) . وإذ عرف الوالي بأمرهم سدّ عليهم المغارة ، فقضوا فيها شهداء .

أما تفاصيل أخبارهم فيعتريها الإبهام لا سيما وهناك روايات خارقة تناقلتها الأجيال بشأنهم . فهؤلاء السبعة هم الذين درجت تسميتهم في التاريخ بـ« أهل الكهف » ، قد قيل عنهم أنهم ماتوا ولم تبلَ أجسادهم ، ثم عادوا إلى الحياة من جديد بعد حوالي مئتي عام . وحسب هذه الرواية كان استشهادهم في زمن الإمبراطور الرّوماني داكيوس (٢٥١م) وانبعاثهم في زمن الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الصغير (٤٠٨-٤٥٠م)

. . . هؤلاء الإخوة كانوا ذوي مناصب عالمية جعلتهم من أصحاب الكرامة والمجد . لكنهم طرحوا عنهم اعتبارات البشر وامتثلوا لأمر الله عندما كان عليهم أن يختاروا بين الله وبين القيصر « الجائر الأثيم » . وقد اختبأوا في المغارة ولم يبرحوا فيها متضرعين إلى الربّ المحب البشر أن يمنحهم قوة واقتداراً . لكن الربّ الإله ، لأحكام يعلمها هو وحده ، جعلهم يرقدون كلّهم بسلام . ثم بعد ثلاث مئة واثنتين وسبعين سنة بعثهم من التراب بتضرعات الملك التقي الحسن العبادة . أما شهادة ذلك فحاجة الملك إلى برهان حسي يثبت فيه صحة عقيدة القيامة في وجه من كانوا ينكرونها . وتقول خدمة صلاة المساء أيضاً أنهم لم يشعروا بشيء عندما رقدوا ولم يشعروا بشيء عندما انبعثوا .

على أن مصادر أخرى تفيد أن أجسادهم طيلة هذه المدة بقيت سالمة من الفساد طرية وحسب ، ولا تتحدث عن قيامة لهم من بين الأموات . مهما يكن من أمر ، فإن وجه العجب الذي جعل الكنيسة تحفظ تذكارهم اليوم هو إيثارهم الموت على نكران الربّ يسوع . وكلّ ما عدا ذلك من تفاصيل ، صادقاً كان أو مبالغاً فيه ، فلا يزيد من قداستهم ولا ينقصها . هناك عيد آخر لهؤلاء الفتية السبعة تقيمه الكنيسة في ٤ تشرين ثاني من كلّ عام».

هاتان روايتان من الروايات الكنسية لقصة أصحاب الكهف . وهما تتفقان باسم الحاكم الذي يُظن أنه سبب لجوء الفتية للكهف وهو عندهم داقيوس الذي حكم في

المدة ٢٤٩-٢٥١م. وكذلك يتفقان على اسم الإمبراطور الذي بعث في عهده الفتية ، وهو ثيودوسيوس الذي حكم فترة طويلة (٤٠٨-٤٥٠) . ولكن حكمه الحقيقي بدأ حوالي عام ٤١٨ وقبل ذلك كانت الكلمة لأخته الكبرى ولأبيه . وأراني مهتما بتاريخ هذا الإمبراطور المتدين لأن خبر معاصرته لاستيقاظ الفتية مقبول . فالحادثة حدثت قبل ظهور الإسلام . وهذا الرجل حكم إلى ما قبل الإسلام بحوالي ١٥٠ سنة . وهو زمنٌ معقولٌ لخبرٍ يوصف بأنه في دهرٍ أول . ولكن الخلاف بيننا وبينهم زمن بداية نومهم . ومع أن رواية المطرانية الأردنيةً ذكرت اسم داقيوس وعام حكمه لتكون مدة نومهم ٢٠٠ عاماً . وهي نفس المدة التي وردت في رواية الكنيسة الكلدانية إلا أن رواية المطرانية الأردنية كانت أكثر حذراً عندما عبرت عن حيرتها بشأن المدة التي نامها الفتية فذكرت احتمالاً آخر لمدة نومهم وهو ٣٧٢ سنة . ولم توارب رواية المطرانية منذ البداية عندما ذكرت أن قصتهم يعتريها الإبهام . وحسب الرواية الثَّانية لا يمكن أن تكون بداية نومهم في عهد داقيوس .

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم أنهم ناموا ٣٠٩ سنوات . ونهتم هنا بالمدة ليس من أجلها ، لكن لنعرف أسباب خوف الفتية من مجتمعهم ، وليس من ملكهم وحسب . وإذا كنا نقبل عقلاً بأنهم استيقظوا في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس أي في المدة (٤١٨-٤٥٠م) ثم عدنا إلى الوراء ٣٠٩ سنوات تكون بداية القصة في المدة (١٠٩-١٤١).. إذاً فالمؤكد باعتبار الرواية القرآنية أن فتنة الفتية لم تحدث في عهد داقيوس بل بدأت في أوائل القرن الثَّاني الميلادي . حيث كانت عقيدة التَّوحيد هي السائدة في المسيحية . وكان المسيح ما زال بشراً وليس إلهاً ولا ابن إله . وفي نفس الوقت فإن القرن الثَّاني هو الذي شهد أكثر وأشد عمليات اضطهاد المسيحيين من قبل الحكام الوثنيين وشعوبهم . وهذه العلامة بارزة في الرواية القرآنية . فقبل دخول الكهف يروي القرآن على لسان الفتية ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا** ﴾ (الكهف:١٤-١٦) . ونفهم من الآية

الأخيرة أن قومهم كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى . وكان الفتية موحدين توحيداً خالصاً .

الصراع الطبقي وكهف الفقراء المؤمنين : عندما يَضِلُّ الناسُ الطريقَ ، ويفضلون الثَّروة على الإنسان ؛ ينقسم المجتمع إلى طبقتين غنيةٍ وفقيرة . وغالباً ما يتحالف الأغنياء مع الباطل وشَرِّه ، لأنه يسهل لهم مزيداً من الثَّروة والقوّة . وهذا ما تعالجه الفقرة التالية توقيعاً كاملاً لأطروحة السُّورة ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ (الكهف:٧،٨) . فزينةُ الأرض وما ينتج عنها من رزق ، هي أحد أنواع البلاء ، أو امتحان الإنسان في الحياة ، ليُعرَف المحسن من المسيئ . وتأتي قصة مالك الجنتين مع صاحبه المؤمن أُنموذجاً واضحاً وشائعاً لإساءة استعمال الثَّروة الناتجة من الأرض . وبين يدي هذه القصة الأنموذج تتنزل خمس آيات (٢٧-٣١) توجه النبيّ للانحياز إلى المؤمنين على فقرهم ، وذلك عندما ساومه عِلية القوم من قريش على أن يتخلى عن أتباعه الفقراء أو يميز بينهم وبين الفقراء في التعامل والاجتماع . فتأمره الآيات بالموقف القويّ الملتزم بأوامر الله وبصحبة المؤمنين ورفض نصيحة العصاة الضالين : ﴿ **وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾

(الكهف:٢٧-٣١)

ثم يُعرض المثل الذي يتكرر كلّما جهل مجتمعٌ أو فردٌ أهداف الحياة ، وانتشر الانحراف بتكريس الجهد في جمع الثَّروة والاستمتاع بها ، على حساب القيم العليا وطاعة الله . إنه المثل المعروض بالآيات (٣٢-٤٤) . ولا أرى ضرورةً للتعليق على

القصة أو تفسير آياتها فهي من الوضوح والجمال بحيث لن يزيد قيمتها أي كلام يقال في ظلالها :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

(الكهف: ٣٢-٤٤)

جعل الله زينة الأرض والثَّروة الناتجة عن ذلك مادة بلاءٍ فسقط صاحب الجنتين في الامتحان . والقصة تنبثق من أطروحة السُّورة انبثاقاً طبيعيًّا لا تكلّف فيه . فهل هي كذلك مع العنوان؟ وأين الكهف وصاحبه هنا؟ أما صاحب الكهف هنا فهو المؤمن الذي أهين من مالك الجنتين دون ذنب جناه سوى أنه أقلُّ مالاً وولداً . وكان كلام مالك الجنتين يتضمن تهديداً للرجل المؤمن إذ أعلن الغنِيُّ أنه أعز نفراً . وأما الكهف فهو حسبان السماء الذي أرسله الله حالةً جويةً حرقت الثِّمار أو أسقطتها . وعجز مالك الجنتين بثروته وعزوته عن معالجة الأمر . فهناك الولاية لله الحقّ .

تعقيب وتحذير : تعقيباً على قصة مالك الجنتين وطلب أثرياء مكّة تمييزهم عن فقراء المؤمنين . ولأن أقوياء قريشٍ من المشركين اعتادوا تعذيب المؤمنين الضعفاء كالفقراء والعبيد والغرباء ، تأتي الآيات الخمس التالية (٤٥-٤٩) لتذكرهم أن الحياة قصيرةٌ وأن زينةَ الأرض التي يجنون منها ثروتهم وقوتهم زائلةٌ ، ومثلها بنوهم الذين يستقوون بهم . فليكفوا عن ظلمهم وليستعدوا ليوم الحساب حيث

تُسجِّلُ كتبُهم كلّ صغيرة وكبيرة : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(الكهف:٤٥-٤٩)

وفي حقائق هذه الآيات كفايةٌ في النهي عن الظلم ، وبالتالي الاستغناء عن كهف النجاة للمظلوم . وهي في نفس الوقت تفصيلٌ لما جاء في الأطروحة عن زينة الأرض ، ووظيفتِها ونهي عن الانخداع بها ؛ فالعقاب الذي ينتظر من ينخدع بزينة الحياة كبيرٌ! وهذا هو أسلوب السُّورة القرآنية التي تناقش موضوعها من كلّ أطرافه .

أصل الظلم والانحراف : مزيداً من التعمق في تحليل مشكلة كبراء المشركين وتكبرهم على المؤمنين ، نجد الفقرة التالية من الآيات (٥٠-٥٩) التي ترجع تكبرهم إلى اتباع إبليس ومنها :

١- موالاةُ إبليسَ وذريتِه ؛ وهو عدوّ البشرية منذ خداعه لآدم . ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف: ٥٠-٥٣)

٢- ظاهرة الجدل بالباطل للتهرب من الاعتراف بالحقّ . وكلّ فكرةٍ حجّةٍ يستعملها الإنسان للتهرب من الحقّ ، إنما هي من وسوسة إبليسَ وذريتِه . فهذه المجموعة من الآيات امتدادٌ لسابقتها . ونحن لا نعرف كيف تكون هذه الوسوسة . ولعلها رسَخَت في نفس السلالة الإنسانية منذ سقط آدمُ وحواءُ بخداع إبليس لهم ، فهي موروثةٌ كطاقةٍ وإمكانيةٍ على الانحراف والحِجاج بالباطل ، تماماً كما أقنع

إبليسُ آدمَ وحواءَ بتذوق شجرة الخطيئة . فورثتها السلالةُ كلّها كأنها محمولةٌ على العوامل الوراثية للبشر .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف:٥٤-٥٩) . وتَعرِضُ الآيات طرفاً من حجاج أهل الباطل للأنبياء ولدعاة الهدى . وما ذلك القول منهم إلا لأن الله حرَّم عليهم الهدى ، بما اكتسبوا من شرٍّ أغواهم به إبليسُ وذريتُه .

كهوف بشرية :

العبد الصالح : بالآية (٦٠) نبدأ جولةٌ مثيرةٌ مع كهفٍ من نوعٍ آخر ، إنه رجل من عباد الله . آتاه الله علماً وولاّه تنفيذ أمره عندما يحتاج مظلوم إلى كهف . وسبق أن سجلنا قول الرازي « فلانٌ كهفٌ » والكهف هنا فلانٌ الصالح لأن السُّورة لم تذكر اسمه . ونتعرف عليه من خلال جولةٍ رافقه فيها رسول الله موسى بن عمران : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف: ٦٠-٧٠)

ونفهم ضمناً أن موسى قبل بالشرط ليبدأ الرحلة مع العبد الصالح . ويقوم العبد الصالح بأول أعماله ككهف نجاةٍ على مرأى من موسى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾

(الكهف: ٧١-٧٣)

ويبرر العبد الصالح خرقه للسفينة بقوله : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾ (الكهف: ٧٩) فنعلم أنَّه قام هنا بدور كهفٍ لأناسٍ فقراءٍ ، أوشكوا أن يفقدوا مصدر رزقهم على يد ملكٍ كان يسيء استعمال القوّة التي مُنحت له كملك .

ثم يواصل ما وكّله الله به من وظيفة الكهف فنرافقه مع موسى في رحلته الغريبة : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ (الكهف: ٧٤-٧٦)

وفي نهاية الرحلة نعلم مع موسى سر قتل الصبي : ﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴾ (الكهف: ٨٠، ٨١)

وتبدو حالة استضعافٍ غريبةٍ ولكنها كثيرة الحدوث . فكثيرا ما يضعف الأبوان أمام استغلال الابن لعاطفة الأبوة والأمومة . وهي بين يديه قوةٌ يحتاج معها الأبوان كهفاً يحميهما منها ؛ فيسر الله هذا العبد الصالح مفَوَّضاً من الله بقتل الولد ، ويعد بتعويضهما خيراً منه ، كي لا تصدمنا حالة القتل والفقد .

وفي المرحلة الأخيرة من رحلة موسى والعبد الصالح : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ (الكهف: ٧٧-٧٨)

ويعلل العبد الصالح عمله ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾
(الكهف: ٨٢)

ومن يعرف سكان البيئات الفقيرة يعرف أهمية إخفاء المال عنهم . ونجده هنا يعمل على أن يبقى الكنز مخفيًّا ، حتى يصير اليتيمان أهلاً لحمايةِ مالهما ، وحسن استعماله في بيئةٍ يحتال أهلها بكلّ وسيلةٍ للحصول على المال بحقّ وبغير حقّ . ويحتاج الأمر إلى كهف حمايةٍ ليتيمين ضعيفين في تلك البيئة! فكان العبد الصالح هو الكهف .

ذو القرنين : كهف آخر من بني آدم . ويبدو من النص أن ذا القرنين كان ملكاً وقائداً عسكريًّا . ربّما سيطرت عليه فكرة توحيد العالم المعروف على زمنه . وهي فكرة خطرت ببال معظم من آتاهم الله سلطةً وقوةً عسكريةً كبيرةً . ويدخل النص الشريف إلى قصة ذي القرنين من باب السؤال . وعندما تأتي الإشارة بهذه الصيغة فالسائل هم أهل مكّة . وذو القرنين لم يكن نبيًّا ولم يوحِ اللهُ إليه . بل كان الله تعالى يراقب عمله ويوجهه بلطفه دون علمٍ من ذي القرنين ، ليكون كهفاً لبعض خلق الله ، ويضع به حدًّا للظلم . ولكن ليس على طريقة العبد الصالح الذي كان مكلّفاً بأعمال محددةٍ سلفاً . بل تُرك هذا لعقله وضميره الناضج ، ولرقابة الله لصده إن أخطأ :
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (الكهف: ٨٣-٨٨)

ولعل قوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (الكهف: ٨٦) جَعَلَ بعضَ الناس يظنون أن الله خاطب ذا القرنين فاعتبروه نبيًّا . ولو تفكرنا بهذه الجملة من الآية لعلمنا أن الله في الحقيقة لم يخاطب الرجل ولا قال له ولا لسواه شيئاً . إنما كان سبحانه يراقب الأمر ويقول في ذاته الجليلة سبحانه . فماذا

كان يمكن أن يفعل ذو القرنين غير الاحتمالين الواردين بكلام الله؟ وعلى الأرض قرر ذو القرنين قراره ﴿ **أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا** ﴾ (الكهف:٨٧،٨٨) ولا يلزم لهذا القول سوى أن يكون ذو القرنين مؤمناً بالله ويتصرف وفق الفطرة السليمة . وهو هنا كهفٌ للمستضعفين عندما يعذب الظالمين ويظهر قوتَه أمام المُخلِّين بأمن المجتمع .

ومرةً ثانيةً يؤدي دور الكهف بطريقةٍ أوضح ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا** ﴾ (الكهف:٨٩-٩٨) .

كان ذو القرنين كهفاً وصنع لهؤلاء المستضعفين كهفاً على صورة سدٍّ يحميهم من أناسٍ أكثر منهم عدداً ؛ ويسيئون استعمال ما منحهم الله من قوةٍ . فكان لا بد من كهفٍ يلجأ إليه الشعب غيرُ القادر على صد أعدائه الشرسين . فساق الله ذا القرنين ليقوم بهذه المهمة اعتماداً على ما رسخ في عقل ذي القرنين وقلبه من قيم . وهكذا وظف الله ذا القرنين لتنفيذ خططه القديمة سبحانه . تماماً كما كلّف العبد الصالح صاحبَ موسى عندما لم يجد في المنطقة من يَصلُحُ كهفاً بفطرته وطبيعته وقوته للقيام بهذه الوظيفة . وهكذا هي خطة الله للناس بما يتعلق بأمر حمايتهم من شرٍّ لا يستحقّونه .

وتنتهي قصة ذي القرنين ليبدأ التعقيب على السُّورة . فقصة ذي القرنين انتهت بقول الله تعالى على لسان ذي القرنين ﴿ **قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا** ﴾ (الكهف:٩٨) .

فهو حسب ذي القرنين سد متين يمكن أن يبقى إلى يوم القيامة . ثم ينتقل النص متجاوزاً حدود الزَّمان والمكان إلى يوم الحساب وساحاته المضطربة بالخوف والهلع والصدمات التي لا مثيل لها في الحياة الدنيا يقول تعالى ﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا** ﴾ (الكهف:٩٩)

مشهد القيامة لمن أساءوا استخدام الثَّروة والسلطة والقوّة : ينتقل النص إلى مشهد يستوعب جهنم بقضها وقضيضها ليراها الذين لم يصدقوا بها في الدنيا ﴿ **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا** ﴾ (الكهف:١٠٠،١٠١)

ومشاهد القيامة كثيرةٌ في القرآن وقد يكون هذا من أقواها وأشدها تخويفاً . وتُنبئنا الآياتُ الخمس التالية أنها هنا لاستقبال الذين يسيئون استخدام القوّة سلطةً وثروةً لاستعباد عباد الله أو ظلمهم . ولأن هؤلاء الأقوياءَ يحظون عادةً بمنافقين وأتباعٍ يبررون لهم شرورهم فتعمى بصائرهم ويظنون أنهم يحسنون صنعاً ﴿ **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾** ﴾ (الكهف:١٠٢-١٠٦)

وبالتفاتةٍ رائعةٍ تقابل الآيةُ حالَهم الدنيوي بما يكونون عليه في الآخرة . فهم هناك أذلةٌ لا وزنَ لهم . وليس ضروريًّا أن يكونوا من الأمم التي خوطبت برسل الله فآيات الله تكفي للاستقامة وعدم ظلم الضعفاء .

ومقابل الظالمين ممن مُنحوا السلطة والثَّروة تعرض الآيات مصير المؤمنين الذين عرفوا نعمة الله وعملوا الصالحات في حياتهم الدنيا ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا** ﴾

(الكهف:١٠٧،١٠٨)

التعقيب الأخير :

في سورةٍ تعرض قصصاً عجيبةً تأتي الآيةُ قبل الأخيرة لتقول إن لدى الله أخباراً كثيرةً ، ولو كتبت بمدادٍ لما كفى لكتابتها مثل ماء البحر أو ضعفيه مداداً ؛ ولكن الله

ينزل علينا ما يلزمنا للهدى في الحياة . ثم يؤمر النبيّ أن يحدد للناس وظيفته على أنه بشرٌ كبقية عباد الله ؛ لكنه يستقبل وحي الله ولا يصنع وحياً من عنده ، وجوهر الوحي الدعوة لعبادة الله دون شريك ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا** ﴾ (الكهف:١٠٩،١١٠) . وهذا ردٌّ مباشرٌ على النبيّ عندما عجب من قصة فِتيةِ الكهف وعندما وعد الوفد المسيحي السائل عن الفتية بجواب السماء بعد يوم . فتأخر الجواب حتى غادر الوفد مكّة . فهم ليسوا ضمن خطة الله بالخطاب القرآني . ولو خاطبهم لكان عِوَجٌ في خطاب القرآن . لكن السُّورة تأتي بعد رحيلهم موظفةً لغرض مختلف عما طلب النبيّ . وبذا يحافظ الله تعالى على استقامة الخطاب القرآني وهو يضع القصة ضمن قصص أخرى تشابهها في الغرض ، وتناسب أحوال النبيّ والمؤمنين معه وما يواجههم من مشركي قومهم .

وهكذا نجد أن كلّ قصةٍ في السُّورة تدور حول محور واحدٍ هو عنوان السُّورة « الكهف » وكذلك كانت كلّ تعقيبات السُّورة ومواعظُها . والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً .

* * *

سورة مريم

مريم هي السُّورة التاسعة عشرة باعتبار الفاتحة والمقدمة . وهي سورةٌ جليلةٌ تفيض وقاراً بصياغة آياتها التي ينتهي معظمها بألفٍ لينةٍ بعد ياء عميقة . بينما تنتهي آياتُها الأخيرة بدالٍ حاسمةٍ وبلهجةٍ عاليةٍ تصل حد التهديد لأعداء النبيّ . والسُّورة مناجاةٌ للنبي لا تخاطب سواه . وموضوع خطابها مريم لا سواها . وليس مريمَ الصديقةَ أعني بل مريم معنى الاسم ، إنه عناد الأيام والظروف وما معه من رفضٍ وتكذيبٍ . مريم تعني العصيان والعناد . وليس عناد مريم ابنة عمران ما قصدت السُّورة بل صعوبة الطريق الذي يضع اللهُ رسلَه وأولياءه على أوله . هو طريق التغيير وإخراج الناس من الظلمات إلى النُّور ، ومن الجور إلى الاهتداء . ولا يرسل الله رسله إلا إذا ابتعدت أقوامهم عن قيم الفطرة وعن الحد المقبول عند الله الحليم . وبقدر انحراف المجتمع عن قيم الفطرة ، وضلاله في شعاب الكفر والشرك تكون مقاومته للإصلاح والتغيير .

وكان رجلُ الساعة يوم نزلت السُّورة آخرَ رسل الله محمداً بن عبد الله . رسولَ الله إلى العرب . واصطدم النبيّ بمقاومةٍ عنيفةٍ . بل تعرض لهجوم القوم وبغيهم منذ اللحظة التي أعلن فيها دعوتة . ولم يريحوه من شرهم وجدالهم وخصامهم لحظةً واحدةً . فتأتي هذه السُّورة لتقول له إنه ليس الوحيدُ الذي يتعرض لمثل هذا . فكلّ الرسل تعرضوا لمثل ما تعرض له سواءً أكان من أقوامهم ، أو من أعداء أقوامهم وربّما من الفئتين معا كما في حالة موسى بن عمران . ولكن الله كان يكرم رسله وكلّ من يكلّفه بمهمةٍ صعبةٍ . وكانت المكافأةُ أعظمَ من الألم الذي تسببه الولاية الإلهية الكريمة . وغالباً ما تأتي المكافأةُ ذريةً طيبةً مباركةً كحالة إبراهيم . أو خلود ذِكرٍ وعظيم أجرٍ كمريمٍ وعيسى .

عنوان السُّورة وموضوعها :

اسمها مريم . وقد ورد اسم الصديقة مريم في السُّورة ؛ وليس لأن السُّورة تدور حول قصة مريم . فقصة مريم موجودةٌ في سورة آل عمران وبتفصيلٍ أوسع . وميلاد المسيح أكثر حضوراً في السُّورة . كما ورد بها ذكر عدد من الأنبياء . ولكن الله تعالى

اختار لها اسم مريم ليكون بمعناه محور موضوع السُّورة ، وضابط فقراتها ، فمريم المعنى هو موضوع السُّورة . ومريم كلمة عبرية لها أصل وامتداد باللغات السامية . وفي تفسير كلمات الكتاب المقدس[1] أنها كلمة عبرية بمعنى العصيان .

وأقرب مادةٍ لغوية لها « مِرْية » . يُقال : مَرَيْتُ الفرس ، إذا استخرجت أقصى قدرتها على الجري بالسوط أو بسواه .

وتدور السُّورة حول معنًى قريبٍ من عناد الظروف وعصيانها وقسوة الأيام للوصول إلى أفضل النتائج .

ففي بدايتها يقسو القدر على زكريا وتضيق الحياة في وجهه . فليس في إسرائيل وارثٌ صالحٌ لحمل أمانة الدين . وهو شخصيًّا يبلغ مرحلةً من العمر ييأس معها أن ينجب ، خصوصاً مع امرأته العاقر . فيلجأ إلى ربّه لجوء المضطر المحروم محروق الكبد ، فتأتيه البشرى بفرجٍ قريبٍ وطفلٍ حكيمٍ يحمل الأمانة بقوة!

ثم قصة ميلاد عيسى والمخاض الثَّقيل دونه ، باعتبار الوالدة الصبية ، مع عدم وجود زوجٍ والدٍ للطفل الجديد ، في قومٍ أثقل نفاقُهم حرصَهم على العفة ، وفي زمن انتشار الفاحشة فيهم! وفي القصة من الوصف الحي لمأساة الأم ما لا يغني عنه قول . فنكاد نشهدها وهي تستقبل خبر الحمل بدون زوجٍ ، ونتعذب معها وهي تختفي بجنينها الذي يكبر في أحشائها كلّ يوم ؛ ويكبر معه همها وخوفها وحزنها . ثم نقاسي معها آلام المخاض حتى تنفطر قلوبنا معها ، وهي تسمع اتهام بني إسرائيل لها بارتكاب الفاحشة . وفجأة تنكشف كلّ الهموم عندما نسمع الطفل يدافع عن أمه بمعجزةٍ لم تتكرر في تاريخ البشرية : ﴿ **إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ (مريم: ٣٠-٣٣) .

ثم تروي السُّورة للنبيِّ قصة جده الأعلى إبراهيم من طرفٍ محزنٍ وهو يجادل أباه . ونتعاطف معه وهو يتلقى تهديداً من أبيه بالرجم والهجر! وأي شيءٍ أقسى من هذا على فتًى مهذبٍ يحترم أباه ومصدر نعمته وعزه . فإذا به يفقد كلّ هذا ويواجه

---

(١) سعيد ابراهيم مرقس : تفسير كلمات الكتاب المقدس .

تهديداً بالرجم والهجر؟ وبعد معاندة الظروف اللصيقة بإبراهيم نسمع عن إكرام الله له بذريةٍ صالحةٍ بينها عددٌ من الأنبياء، لم يحظ بمثله رجلٌ واحدٌ من ذرية آدم ونوح.

كلّ هذا لتقول للنبيِّ إن ما يصيبك الآن من قومك ليس بالشيء الخطير مقابل ما أصاب مَن قبلك (زكريا ومريم وإبراهيم) فانتظر بعد عناد الأيام فرجاً ونجاحاً كالذي نالوا؟

فكانت السُّورة كلّها مريمُ من حيثُ عنادُ الأيام والظروف ، ولكنه لم يكن جهداً دون نفعه ؛ بل ينتهي بانتصارٍ كانتصار الفارس عندما يفوز فرسه في سباق ، وإن كان بالسوط والجري والعرق! وهكذا كلّ انتصارٍ ذي قيمةٍ ونتيجةٍ باقيةٍ على الأرض . مريم هي قصة حياةٍ مثمرةٍ بعد مخاضٍ قاسٍ كمقاساة ميلاد الحياة!

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

الآية الأولى ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ (مريم: ١) شبيهةٌ بآيات الحروف المقطعة التي بدأت عدداً من السور .

قصة زكريا : نفهم من النص أن القدرَ عاند زكريا بشأن الذرية . فحُرِم الولدَ حتى وصل مرحلة اليأس وتأكد أن امرأته عاقر . ولكنه صبر ، موقناً أن الأمر بيد الله . فاكتفى بالدعاء والطلب ممن له حقّ تلبية الطلب . فتأتيه البشرى مرفقةً بآيةٍ ، ونكاد نشعر معه بسعادته وهو يبشر قومه بالإشارة . ونتأكد أنه يريد الولد وارثاً لميراث آل يعقوب ، وليس شهوة أُبُوَّةٍ وحسب : ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴾(مريم: ٢-١٥).

وهكذا انتهى عناد الأيام لزكريا ، وتحول عصيانها إلى سعادةٍ وسلامٍ وحنانٍ وبرٍّ ، وابنٍ بارٍ قويٍّ يأخذ التَّوراة بجدٍّ وحزمٍ! وكانت هذه القصة أولى بشريات المناجاة الكريمةً لنبيٍّ كريم! وتشكل القصة قاعدة السُّورة وتوحي بجوِّها .

ميلاد عيسى : تبدأ القصة بعملية الحَمْل من غير زوجٍ ولصبيةٍ عذراء تكاد تكون طفلةً بريئةً . نراها وحيدةً في معتكفها وهي تتعرض لأصعب ما يمكن أن تلاقيه فتاةٌ في مثل ظروفها . وإزاء قسوة الخبر والأمر السماوي ، تفقد الصبية القدرة على القول السليم فتستعيذ بالله من الرجل الواقف أمامها إن كان تقيًّا ! فماذا إن كان فاسقاً؟ هل تستسلم لقسوته وطلبه؟ ثم نراها في وضع المشردة الخائفة من المجتمع ، شاردةً إلى أبعد ما تستطيع من مكانٍ قصيٍّ! ويأتيها المخاض في بريةٍ ، كمن جمعت حملها من خطيئة أو خطايا . فتزداد مقاساة نفسٍ بريئةٍ غير ذات خبرةٍ مع مقاساة الجسد!

سبحان الله!! سمتها أمها مريم لتكون عصيةً على السقوط عنيدةً في مقاومة الفاحشة ؛ فعاندتها الأيام كما لم تعاند امرأةً طاهرةً في تاريخ البشرية . وعصتها حظوظُ السلام والأمن حتى عاشت التشرد ، وعرفت الخوف في أشد صوره . وصارت عرضةً للوك سمعتها من قبل من لا يدانونها عفةً وطهراً . ومع انتهاء المرحلة الحاسمة من التجربة الصعبة ، يبدأ النص بعرض نتائج صبرها ابناً سيداً تلهج البشرية باسمه وتتبارك برموزه . فناداها الطفلُ الوليد ، ناداها مبشراً أنه سيكون من سَراة القوم .

ثم يبرؤها أمام القوم ؛ ويبشر من له قلبٌ وسمعٌ بميلاد المسيح المنتظر . ولنقرأ عن العقبات العديدة العنيدة وعن جائزة اجتيازها بصبر مريم من النص الشريف ﴿ **وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾**

وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ (مريم:١٦-٣٣)

وتختتم فقرة ميلاد المسيح لتتضمن كلّ ما يسعد الوالدةَ من ولدها : طفلٌ يتكلّم في المهد ، وسيكون نبيًّا يخلد اسم أمه في العالمين إلى يوم الدين ، مباركٌ حيث يكون ، عابدٌ لربّه ما دام حيًّا . وبرٌّ بأمه ولن يكون جباراً شقيًّا فيُتعِبها . بل له سلامٌ وعليه سلامٌ يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا . إنه لمريم جائزةٌ تستحقّ الذي عانت من قسوة الناس والأيام ، بل هي به أعظم سعادةً من أن تتذكر الذي كان . فهل يكفي هذا درساً للنبيِّ وهو يعالج عناد أيامه مع قومه؟

تعقيب عَقَدِيٌّ : بعد هذا الخلق المعجز والميلاد المجيد ، وما رافق خبره القرآني من مدحٍ للوليد الجديد ، وإمكانية افتتان الناس به وقد فُتنوا ، لا بد من وضع الأمور في نصابها كي لا يبقى مجالٌ للشك بحقيقة المسيح . فكانت الآيات السبع التالية لتوضيح طبيعة المسيح بوصفٍ حازمٍ لا يقبل مجالاً لتأويل يحرج عقيدة التَّوحيد ، أو يسمح أن يكون بشرٌ ابناً لله . فيستحيل عليه اتخاذ ولد . وينذر الذين اختلفوا في المسيح وقالوا فيه غير ما يقول الله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ (مريم:٣٤-٤٠) .

ويبرز هذا الجزء من قصة المسيح طبيعة الشعوب واختلافها بعد أنبيائها وبعد كتب الله لهم . خصوصاً أن اختلاف اتباع المسيح كان الأشد في تاريخ الأديان السماوية .

قصة إبراهيم : قصص إبراهيم كثيرةٌ في القرآن ولكنها في سورة مريم تناسب موضوع السُّورة . فهي تعرض مرحلةً من أقسى مراحل حياته نفسيًّا . فليس أقسى على الشاب المستقيم المؤمن بالله من أن يصطدم مع أبيه ، وأن يرى أباه كافراً بالله بل عدوّاً لله . وهنا نرى إبراهيم يحاول هداية أبيه العزيز عليه ، ويحاول تحريره من عبادة الشيطان . فيأبى الأب دعوة ابنه ، ويلومه لترك آلهة أبيه بل يهدده بالرجم إن لم يعد لها . ويطلب الأب منه الابتعاد عنه وهجره ريثما يهدأُ غضبُه عليه؟؟ ويضطر الابن للبعد عن أبيه ، واعتزاله رغم قسوة الأمر . فيعوضه الله ذريةً صالحةً يكون بينها عددٌ من الأنبياء لم يتكرر مثلُه لأحدٍ من جيله أو من بعده . فمعظم الأنبياء والرسل بعد إبراهيم كانوا من نسله . ولنقرأ القصة بكلام الله العذب الجليل وبالحقّ الذي لا يخالطه شك . ﴿ **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا** ﴾

(مريم: ٤١-٤٨) .

وتوقفنا قبل الجائزة التي كوفئ بها إبراهيم ، لنبين مقدار المعاناة التي عاناها . فنفهم من الآية (٤٣) أن الجدال كان بينهما حادًّا واستغرق وقتاً طويلاً ، فلا يقول الإنسان لأبيه ﴿ **قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ** ﴾ (مريم:٤٣) إلا بعد نفاد كلّ وسائل الإقناع . ولا يقول الأب لابنه لأرجمنك إلا بعد يأسه من استرداد ولده لدينه ، وبذل جهدٍ كبيرٍ في ذلك . ويتودد الابن الصالح لأبيه بشبه هدية ، لعله يستعيده عندما يعده بالدعاء له ضمن جولة جدالٍ أخيرةٍ . وبعد يأس كليهما من صاحبه يكون التدابُر والاعتزال! نعم اعتزال الابن العاقل الناضج لأبيه . فالعصيان هنا مُركَّب :

عصيان الأيام لإبراهيم ، وعصيان الأب بقبول دعوة الحقّ . فتكون المكافأةُ عظيمةً بقدر مواجهة العصيان والعناد ، الذي ربّما استمر سنين وانتهى بهجر الأهل والوطن ، ورحيل إبراهيم من العراق إلى فلسطين . وكانت الجائزة كما وصفتها الآيات التالية :

﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴾ (مريم: ٤٩-٥٨)

وكانت المكافأةُ من نوع العمل . فقد رضي إبراهيم بأمر أبيه له واعتزله بناءً على طلبه ، فعوضه الله بابنين حكيمين صار أحدهما رسولاً لله وجدًّا لأمة عظيمة هم العرب . والثّاني صار نبيًّا وجدًّا لأمتين إحداهما بنوا إسرائيل . ومن إسماعيل كان محمدٌ المخاطب بالسُّورة كلّها . والثّاني كان من ذريته يعقوب وأكثر من عشرين نبيًّا وبضعةِ رسل . فكلّ الأنبياء والرسل المذكورون هنا يذكرون بمناسبة الإنعام على إبراهيم لأنه صبر على معاندة الأيام له وعصيان أبيه لدعوة الحقّ ؛ وما أدى إليه ذلك من هجرٍ وفراق .

تعقيبات ومناجاة للنبي :

تفاعل المخاطبين مع النبوات : بعد كلّ هذه النبوات ما الذي أحوج الأرض لنبوةٍ جديدةٍ؟ هذا ما يخطر بالبال فيأتي الجواب العلمي المتفق مع خصائص البشر . فبعد الهدى الذي يستقر بالنبوات والدعوات الربّانية وما يرافقه من أمنٍ وازدهارٍ ، تشعر الأجيال اللاحقة بالاطمئنان وتميل للاستمتاع بما خلفه الآباء من استقرارٍ ونجاحٍ مادي . فيسترخون ويكسلون ويستمتعون بالشهوات ؛ فتضيع الصَّلاة وتتراجع قيمها رويداً رويداً . ويصير الخلَف خلْفاً ضعيفاً لاهياً عن طاعة الله وعن الأمر العام . باستثناء قلةٍ تصمد على التقوى . وتذكر الآيات مصيرهم في الجنة . والحديث في

الآيات الخمس يأتي بصيغة مناجاةٍ للنبي من الله مباشرة ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ (مريم: ٥٩-٦٣)

مناجاة ومودة : تصل المناجاة قمتها بالآية (٦٤) فجبريل بصفته حاملَ القرآن للنبي يتكلّم بلسانه مباشرةً إلى النبيّ ، كما يتكلّم صديقٌ لصديق . وعندما ننظر للآية ضمن السياق ، تكون جواباً لما قد يخطر بالبال من أن طول المدة بين نبيٍ ونبيٍ أو دعوةٍ ودعوةٍ هو سبب انحراف البشر المذكور في الآيات السابقة . ولو تقارب الأنبياءُ والرسلُ في زمن بعثهم للأرض لانحسرت مدة الفساد . أو لعل هذا ما خطر ببال النبيّ . فيأتي جواب جبريل أن نزوله على الأرض لا يكون إلا بإذن الله وبناءً على علمه سبحانه بما يلزم لخلقه . والله ذو جدٍّ عظيم! يقول تعالى على لسان جبريل ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ (مريم: ٦٤) . وبالتالي يكون استعمال صيغة الجمع لأن جبريل يتحدث عن نزوله ونزول سواه من الملائكة الذين يحملون رسائل إلى الرسل من البشر . وليس من باب تعظيم ذاته وهو يعلم أن الله يسمعه ويراه .

وتواصل الآياتُ على لسان جبريلٍ تعظيماً لله عز وجل ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ (مريم: ٦٥) وتدعو النبيّ لمواجهة عصيان قومه وعنادهم بالصَّبر والعبادة ، كما فعل الأشخاص المذكورون بالسُّورة ، لينال من الجزاء الكريم مثلما نالوا .

وبأسلوبٍ رشيقٍ تعرض الآيتان (٦٦-٦٧) علامة الزَّمن على إرسال الرسل . ثم تأتي الآيات (٦٨-٧١) لتجعل من علامات الزَّمن رسوخ الفساد حتى يكون معظم المرسَل إليهم مستحقّون للعذاب الأخروي ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ (مريم: ٦٦-٧١)

والورود هنا بمعنى وصول المكان ولعله لمجرد اطلاع المؤمنين على العذاب الذي نجوا منه !

وبعد وعد بنجاة المؤمنين ومكوث الظالمين في النار ، يعود النص ليذكر للنبيّ ما يقول الظالمون من قومه ردًّا على آيات الله ، ليعلم أن الله معه ، وأن ما يفعله الظالمون لن يمضي دون عقاب . ولن يكون عقابهم بِدْعاً من قضاء الله ، بل هي سنته مع كلّ الذين ظلموا قبلهم : ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا** ﴾

(مريم: ٧٢-٧٤)

ثم يُعلمه الله كيف يواجه ضلالهم بالصَّبر والاعتماد على الله ، ويبشره أن صبره سيصل نتيجته السعيدة ، فبعضهم سيحضر عذاب الدنيا ، ولعله قصد يوم بدر . وبعضهم سيسبق إلى الموت لينتظر الساعة وجهنم ﴿ **قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا** ﴾ (مريم: ٧٥)

ويعده أن يكون المهتدون معه في موردٍ حسنٍ ﴿ **وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا** ﴾ (مريم: ٧٦)

مناجاة بحالة محددة : تتحدث الآيات (٧٧-٨٠) عن شخصٍ محددٍ يعرفه النبيّ، وربّما ذكرته روايات أسباب النزول ، ولو كان اسمه لازماً لنا لذكرته الآيات . لكنها مناجاة خاصة للنبيِّ ولا يلزم أن يعرفه سواه . وبالنسبة لنا مجرد حالةٍ نطلع عليها بمعية النبيّ : رجلٌ كفر وتحدى النبيّ بما يظن أنه حاصل عليه عما قريب . وتتهكم الآياتُ عليه وتعد بعذابه والسخرية منه وعدم تحقيق ما يعد به نفسه : ﴿ **أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا** ﴾ (مريم: ٧٧-٨٠) . فهذه الحالة نموذج لما يواجه النبيّ من عناد قومه . ومعالجة الله لها بما يرضي نبيه .

مناجاة بوصف ظَلَمَةِ قريش : تستمر مناجاةُ النبيّ بشأن قومه . فينتقل الحديث من الشخص المحدد الذي قال لأوتين مالاً وولداً ، إلى بقية الظالمين من قريش .

ويجوز مثل هذا الانتقال في المناجاة فالمتحدث والسامع يعلمان موضوع الحديث . والله يريد أن يخبر رسوله أنه يراهم جميعاً ويسمعَهم ويعلمَ ما في نفوسهم ، ليطمئن النبيّ أن صبرَه عليهم ومعاناتِه معهم مقدرةٌ ومعتبرةٌ عند الله . وسيكون لها نهايةٌ سعيدةٌ . وسيكون للظالمين عقابٌ . تبدأ الآيات بوصف شركهم ونتيجته يوم القيامة : ﴿ **وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا** ﴾ (مريم: ٨١،٨٢) .

ثم تُذكِّره الآيات بما يعلم من أمرهم وتطلب منه إمهالهم إلى ما ينتظرهم يوم القيامة ، مقابل ما ينتظر أصحاب النبيّ من نعيم : ﴿ **أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا** ﴾ (مريم:٨٣-٨٧) . وإرسال الشياطين المذكور في الآية الأولى بمعنى تسهيل انسيابهم إلى المجرمين بما اكتسبوا .

ثم تعرض الآيات التالية قول الذين قالوا اتخذ الله ولداً . ويأتي الحديث للنبيِّ بنفس أسلوب القرب والود . تذكر الآيات فئةً معاديةً وتتوعدها بعذابٍ شديدٍ يكافئ ما أتت من شر ، فقد اقتربت من الذات العلية بشرك : ﴿ **وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا** ﴾ (مريم:٨٨-٩٦) .

وتختتَم مجموعةُ الآيات هذه بما يليق في نهاية مناجاة النبيّ كي تهدأ نفسُه ويسعد عندما يتذكر أنه لم يفشل ، وإنما كان معه أصحابٌ مؤمنون حقّاً ، ويستحقّون الجزاء الحسن من الله .

وختاماً : تأتي الآية قبل الأخيرة لتُذكر النبيّ أن الله أنعم عليه بقرآن عربيّ ميسر الفهم والحفظ ليبشر به أتباعه وينذر به أعداءه . وليسوا أول من أُنذِرَ وعُذِّبَ . بل سبقهم أممٌ لم يبق منها باقيةٌ ذلك الحين : ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ**

ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ (مريم: ٩٧، ٩٨)

وبذا تتضافر الآيات التي تخاطب النبيّ مباشرةً مع القصص الثَّلاث التي سبقتها بصنع بشرى حقيقيةٍ للنبيّ . فمن القصص يعلم أن ما يصيبه أقلُّ مما أصاب أصحاب القصص ، التي انتهت بسعادةٍ وعطاءٍ من الله يفوق أية تضحية . وتأتي المواعظ لتؤكد للنبيِّ وقوف الله معه ، وتؤكد له اطلاع الله على كلّ همسةٍ وحركةٍ في مكّة ، ولدى الله خططٌ للتعامل مع المشركين . فيطمئن قلب النبيّ ، ويصير عصيانُ الأيام وعنادُها مصدر رضاً عنده ، بعد أن كان حزناً وعذاباً . وهذه هي رسالة مريم : مواجهة عصيان المشركين وعنادهم بالصَّبر للوصول إلى النتائج المرجوة . وهو جوهر كلمة مريم .

* * *

سورة طه

طه سورةٌ أخرى في مناجاة النبيّ وحدَه لا يشترك معه في المناجاة بشرٌ . وكلّ من عداه يذكر بصيغة الغائب . والخطابُ المباشر بل الحضورُ كلّه للنبيِّ . ولعله كان يعيش إحدى أقسى مراحل العمر كداعيةٍ ؛ فكانت له هذه المناجاةُ اللطيفةُ تُطَهطِه قلبَه . والسُّورة مكيةٌ ، ويظن أنها نزلت بعد سورة مريم . وهو ظنٌّ مقبولٌ يرجحه تقارب غرضي السورتين . واسمها الوحيد « طه » . ليس لها اسمٌ سواه ولا يناسبها غيره .

طه! اسم فعل أمر بمعنى « اطمئن » كما يستنتج مما جاء في المعاجم الثَّقات . وأكثر مشتقات المادة انتشاراً الطهيان . والطهيان قُلَّةٌ في قمة الجبل تُحفَرُ بالصخر ليبردَ ماؤها فيشرب منها الناس . فقال الله لنبيه : « طه! » وهي ليست من الحروف المقطعة ولا هي اسمٌ لبشرٍ كما انتشر بين الناس .

« طه ﷺ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » . قيلت للنبيِّ للتخفيف عنه لأنه كان يُحَمِّلُ نفسه فوق طاقتها . ينزل عليه القرآن . فيتلوه على قومه فلا يؤمن به إلا قليل . وفي المرحلة التي نزلت بها هذه السُّورة لم يكن يؤمن به أي إنسانٍ جديدٍ على الإيمان . فيغلي قلبُه وتثورُ مشاعره لعزوفِ قومِه عن الحقّ ، وإعراضِهم عما فيه خيرهم . فتنزلت هذه السُّورة لتعالج ما به . ولتقول له لست بِدْعا من الرسل فقد عانَوا جميعاً مثلما تعاني ، ولكنهم كانوا ينتصرون في النهاية بفضل الله . فطه واصبر .

مطالعات في كتب التراث :

سيد قطب في تفسيره « **في ظلال القرآن** » يقول عنها : « تبدأ هذه السُّورة وتُختم خطاباً للرسول ﷺ ببيان وظيفته وحدود تكاليفه . إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناءً يعذب به . . . .والخطاب للرسول ﷺ لطمأنة قلبه بأن ربّه معه يسمعه ، ولا يتركه وحده فيشقى بهذا القرآن ، ويواجه الكافرين بلا سند ، فإذا كان يدعوه جهرا فإنه يعلم السر وأخفى . والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسره ونجواه يطمئن ويرضى ، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ؛ ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له في العقيدة والشعور ».

وبذا اقترب سيد كثيراً من جو السُّورة وموضوعها فهي فعلا خطاب مباشر للنبي لطمأنته .

وفي كتابه **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم** توصل **محمد الغزالي** إلى فهم لمضمون السُّورة مثل ما توصل سيد قطب فقال : « والإنسان الذى استقبل القرآن زاكى البصيرة ، نقى الفطرة ، مشهور فى الجاهلية الأولى بالصدق والأمانة ، فما جرؤ ألد أعدائه أن يغمز شرفه ، أو يقدح فى سيرته . وقد ظن النبى عليه الصَّلاة والسلام أن قومه مصدقوه حين يتلوه ، لأنه ما كذب قط! بيد أن تعصبهم لمواريثهم حملهم على رفض ماجاء به ، ونسبوه إلى الافتراء والجنون . والرجل الشريف عندما يتهم بما هو منه براء يحزن ويأسف ، وقد يؤثر الضيق فى صحته وينغص حياته . وذلك ما جعل ربّ العالمين يرحمه ويواسيه : لماذا تشقى بتكذيبهم؟ إنما أنت مذكر! من تبعك نجا ، ومن رفضك هلك» .

عنوان السُّورة وموضوعها :

« طه » حرفان ولكنهما لم يستعملا كبقية الحروف المقطعة التي بدأت بها بعض سور القرآن . بل اشتُقَّ منهما اسم السُّورة . إذاً ، لا بد أنهما يشكلان كلمة معروفةَ المعنى وإن كانت نادرةَ الاستعمال . وقواميس اللغة هي الحكم هنا . ففي كتاب العين ومقاييس اللغة والقاموس المحيط « طه : إطمئن » و في لسان العرب لابن منظور لم ترد كلمة « طه » ، لكن وردت كلمات يظن أنها مشتقةٌ منها وليست بعيدةً عن كلمة « إطمئن » بل هي تؤسس لحالة الاطمئنان . وانطلق ابن منظور من مادة « طها » وكتب تحتها الجمل والمفردات التالية : « الطهاة : الجلدة الرقيقة فوق اللبن والدم »ونعلم الآن أنها الجزء الدهني الذي يسمو فوق السائل . ومثله « الطهي : الغيم الرقيق » .فهو أصلاً بخار الماء الذي سما وارتفع وتنقى من الشوائب التي كانت تخالطه في مجاريه الأرضية . ومن المواد التي توحي بالسمو والارتفاع الطهيان وعنها يقول ابن منظور : « والطهيان كأنه اسم قلة الجبل والطهيان خشبة يبرد عليها الماء . وأنشد :

« **وليت لنا من ماء زمزمَ شربةً مبردةً باتت على الطهيان** » .

وفسرها ابن منظور وآخرون بمعنى قُلة الجبل وقال آخرون بل قلة جبلٍ معينٍ . والقلة حفرةٌ في صخر قمة الجبل تشبه الجرة الفخارية التي يبرد بها الماء بفعل الهواء . ومثلها الطهيان عندما تكون بمعنى عودٍ ينصب في ساحة الدار يعلق عليه قربةٌ صغيرةٌ ليبرد ماؤها . ويرى آخرون أن الطهيان اسم جبلٍ شديد الارتفاع معروفٍ ببرودة مائه وغزارته . وهذه المعاني لا تبتعد عن طلب الاطمئنان الذي يكون للنفس الحزينة أو الغاضبة كالهواء البارد للماء الدافئ يبرده .

وكملخص لكلّ هذا فإن كلمة « طه » تتضمن الاطمئنان الذي يتولد من برود الأعصاب والسمو على المنغصات الصادرة عن المعاندين وعن ضعفاء الإيمان والتخلص من شوائب الظنون .

وهذا ما كان يحتاجه النبيّ قبيل نزول السُّورة عليه ؛ وواضحٌ ذلك من بعض آياتها . كان النبيّ يعاني من مشاعر الإحباط تجاه سلوك قومه ، وربّما من ضعف إيمان بعض المؤمنين فجاءت السُّورة لتقول له : طَه ، إطمئن وبَرِّد أعصابك وهون على نفسك ، وترَفَّع عن تذكر صغائرهم . فالأمر لا يستحقّ هذا الانفعال المزعج لك! وهذا هو موضوع السُّورة . وكلّ آيةٍ في السُّورة وكلّ قصةٍ أو حدثٍ في قصةٍ منها تخدم هذا الغرض .

تحليل السُّورة على ضوء العنوان :

بين يدي المناجاة : هكذا تبدو الآيات السبع الأولى بعد آية « طه » . فهذا القرآن لم ينزل عليك ليكون سبباً لشقائك يا محمد . فما هو إلا تذكرةٌ لمن يستحقّ الذِّكرى . وهو تنزيلٌ من ربّ السموات وربّ العرش الذي يملك الكون كلّه . ولستَ بحاجةٍ للجهر بدعاء أو شكوى مما أنت فيه ؛ فربّك ذو الأسماء الحسنى هو السميع البصير . ﴿ **طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ** ﴾ (طه: ١-٩) .

ولم تبتعد هذه الآيات بصياغتها عن الطريقة التقليدية بصياغة الأطروحة . لكن ورود قصة موسى بعدها مباشرةً جعل ترتيب السُّورة مختلفاً عما اعتدنا من القرآن .

فتبدو قصة موسى وكأنها جاءت دون تمهيدٍ لها في الأطروحة . مع أنها ترد لتعميق فكرة السُّورة لذلك اعتبرنا الآية الأولى من القصة جزءاً من الأطروحة .

وتأتي قصة موسى إغناءً لفكرة السُّورة لأنها شكّلت وجهاً آخر للأطروحة وهي تثبت فكرتها وتدعمها بإضافةٍ مختلفةٍ عنها . ثم تحركت السُّورة بعد قصة موسى في إطار الأطروحة .

مثل شامل من قصة موسى : تُظهر قصةُ موسى مُعظمَ أنواع التحديات التي تواجه النبيّ المرسل . بل لعل بعضَها لم يتكرر مع سواه . لكنه جاء هنا ليكون دواءً مُركَّزاً لحال النبيّ ، وهو يطلع على ما كان من حال موسى ؛ الذي بدأتْ تحدياتُه قبل أن يُولد! ولكن قصته هنا تبدأ من لحظة استقباله التكليف الإلهي رسولاً لله إلى بني إسرائيل .

التكليف : على مدى ثمان وعشرين آيةً قصيرةً تصف السُّورة بداية تكليف موسى بالنُّبُوَّة . ويتقبل التكليف دون تردد ، ولكنه يطلب ضم أخيه هرون لمهمته للثغةٍ في لسانه ، يخشى معها أن لا يفهم الناس قوله . وليس معه من آلة تدعم دعوته إلا عصاه التي تتحول إلى أفعًى حقيقيةً دليلاً على صدقه ، وكفَّه يضعها تحت إبطه فتخرج بيضاء من غير سوءٍ . وفي هذا تحريضٌ للنبيِّ كي يرضى بقدره ويعرف مقدار اعتناء الله به كصاحب رسالة . فموسى لم يُبلَّغ إلا بوحدانية الله وحقّه في العبادة وأن الساعة آتيةٌ . ومعه عصاه . وبالمقابل طُلِب منه أن يواجه ملكاً قويًّا له جيشٌ ونظامٌ وشعبٌ ومدنيةٌ متطورةٌ ، بل لعلها الأكثر تطوراً تلك الأيام . ﴿ **وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾**

ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:٩-٣٦)

ويكفي هذا تحريضاً للنبي على تحمل مصاعب الدعوة . صحيحٌ أنه يواجه قوماً لُدّاً لكنهم لم يملكوا من التعقيد ووسائل التمدن والأخذ والرد ما بلغه فرعون وملؤه!

نعمة الميلاد والنجاة : نعم ، التكليف نعمةٌ وتشريفٌ لا مثيلَ له في حياة البشر . وينطلق النص برشاقةٍ فائقةٍ دون أن يقول إن التكليف منةً أو نعمةً . بل انطلق من هذه الحقيقة بخفةٍ ولطفٍ إلى نعمةٍ أخرى لم تكن أقل قدراً في مسلسل حياة موسى . فقد صدر قرار إعدامِه قبل أن يولد . أصدره فرعون خشية أن يولد طفلٌ إسرائيليٌّ ينكد عليه عيشه . وكان موسى هو الطفل المعني بالحكم . ولكن أنَّى لفرعون أن يعلم الغيب ، أو يقف بطريق إرادة الله . فتحدثنا الآيات التالية عن لطف الله بإدارة الأمور لينجو موسى ، ويعيشَ في كنف فرعون ، حتى يأذن الله بانتقاله إلى مرحلةٍ أخرى في أهل مدين ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:٣٧-٤٠) .

والرسالة هنا أن قدر الله لا يُغلب . فرغم قرار فرعون بقتل كلّ طفلٍ ذكرٍ من بني إسرائيل ، يدير الله الأمور ليقوم فرعون برعاية الطفل الوحيد الذي من أجلٍ قتله كان القرار . وفي هذا عبرةٌ يفهمها النبيّ ويعرف أن الله قرر إعادة العرب إلى التَّوحيد ولا بد أن ينجز ما قرر . فليس الأمر بأصعب من نجاة موسى من فرعون بفرعون نفسه . فسبحان المقدر اللطيف .

المواجهة الكبرى : على مدى ست وثلاثين آيةً كريمةً تلخص السُّورة أبرز محطات المواجهة بين موسى وفرعون ؛ وببلاغةٍ ورشاقةٍ ينسى معها القارئ فواصل الزَّمن ، بل لا يشعر أصلاً أن مسافاتٍ زمنيةٍ طويلةٍ قد تفصل بين حادثةٍ وأخرى .

ذلك أن الهدف من ذكر الأحداث جميعاً إطلاع النبيّ على أنواع معاناة موسى وتنوع مصادرها . وليعلم أن معاناتِه خفيفةٌ جدًّا مقارنةً بما واجه موسى . في بداية الآيات يُؤمر موسى وأخوه بمواجهة فرعون زمانهم ، أحد أقوى ملوك الأرض . الحاكمِ المتأله ذي الهيبة والسلطة! يواجهانه بدعوة تضعه بحجمه الطبيعي بشراً وعبداً لله ، وهما بأيدٍ عاريةٍ من القوّة والسلطة ، عاطلةٍ عن أي دعمٍ يمكن أن ينال مكانةً أو مجرد اعتبار عند ملك كفرعون. ويؤمران بالتلطف في الحديث معه﴿ **وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** ﴾

(طه: ٤١-٤٨)

ونلاحظ إدراكَهما لخطورة المواجهة مع فرعون . فما أسهل أن يفرُط عليهما معجلاً الإضرار بهما ولا رادع يمنعه . فهما بالنسبة له مجرد عبدين إسرائيليين! وهو موقف لم يتعرض نبيُّنا إلى مثله رعباً ورهبةً ، فهو ابن أشرف بيوت قريش ؛ وليس في مكّة رجلٌ أشرف من آبائه ؛ ولا يستطيع أحدٌ الاعتداء عليه فرطاً واستعجالاً!

ومنذ الآية (٤٩) حتى الآية (٥٧) دارت حواراتٌ بين موسى وفرعون وخلاصتها ما يواجه الأنبياء جميعاً وانتهت بإصرار فرعون على التكذيب ورفض قبول آيات الله .

لقاء السحرة : ويأتي لقاءُ السحرة قمةَ المواجهة بين موسى وفرعون . وهو مواجهةٌ أمام العامة قصد منها فرعونُ فضحَ موسى أمام الجمهور ، وإبطال سحره وإثبات كذبه إن استطاع . فجمع لذلك ما استطاع من كبار السحرة في مصر . وجعل قضيةَ السحر قضيةً وطنيةً . بعد أن جعل قضية موسى قضية وطنية ضد مصر وشعبها ؛ وهدفها ،حسب فرعون ، إخراج المصريين من أرضهم!! ولكنها انتهت بإيمان السحرة وانضمامهم لموسى ﴿ **قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩**

﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (طه:٦٥-٧٣)

وتأتي قصة السحرة هزيمةً لفرعون وانتصاراً لموسى . وليكون بلاؤهم بفرعون درساً قويًّا للنبيِّ . فهاهم السحرة المؤمنون يتعرضون للعذاب الشديد من فرعون ، فلا يغير ذلك من إيمانهم بالله شيئاً . وهو عزاء للنبيِّ عما يعاني أصحابه من ظلم قريشٍ واعتدائها على المؤمنين .

الخروج بسلام : بعد صراعٍ طويلٍ متعدد الوجوه مع فرعون وملَئه ، يأذن الله بخروجٍ آمنٍ لبني إسرائيل من مصر بمعجزةٍ لم تعرف البشرية مثيلاً لها على امتداد تاريخها ﴿ **وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ** ﴾ (طه:٧٧-٧٩) .

نهايةٌ سعيدةٌ للصراع بين الهدى وبين الضلال . والنبيّ وأصحابه هم أهل الهدى ، وقريشٌ على طريق فرعون والضلال . فليطمئن قلبُ النبيّ ، فقد يحظى بمثل هذا التدخل الإلهيِّ الواضح إذا احتاجه في صراعه مع قومه .

تحذير من الانتكاس بعد المعجزة : بعد الوصول بسلام إلى سيناء تأتي ثلاث آياتٍ تذكرهم بمعجزة النجاة من فرعون وجيشه ، وتَمتعهم بنعمٍ كثيرةٍ بعدها ، ثم تضعهم أمام مسئولية هذه الحالة! حالة معايشة المعجزة وإدراك النعمة ، فمن لا يلتزم بها وقد عاشها فليتوقع غضبَ الله تعالى ﴿ **يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ** ﴾ (طه:٨٠-٨٢). والعبرةُ هنا للنبيِّ أن يعلم أن مزيداً من التدخل الإلهي المباشر يعني زيادةَ شدةِ العقوبة لمن يخطئ بعدها .

التحديات الداخلية : بعد أن انتصر موسى على التحدي الأكبر الخارجي مع فرعون وملَئه ، بدأت تحدياتٌ داخليةٌ من نوعٍ مختلفٍ . فالتحرر من العدوّ الخارجي يعطي فرصةً لظهور تفسيراتٍ فرديةٍ خاطئةٍ ، ومهاراتٍ ضارةٍ ، ويجد أصحابها من يستجيب لهم ويُعجب بمهاراتهم . ولكنها مع ذلك الجيل من بني إسرائيل وصلت حدَّ الشرك بالله، وعبادةِ عجل السامري كما تقدمها الآيات (٨٣-٩٨)

ولأن السُّورة مناجاةٌ للنبيّ وكلّ قصصها مما يتعلق بوظيفته كنبيٍّ فقد عُرضَت قصة العجل هنا من زاوية خطأ صدر عن نبيِّ الله موسى ، وليس من ذنب السامري ، ولا من موضوع الحلية المسروقة التي صُنع منها العجل حسب سورة الأعراف (١٤٨) . فهذه أمور لا علاقة لها بالنبيّ في هذا الموقف . وليست مما يناجي اللهُ به نبيَّه وهو يدعوه للهدوء والارتفاع عن صغير الأمور . حمل الله موسى مسئولية ما حدث ، فقد لامه لاستعجاله مقابلة ربّه قبل أن يطمئن على قومه ، ويتأكد من رسوخ الإيمان في قلوبهم وهو يعلم من أي ظروفٍ أتَوا . وهو لومٌ ينسجم مع أجواء سورة تقول للنبيِّ : طه ! اي تنهاه عن الحماس الزَّائد عن الحدِّ كاستعجال موسى . وتُظهر له فضل الشدائد التي يتعرض لها والمؤمنين معه . كي لا يقعوا بمثل فتنة العجل عندما ينتصرون .

آية ارتباط :تأتي (الآية ٩٩) تعقيباً على قصة موسى جميعاً مؤكِّدةً أنها لم تكن إلا مناجاةً للنبيِّ دون أي غرضٍ آخر ﴿ **كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** ﴾ (طه:٩٩) أيْ نقصُّ عليك من أنباء السابقين ليكون لك عبرةً ، تماماً كالذِّكر الذي أوحيناه إليك مباشرةً! وسميناها آية ارتباط لأن نصفها الأول جاء وصفاً لقصة موسى التي انتهت بها ونصفَها الثَّاني مقدمةً للآيات التالية لها . فسبحان الله العظيم في قوله وفعله .

ذكر للنبي وتذكير : بعد أن طيبت قصص موسى خاطر النبي اتجه الحديث إلى شئونه مع قومه ومع دعوته . ولتزداد المناجاة عمقاً واصلت الآيات الباقية من السُّورة نهجها في إطار أطروحة السُّورة . تبدأ المناجاةُ بالتأكيد له أن من يعرض عن الذِّكر المنزل عليه فهو مخطئ ، وسيحمل نتيجة خطئه يوم القيامة . وسيخلد في جهنم حاملاً ثقل وزره . وتصف الآيات حال المعرضين منذ يحشرون زرقاً استجابةً لنفخة الصور وهي تعلن يوم القيامة . وتُظهر اضطرابهم وسوء تقديرهم في ذلك اليوم

وكأنه امتدادٌ لسوء تقديرهم في الدنيا . وتعود بنا الآيات إلى مشهدٍ دنيويٍّ يَسأل فيه المعرضون رسولهم عن مصير الجبال يوم القيامة ، لنرى مصيرها يوم القيامة ، وقد نُسفت وصارت الأرض مستويةً لا تضاريس فيها تشغل النظر ، مما يزيد الأمر ذُعراً مع ضياع المعالم المميزة للمكان . ونطلع على المعرضين المنكرين لنبوة محمد ، وهم كالقطيع يتبعون الداعي ملتزمين صامتين خوفاً بل رعباً ، وقد خسروا مكانتهم الدنيوية المتميزة وخسروا كلّ أمل بشفيعٍ أو شفاعةٍ ، ولم تملك الوجوه إلا الخضوع وقد خاب من حمل ظلماً ﴿ **كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** ﴾

(طه:٩٩-١١١)

وبعد أن يناجي الله نبيَّه بمصير أعدائه ، فيخفف من غيظه عليهم وحرارة انفعاله لإعراضهم وتهكمهم ، ينتقل إلى صورةٍ أكثر أُنساً ، وهو يبشره بمصير أتباعه من المؤمنين ، المكافئ لطاعتهم وعملهم الصالح ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** ﴾ (طه:١١٢)

ويُجْمل مناجاته بشأن الأمة المخاطبة ، ليقول إن له غرضاً من مخاطبتها ، ولا بد أن يتحقّق هذا الغرض حتى لو لم يتمكن الإيمان في قلوبهم ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴾ (طه:١١٣) . فذكر عروبة القرآن له وظيفة . فهو يخاطب أمة اللسان العربي . والنبيّ يعرف أن بعض هذه الأمة لا يصلح للإيمان أصلاً . وهو يشكو ويتألم من ظلم أفضلهم . فكيف بسوادهم وأجلافهم وبدوهم؟ فتقول له الآية : كلّ هذا محسوب حسابه فبعضهم

سيؤمن ويتقي ، وسيكون لبقيتهم ذكرٌ في الأمم ، بما سيرفع هذا الكتاب من شأنهم . ومع الفئتين تُتاح فرص نموٍ داخلي . والمهم تحقّق غرض الله . وتأتي هذه الآية استجابةً للآيتين الثّانية والثّالثة من السُّورة . . وتبدأ الآية التالية بالإشارة لله الملك الحقّ الذي سيدير الأمور بما يلزم . وقد عرفنا لاحقاً كيف قَوَّم الله بهم اعوجاج الدنيا ، وأنهى بهم ظلماً رغم انحرافاتهم وسوء سلوك بعضهم . ولكن هذه بعض طبائع الشعوب ، وقد مهد لها النص بذكر انحرافاتٍ لفئةٍ من بني إسرائيل شهدت معجزاتٍ نادرةً من فضل الله على أمتهم !

ثم يناجيه بما يشبه همس حبيب لحبيبه ، يحدثه عن سلوكٍ لا يليق به ، لكنه ليس كخطأ موسى إذ استعجل لقاء ربّه . فمحمدٌ هنا يستعجل تلاوة القرآن والوحيُ يلقيه إليه شوقاً للتمكن منه . ﴿ **فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا** ﴾ (طه: ١١٤) .

زلة آدم : ثم تناجي السُّورة النبيّ بقصة زلة آدم . وتُروى القصةُ هنا انطلاقاً من ضعف آدم ونسيانه أمر ربّه . فالقصة تُروى للنبيِّ في ساعة حزنٍ ويأسٍ يكاد يضعفه . فليكن درسٌ من أبي البشر عسى أن يتقبل الله من ذريته ضعفهم ويغفر ذنوبهم ، ما داموا قد ورثوا الضعف عن الأب الأول . وتركز القصة على النصيحة الإلهية لآدم بالحذر من مكر إبليس عدوّه المتربّص به . وتأتي التعقيبات على القصة لتعيد بعض انحرافات المعاندين إلى نفس الضعف الآدمي . وفي هذا تخفيف من غيظ النبيّ . فقومه ليسوا بدعاً من البشر ، فليتقبل ضعفهم ويترك أمرهم لله ليحاسبوا يوم الحساب . ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ**

مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه:١١٥-١٢٧)

وتستمر المناجاة للنبي بالتساؤل عن عناد قومه ، مع أن آيات الله واضحة لأولي النهى . ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ (طه:١٢٨)

وإن كفار قريشٍ لمستحقّون لآيةٍ تأخذهم كما حدث لسواهم ، ولكن كتاب الله سبق بتحقيق أمرٍ ما بهذه الأمة ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه:١٢٩) .

وختاماً : ليس لك يا محمد غير الصَّبر عليهم ، مستعيناً بشَغل قلبك بالتسبيح وذكر الله ، وتجنب النظر لما يمنحهم الله من فرصٍ ومن دنيا ، فتنةً لقلوبهم المُعرِضة عن قبول الحقّ ؛ واجعل همك الزامَ أهل بيتك بالصَّلاة ولا تنشغل بهَمِّ الدنيا فذلك أمر الله تعالى . ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه:١٣٠-١٣٢).

ثم يبرر مرةً جديدةً سر تأخر عذاب قريشٍ على إعراضها وإيذائها للنبيِّ ، مع أنهم مستحقّون للعذاب حتى قبل بعثته ، لكن الله أراد أن يلغي كلّ حجّةٍ لهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (طه:١٣٣-١٣٥)

وتنتهي السُّورة بالتربّص والتحدي . وما ذلك إلا لقسوة الأوضاع التي جاءت تعالجها . ولشدة الحال التي كان النبيّ يعاني منها . فكأني به يوشك أن يستقيل مما

كلّف به ، لولا رعاية الله وملاطفته له . وإلا فما دلالة قوله تعالى في بدايات السُّورة :
﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ (طه:٧)

اللهم اجز محمداً عنا خير الجزاء! فلولا صبره على ظلم مشركي الأمة ، لما تمتعنا بهدايتك هذه ولما استقام اعوجاج البشر ، ولما كان لمسالم أن يعيش في هذه الأمة . فلك الحمد ولك الشكر !

* * *

سورة الأنبياء

صيغت سورة الأنبياء بأسلوب لا يكاد يشبهه شيء من أساليب البشر . فهي تنطلق من تفاعل مشركي مكّة مع ظاهرة النُّبُوَّة وظهور النبيّ ، فيهم لتعرض قضايا كبيرة وأساسية من قضايا الحياة . ولا أقول إنها فعلت ذلك على طريقة الفلسفة والفلاسفة وإن عرضت بعض ما تهتم به الفلسفة . وأبرز ما ظهر فيها موضوع النُّبُوَّة من زاوية اختيار الأنبياء وصناعتهم ليكونوا أئمةً وقادةَ تغيير في الأرض . وباستثناء حالة إبراهيم مع قومه فإنها لم تعرض موضوع النُّبُوَّة من زاوية صراع الأنبياء مع أقوامهم . كما اهتمت بمصائرهم السعيدة في أواخر حياتهم . وعرضت مسائل تتعلق بخلق الكون وخصائص الألوهية وأساسياتٍ أخرى من أمور الكون والحياة والإنسان . كلّ ذلك مقابل تفاعلات مشركي مكّة مع ظهور نبي فيهم . وكثر في السُّورة التعميم ، وذكر القواعد العامة في خلق الكون وتصميمه،وحياة الناس وسنن الله التي تحكمها . وتبدو السُّورة كمنارات عالية مضيئة ليهتدي بها الناس في مسيرة حياتهم . لكنها موجهةٌ للنبيِّ مباشرةً لا يشاركه في خطابها المباشر أحدٌ . إلا تقريعا للمشركين .

مطالعات في التراث :

يقول عنها سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» : « هذه السُّورة ، مكية تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية . . موضوع العقيدة . . وسياق السُّورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها . . . موجهاً أنظارهم إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر . .ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التي تحكم الحياة في هذه الأرض ، وإلى وحدة مصدر الحياة : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ** ﴾ (الأنبياء:٣٠) وإلى وحدة النهاية التي ينتهي إليها الأحياء : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ**﴾ (الأنبياء:٣٥) . . وإلى وحدة المصير الذي إليه ينتهون : ﴿ **وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ (الأنبياء:٣٥). . والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى . فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزَّمان : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء:٢٥) . . وقد اقتضت مشيئة الله أن

يكون الرسل كلّهم من البشر : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ (الأنبياء:٧) . . وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملابسات هذه العقيدة في الأرض . فالسنة التي لا تتخلف أن يغلب الحقّ في النهاية وأن يزهق الباطل . . . ومن ثَمَّ يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة في سلسلة طويلة استعراضاً سريعاً . . . . . وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي سبقت في سياق السُّورة . تتجلى في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات ، بعدما تجلت في صورة قواعد عامة ونواميس».

وبذا التقط سيد قطب رسالة السُّورة دون أن يعلم أنه وصف عنوانها!

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها :

أول سورةٍ ندرسها حتى الآن لا يشتق اسمها من كلمة واردةٍ فيها . فلم يرد في السُّورة كلمة نبيٍّ أو أنبياء أو أي لفظةٍ مشتقةٍ من الأصل المجرد للكلمة (نبو) . وبذا ترُدُّ هذه الحالة على الذين قالوا إن اسم السُّورة يؤخذ من كلمة فيها أي كلمة! ولتعليل اسم السُّورة قال بعض علماء القرآن ، إن السُّورة سميت بهذا الاسم لكثرة ما ورد فيها من قصص الأنبياء . فقد ذكرت ستة عشر نبيًّا . ولكنه ليس أكبر عددٍ من الأنبياء يذكر في سورةٍ واحدةٍ . فقد ذكرت سورة الأنعام ثمانية عشر نبيًّا .

عنوان السُّورة «الأنبياء» ومادته اللغوية الأصلية هي «نبو» وكما يرى الرازي في معجمه «مقاييس اللغة» : «النون والباء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ارتفاع في الشيء عن غيره أو تَنَحٍّ عنه . . ويقال النبيّ . .اسمه من النُّبُوَّة وهو الارتفاع ، كأنه مفضل على سائر الناس برفع منزلته ، ويقولون النبيّ : الطريق » .

وعن الخليل بن أحمد في «العين» والنبيّ ، يقال : الطّريق الواضحُ يأخُذُكَ إلى حيثُ تُريد».

ويقول أوس بن حجر :

لأَصبح رَتْماً دُقاقَ الحَصَى   مكانَ النبيّ من الكاثبِ»

وقصد الشاعر أن المعالم تظهر الطريق الممهد من الوعر الذي كثب عليه الرمل .

وبالمقابل ورد ذكر رسل من بين الأنبياء وورد في السُّورة كثير من سنن الله في الرسل والرسالات ووردت كلمات مشتقة من مادة «رسل» التي منها الرسول

والرَسل . وكان يمكن أن يختار الله تعالى للآية اسم « الرسل » بدل الأنبياء فكلّ رسولٍ نبيٌّ ، وهناك تشابه في المعنى وعلاقة للمادة بكلمات عديدة في السُّورة كما سنرىً . لكن الله تعالى لم يفعل هذا بل سماها « الأنبياء » لأنه الاسم الذي ينطبق بمعناه على موضوع السُّورة . وهو منهج الله في تبيين معالم الكون والحياة وهو كلّ ما تدل عليه كلمة أنبياء بمعناها الطرق الممهدة . والأنبياء هنا قدوة وسلوكهم من معالم الطريق إلى الله . ولا تستطيع كلمة الرسل أن تحل محلها وتقوم بنفس الوظيفة . بل إن أصل مادة الرسل توحي بعكس ما جاءت السُّورة لأجله ، فهي توحي بالسير السهل . أليس في هذا دليلٌ على إعجاز أسماء السور القرآنية لا يقدر على مثله بشر؟

فموضوع السُّورة نهج الله في بناء الكون وإدارته وفي وضع قوانين حياة البشر وإدارتها بما لا يؤثر على حرية الإنسان ؛ ويضمن في نفس الوقت انتصار الحقّ على الباطل . ليبقى البشر في الطريق القويّم أو النبيّ المستقيم . ولذلك ورد كثير من آيات السُّورة بصيغة قواعدَ عامةٍ سواءً فيما يتعلق ببناء الكون وسلوك الطبيعة أم بحياة الناس من زاوية حركة التاريخ البشري وصراع الحقّ والباطل . وهذا هو معنى كلمة أنبياءٍ ، فهي بمعنى طرقٍ واضحةٍ أو سننٍ إلهية لا محيد عنها .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

سورةٌ أخرى في مناجاة النبيّ . لكن المناجاة فيها أعلى صوتاً مما كان في سورة طه . وكأن نبرةَ الحديث هنا تأتي متعمدةً ليسمع المشركون الموشكون على تلقي عذابٍ قريبٍ ، عقاباً لهم على إعراضهم لعلهم يرجعون .

الأطروحة الرئيسية : تشكل الآيةُ الأولى أطروحةَ السُّورة وقاعدة انطلاقها ليُبنى عليها كلّ ما بعدها . وقد صيغت كخبرٍ بدأ بفعل ماض ليخبر عن حدث في المستقبل . وهي بصيغة الماضي وكون الخبر من الله تعالى يعطي مصداقيةً للقول ويثير نفس السامع لعله يصحو من غفلته وسهوه . ﴿ **ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ** ﴾ (الأنبياء:١) والناس هنا معروفون فهم أهل مكّة بدون خلاف بين المفسرين .

فقرة الأطروحة : تنطلق آيات فقرة الأطروحة من جملة الطرح الرئيسية . كلّ جملةٍ تنطلق من طرفٍ من القاعدة . فهكذا تصاغ فقرة الأطروحة عادة . ولا يلزم أن يكون علاقة بين آيات فقرة الأطروحة بعضها ببعض ؛ فإن حدث فليس بخطأٍ .

فقرة الأطروحة هي الآيات التالية : ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ** ﴾ (الأنبياء:٢-٥)

فالآية الثَّانية تنطلق من إعراضهم عن الذِّكر المنزل إليهم . والآية الثَّالثة تصف إنكارهم لنبوَّة نبيِّهم لأنه بشرٌ مثلهم لتبرر حسابهم في بداية الآية الأولى . والآية الرابعة تصف جوهر دعوة النبيّ وإن بدت ردًّا على نجواهم كما ظن مفسرون . فهي تُعَرِّفهم بأخص خصائص الله ليعبدوه ويطيعوه ، ويلبوا دعوة رسوله . حيث قال لهم رسولهم إن ربّي يعلم كلّ ما كان وما سيكون في السماء والأرض . وعبر عنه بالقول وهو مادة الأمر به ومادة إعلانه وكثيراً ما وردت كلمة القول في القرآن بمعنى القرار الإلهي وبمعنى العذاب . ويؤكد بذلك صدق الوعيد في الآية الأولى عن اقتراب حسابهم . وتعود الآية الخامسة إلى أشكالٍ أخرى من اعتراضاتهم على النبيّ فهو عندهم واهمٌ يخلط الحلم بالحقيقة ، ويطلبون آيةً كآيات الرسل الأولين . وبذا تنتهي فقرة الأطروحة التي ستتحرك في إطارها السُّورة تعميقاً لمعانيها واستجابةً لما ما جاء فيها ، ولإظهار سنن الله في معالجة المواضيع التي أثاروها باعتراضهم وتذَرَّعوا بها لمعارضة نبيهم .

سنة الله في إرسال الرسل : تفصيلاً للآيتين الثَّانية والثَّالثة من الأطروحة تعرض الفقرة الثَّانية (٦-١٥) سُنَّةَ الله في الرسل والأمم المخاطبة . وتأتي معظم الآيات بصيغة قواعد عامةٍ مما يتفق مع اسم السُّورة ، فكأن الآيات أنبياءٌ بمعنى طرقٍ مستقيمةٍ ؛ وسُننٍ لا تنكسر . وسنعرضها آيةً آيةً لإثبات صدق نظريتنا :

﴿ **مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأنبياء:٦) فجميع الأقوام الذين أرسلت إليهم آياتٌ انتهوا إلى الهلاك لعدم تصديقهم الآية التي طلبوا كناقة صالح وعصا موسى .

ثم في ثلاث آيات تعرض السُّورة منهج إرسال الرسل فهم رجال من البشر ولهم أجساد بشرية تحتاج طعاماً كبقية الناس وليسوا بخالدين في الحياة الدنيا . وكانت معركتهم تنتهي بانتصارهم كسنةٍ ثابتةٍ لم تنكسر . ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ** ﴾ (الأنبياء:٧-٩)

سنة الله في أخذ القرى الظالمة : استمراراً لتفصيل آيتي الأطروحة (٢-٣) تُذكِّر الآيات (١٠-١٥) قريشاً بنعمة الله عليهم بالقرآن ؛ وأن فيه ذكرُهم وعزتُهم . ثم بأسلوبٍ جمع بين القاعدة والخبر تتحدث الآيات عن عملية إهلاك قريةٍ كنموذجٍ من عقاب القرى الظالمة . تتلوها آيةٌ عمن كُتِب عليهم الهلاك يعترفون فيها بظلمهم على طريقة فرعون إذ آمن وهو يغرق ثم ينتهون حصيداً خامدين : ﴿ **لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ** ﴾

(الأنبياء:١٠-١٥)

جد الله مقابل عبثهم ولهوهم : بنفس النهج تأتي آياتُ الفقرة (١٦-٢٤) تفصيلاً للآية الثَّانية حيث لم ينظروا بجديةٍ إلى رسالة رسولهم ، فتتحدث عن هدفٍ لا لهوٍ وراء خلق الكون ، وعن حقّ جعله الله ليسود قِيمَ الأرض ؛ فإن ابتعد الناس عنه ومالوا للباطل ، تدخلت إرادة الله بضرب الباطل وتدميره . فيَخلُص له من في الأرض كما يَخلُص دائماً أهل السماء ؛ ويصف عبادة أهل السماء ليعود إلى باطل أهل الأرض ومظاهره من الشرك ، ليرد عليه بقمة التَّوحيد والألوهية (لا يُسألُ عمَّا يَفعَلُ . .) ويؤمر النبيّ بمناقشتهم في شركهم : ﴿ **وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوۡ**

كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾(الأنبياء:١٦-٢٤)

علاقة الرسل بالله : ولمزيدٍ من توضيح وظيفة الرسل ، وتحرير العقل البشري من الخرافات التي تتعلق بهم ، وتفصيلاً للآية الثَّالثة تأتي الآيات (٢٥-٢٩) . ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٢٥-٢٩) . فما هذه الفقرة إلا سنةَ الله في طبيعة الرسل وتحديد حاسمٍ لوظيفتهم . إنها نبيُّ الرسل في الحياة وبين الناس . ومن خرج عن هذه النبيّ منهم فله جهنم لا يعفيه منها أنه كان رسولاً لله .

خلق الكون وتصميمه : استمراراً لعرض سنن الله في الطبيعة كما عُرضت في الرسل تصف الآيات (٣٠-٣٣) جانباً من منهج الله في صنع الكون . وقد صيغت حقائق صنع الكون بنفس طريقة التعميم والتقعيد التي تنهجها السُّورة . لتكون كلّ حقيقةٍ نبيًّا يتجول فيه العقل ويتأمل عساهم يؤمنون : في الآية الأولى نجد قاعدة أصل الحياة ﴿ **وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ** ﴾ وفي الثَّانية وسائل تثبيت الأرض وتسهيل اتخاذ سبل في فجاجها . ومن وجهة نظر عنوان السُّورة لا فرق في المعنى بين ذكر الأنبياء من البشر وبين قوله ﴿ **وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ** ﴾ فالسبيل تسمى نبيًّا كالنبيّ المرسل من البشر وبكليهما يهتدون . والسماء سقفٌ محفوظٌ مليءٌ بآيات الهدى ؛ ومن مجموع الأجرام السماوية وحركة الأرض والشمس والقمر وسائلُ معرفة الزَّمن وتقسيم اليوم إلى ليلٍ ونهارٍ . وكلّها سبل هدايةٍ أو أنبياءٌ من الطبيعة تقابل أنبياء البشر وتتعاضد معهم لهداية الناس عقيدةً سليمةً وحياةً ميسرةً : ﴿ **أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا**

مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠-٣٣) .

نهاية وحساب : تفصيلاً للآية الرابعة من السُّورة تأتي الآيات (٣٤-٤١) موجَّهةً إلى النبيّ تخبره أن الله مطلعٌ على ما تقول عنه قريشٌ سخريةً ، وما تتمنى له من موتٍ قريبٍ ؛ وتهددهم من خلال النبيّ تهديداً لعله الأشد في السُّورة . وتأتي معظم الآيات بصيغة سننٍ أو قواعدَ عامةٍ . فلا أحدَ خالدٌ وكلّ نفسٍ ذائقة الموت وخُلق الإنسان من عجلٍ والساعة لا تأتي إلا بغتةً . . ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤-٤١) .

ومن الملاحظات المؤسفة وقوع جميع المفسرين وقراء القرآن بخطأ بحقّ الآية (٣٧) من السُّورة وهي قوله تعالى ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ (الأنبياء:٣٧) . فقد ظنوا جميعاً أن كلمة «أوريكم» هي نفس أريكم بدون واو . وهو نفس الخطأ الذي وقعوا به مع الآية ١٤٥ من سورة الأعراف «... سأوريكم دار الفاسقين» . ومع آية الأعراف أظهرَ مفسرون اضطرابَهم وحيرتَهم وحاولوا الاحتيال للأمر . لكنهم هنا بدوا مطمئنين فلم يعبأ أحدٌ بالواو التي أهملوها وكأنها غير موجودةٍ . والسبب عدم إحاطتهم بلغة العرب بما يكفي . فكلمة «أورى» كلمة أصليةٌ في اللغة وهي من الأري والاسم منها التأرية . والأصل فيها إدخال دابة على أخرى تشاركها حظيرتها ومعلَفها . ومعناها هنا «سأدخلكم النار مع أمم تسبقكم إليها». ثم تأتي الآية (٣٩) لتصف هذه التأرية فنراهم داخلين جهنم والنار تغشى وجوههم وظهورهم . ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٩) . وهذه هي

التأرية التي يعدهم الله بها بقوله ﴿ **سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى** ﴾ (الأنبياء:٣٧). ومع أن ما جاء في هذه الآية هو من سنن الله للظالمين جميعاً فإنها أيضا استجابةُ للتهديد الوارد في الآية الأولى .

ومن أعجب ما قرأت عند المفسرين ما جاء في الميزان للطباطبائي الذي أدرك أن المقصود بالتهديد دخول جهنم الموصوف بالآية (٣٩) إلا أنه وقع فيما وقع به الآخرون فكتب الكلمة بدون «واو». ومنه أقتبس الجملة التالية: «وقوله: ﴿ **سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ** ﴾ (الأنبياء:٣٧) الآية الآتية تشهد بأن المراد بإراءة الآيات تعذيبهم بنار جهنم وهي قوله ﴿ **لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ** ﴾ (الأنبياء:٣٩) إلخ».

إنذارٌ أخيرٌ : تفصيلاً لمجمل الأطروحة وبمناجاة مليئةٍ بالوُدِّ للنبيِّ ونعيٍ على قومه يُؤمر النبيّ أن يُذَكِّر قومه بنعم الله عليهم ممزوجةً بحقائق الطبيعة أو سنن الله في حياة الشعوب . وذلك في الآيات الست (٤٢-٤٧) ﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ** ﴾ (الأنبياء:٤٢-٤٧).

ومن الآيات التي حيرت المفسرين الآية (٤٤) . فلم يستقروا على قولٍ بشأن نقص الأرض من أطرافها . ولم يأتوا بقولٍ مقنعٍ . ومثلها كانت الآية (٤١) من سورة الرعد ؛ فهما بنفس المعنى . ولكن في آيةِ الأنبياء زيادةً هي ربطها بطول عمر نعمته عليهم وعلى آبائهم . ولعله سبحانه أراد أن يذكرهم بما سمعوا من آبائهم . وهو شبيه بحديث النبيّ الذي رواه مسلم ونصه (لن تقوم القيامة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهارا) . فهو يصف حالة تصحرٍ شديدةٍ أصابت الجزيرة بعدما كانت غنية بالماء والزَّرع . ولعلهم كانوا يعيشون أواخرها كما يصف لهم آباؤهم أوينقلون لهم عن أجيالهم السابقة . وإلا فمن أين جاء النبيّ بهذه المعلومة التي صدقتها الأيام . فلولا أن الجزيرة كانت تتمتع بغطاءٍ نباتيٍ كثيفٍ جداً ما تَكوَّن النفط في باطنها

وبكميات لعلها الأكبر بين أقطار الدنيا . وكان التصحر يزحف على أطراف الحواضر من الصحراء كما هي قوانين الطبيعة . فالآية خاصّة بالجزيرة مدةً من الزّمن .

طريق النُّبوَّة : عَرضت الآيات السابقة سنن الله في الكون والإنسان والحياة . ويأتي الجزء التالي ليحدث النبيّ عن سنن الله في نصرة أنبيائه ومكافأتهم على صبرهم . ويعرض فيه باختصار قصص ستة عشر نبيًّا ولا يخرج الحديث عما في الأطروحة . فكأن هذه الفقرة تأكيدٌ لموضوع السُّورة بأمثلةٍ صادقةٍ من تاريخ الأنبياء :

- موسى وهرون : كانت المكافأة لهما ولمن اتقى الله معهما فرقاناً وضياءً وذكراً يعبدون به الله . ولا ينتهي الحديث حتى يُذكِّر قريشاً أنه أَنزَل عليهم ذكراً مباركاً ومع هذا فهم عنه يعرضون : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ** ﴾ (الأنبياء:٤٨-٥٠)
- إبراهيم الذي بدأ صراعاً مع قومه وهو ينهاهم عن عبادة الأصنام . فيُعرِضُ قومُه . ويفرِّق الله بينهم ويحرمهم بركة وجود إبراهيم بينهم . ويبدِله خيراً منهم ذريةً صالحةً فكان كلّ الأنبياء بعده من ذريته : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ**

وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥١-٧٠)

ثم تذكر الآيات مكافأة إبراهيم بذريةٍ صالحةٍ لم يحظ بشرٌ بمثلها وتبدأ بذكر ابن أخيه لوطٍ وكأنه ابنه ثم تذكر أبناءه وأحفاده من الأنبياء .

- لوطٌ يذكر ثانيةً بصفتِه رسولاً لقوم لم يطيعوه فنجاه الله وأهله وأهلك بقية القوم : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(الأنبياء: ٧٤،٧٥)

- نوحٌ أحد أولي العزم من الرسل نراه هنا وهو ينجو بينما يُغرق الله قومه أجمعين إلا من آمن بنوحٍ : ﴿ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٦،٧٧)

- داود وسليمان نبيان من نسل إبراهيم وإسرائيل يهبهما الله علماً وحكماً . فالنُّبُوَّة في ذاتها منزلةٌ عظيمةٌ ويرافقها دائماً أعظم الفضل من الله ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٨-٨٢) . وبما أن الآيات لم تذكر معاناة داود وسليمان فإن النبوات ذكرت هنا لتكون أُنساً للنبيِّ وتشجيعاً له وتذكيراً له بمنزلة النُّبُوَّة وما تعني من نعمةٍ وإكرامٍ من الله لعبده .

- أيوب لم يُعرف عنه إلا الصَّبر على المرض ولكن سنةَ الله نصرُ الأنبياء ومكافأتهم على الصَّبر مهما كان نوعه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣،٨٤)

- إسماعيل وإدريس وذو الكفل يكافأون كصابرين مع أنا لا نعرف إلا عن صبر إسماعيل . لكن الكلام للنبيِّ وليس لنا فلا يلزم أن تذكر الآيات جهادهم ؛ فيقين النبيّ بما يسمع من ربّه يكفيه : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾(الأنبياء:٨٥،٨٦)
- يونس رسولٌ آخر من المسبحين ضَعُفَ مرةً ثم عاد إلى ربّه مسبحاً فغلبت سنةُ الله في نجاة الأنبياء ونجا بمعجزةٍ نادرةٍ : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الأنبياء:٨٧،٨٨)

- زكريا عاش نوعاً آخر من المعاناة فحُرم الولد الوارث للنُّبوَّة حتى شاخ ويئس ، ثم دعا ربّه فاستجاب له : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

(الأنبياء:٨٩،٩٠)

- مريمُ ابنةُ عمرانَ عفَّت عن الشهوة فاستحقّت أن تلد المسيح النبيّ العظيم : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء:٩١)

- وتُختتَم فقرةُ الأنبياء مؤكدةً ثباتَ سنة الله بنصر أنبيائه ومكافأتهم على ما يقدمون صبراً وجهاداً وطاعةً : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾(الأنبياء:٩٢-٩٤) ووضعنا الآيتين الأخيرتين مع فقرة الأنبياء لأن الأولى منهما تشير إلى تفلت الشعوب من الحقّ بعد أنبيائها والثّانية تؤكد حسن الجزاء لمن يثبت على طريق نبيه .
- والصورة المقابلة للنُّبوَّة صورة القرية التي تعصي نبيها كمكّة فعذابهم محقّقٌ ولا رجعة لهم ليتوبوا : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

(الأنبياء:٩٥)

علامة مستقبلية : كان يأجوج ومأجوج لغزاً للعاملين في علوم القرآن ولكن بعد هجوم التتار على بغداد وتدمير كلّ ما وصلوه من أقطار العالم وتَذَكُّرِ حديث النبيّ الذي رواه البخاري[1] : «ويل للعربِ من شر قد اقترب . . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا . .» (كتاب الفتن) . فيأجوج ومأجوج نهاية الموجة الأولى من النهضة العربيَّة بالإسلام . ويأتي التعقيب عليها باقتراب الوعد الحقّ وهو يوم القيامة . وهذا لا يعني قيام الساعة لحظة هجوم يأجوج ومأجوج فالنبيّ قال عن نفسه« بعثت والساعة كهاتين» فهي بمقياس الله قريبٌ وليس كذلك بمقياس أيامنا القصيرة . ويومَ الساعة يندم الذين كفروا ولات حين ندم : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٦،٩٧) .وفي آيةِ يأجوج ومأجوج بشرى للنبيِّ أن قومَه سيؤمنون وأنه سينتصر انتصاراً لم ينتصر مثله أيٌّ من الأنبياء الذين ذكرتهم السُّورة . فسيكون له دولةٌ وتستمر قروناً . بينما لم يحظ أي من الأنبياء الستة عشر المذكورين بدولةٍ سوى داود وسليمان ودامت دولتهما مجتمعين تسعاً وستين سنة .

سنن الله في الخلق يوم القيامة : وصفاً لمصير المكذبين الذي تواصله الآيات التالية يتجه حديث العذاب للمشركين مباشرةً على سبيل الإهانة وليس التشريف . فهم وآلهتُهم المزعومة حصَب جهنم . وبالمقابل تذكر الآيات نجاة المؤمنين وإكرام الله لهم يوم الحساب . وزيادةً في خلق جو الرعب ترسم الآية (١٠٤) صورة الكون وهو يُجمع من أطرافه البعيدة ليصير جسماً واحداً كما تطوى أوراق كتاب في سجل: ﴿ **وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ**

---

(١) روى البخاري في (كتاب الفتن) : «ويل للعرب من شر قد اقترب . . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا . .»

أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٧-١٠٤)

سنة ثابتة في حركة التاريخ : كم هو جميلٌ أن تختم سورة الأنبياء (بمعنى الطرق) وسنن الله بسنةٍ قاطعةٍ حاسمةٍ وراسخةٍ في كتب الله الأولى ، فما هي بالطارئة ولا المصطنعة لهدفٍ طارئ . إنها في الزَّبور الذي آتاه الله لداود . ففي كلّ مزمور فقرتان الأولى تسبيح لله والثَّانية تؤكد انتصار الصالحين ووراثتهم للأرض . ويأتي هذا البيان الأخير بلاغاً للمؤمنين بمعية نبيِّهم ، ثم يؤمر النبيّ ببلاغٍ أخيرٍ لقومه ويؤمر بعدم استعجالهم بعقاب يستأصلهم فلعل ذلك التأجيل فتنةٌ لهم : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾
(الأنبياء:١٠٥-١١١)

وأخيرا يستسلم النبيّ لحكم ربّه مقتنعاً بعد هذه الدروس الحاسمة فيتجه إلى الله سبحانه بدعاء ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾
(الأنبياء:١١٢)

السُّورة والأطروحة :

قلنا إن أطروحة السُّورة هي قاعدة انطلاقها . والأطروحة بدأت من وعد بعذاب قريب لأهل مكّة جزاء لهوهم عن الذِّكر المُنزَّل عليهم ، وعجزهم عن تقدير النعمة المهداة إليهم بنبيٍّ منهم وكتابٍ بلغتهم فيه ذكرُهم وعزُّهم . فتُظهرهم الأطروحةُ قوماً ضعفاء العقل والخلق . وفي الأطروحة آيةٌ واحدةٌ مقابل جهلهم ولهوهم يقول لهم فيها نبيَّهم إن الله يعلم ما ينتظرهم من حُكمٍ ويعلم كلّ ما تقرر بشأنهم في السموات والأرض (آية ٤) .

ثم تأتي السُّورة مُركِّزةً على سنن الله في الخلق والكون ومكافأة الله لكلّ من قدم من الأنبياء في سبيل الله ، ولو لم يزد ما قدم أحدهم عن التسبيح في ساعة ضيقٍ أو الصَّبر على المرض .

وفي الآية قبل الأخيرة يرضى النبيّ بقضاء الله ويقول لقومه مبرراً عدم تعرضهم لآية عذابٍ مهلكةٍ لهم بأن ذلك قد يكون فتنةً لهم ﴿ **وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾

(الأنبياء: ١١١،١١٢)

كان عذابُهم أقلَّ من هلاكهم بآيةٍ كقوم لوطٍ أو صالحٍ أو هودٍ . فهم في الحقيقة لم يكونوا منكرين لله بل مجرد مشركين . وهي درجةٌ دون الكفر الكامل المنكر لله ولحقّه في العبادة . وكانوا على بقية دين إبراهيم ويؤدون بعض طقوسها التي جددها الإسلام . فكان الحسابُ القريب بعد السُّورة بسنواتٍ قليلةٍ في معركة بدر . يومها هزمهم الله هزيمةً شديدةً لم تتوقعها العربُ . ومن يتأمل بعدد وعدة كلّ فريق لا يستطيع أن ينكر أنها كانت الحساب الذي كان يقترب من رقاب كبار مشركي مكّة . ومن عاش منهم شهد انتصار الإسلام وعاش في ظله وهذا نوعٌ آخر من الحساب لمن يفهمه .

* * *

سورة الحجّ

سورة الحجّ هي السُّورة الثَّانية والعشرون . ولعلها من أقوى الأدلة على صدق نظرية هذا الكتاب . فهي تتعرض لأكثر من عشرين موضوعاً . ونزلت آياتها في مناسباتٍ متباعدةٍ ، فمنها آيات نزلت في المدينة وأخرى نزلت في مكّة ، وآيات نزلت في الحضر وأخرى في السفر . وذكر المعنيون بأسباب النزول تسع مناسبات متباعدة لنزول آيات منها (أسباب النزول للنيسابوري) . ومع هذا سُميّت باسم ركن من أركان الإسلام وهو الحجّ . ووُظِّفَت الكلمة لتكون محوراً لكلّ آيات السُّورة وجامعاً لها . وليكون لها موضوعٌ واحدٌ هو حجّ مشركي مكّة بمعنى إقامة الحجّة عليهم . وتأتي خاتمةً لمجموعة من السور مخصصةً للرد على ادعاءات أهل مكّة وإنكارهم للبعث والحساب ونبوة نبيهم عليه السلام . وترافق ذلك بتثبيت النبيّ ومواساته على أفعال قبيلته وأقوالها الظالمة . وهي مجموعة السور التي بدأت بسورة يونس . وهاهي تصل خاتمتها بحجّ القوم حتى لم يبق لهم حجّةٌ .

مطالعات في التراث :

يلخصها الفيروز آبادي في كتابه **البصائر بقوله** : «مقصود السُّورة على طريق الإِجمال : «الوصيّة بالتَّقوى ، والطَّاعة ، وبيان هَوْل السّاعة ، وزلزلة القيامة ، **(والحجّة)** على إِثبات الحشر والنشر ، **وجدال أَهل الباطل** مع أَهل الحقّ ، والشكاية من أَهل النفاق بعد الثَّبات ، وعَيْب الأَوثان وعبادتها ، وذكر نُصْرة الرّسول ﷺ ، **وإِقامة البرهان والحجّة ، وخصومة المؤمن والكافر** فى دين التَّوحيد ، وتأذين إِبراهيم على المسلم بالحجّ ، وتعظيم الحُرُمات والشعائر ، وتفضيل القرآن فى الموسم ، والمِنَّة على العباد بدفع فساد أَهل الفساد ، وحديث البئر المعطَّلة ، وذكر نسيان رسول الله ﷺ وسهوه حال تلاوة القرآن ، وأَنواع **الحجّة** على إِثبات القيامة ، وعجز الأَصنام وعُبَّادها ، واختيار الرّسول من الملائكة والإِنس ، وأَمر المؤمنين بأَنواع العبادة والإِحسان ، والمِنَّة عليهم باسم المسلمين ، والاعتصام بحفظ الله وحِياطته فى قوله ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ** ﴾ (الحج:٧٨) إِلى قوله ﴿ **وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ** ﴾ (الحج:٧٨)» .

عنوان السُّورة : اختار سبحانه كلمة الحجّ عنواناً للسورة ؛ وهي كالكلمة التي وردت في الآية (٢٧) من السُّورة ﴿ **وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾ (الحج:٢٧) .

والآية تتحدث عن نداء الحجّ أول مرةٍ بواسطة إبراهيم بعد إتمام بناء الكعبة . ولكن السُّورة لا تأتي من أجل الحجّ ، ركن العبادة المعروف ، لكن كجزءٍ من عملية حجاجٍ ورَدٍّ على مشركي قريش . فهي عمليةُ حجّ بمعنى آخر . وبالتالي فإن السُّورة التي اشتق اسمها من ركن الحجّ جاءت حجّاً أو حِجاجاً لجدال المشركين والمعاندين للنبيِّ ودعوته . واستغرقت في الحجاج حتى وصلت به حد التلميح بالقتال عندما لا يجدي منطق الحجّ نفعاً ولا يلقى قبولاً . فكأنها تَختتم موضوع الجدال مع المشركين ؛ فقد سمعوا ما فيه الكفاية ردًّا على ما أبدوا من اعتراضات وحجج على الدعوة الجديدة ؛ ولم يبق إلا مواجهتُهم بالقوّة .

وإذا عدنا إلى تلخيص الفيروزآبادي للسورة نجده يستعمل كلمة الحجّة وما يشبهها في المعنى كإقامة البرهان والدليل خمس مرات في ثمانية أسطر مما يدل على بروز فكرة الحجّ بمعنى الحِجاج حتى لقارئ لم يفكر قط أن للسورة محوراً يرتبط بعنوانها .

معالم الحجاج عند المختصين به :

من مراجعة مصادر أصليةٍ حول فن الحجّاج اقتبست بتصرف المعالم التالية للحجاج (١)، ليكون قاعدة لنا ونحن نحلل السُّورة على ضوء نظريتها :

« الحجاج هو توجيه خطابٍ إلى مُتَلَقٍ لتعديل رأيه أو سلوكه ، ولا يكون إلا بالكلام المؤتلف من اللغة العادية . ويكونُ الحجاج غالباً في مجال القيم والمصالح الإنسانية وما يتبعهما من أفعال . ولا لزوم له فيما يمكن قياسه . والهدف منه حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده . ويقاس نجاح الحجاج باستجابة المتلقي في مجال تعديل رأيه أو مشاعره أو سلوكه . ومن ركائزه إثباتُ صدق المتحدث و استمالةُ المتلقي وإثارةُ انفعالاته .

من وسائل الإقناع في الحجاج وصف الأحداث وعرض الصور ومنها القياس

---

(١) دكتور محمد الولي ؛ مدخل إلى الحجاج : أفلاطون وآرسطو وشايم بيرلمان ؛ مجلة عالم الفكر ؛ العدد ٢ ، المجلد٤٠ ؛ اكتوبر ـ ديسمبر ٢٠١١م

المضمر (وهو القياس الذي تحذف منه النتيجة أو إحدى المقدمات) والمقارنة أو الشاهد والتفخيم . وللخطيب أن يستعمل القليل من المخيلات والكثير من المقنعات العقلية . ونظراً لأن كلّ الحقائق المذكورة هنا واضحة المعنى باستثناء كلمة « التفخيم » كوسيلةٍ حجّاجيةٍ فإنها تعني تفخيم المتحدث نفسه وتصغير الخصم . والمتحدث هنا هو الله ويقابله من المخاطب المشركون وآلهتهم التي يظنون أنها شريكة لله ، وتتدخل بطريقةٍ ما في إدارة الكون أو تتوسط لهم عند الله حسب زعمهم ! فهل نجد هذه الأسس الحجاجية في سورة الحجّ؟

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها :

الأطروحة : قيام الساعة وما يتصل بها من بعثٍ وحسابٍ والرد على من يجادل في الله هي الموضوع الرئيسي للسورة كما يُفهم من الأطروحة بآياتها الأربع الأولى . وجملة الطرح الرئيسية تأتي بصيغة يا أيها الناس . وتأتي كخطبةٍ بليغةٍ يُكلّفُ النبيّ والمؤمنون بإسماعها إلى قومهم نيابةً عن الله عز وجل . ولأنها سورة حجاجٍ وجدالٍ فالمواجهة المباشرة ضروريةٌ في نداء يبدو فرصةً أخيرةً لدعوة الذين لم يستجيبوا بعد منهم ، وإظهار الخلل في عقيدة فئاتٍ منهم . والرد على ما يتبادلون من حججٍ باطلةٍ بحقّ الله وقدرته على بعثهم بعد الموت . فالآية الأولى تدعوهم لاتقاء زلزال يوم القيامة العظيم . ثم تتواصل الآيات (٢-٤) بمزيدٍ من وصف يوم القيامة أو الساعة كما سمته السُّورة هنا . لتنتقل إلى الذين يجادلون في الله والبعث بغير علم متبعين تزيين الشيطان لأقوالهم الخاطئة . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (الحج:١-٤) . وهذه هي القضايا الرئيسية التي ستناقشها السُّورة بأسلوب الحجاج لتستحقّ اسمها « الحجّ » .

إثبات قدرة الله على البعث : القضية المركزية التي تدور حولها الأطروحة هي قيام الساعة إيذاناً بالحياة الآخرة . و المشركون ينكرون الحياة الآخرة ليرتاحوا من الحساب . فيختصرون الطريق وينكرون البعث . إنكار البعث كان الموضوع الأكثر رواجاً بين معارضي النبيّ . فكانوا يقولون « كيف يحيي الله العظام وهي رميم »

أو قالوا مثل هذه ليصدوا عن سبيل الله . فتأتي الآية الخامسة بحجّةٍ لا يرفضها إلا ظالم . فهي تذكرهم أن الله خلقهم من تراب أول مرة ثم من نطفة لا تكاد ترى ونَمَّا سبحانه المضغة علقةً . وتواصل الآية وصف مراحل الخلق ثم مراحل حياة الإنسان . وتضيف إليها دليلاً آخر من قدرة الله على بعث الحياة في الموات ، وهو إحياء الأرض والنبات بالمطر . وتوظف الآيةُ السادسة هذه الظواهر الواضحة لكلّ ذي عقلٍ وضمير لتثبت أن الله هو الذي يمتلك صفات الألوهية وأولها الخلق والبعث ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (الحج:٥-١٠) .

ويلاحظ جو الحجاج واضحاً بل قويًّا في الآيات ففي البداية رد على شكهم (إن كنتم في ريب . .) والرد على ذلك بعد عبارة (لنبين لكم) ثم نعلم أن الساعة (لا ريب فيها) بهذه الصيغة التي تعني الرد على الشك بالتأكيد . ثم نعلم أن من القوم من (يجادل في الله بغير علم) وهذه الجملة في حد ذاتها رد على المجادِل فهو لا يملك الحقيقة وتأتي هذه الصفة تحقيراً له وإبطالاً لدعوته ؛ ثم تُبرز الآية عناده غير القائم على أساس (ثاني عطفه) لغرضٍ مبيتٍ (ليضل عن سبيل الله) فهي تفضحه وتبطل قيمة جداله ؛ لأنه لا ينطلق من موضوعية وعلم . وله في الدنيا خزيٌ وتحقيرٌ . وخطابٌ مباشرٌ زيادةً في الإفحام . فكأن هذه الباقة من الآيات استعملت كلّ تقنيات الحجاج وخصوصاً مقارنة بعث الموتى بنشأتهم الأولى فمن صنع الأولى فالثَّانية عليه أسهل !

عرض حالة المذبذبين : تواصل الآيات الثَّلاث التالية عرض مَثلٍ من أهل مكّة . لكنه هنا مثال المتردد الذي لم يصل مرحلة اليقين بالله . دون أن تذكر الآيات جدالاً

صريحاً منه بل ممارسة المحتار فلا هو المؤمن الذي يجعل الإيمان فوق المصالح ، ولا هو المنكر المجادل بباطله. فهو على غير يقينٍ من الساعة بصفتها محور السُّورة. بل هو في جِدال داخل نفسه لا يدري لأيِ الجهتين يتجه : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ** ﴾ (الحج:١١-١٣) ويؤدي به هذا الفراغ العقدي الواقع بين الشك واليقين إلى التَّوجه بدعائه لأصنام لا تضر ولا تنفع .

وحالة المترددين ضِعاف الإيمان هؤلاء ، حالة معروفة في المجتمعات ولم تسمهم السُّورة منافقين . فكلمة منافقين غير مناسبةٍ لضعفاء الإيمان في مكّة . حيث لم يكن للإسلام قوةٌ ينافقها أحدٌ من أهل مكّة . فتكون وظيفة هذه الفقرة في الحجاج وضعَ دليلٍ عمليٍّ أمام المخاطبين بأحد المواقف المرفوضة وبيان منزلة أصحابها على ضوء القرآن . عدا عن استعمالها فكرة التفخيم بحقّ لله تعالى وما يقابلها بحقّ الآلهة التي يتوسل بها ضعيف الإيمان .

حجاج المؤمنين : تتدرج السُّورة في جدال المجتمع . فبعد المعرضين انتقلت إلى المترددين وحيرتهم . التي سمحت لهم بدعاء الأصنام والطواغيت ، ثم تصل بنا حالةَ المؤمنين . فتبدأ بالموقنين منهم الذين ثبتوا على الإيمان والطاعة . فلهؤلاء الجنة ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ (الحج:١٤) .حتى جملة (إن الله يفعل ما يريد) صيغت بأسلوب حجاجي فكأنها ترد على اعتراض ما أو سؤال يبدأ بكلمة لماذا ؟

ولمستعجلي النصر من المؤمنين الذين يراودهم شكٌّ أحياناً أن الله قد لا ينصرهم ، يأتيهم الرد بأن لا خيار لهم فإن شاءوا فليبتغوا سبيلاً للسماء ، ليروا إن كان ذلك يُذهبُ غيظَهم! بل عليهم أن ينظروا في الآيات البينات التي أنزلها الله عليهم ، وفيها بيان سنته سبحانه بنصر عباده المؤمنين . ﴿ **مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ** ﴾ (الحج:١٥-١٦)

وجو الحجاج هنا واضحٌ بل يصل حد التحدي . فهؤلاء مؤمنون لا يحقّ لهم الشك فيأتي الرد عليهم شديداً بل غاضباً .

حجاج المجتمع : في كلّ مجتمع متعدد الأديان يتجادل الناس ويجادل كلّ عن دينه . لذلك من الطبيعي أن يتجادل الناس بشأن الأديان الموجودة في بيئتهم . والآية (١٧) تذكر ست فئاتٍ دينيةٍ كلّها شائعة في جزيرة العرب ولها أتباع من العرب وممن يساكنهم جزيرتهم ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (الحج:١٧) . والآية تشبه في صياغتها ومعظم نصها الآية (٦٢) من سورة البقرة . لكن المقصود هنا غير المقصود هناك حتى مع ذكر نفس اللفظة . فتلك الآية واردة ضمن فقرة سميناها الرسالة الإسرائيلية . وهذه واردة في سورة موجهة لأهل مكّة والمدينة ومَن ورائهم من أهل الجزيرة . وتلك التي في سورة البقرة انتهت بتعقيب « لاخوف عليهم ولا هم يحزنون» لمن التزم منهم بدينه . بينما تؤجل آيةُ سورة الحجّ الفصل بشأنهم إلى يوم القيامة . ذلك لأن الله لم يكلّف العرب بغير الحنيفيَّة . فاتباعهم لليهودية والنصرانية والصابئية يكون بناءً على اختيارهم الشخصي وقد يقبل منهم وقد لا يُقبل ؛ بخلاف آية البقرة (٦٢) حيث كانت الأديان المذكورة مما كلّف به بنو إسرائيل فقُبلت ممن اتبع أيا منها بإحسان من بني إسرائيل .

ثم تأتي الآية (١٨) تبين منهج الله المقبول الذي عليه كلّ الكون غير المكلّف ومعظم البشر ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ** ﴾ (الحج:١٨) .

ثم تأتي الآيات (١٩-٢٤) بمثل المؤمن والكافر إذ يتجادلان أو يختصمان وتتبعها آياتٌ تبين مصير الكافر ومصير المؤمن ﴿ **هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ** ﴾ (الحج:١٩-٢٤) .

وردًّا على كثير من جدالهم تكتفي الآية (١٨) بالقول إن الكونَ كلّه يعبد الله ويطيع قوانينه التي وضعها سبحانه لتسيير الكون المادي وما فيه من أحياءٍ . وهي حجّةٌ قاطعةٌ يراها كلّ ذي عقلٍ .

وبقية آيات الفقرة تلجأ للمقارنة باستحضار مصير كلّ جانبٍ بمشهدٍ مليءٍ بالحيويَّة والقدرة على إثارة المشاعر . فجاء مشهد الكافر من أقسى مشاهد العذاب يوم القيامة . وجاء مصير المؤمن مريحا طيباً . فهي مقارنة مؤثرة ومُقْنِعة تقوم بدور الحجاج .

خلاف حول البيت العتيق : بعد جدالهم في الله وإنكارهم لما جاء به النبيّ ، يدَّعون أن البيت لهم وحدهم فيصدون المؤمنين عن أبوابه . فيرد الله عليهم بحجج من التاريخ الذي يعلمونه . فبناءً على توجيه الله بنا إبراهيم البيت وطهره لمن يعبدون الله وحده ، ومنه أطلق نداء الأذان . فهو لعبادة الله وللتوحيد الخالص ويجب أن لا يكون فيه مكان للأوثان ، وخيرٌ لهؤلاء الناس أن يعودوا للحنيفية دين إبراهيم البريء من الشرك . فالشرك طريق هلاك لمن يعتنقه . ثم تصف الآيات مبررات بعض شعائر الحجّ . ويصف الذين يحبهم الله ويخاطبهم مباشرةً بالحجّ وبأداء شعيرة الأضحية . ثم يؤكد دفاعه عن المؤمنين بتلميحٍ لمشركي مكّة أنه لن يتخلى عن عباده ، بل سينصرهم إن أصر مشركو مكّة على موقفهم بمنع المؤمنين من زيارة البيت والحجّ إليه ، وواصلوا إذلالهم وإجبارهم على هجر مدينتهم . وهكذا تتطور فقرة الآيات (٢٥-٤١) من الخلاف حول البيت والحقّ به إلى تهديد بنصرة المؤمنين إذا واصل المشركون استبدادهم بشأن البيت . ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ**

قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج: ٢٥-٤١)

وظن مفسرون أن الآية (٣٩) إذنٌ بقتال مع أنها ليست أكثر من اعترافٍ للمؤمنين أنهم يُظلمون. وتلميحٌ بإمكانية تدخل الله لرفع الظلم عنهم. فالمؤمنون وصفوا بأنهم «يُقاتَلون» أي من يقع عليه فعل الإذلال وهذا معنى يُقاتلون هنا. ولم تأت الكلمة بصيغة المبني للمعلوم وفاعل فعل القتال. خصوصاً أن فهمها كما ظن المفسرون يُضعف موقف السُّورة وهي تتلوها بفقرتين تتحدثان عن حجاج الأمم ثم تكذيبها لأنبيائها فتهديدها بناء على ذلك. فليس من البلاغة في شيء إيراد الإذن بالقتال قبل استيفاء موضوع الجدال وما يتبعه من تهديد بالعذاب. ويصير التهديد الوارد بالآيات (٤٢-٤٨) لا معنى له لو كان الأمر قد حسم بقتالٍ قبلَه تماماً.

حجاج الأمم لأنبيائها: كي لا يظن النبيّ أن قومه بِدْعٌ من الخلق تأتي الآيات (٤٢-٤٤) بأمثلةٍ من أقوام ستة أنبياءٍ كذبوا أنبياءهم وحاجوهم بنفس طريقة قريش. ثم تكتمل الصورة في الآيات (٤٥-٤٨) وهي تتحدث عن مشركي قريش بصيغة

الغائب ، تنعى عليهم عدم اتعاظهم بأمم سبقتهم في الإنكار ، فنالها من العذاب والهلاك ما تشهد بآثاره الأرض من حولهم! ﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ (الحج:٤٢-٤٨) . وهكذا ينتهي تكذيب الأنبياء ، وهو لون من الجدال ، إلى الهلاك عندما يصر الطرف الظالم على موقفه . فالحجاج لا يبقى حجاجاً إلى الأبد!

بيان نبوي : بآياتٍ ثلاثٍ حاسمةٍ يؤمر النبيّ أن يواجه قومه بمهمته وبطريقةٍ صارمةٍ ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ (الحج:٤٩-٥١) فهو نذيرٌ مبينٌ وعلى كلّ منهم أن يحدد موقفه . فالمؤمنون لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ . وفي هذا تشجيعٌ للناس بعد الحجاج . فلعل من اقتنع بما سمع من الآيات يؤمن ، فله بشرى بالغفران . ومن أصر على موقفه ولم يتأثر بآيات الله التي جاءت بها السُّورة فتنتظره الجحيم لا مفر له منها .

جدال حول أمنية النبيّ : الآية (٥٢) شديدة الغموض . فالآية تتحدث عن شيء تمناه النبيّ ولعله شيءٌ معروفٌ ، فاستغله الشيطان ونفخ فيه ليصير موضوع الساعة عند قريش ، ليكون حجّةً للفتنة والبقاء على الكفر . ثم ينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الحج:٥٢-٥٤) . وواضحٌ أن في الأمر عقبةً وحاجزاً يحول دون إيمان الظالمين .

فليكن لهم ما يُحاجُّون به من نقطة ضعفٍ في أمنيةِ النبيّ أو كلمة صدرت عنه . والآية لا تقول إن كلّ نبيٍّ أو رسولٍ يتمنى بل إن تمنى النبيّ فلمكانته العالية يعاقب بأن يستغل الشيطان أمنيته ويوظفها . ومهما تكن حقيقة الأمنية واستغلال الشيطان لها فإنها مما يستحقّ أن يوضع في هذه السُّورة لأنها تنتمي لنفس موضوع السُّورة وهو الجدال في الله وفي النُّبُوَّة .

عناد المكذبين : وسواءً أكانت الأمنية أم لم تكن ، ومهما أوتي المعاندون من آيات فإنهم بما أسلفوا من سيئاتٍ لا يستطيعون الإيمان ؛ وسيبقون في شكٍّ وتساؤلٍ عما سمعوا من النبيّ . ويوم الحساب يتجلى المُلك لله فيحكم بين عباده . فتكون الجنة للمؤمنين والعذاب المُهين للذين يكفرون . وللمهاجرين في سبيل الله مكافأةٌ مميزةٌ حتى لو لم يصلوا دار الهجرة أحياءً وماتوا دونها . ﴿ **وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ** ﴾ (الحج:٥٥-٥٩) .

ونرى تقابل الفئتين في الصياغة ليكون استمراراً عمليًّا لحجّ المشركين يستمد فعاليته وقوته حتى من مصير الفئتين بعد الموت وبعد الساعة . ولا مجال للتكذيب فالمتحدث هو الله ، وله الملك في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

ويستمر الحوار الذي يتحول ظلماً ودفعاً للظلم في الآية (٦٠) . بل لا يستسلم المشركون للحقّ عندما يدافع المؤمن عن نفسه فيعتدون عليه ثانية ؛ وتسجل الآية هذا لتكون حجّةً على ما سيحدث في المستقبل القريب . وليتذكر القرشيون ظلمهم للمسلمين عسى أن يستيقظ ضميرهم أمام العذاب الآتي ﴿ **ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ** ﴾ (الحج:٦٠) .

التفخيم من أدوات الحجاج : لكي يؤثر نفسيًّا في السامع يُقَوي المحاجِجُ حجّته بتفخيم نفسه وتحقير من يُظَنُّ ندًّا له : والمتحدث هنا هو الله وهو فخمٌ وعظيمٌ في ذاته فلتظهر صفاتُه الجليلة هنا وقدراتُه العظيمة ليعلم السامعون من هو

المتحدث . فهو ربّ المكان والزَّمان يدير أمرهما بحكمته . وهو وحده الإله الحقّ بمعنى أنه الوحيد الذي له من الصفات والقدرات ما يلزم للألوهية . وما سواه ممن يشرك أهلُ مكّة مع الله باطلٌ لا يملك شيئاً من شروط الألوهية . فهم باطلٌ محضٌ ، مقابل الله العلي الكبير ؛ الذي يُنزل الماء من السماء فيبعث الحياة في الأرض بلطفه وخبرته ، وله ما في الكون كلّه . وهو يسخر للناس كلّ ما خلق في الأرض والبحر . ووضع قوانين لحماية الأرض من الدمار . وبيده حياة الناس وموتهم وبعثهم .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾

(الحج: ٦١-٦٦) .

ويلاحظ أن الخطاب هنا للنبي مباشرةً والحديث عن المشركين بصيغة الغائب كما هي العادة في القرآن .

جدال اليهود : ردًّا على اليهود يخبر الله نبيه أن لكلّ أتباع دين مناسكهم ، فلا تسمع للمخالفين وادع لدينك ، فأنت على طريق مستقيم . ولا تجادل أصحاب المناسك الأخرى . فالله يحكم يوم القيامة بخلافات أتباع الأديان المختلفة . فلا تشغل بالك بالأمر ولا تستغرب ، فربّك مطلعٌ على ما يفعل كلّ إنسان ويسجله بانتظار يوم الفصل : **﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾**

(الحج: ٦٧-٧٠) .

وبذا نعلم أن السُّورة لم تكتف بحجّ قريشٍ بل ردت على أهل الكتاب عندما

يتعالمون على النبيّ ؛ فيأتي الرد عليهم وبدون تفصيلٍ كبيرٍ لأن الأمر لا يستحقّ ، فهو تمحلٌ واضحٌ يُقصدُ منه الإزعاج حسداً للنبيِّ والمسلمين .

يخرج لهم ما في نفوسهم : يستمر الحديث للنبيِّ وتزوده الآيتان (٧١-٧٢) بمعلومات من داخل نفوس المشركين لترتفع معنوياته من جهةٍ وليهزم المعاندين من جهةٍ أخرى . فالآية (٧٢) تكشف ما في نفوسهم فيصيرون كتاباً مفتوحا للنبي وللسامعين ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ (الحج: ٧١،٧٢) .

التحقير مقابل التفخيم : إكمالاً لاستعمال قاعدة التفخيم تستعمل الآية (٧٣) تحقير الأنداد بحجّةٍ لا يمكن دحضها ؛ والخطاب موجهٌ لأهل مكّة مباشرةً فليس في الأمر هنا تشريفٌ بل ترذيلٌ ، وهو يبدو في السُّورة كإهانةٍ أخيرةٍ توجه بعد انتهاء المعركة الرئيسية : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ** ﴾ (الحج:٧٣) . وأيُّ تحقيرٍ أشدُّ من هذا فآلهتم في ضعف الذباب الذي يستهينون به!

ختام الحجاج ومناجاة النبيّ والمؤمنين : تتمةً لحجج التفخيم والتحقير وزيادةً في إبراز جهل المشركين بعد الأدلة المقنعة بعظمة الله ودناءة آلهتهم ، يحقّ أن يوصفوا بأنهم لم يَقدِروا الله حقّ قدره وهم يجعلون له أنداداً في ضعف الذباب . ثم يرد على شبهتهم بموضوع نبوة بشرٍ ورجلٍ منهم . ويُذكِّر النبيّ أن كلّ أمرهم مكشوف لله ، وهو يعلم ما يخبئ لهم مثلما يرى حاضرهم . فاطمئنوا أيها المؤمنون واعبدوا الله واشتغلوا بمجاهدة نفوسكم لتصيروا أهلا لنصرة الله وإقامة دينه وقيادة قومكم إلى الحياة الكريمة التي يُعِدُّكم الله لها . ﴿ **مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ**

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٤-٧٨) . والمخاطب هنا هم مؤمنو مكّة والمهاجرون منهم فقط .

وبنظرة سريعةٍ على السُّورة نجد مفردات الحجاج والجدال قد وردت في خمس آيات هي :

الآية (٣) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٣) . . .

الآية (٥) ﴿ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (الحج:٥)

الآية (٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٨)

الآية (١٩) ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ (الحج:١٩) والاختصام هنا بمعنى الجدال .

الآية (٦٨) ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحج:٦٨)

وأخيرا هل يمكن استعمال قواعدِ الحجاج ووسائلِه بطريقةٍ أكفأ مما رأينا في هذه السُّورة؟ بل لقد أدت السُّورة وظيفتها على مدىً واسعٍ لا يخطر ببال بشر . فلم نسمع عن حجاجٍ لا يكتفي بالرد على جدال المجادلين وتفنيد شبهاتهم بل يطور الأمر ليتحدث عن حالات الجدال المتطرفة ،كالتهديد بالقتال ، ونتائجها بأسلوب عادل ومقنع . وهو أمر غالباً ما يتجنبه البشر خشية الاتهام بالتحريض . لكن السُّورة صاغته بأسلوب لا يبقي للمخاطبين حجّةً . واستعملت الأحداث ووظفتها بطريقةٍ قاطعة الدليل . وكان التهديد بنصر المؤمنين وكذلك دفاع المؤمنين عن أنفسهم وهم ما زالوا في مكّة مشروعاً وعادلاً ، فهو ردٌّ على عدوَان تلاه عدوَان . كما استعملت قاعدة التفخيم بكفاءةٍ لا تتاح إلا لخالق السموات والأرض . فلا يقدر بشرٌ على المقارنة الحية التي وردت في السُّورة . ومن جهةٍ أخرى غطت السُّورة كلّ الحجّ اللازم للنبيِّ في تلك المدة ولم تكتف بحجّ قريشٍ . بل شملت حجّاً للمؤمنين واليهود والمنافقين . كما لم تنس ما يدور في المجتمع يومذاك من جدالٍ بين أتباع الأديان المختلفة فحكمت فيه .

* * *

الباب الثَّالثّ

تربية الأمة

منذ سورة المؤمنين حتى نهاية القرآن تدور السور حول تربية الأمة ذهنيًّا وعقَـديًّا وخُلقيًّا ونفسيًّا . تحاول تحريرها من عيوبها الذهنية والنفسية والخلقية وتحل محلها فضائلَ وتصوراتٍ سليمةً نافعةً لحياة الفرد والمجتمع ، وتزين لها السـلوك العقلانـي الحسن ؛ ليقوم أمرها بسهولة لأطول مدةٍ ممكنةً . ويعرض بعضها سنن الله بتحريك تـاريخ الشـعوب ، ويواصـل بعضُـها الـرد علـى أباطيـل الجـاهليين ، وتـزود الـنبيّ والمؤمنين بما يلزم لشد أزرهم ، وبما يحتـاجون للـرد علـى المشـركين والمنـافقين ويهود المدينة .

سورة المؤمنون

السُّورة الثَّالثَة والعشرون حسب ترتيب المصحف . وهي بشرى للمؤمنين بفلاحهم . بشرى صيغت بعباراتٍ مبينةٍ . فقد جاءت المعاني الجادة بألفاظٍ مشرقةٍ مريحةٍ للسمعِ قريبةٍ من النفس . والآيات معظمها جملٌ قصيرةٌ ؛ تقدم الجملةُ فكرةً واحدةً محددةً تمنع أي لبسٍ في الفهم . لم يرد مثيلٌ لها بهذا فيما سبق من السور . ومن جهةٍ أخرى تبدو كبيانٍ عامٍ يفصل في أمري الإيمان والكفر بطريقةٍ حاسمةٍ . وكعادة القرآن في عرض موضوعه لا بد من عرض أسباب الإيمان وأسباب نقيضه وهو الكفر ، ونتائج كلّ منهما في نهاية الحياة الدنيا التي لا تزيد عن كونها قاعةَ امتحان . ولا تبدو بعد البعث إلا يوماً أو بعض يوم . وتتعمق السُّورة في النفس البشرية لنرى من خلالها الكفر انحرافاً نفسيًّا واضطراباً في العقل والقلب يحول بين صاحبه وبين الإيمان . ويبدو الإيمان احتراماً للذات ، واعتزازاً بقيمة الإنسان ، وموقفاً عادلاً في العلاقة بين الإنسان وبين ربّه الخالق .

ومن جهةٍ أخرى فإن السُّورة بدايةٌ لمجموعة من السور تهتم بأخلاق الإنسان وسلوكه الفردي . وكانت السور منذ سورة يونس تهتم بتفنيد دعاوى المشركين وترد على باطلهم ، وتُرسِّخُ العقيدة السليمة بالله والبعث والحساب والنُّبُوَّة والملائكة . وذلك لتثبيت النبيّ بالقول الثَّابت ولتطمينه . ولعل سورة المؤمنين لهذا السبب جمعت بين الأمرين . فبررت عملية الإيمان فكريًّا على طريقة سور مجادلة المشركين ، وأظهرت الأبعادَ السلوكية للإيمان كالسور التالية لها ابتداءً من سورة النُّور . فهي بداية الباب الثَّالث من القرآن والمخصص لتربية الأمة وتحريرها من صفاتها السيئةِ والضارة ومن سلبياتها .

عنوان السُّورة وموضوعها :

المؤمنون ، مادتها المجردة « أمن » . جاء في مقاييس اللغة للرازي : « الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة ، ومعناها سكون القلب . والآخر التصديق » .

وحرِصت السُّورة على إظهار هاتين الصفتين للمؤمنين الذين تنزلت باسمهم وللتعريف بهم . فالآيات الست الأولى تصفهم كمؤمنين مصدقين رسول الله ملتزمين بطاعة ربّهم ، وفي الآيتين (٨-٩) تصفهم برعاية أماناتهم وعهدهم مع الله والمحافظة على الصَّلاة ؛ وهي أمانةٌ أخرى وعهدٌ من لوازم الإيمان وشروطه .

وبقية السُّورة تدور حول مبررات الإيمان ، وأسبابِ عدم إيمان المشركين ، ثم تتحدث عن الرسل كدعاةٍ للإيمان ، وتعرض مصائر الذين يرفضون الرسل ويعجزون عن الإيمان . كما تُقدِّمُ مثال الرسول بدايةً لدورةٍ إيمانيةٍ فينتصر بمن معه ، ويَهلِك العصاة المصرون على الباطل . ولهذا المعنى تفردت السُّورة بعرض مَثَلَ الرسول مجرداً عن الاسم والمكان والزَّمان . فهي سورة المؤمنين بالمعنى القريب عنواناً وموضوعاً .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : أطروحة هذه السُّورة معجزةٌ في فن النثر لا يقدر عليها إلا اللهُ العليم القدير . فقد عرفنا أطروحةَ المقال فقرةً في مطلعه ، تذكر فكرتَه الرئيسيةَ والزَّوايا التي ستناقش منها تلك الفكرة . ولكن أطروحةَ هذه السُّورة وعلى مدى آياتها الإحدى عشر لا تذكر إلا خصائص المؤمنين ، انطلاقا من فلاحهم الذي قررته الآيةُ الأولى . فكيف جاز أن يبنى على هذه الفقرة سورة من مائةٍ وثماني عشرة آيةٍ وتتمدد على مساحة ست صفحاتٍ من القرآن الكريم؟ ولم يتكرر في السُّورة ذكر خصائص المؤمنين إلا مرةً واحدةً في فقرةٍ من خمس آياتٍ قصيرةٍ هي الآيات (٥٧-٦١) . فكيف جاز هذا ؟ وأي عقل أجازه؟

أما كيف جاز هذا فطبيعة الموضوع . فالسُّورة تتحدث عن المؤمنين . والإيمان استجابةٌ لدعوةٍ . فهم المجيب لبادئ . والبادئ هنا هو الله ورسوله . وما دام الحديث عن المجيب فالبادئ موجودٌ بالضرورة وحاضرٌ في العقل وفي طبيعة النص ؛ فلا مجيب بدون بادئ يدعوه . فمن يستمع لكلمة مؤمن سيسأل ضمناً : مؤمن بماذا ؟ فيكون المسئول عنه موجوداً في الذهن وفي أجواء الموضوع وإن لم يحضر بحروف اسمه .

والله البادئ وموضوع الإيمان مذكور في السُّورة من الزَّاوية التي توجب الإيمان به ، وهي إنعامه على البشر عموماً وعلى المؤمنين خصوصاً . فذكرت نِعَم الله التي يستحقّ معها الإيمان به وعبادته .

وكي تكتمل الصورةُ لا بد من ذكرِ الوجه الآخرِ للإيمان ، وهو الكفرُ ومظاهره وأسبابه ليُحاصر ، ولتظهر نعمةُ الله على المؤمنين . ولا بد أن تُذكَر أدواتُ الإيمان ووسائلُ الدعوة إليه ، لتتحدد طبيعته ، فنعرف المؤمنين المقصودين ، وإلا ضاعت القضية وصار المؤمن بكفره مؤمناً . فجاء ذكر الرسل مع توجيهه لصالح الهداية وإبراز فكرة انتصار الإيمان بهم ولهم . وليكون كلّ منهم مؤسسَ دورةٍ إيمانيةٍ بمن يتبعه من قومه .

فمن حيث مفعولها أدت وظيفةَ الأطروحة تماماً . فلم تخرج عن أسس الكتابة الفنية التي ألهمها الله للبشر . لكن لا أظن أن مثلها خطر على قلب بشر في لغة من لغات الأرض ؛ أو وضع إنسانٌ مثل أطروحتها لمقال قبلها أو بعدها . ولولا أنه الله المحيط الواسع العلم والإرادة ، لما رأينا مثل هذه المعجزة الفنية في عالم النثر على امتداد الكون . وهي بالمناسبة لا تكون حسب تصوري إلا لمثل هذا الموضوع ، حيث يكون الحديث عن مستجيبٍ لبادئ معروفٍ متفقٍ عليه بين المخاطبين جميعاً وهو نفس المتحدث . ومَن غير الله يمكنً أن ينتبه إلى هذا الهامش الضيق من حرية الحديث ، فيستعملَه بدقةٍ وجمال دون كسر قوانين الكتابة التي ألهمها لعباده؟

و الأطروحة هي : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ** ﴾ (المؤمنون:١-١١)

الله البادئ المستحقّ للإيمان به ولعبادته : الإيمان استجابةٌ لدعوة . والمؤمنون هنا استجابوا لله عز وجل . لذلك تبدأ السُّورة بعد الأطروحةِ بالأسس التي يستحقّ بها اللهُ إيمانَ المخاطبين به وعبادتَهم له سبحانه ؛ وأولُها أنه خلقهم . وتصف الآياتُ مراحلَ من عملية الخلق . وتركز الآيةُ (١٤) على مرحلة الجنين وما فيها من حرص الله على المخلوق البشري وعنايته به . ثم تأتي الآيتان (١٥-١٦) لتؤكدا البعثَ والحياة بعد الموت ؛ ويُفهم ضمناً أن الأمر لله وحده . فليقابل الإنسانُ ربّه مرضياً ؛ ولا يكون ذلك دون إيمان بالله ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ**

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

(المؤمنون:١٢-١٦)

ومن مبررات العبودية لله خلقُه الكون ممهداً لحياة الإنسان . فلم تَغفَل السُّورة عن أي أمرٍ يهم الناس أثناء صنع الكون حتى السماوات العُلا . وتأتي الآيات (١٨-٢١) لتصف تيسيرَ حياة البشر وتزويدَهم بالطعام بوسائل يرونها ويعرفونها . لتصل بنا آياتُ فضل الله واستحقاقِه الإيمان به وعبادتِه إلى وسائل النقل التي تيسر تواصل البشر ونقل السلع بين أقطار الأرض : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (المؤمنون:١٧-٢٢) ويلاحظ أن الخطاب هنا مباشرٌ للمؤمنين فكأن ما خلقه الله من نعم ووسائلِ حياةٍ هو أولاً للمؤمنين . ويلاحظ أيضاً أن الآيات ذكرت كلّ النعم انطلاقاً من عاملٍ واحدٍ هو ماء المطر ، حتى نعمةُ الأنعام بدأت بسُقيا وانتهت متصلةً بماء البحر يسهل سفرهم .

دعاة الإيمان : رسلُ الله هم دعاةُ الإيمان . وبناءً على دعوتهم يستجيب المؤمنون . وتبدأ الآياتُ (٢٣-٣٠) ذكرَ قصة أبي الأنبياء وأول الرسل المذكورين في القرآن وهو نوحٌ صاحب المعاناة الأشد في تاريخ البشرية . ويدعو نوحٌ قومه فلا يستجيب إلا القليل . الذي احتفظ بتصورٍ سليمٍ عن الحياة واحترم قيمه الإنسانية العليا ولم يملأ الحسد قلبه . ونذكر هذه الصفات لمن يؤمن لأن فتنة العصاة المعاندين كانت تنطلق من اعتراضهم على أن الرسول بشر . وهذا يدل على خللٍ في تصورهم وضعفٍ في عقولهم وعدم احترامهم لإنسانيتهم وحسدهم لأخيهم الإنسان أن يكبر باتباعهم له . الرسول بشرٌ ولن يكون رسول الله إلى الناس إلا رجلاً منهم ، كي يتمكنوا من الاقتداء به . ولكن المسحوقين أمام القيم المادية على حساب القيم الإنسانية لا يستطيعون احترام إنسان مثلهم . فإنسان منهم لا يستحقّ ، حسب

تصورهم وبسبب حسدهم ، منزلة التلقي عن الله عز وجل . ولا يرتكس إنسان بذلك التصور إلا بسبب احتقاره لنفسه ؛ بعد أن أفسد نفسه بالعصيان وبحب المال . بينما يحتفظ المعتدل من البشر باحترام إنسانيته فيتمكن من إدراك النُبُوَّة ، والمكانةِ المحترمةِ بشخصِ الرسول كإنسانٍ مثله . وتنتهي قصة نوحٍ بانتصار المؤمنين وغرق المكذبين . وهم مع صغَارهم كبشرٍ أمام أنفسهم لا يصلحون للحياة ، ومع كفرهم بالله لا يستحقّون أن يستمروا بالتمتع بما أنعم الله به من رزقٍ ووسائل عيشٍ كريم . فيحقّ لله حرمانُهم من فضله ما داموا لم يحقّقوا غرضَه من خلْقهم . . ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴾ (المؤمنون:٢٣-٣٠) .

وبعد قصة نوح تعرض السُّورة قصةَ رسول دون ذكر اسمه أو قومه . وتعرض معه مقالةَ قومهِ وهم يرفضون تصديقَه . لنعلم أن قضيةَ بشريةِ الرسول تشكل حاجزاً تقليديًّا بين الإيمان وبين الأشخاص الذين فقدوا احترامَ الذات ؛ ويرافقها إنكار البعث والحساب غباءً من المنكرين . ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المؤمنون:٣١-٤١)

وهذا الرسولُ المثلُ المذكورُ في الآيات (٣١-٤١) يخدم هدفين: الأول صنعُ تصورٍ ذهنيٍّ عن الرسول وهو أنه رأس دورةٍ إيمانيةٍ في الأرض. والثَّاني ليعلم المشركون أن ما يقولونه ليس بجديدٍ. بل هي طبيعةُ البشر.

وبعد الرسل تبدأُ الشعوب بالاستمتاع. ومن يبالغ يفسُد قلبه وينحرف عقلُه ويحتقر نفسه ويملأ حبُّ الشهوات قلبه، فلا يستطيع تَقَبُّلَ رسول الله من البشر. وتأتي الآياتُ التالية لتؤكد نفسَ الفكرة ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾

(المؤمنون: ٤٢-٤٤).

وتُختتَمُ حلقة الرسل بمثلٍ من قصة موسى المزدوجةِ الصراع مع فساد البشر. فيكافحُ أولاً فرعون حتى ينصرَه الله ويُغرِقَ فرعونُ. ويكون اعتراض فرعونَ وقومِه مُنصبَّاً على بشرية موسى. ثم يكافح موسى بقيةَ الكفر والنفاق في قومه. وبعد أن يتركهم على مَحجّةٍ بيضاء ينحرفون. فيرسل اللهُ لهم عيسى ابن مريم ويُجدد لهم الدين. ومع كلّ هذه الاحتياطات والكتاب المكتوب يختلف أتباعُ الأنبياء بسبب سوء فهمِهم للنصوصِ الإلهيةِ ومواعظِ أنبيائهم. ويكون ذلك بسبب إقبالهم على المتع، والكسلِ عن طاعة الله الذي يرافق الاستمتاع بغير حقّ عادة: ﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴾

(المؤمنون: ٤٥-٥٠)

وعلى طريقة الملحق المُبيِّن لما يمكن أن ينشأ من سوء فهم، تأتي الآيتان (٥١-٥٢) لتقولا للرسل لاتحجموا عن الطيبات خشيةَ الكفر. فالانحراف لا ينشأ من استعمال نعم الله بحقّ؛ بل باستعمالها بغير حقّ كالإسراف بها، وعدم الاعتراف للمنعم سبحانه وعدم أداء حقّها. وهنا ندرك أهميةَ ذِكر أداءِ الزَّكاة كصفةٍ للمؤمنين في أطروحة السُّورة: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ** ﴾ (المؤمنون: ٥١، ٥٢)

وكما يحدث دائماً يتقطع أمر الأتباع بعد رسلهم ومع وجود كتبهم . ومرةً أخرى تضع الآيات الكريمة يدَها على العلة وهي إقبال الناس على الاستمتاع بخيرات الحياة والتنافس على جمع المال والتكاثر بالبنين ﴿ **فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ** ﴾

(المؤمنون:٥٣-٥٦)

وبالمقابل تبقى فئةٌ معتدلةٌ تخشى الله لتكون بذرةَ الإيمان لدورةٍ قادمةٍ ومع رسولٍ جديد : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ** ﴾ (المؤمنون:٥٧-٦٢)

ويلاحظ تركيزُ هذه المجموعة من الآيات على العطاء كصفةٍ لمن يحتفظ بإيمانه أو القدرة على الإيمان . ولكنه ليس مجرد عطاءٍ ، بل هو عطاءٌ بدافع الإيمان بالله وشعورٌ بالواجب تجاه الله وتجاه من يُعطَون ، دليلاً على سلامة تصورِهم للعلاقات الإنسانيةِ وشعورِهم باحترام الإنسان الذي بين جنوبهم . وليس مطلوباً من كلّ إنسانٍ أن يعطي إلا من يستطيع ماديًّا . دون أن ينقص حقّ الفقير المؤمن المحترِم لذاته عندما لا يجد ما يؤتِي .

عصيان قريش على ضوء نماذج الرسل في السُّورة :

رأينا السُّورة حتى الآن تعرض أسبابَ الكفر وأسبابَ رفض النُّبُوَّة وكأنها بنماذجها الطليقةِ من قيود الأسماء والزَّمان والمكان تعرضُ قوانينَ الله في الإيمان ، وتستقصي أسبابَ كفرِ الغالبية التي تكفر . وعلى ضوء ذلك نجدها توقع قوانينَها على حالة قريشٍ التي يعاني منها رسول الله والمؤمنون معه : ﴿ **بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ**

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٣-٧٧) . والخطاب في هذه الآيات موجهٌ للنبيِّ يخبره عن أسباب عصيان قومه . وهي نفس الأسباب التي وردت في النماذج السابقة . فالمترفون المستمتعون بما جمعوا من مالٍ ومتاعٍ لا يؤمنون ، فهم المرشحُ الأول للعذاب . وتصفهم بأنهم لا يحفلون بالمجد الذي سييسره لهم الإسلام . ولا يستعملون عقولهم ، ولا يستفيدون حتى من التجربة التي قد يمرون بها . ولا يطيقون صبراً على ألم أو عذاب . بل هم قومٌ لاهون عابثون مستكبرون بغير حقّ .

وتواصل الآياتُ تذكيرَهم بأسلوبٍ مليءٍ بالتقريع ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (المؤمنون:٧٨-٨٠) . وبمثلِ هذه الآيات بدأت السُّورة بعد الأطروحة لتبين حقّ الله في أن نؤمن به ونعبده . وقد ذُكرَت هذه الحقائق من نعم الله على البشر فآمن من آمن ولكن المشركين أصروا على الكفر : ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٨١-٨٣) .

هذا كان جوابهم . ولكن الله سبحانه يعرف أن كفرَهم قشرةٌ خارجيةٌ ، فيأمر النبيّ أن يتابع معهم الجدال لعل بعضَهم ينضم لفئة المؤمنين ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون:٨٤-٨٩) . وعندما ننظر لهذه الآيات من سورة المؤمنين نفهم منها معنًى إضافيًّا غير أنها محاولةٌ لجلب بعض

المشركين إلى الإيمان . إنها تدل على صفة العبثيةِ وضعف الإرادةِ عند المشركين ؛ فهم يعرفون اللهَ وفضلَه عليهم ويستمرون في غيِّهم ؛ مقابل ما قالته الأطروحة عن المؤمنين كأناسٍ جادين يلتزمون بالحقّ عندما يعرفونه . فهم عن اللغو معرضون ، ويلتزمون بأماناتهم وعهدهم فلا مكان للعبث واللامبالاة في حياتهم .

وتؤكد الآياتُ التاليةُ أن الله سبحانه وضعَ أمامهم ما يكفي للإيمان لو كانوا جادين : ﴿ **بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾(المؤمنون:٩٠-٩٢) بل تسخرُ هذه الآيات من تفكيرهم الطفولي الساذج عندما يظنون أن لله شريكاً في ملكه ، أو أنه اتخذ من خلقه ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون .

مصير المشركين : بأسلوب يمتزج فيه الودُّ والتَّوجيه للنبيِّ بتهديد المشركين بالعذاب تأتي الآياتُ الست التاليات (٩٣-٩٨) وهو ما لا يقدر عليه إلا الله . ومن زاوية السُّورة وعنوانها فإن الآيات بشرى بانتصار المؤمنين واندحار المشركين ﴿ **قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ** ﴾ (المؤمنون:٩٣-٩٨). والنبيّ لن يكون مع القوم الظالمين لكنها التفاتةٌ إلى المؤمنين ليتمسكوا بإيمانهم ، وليعلموا فضل الله عليهم وليتأكدوا أنهم الرابحون . وتوجيه للرسول ليستعيذ من الشيطان الذي قد يوسوس له ليزرع اليأس في قلبه .

اللحظات الأخيرة للعصاة: تصفُ الآياتُ اللحظات الأخيرة من حياة المشركين . فيزداد المؤمنون ثقةً بإيمانهم ويزدادون تمسكاً بدينهم . ثم تَعرِض الآياتُ مشاهد مما يحدث يوم القيامة . ونرى مصيرَ الفئتين المؤمنةِ والكافرةِ بما يثلج صدور المؤمنين وهم يسمعون التقريع الحي المُهين لمن يموت مشركاً : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ**

وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾(المؤمنون:٩٩-١١٥).

تقريعٌ مباشرٌ للمشركين ، وذكر فوز المؤمنين مع استحضار سخرية المشركين منهم في الحياة الدنيا ، كلّ هذا يثلج صدور المؤمنين الذين يتلقون هذا القرآن مع رسول الله . إنه ينسيهم كلّ أذًى بل كلّ ضررٍ ينالهم من المشركين . وفي هذا تثبيت لهم على إيمانهم بالله ربّهم ؛ الذي يسمع ويرى ما يحاكُ ضدَّهم حتى من لغوِ المشركين وغِيبتهم للمؤمنين .

وختاماً : يسعد المؤمنون مع النبيّ وهم يعلمون أن ربّهم الذي يدعون هو الإله الحقّ وسواه باطلٌ وهو وحده لا شريك له . فهم على أرضٍ صلبةٍ فليهنأوا ببرد اليقين . وتتوجه الآيةُ الأخيرةُ للنبيِّ تُوجِّهه لدعاء يحبه الله من عبده المؤمن ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون ١١٦-١١٨)

ونتساءل ترى هل بقي شيءٌ يمكن أن يقال للمؤمنين لم تقله السُّورة؟ وهل يمكن أن يقال لهم قولٌ أكثر نفعاً واشدُّ تثبيتاً؟ لا أظن ذلك فالحمد لله ربّ العالمين !

* * *

سورة النُّور

السُّورة الرابعة والعشرون وهي سورةٌ مدنيةٌ موجهةٌ إلى المجتمع المؤمن المسلم . وقد حظيت باهتمام الدارسين والناس بعامةٍ ، لقرب موضوعها من النفس ، ومعالجتها لأمور حساسةٍ وبعضها كثير الحدوث ، كقذف الأعراض دون دليلٍ . والسُّورة مصاغةٌ بأسلوبٍ سهلٍ قريب الفهم من عامة الناس . بل لا مثيل لها في أسلوبها بين السور التي درسناها حتى الآن . فهي كما وصفت نفسها بآيتها الأولى « آيات بينات » . كأنها أبيات شعر في قصيدةٍ عربيَّة لكلّ بيتٍ فكرته . أو هي بنود قانونٍ لتنظيم شئون الأسرة ؛ كلّ آيةٍ أو بضع آياتٍ متتابعاتٍ تشكل مادةً قائمةً بذاتها . وهذاً ما يناسب المخاطبين الذين يميلون للتعليمات المباشرة . ولعل الله سبحانه قضى أن تأتي السُّورة بهذه الصياغة لحاجة الجميع إليها من علماءٍ وعامةٍ . فتنزلت بلغةٍ لا تحتاج إلى إعمال عقلٍ كبيرٍ لتكون في متناول أبسط الناس فهماً . وهي أول سورةٍ في ترتيب المصحف تناقش موضوع السلوك . وتأتي بعد سورة « المؤمنون » التي تعرِّف المؤمنين من زاوية السلوك الفردي .

موضوع السُّورة على ضوء عنوانها

النُّور اسمها . وقد وردت كلمة النُّور خمسَ مراتٍ في الآية الخامسة والثَّلاثين .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (النور:٣٥) .

وفي مقاييس اللغة للرازي « النون والواو والراء أصل صحيح يدل على إضاءة .... منه النُّور والنار سميا بذلك من طريقة الإضاءة . . . ومنه منار الأرض حدودها وأعلامها سميت لبيانها وظهورها . وامرأة نُوار أي عفيفة تنور أي تنفر من القبيح . » وفي لسان العرب يقول ابن منظور : « النُّور : الضياء ، والنُّور : ضد الظلمة ». وعن قوله تعالى **﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾** يقول الظاهر في نفسه المُظهر لغيره » . فهو سبحانه نور السموات والأرض بمعنى ينير للناس فيرون الأشياء بأبصارهم ويدركون الحقائق ببصائرهم .

وتتحرك السُّورة في إطار معاني كلمة النُّور كإضاءةٍ أو بيانٍ وتبصيرٍ لإظهار معالم العلاقات الاجتماعية وحدودِها كما يرضاها الله للمجتمع المؤمن العفيف . وعن التزام مواضيع السُّورة باسمها فقد أشارت منذُ آيتها الأولى أنها آياتٌ بَيِّناتٌ تُبَصِّرُ الناس بما يحتاجونه في علاقاتهم القريبة لهم ابتداءً من أمور البيت وأفرادِ الأسرة الواحدة وامتداد هذه العلاقات في المجتمع ليبقى نظيفاً نُواراً من القبائح . ﴿ **سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النور: ١) .

فهي فروضٌ فرضها الله على المجتمع ليعيش في النُّور وفي العفة . ولم تُصَغ السُّورة بصيغة المقال كبقية الغالبية من سور القرآن ، بل كموادٍ قانونيةٍ تُعرِّفُ الناس على حدود السلوك المناسب ومجالِ الحركة والحرية في العلاقات البيتية ، وعلاقاتِ الرجال والنساء في المجتمع . وهي بَصائرُ توجه الأفرادَ ليبقى المجتمعُ في دائرة النُّور والعفة التي يرضاها الله لنا . وفي كلّ آيةٍ نورٌ يبدد ظلمةً في النفس أو في المجتمع ، ويبعد دنسَ الزِّنا والشِّرك عن المجتمع . فهي سورة النُّور بمعنى العفة . ففي النُّور وما يصنعه من شفافيةٍ تنتفي الفاحشةُ خصوصاً في مجتمع يستحي من إظهار التَّورط في الفاحشة ، ويغار على عرضه كالمجتمع العربي . وبالتالي فمحصلة النُّور هي العفة . وهي دعوةٌ للحفاظ على العفة للفرد المؤمن وللمجتمع المؤمن . وقد وَضَعت الأُسسَ لما يحفظ المجتمعَ والفرد في دائرة العفة . ويبعدهما عن ظلماتِ الفاحشة ودنسِ الزِّنا .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تأتي الآيةُ الأولى تعريفاً للسورة كلّها فكأنها تقوم بوظيفة الأطروحة . لكن على طريقتها حيث يشمل التعريفُ وصفَ كلّ آيةٍ من السُّورة لكنه لا يحتوي معنى أيٍّ منها . لذلك شبهناها ببنودٍ قانونيةٍ . لها نفسُ الوظيفة ونفسُ القوّة ، فهي بكلّ ما فيها مفروضةٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين :﴿ **سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النور: ١)

فهي آياتٌ بيناتٌ واضحةُ الحكم لا لَبس فيها جاهزةٌ للتنفيذ . وهي مفروضةٌ من الله على عباده المؤمنين . ومعنى آياتٍ بيناتٍ أي آياتٍ واضحة المعالم . فما هي الأوامرُ الإلهيةُ الواضحة التي جاءت بها السُّورة :

١- حدُّ الزِّنا وطريقةُ تنفيذه بما لا يدع مجالاً لِلَبْس أو اختلاف : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:٢) . وبالعقاب وبطريقة تنفيذه يتطهر المجتمع من الزِّنا أكبر الآثام بعد الشرك بالله .

٢- تبيين سنة الله بحماية المؤمنين من الزِّنا : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:٣) . ومعنى هذه الآية أن الذي ينوي الزِّنا لن يتشارك به إلا مع عاهرة قذرة أو مشركة نجسة . ومن تنوي الزِّنا فلن تجد شريكاً لها إلا من تلوث بالزِّنا فاستحقّ صفة الزَّاني أو مع مشرك نجس . ويحفظ الله المؤمنين الصادقين من هذا الرجس . فكلمة الزَّاني هنا اسم فاعل بمعني الذي ينوي الزِّنا أو الباحث عنه . والنكاح المذكور في الآية معناه الفعلة المحرمة . وليس الزّواج . بدليل أن الفعل لم ينسب للمرأة فقال «لا ينكحها» ولو كان بمعنى الزّواج لقال «لا تنكح» أي يسند لها الفعل كما أسنده للذكر . وفي آية الزّواج في البقرة:٢٣٠ نسب لها فعل النكاح كالرجل عندما كان بمعنى الزّواج . فقال تعالى ﴿ . . حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ . . ﴾ .

٣- حدُّ قذف المحصنات في الآيتين (٤-٥) : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٤،٥) والاستثناء في الآية الخامسة هو لرفعِ صفة الفسق عنهم بعد التَّوبة .

٤- ملاعنةُ الزّوجين في حال شك أحد الزّوجين بزوجه ؛ وتأتي الآياتُ (٦-٩) لتحكم بين مثل ذَينك الزّوجين ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (النور:٦-٩)

٥- الآيات (١٠-٢٥) تسجل ما كان من المؤمنين في حديث الإفك عن عائشة وتعالج ما تبعه من صدع بين المؤمنين وأجمل ما فيه عندى الآية (١٢) التي

تؤكد أن المؤمن لا يزني ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (النور:١٢)

٦- الآية (٢٦) تذكر قانوناً إلهيًّا في التزاوج فييسر الله الطيبات للطيبين ويترك الخبيثات للخبيثين ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (النور:٢٦). والطيبون مبرأون من الوقوع في الفاحشة كبقية المؤمنين.

٧- الآيات (٢٧-٢٩) تفرضُ تعليماتٍ دخول منازل الآخرين وما يجوز منها وما لا يجوز ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾(النور:٢٧-٢٩)

٨- آداب الاختلاط بين الرجال والنساء :توجه الآيتان (٣٠-٣١) الرجل إلى ضرورة غض البصر إذا شعر بشهوةٍ ، وتوجهان نفس النصيحة للمرأة . وفيهما وصف ملابس المرأة أمام المحارم وأمام غير المحارم وتأمران بالحفاظ على العفة ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور:٣٠،٣١) .

وغير أولي الأربة الذين لا ينظرون بشهوة لامرأة بغض النظر عن السبب . ولم تذكر الآية العم والخال بين من يحقّ للمرأة الظهورُ أمامهم بملابس الزِّينة . وقد يقول قائل كلمة «آبائهن» تشمل العم . ولو سلمنا بهذا مع أنه غير جائزٍ في آيات الأحكام . فإن الخال لم يُذكر ولا فرق بين العم والخال من حيثُ درجةُ القرابة .

٩- خطة لتزويج الفقراء والعبيد والإماء : تضع الآيتان (٣٢-٣٣) خُطةً محكمةً لتزويج الفقراء والرقيق رجالاً ونساءً ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٣٢،٣٣) . فالأيامي يُزَوَّجون بتسهيل عقبات الزّواج أمامهم . والعبيد يُساعدون بإعطائهم فرصة التحرر بالمكاتبةِ حتى يدفعوا ثمنَ حريتِهم للذي أنفق عليهم من ماله ؛ وبالتبرع لهم بعد أن يثبتوا قدرتَهم على تحمّلِ مسؤولية الزّواج . وتبقى مشكلةُ الإماء اللواتي لا يستطعن المكاتبةَ في تلكم البيئة ؛ فتأمر الآيةُ بالتصدق عليهن بالحرية دون أن يقدمن شيئاً . ولكن أمرَ التصدق عليهن بالحريةِ مجاناً ليس إجباريًّا فمن يجبر أمتَه على البقاء أمةً له لا يأثم ، لأنها بالنسبة له تساوي المال الذي دفعه بشرائها . وهذا معنى ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٣٣) . فكلمة البغاء هنا تعني حياة الرق والعبودية وليس الزِّنا . وللأسف فإن جميع المفسرين فهموها بمعنى الزِّنا فأظهروا القرآن وكأنه يُبيحُ للرجل إكراهَ أمتِه على الزِّنا . وذلك جهلٌ منهم بمعاني كلمة بغاء . بل قام بعضهم بإفساد قواعد اللغة عندما ظنوا أن الله غفورٌ للأمة بعد إكراهها . وهو ما لا تجيزه قواعدُ اللغة فجوابُ الشرط يعود لاسم الشرط . وليس من المنطق أن نقول من يدرس تنجح أخته . نعم هكذا يكون الأمر لو قلنا إن الغفران للمُكرهة . ونعود لكلمة بغاءٍ بمعنى حياة الرق . يقول الخليل في العين : « البَغِيّ : الأمة » وكذلك قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة للزمخشري : « قامت البغايا على رءوسهم » قصدوا الإماء لخدمتهم . ويقال للإماء البغايا » .

وبذا تكون شبه الجملة الأخيرة منسجمةً بالمعنى مع بقية الآية التي وردت بها ولا تصنع تناقضاً ولا يخرج معناها على قواعد اللغة ولا على حدود الفطرة السليمة .

الآية (٣٤) تذكر بالآية الأولى وقريبة منها بالنص ﴿ **وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (النور:٣٤) . وبمعنى قريب تأتي الآية (٤٦) وهذا التكرار لنعلم أن هذه السُّورة بصائرُ ومعالمٌ هاديةٌ لعلاقات الناس كما يرضاها الله لهم .

وتتوقف الصياغة على طريقة المواد القانونية في الآيات (٣٥-٥٧) لتعرض أموراً أخرى ذاتَ علاقة بالطهر والعفة وما يتوقف عليهما من رزق ونصر ؛ وما يكون في حال عفو المجتمع عن انحرافات أفراده من ضيق رزقٍ وهوانٍ ومصائبَ فرديةٍ وجماعيةٍ . بل تضع أسياسياتِ العفة بأسلوبٍ يفهمه من يستحقّه كما في الآيات (٣٥-٣٨) . وفيما يلي محاولةٌ لفهم الآيات على ضوء عنوان السُّورة وموضوعها المحوري وهو العفة :

- الآيات (٣٥-٣٨) تبدأ بمَثَلٍ أربك المفسرين ؛ فالله يتحدث عن نفسه أنه نور السموات والأرض سبحانه . وإنه لنور ؛ فهو سبحانه يُجلِّي لنا حقائقَ الحياة وطرفاً من سننه في الخلق والقوانين التي وضعها لحياة البشر . وهذا هو مفعولُ النُّور ؛ يساعدنا في رؤية الأشياء المادية والمعنوية على حقيقتها . وتبين الآية (٣٥) مقومات العفةِ ولمن تكون وتتبعها الآية (٣٦) تذكر سنة الله في مباركةِ البيوتِ الطاهرةِ والذريةِ العفيفة . لتصف الآية (٣٧) خصائصَ أبناء البيوت الطاهرةِ العفيفة . وتأتي الآية (٣٨) لتذكر مكافأةَ الأطهار بالرزق الحسن في الدنيا وأن جزاءهم في الآخرةِ حسب أحسن ما عملوا في الدنيا . ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (النور:٣٥-٣٨)

- الآية (٣٩) تتحدث عن كفار ؛ وبما أنا في سورة العفة ، فالكفر هنا هو السقوط في الزِّنا واستمراؤه حتى ليطمس على بصيرة الواقع فيه . بينما الآية (٤٠) ترسم

صورةً أخرى تقابل صورة آية النُّور (٣٥) تماماً . فتبدأ بحرف العطف «أو» لنعلم أنها تتعلق بحالةٍ أخرى لنفس الفئةِ المقصودة بآيةٍ سابقة لها . ولتطلعنا على الحالة النفسية لمن يوغل في الفواحش ، حتى يغرق في ظلام دامس لا يبصر صاحبُه معه نوراً ولا يأنسُ بحقّ ولا عدل ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور:٣٩،٤٠) .

فهي هنا ظلماتٌ بعضها فوق بعض وفي الآية (٣٥) نورٌ على نور . فأي الحالين أولى بالاتباع؟ ومرةً أخرى تؤكد الآيةُ أن الله وحده يَهبُ النُّور لمن استحقّ من عباده . فمن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

- وتبريراً لما يقضي الله في الآيتين السابقتين تأتي الآيتان (٤١-٤٢) لتُذكِّرا النبيّ أن كلّ ما في الكون يعبد الله ولذلك خُلِق . ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (النور:٤١،٤٢)
- الآيات (٤٣-٤٥) تأتي بأدلة أخرى وآيات بيِّنات على حقّ الله بأن يُعبد وأن تُحترم حدودُه . فهو سبحانه من ينشئ السحاب وينزله مطراً حيث يشاء ، نعمةَ سُقْيا كان أو آية عذاب . وبأمره يتتابع الليل والنهار ، وخلق كلّ دابةٍ من ماء ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (النور:٤٣-٤٥) . والذي تشير إليه هذه الآيات أن أمر الكون والبشر كلّه بيده وأنه وحده سبحانه الذي ينزل الرزق على من يستحقّ بطاعته وعفته ويرسل العذاب على من يعصي ويرتكب الفواحش ويتعدى حدود الله .

- الزِّنا نتيجة تراكم ذنوب أصغر منه فهو عقاب أكثر منه ذنب . وهذا هو شعور مرتكبه دائماً . والآيات (٤٦-٥٣) تلقي ضوءاً على هذه الحالة . فتبدأ بآيةٍ مبيِّنة ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(النور:٤٦). وحسب تقاليد هذه السُّورة فالآيات البينات هي التي تحفظ الفرد والمجتمع من السقوط بتلك الفاحشة . فما هي التَّوصية هنا لتجنب السقوط؟ الآيات التالية تصف من لم يستحقّوا الصراط المستقيم بما انحرفوا واعتدوا على حدود الله . فتَعرضُ الآياتُ بعضَ خصائص مرضى القلوب بأنهم يحتالون لتجنب المواجهة مع النبيّ ومع حكم الله . بعكس المؤمنين الواضحين . فكأن غموضهم عَرَضٌ لانحرافهم ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (النور:٤٧-٥٣) .

- فرصةُ العودة إلى الله : تمنحُ الآية (٥٤) فرصةً لمن يستطيع التَّوبةَ والعودة إلى قيم الفطرة ممثلةً بطاعة الله ورسوله . ولنفهم معنى العودة هنا نذكر أن السُّورة مدنيةٌ فهي تخاطب أناساً في مجتمعٍ مسلمٍ فيه عُصاة . ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور:٥٤) .

- جائزة التكاثر : تؤكد الآية (٥٥) ما ورد في الآيات (٣٥-٣٧) التي تحدثت عن مباركة ذريات الأطهار من الرجال . ولكن الآية (٥٥) موجهة للمجتمع الذي يؤمن برسالة السُّورة ويحرص على تنظيف بيئته من الفاحشة فتعده بأن يباركه الله ويثبته في أرضه ويجعله يتكاثر وتخلفه أجياله جيلاً وراء جيلٍ ما داموا يحافظون على جو العفة . ومرةً أخرى تدلنا الآية بتعقيبها النهائي أن الإيمانَ المقصودَ هنا هو العفةُ موضوعُ السُّورة عندما تصفُ الكفرَ بأنه فسقٌ فقط ، فهو أمرٌ خُلقيٌّ

وليس كفراً عقديًّا ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور:٥٥)

- مثبتات العفة : هذا هو موضوع الآية (٥٦) فالحفاظ على أداء الصَّلاة والزَّكاة مما يعين الإنسان على الاحتفاظ بالعفة ويحفظه من السقوط كما تنصح الآية ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور:٥٦) . وتتلوها الآية (٥٧) لتؤكد أن من يكفر ويسقط لن ينجو من العقاب كما قد يظن المراقب المستعجل ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (النور:٥٧) .

- وبعد هذه التعقيباتِ والنصائح تعودُ السُّورة لتواصل سردَ بنودِ قانون العفة فنتابع من حيث توقفنا :

١٠- حرمةُ غرفة النوم : تحدد الآيتان (٥٨-٥٩) شروطَ دخولِ أفراد الأسرة الواحدة لغرفة نوم الوالدين أو المتزوِّجين من أفراد العائلة التي تسكن نفس البيت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:٥٨،٥٩)

١١- ملابس القواعد : القواعدُ المتقدمات بالعمر لهن التخفف من الملابس مقارنةً بالشابة وبالمرأةِ متوسطة العمر كما تبينها الآية (٦٠) ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٦٠)

١٢- تناول الطعام في بيوت الأقارب : تبيح الآية (٦١) لمن يعانون من حالةِ ضعفٍ في أجسادهم تناول الطعام في بيوت الآخرين على أن يلتزموا بشروط دخول منازل الآخرين حتى لو كانوا أقارب نسبٍ ﴿ **لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (النور:٦١)

١٣- الأدبُ في مخاطبة النبيّ هو موضوعُ الآيتين (٦٢-٦٣) فليس من الأدب أن يكون المؤمنُ في حضرةِ النبيّ بمهمةٍ ثم يغادر المكان دون استئذان من النبيّ . وليس من اللائق أن يخاطب المؤمنُ نبيَّه كما يخاطب مؤمناً آخر من درجته ، بل يجب إظهارُ الاحترام للنبيِّ ؛ وتُهدّدُ الآيةُ منْ يخالف أمرَ النبيّ أو يتسللُ من حضرته دون إذن ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (النور:٦٢،٦٣) . ولعلَّ التسلُلَ لِواذاً يشبه السقوط في الفاحشة ويساعد على اتخاذه عادة . وبالمقابل فإن إجلالَ النبيّ واحترامَه سرًّا وعلانيةً يزيد القلب إشراقاً فيثبتُ فيه حبُّ العفة .

وأظن أننا بهذا نجحنا في تفسير السُّورة على ضوء عنوانها «النُّور» بمعانيها التي تسمح بها اللغة . والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

سورة الفرقان

السُّورة الخامسة والعشرون وهي فرقانٌ في كلّ شيء : موضوعها وأسلوبها ومفرداتها . أما عن الموضوع فهو الفرقان الحازم الذي لا يُبقي مجالاً لغير الحقّ الصُّراح والقولِ الفصل في كلّ أمرٍ أوردَتْهُ . وأما أسلوبُها فهو استعمالُ الجملةِ متوسطةِ الطول الوافية المعنى ، فلا تتجاوز فكرتَها ولا تحتاج سواها . فمثلا تقول الآية (٥٣) : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان:٥٣) . ولم تكن مفرداتُها بعيدة عن جو اسمها ، فمرتين ورد فيها عبارة « حجر محجور » بكلّ ما فيها من تحديدٍ وفصلٍ وحزمٍ . ولا تكاد تخلو آيةٌ من قولٍ فصلٍ من مثل :

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾ (الفرقان:٢٦) ﴿ فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ (الفرقان:٣٦) ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ (الفرقان:٣٩) ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٢)

عنوان السُّورة وموضوعها :

الفرقانُ عنوانُها . ومادته « فرق » . يقول الرازي في المقاييس : « الفاء والراء والقاف أصل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين من ذلك الفرق ، فرق الشَّعْر ، والفرقان : كتاب الله تعالى فرق به بين الحقّ والباطل ، والفرقان الصبح سُمِّي بذلك لأنه يُفرقُ به بين الليل والنهار . . والفَرَق مكيال من المكاييل تفتح راؤه وتُسكن » .

فهو إذًا حدٌّ فاصلٌ بين أمرين أو وسيلةٌ لتمييز شيئين أحدِهما عن الآخر ، وهو مقياسٌ تقاس به الأشياءُ أو توزن ، فتشرقُ به المعرفةُ الدقيقةُ بدل غَبَش الوَهمِ ، وهو كالصبح يُجلِّي بنورِه الأشياءَ بعد أن يُبددَ ظلمةَ الليل .

الفرقان اسمها . ووردت كلمة الفرقان في آيتها الأولى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١) . وهي هنا بمعنى « القرآن » .

ولكن السُّورة دارت مع كلمة «فرقان» في معظم معانيها المذكورة في المعجم . فالفرقان هو القرآن ، والنبيّ فرقان ، بما يبين لقومه من الحقّ وسبيل الرشاد . ووضعت السُّورة فرقاناً بين حقيقة الرسول وبين وهم الناس عنه . وفرقاناً بين التصور الحقيقي لله وبين التصور الخرافي والشِّركي المسيطر على عقول القوم . كما تحدثتْ عن أكثر من فرقانٍ من معجزات الله في الطبيعة كفصلِ الماءِ العذبِ عن المالح وسطَ البحر بقانونٍ طَبيعيٍّ لا تراه العين وليس بحاجزٍ مرئيٍّ . فهي تأتي لإصلاح تصوراتِ الأمةِ بشأن الألوهية والنُبُوَّة والكون والحياة بعامة ، بالإضافة إلى تثبيت قلب النبيّ ومواساته بسبب ترهات المشركين . وهكذا تعرض السُّورة أكثرَ من فرقانٍ لكنها جميعاً تشكل وحدةً واحدةً وموضوعاً متماسكاً هو تمييزُ الحقّ عن الباطلِ بالقرآن وبالنبيّ .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تشكل الآيةُ الأولى الجملةَ القائدة أو المُوَجِّهة للسورة **﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾** (الفرقان:١) . فهي تخبر المخاطبين أنها ستقول شيئاً عن الله عز وجل بصفته الذي نزل الفرقان . ومن كلمة الفرقان نعلم أنها ستجلي حقيقة القرآن . وستقول قولاً فصلاً في أمر الأنبياء والمرسلين وليكون كلّ ذلك إنذاراً للمكذبين .

ثم تأتي الآياتُ الاثنتي عشرة (٢-١٣) لتُعمق عناصرَ الآية القائدة فتكون هي الأطروحة . وتَرِدُ بنفس ترتيب عناصر الآية الأولى : عرض صفات الله ونفي ما يقوله المشركون والضالون عنه فهو **﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾** (الفرقان:٢،٣) . وبذا تنفي عن الله الشريك والولد ، فهو سبحانه خالقُ كلّ شيءٍ ، وسواه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا .

وترد على افتراءات المشركين حول القرآن وأنه من وضع بشر أو أساطيرُ قديمةٌ . بل هو مُنزَّلٌ من الله وذلك في الآيات (٤-٦) **﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ**

﴿ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الفرقان:٤-٦)

ثم تنتقل إلى ما يقولون عن الرسول مُؤَجِّلَةً الرد عليهم ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴾ (الفرقان:٧-١٠)

وتُختتَم فقرةُ الأطروحة بإنذارهم بالساعة وويلاتِها وذلك في الآيات (١١-١٤) ويبدأ الإنذارُ من إنكارهم أمر الساعة وما يتبعها : ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴾ (الفرقان:١١-١٤) وأيُّ إنذارٍ أشدُّ من هذا؟

وتتمة للإنذار وفي محاولة لجذبهم تأتي الآيتان (١٥-١٦) ومن خلال النبيّ ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ۝١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴾ (الفرقان:١٥،١٦) .

الآلهة المزعومة : تعلن السُّورة بعد الأطروحة القولَ الفصلَ بالآلهةِ المزعومة ؛ فتعرضُ الآيات (١٧-١٩) موضوعَ الآلهة المزعومةِ بمشهدٍ حيٍّ من مشاهد يوم القيامة . ويدور حوار بين الله تعالى وبين الذين اتخذهم بعضُ البشر آلهةً وأرباباً . فينكرون أي علاقةٍ لهم بظنون من عبدوهم ؛ ويُسقَط في أيدي المشركين بعد أن تتخلى عنهم آلهتُهم : ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ۝١٨ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴾ (الفرقان:١٧-١٩) . وكان موضوعُ الشرك بالله أولَ موضوعٍ في فقرة الأطروحة بعد الآية الأولى . ولا فرقانَ لبيان أمر الآلهة المزعومة أوضحُ مما يكون ساعةَ الختام والحساب . فرقانٌ يستأصل الفكرةَ الخطأَ من أساسِها .

طبيعةُ رسل الله : بقول فصلٍ بشأن رسل الله إلى البشر تؤكد الآيةُ (٢٠) أن كلّ الرسل بشرٌ لا يختلفون عن بقيةِ البشر في الأمور الحيويَّة المتعلقة بخصائصِ الجسد كالأكل والشرب . وأنهم لا يمكن أن يكونوا ملائكةً كما طلب أهلُ مكّة . ولكن للملائكة دوراً آخرَ إذا شاء أهلُ مكّة أن ينتظروه وهو العذاب ؛ وهو ملاقيهم يومَ القيامة على كلّ حال . وتواصل الآياتُ وصف حالهم يوم القيامة عندما يروا الملائكةَ من يبقي منهم على كفره ولم يتخذ الرسولَ نبيًّا وإماماً ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً** ﴾ (الفرقان:٢٠-٢٩) . وتأتي هذه الآياتُ تفصيلاً لما ورد في فقرة الأطروحة عن الرسول . وإتماماً لموضوع الرسل . ومرةً أخرى يكون ربطُ موضوع الرسل بالآخرة فرقاناً جازماً حول طبيعة الرسل .

ومن زاوية نبيِّنا عليه السلام تواصل الآيتان (٣٠-٣١) شكوى الرسولِ من قومه إذ أعرضوا عن القرآن . ثم تذكر سُنةً من سنن الله في الرسل وهو أن يجعلَ لكلّ نبيٍّ عدوّاً كبيراً قويًّا من المجرمين ليقوي إيمان الرسول ، ويُثْبِتَ الرسولُ يقينَه وقدرتَه على مواجهةِ الصعاب : ﴿ **وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا** ﴾ (الفرقان:٣٠،٣١). وفي هذا فرقانٌ للنبيِّ ليعلم ما سنَّ اللهُ للأنبياء من بلاءٍ ووسائل إنضاجٍ وحمايةٍ في نفس الوقت فلا يحزن .

تنجيم القرآن : ردًّا على اعتراضاتهم بشأن القرآن تُعلِّلُ الآيةُ (٣٢) نزولَ القرآن منجماً فهو ليتثبت به فؤاد النبيّ وللرد على اعتراضاتهم التي تتولد مع الأيام ، ولو

أُنزِلَ مرةً واحدةً في بدايةِ الدعوة لما بقي فرصةٌ للرد على ما يَجِدُّ من افتراءاتهم . وتصف الآية (٣٤) مصير هؤلاء المعترضين على القرآن في جهنَّم بل بأقسى وضعٍ فيها : ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ (الفرقان:٣٢-٣٤) . ويأتي الردُّ حاسماً ومقنعاً لهم ، وهم يعرفون أنفسهم وقدرتهم المتجددةَ على اختراع الحجج وإبداع القضايا والمقولاتِ الذهنيةِ بغرض التعطيل . فهو هنا فرقانٌ من نورٍ يبددُ ما يصنعون من ظلمات فكريةٍ وحججٍ باطلةٍ قد تنطلي على عقولهم إلى حين .

مرسلون سابقون : بأسلوب موجز حازم تعرض الآيات (٣٥-٤٠) ما أصاب الأمم التي كذبت رُسُلَ الله . صانعةً فرقاناً واضحاً بمصير المكذبين . تبدأ الآيات بموسى وهرون إذ يُرسلان إلى فرعون ؛ وتنتهي المجاهدة بتدمير فرعون وجنده لِما تجرأ على رسولي الله وقومهما ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا** ﴾ (الفرقان:٣٥،٣٦)

ثم تعرض الآية (٣٧) مصير قوم نوحٍ علي عنادهم وتكذيبهم ﴿ **وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ (الفرقان:٣٧)

ويُجمع مصير عاد وثمود وأصحاب الرس وأقوامٍ بينهم معاً بآيتين قاطعتين فارقتين ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾ (الفرقان:٣٨،٣٩)

ثم تعرض الآية (٤٠) وبعيون أهل مكّة نهايةَ قومِ لوطٍ لمعرفتهم بها ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا** ﴾ (الفرقان:٤٠) وتصفُ الآيةُ كما نرى سرَّ كفرِ قريشٍ فهم لا يرجون نشوراً ولا يؤمنون بالبعث .

قريشٌ على ضوء مصائر الأمم المذكورة : الآيات (٤١-٤٤) موجهةٌ للنبيِّ بشأن ما يقوله عنه قومه ، وعن تمسكهم بآلهتهم الحجرية وتمسُّكِهم بأهوائهم ثم

تصفُهم بالجهل ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان: ٤١-٤٤)

نِعَمُ الله وهيمنتُه على الكون والخلق : يستمر الخطاب للنبيِّ في الآيات (٤٥-٦٢) ليُذكِّر قومه بنعم الله عليهم وعلى كلّ خلقه . فهو سبحانه خلق الشمس وقدَّر دورها في حياة البشر ، وجعل الليل والنهار ، ويُحرِّك الرياح ويُنزِّل المطر ليشرب الناسُ وأنعامُهم ؛ وبدون الماء لا تكون حياةٌ ومع هذا يكفر أناس . مما يُوجِب تذكير الذين يكفرون بالله أنهم يعيشون بفضله وبنعمه وحده سبحانه . ثم تذكر الآية (٥٣) ظاهرةً غريبةً لكنها صحيحةٌ ويعرفها المعنيون ، وهي وجودُ ينابيع ماءٍ عذبٍ وسط المحيط المالح ، ولا يختلطان بفضل قانونٍ كأنه فرقانٌ بينهما ، وصفته الآية بأنه حجرٌ محجورٌ أي فاصلٌ مخفيٌّ لا يُرى لأنه مجرد قانونٍ طبيعيٍّ . والله هو خالق الإنسان من لقاء ذكرٍ وأنثى فيأتي كلّ إنسانٍ من نسبٍ وصِهرٍ . وهذه لفتةٌ تستحقّ الإظهار هنا ؛ فماء المحيط يكون فرقانُه بقانونٍ طبيعيٍ من صنع الله . والماء الذي يُخلق منه الإنسانُ يأتي من نسبٍ وصهرٍ بقوانينَ خلقها الله . فهي حالةٌ مقابلةٌ لفرقان المائين العذب والمالح . فالنسبُ والصهرُ يتحدان ليصنعا الإنسان الجديد . ويبقى كلّ جينٍ محتفظاً بكينونته معروفاً مصدرُه سواءً أتى عن طريق الأب نسباً أم من عن طريق الأم صهراً . ويعملان معاً في صنع أعضاء جسد الإنسان الناشئ عنهما وسلوكه . ولكن يمكن إعادةُ انفصالهما وتوريثُ أحدِهما منفصلاً عن الآخر . فاتحادهما في جسد إنسانٍ واحدٍ لا يعني ذوبانهما معا ليصيرا كينونةً واحدةً جديدةً ، مع أن صفة متوسطة بينهما قد تظهر في جسد الابن المتولد عنهما . تُرى هل تخطر هذه الفكرة ببال بشرٍ ليضعها في سورةٍ اسمها الفرقان؟ ولم تكن هذه الظاهرة معروفةً قبل تقدم علم الوراثة الحديث الذي نشأ في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي . وتستمر الآيات بين ذِكْرِ نِعَمِ الله عليهم واستجابتهم الخاطئة بعبادة غير الله . وبين توجيه النبيّ لكيفية التعامل معهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧىَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِى كُلِّ قَرۡيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخًا وَحِجۡرًا مَّحۡجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان:٤٥-٦٢)

ومع كلّ هذه النعم والآيات المعجزة إلا أن أهل مكّة كانوا بجهلهم يعبدون سواه . بل يقفون في صف إبليس ضد الله ربّهم . رغم هذا الفرقان الواضح بين الله الحقّ وبين شركائهم الذين لا يقدرون على شيء .

فرقانٌ لصفات المؤمنين : تختتم السُّورة برسم صورةٍ جوانيةٍ وسلوكيةٍ لعباد الله الذين استجابوا لدعوة النبيّ . وبهذه الأوصاف يُقطع الشكُّ باليقين ؛ فمن يمتلك هذه الصفات هو المؤمن المقبول عند الله . فعباد الرحمن أهل سلامٍ متواضعون يمشون على الأرض هوناً ، ويعبدون الله سرًّا مثلما يعبدونه علناً سواءً بسواءٍ . ويخافون عذاب جهنم صدقاً لأنهم مصدقون بالبعث ؛ وهم قومٌ معتدلون في سلوكهم فلا إسرافَ ولا تطرفَ ، ويجتنبون الفواحش الثّلاث الأشدَّ نُكراً وهي الشركُ بالله وقتلُ النفس التي حرم الله والزّنا ، ولا يشهدون الزُّور لحرصهم على الحقّ دون قيودٍ من التعصب والهوى ، وهم رجال بيتٍ وعائلةٍ يحرصون على أزواجهم وأبنائهم ويحافظون على قيم الأسرة . أولئك هم أهلُ المنزلة الرفيعة في الجنة . وتشكل هذه

الآيات إطاراً يحتضن داخله المؤمنين ، وفرقاناً يُميزُ المؤمنَ من سواه . ﴿ **وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ (الفرقان:٦٣-٧٦) . ولم تنس الآياتُ عند ذكر الفواحش الثّلاث الأسوأ أن تذكر عقوبة من يقع بها إلا من يتوب .

وأخيراً توجيهٌ للنبيِّ لمخاطبة قومه : ﴿ **قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا** ﴾ (الفرقان:٧٧) . وهكذا استحقّت السُّورة اسمها وهي تُزَيِّل المواضيع التي وصفتها وتجعل لها حدوداً واضحةً تُميِّزها عن غيرها فلا يختلط بها سواها . فبينت زيف الآلهةِ المزعومة ووضعتها في حدودها الطبيعيِّة الصحيحة . وبينت صدقَ القرآن وصدق مصدره وأنه ليس من صنع بشرٍ ولا هو أساطير الأولين بل كلام الله المُحكَم ؛ وبينت سنة الله في إرسال الرسل من البشر العاديين . فكلّهم كالنبيّ يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . وأخيراً وصفت عبادَ الرحمن الصادقين وصفاً يبين خصائصهم التي لا يقدر عليها سواهم . والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

سورة الشعراء

الشعراء هي السُّورة السادسة والعشرون من القرآن . وتتضمن توجيها مبكراً للنبيِّ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء ٢١٤-٢١٦) . ولعل هذا كان في العام الثَّالثَّ من البعثة وبها بدأت مرحلةُ الجهر بالدعوة . وموضوعُ السُّورة هو الشعراء أي فطناءُ المجتمع وطليعتُه . فما علاقة هؤلاء القوم بالنبيّ وبالمؤمنين؟ وما هي رسالة السُّورة لهم ؟

بهذه السُّورة يُؤمر الرسولُ أن يجهر بالدعوة بادئاً بعشيرته . وقد صدعَ بأمر الله ونادى بالقوم من آل هاشمٍ ومن كلّ بيوت قريش ، وأعلن أنه رسول الله إليهم . فكان ردُّ فعلهم قاسياً وكان رفضُهم شديداً . وبعد أول نداءٍ انفض الناس دون أن يسمع النبيّ منهم قبولاً ، إلا كلمة سيئةً من عمِّه أبي لهب . فكان من الطبيعيِّ أن يشعر بخِذلان قومه له . وأن تشعر القلةُ المؤمنة معه بالحزن وبالخوف من قومها أيضاً . فتنزلت هذه السُّورة لتقول للنبيِّ لا تيأس ؛ وتقول للمؤمنين معه اصبروا وتأسَّوا بسَحرةِ فرعون إذ آمنوا بموسى . ولكم مثلٌ آخر بالقلةِ الواعية التي آمنت مع نوحٍ فنجت من الغرق دون البقية التي ثبتت على كفرها . أنتم أيها المؤمنون طليعةُ قومكم مع نبيِّكم .

فالشعراءُ موضوع السُّورة هم قادةُ الفكر والطليعةُ الواعية للمجتمع . يفطنون لما لا يفطن له غيرهم ؛ أو قبل أن تَفطنَ له العامة من الناس . وبالتالي فهم يؤَثِّرون بقومهم سلباً أو إيجاباً . وتضمنت السُّورة نماذج من الفئتين . الأولى فرعون وملؤه والشعراء غير المؤمنين كقادة يقودون من يتبعهم إلى الضلال وهم الأشد عداءً للرسول وللمؤمنين معه . . ومن الفئة الثَّانية المؤمنة ذكرت السُّورة إبراهيمَ قبل أن يُوحى إليه وأتباعَ نوحٍ وسحرةَ فرعون ، وكلّ فئةٍ طليعيةٍ تتبع رسل الله . فالشعراء كعنوان للسورة يأتي بالمعنى اللغويِّ الأصليِّ وليس الاصطلاحيِّ فقط . وكانت هذه السُّورةً أنفعُ وأفضلُ ما يمكن أن يُنعم الله به على رسوله والمؤمنين في تلك الفترة .

وهي توجه النبيّ إلى حيث يجد من يستجيب لدعوته ، إلى الطليعةِ المثقفةِ التي تمتلك ضميراً حيًّا وخُلُقاً كريماً .

وهي في مكانها من المصحف بعد المؤمنون والنُّور والفرقان . فهي وإن خاطبت النبيّ إلا أنه كان فيها نصيبٌ للطليعة المؤمنة تدعوهم إلى الصَّبر على العذاب والتأسي بأتباع نوحٍ وسحرة فرعون بعد إيمانهم . وتخبرهم ضمناً أنهم طليعةُ قومهم المنتصرةُ لا محالة . وأنهم كطليعةٍ واعيةٍ مثقفةٍ عليهم واجبٌ تجاه النبيّ وتجاه مجتمعهم . وكلّ مثقفٍ واعٍ لا يقوم بواجبه تجاه المجتمع يكون من شرار الناس وهو من الغاوين كشعراء السوء .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الشعراء هو اسمها . ولكي نفهم المقصود بها نُلزِم أنفسنا باعتبارين : المعنى اللغوي لكلمة شعراء ، ودور الشعراء في مجتمعهم لنعرف المقصود تماماً بالعنوان .

الشعراء مادتها اللغوية المجردة « شعر » وعنها يقول الرازي في مقاييس اللغة : « الشين والعين والراء أصلان معروفان ، يدل أحدهما على نبات ، والآخر على عِلْمٍ وعَلَم . ويهمنا منهما الثَّاني فنتابع ما قال عنه الرازي في بقية شرحه للكلمة : « الباب الآخر الشِّعار الذي يتنادى به القوم في الحرب ليعرف بعضهم بعضاً . والأصل قولهم شعرتُ بالشيء إذا علمته وفطنت له ، وليت شعري : أي ليتني علمت . . . وسمي الشاعر لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره ، قالوا والدليل على ذلك قول عنترة :

هل غادرَ الشُّعراءُ مِن مُتَرَدَّمٍ أم هل عَرفتَ الدارَ بَعدَ تَوَهُم

يقول إن الشعراء لم يغادروا شيئا إلا فطنوا له . ومشاعر الحجّ موضع المناسك سميت بذلك لأنها معالم الحجّ» وعلى هذا يكون الشعراء طليعة المجتمع الثَّقافية وأعلامه البارزة .

الشعراء هم الطليعة المؤثِّرة والموجِّهة لشعبها . ومنها الصادق الذي يفعل فعل الأنبياء في قومه إن لم يعايش رسولاً كزهير بن أبي سلمى . أو يتبع الأنبياء ويدعم دعوتهم بموهبته كحسان بن ثابت . ومنهم من يتبع هواه ويستعذب الكذب فيكون كما وصف القرآن غالبيتهم بأنهم في كلّ وادٍ يهيمون .

فهي سورةُ تَدافُعِ فطناءِ المجتمع عند الخط الفاصل بين الإيمان وبين الكفر .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

عنوان السُّورة يوحي أنها ستتحدث عن مُوجِّهي العقول . وبما أنها بدأت ذكر الشعراء بأسوأ ما فيهم فإنها ستقدم رسالتها من خلال فئتين : القادةُ الفكريون الذين يتلاعبون بعقول قومهم كفرعون وملئه وصناديدِ الكفر في الأمم التي جاءها رسل الله ، والشعراءِ غير المؤمنين ومن شابههم . والفئة الثَّانية : هم من استثنت السُّورة من الشعراء الأمناء المؤمنين الذين ينصحون قومهم وهم يُدلُون بحججهم ويحاولون إقناع أقوامهم ؛ ومنهم سحرةُ فرعون بعد أن آمنوا بالله وبرسوله موسى . وتتحرك السُّورة على هذين الخطين .

أطروحة السُّورة : أما الآية الأولى فلعلها أمرٌ يحتفظ الله به ليجدد به هذه الأمة ﴿ طسٓمٓ ﴾ . وأما أطروحة السُّورة فهي ﴿ **تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (الشعراء:٢-٩)

فهذه الآياتُ تتنزل لتستأصل مشاعر الحزن من قلب النبيّ ؛ عندما يعلم أن الله معه يرى ويسمع . وأن أمر قومه بيد الله تعالى.وأنهم تحت السيطرة والرقابة الإلهية. فإن تجاوزوا الحدودَ فسيلقون ما يستحقّون . ولكن الله العزيز الرحيم لا يريد أخذهم بضربةٍ قاضيةٍ بل يطيل أمد تنزيل الكتاب لهم ليستخلص خيارَهم منهم . ثم يعاملَ البقية العنيدةَ بما تستحقّ . فهو سبحانه يعطي الفرصةَ لفطناء المجتمع وخيرته ليلتفوا حول النبيّ .

مثلٌ من جهاد موسى مع فرعون : بنفس الأسلوب الذي ظهر في سورة طه ، يأتي العزاء للنبيِّ بمثلٍ من صراع موسى وفرعون . وهو مثل يناسب سورة الشعراء . فنرى موسى وفرعونَ كلاًّ منهما يَعرضُ أفضلَ ما لديه ويستعمل أقوى أدواته لينتصر على قبيله ويُقنعَ جماهيره . فموسى في البدء يخشى أن لا تساعده أدواتُه اللازمة للمعركة الفكرية القادمةِ لعيبين يراهما في نفسه : عقدةٍ في لسانه وذنبه القديم إذ قتل مصريًّا وهرب . ولكن الله يثبته بأنه سيكون معه يسمع ويرى ولن

يُمكِّنَ أعداءه منه . وذلك على مدى ثماني آياتٍ كريمة هي ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء: ١٠-١٧)

ويحددُ اللهُ لموسى وهرون وظيفتَهما وهي إخراجُ بني إسرائيل من مصر وليس دعوةَ المصريين لدينٍ إلا توحيد الله . ثم تأتي الآية التالية (١٨) برد فرعون على موسى . لم يجبه مباشرة . بل على طريقة القادة في التلاعب بعقول شعوبهم ومستمعيهم ، فبدأ بتذكير موسى بفضله عليه ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (الشعراء:١٨) . ويستمر فرعون بهجومه الذي يقصد منه هزيمة موسى نفسيًّا ، وهو يذكره بأنه صغير مقابل فرعون الذي ربّاه وأن له ذنباً كبيراً وموقفاً ليس مشرفاً . ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الشعراء:١٩) . فيرد عليه موسى بلباقة الداعية موظفاً الأمر لصالح وضعه الجديد كداعيةٍ لدين الله ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء:٢٠-٢٢) وبذا يرد موسى على فرعون بقوة ويضعه في موقف الحرج .

وبخبرة المحنك يهرب فرعون من موضوع استعباد بني إسرائيل ليجادل في القضية الأصلية وهي عبادة الله واتخاذه ربّا ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء:٢٣) فيجيبه موسى معظماً ربّه ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (الشعراء:٢٤) ويفهم فرعون مقصد موسى ويشتاط غضباً ؛ ويتجه بالحديث لمن حوله مستنكراً ومذكراً مَلأه بما يجب عليهم في مواجهة موسى ودعوته ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (الشعراء:٢٥)

ويعلم موسى أنه أصاب مقتلاً بما قال ، فيكثر منه ويؤكد على ربوبية الله بلهجة أعلى ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء:٢٦) . فهو ربّكم أنتم وربّ آبائكم بما فيكم فرعون المتأله ! ويصل الغضب عند فرعون أعلاه ولا يجد طريقاً ليحاجّ بها موسى سوى اتهامه بالجنون . ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء:٢٧) .

ويواصل موسى التعريف بربّه ويرد تهمة الجنون على فرعون وملأه ، ولكن بطريقةٍ غير مباشرة كي يبقى الحِجاج فكريًّا مع فرعون ، ولا يتجاوزه إلى البطش بموسى وهرون . ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء:٢٨) . وكان هذا كافياً لإثارة فرعون وتهديده لموسى بالسجن ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ . فيعود موسى إلى أدواته التي زوده الله بها ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:٣٠) . فيقبل فرعون التحدي ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (الشعراء:٣١) . ويستجيب موسى ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ (الشعراء:٣٢،٣٣) .

ولكن ما كان فرعون ليؤمن ، فاستحضر فكرة السحر المشابهة لما قام به موسى مخاطباً بذلك ملأه ليشاركوه قناعته ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٣٤-٣٧) .

وينتهي الحوار هنا مُظهراً فارسين فطنين كلاهما قادرٌ على مواجهة خصمه ومحاجّته . ليبدأ حوار موسى مع فريق آخر يستحقّ أعضاؤه اسم شعراء فطنين هم سحرة فرعون :

اجتمع الناس لمشاهدةِ العرض ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (الشعراء:٣٨-٤٢) .

وجاءت ساعة الصفر وبدأ العرض ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (الشعراء:٤٣-٤٥) .

فجاءت النتيجة على غير ما تمنى فرعون ؛ وانبهر السحرة بما فعل موسى ؛ فما هو بسحر بل معجزةٌ تلوي أعناق أصحاب الضمائر . فاعترف السحرة بمعجزة موسى وآمنوا به ، فاشتاط فرعون غضباً . فإيمان السحرة يعني أن وراء موسى إلهاً هو ربّ السموات والأرض وربّ الخلق فماذا يبقى للملك المتأله؟ ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ

سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الشعراء:٤٦-٤٩) وهكذا يلجأ فرعون إلى فكرة المؤامرة التي يلجأ إليها كلّ حاكمٍ يواجه مثل ما واجه فرعون . ونسي أنه من أمر بإحضار السحرة ووعدهم بمكانةٍ عليةٍ عنده إن هزموا موسى!

وثبت السحرة على إيمانهم بإخلاصٍ يعزُّ نظيره مما أضعف موقف فرعون ومهد للخطوة التالية ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٥٠،٥١) . فكانوا طليعةً ثقافيةً ملتزمةً مثاليةً . وكانوا الفئة المؤمنة من شعراء قومهم .

ويقفز النص إلى النتيجة متجاوزاً عشرات السنين التي لا يخدم سردها فكرة سورة الشعراء . لتواصل السُّورة ذكر الأحداث التي تدعم فكرة السُّورة الهادفة رئيسيًّا لتطييب خاطر النبيّ والمؤمنين معه ، وطمأنته على مستقبل دينه وعلى أصحابه . فليكن لهم عظةٌ بتعهد الله لموسى وقومه ، وإخراجهم بمعجزةٍ من مصر ، دون أن يتمكن فرعون من قتلهم ، مع أنه عمل كلّ ما يستطيع في تجييش المصريين ضد موسى وقومه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ (الشعراء:٥٢-٥٦) .

آيات معترضات : في وسط الحديث عن ملاحقة فرعون والمصريين لموسى وبني إسرائيل نجد ثلاث آيات تصف حدثاً آخر . وهن قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء:٥٧-٥٩) . والضمير في هذه الآيات يعود إلى فرعون والمصريين . وقد تاه المفسرون في تفسير هذه الآيات . وظنوا أن بني إسرائيل عادوا وحكموا مصر وهو أمر بعيد ولم يحدث . ووردت إشارةٌ أخرى إلى نفس الموضوع في سورة الدخان حيث يقول تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (الدخان:٢٥-٢٨) . فهي تشير إلى نفس الموضوع ولكن تجعل الوارث قوماً آخرين بينما تقول سورة الشعراء إن الوراث هم بنو إسرائيل . ووجود الآيات في وسط الحديث عن ملاحقة

المصريين للإسرائيليين ليس له مبرر سوى التتابع الزَّمني . فالمتحدث هو الله تعالى وقوله سبحانه لا يكون جزافاً . وهناك علامةٌ أخرى تنفع في فهم الآيات المعترضة وهو وصف الأرض التي أُخرج منها المصريون بأنها ذات جنات وعيون . وهذا لا ينطبق على مصر . فليس في مصر عيون ، بل نيل يمر من أرض مصر وينبع خارجها وعلى بعد آلاف الأميال . فالعين هي منبع الماء ومجراه المعروف الذي لا يشبه النهر . وهذا ينطبق على فلسطين التي كانت تحت حكم المصريين . ويبدو أن انشغال المصريين بالحشد لملاحقة بني إسرائيل مهد لقومٍ آخرين طردَ المصريين من فلسطين . فورثوا حكمها . ليورثها الله لاحقاً لبني إسرائيل . وبهذا يكون ورود هذه الآيات (٥٧-٥٩) في مكانها الأنسب من سورة الشعراء . والحادث الموصوف بها يتفق مع إحاطة الله بخلقه . فجزءٌ مما يقع تحت ولاية فرعون يؤخذ منه تمهيداً ليكون مكان إقامةٍ لبني إسرائيل الذين تعرضوا لكثيرٍ من ظلم فرعون .

المعجزة الكبرى : يستمر سرد قصة الصراع بين الفئتين موجَّهاً للنبيِّ لتكون النتيجة بلسماً لقلبه عندما تصل الأحداث قمتها ويتراءى الفئتان ويتدخل الله مباشرةً بمعجزةٍ لم يعرف التاريخ البشري مثيلاً لها . فالله لا يترك رسله تحت رحمة الظالمين وهو العزيز القدير ﴿ **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ** ﴾

(الشعراء: ٦٠-٦٦)

وتُظهِر الآيات خوف بني إسرائيل وهم يقولون « إنا لمدركون » .

تعقيب : ثم يأتي التعقيب على قصة موسى وفرعون مخبراً النبيّ أن هذه الآية رغم قوة وضوحها ، وعلم الناس بها لن تجعل قومه من قريش يؤمنون ، إلا قليلٌ ، منهم فلا يحزن ؛ فليس بملام على كفرهم ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (الشعراء:٦٧،٦٨) . ولكن الله يريد تمييز القليل الذين يؤمنون .

مثل من جهاد إبراهيم مع قومه : تسجل الآيات (٦٩-١٠٢) قصة إبراهيم مع قومه . وإبراهيم لم يكن رسولاً إلى قومه . بل كان شابًّا مؤمناً متحمساً لإيمانه .

لذلك لم تذكر الآيات انتصاره على قومه ، كما هي سنة الله في نصر رسله على أقوامهم ؛ التي يُرسلون إليها . ولكن الهدف في سورة الشعراء إظهار استعمال إبراهيم لقدراته العقلية في الاهتداء إلى توحيد الله ولإثبات وجهة نظره في مواجهة قومه الذين فقدوا الحجّة في الدفاع عن أصنامهم . ولأن إبراهيم لم يكن حينها نبيًّا فإن القصة لم تنته في الحياة الدنيا بنصر حاسم لإبراهيم ؛ بل استعانت الآيات بمشاهد من الآخرة لنرى قوم إبراهيم يندمون على اختيارهم آلهةً غير الله . وقد أجاد إبراهيم في تقديم حجّته ضد عبادة الأصنام . فكان مثلاً للشعراء المؤمنين ﴿ **وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ** ﴾ (الشعراء:٦٩-٨٩) .

وبذا ينتهي الجزء الدنيوي من صراع إبراهيم مع قومه لتنتقل الآيات برشاقةٍ من دعاء إبراهيم إلى الجنة تُقَرَّب له وللمؤمنين . وتُبرَز جهنم للغاوين (٩٠-١٠٢) .

هدف الموعظة : كما بدأت قصة إبراهيم موجهةً إلى النبيّ ليُذَكِّرَ قومه تختتم بالآيتين (١٠٣-١٠٤) الموجهتين للنبيِّ وهما بتكرارهما بعد كلّ قصة كفاحٍ ضد الكفر تشبهان اللازمة الشعرية التي تختم كلّ فقرةٍ في النشيد . والآيتان موجهتان للنبيِّ ، تؤكد الأولى منهما أن أكثر قومه لن يؤمنوا رغم الآية الواضحة . ثم تأتي الآية الثَّانية لتؤكد قدرة الله على معاقبة المشركين ورحمته بالمؤمنين . ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (الشعراء ١٠٣،١٠٤) . فالقلة الواعية التقية فقط هي التي ستؤمن .

وآيةٌ من نوحٍ وقومه : تسجل الآيات (١٠٥-١٢٠) ما كان بين نوحٍ وقومه . وتقتبس بعض ما قال نوحٌ لقومه . قال لهم ما يؤكد أنه رسول الله إليهم ، ويسعى

لمصلحتهم ولا يعمل لنفسه ؛ فلا يريد أجراً منهم مقابل دعوته لهم . فهددوه بالرجم بعد أن عيروه بأتباعه لأنهم ليسوا من علية القوم . ثم تنتهي المواجهة بين الفئتين بالطوفان المعروف الذي أغرق الرافضين لدعوة نوحٍ ؛ ونجا نوحٌ ومن معه من المؤمنين . فهذه آيةٌ أخرى لأهل مكّة لكن أكثرهم لن يؤمنوا بها . وتلقي ضوءاً على طبيعة القلة المؤمنة فهم عند العصاة من أراذل الشعب : ﴿ **قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ (الشعراء:١١٢-١١٤) .

كان هذا درساً واعظاً للنبيِّ كي لا يحزن ولا تذهب نفسه على قومه حسرات ؛ فهذه خصائصُ الشعوب المخاطبة . وكما كان لنوحٍ أتباع من قومه أدركوا الحقّ واستشعروه سيكون لمحمدٍ كذلك فئةٌ من قومه تؤمن به وبدعوته . وتنتهي فقرة نوحٍ بنفس اللازمة .

ثم تعرض السُّورة بالآيات (١٢٣-١٩٠) مواجهة أربعة أنبياء لأقوامهم ؛ وهم هود وصالح ولوط وشعيب . وكان في كلّ حالة آيةٌ لقريش . ولكن ما كان أكثرهم بمؤمنين .

وتوجيه للنبي : ثم يكون الحديث خالصاً ومباشراً للنبي عن قومه : يبدأ بالتأكيد له أن هذا القرآن تنزيل من ربّ العالمين ، نزل به جبريل على قلبه لِيُنذِر قومَه بلسان عربيٍّ . وهو مذكورٌ سابقاً في كتب بني إسرائيل وهذا دليلٌ آخر على صدقه . وبذا يحرص على تثبيت قلب النبيّ ليكون موقناً بصدق نبوَّته وأنه رسولُ ربّ العالمين . وهذا في حد ذاته دليلٌ على صدقه ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ** ﴾(الشعراء:١٩٢-١٩٧)

وتواصل السُّورة الحديثَ عن فضل الله علي العرب ، وهو يُنزِّل عليهم هذا القرآن بلغتهم كما تقول الآيات (١٩٨-٢٠٣) .

وبعد أن أَطْلَعَ النبيّ على مشهد قومه فيما لو جاءهم العذاب ؛ يسأله إن كانوا ما زالوا يستعجلون العذاب . ويخبره أنه سبحانه معطيهم فرصة سنين يتمتعون بها (٢٠٤-٢٠٩)

ثم يَرُدُّ على أقاويلهم التي اخترعها لهم فصحاؤهم ، فقد قالوا إن القرآن أوحته الشياطين للنبيِّ كما يوحى الشعر للشعراء حسب الشائع بينهم في الجاهلية . إذ كان يشاع أن لكلّ شاعرٍ شيطاناً يُلَقِّنه الشعر . ولكن الشياطين محرومون من سماع القرآن ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾

(الشعراء: ٢١٠-٢١٣)

ثم يصدر الأمر الحاسم والمَعْلَمةُ البارزة في حياة الدعوة الإسلامية . ومعه تعليماتٌ للنبيِّ بالتَّواضع لمن يؤمن ، والتبرؤ ممن يعصي ، واعتبار رقابة الله وعونه له . ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الشعراء: ٢١٤-٢٢٠)

ومع بدء الدعوة سيتعرض الداعية والدعوة للفطناء من المعارضين فيجدون ما يقولونه عن النبيّ وعن رسالته . وفي الثَّقافة العربيَّة يومها أن الجنَّ يوحون بأجمل الكلام لمن يختارون من الشعراء . وللردِّ عليهم يوجه الله النبيّ بأن يقول لهم إن الشياطين لا تتنزل على الأنبياء ، بل على كذابين آثمين . فالجنُّ لا يسمح لهم بالاقتراب من القرآن وإن كان بعضهم يلقون السمع إلى السماء لعلهم يعلمون شيئاً ؛ فيخترعون كذباً على من يلوذ بهم من البشر ، وليس قرآنا يهدي الناس . ومثلهم الشعراء وهم الطبقة المثقفة . فغير المؤمنين منهم يقولون كذباً ويخترعون قصصاً لم تحدث ، ويتحدثون فيما لا يعلمون ؛ ويليق بمن هذا طبعه أن يُعادي النبيّ ويطعنَ في القرآن . ومثلهم موجودٌ في كلّ أمة . ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٦)

ويستثني من المجتمع وقواه المُعَطِّلة ، المؤمنين من المثقفين الذين يعملون الصالحات ويجاهدون في سبيل الله . وتنتهي السُّورة بتهديد الظالمين من الشعراء والمثقفين إذا استمروا بظلمهم للنبيِّ وللمؤمنين . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء ٢٢٧) .

فالشعراء هم القوى المؤثرة في الرأي العام سواءً أكانوا مع الله أو مع الشيطان . ولكلّ حسابه المكافئ لموقفه ! إلا سحرة فرعون فقد اختاروا جانب الله بعد أن أوشكوا أن يهلكوا مع فرعون ! فكانوا من الناجين .

وبذا طمأنت السُّورة النبيّ أن الطليعة الواعية من الأمة ستنضم إليه . ووجهته لطريقة التعامل مع تلك الطليعة . وضربت له مثلاً من طلائع استشعرت الحقّ وآمنت به وانتصرت له . وردت على ترهات القوم إذ زعموا أن النبيّ شاعرٌ وأن الجن تُعلمه أو تأتيه بالقرآن . فالقرآن أطهر من أن تمسه الجنُّ . والجنُّ إنما تتنزل على الأفاكين والكذابين . وواصلت الفصل في قضية الشعر .

* * *

سورة النَّمل

السُّورة السابعة والعشرون حسب ترتيب المصحف. يُظن أنها نزلت بعد الشعراء. وبذا يمكن القول إنها كانت قبيل منتصف المرحلة المكية. ومع أنها تأتي بشرى للمؤمنين فإن الخطاب المباشر فيها للنبيِّ. فبعد أن ذكَّرته سورة الشعراء بدور فطناء الأمة في توجيهها؛ تأتي سورة النَّمل لتفتح له باباً آخر من الهدى والمعرفة، وهي تدور حول خيط دقيق، هو سنة الله في تحريك الشعوب الساكنة على قيم المتعة، المستكينة للظلم والفساد والمفسدين، لتنفض عنها ركام الجهل، فتموج بالحركة حتى تصل قمة الرقي في إدارة شئونها إذا استجابت لله، أو تهلك بضربةٍ إلهيةٍ مدمرةٍ إن عصت رسولها. ولم تنس السُّورة الإشارةَ إلى مرحلة ما بعد النمو والرقي بالآية (٧٦) ﴿ **إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ (النمل:٧٦). وكعادة القرآن أحاطت السُّورة بموضوعها من كلّ أطرافه وبما لا يخطر على بال بشر.

عنوان السُّورة وموضوعها :

اسمها النَّمل. ووردت كلمة النَّمل في الآية (١٨) ٣مرات ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ (النمل:١٨). والنَّمل المذكور هنا هو تلك الحشرة المعروفة بالانضباط وحسن التدبير. وكان لموضوع السُّورة نصيبٌ من هذه الصفة. لكن النَّمل كعنوان للسورة كان أعمقَ من هذا المعنى الظاهر. ولا يدلُّنا عليه إلا معرفة معاني الكلمة في معاجم اللغة واستعمالاتها على ألسنة العرب ثم مقارنة أجوائها بأجواء السُّورة. لنعرف سرَّ السُّورة العظيمة.

سجل الخليل بن أحمد في كتاب العين تحت مادة نمل: «رجل نَمَّال: نمام، والنَّملة النميمة؛ وهو نَمِلُ الأصابع: لا يكاد يكف بأصابعه عن العبث، وكذا إذا كان خفيف الأصابع في العمل. وكذا الفرس الذي لا يكاد يستقر. ونَمِلَت قوائمه نملاً. والنَّملة قروح تخرج في الجنب».

ويقول ابن فارس الرازي في مقاييس اللغة : « النون والميم واللام تدل على تجمع في شيء وصغر وخفة . . . وفرس نَمِلُ القوائم خفيفها كأنها شُبِّهت بالنِّمل . . والنُّملة قرحة في الجنب كأنها سميت بها لتفشيها وانتشارها . »

ونقرأ في أساس البلاغة للزمخشري من استعمالات الكلمة « هو أضبط من نملة ، ويقال للفرس النشيط الذي لا يستقر مرحاً : إنه لنمل القوائم . وتنمل القوم : تحركوا وتموجوا قال الأخطل :

تَـدِبُّ دبيباً في العظـامِ كأنـه دبيبُ نِمالٍ في نقاً يتهيلُ»

انتهى الاقتباس عن الزَّمخشري . وبيت الأخطل يصف انتشار مفعول الشراب المُسكر في جسم شاربه .

ومما قاله هؤلاء الأعلام الثَّلاثة نخرج بأن من أجواء كلمة نمل : جرح أو خدش لجسم سليم فيتفشى مفعوله فيه . وفيها الحركة الخفيفة الخفية في القدم الخدرى دليلاً على بداية نشاطٍ وعودةٍ لوضعها الحيوي الطبيعي . وفيها خفة الحركة ذات المصدر الداخلي فيكون فيها مكان لمقولتهم تنمل القوم بمعنى تحركوا وتموجوا ، دون أن نهمل نميمة (الهدهد) ، وخفة الحركة وسرعتها .

ونستنتج أن كلمة النَّمل كاسمٍ للسورة هي مصدرٌ من نمل وتعني تحريك خفيف سريع في جسمٍ ساكنٍ أو خَدِرٍ . وبذا فموضوع السُّورة يدور حول منهج الله في تحريك الشعوب الساكنة على المتعة وعلى استهلاك طاقاتها في اجتناء اللذة ، الغافلةِ عن مستلزمات الحياة الكريمة ، بهدف تحويلها إلى مجتمعاتٍ حيةٍ ناميةٍ متطورةٍ . واستعملت السُّورة بقية معاني كلمة النَّمل كالنميمة والانضباط وسرعة الحركة عندما تلزم لتحقيق المجتمع الحي النامي على أسسٍ سليمةٍ انطلاقاً من حالة السكون التي يكون عليها .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تتكون الأطروحة من الآيات الست الأولى ﴿ **طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ (النمل: ١-٦) .

تتحدث الأطروحة عن فئتين من المجتمع : مؤمنين لهم البشرى ، وتَصِفهم بأعمالهم كي لا تختلط الأمور . والمؤمنون الحقيقيون هم الذين اختاروا طاعة الله واتباع نبيه . فهم يقيمون الصَّلاة ويتفاعلون مع مجتمعهم مؤدين حقّه في أموالهم بتأدية الزَّكاة ؛ وسلِمت ضمائرهم فصار تعاملهم نزيهاً ومستقيماً لأنهم يوقنون بالآخرة ، ويترفعون عن الاعتداء على حقوق قومهم ، فهم يؤمنون بيوم الحساب . وهؤلاء هم القادة الذين يسعى القرآن لتربيتهم وإعدادهم للزمن القادم والمجتمع الحي المُنتَظر .

والفئة الأخرى هم المرتاحون لحياة المتعة الراضون بالواقع وما فيه من ظلمٍ واستبدادٍ مقابل مكاسبَ عاجلةٍ صغيرةٍ ؛ لكنها كافيةٌ لهم . فهم يعمهون لا يرون سوء ما هم فيه . والعَمَه هو التردي في الضلال (كما يقول الخليل في العين) وعدمُ القدرةِ على رؤية حقيقة الوضع . وليس الحيرةَ كما ظن المفسرون ، فالمحتار قد يحاول الخروج من حيرته ويهتدي ؛ وهو ما يتعارض مع معنى الآية .

ثم تقوم السُّورة بذكر مثلين : الأولُ من حياة بني إسرائيل بعد موسى حتى عهد سليمان ؛ وقد استجابوا لربهم ولرسله فبنوا حضارةً تعرفها المنطقة . والمثل الثَّاني كان ردُّ فعل غير المؤمنين من قبائل وشعوب المنطقة : قومِ فرعون وقومِ صالحٍ وقوم لوطٍ وكلّهم انتهوا إلى الدمار في الحياة الدنيا .

وتأتي الآيةُ السادسة لتبشر النبيّ أنه يتلقى قرآنا من الله الحكيم العليم ليصنع لقومِه ذكراً بهذا القرآن .

مثالُ المؤمنين : اقتصر مثال المؤمنين الناجحين في السُّورة على بني إسرائيل منذ أَنِس موسى نارَ الهداية في سيناء حتى آخرِ عهد سليمان ، حيث وصل بنو إسرائيل قمةَ علوهم . فكانت قصةُ نشوءٍ وضمورٍ كاملٍ لحضارة بني إسرائيل . وتبدو الآيات مختارةً بدقةٍ بالغةٍ لتخدم غرضها ؛ فاختصرت حيث لا يلزم التفصيل من خبر موسى . وبينت وفصلت حيث يلزم الإلهامُ وإثارةُ الفكر للفهم واستنتاج الدروس من أحداث عهد سليمان . ولم تُغفِل السُّورة أعراضَ الضمور وأسبابَها ؛ لأن لدورات تمدن الأمم منحنًى لا يختلف عن منحنى تطور الحياة العضوية الذي ينتهي إلى النقصان بعد الازدهار . لكن إلهامَ القصةِ كان سيتحول لإحباط لو تضمن وصفَ مرحلة التراجع في التمدن الإسرائيلي . لذلك اكتفت السُّورة بآيةٍ واحدةٍ تتحدث عن

اختلاف آراء بني إسرائيل وضياع الحقيقةِ بينهم مما يمكن أن يتلافوه ويعلموا حقيقته من القرآن . ولذلك كانت الآية (٧٦) التي تتضمن هذه الفكرة متأخرةً جداً وبعيدةً عن قصة العصر الذهبي لهم زمن سليمان ، لِتَرِدَ في أواخر السُّورة . فيستلم أولوا الألباب رسالتَها ، ويجتنبَ العامةُ إحباطَها لو خَتَمت قصةَ سليمان وبلقيس .

موسى يستقبلُ أمر السماء : في البدء نرى موسى مع أهله ، لعل ذكر الأهل يوحي بالسكون الذي يمثل حال المنطقة . حتى النار التي يراها تثير أنساً لا طمعاً ؛ فكأنَّ حال موسى بعضٌ من حال الأقوام المحيطة به . ثم يُنادى موسى بالبركة وهي علامة سكون أخرى ولا يزيدنا التسبيح إلا هدوءاً وطمانينةً . ثم يُؤمر موسى بإلقاء عصاه ؛ فإذا بها تقلب الجو رأساً على عقب وهي تهتز كأنها جانٌّ . فيفقد موسى كلّ ما كان به من عوامل السكينة والسكون ؛ ويولي مدبراً ليتلقى البشرى . وتكون حركة الأفعى العامل المحرك لسكون مصر وسكانها من إسرائيليين ومصريين . وتكون نقطةَ البداية لحضارةِ الشعب الذي استجاب للدعوة وصَدَّقَ المعجزة وهو الشعب الإسرائيلي . بينما عجز قومُ فرعون عن الاستجابة السليمة لاستغراقهم بالاستمتاع فيما هم فيه من نعيمٍ غير شاعرين بفسقِهم وضلالِهم . ولنتأمل في الفقرة الأولى من الآيات ﴿ **إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ** ﴾ (النمل:٧-١٤)

وبهذه الآيات الست تنتهي المواجهةُ مع فرعون لأنها ليست المقصودةَ بالسُّورة . ولا يهمنا منهم إلا أن القوم كانوا يعمهون ككلّ الشعوب الفاسقة . فقد استيقَنَتْ نفوسُهم صِدقَ موسى وصدق آياتِه ، لكن انغماسهم بالفسق منعهم من حريةِ الحركةِ والقدرة على اتّباع الحقّ الذي عرفوه . سكونٌ لم تحركه الأفعى التي تهتز كأنَّها جانٌّ ، ولا ألان قلوبَهم منظرُ يد موسى وهي تتغير بين اللونين الأبيض والأسمر بحركةٍ

خفيفةٍ بسيطةٍ لا احتيالَ فيها ، ولا بقيةُ المعجزات التي جاءهم بها موسى رغم أن بعضَها مس حياتَهم وصحتهم جميعاً . بثلاث آياتٍ من الست المذكورة استنفدت السُّورة أغراضها من ذِكرِ قومِ فرعون فلا يلزم لموضوعها إلا ما جاء في هذه الآيات الثَّلاث . وكان التنمل من حظ بني إسرائيل وبقي فتورُ الخدر لفرعون وشعبه .

داود وسليمان يرثان جهاد الشعب : بعد سبعة أجيالٍ من عهد موسى نما بنوا إسرائيل وازدادوا علماً واكتسبوا من معالجة الصراع مع جيرانهم قوةً وخبرةً وشجاعة . فظهر فيهم داودُ ثم ابنه سليمان . وامتلكَ سليمان من العلم ومن وسائل القوّة ما لم يمتلك ملكٌ في تاريخ البشرية المعروف . فكان عهدُه العصرَ الذهبي الإسرائيلي . وسخَّر اللهُ له الجنَّ والطير . وكان مِثال القائد القويّ الحكيم ، الواعي بما يحيط به المتابعِ لأمره وأمر قومه . ولم يركن لما حقّق ولما أنعم الله به عليه ، ولم يتحول إلى كائن مستهلك لِما جَمَع ؛ بل بان بما أوتي ومُنَّ له . فصار وقومَه مؤهلين لإفاضةِ نعم الله على الشعوب المجاورة ، ليخرجوها من حالة السكون المؤدي للضمور إلى حالة الحركة المُؤدية للازدياد . وقام هدهدُ سليمان بدور النَمَّال أو النمَّام تمشياً مع اسم السُّورة وأجوائها فانضمت مملكةُ سبأٍ إلى ركب الإيمان . وكانت بما فيها من أجواء الحرية واحترامِ الإنسان تستحقّ أن تلحق بركب التمدن الإيماني . فأدار اللهُ الأمور لتنال تلك المملكةُ ما تستحقّ . وقد سجَّلت السُّورةُ قصةَ سليمان وملكةَ سبأٍ في الآيات (١٥-٤٤) ويمكن العودة إليها في القرآن .

ومع أن ذِكر مملكةِ سبأ وملكتِها المتمدنة يأتي عرضاً لإعطاء فكرةٍ عن نعم الله على بني إسرائيل عندما أطاعوا رسل الله إليهم . إلا أن فيها من الحكمة ما يلزم الانتباه إليه . فهي مملكةُ شعبٍ متمدنٍ يقوم على الاحترام المتبادل وتُصان فيه حقوق المواطنين . وإلا لما سمعنا الحوار المتمدن بين الملكة وملئها . حوار لا نسمع أرقى منه في أرقى الدول الحديثة . وهذا دليلٌ على حيويَّة الشعب وتمتعه بالكرامة والحياة الحقيقيّة . ومن علامات نضجهم واحترامهم لأنفسهم أنهم قبلوا بامرأة ملكة لهم . ولكنهم كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها . فنظر الله تعالى إليهم ووجدهم يستحقّون معرفتَه سبحانه وعبادتَه فوجَّه إليهم هدهدَ سليمان ليُحرك سكونهم على عقيدةٍ فاسدةٍ يستحقّون خيراً منها . فكان الاتصال بهم واطلاعهم على عقيدة التَّوحيد . فأسلمت لله بلقيس وتبعها قومها . بينما لم يستطع قوم فرعون على ما رأوا من

معجزات استيقنتها نفوسهم أن يؤمنوا بالله . ومن الملاحظات التي تستحقّ الإظهار هنا أن إيمان بلقيس كان إسلاماً فقط أي اعترافاً بوحدانية الله وطاعته ولم يكن متابعةً لسليمان على اليهودية! فكانت كلمة مسلمين هي المستعملة بحقّ اعتناقها التَّوحيد . وكلمة مسلمين هنا تعني الاعتراف بالله ربّاً . فهي هنا بمعناها اللغوي وليس الاصطلاحي الحديث فلم يكن الإسلام قد ظهر بعد . وهو نفس الطلب الذي طلبه موسى من فرعون : مجرد الإيمان بالله الواحد وإطلاق بني إسرائيل ؛ ولم يطلب منه اتباعه على دينه . لكن فرعون فشل لظُلمة قلبِه وتألُّهِه . وفشل قومه لفسقهم .

وبذا صنعت نميمة الهدهد حركة ومزيداً من الحيويَّة في حياة شعبٍ يستحقّ أن لا ينام على الكفر . علما أن رحلةَ الهدهد الأولى كانت بتوجيهٍ من الله . فلم يكن سليمان يعلم عنها شيئاً كما نفهم من الآية (٢١) وما فيها من غضب سليمان على الهدهد وتهديده بالعذاب أو القتل!

مثال الذين يعمهون : كانت الآيات السابقة امتداداً للآيتين (٢-٣) . بينما الآياتُ (٤٥-٥٨) التاليةُ امتدادٌ للآيتين (٣-٤) من أطروحة السُّورة . فبها نطلع على سلوك غير المؤمنين تجاه أمر الله ودعوة رسولهم المرسل إليهم . وهي تتضمن مَثَلين من الأقوام المستحقّة للهلاك الشامل وهما قوم لوطٍ وقوم صالحٍ . تبدأ الآيات بثمودَ قوم صالحٍ فإذا بهم في نزاعٍ داخلي ككلّ الأمم الضالة ؛ يستعجلون السيئةَ قبل الحسنة ، قلوبهم مغلقةٌ على الباطل ، يبرز بينهم عصابةٌ ضالةٌ من تسعة نفر فاسدين مُفسدين يصل بهم الأمر أن يُخططوا لقتل رسول الله إليهم . فاستحقّوا العقاب الأشدَّ ودمرهم الله أجمعين إلا القلة التي صدقت صالحاً وآمنت بالله . ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝٤٧ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ** ﴾

(النمل: ٤٥-٥٣)

كانوا مُستَلَبين تماماً من الوعي ومستسلمين لسفَلتِهم ، مشغولين بخلافاتهم الشخصية ، مشغولين عن القيم العليا . فلم يستطع صالحٌ أن يحرك فيهم روح الإنسان ، ويحررهم من ضلالهم وعماهم عن أهداف الحياة الحقيقيّة . فما كان لهم إلا الدمار والهلاك الجماعي . فقد فسدوا فساداً لا يرجى معه صلاح .

ومثالٌ آخرُ من قوم لوطٍ . كانوا غارقين في المتعة القذرة المحرمة بعد أن شبعوا من المتع المعقولة . استهلكوا كلّ طاقتهم في الاستمتاع حتى عميت قلوبهم تماماً عن أهداف الحياة . وتنازلوا عن منزلة الإنسان الرشيد كما وصفهم نبيهم . ومع هذا أعطاهم فرصة سماع نداء السماء على رجلٍ يعيش بينهم هو لوطٌ . الذي خاطبهم بدعوة الحقّ ، ونهاهم عن الدنس الذي به يخوضون . فعجزوا عن الاستجابة ؛ فكان حكم الله بالقضاء عليهم بمطرٍ من حجارةٍ مسومةٍ لأمثالهم من الضالين . ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ** ﴾(النمل:٥٤-٥٨). وهكذا لم ينجُ من مطر العذاب إلا لوطٌ وأهلُ بيته إلا امرأتَه التي انضمت لفساد قومها!

وخطاب إلى قريش : تفصيلاً للآية السادسة من الأطروحة تأتي بقية السُّورة ﴿ **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ (النمل:٦) لتكون الآيات التي يتلقاها مثيرةً محركةً للمجتمع المكيِّ ليخرجهم من حياة المُتعة والظُّلم المتبادل ، إلى حياةٍ سليمةٍ تقوم على عبادة الله وتدور حول توحيد الله . فماذا تقول لهم الآيات التي تمثل القرآن في تلك المرحلة المبكرة من حياة الدعوة؟

تأمرُ النبيّ بحمد الله والسلام على رسله ثم مخاطبةِ قومه ﴿ **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ**

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل:٥٩-٧٥) . وبذا تذكرهم ببعض نعم الله عليهم ، وبصفات الله التي يحتاجونها عسى أن يقيموا عليها حياتهم . ويُؤمر النبيّ أن يرد على ترهاتهم وإنكارِهم البعثَ والحساب . وفي الآيات تلميحٌ إلى نجاح النبيّ في دعوته وإيمان قومه وأنهم لن يحتاجوا عذاب استئصالٍ كقوم صالحٍ وقوم لوطٍ . بل عذاباً خفيفاً في الدنيا وآخرَ في الآخرة لمن يستمر على كفره أو يموت دون إيمان .

وتشير الآيات (٦٦-٦٨) إلى ما هم فيه من عمى وعمه نتيجة سكونهم على ما ورثوا من آبائهم . فتدعوهم للسير في الأرض والتأمل في مصائر السابقين لعلهم يخرجون من عتمتهم . ثم تتوجه الآياتُ للنبيِّ تؤنسه وتلطف وقع مقولاتهم الضالة عليه .

بشرى بمراحل قادمة : نعم ، رغم قسوة بعض الآيات بحقّ المشركين إلا أن الآيات مليئةٌ بالبشرى للنبيِّ . فهي تزرع اليقين في قلبه بصدق دعوته وأكيد انتصاره ، وإيمان قومه واستمرار الإيمان فيهم أجيالاً كثيرةً . تبدأ البشرى الأولى من أن هذا القرآن سيكتمل نزوله ليكون مرجعاً لبني إسرائيل يقصُّ عليهم الحقّ فيما يختلفون حوله من أمر دينهم ، علماً أنه عند نزول هذه السُّورة لم يكن في مكّة يهود . وسيكون هذا القرآنُ هدًى ورحمةً للمؤمنين من قومك . فتوكل على الله إنك على

الحــــقّ المــــبين . ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل:٧٦-٧٩)

ثم تخبره الآيات أن في قومه أناساً تجاوزوا مرحلة السكون إلى الموت وهم أحياء . ومنهم العُمي الذين أغلقوا منافذ النُّور كي لا يصل عقولهم . وهؤلاء لن يسمعوا فلا ييأس . فإن تلك الفئات لا تهتدي ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (النمل: ٨٠، ٨١)

ولكن الغالبية ستؤمن ، وسيحدث لها ما يحدث لكلّ الأمم بعد تقادم العهد بمصدر الدين ، فسيحتاجون بعد كفرهم إلى آيةٍ تأتيهم على صورة دابةٍ من الأرض تخبرهم أنهم كانوا لا يؤمنون . ثم تنتقل الآيات إلى مشاهد البعث والقيامة ، وحوار يومئذٍ مع أفواجٍ من الكافرين لعلهم يصحون من غفلتهم وهم يسمعون ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ (النمل:٨٢-٨٥) . لا ينطقون يوم القيامة جزاءً لعمههم وعماهم في الدنيا فهل يحركهم هذا لتصديق النبيّ واتِّباعه؟

ونتوقف هنا لنتذكر أن بني إسرائيل حركت حياتَهم الأفعى وقومَ سبأٍ حركهم الهدهدُ فناسب أن يُذكر هنا أن دابةً ستخاطب الناس يوماً بعد أن يدخلوا بسكون كامل فتقول لهم : لستم موقنين ، عسى أن تتجدد فيهم حياة !

ثم يذكرهم بنِعَم الله عليهم بصيغة الغائب موجهاً الخطاب للنبيِّ ؛ فالقوم أدنى منزلةً من أن يخاطَبوا مباشرةً . وفي هذا إثارةٌ لهم لعلهم يهتدون ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النمل:٨٦) فهل يبصرون؟

ويعود ثانيةً إلى مشاهد القيامة لكن بصوتٍ أعلى ولهجةٍ أُحّد ، ويناسب هذا بعد التذكير بآيات الله المبصرة ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ (النمل:٨٧)

ويعود النص للتذكير بآيات الله المبصرة فالجبال التي يظنونها ساكنةً تتحرك بسرعة السحاب ، والأرض تحتهم ليست ساكنةً كما يظنون فهل يحركهم هذا؟ **﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾** (النمل:٨٨)

وببيانٍ ختاميٍّ يبشر المؤمنين بالأمن من فزع يوم القيامة ؛ ومن جاء بالسيئة فيُكَبُّ على وجهه بالنار جزاء سيئاته . ويُؤمر النبيّ بتوجيه بيانٍ لقومه حول وظيفته ليحرك القلوب الواعية **﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾** (النمل:٨٩-٩٣)

وهذه الآيات الخمس الأخيرة كافيةٌ لتحريك من به بقيةُ خير . فقد كان صوت النبيّ وهو يتلو القرآن في الحرم مثيراً لهم حدَّ الحَنَق لكفرتهم وحدِّ الإعجابِ لذوي القلوب الطيبة . وكان هذا كافٍ لتحريكهم بل هزَّهم بعنفٍ سواءً منهم من صدق النبيّ أو من كذَّبه .

وقبلها تذكرنا السُّورة كيف تحركت جموع بني إسرائيل بناء على دعوة موسى . وتطورت حتى بلغت قمةَ رُقِيِّها على عهد سليمان بالعلم والعمل المُتقن والجدي . ورأينا الهدهد كيف يدل على قوم بلقيس ويحركهم الحقّ فتستقيم مدنيتُهم على طاعة الله . وكلّ ذلك بتقدير الله وتدبيره لمن يستحقّ . مقابل الدمار لمن اثّاقلوا إلى الأرض وإلى ما هم فيه من فسقٍ وضلالٍ . ولا ننسى الآية (٧٦) التي تذكرنا أن اختلاف الآراء المؤدي لانقسام الأمّة هو منٍ أعراض التراجع الحضاري . كلّ هذا تحت عنوان النَّمل بما فيه من حركةٍ وخفةٍ وسرعة انتشار . فسبحان الله العليم الحكيم .

* * *

سورة القصص

القصص هي السُّورة الثَّامنة والعشرون حسب ترتيب المصحف . تناقش أساساً من أسس المنهج الإلهي في نصرة الحقّ ودحر الباطل . فهي تتحدث عن منهج الله اللطيف في تحقيق هدفه سبحانه بتقويم اعوجاج المجتمعات لتتمكن من العودة إلى الحقّ الموافق للفطرة البشرية . وإزالة ما يقف بطريق خطة الله في إصلاح قومٍ ما . ومعاملة كلّ جماعةٍ قصصاً كما فعلت . فمن كان ذنبه قتل فئةٍ من الناس بغير حقّ ، أخذه الله بضربةٍ قاصمةٍ . كما فعل بفرعون وملئه . ومن تعالى على أهله خسف به الأرض . ومن طردوا فئة من قومهم أن قالوا ربّنَا الله يهزمهم الله ، ويعيد المطرودين منتصرين فاتحين لمدينتهم كما تعد السُّورة النبيّ وهي تقول له ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ (القصص:٨٥) . فهي من هذه الناحية تثبيتٌ للنبيِّ والمؤمنين وتأكيدٌ لهم أن الله سينتقم لهم وينصرهم . فيتمسكون بإيمانهم ولا ييأسون .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها القصص . ووردت كلمة القصص في الآية (٢٥) ﴿ **فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِى عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٍ قَالَتۡ إِنَّ أَبِى يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡ ۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (القصص:٢٥) . والقصص هنا بمعنى سرد الأحداث التي مرت به . ولكن هذا المعنى لا يُغطي كلّ مواضيع السُّورة . لذلك نراجع معاني الكلمة في المعاجم وعلى ألسنة العرب لنرى ما يناسب موضوع السُّورة منها .

يقول الرازي في مقاييس اللغة : « القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء ، من ذلك قولهم اقتصصت الأثر ، إذا تتبعته . ومن ذلك اشتقاق القصاص في الجراح ، وذلك أنه يُفعلُ به مثل ما فَعل بالأول ، فكأنه اقتص أثره ؛ ومن الباب القصة والقصص ، كلّ ذلك يُتتبَّع فيُذكر . وأما الصدر فهو القص لأنه متساوي العظام ، كأن كلّ عظم فيه يتبع للآخر . ومن الباب قصصت الشعر ، وذلك أنك إذا قصصته

فقد سويت بين كلّ شعرة وأختها ، فصارت الواحدة كأنها تابعة للأخرى مساوية لها في طريقها ».

وفي بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي : « (فارتدا على آثارهما قصصا) أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر ».

وفي هذه الأجواء تتحرك السُّورة . ففرعون وملؤه الذين كانوا يحكمون بالقتل على أطفال بني إسرائيل قبل ميلادهم أخذهم الله غرقاً ببحرٍ مشوا إليه بأرجلهم . وقارون الذي آتاه الله ما تنوء العصبة من الرجال بحمل مفاتح ثروته . فأعجب بنفسه وتعالى على قومه فخسف الله به وبداره الأرض ليكون تحت مستوى أقدامهم . وقريشٌ التي عذبت المؤمنين من أبنائها واضطرت رسولها للهجرة كان عليها يوم نزول السُّورة أن تتوقع هزيمة مُذِلَّة وعودة النبيّ منتصراً فاتحاً لمدينته . وهذا ما كان بعد سنين قليلةٍ من نزول السُّورة . وكما رعى الله مسيرة موسى حتى النصر على فرعون سيرعى مسيرة محمد قصصاً حتى ينصره على قريشٍ . فهو قصصٌ كاملٌ لكلّ الحالات التي عرضتها السُّورة .

أطروحة السُّورة :

لأن اسمها القصص فقد جاءت بأسلوب غير مسبوق بأطروحتها . فشملت الأطروحة ملخص قصة موسى وفرعون ؛ مع أنها مَثَل كان يجب أن يكون داعماً لأطروحة السُّورة وفكرتها . ولا أظن أن كاتباً من البشر يستطيع أن يجعل الأطروحة جزءاً من مَثَلٍ في مقال جيء به لإثبات فكرة المقال . والأجمل والأقوى إعجازاً أن الأطروحة جاءت توطئة لقصة موسى وقومه مع فرعون وملئه كما أنها تلخص السُّورة في نفس الوقت .

والأطروحة هي الآياتُ الست الأولى ونصها الشريف ﴿ **طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ** ﴾

(القصص: ١-٦)

ففي الآية الثَّانية تمهيد بأن المعروض من آيات الكتاب . ومنها نبأ موسى وفرعون . وتستمر الآيات التالية ملخصة وممهدة لنبأ موسى وفرعون . وتأتي عبارة «لقوم يؤمنون» في الآية الثَّالثَة إشارة كافية أن هذا مثل يُساق للمؤمنين مع النبيّ المخاطب بالسُّورة ؛ ليعلموا أن الله ناصرُهم على كبار مجرمي قومهم ، كما نصر موسى على فرعون وهامان وقارون . وهذا هو ملخص السُّورة كلّها . أعني المثلَ وتوقيعَه على حياة المخاطبين . فليس في السُّورة غير ذلك .

من جهةٍ أخرى جاء الجزء الخاص برواية قصة موسى وفرعون على طريقة أطروحة القصة القصيرة وهي توحد الوحدات الثَّلاث للقصة (المكان والزَّمان والفكرة) بآيتها الصغيرة (نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقوم يؤمنون)

تُرَى هل يستطيع كاتب من البشر أن يضع أطروحة محكمة لمقال أو لقصة قصيرة كهذه الأطروحة . وأن يكتفي بعبارة من كلمتين ليعطي الأطروحة مساراً إضافيًّا ، ويجعلها تقوم بوظيفتها بهذه الكفاءة لتشمل أحداثاً متباعدة في أمتين مختلفتين ومتباعدتين وتغطي موضوعين في مقال واحد؟ بل هو الله ! لأنها لو لم تشمل شبه الجملة « لقوم يؤمنون»(في الآية الثَّالثَة) لكان خللٌ في الأطروحة التي هي قاعدة السُّورة ؛ ولمَا قامت بوظيفتها كأطروحةٍ للسورة التي جاءت لمحمد وليس لموسى . ولو لم تكن شبهُ الجملةِ المذكورة لكانت السُّورة لموسى ، وموسى مات وانتهى دوره ولم يعد بحاجةٍ إليها . كلّ هذا الاضطراب كان سيحدث بدون تينك الكلمتين (لقوم يؤمنون) .

تحليل السُّورة على ضوء العنوان والأطروحة :

تقدم الأطروحة سورتها على أنها مثل للمؤمنين من قصة موسى وفرعون الذي علا في الأرض ، وفرق شعبه شيعاً ، وظلم بني إسرائيل بل وضع خطةً لإفنائهم . مقابلِ قرار الله بأن يجعلهم أئمةً في الأرض ، ويجعلهم ورثةً لبعض مُلك فرعون ، ويُمكِّن لهم في الأرض . فكان عقابُه لفرعون وملئه قَصَصاً بما فعلوا ببني إسرائيل . وسيفعل مثل هذا قصصاً للنبيِّ والمؤمنين في صراعهم مع قومهم . لذلك نتوقع أن تكون الفقرات الأولى من السُّورة قصة موسى وفرعون .

في الأطروحة أن فرعون قضى بذبح المواليد الذكور من بني إسرائيل واستحياء الإناث . وفي مدة سريان هذا الحكم وُلِدَ موسى . فتأتي الآيات (٧-١٣) تفصيلاً

لتدبير الله اللطيف في الحفاظ على موسى بواسطة فرعون نفسه وفي بيته رغم قراره الظالم ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص:٧-١٣)

وبعد أن نجا موسى ينتقل النص إلى مرحلة الرجولة من عمر موسى ورعاية الله له ليسير في الاتجاه اللازم لوظيفته التي يعده الله لها : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص:١٤) . كما أن هذه الآيةَ إعدادٌ للنقلة التالية . فمشروع نبيٍّ إسرائيليٍّ يقترب من مرحلة النضج لا يمكن أن يبقى في قصر فرعون . ولعل فرعون ضاق به ذرعاً فأبعده . بل لعله حَرَّم عليه دخول عاصمته . كما نظن بناءً على الآية (١٥) .

الوقوع في الجريمة والهرب : تبدأ هذه الفقرة بجملةٍ غامضةٍ لم يشر القرآن لتفصيلها في أيٍّ من سوره ولا أشارت لها التَّوراة . ونص الجملة ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ (القصص:١٥) والذي يخطر بالبال هنا أن موسى كان ممنوعاً من دخول المدينة وإلا لماذا يستغل ساعة غفلةٍ من أهلها؟ مع أن المدينة لم تكن محرمةً على بني إسرائيل ففي يومين متتالين التقى فيها رجالاً من بني إسرائيل . فهل طُرد موسى من قصر فرعون بعد أن بلغ عمراً ما ، كما أسلفنا على سبيل الظن . هذا ما لَم تشر إليه مصادر موثوقةٌ كحدث ، وإن كان بعض المفسرين قد توصل إليه على سبيل الظن (الطبري وآخرون) ولا يمكن أن تكون الآيةُ قد صِيغَت بهذه الصيغة عبثاً . خصوصاً أنها أتت بعد الآية التي تصف استواءه رجلاً زاده الله علماً وحكماً ، ولا يمكن أن يكون لمثل هذا مكانٌ في حاشية فرعون خصوصاً أنهم أدركوا أنه من بني إسرائيل .

دخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، أحدهما إسرائيليٌّ وصفته الآية بأنه من شيعته والآخر قبطيٌّ وصفته الآية بأنه من عدوّه . وهذا يرجح الظنَّ أن موسى طُرد من قصر فرعون لأنه أظهر عداءً للمصريين .

وبسبب خلفية موسى القومية انحاز لشيعته وقتل المصري . فكانت جريمةً ندم عليها واستغفر ربّه فغفر له . لكنها كانت بدايةَ مرحلةٍ جديدةٍ في حياته . وتكررت المواجهة في اليوم التالي وأوشك موسى أن يقتل شخصاً آخر . وبدل القتل انكشف أمر جريمة اليوم السابق ؛ فاضطر موسى للهرب ليبدأ المرحلة التالية في مدين . **﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾**
(القصص:١٥-٢٢) .

ولا نغادر هذه الفقرة قبل إظهار أمرين : الأول : قول العبري لموسى **﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾** (القصص:١٩) وهذا يعني أنه كان معروفاً بين قومه بالصلاح والإصلاح وهو ما يزعج فرعون . والثّاني الرجل الذي جاء لينقذ موسى وأغلب الظن أنه مصريٌّ قريبٌ من آل فرعون . فما كان هذا ليقوم بعمله وفيه ما فيه من التضحية لولا مكانة موسى المحترمة عنده . وهو احترام لذات موسى وليس لموقعه في قصر فرعون . فالعملية ضد فرعون وملئه وهم يأتمرون بموسى ليقتلوه . وكلّ هذا جزءٌ من تدبير الله في صناعة موسى وإعداده للعمل العظيم .

موسى في مدين : توجه تلقاءَ مدين كما علمنا من الآية السابقة (٢٢) ووصل ماء مدين . ولا مجال لوصفٍ أدقَّ ولا أبسطَ ولا أجمل مما جاءت به الآيات (٢٣-٢٨) فننقلها دون زيادة : ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ (القصص:٢٣-٢٨).

ولعل إقامته في أهل مدين راعياً لأنعام رجلٍ منهم ، يعالج سرعة غضبه التي ورثها من قصر فرعون . فالغريب يتروى عند الغضب خوفاً من غلبة أهل البيت وأهل البلد . وخشية أن يفقد ملجأه ويضطر لهجرةٍ أخرى . ووظيفة راعي الغنم تعلم صاحبها الرحمة بالأنفس التي تحت يده . ولعل كلّ هذا تفصيل لقوله تعالى ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ** ﴾ (طه:٣٩)

العودة والوحي : قضى موسى الأجل الذي اتفق عليه مع حماه كمهر لزوجه وعاد إلى مصر . وفي سيناء كلّمه الله وكلّفه بالنُّبوَّة وبمخاطبة فرعون للسماح لبني إسرائيل بمغادرة مصر ﴿ **۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**

﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (القصص:٢٩-٣٥) .

وكم كانت حاجة النبيّ إلى هذه الجملة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (القصص:٣٥) . نعم قيلت لموسى وتجسدت على الأرض ؛ وهنا تروى لمحمد ومن اتبعه ليعلموا أن الله لا يتخلى عن رسله ومن يؤمن معهم .

المواجهة مع فرعون : بدأت المواجهةُ وكان الإنكار والتكذيب من فرعون . ثم طوَّر رفضه بادعاء الألوهية لنفسه ، واستعان بكبير مهندسيه ليبني له سلماً يصعد عليه في السماء ليجد إله موسى . ويُختصر الحوار إلى الحد اللازم لهدف السُّورة ، وهو حتميةُ نفاذ خطة الله بمعاقبة الظالم قَصَصاً على ما فعل : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ (القصص:٣٦-٤٢) . ولأن العبرة للنبيِّ فكان التعقيبُ على القصة موجَّها له ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص:٤٠) . فلا تخش مجرمي قريش فما هم بقوة فرعون وجنده وملئه!

ويتحقّق الوعد : وأتم الله وعده لبني إسرائيل وآتاهم كتاباً بواسطة نبيهم موسى . فكان الكتابُ هدىً وبصائرَ ورحمةً لمن يستحقّ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(القصص:٤٣)

انتهت قصةُ موسى عند منتصف السُّورة تماماً من حيث مساحتها ومن حيث عدد الآيات . وقصة موسى كما سُردت هنا رسالتان : رسالة إلى النبيّ والمؤمنين معه بأن

الله سيرعاهم ويحركُ الأمور بلطفه لصالحهم كما أدار حياة موسى حتى انتصاره . وهذا تنفيذٌ لما جاء في الآية الثَّانية من الأطروحة ﴿ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (القصص:٣) . والرسالة الثَّانية تهديدٌ لقريشٍ بأن سيكون لها قصاصٌ على ما فعلت بالنبيّ والمؤمنين ، ويستمر التهديد في معظم النصف الثَّاني من السُّورة .

دعوة قريشٍ من خلال النبيّ : النبيّ واثقٌ من صدقه ، ومن مصدر دعوته الإلهي . ولكن الحديث لأهل مكّة بواسطة النبيّ . فتبدأ الدعوةُ بتذكيرهم أن ما سبق من السُّورة غيبٌ بالنسبة لهم ولنبيّهم ، ولا يمكن أن يكون النبيّ أتى به من عند نفسه ، فهو لم يكن يوماً في سيناء ، ليسمع نداء الله لموسى وليصفه كأنه حاضره . ولا كان في مدين مقيماً ليعلم بخبر موسى وهو يسقي لبنات شيخها المسن . فمن أين جاء به؟ ولكن الله آتاك هذا القرآن رحمةً بقومك ولينجوا من عذاب شديد . (٤٤-٤٦) .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(القصص:٤٤-٤٦)

فالنبيّ والدعوة والقرآنُ نعمةٌ ورحمةٌ من الله بالأمة المخاطبة كما كانت دعوة موسى لبني إسرائيل .

وإذا كانت دعوة موسى لرفع ظلم فرعون عن بني إسرائيل . وقد سمع الله شكوى بني إسرائيل من الظلم الذي لحقَ بهم ، فإن دعوة محمدٍ كانت ليتحرر العرب من جهلهم ومن جهلتهم . فهم أعجز من أن يضعوا حدًّا لمنحرفيهم لأسباب تتعلق بتركيبتهم الاجتماعية . فعجزُهم أمام مجرميهم وأمام جهلهم لا يقل عن ضعف بني إسرائيل أمام سطوة فرعون : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(القصص:٤٧) .

لم تكن استجابتُهم أفضل من استجابة بني إسرائيل . بل أسوأ . فبنو إسرائيل دفعهم ظلم فرعون إلى الالتفاف حول موسى خصوصاً ضعفاءهم . وساعدهم على ذلك أن فرعون من أمةٍ أخرى وهم أمةٌ مستضعفةٌ بسبب عرقهم . وهذا الحال غير

متوفر في مكّة فالظالم والمظلوم من أصلٍ واحدٍ بل من قبيلةٍ واحدةٍ ؛ فكانت حجج الفئة الضالة الظالمة مسموعةً حتى عند مظلوميهم . ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ (القصص:٤٨-٥١)

ويشهد علماءُ من بني إسرائيل بصدق القرآن ، ويعتنقون الإسلام ، فيسجل القرآن هذا ليكون حجّة على أهل مكّة . فهو تأييد يستحقّ الاعتبار لأنه من أهل علم بالأديان . ولعله يعادل موقف السحرة من موسى بعد أن ثبت لهم أنه نبيٌّ وليس ساحراً ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾

(القصص:٥٢-٥٥)

ولكن إيمان العرب أحبُّ إلى النبيّ فهم المستهدف الأول بدعوته ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾ (القصص:٥٦) .

بل رفعوا في وجهه حجّةً كاذبةً تحول بينهم وبين الإيمان به وبدعوته ﴿ **وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (القصص:٥٧) . فمقابل حجّتهم يذكِّرهم بما منحهم من أمان ورزق!

ويتطور الرد عليهم إلى تهديدٍ بدمارهم إن لم يُقدروا نعمة الله عليهم بالأمن والرزق السهل . فقد اكتملت شروط العقاب الجماعي بإرسال الرسول ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ** ﴾

(القصص:٥٨،٥٩)

وتستمر الآيات بدعوة المشركين لاتباع نبيهم حتى نهاية الآية (٧٥)

مثل من أصحاب الثَّروة : كما وقف أثرياء مكّة في وجه الدعوة ضرب الله مثلاً من إسرائيليٍّ كان له موقفٌ مماثلٌ . ولم يضرب اللهُ مثلاً بشريٍ من قوم فرعون . بل بشريٍ من بني إسرائيل لأن المال عندما يعطى لشخص فإن فيه حقّاً لقومه ، فكيف إن استعمله ضدهم؟ فهو مثل فيه تشنيعٌ على الأثرياء القرشيين إلا المؤمنين كأبي بكر وعثمان اللذَين استعملا ثروتهما لخدمة الدعوة . هذه واحدةٌ ، والثَّانية تذكيرهم أن الرزق من عند الله وليس بعلم صاحب الثَّروة ومهارته ، والله قادرٌ على حرمانهم من ثروتهم إذا استعملوها لإيذاء المؤمنين ومحاربة النبيّ ؛ فما هم بأحصن من قارون أمام قدرة الله ﴿ **إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ** ﴾ (القصص:٧٦-٨٢) . وهكذا كان الخسف قصاصاً لتعالي قارون على قومه المستضعفين وعقاباً على إنكاره فضلَ الله عليه بالثَّروة .

نصائح للقيادة الجديدة ممثلةً بالنبيّ : الدار الآخرة هي الهمُّ للمؤمن ، ولا تكون إلا للطيبين المتواضعين الأتقياء المخلصين لله . وينالونها بعد أن ينتصروا في الدنيا . وهذا شبيهٌ بوعده تعالى لبني إسرائيل إذ قال سبحانه في بداية السُّورة ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ** ﴾ (القصص:٥) . ولكلّ جزاؤه بمثل ما قدم . ثم يكون خطاب لا يكون

إلا للنبيِّ لا يشاركه فيه بشر . فالله يبشره في الآية (٨٥) أن يردَّه لمكّة فاتحاً بعد هجرته منها . وإمارةُ ذلك أن الله أعطاه القرآن رحمةً منه سبحانه ما كان يأملها ولا يحلم بها ، فليلتزم بأمر الله وبنصرة المؤمنين فقط . وليكن توحيدُ الله وعبادتُه هما دينه وديدنه ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٨٣-٨٨)

وهكذا كانت السُّورة قَصَصاً وهي تطلعنا على مصير فرعون وملئه ومصير قارون وثروته . وتعد النبيّ والمؤمنين بمصيرٍ مماثلٍ ينتظر صناديد الشرك من قريشٍ . إذ أخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ يوم بدرٍ بمعجزةٍ واضحةٍ لكلّ ذي بصرٍ وبصيرةٍ .

وفي زمن الفهوم الخاطئة المتطرفة يلزم أن ننبه أن مثل هذا النصر إنما يكون لمن يُكلّفُ من الله مباشرةً ، كالنبيّ المرسل وصحابته المعايشين له . ولا يكون لمن يتحرك بناء على اجتهاده وفهمه للنصوص المقدسة حتى لو كان فهمه دقيقاً . فالله سبحانه نجَّى إبراهيم من النار لكن لم ينصره على قومه ولا عاقبهم في الحياة الدنيا على ما فعلوا بإبراهيم . لأن إبراهيم كان متطوعاً بعمله مع قومه ، ولم يكن مكلّفاً من الله . وإن في هذا لعبرةً للمتحمسين من أهل هذا الزَّمن .

* * *

سورة العنكبوت

هي السُّورة التاسعة والعشرون . اختلف علماء القرآن على مكيتها ومدنيتها . فالسُّورة على غرار السور المدنية تذكر العلاقة مع أهل الكتاب (الآية٤٦) . وفيها آيات لا تكون إلا لأهل مكّة مشركين ومؤمنين مثل الآيات (٤٨- آخر السُّورة) . والنفاق المذكور في (الآية ١١) يشير إلى أناس في المدنية . فلم يكن في مكّة نفاق بل كفر وإيمان . فتشتبك مواضيع السُّورة ولكن بانسجام وتكامل كتشابك الخيوط في شبكة العنكبوت وتكاملها لتكون شبكةً أو بيتاً . ومن حيثُ الموضوعُ فالسُّورة تهدف لتحريض المؤمنين على مجاهدةٍ أنفسهم ، والتغلبِ على العقبات التي يضعها قومُهم في طريق إيمانهم بهدف عَكْبِهم وردِّهم إلى الضلال بعد الهدى . والعكَب هو الأصل المجرد لكلمة عنكبوت ، ويعني الشدَّة في الشر والشيطنة . وهو هنا الكفر بعد الإيمان . فالمؤمن كي يؤكد صدقَ إيمانه عليه أن لا يعود لنفاقٍ أو كفرٍ تحت أي ضغط . بل عليه أن يجاهد كلّ ما يقفُ بطريقه لينمو بإيمانه النموً السليمً ويصل به حالة النضج واليقين .

مطالعات في التراث :

جاء في ظلال القرآن لسيد قطب : « والسُّورة كلّها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام . إنها تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة ؛ وعن تكاليف الإيمان الحقّة التي تكشف عن معدنه في النفوس . فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصَّبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف . ويكاد هذا أن يكون محور السُّورة وموضوعها ».

وبذا أدرك سيد قطب غرضها تماما ! لكن دون ربط هذا الغرض بالعنوان !

عنوان السُّورة وموضوعها :

العنكبوت هو اسم الدويبة المعروفة التي تنسج شبكتها في الأماكن المهجورة . وهي لغةً من مادة عنكب باتفاق اللغويين أو عكب حسب الذين يرون أن كلّ كلمة

عربيَّة يجب أن تعود لأصل ثلاثي . جاء في لسان العرب لابن منظور : « يقول ساعد ابن جؤبة :

مَقَتٌّ نســـاءً ، بالحجــاز ، صــوالحاً   وإنّا مقتنــا كــلّ ســوداءَ عنكــبِ

قال السكري : العنكب هنا القصيرة ..... وإن كان إسما لما فيه صفة من السواد والقصر .

يقال للتيس إنه لمعنكَب القرن حتى صار كأنه حَلْقَةٌ . . . والعكب الشدة في الشر والشيطنة ». انتهى الاقتباس عن ابن منظور . وأطلق على القرن معنكب لتقزمه والتفافه مقابل القرن الطبيعي الممتد .

وعن مادة عكب ينقل الرازي في المقاييس عن الخليل : « عكبت حولهم الطير أي تجمعت .« و العَكوب الذي تثيره الخيل . والغبار عَكُوب لتجمعه أيضا . »

وبناء على ما تقدم يمكن القول إن كلمة عنكبوت وبناء على مادتها الأصلية تعني الفشل في الوصول إلى الوضع الطبيعي . فالعنكب القصيرة ظاهرةُ القِصَر مقابل الوضع الطبيعي . فكأنها لقصرها لم تَنْمُ إلى الحد المعتاد . والقرن التف على نفسه وتقزم مقابل الوضع الطبيعي وهو الامتداد إلى المدى الطبيعي المعهود به .

ومن مادة عكب عند الرازي وابن منظور يستنتج التجمع غير المحمود وسوء الرؤية حيث يغطي الدخان أو الغبار صفاء الجو عن النظر بل يصل الأمر حد الشر والشيطنة عند ابن منظور .

هذه مفرداتُ العنكبوت . إنها عندما توضع في القرآن مقابلَ الإيمان إنما تستحقّ اسم « عوائق الإيمان » . وعوائقُ الإيمان لا تكون إلا فتنةً للمؤمن للعودة به إلى الوراء أو إلى منزلة الكفر أو النفاق . فالكفر عكوب بمعنى الشيطنة ، والنفاق إيمانٌ متحجرٌ عند مستوًى معينٍ أو تراجعٌ عن المستوى اللائق باسمه كعنكبة القرن أو المرأة العنكب . . والاستجابةُ الناجحةُ لأسباب العكوب هي بالتمسك بالإيمان وبالرؤيةِ الواضحة للأمور رؤيةً لا يحجبها دخانٌ ولا غبارٌ ولا شبكةُ عنكبوت . ولكن هذه العقبات لا بد منها ، حسب السُّورة ، للتأكد من صدق إيمان المؤمن وصبره على ما يلزم لطليعة المجتمع من القدرة على الصَّبر ومجاهدة النفس والتضحية .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

موضوع السُّورة أن الإيمانَ الحقيقي هو الذي ينمو ويزداد ويتطور إلى يقينٍ مهما واجه من فِتن . وتَعرِض السورة من عوائق الإيمان محاولات المشركين شد المؤمنين إلى الوراء وحرمانَهم من تطوير إيمانهم بل ردهم إلى الكفر إن استطاعوا !

أطروحة السُّورة : السُّورة معروضة بأسلوب المقال . وهذا هو الحال ما دامت السُّورة تبدأ بأطروحة . وأطروحة العنكبوت هي الآيات الست الأولى : ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (العنكبوت: ١-٦)

تلفت الأطروحة المؤمنين المخاطبين إلى أن ما يواجههم إنما هو :

١- من تدبير الله ، وهو اختبار لإيمانهم ويتماشى مع سنة الله في خلقه ، وليس أمراً طارئاً أو خاصًّا بأهل مكّة ؛ وبذا يصوب تصور المؤمنين تجاه ما يواجهون .

٢- الصَّبر ومجاهدة النفس هما سلاحهم للتغلب على كلّ عوامل إحباط إيمانهم أو تقزيمه .

٣- التهديد بالعذاب للمشركين الذي يضايقون المؤمنين ويحاولون ثَنيَهُم عن الاستمرار في إيمانهم .

٤- المؤمن الذي يجاهد وينجح إنما يجاهد لنفسه ؛ فليس له منةٌ على الله أو على النبيّ . فالله غنيٌّ عن العالمين . ومن يجاهد لنفسه يخلصها من رجس الشِّرك ونجَاسةِ الكفر ، وينال رضا الله والجنة . وهذان مكسبان لا يدانيهما عَرَضٌ من أعراض الدنيا الفانية .

الناجحون فى الابتلاء : الآيات الثَّلاث التالية (٧-٩) تتحدث عن المؤمنين الذين ينجحون فى الابتلاء المذكور فى الآية الثَّانية . وعن جزائهم عند الله فهم المثال المطلوب من كلّ مؤمن ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن**

جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (العنكبوت:٧-٩) . وتذكر الآية (٨) نوعاً من عوائق الإيمان وهو الأسرة وخصوصاً الوالدين الباقيين على كفرهما ؛ وهو من أشد عوائق الإيمان . حيث يضطر الإنسان للاختيار بين والديه وبين الإيمان بربّه !

الفاشلون وشياطينهم : الآيات (١٠-١١) تعرض مثالَ من يتراجع إيمانه ويفشل في الامتحان المذكور ؛ فهو من الضعف بحيث لا يتحمل أذى الناس . وقد سمته الآية أذًى . والأذى دون الضرر . ويتكرر التذكير بأن مهما يحدث فإنه لا يخرج عن سنة الله في تربية الطليعة المؤمنة ، ليُعلَم المؤمنُ الحقيقي من الضعيف المنافق . وذلك ليُحرِّض المؤمنين على الصَّبر والتحمل ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ** ﴾ (العنكبوت:١٠-١١).

ثم تتهكم الآيتان (١٢-١٣) على مقالة المشركين للمؤمنين بأنهم سيحملون عنهم نتائج ردتهم عن الإيمان . وتصدق الآية ظنهم بأنهم سيحملون وزرهم ووزر من يفسدون إيمانه دون أن ينقص من عقابه شيء ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ** ﴾ (العنكبوت:١٢،١٣).

وبذا تكتمل الأفكار الرئيسية للسورة . ومع هذا ما زال في النفس شوقٌ للمزيد . فتنتقل السُّورة إلى عرض نماذج من سلوك المؤمنين الأقوياء (ممثلين للأنموذج الأول) تجاه ما واجهوا من اقوامهم ، ليكونوا قدوة للمؤمنين :

فنوحٌ لبث يعظ قومه ويتحمل كفرهم وإعراضهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً . حتى أذن الله بالطوفان يغسل به الأرض من ظلمهم وينجي المؤمنين بالسفينة! (١٤، ١٥).

وإبراهيمُ واجه قومه بحقيقة عبادتهم وأصنامهم فنقموا منه حتى ألقوا به في النار فنجاه الله . وما كان لينهزم أو يهادن ؛ لكنهم اختاروا التخلص منه ، فغادرهم إلى

فلسطين مع ابن أخيه لوطٍ وزوجه متخلياً عن أبيه وبقيةِ أفراد عائلته وعشيرته منحازاً لإيمانه وربّه (١٦-١٧) ثم (٢٤-٢٧) . فتكون له البشرى العظمى أنه في الآخرة من الصالحين!! وأنَّ في ذريته النُبُوَّة والكتاب دون العالمين . فهنيئا لإبراهيم . أليس في هذا ذكرى وعظةً للمؤمنين؟؟

ولوطٌ أُرسل إلى قوم مسرفين ، لم يصل أحدٌ في الشر والفاحشة ورفض الهدى مثل ما وصل قوم لوطٍ . فكانت معاناة لوطٍ معهم شديدةً ، وكان صبره على مجاهدتهم عظيماً . ومع هذا لم يتخذ من دون الله وليًّا ولم يلجأ لمثل بيت العنكبوت : بل قال ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ** ﴾ (العنكبوت: ٣٠) فنصره الله ، وأرسل على قومه رجزاً من السماء (٣٠-٣٥).

ودعا شعيبٌ قومه فكذبوه فأخذتهم الرجفة التي ناسبت عنادهم ومقاومتهم لرسولهم . (٣٦-٣٧)

أمثلة بالجملة : وفي الفقرة التالية من السُّورة (٣٨-٤٠) أمثلة من صراع ثلاثة أنبياء مع مجرمين كبارٍ من أعداء الله . ولم يأت هذا الاختصار وتركيز الحدث عبثاً ، بل ليناسب جو السُّورة التي جاءت لتهدد المشركين بسبب محاولاتِهم فتنةَ المؤمنين . ولتحذر المؤمنين من التراجع تحت ضغط المشركين أو إغراءاتهم : ﴿ **وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت:٣٨-٤٣).

فبعد التهديد الخاطف القويّ بلهجته يصف اللهُ الذين صَدَّقوا أعداء الله وانحازوا إليهم بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً واهناً . وذكرتهم أن الله يعلم ما يظن كلّ إنسانٍ وليس ما يظهر من عقيدةٍ فقط .

توجيهات للنبيِّ والمؤمنين معه : تعالج الآيات (٤٤-٦٩) معيقات الإيمان في مكّة والمدينةِ وعلى أكثر من مستوى ، وبإرشادات تعتبر ظـروف الأفـراد المـؤمنين ، حتى ليجدُ كلّ مؤمنٍ حلاً لمشكلته فلا يضطر للتراجع عن إيمانه ولا يحتاج للجـوء إلى مثل بيت العنكبوت .

فالآية (٤٤) تؤكد للنبيِّ وللمؤمنين أن كلّ ما في الكون منذ خلق السموات والأرض إنما يسير وفق تقدير الله أو خُطته الأصلية للكون (بالحقّ) ولو تفكر المؤمنون بالأمر لَتَيقنوا منه . وما هذه الرسالة (الإسلامية) إلا جزءٌ من خُطة الله زماناً ومكاناً فليطمئن قلب النبيّ وقلوب المؤمنين معه ﴿ **خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (العنكبوت:٤٤). بالحقّ فهي خطةٌ محكمةٌ قديمةٌ لا بد من وصولها إلى نهايتها وتحقيق أغراضها .

ثم توجه الآيةُ (٤٥) رسول الله إلى تلاوة ما أوحي إليه من القرآن وإقامة الصَّلاة . وفي التَّوجيه بشرى بأن الله متمٌّ إنزالَ القرآن . فهو كتاب الله الذي لا بد أن يكتمل . وفي بقية الآية تأكيدٌ للنبيِّ أن الله تعالى يراقب الأمر ويعلم ما يصنـع المـؤمـنـون . ﴿ **ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ (العنكبوت:٤٥) .

وتنتقل الآيتان التاليتان (٤٦-٤٧) للتعامل السليم مع أهل الكتاب السابق . فليكن جدالُهم بالتي هي أحسن فهم رصيدٌ للمؤمنين ؛ ولا يلزم استعداؤهم من أجل خلافاتٍ صغيرةٍ إلا الظالمين المبالغين في العداء منهم . فالكتاب المنزل على النبيّ يأتي من نفس مصدر كتابهم وربّهم واحدٌ . ويشترك المؤمنون هنا مع النبيّ في الخطاب المباشر الواحد ﴿ **وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ** ﴾ (العنكبوت:٤٦-٤٧). ولعل هاتين الآيتين تمهيدٌ للتعامل مع يهود المدينة بين يدي هجرة بعض المؤمنين أو لعل بعضهم كان قد هاجر . فتأتي الآيتان توجيهاً لمن هاجر . ولعلهما لهذا السبب موجهتان للمؤمنين ؛ فهم وحدهم في يثرب دون النبيّ .

بينما تؤكد الآية الثَّانية منهما أن النبيّ كان ما يزال في مكّة ﴿ **وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ** ﴾ فالإشارة إلى أهل مكّة بهؤلاء تعني أن النبيّ ما زال بينهم .

وترد هذه الآيات في سورة العنكبوت لتخفيف الضغط عن المؤمنين وذلك بتحييد أهل الكتاب وتجنب الصدام معهم . فيكفي المؤمنين تحديات المشركين لهم .

ثم تتوجه الآيات (٤٨-٥١) بالخطاب إلى النبيّ وهي في الحقيقة لمن يسمعها من المشركين . فالنبيّ يعلم أنه أميٌّ وأنه لم يطلع على كتاب سماويٍّ قبل القرآن . وهو موضوع الآيتين (٤٨-٤٩) ؛ وتنعى على الظالمين إنكارهم . لتنتقل الآية (٥٠) إلى طلبهم معجزةً ماديةً بدلاً من القرآن فيردُّ عليهم من خلال النبيّ (٥١) أن القرآن بظروف نزوله على رجلٍ أمي لهو معجزةٌ كافيةٌ : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (العنكبوت:٤٨-٥١).

وهكذا نرى كيف يَرُدُّ القرآن على ترهاتهم كي لا يصدقها المؤمنون بل ليزدادوا تمسكا بدينهم . والإشارة القيمة لاستقرار الآيات في قلوب المؤمنين ، وذكرهم بهذا التشريف تشجيعٌ لهم على التمسك بإيمانهم ورفعٌ لمعنوياتهم مقابل أذى قومِهم لهم .

مواجهة أشد مع المشركين : ترتفع حدة المواجهة الفكرية مع المشركين مع بقاء الجدال معهم من خلال النبيّ . فالآية (٥٢) توشك أن تصل قمة الجدال وهي توجه النبيّ ليقول لهم كفى بالله شهيداً بيننا ؛ ويهددهم بالخسران . والأمر هنا يحتاج إلى وقفة : فهم يؤمنون بالله ويميزون الصدق في قول الله وفي لهجة النبيّ . ولهذا لا يستجيب الله لطلبهم العذاب بل يرحمهم . فكفرهم كذبٌ وقشرةٌ ظاهريةٌ . وفي نفس الوقت هو رسالةٌ للنبيِّ أن قومك سيؤمنون وما عليك إلا الصَّبر عليهم ، ومعالجة قدرتهم على التظاهر والخصام . ومن يصرُّ منهم على الكفر فعذابه في جهنم بعد يوم الحساب : ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ**

ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٢-٥٥).

ويتجه الخطاب إلى المؤمنين وبنفس درجة الحزم والحدة . ولكن ماذا يقول الله للمؤمنين الذين يتعرضون للأذى ولا ناصر لهم؟ إنها المقاطعة هذه المرة كمقاطعة إبراهيم لقومه التي رأيناها في الآية (٢٦) . يلمح لهم بمقاطعة قومهم والهجرة من مدينتهم إن استمروا بإيذائهم ؛ وليس بالتراجع عن إيمانهم . يطمئنهم بشأن أمر الحياة وأمر الرزق فهما من الله ، فلا يجبنوا خوفاً على حياتهم ولا يخضعوا خوفاً على رزقهم . وفي خلال هذه التطمينات يعدهم بغرف في الجنة تعويضاً عن صحبة الأهل والعشيرة والوطن وجزاء الصَّبر . لكن لا يحقّ لهم أن يلجأوا لمثل بيت العنكبوت هرباً من فتنة قومهم التي اتخذت شكلي الترهيب والترغيب ، فالإيمان أغلى وأكرم . ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (العنكبوت:٥٦-٦٠)

ويعود الخطاب إلى النبيّ يتحدث عن المشركين بصيغة الغائب . وكأنه استجابةٌ لما في نفوس المؤمنين والنبيّ وهم يتساءلون خفية في نفوسهم : لماذا لا يهلك الله هؤلاء المشركين بدل أن نضطر نحن لهجرة بلدنا وماضينا كلّه ، وهم يتمتعون بالبقاء في مدينتنا ويتلقون الرزق الحسن من الله؟ فيقول تعالى للنبيِّ : لأنهم في داخل نفوسهم مؤمنون ولكنهم يؤفكون ؛ ولذلك يصبر الله عليهم . ويرزقهم لأنهم يعلمون أن أسباب الرزق كالمطر هي من عند الله تعالى . ويقف لجانبِهم جهلُهم فيُحسب لهم عذراً مخففاً ؛ فاعذرهم أيها النبيّ وتفهموا الأمر أيها المؤمنون . ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (العنكبوت:٦١-٦٣). ويستنتج من هذه الآيات أن مجموع العلاقات مع مشركي مكّة معادلة صعبةً وغامضةً لا يعرف أبعادها بدقةٍ ، ولا يستطيع حسابها والتقرير بشأنها إلا اللهُ تعالى . ولعل في طريقة سورة القصص في معاقبة العصاة والمجرمين إضاءةٌ لفهم هذه المسألة . أقول هذا كي لا يقيس أحدٌ بعقله البشري على هجرة النبيّ والنصر الذي تبعها فيَهلِك ويُهلِك من يتبَعه . كما حدث ويحدث مع فئاتٍ من الشباب المتدين المتحزب في العقود الأخيرة .

ثم يقول للمؤمنين : على ماذا تحسدونهم أيها المؤمنون . أنما هي الحياة الزَّائلة استحقّوها لأنهم حقّقوا شروطها وفق سنة الله في الخلق ؛ ولكم أنتم الحياة الحقيقيّة الخالدة في الآخرة . ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤).

ثم يقلل من شأن المشركين رفعاً لمعنويات المؤمنين . فالمشركون من الجهل بحيث لا يدركون نعمة البيت العتيق عليهم ولا يلتزمون بوعد قطعوه لله قبل ساعات . ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٥-٦٩). وتأتي الآية الأخيرة استجابة للآية (٦) من الأطروحة مستعملةً نفس المفردات .

ألا تكفى هذه المعالجات والتَّوجيهات للتغلب على فتن المشركين ، والثَّبات على الإيمان؟ وهل يبقى مبررٌ لاتخاذ ملجأٍ غير الله؟ هل يبقى لزومٌ لبيت العنكبوت؟ الحمد لله ربّ العالمين على رعاية تلك الطليعة المؤمنة التى ما زلنا نتمتع بفضل صبرها ومجاهدتها مشركى قومها حتى أسلموا ! وتغلبها على عوامل عنكبة إيمانها وتقزيمه .

* * *

سورة الرّوم

هي السُّورة الثَّلاثون . نزلت في النصف الثَّاني من العهد المكـي . وسميت باسم أمةٍ غريبةٍ ، بادئةً بنبوءةٍ . وهي نبوءةٌ محددةٌ ومعها قرينةٌ مثلُها وتذكر زمان تنفيذها . وصاحب النبوءة هو الله . ومُبْلِغها للناس نبيٌّ مُرسلٌ . وبما أنها من الله فلا بد أن تأتي كما أخبر الله سبحانه . وهو ما لا يقدر البشر على مثله . فلا بد أن ينقسم الناس تجاهها فريقين : مؤمنين بالله ورسوله ينتظرون تحقّقها ؛ وكافرين مُكذبين يجدونها فرصةً للسخرية من نبيٍّ يعدهم بخبر سيتحقّق بعد بضع سنين ، يتضمن انتصاره عليهم في نفس الوقت . ولم تشغل النبوءة سوى أربع آياتٍ من السُّورة ذات الستين آية . وتأتي بقية السُّورة لإظهار قدرة الله على ما يشاء من عمل . كما وضعت أسس النصر وأسباب الهزيمة وربطت عوامل النصر بإرادته سبحانه .

وبالمقابل شغلَ علماءُ القرآن والسنة أنفسَهم بقضيةٍ غير سليمة ، تقوم على أن الرّوم من أهل الكتاب . وهم في الحقيقة ليسوا أهل كتابٍ حسب المصطلح القرآني . فأهل الكتاب هم الذين أوتوا الكتاب من الله موجهاً إليهم مباشرة برسل منهم . وهذا لا ينطبق إلا على بني إسرائيل يهوداً ونصارى .

عنوان السُّورة ومعناه :

الرّوم هو عنوانها ؛ وقد ورد في الآية الثَّانية وقُصِدَ به البيزنطيون من سكان اليونان وتركيا الحالية . وكما تعودنا مع جميع السور السابقة فلا بد أن عنوان السُّورة الذي اتخذ من اسم البيزنطيين يدور حول معنًى آخر لكلمة عربيَّة تماثله كتابةً أي بالحروف وترتيبها . ويصلح محوراً للسورة وإطاراً يجمع كلّ ما يرد فيها من حقائقَ وتوصياتٍ ، كما رأينا في سور يوسف وإبراهيم ومريم .

جاء في العين للخليل بن أحمد : «الرّوم : الطلب ، والمرام : المطلب»

وفي مقاييس اللغة لابن فارس الرازي : «الراء والواو والميم أصل واحد يدل على طلب الشيء . ويقال رمت الشيء أرومه روما ، والمرام : المطلب»

وعندما يكون المطلب عنواناً لسورةٍ تخاطب نبيا وأتباعَه فلا يكون المطلبُ إلا انتصارَ الدعوة والنبيّ وأتباعِه المؤمنين . فكأن الله عز وجل يقول لنبيه وللمؤمنين تحقّق مرامُكم وأجيبَ مطلبكم وفي بضع سنين . نعم هي سورة الرّوم بمعنى المطلب ويأتي معظم السُّورة لتبيين شروط تحقيق النصر المروم .

صياغة السُّورة :

تبدأ السُّورة بنبوءتين هما انتصار الرّوم في بضع سنينَ وسيوافق ذلك حدثاً يُفرح المؤمنين والنبيّ . ومثل هذا العمل قد يسمى مقال النبوءة . وعرفت الآداب الغربية النبوءة في أعمالها الأدبية . ظهر في الآداب الإغريقية المبكرة وعرفته العصور الوسطى وما زال يستعمل حتى الآن . ولكن كلّ ما ظهر من هذا النوع أعمالٌ أدبيةٌ قصصيةٌ أو مسرحيةٌ . فلا يقدر البشر على أكثر من نسج الخيال في نبوءاتهم .

نعم ، لا يستطيع بشر أن يصوغ نبوءةً متحقّقةً على صورة مقال . الله وحده قادرٌ على الكلام عن المستقبل بيقين . وكلّ من سواه يستطيع التَّوقع فإن لم يخطئ التَّوقع لا يصيب بالدقة التامة . إذاً لا نتوقع أن نجد في آثار البشر وآدابهم ما يشبه سورة الرّوم تماماً . والسُّورة كمقال لم تقتصر على النبوءة بل أتبعتها بأطروحة لتقود بقية السُّورة وتوجهها .

تحليل السُّورة على ضوء العنوان :

النبوءة : تأتي النبوءة في الآيات الست الأولى ﴿ **الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾

(الروم: ١-٦) .

والفرق بين النبوءة والأطروحة من زاوية صياغة المقال أن النبوءة تحتاج إثباتاً لإزالة الشك بتحقيقها وليبدو قائلُها ضامناً لتنفيذها . بينما الأطروحة تحتاج تفصيلاً وتبياناً لا أكثر . وبالتالي فإنَّا نتوقع من بقية السُّورة أن تثبت صدق نبوءتها قبل وصول زمن تحقيقها . وللجمع بين هذين المطلبين ضبطت السُّورة بقية آياتها على نهج أطروحة تتحقق بها النبوءة .

وقبل ذلك يلزم بيانُ خصوصية صياغة نبوءة السُّورة لما فيها من التفاتاتٍ بلاغيةٍ غفل عنه الدارسون .

تبدأ السُّورة بقوله تعالى ﴿ **غُلِبَتِ ٱلرُّومُ** ﴾ وبآيةٍ مستقلةٍ . مع أن أي كاتب من البشر كان سيضيف لها الآية التالية(٣) وهي ﴿ **فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ** ﴾ (الروم:٣) فهي بيانٌ لها . فما دلالة تخصيصها بآية؟ إنها تأتي بصورة خبرٍ مفاجئٍ ليصنع أثره القويّ المُستهجن . فالعرب مؤمنون ومشركون لم يخافوا أمةً كما كانوا يخافون الرّوم ! فتأتي الآيةُ لتُبشِّرهم وتفاجئهم أن الرّوم ذلك الشعبَ القويّ الغلاَّب قد غُلب ! ثم تأتي الآية الثَّالثَة لتذكر المكان وأنه أقرب الأرض إلى أرض العرب .

غلبت الرّوم وهو الخبر الهام المفاجئ للسامعين ؛ وليس للأمر علاقةٌ بدين كما ظن مفسرون . ثم تأتي الآيةُ الثَّالثَّة لتذكر المكان (في أدنى الأرض) وأدنى الأرض لأرض العرب هي تركيا الحالية وكانت تدعى بيزنطة أو الإمبرطورية الرّومانية الشرقية . وتأتي النبوءة الأولى : سينتصر الرّوم في معركةٍ قادمةٍ . ولم تقل الآيةُ من غلب الرّوم لأنه ليس المقصود في السُّورة . بل المقصود أن إرادةَ الله المبنيةَ على قوانينه في المجتمعات هي التي تَحكم وتُبدِئ وتُعيد . وأكبر القوى يمكن أن تنهزم بل تتحطم إذا قضى الله ذلك ؛ وهزيمة الرّوم دليلٌ ساطعٌ . فلا تغرنكم قوتُكم يا أهل مكّة .

الآيةُ الرابعة تتضمن ثلاث معلوماتٍ إحداها موظفةٌ مرتين ﴿ **فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ (الروم:٤) . فشِبْهُ الجملة الأولى (في بضع سنين) موظفة مرتين لتخدم الآية السابقة والآية التي ظهرت بها . وهذا مما لا يخطر ببال بشرٍ ؛ لكنه ظهر في القرآن بضع مرات . ففي بضع سنينَ سيثأر الرّوم من الفرس وسيستعيدون الأرض التي خسروها . ﴿ **فِي بِضۡعِ سِنِينَ** ﴾ سيَغلِب الرّوم . وفي بضع سنين سيفرح المؤمنون بنصر الله لهم ونعلم لاحقاً أن المقصودَ انتصارُهم في بدرٍ . وليس فرحاً بانتصار الرّوم كما ظن مفسرون . ولو كان المقصودُ أنهم سيفرحونً بانتصار الرّوم لما لزم إنهاء الآية السابقة حيث انتهت ولشملت شبه الجملة في بضع سنين بل نهاية الآية الرابعة لتكون جزءاً من الآية الثَّالثَة .

ونبقى مع الآية الرابعة لنجد بين شبه الجملة الزَّمانية وبين نبوءتها الثَّانية بفرح المسلمين قاعدة من سنن الله في إدارة حركة التاريخ البشري ، فله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد . فبقضائه غُلِبت الرّوم وبقضائه سيَغلِبون . وهذه الجملة من النبوءة سيدور حولها آياتٌ عديدة من السُّورة . وفي هذه النقطة تعامل النبوءة كأطروحة .

والآيتان الأخيرتان من النبوءة موجهتان للمؤمنين فقط . ووعدهما لهم دون سواهم من خلق الله . فالله لا يخاطب الرّوم ولا يبشرهم . ﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٥،٦) . فالنصر والهزيمة يقررهما الله وفق معطياتٍ على الأرض ؛ وللأمر تفصيلٌ في السُّورة . والنصر الذي سيُفرح المؤمنين وعْدٌ من الله لهم ؛ والله لا يُخلِف وعده ! فهل يرضى عاقلٌ من البشر لنفسه بمغامرة الإخبار عن المستقبل بهذه النبوءة المحددة مكاناً وزماناً وأقواماً . بل هو الله الذي وسع كرسيه السموات والأرض !

أطروحة السُّورة : كدعوة للتفكر وبصيغة الغائب وانطلاقاً من الجملة الأخيرة في الآية السادسة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٦) تنطلق الآيات (٧-١٠) مؤكدةً أن أمر الشعوب بيد الله وهو سبحانه يقضي بالأمر وفق سنةٍ ثابتةٍ عادلةٍ . تبدأ الآيات بوصف علم المشركين بالسطحية وبظاهر الأمور فقط ، بينما هم غافلون تماماً عن الآخرة ؛ فهم يفتقرون إلى فلسفة حياةٍ تدلهم على أن الحياة الآخرة ضروريةٌ . ثم تدعوهم الآية (٩) للسير في الأرض للتفكر بمصائر الشعوب الغابرة ، وما كان من أمرهم ليتعرفوا على سنن الله في الخلق . وتَعِدُ الآيةُ العاشرة الذين يفعلون السيئات بالمصير الأسوأ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الروم:٧-١٠) .

وتستحقّ الآية الثَّامنة نظرة ثانية لأنها لم تنل الاهتمام الذي تستحقّ من المفسرين. فهي تشير إلى أن الله خلق السموات والأرض بالحقّ أي وفق الخطة الأصلية المسجلة باللوح المحفوظ، فخلق كلّ جرمٍ في وقته وهيئته المكتوبة باللوح المحفوظ وهذا معنى كلمة بالحقّ. ثم إنها مخلوقةٌ لأجلٍ مسمى. فلكلّ شيءٍ في الكون عمرٌ محددٌ سلفاً. وبعد ذلك يكون حساب. ومما سُجِّل في اللوح المحفوظ من خطة الله مسيرةُ الأمم صعوداً وهبوطاً وانتصاراً وهزيمةً. وهذا الجزء الخاص بحركة التاريخ هو موضوع هذه السُّورة. وكلّ آيةٍ حتى نهاية السُّورة موظفةٌ لإثبات هذه الحقيقة. لكن بما يناسب جلال قدر المتحدث وقدرة المخاطبين على الاستيعاب، فهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فقط. ويعود صدى لهذه الآية من الآية (٥٦) عندما يقول الذين أوتو العلم والإيمان: ﴿**لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (الروم:٥٦). وكتاب الله هو اللوح المحفوظ. ويوم القيامة يكون قد حدث ما سُجِّل فيه بالحقّ أي تماماً كما كُتِب.

صاحب النبوءة: الله خالق الكون كلّه وليس هذا وحسب، بل يعيده كلّ ما أراد فهي قدرةٌ حيةٌ باقيةٌ. وهو سبحانه مالك يوم الدين، وبيده أمر قيام الساعة، عندما يُلجَمُ المجرمون عن الكلام وقد صدمتهم الحقائق القويّة، ويتخلى عنهم شركاؤهم فيتفرق الذين كانوا معاً في الحياة الدنيا. وبالتالي، فتدَخُّلُه سبحانه بحركة التاريخ في الحياة أهون عليه. وتُوَظَّف النبوءة وما يُذكِّر بها لزيادة إيمان المؤمنين ولدعوة المشركين للإيمان بالله وللتخلي عن شركهم: ﴿**ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ**﴾ (الروم:١١-١٨)

سبحان الله وله الحمد. هذه بعضُ صفاته، سبحانه، وطرفٌ من قدراته. فهل يكون وعدُه عبثاً وليس في صنعه شيء للعبث واللهو؟

الله منشئ الحياة بكلّ مكوناتها : ما دام سبحانه منشئُ الحياة فهو يهيمن على كلّ تفاصيلها . فليس غريباً أن يحرك تاريخَ الأمم فيرفعَ منها ويخفضَ وفقاً لسنته . والآيات (١٩-٢٧) تغطي كلّ جوانب خلق الكون وما فيه من أحياء ؛ بما في ذلك تيسيرِ سبل عيشها وتأمين رزقها بالمطر وما ينتج عنه ، واستقرار الأسرة بصفتها وحدةَ بناء المجتمع .فهذه الآيات موجهةٌ للمؤمنين ليوقنوا أن وعد الله حقّ وأنّ تنفيذَه سهلٌ عليه ، مقارنةً بقدرته سبحانه : ﴿ **يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (الروم:١٩-٢٧) فبقدرته وحكمته خلق الكون وما فيه ومن فيه ؛ وبحكمته وقدرته يدير أمر الخلق جميعاً حتى البعث وفصل الحساب . وبإرادته يحيي الأرض بعد موتها إشارة إلى إرادته بإحياء الأمة بالقرآن وبمحمد . فهل يعجز عن معرفة اليوم الذي يستحقّ به الرّوم النصر حسب سنة الله ، ويوم يرتفعُ المؤمنون إلى درجة استحقاقِ النصر على قومهم في بدر؟

طريق النصر : بانتظار النصر ، على المؤمنين أن يسلكوا طريقه . وهو ما ترسمه لهم بقيةُ آيات السُّورة ونحاول استنتاج معالمه فيما يلي :

١- التَّوحيد الخالص من أدنى درجات الشرك . فالآية (٢٨) تأتي لتثبتَ استحالةَ أن يكون لله شريك في إدارة ملكه وهو الكون كلّه . والآيةُ موجهةٌ للمؤمنين وليس للمشركين كما ظن بعض المفسرين . لأنها بصيغة المباشر التي لا يستحقّها المشركون إلا على سبيل التهكم أو الإهانة ؟ وتنتهي بتخصيصها لمن

يعقلون !! ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ (الروم:٢٨،٢٩) بينما الآية (٢٩) تصف المشركين وقد اتبعوا أهواءهم التي زينت لهم الشرك فخسروا رحمة الله بهم ، ولم يبق لهم ناصرٌ . فشركاؤهم أكذوبةٌ من صنع خيالهم ، لتتم الصورة التي رسمتها الآية السابقة لها (٢٨) .

٢- التَّوجه إلى الله بإخلاصٍ واتباعُ دينه القَيِّم بصدقٍ واستقامةٍ ومفارقةٍ تامةٍ للشرك . والآيتان (٣٠-٣١) تبدآن بخطاب النبيّ ثم تتسعان لبقية المؤمنين معه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الروم:٣٠-٣١)

٣- تجنب التفرق والأهواء الحزبية والتصرفات غير العقلانية : الآيات الخمس التالية (٣٢-٣٦) تكشف الصورة المقابلة وهي صورة المشركين الذين يمثلون هبوطَ المجتمع واستحقاقَه للهزيمة والهوان . ومن صفاتهم التفرق والتحزب على أسسٍ من الأهواء الشخصية وعدمِ الاستقامة على الإيمان ، فهم يدعون الله عندما يحتاجونه فإن رفع عنهم الضيق يشركون به . وإذا أنعمَ الله عليهم بنعمةٍ فرحوا بها وإن أصابتهم سيئةٌ يئسوا وكفروا : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (الروم:٣٢-٣٦) . فترسم هذه الآيات صورة صِغار النفوس الذين لا يستحقّون نصراً .

٤- تراحم المجتمع المؤمن والتكافل الاجتماعي : وهو الشرط اللازم بعد شروط سلامة العقيدة . وبدونه لا يقوم مجتمعٌ ولا تستحقّ جماعةٌ نصراً حسب سنة الله في إحياء الأمم . فالرزق من الله . وعلى من يرزقه الله أن يؤتي ذوي القربى

والمساكين ممن قلَّ حظهم من الرزق . وبهذه المناسبة تنهى الآياتُ عن أكل الربا وتحض على أداء الزَّكاة . ومرةً أخرى تسخر الآيات من الشرك : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (الروم:٣٧-٤٠) . وذُكِر الرِّبا في آل عمران (١٣٠) كأحد أسباب هزيمةِ أُحد .

٥- تجنب المعاصي التي تفسد البيئة : تشير الآية (٤١) إلى أن تدهور البيئة براً وبحراً كان قد بدأ بسبب معاصي البشر . وتدعو الآية (٤٢) إلى السير في الأرض لملاحظة ذلك وربطه بمصائر المشركين والمفسدين في الأرض . ومعنى هذا أن الله فطر الكون والإنسان على فطرة يلزم الحفاظ عليها . فهي ضمان الفلاح في الدارين . وأي خللٍ فيها ينعكس على حياة الناس وعلى الطبيعة التي تهم المجتمعات . ويلزم هناً تدخل الله لإعادة الناس والأرض إلى الفطرة في موجة إصلاحٍ جديدةٍ . ولن تكون سنة النصر والهزيمة بعيداً عن هذا التصور . وبهذه المناسبة تتوجه الآية (٤٣) للنبي للالتزام بدين الله المستقيم . لأنه الذي سيوصله ليوم النصر حيث سيتصدع مجتمع المشركين . فمن كفر فعليه نتائج كفره ومن آمن فله الجزاء الحسن . وبتلك المناسبة سيُنعِم الله على عباده المؤمنين ويجزي الكافرين بما يستحقّون : ﴿ **ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (الروم:٤١-٤٥) .

٦- الرزق الحسن لاستمرار النصر للمؤمنين : بعد النصر وتَمكُّن المجتمع على سنن الفطرة والدين القويّم يحتاج مزيداً من الرحمة ومن أسباب الحياة ،

ويستحقّها ليواصل تقدمه وتطوره لذلك تكرر الآية (٤٦) ذكر الرياح والمطر لكن بمدى أوسع من النفع مما جاء في الآية (٢٤) التي كان مطرها إحياءً بعد موات . وتواصل الآية (٥٠) ذكر المطر كمصدر للحياة وتربط موضوعه بموضوع إحياء المجتمع الميت ؛ فالله على كلّ شيءٍ قديرٌ . ولكن يبقى في المجتمع من يميلون للتشاؤم بسبب ضعف إيمانهم ، فيهتزون إذا تعرضوا لمصيبةٍ كمطرٍ ضارٍ بالنبات . وسيبقى في المجتمع أناس موتى القلوب لن يقدر نبيٌّ على إحيائهم . وعُمْي لا يستطيع النبيّ هدايتهم . ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾

(الروم:٤٦-٥٣) .

وكأن الآيات تَستعمِل ظاهرةً طبيعيةً لتنعى على المؤمنين الذين احتفظوا بيأسهم رغم بشرى النصر في السُّورة . فهم كاليائس عند تأخر سقوط المطر . وهي حالةٌ معروفةٌ في المناطق التي تعتمد على المطر . وتبقى البشرى (الآية ٤٧) بنصر المؤمنين حقّاً على الله وأبرز بشريات السُّورة . وكلّ ما حولها من آياتٍ إظهارٌ لقدرة الله على تنفيذ وعده .

تقدير الله واللوح المحفوظ : تستمر الآيات في مخاطبة المؤمنين انطلاقاً من بشرى النصر . وتجيب على أسئلة نفوسهم حتى لو لم يبدُوها . فتقول الآية (٥٤) إن إرادة الله أن الإنسان يُخلق ضعيفاً ، ثم يقوى ويشتد عوده رويداً رويداً حتى يصل أشده ثم يتراجع . وفي هذا تلميحٌ أن كلّ أمرٍ من أمور البشر يتبع هذا النظام الإلهي الراسخ في الكون . ففي ضعف المؤمنين مقابل قومهم من المشركين ما يتفق مع

خُطة الخلق وسلوك الأحياء جميعاً . فلا يبتئس المؤمنون من وضعهم . وتختصر الآية (٥١) الزَّمن عندما يتعلق الأمر بالمجرمين لتبدو حياتُهم عابرةً وقوتُهم زائلةً ، فتنقلنا الآيةُ إلى يوم الساعة ليقسمَ المجرمون أن حياتَهم لم تزد عن ساعةٍ من زمن . فهي لا تستحقّ عناء الكفر والإجرام . ثم نسمع صوت الحكمة من الذين أوتوا العلم يقول يوم القيامة للبشرية كلّها ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (الروم:٥٦) . أي أن كلّ مخلوقٍ وكلّ جماعةٍ وكلّ مجتمعٍ وما يصدر عنهم وما يصيبهم إنما هو مسجلٌ في كتابِ الله ، اللوح المحفوظ . فما الغريب إذاً أن ينبئ الله في القرآن عن هزيمة الرّوم التي كانت ، وانتصارهم القادم ، وبالزَّمن المُحدد في اللوح المحفوظ المزامن لانتصار المؤمنين على المشركين؟ . ويومُ القيامة يومُ حساب وليس يومَ عتابٍ واعتذار ؛ فلينتهز المشركون الفرصة قبل فوات الأوان خصوصاً عندما يتأكدون من هزيمة الرّوم ، التي حدثت على بعد آلاف الأميال ونصرهم المتحقّق في بضع سنين . فتانك آيتان لمن كان له قلب حي ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ (الروم:٥٤-٥٧) .

وختاما :تخاطب الآيات رسول الله على سبيل التثبيت والتسرية عنه . ففي القرآن ما يكفي للعقلاء ذوي القلوب الحية . ولكن المبطلين والمعطلين لا يريدون الإيمان أصلاً . وقد طبع الله على قلوبهم بمعاصيهم وإصرارهم على الباطل . وما عليك إلا الصَّبر وانتظار وعد الله فهو حقّ . ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾ (الروم:٥٨-٦٠) . ووعْدُ اللهِ هو النصرُ الذي تحقّق يوم بدرٍ وبشرت به الآية الخامسة وأكدت عليه الآيةُ السادسة .

والذين لا يوقنون قد يكونون مؤمنين لكن إيمانهم لم يصل مرحلة اليقين . فهم عبء نفسي على النبيّ كالمشركين من قومه .

* * *

سورة لقمان

السُّورة الحادية والثَّلاثون من القرآن . وسميت باسم لقمان . ولقمان من اللقم وهو وسط الطريق ومتنه . ووسط الطريق يُذكر بأمرين : السلوك المعتدل والثَّاني الظهور أمام الجميع فليس في سلوكه ما يلزم إخفاؤه . وإذا كانت الآية الثَّانية تقدم السُّورة على أنها كتاب حكيم ، والحكمة تعني السلوك المنضبط بالعقل الناضج المعتمد على أجمل وأحكم ما توصلت إليه الخبرة البشرية ، فإن الآية الثَّالثَة تصفها بأنها هدى للمحسنين . والإحسان من أعلى درجات الإيمان والهدى وهو السير على طريق مستقيم . فكأن السُّورة تبين للمخاطبين طريق المحسنين وسلوكهم السليم . ثم تقدم نموذجاً بشريًّا حيًّا للحكماء المحسنين من خبرة لقمان وهو يعظُ ابنَه . وتقدم السُّورة كلّ ما يلزم ليصل المؤمن منزلةَ الإحسان . والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه أو تعيش حالة من يوقن أن الله يراه ويتصرف وفق يقينه ذاك . وتنعى على الذين يمارسون الفسق بعد الإيمان ، والذين عجزوا عن الإيمان بسبب أفعال سيئة اكتسبوها فَقَيَّدَتْهم .

عنوان السُّورة ومعانيه :

عنوانها لقمان وهو اسم رجل . فما هي المادة اللغوية التي اشتقت منها كلمة لقمان وما معناها الذي يمكن أن يكون محوراً للسورة؟

جاء في مقاييس اللغة لابن فارس الرازي : « اللَّقَم : مَنْهَج الطَّريق ».

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي : « اللَّقَمُ ، محرَّكةً وكصُرَدٍ مُعْظَمُ الطريقِ ، أو وَسَطُه ».

وفي لسان العرب لابن منظور : « واللَّقَمُ ، بالتحريك : وسط الطريق ؛ ولَقَمُ الطريق : مَتْنُه ووسطه ؛ وقال الشاعر يصف الأَسد : غابَتْ حَلِيلتُه وأَخْطأَ صَيْده ، فله على لَقَمِ الطريقِ زَئِير ».

إذًا فالمعنى الذي يمكن أن يستوعب موضوع السُّورة هو وسط الطريق أو أعلاه . وليس بعيداً عنه نهج الطريق الذي يوحي باختيارٍ حكيمٍ للطريق .

السير على وسط الطريق أو أعلاه يعني أن يكون السائر مرئيًّا وتحت الضوء ، فهو لا يختفي وراء الطريق ولا يختار جانب الطريق ضعفاً أو احتيالاً لشيء؟ ولذلك تبدأ السُّورة بقوله تعالى ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (لقمان:١-٣). فهي للمحسنين الذين وصلوا مرحلة الإحسان أو يسعون لها .

وفي تعريف لمرتبة الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك! لهذا لا يستطيع المحسن إلا أن يسير في وسط الطريق أو في أعلاه ليكون مرئياً . لا يخشى أن يُرى فليس في عمله ما يخجل من ظهوره . وإذا كان طريق الهدى كلّه خير فإن وسطه أو متنه هو أفضله .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

عنوان السُّورة مشتق من مادة لقم . وأجمع أصحاب المعاجم أنها بمعنى وسط الطريق أو متنه . ووضحت لنا العلاقة بين المرتبة الإيمانية المعروفة بالإحسان وبين السير على وسط الطريق أو أعلاه على حد أقوال المعجميين . لذلك بكلّ يقين نقول إنها سورة الإحسان وما يتصف به صاحب الإحسان من سلوكٍ سويٍ مستقيمٍ واضحٍ كالسير في وسط الطريق.

أطروحة السُّورة : بسبع آيات تقدم السُّورة نفسها على أنها كتاب حكيم ومنهاج للمحسنين ، ثم تعرف المحسنين بعلامات من أعمالهم ، وتصف الفئة المقابلة للمحسنين ، وهم الفسقة الذين يعيشون للهو الحديث معرضين عن آيات الله وهديه **﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾** (لقمان:١-٧).

جزاء المحسنين : وكي لا يلتبس الأمر فيُظَنُّ الإحسان شيئاً غير الإيمان سمتهم الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (لقمان:٨) فهم مؤمنون ترقوا بإيمانهم لدرجة أنهم

يشعرون برقابة الله عليهم كلّ حينٍ ، فيتصرفون وفق هذا الشعور . فجزاؤهم جنات نعيم . نعيمٌ يكافئ تعظيمهم لله في الحياة الدنيا . وهم خالدون في النعيم بوعد الله المتحقّق قطعاً . ثم تتحدث الآية العاشرة عن قدرة الله لغرضين يتمشيان مع السياق : الأول : تأكيد قدرة الله على تحقيق وعده لعباده المحسنين بجنة نعيم . والثّاني : التذكير بنعم الله على عباده في الحياة الدنيا . وتأتي الآية (١١) لتؤكد أنه وحده سبحانه القادرُ على هذا الخَلْقِ العظيم ! ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (لقمان:٨-١١)

مثال للمحسنين : لقمان مؤمنٌ بلغ درجة الإحسان فاستحقّ تخليد اسمه بسورة من القرآن . ولعله كان مذكوراً في الثّقافة العربيَّة يوم نزول القرآن . ونلتقي لقمان هنا وهو يعظ ولده بأمور من الحكمة . والحكمة هي السلوك الحسن الذي توصل إليه الخبرة البشرية ؛ وهي أفضل العرف الذي يتفق عليه المجتمع . فمن خلاصة خبرته وما آتاه الله من حكمة وعظ ابنه . استغرق الوعظ خمس آياتٍ كريمةٍ ، تخللتها آيتان مما يوصى اللهُ به عباده . ويبدو أن لقمان لم يعظ ولده بالإحسان لأبويه وحفظ حقّهما . ولكنها عند الله تستحقّ أن تذكر بعد حقّ الله مباشرة . فبعد عبادة الله يأتي الإحسان للأبوين . ونسمع لقمان وهو يعظ ابنه بما ألهمه الله من الحكمة . ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ

ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٢-١٩)

والدقة التي يعظ بها لقمان ولده هي مما ينقل المؤمن إلى درجة الإحسان عندما يفكر بمثقال حبة خردل ، ويراقب مشيته وصوته ومظهره كي لا يؤذي أحداً ، ويصل ذلك طبيعياً لا تَكلّفاً ولا قفزاً فوق مراحل الإيمان . وحسبُ لقمانَ شرفاً أن نصائحه لولده تجتمع مع نصائح الله له !!

خطاب للمسلمين : تراوح الخطاب في بقية الآيات بين أن يتوجه للمؤمنين مباشرةً أو ان يكون للنبيِّ تخصيصاً . وكذلك توزعت بقية الآيات على ثلاثة أمور : تبرير حقّ الله بأن يعبد بإخلاص المحسنين ووصف عبادة المحسنين والرد على المعارضين المعاندين لقبول الدعوة.

فالآيات الثَّلاث الأولى (٢٠-٢٢) موجهةٌ للمؤمنين الذين استحقّوا الخطاب المباشر مع النبيّ ببلوغهم درجة الإحسان . تُذكِّرُهُم بنعَم الله ، وتنعى على الذين لم يقدروها . وتنتهي الآية الثَّالثَّة من هذه الباقة بمدح المحسنين الذين أسلموا وجوههم لله . ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (لقمان: ٢٠-٢٢)

تسرية عن النبيّ : مع الحديث عن مرحلة الإحسان العالية لا بد أن يحزن النبيّ لأن أحداً كفر بعد إيمانه أو بقي كثيرٌ من قومه على كفرهم . لأنهم اقترفوا ما استحقّوا به الحرمان من الإيمان . مع أنهم يعلمون أن الله خلق السموات والأرض . ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (لقمان:٢٣-٢٥) فهم صورة مقابلة للمحسنين الذين ترقوا بإيمانهم إلى منزلة أعلى.

مناجاة للنبيِّ والمحسنين : ثم تنتقل السُّورة للحديث عن ذاته العلية سبحانه ؛ فيقول سبحانه بمناسبة قصة لقمان أنه لو شاء أن يسجل عظمة ما خلق لا تكفي البحور لتسجيل كلماته لو كانت حبراً . وتعرض بقية آيات الفقرة ما يثبت أن الله وحده هو الإله الحقّ والمستحقّ للعبادة وما سواه ممن يدعو المشركون باطل ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (لقمان:٢٦-٣٠).

ثم تصف الآية (٣١) ظاهرة يعرفونها ويعيشونها كلّما ركبوا البحر وهي تكشف الموقن من المنافق . والموقن هو القادر على بلوغ درجة الإحسان ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (لقمان:٣١-٣٢).

نداء ختامي : نصيحةٌ أخيرةٌ توجهها السُّورة للمحسنين الذين بدأت بهم السُّورة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لقمان:٣). تبدأ الآية (٣٣) بنداء «يا أيها الناس» . وفي سورة المحسنين عندما يأتي نداءٌ للناس يدعوهم للتقوى نعلم أن المقصودَ خيرةُ الناس من المؤمنين . فمن معاني كلمة الناس التي تناسب هذا الموقف خيرةُ الناس وعليتُهم ، وعليةُ الناس عند الله هم المحسنون الذين يُضرب لهم مثلٌ بلقمان الحكيم . (الفيروزآبادي بكتابه بصائرذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز تحت كلمة «نوس» يقول : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ (الفلق:١) قد يُراد بالناس الفُضلاءُ دون من يَتناوله اسم الناس تجوُّزاً)

فالنداء في الآيتين الأخيرتين موجَّه للمحسنين من المسلمين . وهو دعوةٌ للتقوى ولخشية ما يكون يوم الحساب ، وتحذيرٌ من الغرور بالدنيا ومُتَعِها العاجلة . والآية الأخيرة في السُّورة تحدثهم عن أخص أعمال الله التي تهم الناس لِتُمَكِّنهم على طريق التقوى وتزيد ارتباطهم بالله . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ (لقمان:٣٣-٣٤). فالتقوى المطلوبة هنا تقوى من عرف حقيقة يوم الحساب حيث تنقطع أواصر الدنيا مع أقرب خلق الله من والدٍ ومن ولدٍ . وهي حالة إيمان يقيني يستحقّ صاحبها أن يكون من أهل الإحسان . فهنيئا للمحسنين هذا الخطاب الودود .

* * *

سورة السَّجدة

هي السُّورة الثَّانية والثَّلاثون . يُظن أنها نزلت في أواخر العهد المكي . واسمها السَّجدة مأخوذٌ من مادة سَجَدَ . ومع أن المعنى القريب للسجدة وضع الجبهة على الأرض تواضعاً وخشوعاً لله ، إلا أن السُّورة تدور حول معنًى آخر من معاني السجود ، وهو الانتصاب والقوّة التي تثبت صاحبها في وجه رياح الفتن العاتية ، ومثبطات الإيمان . وغالباً هذا هو أسلوب القرآن في تسمية سوره . وأدت السُّورة غرضها بتذكير النبيّ والمؤمنين بقدرة الله وسيطرته على كلّ ما في الكون من حيٍّ ومن جمادٍ ، والردِّ على ترهات المشركين ، وعرض مصير الفئتين المؤمنة والكافرة ؛ ووعد النبيّ والمؤمنين بالنصر في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة . وبعذاب الدنيا وسوء المصير لأعدائهم .

عنوان السُّورة ومعناه :

السَّجدة اسمها ، ووردت كلمة مشتقة من مادة سجد في الآية (١٥) هي واسطة العقد من السُّورة موقعاً ومعنى ﴿ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (السجدة:١٥). وسُجَّدا جمع ساجد . وهو الذي يضع جبهته على الأرض خضوعاً لله وتذللا له.

وفي معاجم اللغة نجد لمادة سجد عدة معان يهمنا منها ما جاء في لسان العرب لابن منظور يقول : « الساجد المنتصب في لغة طيء ، ثم يروي بيتا للبيد بن ربيعة يقول واصفا نخلا :

« **بين الصَّفا وخَلِيج العينِ ساكنةٌ غُلْبٌ سواجدُ لم يدخل بها الحَصَرُ** »

قال « وزعم ابن الأَعرابي أَن السواجد هنا المتأَصلة الثَّابتة » قصد أن النخلة منهن قوية راسخة في الأرض ثابتة فكلمة غُلب تعني غليظة قوية . ومادامت كذلك فلا بد أن تكون راسخة أو سواجد كما قال لبيد .

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي : « سَجَدَ : خَضَعَ ، وانْتَصَبَ ، ضِدٌّ ».

ومثل بيت لبيد يقول محمد بن حنبل الشاعر الموريتاني :

وهل كروابي الأرض شــمٌّ جبالـــها وهل كالودي الباســقاتُ الســواجدُ

والباسقات السواجد هي أشجار النخيل القويّة الضاربة في الأرض بعمق يزيد ثباتها في وجه الريح . ولا جدال في أن كلمة سواجد وصف للنخيل ؛ فالساجدة هي النخلة القويّة الراسخة في الأرض . ولكن الخلاف هو سبب تسميتها هل هو في انتصابها كما يقول الفيروزآبادي وكما نسب ابن منظور لطيء ، أم لرسوخها في الأرض كما قال ابن الأعرابي فيما روى عنه ابن منظور؟ فإن كانت الثَّانية فهي لا تبتعد عن معنى السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض . فبوضع الجبهة على الأرض يكون استقرارٌ ورسوخٌ ولا يخشى معه اهتزازٌ أو اضطرابٌ أو سقوطٌ . بالإضافة إلى معنى العبادة والخضوع لله .

فالسَّجدة كاسمٍ للسورة دعوةٌ للثبات على الإيمان والصَّبر في مواجهة الفتن والصمود في وجه الكفرة والفاسقين . وهي بما تَنَزَّل فيها من معلومات إنما تصنع اليقين عند المؤمن وتجذب الشاك المتردد إلى الإيمان .

تحليل السُّورة على ضوء معاني كلمة السَّجدة :

أطروحة السُّورة : تطرح السُّورة موضوعها الرئيسي في آياتها الأربع الأولى موجهةٌ الخطاب الشريف إلى النبيّ بأسلوبٍ حازمٍ موجزٍ ، ليكون على يقينٍ من صدق مصدر القرآن المنزل عليه ؛ وأن اللهَ ربّه خالقُ السموات والأرض وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ . فَلْيَثْبُت على الحقّ الذي معه وليواصل دعوته لقومه ولا يتأثر بتكذيبهم . ﴿ **الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ (السجدة: ١-٤)

وبذا تحتوي الأطروحة مقومات الثَّبات والصمود للنبيِّ وأتباعه وهي : صدق مرجعيتهم وصدق كتابهم وقدرة ربّهم المطلقة على الكون والعباد ، وهو وليُّ المؤمنين وحدَهم . مقابل كذب أعدائهم وافتقار الأعداء إلى سندٍ قويٍّ يستطيع مقابلة

الله تعالى فلا شفيع لهم ولا ولي . ووردت مدة خلق السموات والأرض كرقم لتـزرع الإحساس باليقين عند السامع فللأرقام وقعٌ مؤثرٌ في النفس والعقل .

وتُفصِّل السُّورة أطروحتها في الفقرات التالية وما فيها من حقائق :

الله القدير : تبدأ الفقرة الأولى بما اختتمت به الأطروحة . وكانت الآية الأخيرة في الأطروحة قد ختمت بخلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن الله هو الوحيد الذي يتولى أمر البشر أجمعين . فتبدأ الفقرة بأن الله هو مدبِّر أمور الخلق ، وأنه سبحانه مطلعٌ على كلّ خلقه في عين اللحظة ، ويعلم ما سيكون بعدها بأحقاب ؛ وهو العزيز في ذاته الرحيم بخلقه ، وقد أحسن كلّ شيء خلقه بما في ذلك الإنسان . وما دام سبحانه الخالقُ لكلّ شيءٍ والمسيطر على كلّ شيءٍ ، فكيف لا يكون للمؤمن به أن يطمئن ويثبت على الإيمان كما تثبت النخلة الصلبة العميقة الجذور في الأرض؟ ﴿ **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ (السجدة:٥-٩) .

فذكرت الآيات أموراً يعرفها البشر كخلق الإنسان وهـذه يكفـي معهـا التـذكير . وعندما تطرقت لما لا يعلم البشر لجأت للرقم وهو مقدار يوم العـروج مـن الأرض إلى حظيرة القدس الأعلى . وذِكْرُ الرقم هنا يأتي لـزرع الـيقين في الـنفس . فـالأمور محسوبةٌ بدقةٍ .

الكافرون بين حجّة باطلة ومصير سيىء :تبدأ الفقرة الثَّانية بإحدى مقولات المعارضين للنبيِّ . وهي عدم قدرتهم على تصديق البعث والنشور وهو جزء من تكذيبهم للقرآن المذكور في الآية الثَّانية من الأطروحة . ثم توجه النبيّ للردِّ عليهم . ثم تحدثه الآية (١٢) عن موقفهم المخزي يوم الحساب ليكون على ثقةٍ من سلامة موقفه وخسران معارضيه . وزيادةً في تثبيت النبيّ ولتزهيده بإيمان الكافرين من قومه تخبره الآيتان (١٣-١٤) أن الله حرمهم الإيمان وفق سنته سبحانه في قبول الناس ورفضهم . ﴿ **وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(السجدة: ١٠-١٤) .

وفي الآية (١٢) يوقن المشركون ولكن يقينهم لا ينفعهم فقد فات الأوان على الاستفادة منه .

الذين يستحقّون الإيمان ومصيرهم : صورةُ المؤمنين تكاد تكون مقابلةً لصورة المعاندين للنبيِّ . فمقابل تساؤلات المشركين شكًّا بقدرة الله على البعث ، نجد من يستحقّون الإيمان يسارعون لتصديق آيات الله وذكره تسبيحاً وحمداً . وتواصل الآيات سردَ صفاتِهم التي تُرضي الله عنهم . وتُختتم بمصيرهم الفائق بنعيمه كلّ ما يمكن أن يتصوره العقل البشري . ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة:١٥-١٧) . وما كان هؤلاء ليتركوا فراشهم ويخروا سجداً لله لولا يقينهم بالله وبصدق نبيه .

وفي هذه الآيات الثَّلاث حفزٌ للمؤمنين إلى المزيد من الإيمان ، وزادٌ يعينهم على الثَّبات على دعوتهم ، والاستهانة بما يتعرضون له من قومهم أذًى كان أو ضرراً! لذلك سبق أن وصفنا الآية (١٥) أنها واسطة العقد من السُّورة . فهي تقدم دعماً عظيماً للمؤمنين في مواجهة تحديات قومهم . وهي آية السَّجدة وتحتوي من خصائص المؤمنين ما يستحقّ اسم السَّجدة بمعنى الصمود والرسوخ في الإيمان . فبسجودهم لله وخضوع قلوبهم له سبحانه اكتسبوا صلابةً في إيمانهم وثباتاً على طاعة الله كثبات الباسقات السَّواجِد .

مقارنة بين الفئتين : بخمس آياتٍ كريمةٍ تقارن السُّورة بين المؤمنين وبين الفاسقين في الدنيا والآخرة . مما يزيد المؤمنين قوةً وتمسكاً بموقفهم ويضعف موقف الفاسقين . وسماهم فاسقين وليس كفرةً أو مشركين ليعلم المؤمنون أن معارضيهم قومٌ فاسدون خلقيًّا ، وليسوا ندًّا للمؤمنين الذين أهلتهم أخلاقهم الحسنة

للإيمان . وواصلوا بالإيمان عمل الصالحات بميزان الله عز وجل . ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾ (السجدة:١٨-٢٢)

وتأتي الآية (٢١) بصيغة المتكلّم بادئة بأداتي تأكيد فكأنها قسم من الله تعالى ووعد قاطع بتعذيب الفاسقين في الدنيا والآخرة . ويتولد عن هذا مزيدٌ من الثَّبات للمؤمنين . فمجموعة الآيات كلّها تتحدث عنهم مقارنة بالفاسقين ليكونوا كسواجد الباسقات فروعها في السماء وأصولها ضاربة في أعماق الأرض .

مثال من موسى ومن بني إسرائيل : بِثلاث آيات يُضرب مثلٌ ناجحٌ في الدعوة إلى الله من موسى وقومه . ووعد من الله بلقاء يجمع موسى ومحمد . وهي تشجيع للمؤمنين على الصَّبر والثَّبات ، ليكون منهم أئمة ، كما كان من قوم موسى ، يهدون إلى الإيمان ، وقد وصلوا تلك الدرجة بالصَّبر واليقين . ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ (السجدة:٢٣-٢٥)

وتأتي الآية الأخيرة ليعلم بنو إسرائيل أن اختلافاتهم في فهم الدين هي من عند أنفسهم وليست من عند الله . فيتواضعوا أمام النبيّ وأتباعه ، ولا يتعالوا كما هي طبيعتهم . وهي أيضا تغلق الطريق على أعداء النبيّ إذ يُؤتى آيةً فيها مدحٌ لأناسٍ منقسمين إلى مذاهب ! وفي جوهرها مزيدٌ من التشجيع للمؤمنين للتمسك بموقفهم .

إبراز جهل المعاندين والمصير المنتظر : تبدأ الفقرة الأخيرة بأسئلةٍ استنكاريةٍ حول موقف الكفرة من قدرة الله على أعدائه ، وإنعامه على أوليائه ، وذلك في خطابٍ مباشرٍ للنبيِّ . ويصل بهم الكفر أن يسألوا النبيّ متى سيكون عذابهم وانتصار المؤمنين . وبدل إجابتهم مباشرةً يقول لهم قولاً قد يهدي بعضهم ؛ فيوم الفتح

لا ينفعهم إيمانهم . ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ (السجدة:٢٦-٣٠) . والدعو ة للإبصار هي دعوة لليقين فالبصر حاسةٌ تصنع يقيناً .

وتوجه الآية الأخيرة النبيّ للإعراض عنهم وأن ينتظر يوم الفتح بين الفريقين فهو قريبٌ وهم ينتظرون . وبذا نرى أن كلّ آيةٍ في السُّورة إنما تأتي لتثبيت النبيّ والمؤمنين وتزيدهم قوةً وصلابةً وتُضعِف موقف معارضيهم . مصدقةً اسمها السَّجدة أي حالة الرسوخ في الأرض والانتصاب بقوة أمام التحديات . فسبحان من أنزل الكتاب وأعطى السور أسماءها .

* * *

سورة الأحزاب

السُّورة الثَّالثَّة والثَّلاثون . وحظيت باسم الأحزاب من ناحيتين : الأولى اشتغالُها بمعالجة الأهواء والشهوات الباقية في نفوس المؤمنين ، وممارسات المنافقين في مدينة النبيّ وخصوصاً في مجال شهوة النساء . وعلى بساطتها مقارنةً بما تفعله شعوب أخرى ؛ إلا أنها غير لائقةٍ بمدينةٍ يديرها نبيٌّ . فكان الجواب في الناحية الثَّانية من السُّورة أن أذن الله لأحزاب الكفر والشرك أن تصل المدينة وتحاصرها . كي تتطهر القلوبُ المؤمنةُ من بواكير ضعفٍ وشهوةٍ كانت قد غزتها . ولما ثبتت على الإيمان وقاومت الحصار والعدوان ولم تضعف أمام شائعاتِ المرجفين وخيانةِ الحليف اليهودي ؛ أكرمها الله بتعليماتٍ جديدةٍ ، تصونها من انحرافاتٍ شهوانيةٍ صغيرةٍ . وفتحت لها طريقاً جديداً للتمدن ، ووضعت الأمورَ في نصابها بقولٍ سديدٍ بعيدٍ عن الإفراط والتفريط . وعلمتنا إلى آخر زماننا قيمة العفة ووسائل الحفاظ عليها وشروط استحقاق اسمها .

عنوان السُّورة وموضوعها :

اسمها الأحزاب . وقد وردت الكلمة في الآية ﴿ **يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ (الأحزاب:٢٠). ثم تكررت في الآية (٢٢) . والمقصود بالأحزاب هنا تجمع قبائل من العرب ومن بني إسرائيل لقتال المسلمين في المدينة . وقد ورد وصف المعركة في السُّورة . ولم تُذكَر في سواها .

الأحزاب من مادة حزب . وعنها يقول الخليل بن أحمد في كتابه العين : « الحزب : الأصحاب على رأيك وأمرك ، حزبك ، أصحابك ، كلّ طائفة أهواؤهم واحدة ».

ويقول ابن منظور في لسان العرب : « كلّ قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب ، وإن لم يلق بعضهم بعضا . الأحزاب : كلّ طائفة هواهم واحد ».

إذًا فالرابط بين أعضاء الحزب هو الهوى . وقد يكون هوًى على الحقّ وقد يكون على الباطل . ولكن عندما تجتمع أحزابٌ مختلفةٌ لمحاربة نبيٍّ فلا يكون الهوى الجامع لهم إلا ضلالاً وحقداً على الحقّ الذي يدعو إليه النبيّ .

التحزب يقوم على هوًى . والسُّورة تعالج انحرافاتٍ في مجتمع المدينة . وكلّها انحرافاتٌ ناشئةٌ عن الهوى . وإذا كانت أهواء النفس كثيرةٌ ، فإن أقواها وأشدَّها ما كان هوى الخطيئة الأصلية وهي اشتهاء الجنس الآخر بغير حقّ . وتتراوح شدتها بدرجة الشهوة المبتغاة . لذلك تذكر السُّورة انحرافات تتعلق بشهوة الجنس . وفي السُّورة معالجاتٌ لها على تعدد أنواعها ونتائجها . ويأتي ذكر غزوة الأحزاب للمدينة مع ذكر انحرافات سكانها تقديراً إلهيًّا عادلاً . فذنوبهم في هوى المعصية سهلت اجتماع إرادة الأحزاب وجمعها على هوًى واحدٍ وتَحَرُّكِ جيوشِها إلى المدينة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

موضوعها الرئيسي ، كما رأينا ، ظهور أهواء النفوس في المدينة . فكان العقاب اجتماع أهواء الأعداء ليحيطوا بالمدينة . ثم يجتمع الحدث المزلزل مع آيات سورة الأحزاب لتطهير مدينة رسول الله مما لا يليق بها .

أطروحة السُّورة : على غير العادة تأتي أطروحةُ السُّورة طويلةً مفصلةً مقارنةً بسواها . ولعل السبب أنها تناقش قضايا حساسةً هي علاقات الجنسين والأسرة والزّواج والظهار والتبني وحدودَ الناس أمام النبيّ وأهل بيته . فلزم فيها عرض الأمور بوضوحٍ . بل كانت الأطروحة على مستويين كما كانت في سورة النساء . ولعل تقارب موضوعي السورتين هو السبب في تشابه الطرح .

تبدأ الأطروحة موجهةً للنبيِّ بقسوةٍ يستغربها القارئ ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ (الأحزاب: ١-٣) .

والأصل بالنبيّ أنه يتقي الله ويتبع وحي ربّه ولا يطيع الكافرين ولا المنافقين . فهل كثر النفاق في أرجاء المدينة حتى احتاج النبيّ تحذيراً من مسايرة المنافقين؟

ثم تنتقل الأطروحة إلى المستوى الثَّاني المكون من تفاصيل كلّها تتصلُ بالأسرة وعلاقاتها الداخلية مصاغةً بطريقة الأطروحة ، حيث تحتشد المواضيع بعناوينها تمهيداً لتفصيلها لاحقًا : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤-٨)

وقد أعـادت السُّورة تفصـيل كـلّ المواضـيع الـتي تحتـاج تفصـيلاً وأحكامـاً إلا موضوع الظهار الذي ترك لسورة المجادلة . وكأنَّ ذكره هنا كان للنهي عنـه . فـإن لم ينتهوا تأتي الأحكام المشددة في سورةٍ أخرى لاحقةٍ .

غزوة الأحزاب : يبدأ تفصيل السُّورة بموضوع غزوة الأحزاب الذي لم تشر إليه الأطروحة . ولكن عرض قصة الغزوة من زاوية نعمة الله على المؤمنين وبخطابٍ مباشرٍ لهم ؛ ثم التشهير بمواقف المنافقين حيال الغزوة ، يجعل الغزوة جواباً لحالة التراجعُ الإيماني في المجتمع المدني ، وعقاباً على ظهور بوادر فسادٍ لا تليق بمجتمعٍ نبويٍ مما ورد في الأطروحة . لذلك تركز الآيات الأولى من قصة الغزوة على مشاعر الرعب التي أصابت المؤمنين في بداية الغزوة . رعبٌ يقابل الانحرافات التي ذكرتها الأطروحة . ثم تنتقل الآياتُ للحديث عن المنافقين والمتربّصين بالإسلام وتفضح دواخلَهم وانفعالاتِهم وسلوكَهم تجاه الموقف الصعب . ثم تنتقل لتماسك المؤمنين بعد أن تغلبوا على الصدمة الأولى لهجمة الأحزاب بثباتهم حول الرسول حتى يتحقّق النصر ويعودَ الغزاة مهزومين ، لم ينالوا خيراً . ولولا ذنوبٌ للمؤمنين لما كان مبررٌ عادلٌ لصياغة الآيات الثَّلاث (٩-١١) في بداية وصف الغزوة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:٩-١١)

وتليها آياتٌ تفضح مواقف المنافقين تجاه الغزوة الظالمة ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب:١٢-٢٠)

وهذه المجموعةُ من الآيات وما بها من توجيه النبيّ لمخاطبة المنافقين توحي بأن وصول الأحزاب إلى المدينة كان بمعظمه عقاباً للمنافقين على سوء ظنهم بالله، وتربّصهم بالنبيّ وفسقِهم الذي ستكشفه السُّورة لاحقاً خصوصاً مع نساء المؤمنين.

ثم تخاطب الآياتُ المؤمنين تدعوهم للاقتداء برسول الله وتمدح المخلصين منهم الصادقين مع الله في مواقفهم أثناء الغزوة، وتجعل النصر إكراماً لهم ومكافأةً على إخلاصهم وإحباطاً لأحلام الغزاة من قريش وغطفان: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ

ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (الأحزاب: ٢١،٢٥).

ولا بد من وَقفةٍ هنا لإزالة اللبس الذي قد يطرأ نتيجة اختلاف موقف النص من المؤمنين بين البداية إذ تزيغُ الأبصارُ وتبلغُ القلوبُ الحناجرَ، وبين ثباتهم وصدقهم وتصديقهم واستحقاقهم للمدح. فقد كانت الصدمة الأولى نتيجة تراجعٍ في إيمانهم لأسبابٍ ترد لاحقاً في السُّورة. ثم زالت الحالة الطارئة وعاد إليهم إيمانُهم وصدقُهم فاستحقّوا النصر والمدح من الله. ثم تكون المكافأة الأكبر وهي هزيمة حلفاء الأحزاب من بني إسرائيل، والاستيلاء على أرضهم وأموالهم بما خانوا الله ورسوله ونكثوا عهدهم مع النبيّ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٦،٢٧).

معالجة مشكلات المجتمع النبوي: ويأتي ذكر المشكلات بعد قصة الغزوة مباشرةً ليقول للنبيِّ إن في مجتمعك خللاً هو السبب فيما عانيتم من الغزوة فأصلح مجتمعك. وتبدأ المعالجة من بيت النبيّ.

في بيت النبيّ بلا مواربة يقول له الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٨-٣٤)

إنهن سبع آياتٍ منهن آيتان موجهتان للنبيِّ وفيهن تهديدٌ لنسائه . ثم في خمس آياتٍ يخاطبهن الله مباشرةً إكراماً لهن ؛ فهن أهلٌ لخطاب الله المباشر الذي لا يكون إلا للمؤمنين الصادقين . فما سر التهديد السابق إذاً ؟ يأتي الجواب في الخطاب المباشر فهن نساء النبيّ لسن كبقية النساء . يعشن مع رسول الله ويشهدن نزول الوحي . لذلك يحاسبن على الهنات كما يحاسب غيرهن على الكبائر . وبصراحةٍ واضحةٍ تقول لهن الآية (٢٠) : من ترتكب فاحشةً يضاعف لها العذاب مقارنةً ببقية المؤمنين . ومن تقنت وتتحمل جدية الحياة مع النبيّ فأجرها مثل ضعف بقية المؤمنين. وهذا هو منهج الله مع من يحب من أوليائه. يضاعف له العقوبة إن أخطأ .

ثم تأمرهن الآيات بالاحتجابِ في بيوتهن مما يدل على خللٍ ما في المجتمع المدنيِّ . فالبقاء في البيت هو الذي يجنبهن الرجس الذي لا يليق ببيت النُّبُوَّة . بل يحذرهن من البساطة في الحديث مع الرجال فلا يتكلّمن إلا بالجدِّ اللائق بهن كي لا يطمع من في قلبه مرض .

ولبقية المؤمنين : تأتي صيغة الآية (٣٥) لتشمل الصنفين الذَّكر والأنثى في كلّ صفة ، مُذكِّرة بالجو الأسري ؛ فلهم أجرهم ولهم مغفرةٌ ما التزموا طاعة الله وصدق العبادة والعفة ، ولتنهى ضمناً عن الكسل في العبادة والتساهل في موضوع العفة ، الذي توليه السُّورة اهتماماً كبيرة . ﴿ **إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (الأحزاب:٣٥). وبهذه الأعمال ضمانةٌ لاستمرار إيمان المسلم قويًّا .

والبيت الذي يلي بيت النبيّ : وفي بيتٍ على تلك المنزلة من النُّبُوَّة لا يجوز أن يغلب فيه إلا أمر الله وأمر رسوله . وإنه لتشريف لذلك البيت أن يتلقى أمر الله وأمر نبيه في شأنٍ من شئونه . فإن رفض فإنما هو الهوى الشخصي والضعفُ أمام تصورات النفس الخادعة . وأتعمد هنا عدم التطرق للقصة التي كانت مناسبة للآية لأثبت للقارئ أن العنوان كاف لتوجيه السُّورة الوجهةَ الصحيحة ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ**

وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب:٣٦). فعندما يكون أمرٌ من الله ورسوله فلا تكون المخالفة إلا هوى النفس .

ثم يتجلى الحياء في سلوك النبيّ مقابل أمر الله مع أن الأمر الإلهي له كان ثقيلاً جدًّا . ولكنه النبيّ الذي يجب أن لا تأخذه في أمر الله لومة لائم . يأمره الله أن يوافق على طلاق زيدٍ وزينب ؛ ليُتم الله حكمَه ويُحررَ الناس بِعرْض النبيّ من أخطاءٍ راسخةٍ في حياتهم ؛ وهي اعتبار التبني كالبنوَّة الحقيقيّة . فيستحي بقدر ما لديه من خلفيةٍ اجتماعيةٍ مهذبةٍ . ولكن طاعةَ التقاليد مقابلَ أمر الله لا يليق بنبي من أولي العزم . ولهذا كانت الآية الأولى في السُّورة قاسية وقالت له ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الأحزاب:١) . وهنا تفصل السُّورة ذلك بأمور محددة : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٣٧-٤٠) فالرسل لا إرادةّ لهم أمام إرادةِ الله ؛ وليس لهم إلا تنفيذّ أمره سبحانه . ونبيُّنا محمدٌ ليس أباً لرجلٍ من الأمة ، لا لزيدٍ ولا لسواه . وكلّ ذلك لأمرٍ من قدر الله النافع للأمة .

موعظة وبشرى للمؤمنين : ليتطهروا من الهوى ومكافأة لهم على ما صدقوا في مواجهة الأحزاب ، يوجه سبحانه الخطاب إلى المؤمنين مباشرة بمواعظ تزيدهم إيماناً وتحررهم من بقايا الهوى ، تتلخص في مداومة ذكر الله وتسبيحه . فيستحقّون عندها أن يصلي عليهم الله وملائكته . والصَّلاة هنا بمعنى النظر إليهم باهتمامٍ ورعايةٍ ليخرجهم من الظلمات إلى النُّور . ثم ينتقل النص مباشرةً إلى الحياة الآخرة واصفاً حسن مصيرهم . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

﴿ وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾
(الأحزاب: ٤١-٤٤)

رسالةٌ وديةٌ للنبيِّ وللمؤمنين معه: فيما يبدو أنه غفرانٌ لما كان وعفوٌ عما كان، مما ذُكِر في مطلع السُّورة . ويُحمِّله بشرى للمؤمنين ونهي عن طاعة الكفار والمنافقين استمراراً لما بدأته السُّورة . وبذا تأتي الآيات التالية (٤٥-٤٨) . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٨) .

استئصال الشرِّ من جذوره : قلنا آنفاً إن السُّورة تأتي لتحرير المؤمنين من الهوى . وأن أشدَّ الهوى وأخطرَه ما كان شهوةَ الجنس بغير حقّ ، وخارجَ فطرة الله التي فطر الناس عليها . والهوى هنا ليس ما يؤدي للفاحشة وحسب ، بل له وجوه عديدة في مجال علاقة الجنسين والحياة الزّوجية . لذا كانت باقةً كبيرةً من الآيات لتطهير المجتمع . ويلاحظ أنها مواعظ وأحكامٌ لعلية القوم ، كالنبيّ وأهل بيته والمؤمنين ونسائهم وبناتهم . وهذا ما يتمشى مع رسالة القرآن المسجلة في الآية الثَّانية من سورة البقرة ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ . فللمتقين الذين يحافظون على عفتهم ويُخشى عليهم إحراجها تأتي مواعظُ سورة الأحزاب . وليس للذين كسروا سياج العفة فلا مجال لمخاطبتهم هنا .

- تعرض الآية (٤٩) لحالة يُخشى معها الخطأ وهي مرحلةٌ ما بين عقد القران وما بين الدخول في حياةٍ زوجيةٍ معلنةٍ يعلمها المجتمع . فتقول الآية إن حدث فسخ لعقد القران قبل بدء الحياة الزّوجية فلا عدة على الزّوجة ، لأنه لم يحدث اتصال جسدي . وما يستنتج من الآية دون أن يظهر بكلمات أن عقد القران في حد ذاته ، لا يبيح الاتصال الجسدي بين الزّوجين في ما نتعارف على تسميته بمرحلة الخطوبة ، ما لم يعلنا للمجتمع بدء حياتهما الزّوجية . فهذا أطهر للمجتمع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾

(الأحزاب: ٤٩)

- **زيجات النبيّ** : القوم الخَصِمون لا يعرفون الفرق بين زواج النبيّ وبين زواج أي رجلٍ يبحث عن شهوة . وتأتي آياتُ زواج النبيّ بعد قصة زواجه من زينب بنت جحش . وقد رأينا تردد النبيّ وحياءه من تنفيذ أمر الله . فالنبيّ لا يتزوَّج للزواج بل ليتعلم المسلمون أحكاماً وتقاليدَ محترمةً في الزّواج والعلاقات الاجتماعية . ومن أجل حمايةِ الخصِمين من جهلهم تأتي آياتُ زيجات النبيّ . وليعلموا أن بيت النبيّ قائم على طاعة الله وأنه قاعدة الطهر والالتزام بأمر الله . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ۝٥١ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا** ﴾ (الأحزاب: ٥٠-٥٢) . وواضحٌ من نص الآيات المتتابعة أنها نزلت في أزمنةٍ متباعدةٍ . لكنها جُمعت هنا لتكون جزءاً من فصلٍ متكاملٍ يخدم فكرةً واحدةً بما يليق بكتابٍ من عند الله . وفي الآية (٥٠) ما يستحقّ النظر وهو استعمال كلمة «يستنكحها» أي يخطبها من وليها وفق العرف . ولم تقل الآية ينكحها فيكون قبولاً منه لطلبها .مع أنها وهبت نفسها للنبيِّ مما قد يعفيه من المهر كما فهم بعض المفسرين (الجلالين) .

- **مراسم دخول بيت النبيّ** : ما كانت الآيات لتنزل لو كان المخاطبون أرقى وأعلى تهذيباً . فالآية (٥٣) تفرض الحجاب على نساء النبيّ فلم يعد يُسمح لأحدٍ بمقابلتهن وجهاً لوجه . وكان قبل ذلك مسموحاً ؛ ولكن تراجعاً حدث في أخلاق الناس أحوجَ لهذا الحكم الجديد . كما تنهي الآية عن تمني الزّواج بنساء النبيّ بعد وفاته ، فنساؤه أمهات المؤمنين ولا يجزن زوجاً لأحدٍ بعده . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ**

نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾ (الأحزاب:٥٣-٥٥) .

من الجدير بالملاحظة هنا أن العم والخال لم يذكرا مع بقية المحارم . وهذا يعني انه لم يسمح لنساء النبيّ باستقبالهما . وأذكر هذا ردًّا على أحاديث موضوعة تزعم أن عائشة استقبلت عما لها بالرضاعة ! فلا مكان هنا حتى للعم شقيق الأب . ولا مجال لاعتبار العم مشمولا مع الأب فهذا مما لا يجوز في آيات الأحكام . حتى لو جاز أن يكون العم أبا فأين الخال ودرجة قرابتهما واحدة .

- **زيارة النبيّ مستحبة بل مطلوبة :** الآية (٥٦) جاءت لتزيل لبساً ربّما سببته الآيات السابقة فكانت سبباً للبس أكبر في حياة الأمة . بعد النهي عن دخول بيت النبيّ دون دعوةٍ ربّما ظن أناسٌ أَن زيارة النبيّ غيرُ مستحبةٍ . فجاءت الآية (٥٦) لتقول لهم بل هي مطلوبةٌ . فالله وملائكته يشهدون مجلس النبيّ وهذا معنى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ** ﴾ أي ينظرون إليه بتركيزٍ وحبٍّ فسارعوا إلى مجلسه فإن وصلتم إليه فسلموا عليه تسليماً . وجاءت كلمة « تسليما » بصيغة المفعول المطلق . أي ما يعني مطلق السلام وليس أي شيءٍ آخر يمكن أن يحل محله . وذلك لتشاركوا بنيل بركة مجلس ينظره الله تعالى والملائكة . وليس في الآية أمر بقول (صلى الله عليه وسلم) كما فهم بعض المفسرين . فهذه عبارةٌ لا معنى لها ولم تعد لازمةً بعد وفاة النبيّ . فلم يعد النظر إلى وجهه الشريف ممكناً . وفي كلّ الظروف لا علاقة لها بالآية . ثم تتحدث الآيتان (٥٧-٥٨) عن الذين يؤذون النبيّ والمؤمنين . فهم المقصود بآيات تشريع زيارة النبيّ وليس أنتم أيها المؤمنون المهذبون ؛ ومثلهم الذين يثيرون الشبهات الظالمة حول المؤمنين . ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ (الأحزاب:٥٦-٥٨) .

- **أدنى أن يُعرفن :** الآية (٥٩) توجه نساء النبيّ وبناته ونساءَ المؤمنين إلى تجنب الإزعاج والأذى ، وذلك بإظهار وجوههن كي يعرفن عند خروجهن من بيوتهن . فمن يَعرف من فتيان المدينة أن هذه المرأة زوج النبيّ أو زوج صحابيٍّ جليل يجتنب إيذاءها . وكلمة يُعرفن ليس لها من معنى سوى أن يُعرفن بأشخاصهن . وكأنَّ هذه الآية لها وظيفةٌ أخرى هي نشر الثِّقة بين الناس وتحضيرهم لحالة أعلى من التمدن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الأحزاب:٥٩) .

- **تهديد المنافقين وأضرابهم :** المنافقون ومرضى القلوب بالشهوة المحرمة وأصحاب الشائعات السياسية المضعفة لمعنويات المؤمنين ، هم الذين يقصدهم التهديد بالعقاب حتى الطرد من المدينة . ﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ (الأحزاب:٦٠-٦٢)

- **مشاهد من يوم القيامة :** ردًّا على أسئلة أصحاب الشهوات عن الساعة يأتي الجواب على غير ما يتمنون . فهم يريدون أن يعلموا أنها بعيدةٌ جدًّا ليتمتعوا دون أن يحسبوا حسابها . فيأتي الجواب للنبيِّ لينقل لهم أنها قد تكون قريبةً ؛ فلا تطمئنوا لبعدها وأنتم تنقادون لأهوائكم . ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ (الأحزاب:٦٣-٦٨) .

- **تنقية المؤمنين :** في نداءٍ أخيرٍ توجهه السُّورة للمؤمنين تنهاهم عن إيذاء النبيّ ، كي لا يقعوا بمثل ما وقعت به بنو إسرائيل مع موسى . وسبق للسورة أن أعلمتنا كيف آذى المؤمنون نبيَّهم . آذاه منهم حديثهم مع نسائه حديثَ استئناس ، وتفكير بعضهم بنساء النبيّ على سبيل اشتهائها زوجاً له بعد موت النبيّ . نعم حتى حديث النفس هذا يعتبر إثماً عند تلك الدرجة المجاورة للنُّبوَّة . ثم تأمرهم الآيات بالجديَّة في القول وعدم الثَّرثرة بما لا يليق . وتأتي الآية (٧٢) الملبسة لكثيرين فما هي الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال فأشفقن منها؟ لعل مما يساعد على فهمها ورودها في هذه السُّورة . ففي سورة الأحزاب والأهواء ، وما رأينا من مواضيع السُّورة ، التي تركزت جميعها حول العفة والطهر ، تكون الأمانة هي العفة والمحافظة عليها . ويكون ذكر السموات والأرض والجبال على سبيل المجاز المرسل وعلاقته محلية ؛ فيكون المقصود من يحلون في السموات من طير وسواها ومن يحلون الأرض والجبال . أي أن الله عرض الأمانة على ما في السموات والأرض والجبال مما يليق به التكاثر ، ليحافظ على العفة وصدق أسماء المواليد عندما يُنسبون لآبائهم . فأشفقن منها وحملها الإنسان . . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا** ﴾

(الأحزاب: ٦٩-٧٢)

ومن الطريف أن بعض المفسرين توصل إلى هذا المعنى للأمانة رغم عدم استعمالهم لمنهجنا هذا فى التفسير . فقد نقل كلّ من الطبري وابن عطية وابن كثير عن أبي بن كعب قوله « من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها ».

وختاما فإن بيان هذه الأحكام إنما يأتي ليكون الناس على بيِّنة ؛ فيُعذَّبُ من اختار النفاق والشرك وينجو من اختار الإيمان ﴿ **لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا**

رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٣) . وفي هذا تلميح أن الزِّنا حاجز دون الإيمان ، وسبب كبيرٌ للشرك والكفر والنفاق .

وتأتي الفقرة الأخيرة استجابة تامة لأطروحة السورة التي نهت عن التبني الذي يخل بصدق الأسماء وهو ينسب الإنسان لغير أبيه . ونهت النبي عن طاعة المنافقين والكافرين . فتُختم السورة بذكر أمانة العفة وما يتبعها من صدق انتماء الابن لأبيه وتتلوها آية مصير المنافقين والمشركين والمؤمنين . وهذا الترتيب في القول مما يتفق مع أحدث ما ألهمه الله لعباده في فن كتابة النثر .

* * *

سورة سبأ

سبأ السُّورة الرابعة والثَّلاثون . أخذت اسمها من قبائل سبأٍ الـتي كانـت ترفـل في النعيم ولم تشكر المنعم سبحانه . بـل تفـاخر بعضـهم علـى بعـض ، ونسـوا المـنعم فانتزع الله منهم نعمته . وجعلهم مثلاً لقريشٍ عسى أن تتعظ وتُطيعَ نبيها الذي أرسله الله إليها . ولم تكتف السُّورة بذكر عقاب المجتمع الذي يكفر النعمة بل تخبرنـا عـن شاكرين مدَّد الله سلطانهم خارج حدود حياتهم لما شكروا وأدَّوا حقّ النعمة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

سبأ ، وقد وردت كلمة سبأ في الآية (١٥) إذ يقول تعالى ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ (سبأ:١٥) . والمقصود بها هنا قبيلةٌ أو مجموعة قبائلَ اسمها سبأ . كانت تسكن مأرب وتعيش على الزِّراعة بماء سدِّ مأرب . أرسل الله عليه سيل العَرِم فانهدم السدُّ وتفرقت فروع القبيلة أيدي سبأ كما قيل ، وكما وصفت السُّورة مصيرهم .

ومن معاني كلمة سبأ : قال الخليل في العين : « سبأته النار أحرقت مـن أعاليـه . وسبأته السياط : لذعته »

وفي مقاييس اللغة للرازي : « سبأت جلده : سـلخته » . وفي لسـان العـرب لابـن منظور : « وسبأته السياط والنار سبأ : لذعته وقيـل غيرتـه ولوحتـه ، كـذلك الشـمس والسير والحمى كلّهن يسبأ الإنسـان أي يُغـيره . . . وانسـبأ الجلـد : انسـلخ ، وانسـبأ جلده إذا تقشر » . وفي قاموس المعاني : « سبأ : كشطه »

ويلاحظ أن كلّ استعمالات الكلمة تتعلق بأذى أوضرر يصيب الجلد كنزع الجلد أو كشطه أو لذعه أوتلويحه بحرارة الشمس أوتقشيره . فلماذا اختيرت هـذه الكلمـة التي لا تصيب إلا الجلد أذًى أو ضرراً ؟

أقرب معنى يليق بالسُّورة نزع النعمة . فهل مـن علاقـة بـين إيـذاء جلـد الإنسـان أوالإضرار به وبين نزع النعمة؟ الأصل في حياة المجتمع أو الإنسان الفرد أن يحصـل

على الكفاف والكفاية ، فإن حصل على الوفرة وهي فوق الكفاف كان في نعمةٍ زائدةٍ عن حاجته . وانتزاعها على صعوبته يشبه كشط الجلد ؛ والجسم قادرٌ على تجديده والاستغناء عما فقد منه .

ولكن لماذا كنى الله عن نزع النعمة بالسبأ أو بسلخ الجلد؟ فلأن جلد الإنسان هو أكثر أجزاء الجسم تمتعاً بالنعمة الزَّائدة عن الكفاف . ومعظم النعم الزَّائدة عن الضرورة يستقبلها الإنسان ويتمتع بها بواسطة حواسه المتصلة بالجلد . فحاسة اللمس وهي مقياس النعيم لا تكون إلا بالجلد (ومن أبرزها الطعام الغني الشهي الذي ينعكس على صحة الجلد ، واللباس الناعم الوثير وملامسة النساء الناعمات وكلّ هذا مما يُدرك بحاسة اللمس الجلدية ، والراحة من العمل الشاق تظهر على لون الجلد وملمسه) . بينما يكتفي الجسم ككلّ برزق الكفاف والضرورة . فهذا العنوان في حد ذاته معجزةٌ إلهيةٌ ؛ ولا يمكن أن ينتبه لمثله بشر . فطاقة البشر دون هذا المستوى من الإحاطة بالأمور خصوصاً في زمن التنزيل .

لذا فإن موضوع السُّورة نزع النعمة عندما لا يشكرها المجتمع أو الفرد فلا يستحقّها . وتعطي السُّورة مثلاً بالذين يشكرون النعمة فتتمدد سلطتهم ونعمة الله عليهم حتى بعد الموت كما حدث لسليمان بن داود .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

هذه السُّورة قطعةٌ فنيةٌ نادرةٌ المثال . فعدا عن اسمها الذي أقام موضوعها بما يَعجَزُ العقل عن إدراك سره ؛ وهي تبدو بصفتها فصلاً قرآنيًّا موجهةً لكلّ من يسمعها أو يقرؤها . ومع هذا فإنها تنطلق بطريقها كالسهم لتصل إلى عقول المعنيين بها وقلوبهم .

أطروحة السُّورة : تعرض السُّورة فكرتَها الرئيسية في آياتِها الست الأولى . وبالحمد لله تبدأ الآية الأولى . ثم تقوم الآية الثَّانية بتفصيل طبيعة سيطرة الله على السموات والأرض وما فيهن . وتعرض الآية الثَّالثَة وجها آخر لسيطرة الله على الكون وكلّ ما فيه من زاوية الرد على إنكار الكفار للبعث والساعة . ثم تعرض مصائر الفئتين المؤمنة والكافرة ؛ وتجعل نعمة الرزق الكريم للمؤمنين . وتؤكد الآية السادسة أن الذين أوتوا العلم يدركون منزلة القرآن وهدايته للناس . ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ**

﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (سبأ: ١-٦)

حجّة المعاندين : تبدأ الفقرة الثّانية بمقولات الذين كفروا تفصيلاً لما جاء في الآية الثّالثَة من الأطروحة . فهم ينكرون البعث ويكذبون النبيّ فتُختمُ الفقرة بتهديدهم تهديداً يفهمونه . ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ (سبأ:٧-٩) . فالله الذي قدمت الآيات طرفاً من قدرته وسيطرته التامة على الكون وكلّ مكوناته قادرٌ أن يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفاً من السماء . ولهم فيما علموا من أخبار الأمم البائدة عبرةٌ . وفي الآية تهديدٌ بنزع النعمة عنهم وبقلب حياتهم رأساً على عقب .

مثل من قوم أدُّوا حقّ النعمة : تضرب الآيات (١٠-١٤) مثلاً بداود وولده سليمان اللذين أُنعم الله عليهما بقوًى وملكاتٍ لم ينعم بمثلها على أحدٍ جزاء شكرهما . وباستمرار الشكر كانت النعمة تزداد وتستمر . بل تحدثنا الآيات عن حالةٍ نادرةٍ استمرت بها سلطة سليمان على خدمه من الجن حتى بعد موته ، ولمدة كانت تكفي لتأكل الأرضَةُ عصاه التي يتكئ عليها ميتاً فيسقط . ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ

ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ:١٠-١٤) . حالةٌ نادرةٌ لم تعرف لها البشرية مثيلاً . ولكن شكر سليمان أهّلَه لاستمرار سلطانه بعد موته وكأنه لم يمت !! فهل كان في هذا المثل درسٌ لقريشٍ ولأهل النعمة فيها؟

ومثلٌ ممن كفروا النعمة : مقابل مثَل داود وسليمان يضرب الله مثلاً بشعب سبأ الذي أنعم الله عليه ؛ فكفر النعمة ولم يشكر المنعم ؛ فانتزعها الله منهم وفرقهم بعيداً عن وطنهم حتى صاروا مثلا في التشتت ، وصار مصطلح « تفرقوا أيدي سبأ » شائعاً في ثقافة العرب إلى يومنا هذا . ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (سبأ:١٥-٢١) . والآيات تَذكر آثاماً أخرى بالإضافة لكفران النعمة . فطلبهم تباعد أسفارهم ليس له مبررٌ إلا البطر والتظاهر بالنعمة أمام المحرومين منها ، مقابل ما يسَّره الله للقوم جميعاً من حياةٍ سهلةٍ وسفرٍ ميسرٍ . لذلك استحقّوا أن يُمَزَّقوا كلّ ممزق . إنهم الصورة المقابلة تماماً لصورة داود وسليمان الذين لم تفسدهم النعمة بل زادتهم خضوعاً لله واستعملوا النعمة فيما ينفعهم وينفع قومهم!!!

رسالة إلى مشركي قريش : تتضمن بقية السُّورة رسالةً إلى قريشٍ موجهةً إليهم بواسطة النبيّ . وفي الرسالة ردودٌ على تصوراتهم الخاصة حول وحدانية الله . وتُذكِّرُهم بنعم الله عليهم . وتخفف عن النبيّ عندما تحصر عمله بالوعظ إنذاراً وبشارةً لقومه .

- تبدأ الرسالة بتجريدهم من وَهْمِ الشركاء . ولا شافع عند الله إلا من يرضاه الله ويأذن له . وهو سبحانه الرزاق لا رازق للناس سواه . ثم يؤمر النبيّ أن يقول لهم إمَّا أن أكونَ على الهدى ومن معي أو تكونوا أنتم ، ولكن هيهات . وإن لم نكن المهتدين فلن تحاسبوا يوم القيامة عما نفعل ، فكفوا شركم عنا!

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(سبأ:٢٢-٢٧)

- الخطاب كلّه للنبيِّ للردِّ عليهم لكن الآية (٢٨) له وحده ليطمئن ولا يُهلك نفسه حسرةً بسبب إصرارهم على الضلال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨) . فهو كافةٌ لقومه أي واعظٌ لهم بالبشارة والإنذار وليس عليه ألا يؤمنوا . وليس في الآية ما يدل على عالمية الدعوة كما يشيع خطأً بين الناس .

- ويسألون عن موعد الفتح بين الفريقين فيؤمر النبيّ بتأكيد وجود موعدٍ محددٍ بالساعة وليس اليوم فقط . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (سبأ:٢٩، ٣٠)

- ثم يردُّ على إنكارهم للقرآن بإطلاع النبيّ على مشهدهم يوم القيامة وهم يتلاومون ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ:٣١)

- المترفون ممن حظي بأكبر نصيب من نعمة الله هم أول من يعارض رسل الله . وبدل شكر النعمة يفاخرون بها الرسل وأتباعهم الفقراء ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا

وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (سبأ: ٣٤-٣٩) .

فهو تهديدٌ لقريشٍ بنزع النعمة عنها كما سبأها عن سبأ!

- مشهدٌ آخر من مشاهد القيامة لنفي الربوبية عن الملائكة وقد عبدهم بعض الناس ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠-٤٢). وذِكْرُ آلهتهم المدعاة لحشرهم في زاوية ضيقة فيعلمون أن آلهتهم لا تقدر على شيءٍ ، فليعودوا إلى الله وحده فيعبدوه ويشكروا نعمته . أو ينتظروا مثل مصير سبأ .

- وكعادة المنعمين المحافظين على مكاسبهم يرفعون شعار الأصالة واتباع تراث الآباء . بجانب اتهام النبيّ بالكذب وبالسحر ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ (سبأ: ٤٣)

- وتوجيه للنبيِّ بدعوتهم للتفكير ، فهم جهلةٌ بالدين ولم يسبق إنذارهم منذ عهد بعيد ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾ (سبأ: ٤٤-٥٠) .

- وتُختم الرسالة بمشهدهم يوم النشور وقد خرجوا فزعين من قبورهم لم يغب أحدٌ منهم عن المشهد الرهيب . فيعلمون أنه الحقّ ويعلنون إيمانهم بالنبيّ بعد فوات الأوان . وحيل بينهم وبين الإيمان والذي عبرت عنه الآية (بما يشتهون) تذكيراً لهم أن شغلهم بما يشتهون من متع الدنيا حرمهم ما سيشتهون يوم القيامة **﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾** (سبأ: ٥١-٥٤) .

فالهدف من السُّورة دعوتهم للإيمان بالله وبرسوله مقابل تهديدهم بانتزاع نعمة الله التي يعيشونها ويعرفونها كما فعل بسبأ . بل تشجيعهم على الإيمان لأن الله يزيد نعمته على من يؤمن به ويشكر نعمته كما حدث مع داود وسليمان .

* * *

سورة فاطر

السُّورة الخامسة والثَّلاثون ، وهي مكيةٌ تخاطب النبيّ والمؤمنين . وتُحمِّل النبيّ رسائل للمشركين . فكلّ آيةٍ أو مجموعة آياتٍ متماسكةٍ ضمن وحدةٍ فكريةٍ إن لم تبدأ بكلمة « قل » واضحةً مكتوبةً فهي مقدرةٌ ضمناً . وقد تظهر كلمة « قل » في منتصف الفقرة التي تشكل مجموعةً فكريةً واحدةً زيادةً في الرشاقة .

ولا تكاد تخلو فقرةٌ من تذكير السامع والقارئ بسيطرة الله التامة على الكون ؛ وأن إنشاء كلّ خلقٍ جديدٍ ، أو تغييرٍ فيه إنما يكون بإذن الله وحده وعلمِه وقدرتِه وإرادتِه . وليس الأمر متروكاً للقانون الطبيعي يسير وحده ، رغم إتقان الصنع ودقة القانون . وفي السُّورة حقيقتان لعلهما لم تتضحا في سواها . وهما تدرج الخلق وتباينه ، فالنُّور درجاتٌ والظلام درجاتٌ كما الإيمان درجاتٌ والحياة مستويات . والحقيقة الثَّانية ما تقوله الآية ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا** ﴾ (فاطر:٤١) . وفي هذه الآية كسرٌ لفكرة التلقائية في الطبيعة ؛ التي تسيطر على عقول الناس بشأن حركة الكون واستمرار فعالية قوانين الطبيعة . فالله سبحانه يمسك الكون لحظةً بلحظةٍ كي لا يزول . وهذا هو جوهر كلمة « فاطر » بالمعنى الذي تقدمه السُّورة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوان السُّورة فاطر . وهي موجودةٌ في الآية الأولى بمعنى خالق . ومنها كلمة الفطرة التي فطر الله عليها الخلق . والفطرة في الخَلق والخُلق . ففي الخَلق هي سلامة الهيكل المادي للمخلوق وجسمه المادي وانسجامه مع قوانين الكون . فلكلّ جرم في الكون فطرة فُطِر عليها . وفي الخُلق الالتزام بقيم الفطرة التي تضمن استمرار الجماعة بالحياة معا دون اضطراب يؤدي لدمارها وتدهورها . ولحفظ الإنسان في دائرة الفطرة أو قريباً منها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب .

وفاطرٌ اسمُ الفاعل من فطر . ووردت في الآية بمعنى « خالق » ومثلها « جاعل » الواردة في الآية وقد استُعملتا بمعنى خلق السموات والأرض وجعل الملائكة رسلاً أولي أجنحةٍ .

ولكنها كاسم فاعل تأتي وفيها معنى الاستقبال . أي أنه سيفطُر وسيجعل بل يستمر في الخلق والرعاية . وبهذا المعنى تأتي السُّورة . كي لا يظن المشركون أن الله خلق الكون ووضع قوانينه وانتهت مهمته أو سيطرته على الكون ؛ فيظنون أنهم لم يعودوا بحاجةٍ إليه سبحانه . فموضوعها استمرار عملية الخلق والتطوير لكلّ عناصر الكون ورعايتها . وما يلزم داخل الكون من رعاية للإنسان وحفظه وهدايته ليستمر على فطرته السليمة ولا يتدهورُ كنوعٍ أو مجتمعٍ أو أفرادٍ . هو الفاطرُ حتى الآن وهو الفاطر إلى يوم القيامة وستبقى البشرية والكون كلّه بحاجةٍ إليه سبحانه . فهل تؤيد مواضيع السُّورة هذا المعنى أم تنكره؟ هذا ما سنرى عند تحليلها آيةً آيةً .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تطرح السُّورة فكرتها المحورية في آيتين فقط . ولكنهما مليئتان بالمعاني والإيحاءات . ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (فاطر : ١، ٢)

والآية الأولى تؤكد فكرةَ استمرار تطوير الخلق أو الازدياد فيه مصداقاً لما استنتجناه من صيغة فاطر كاسمٍ للسورة . وعلى صعيد الناس فهو سبحانه يحتفظ لنفسه بفتح أبواب رحمته لهم وغلقها لا شريك له في ذلك . وذلك كي لا يظن أحدٌ أن أمر حركة الكون والرزق يسير بشكل تلقائي متروكٍ لعوامل الطبيعة .

بيان اتجاه الأطروحة : تؤدي الآيات (٣-٨) توجيه الأطروحة وتحديد العناصر التي ستعمل من خلالها . ومن خلال الرسول تخاطب الآيات أهل مكّة تذكرهم بنعم الله عليهم ورزقه لهم . ثم تعزي النبيّ بسبب تكذيب قومه له . وقد سبقهم لمثل هذا أممٌ كذَّبت أنبياءها . بل تأمره الآياتُ بمواصلة التأكيد لهم أن يومَ البعث لا ريب فيه

وأن الشيطانَ عدوّ لهم يقودهم إلى جهنم . ومقابلَ المعجَب بنفسه رغم سوء عمله تخفف الآية (٨) العبء النفسيَّ عن النبيّ كي لا يتحسر على ضياع قومه ، فالله هو ربّهم وهو أعلم بهم ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَـٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ** ﴾ (فاطر:٣-٨)

لبيان النقاط المذكورة بهذه الباقة نتوقع أن تتحرك السُّورة منضبطةً بآيتي الأطروحة .

تسيير الكون على مدار الوقت : في ست آياتٍ تتحدث كلّ آيةٍ عن ظاهرةٍ من ظواهر الكون ثابتةٍ في سريانها كالشمس والقمر أو متغيرةٍ كعمليات المطر وخلق المواليد . لكنها جميعاً تسير ثوابتُها بأمر الله ، وبأمره وإرادته ينشأ المتجدد منها :

- فالرياح مَثَلٌ لتَدَخُّل الله على مدار الوقت برزق الناس وحياتهم وإحياء الأرض الميتة ومَثَلٌ للنشور ﴿ **وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ** ﴾ (فاطر:٩)
- ورقابة الله للناس ساعةً بساعةٍ فيُرفَع إليه طيِّبُ كلامهم وعملُهم الصالح ويقدر العقوبة المناسبة لكلّ من يعمل السيئات ، ويبطل مفعول مكرهم ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكۡرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ** ﴾ (فاطر:١٠) .
- وبعلمه سبحانه ووفق خُطته للكون والبشر يجعل الناس أزواجاً ويحدد أنواع المواليد وأعمارهم؛ وبجملةٍ موحيةٍ يرِدُ ذكر تنقيص العمر ليهز قلوب السامعين، كي لا يطمئنوا لتلقائية حركة الحياة وتكرارها المعتاد ﴿ **وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ**

مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ (فاطر:١١)

- وثوابت الكون وعاءٌ لحياة تتجدد كلّ حين . فالبحر الذي يبدو جسماً عظيماً ممدداً على آلاف الأميال يبدو متشابهاً إلا أنه ليس سواء ، فمنه العذب ومنه المالح يتجاوران لا يفصل بينهما إلا قوانين الله . وهو يعج بالحياة المتجددة فيتولد فيه السمك والحيوانات البحرية كلّ حِين لتكون طعاماً للناس ولتصنع لهم اللؤلؤَ والمرجان . وخُلِق ليحمل السفن تمخره بالريح ؛ الذي يخلقه الله لتسهيل النقل والانتقال ؛ ويعرف الناس تدخل الله بحركة الريح وهي تحرك السفن بهم . والثَّابت الآخر ما ينتج عن حركة الشمس والقمر ؛ كلٌّ في فلكه وحسب النظام الذي خلقه الله له ليصنع لخلقه بحركاتهما حياةً ورزقاً حسناً متجدداً . فهل من الشركاء المزعومين من يقدر على مثل هذا ؟ بل إنهم أعجز من أن يسمعوا أو يستجيبوا ولا يملكون قطميراً مجتمعين . ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ (فاطر:١٢-١٤) . وتنتهي الباقة من الآيات بجملةٍ موجهةٍ للنبيّ برشاقةٍ تليق بإعجاز القرآن لتقول لنا إن الخطاب فيما سبق من الآيات إنما كان للنبيِّ ليخاطب به قومه . فتصير كلّ آيةٍ فيما سبق كأنها مسبوقةٌ بكلمة «قل» لتزول شبهة مخاطبة العلي القدير للمشركين دون واسطة .

إنذارٌ إلى المشركين بواسطة النبيّ : تبدأ الآيات (١٥-٢٣) بتذكير الناس بفقرهم إلى الله المستغني بذاته سبحانه ولأن فيها نذير بضعفهم فهي ليست بتفخيم لهم لذلك أذن الله بخطاب مباشر لهم . ثم تؤكد الآيتان (١٦-١٧) قدرة الله على إهلاكهم . بما يتماشى مع الفكرة المحورية للسورة وهي استمرار سيطرة الله على

كلّ الكون والخلائق ما وُجِدَ مِنْه وما سيوجَد . وللتخفيف عن النبيّ تقول له الآية (١٨) أن الذين يستجيبون له هم الأتقياء وهم الناجون يوم الحساب . وتظهر الآيات (١٩-٢٢) تباين كلّ نوعٍ من مخلوقات الله فالناس على درجاتٍ من القرب أو البعد عن فطرة الله . وكما يختلف الأعمى عن البصير تختلف درجات الضوء بعضُها عن بعض شدةً وخفوتاً ؛ وتتباين درجات الظلمة ودرجات الظل والحرور كما لا يتساوى الأحياء في درجة حياتهم . ولا الأموات بدرجة مواتهم . وتختتم الآيات بتذكير النبيّ أنه نذير لقومه فلا يبتئس من رفضهم ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ** ﴾ (فاطر:١٥-٢٣)

بيان للنبيِّ : تشكل الآيات (٢٤-٣٠) بياناً للنبيّ بشأن وظيفته كرسول الله إلى قومه . ويشمل البيان وصف الوظيفة ضمن منهاج هداية الله للبشر . وواصلت عزاءها للنبي ، وتنتهي الآية (٢٨) بأن العلماء من قومه سيدركون عظمةَ الخالق ويطيعونه . وتتحدث الآيتان (٢٩-٣٠) عما أعد الله لعباده المؤمنين العاملين بطاعة الله من جزاء . ﴿ **إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ** ﴾ (فاطر:٢٤-٣٠) . فهو

سبحانه يرى عباده المؤمنين ويسجل لهم أعمالهم الصالحة لحظةً بلحظةٍ ليجازيهم بها يوم الحساب . مما يتماشى مع اسم السُّورة .

مثل للنبيِّ : في الفقرة السابقة قال تعالى للنبيِّ إنه أرسله بالحقّ ووفق سنته تعالى في إرسال الرسل . وفي هذه الآيات (٣١-٣٧) يعلمه أن الكتاب المنزل عليه هو الحقّ أي الكافي لـردِّ الناس إلى الفطرة واستعادة العلاقة السليمة بين الخلق والخالق . وهو في هذا يشبه كلّ كتب الله التي نزلت قبله . فالله منزل هذه الكتب خبيرٌ بما يلزم لاستعادة عباده ووضعهم على الطريق السليم لهم . ثم يصف استجابة المسلمين للكتاب . وهي على درجات تشبه درجات خلق الله في الطبيعة . ثم تتحدث الآيات عما ينتظر كلّ فئةٍ من ثوابٍ أو عقابٍ بالعدل . وفي هذا تخفيف عن قلب النبيّ المهموم بمصير قومه .

وختاماً : يصل التهديد قمته في الفقرة الأخيرة من السُّورة . وبيان التهديد الشديد موجهٌ لأهل مكّة بواسطة النبيّ . وبرشاقةٍ يعز نظيرها . فهو يبدأ بما يشبه التَّوقيع القطعي يقرر أن الله عالم غيب السموات والأرض وعليمٌ بما في الصدور ، فالجميع مكشوف أمامه كَكِتابٍ مفتوحٍ فأين يهرب منه المعاندون؟ وهو الذي قدر ودبر لجعلهم يرثون بيته العتيق وجيرته . ولكن هذا لا يغفر لهم كفرهم فمن كفر فعليه كفره ويجعله كفره مع جيرة البيت أشد مقتاً وأسوأ مصيراً .

والكون لا يتحرك ولا يقوم بنفسه وما يجري فيه ليس مكروراً كشروق الشمس وغروبها . ولولا أن الله سبحانه يمسك السموات والأرض على مدار الوقت لزالتا ولتحطم كلّ من في الكون وما فيه . وبحِلْم الله وعفوه تبقى السموات والأرض رغم ذنوب البشر . وبعد هذه الآية (٤١) الرسالة الأهم في السُّورة ؛ تأتي آيات تحدث النبيّ عن أسوأ ما يصدر عن قومه . فقد كانوا من قبل يتمنون رسولاً من الله ليتبعوه . فلما جاءهم ازدادوا بعداً عن الله . ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا**

بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاًۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيراً ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ (فاطر: ٤١–٤٥) .

وهكذا أثبتت آيات السُّورة أنها جميعاً سلسلة نورٍ في حلقةٍ واحدةٍ تدور حول العنوان بمعنى فاطر الكون المستمر في رعايته واختيار الجديد الذي يخلق كلّ لحظةٍ ، وهو الذي يمسك الكون لحظةً بلحظةٍ . ولولا هذا التدخل والرعاية ، لانفرط عقد الكون ولزالت السموات والأرض . فليس بقوانين الطبيعة وحدها يستمر الكون كما يظن كثيرٌ من الخلق .

* * *

سورة يس

يس هي السُّورة السادسة والثَّلاثون من القرآن باعتبار الفاتحة والبقرة . وتبدأُ الربعَ الأخيرَ من القرآن . نزلت في مرحلة متوسطة من العهد المكي . ويُجمع علماء القرآن ومنهم الزَّركشي في البرهان والسيوطي في الإتقان والفيروزآبادي في البصائر أنها نزلت بعد سورة الجن . وتلاها الفرقان وفاطر . وهي فترةٌ عصيبةٌ أتت بعد موت أبي طالب وخديجة . واشتد فيها إيذاء قادة الشرك للنبيِّ . لذلك تنزلت سورٌ للتخفيف عن النبيّ كالجن ويس لتعوضه عما يعاني من قسوةٍ تنهدُّ لها الجبال . لدرجة أن الرسول بدأ يفكر بمغادرة مكّة ؛ فخرج إلى الطائف فكان أهلها معه شرًّا من كفَّار مكّة . ولعله من أجل تلك الظروف تضمنت السُّورة أقلّ الرسالات السماوية إنتاجاً . وهي القرية التي أرسل الله لها ثلاثة رسلٍ فلم يؤمن على أيديهم إلا رجلٌ واحدٌ . وفي هذا عزاءٌ كبيرٌ للنبيِّ .

في تلك الظروف القاسية نزلت سورة يس لتشد أزره وتقوي يقينه وتثبته على طريق الدعوة فقالت له : يَسِ أي سِرْ وامْضِ على طريقك لا تلتفت لسواه فإن الله معك ينظرك وينصرك . وفي نفس الوقت تُوجِّهه إلى حيث يفيد العمل وطبيعة الذين يستجيبون للدعوة الإلهية . وكما تقول السُّورة للنبيِّ امضِ بدعوتك! فإنها تقول للمؤمنين أنتم الطليعة ، وواحدكم أهم عند الله من قبيلةٍ كاملةٍ مُصِرَّةٍ على كفرها .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوان السُّورة يَس . وهو مأخوذ من الكلمة الأولى في السُّورة . ولا يوجد كثيرٌ عن هذين الحرفين كمادةٍ لغويةٍ . وكلّ ما ورد عن كلمة يس ما سجله الفيروزآبادي في القاموس المحيط في نهاية باب السين ، حيث يقول : يَسَّ يَيِسُّ يسًّا : سار .

يَسَّ يَيِسُّ : « سار يسير » والأمر منها « سر » أو امض . وهذا المعنى ينطبق على السُّورة . فهي موجهةٌ للنبيِّ في ساعة يأسٍ شديدٍ لتشد أزره وتقول له امض بدعوتك ، ولا يحبِطْك كفر قومك وعنادهم . فإن مضوا في كفرهم فإن سنة الله ستمضي بهم كما مضت بقوم القرية التي عاندت رسل الله الثَّلاثة ؛ ولم يؤمن منها إلا رجلٌ واحدٌ ،

فأخذها الله بصيحةٍ واحدةٍ فإذا هم خامدون . بينما كان عدد مؤمني مكّة يوم نزول السُّورة قريباً من مائة!

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

لعل من المناسب أن أبدأ بالتذكير أنني عاملتُ مطلعي طه ويس ككلمتين ؛ لكلّ منهما معنًى محددٌ يوجِّه السُّورة التي يفتتحها . وليس كحروفٍ مقطعةٍ كالتي بدأت بها بعض السور . وبذا نلغي فكرتين تسيطران على عقل قطاعٍ واسعٍ من الأمة : الأولى اعتبارهما حروفاً مقطعةً ، والثَّانية اعتبارهما من أسماء النبيّ ؛ والتسمي بهما تبركاً بالنبيّ . ولم تعرفهما الثَّقافة العربيَّة كاسمي علمٍ قبل الإسلام ولا في العصور الأولى من الإسلام .

أطروحة السُّورة : تبدأ السُّورة بأطروحتها الرئيسية المكونة من آياتها الست الأُوَل : ﴿ **يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ** ﴾ (يس:١-٦)

فهو رسولٌ لينذر قومه الغافلين .

وفي إطار الآيات (١-٦) ستمضي السُّورة ليمضيّ النبيّ في دعوته رغم الصعوبات التي تواجهه . فهو على صراطٍ مستقيمٍ فليواصل السير عليه . فتأتي الآية (٤) مفتاحاً لفهم كلمة يَسَ .

العقبة الكأداء : مضمون السُّورة : سر أو امض في طريقك . ومع هذا تخبره السُّورة من البداية أن طريقه صعب . فقومه ما زالوا يعيشون جاهليةً يتراكم ضلالُها منذ قرون . حتى لم تعد الغالبية منهم صالحةً لغير جهنم . فبسبب شرورهم وما اكتسبوا من السيئات حقّ عليهم قضاء الله بالعذاب ، وأُغلقت منافذ النُّور إلى عقولهم وقلوبهم ، حتى لكأنهم أصنامٌ حجريةٌ مشدودة الرءوس والأعناق إلى الأعلى فيصعب إفهامهم أو إصلاحهم. وشكلت ذنوبهم سدًّا أحاط بهم فلا يخترقه نور هداية. فكأنَّ هذه الفقرة من الآيات تقول للنبيِّ : لا تبذل جهداً كبيراً مع هؤلاء ﴿ **لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ** ﴾(يس:٧-١٠)

أنذر الأتقياء : وبعد الحديث عن الغالبية ميتة القلب ، تأمره السُّورة أن ينطلق بالحريِّ إلى الذين يخشون ربّهم بالغيب ، لأنهم يؤمنون به بقلوبٍ حيَّةٍ ﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾

(يس: ١١، ١٢) .

مثل للمشركين والمؤمنين وللنبيِّ : ويستمر الخطابُ للنبيِّ ليبلغه قومَه . فتطلب منه السُّورة أن يضرب مثلاً لقومه بقصة رسلٍ بُعثوا لقريةٍ ، فما آمن معهم غير رجلٍ واحدٍ ، فأهلك الله القرية جميعاً . ﴿ **وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ (يس: ١٣-٣٠)

والقصة تقول الكثير . فللنبيِّ تخفف عنه فهو وحده ينذر قومه ؛ ولتلك القرية أرسل الله ثلاثة رسلٍ . وآمن مع النبيّ عشرات المؤمنين حتى وقت نزول السُّورة بينما الرسل الثَّلاثة لم يتبعهم سوى رجلٌ واحدٌ . وهنا لا بد أن يشعر النبيّ أنه محظوظٌ فيتراجع اليأسُ ويحل محله الأمل ، ويواصل سيره بما يتفق مع فكرة السُّورة . والمؤمنون سيرضون عن أنفسهم ، بل يزدادون ثقةً عندما يرون أنفسهم جماعةً مع رسولهم مقابل رجلٍ واحدٍ مع ثلاثة مرسلين . وتزداد سعادتهم عندما يعلمون أن الله يقف إلى جانب شخصٍ واحدٍ مع ثلاثة رسلٍ فيدمر من أجلهم ، ومن

أجل دعوة الحقّ قريةً بكاملها . وللمشركين عندما يسمعون القصة تهديدٌ بليغٌ . فيَهُب للإيمان من بقلبه بقيَّة حياة . ويتيقن النبيّ أنه عند الله أهم من كلّ المشركين ؛ فمن أجله يمكن أن يهلكهم . ولكن رحمته وحرصه على قومه هما بعض سر بقاء القوم ؛ فيزداد ثقةً بنفسه .

حديث للنبيِّ عن قومه : تستمر السُّورة بتقديم الدعم للنبيِّ وبتثبيته . فالآيات التالية تحدثه عن قومه بعين البصير السميع ، ليعلم أن الله لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم . ولكن الحليم الصبور يعطيهم فرصةً إثر فرصةٍ ليستخلص منهم من به بقيَّة خير . وفي الآيات توجيه للنبيِّ بالأمور التي يمكن أن يُذكِّر بها قومه ليهتدي من يستحقّ ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾

(يس: ٣١-٤٧)

وتأتي الآيات بهذه الصيغة الهادئة كي لا يزيد شعور النبيّ بالتقصير ، فيما لو جاءت بصيغة المخاطب وبهذا الطول . والآيات بهذه الصيغة ، تفتح على النبيّ بأفكار يستعملها في دعوته .

مشهدهم يوم القيامة : وبعد كلّ هذا الحشد من آيات الله المقنعة يسأل المشركون نبيهم « متى يتحقّق وعدك بهلاكنا؟ » ويلي الجواب مباشرةً وبرشاقةٍ فائقة ؛

إن أصروا فيمكن أن تأتيهم صيحةٌ كصيحة القرية المذكورة وهم يتخاصمون ، فلا تمهلهم حتى يعودوا لبيوتهم ويوصوا لمن بعدهم . وفي كلّ حال هناك النفخة الكبرى التي تبعث الناس من البِلى ؛ فيخرجون من القبور إلى ساحات الحشر . ثم تصف الآيات حال المشركين في تلك الأوقات العصيبة ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾

(يس:٤٨-٥٤)

إنه يوم الحساب الإلهي فلا ظلمَ ولا محاباة .

مصير المؤمنين ومصير الكافرين : وفي العرض تحفيزٌ للناس كي يكونوا من المؤمنين . فالفرق كبيرٌ بين مصير المؤمنين ومصير المشركين الذين يخاطَبون يوم الحساب باسم مجرمين!! ﴿ **إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ** ﴾ (يس:٥٥-٦٥)

كلام تقشعرُّ له الأبدان يفعل في النفس مفعوله عندما يتذكر الإنسان سيئاتِه التي لا يستطيع إخفاءها لأن الأعضاء التي مارستها ستنطق بها ، فالأفواه مختومةٌ والألسن مخروسةٌ .

وتواصل الآيات وصف ما يمكن أن يفعله الله بالمشركين في الحياة الدنيا وفي الآخرة : ﴿ **وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ** ﴾ (يس:٦٦-٦٨)

وبصيغةٍ مليئةٍ بالود والتحبب تتحدث الآيتان التاليتان عن النبيّ بنفس صيغة الغائب المستعملة في الفقرات السابقة لكنهما تذكران مهمته الأساسيَّة كرسول ؛ وهي إنذار قومه فكأنَّـه تكليف لكن بالصيغة التي تناسب الرجل المتعب الحزين الواقف على حافة اليأس . وترد الآيتان انطلاقاً من الدفاع عن النبيّ مقابل تُهَمِ قومه له : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ** ﴾ (يس: ٦٩، ٧٠)

وتجعلُ الآيةُ الإنذارَ ، بمعنى الدعوة ، للأحياء القابلين للإيمان وتعتبر الكفار في عداد الموتى من زاوية الدعوة . فلا يحزن النبيّ من إعراضهم . بل يوجه كلّ جهده للأحياء القادرين على الإيمان من أهل مكّة .

نكران الجميل : ست آيات تُحدِّث النبيّ بِنِعَمِ الله على أهل مكّة ومع هذا ينكرون ويتخذون آلهةً غير المنعم . فتكون الموعظة المباشرة لا تحزن مما يقولون فهم تحت سمع الله وبصره وسيطرته التامة : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ (يس: ٧١-٧٦) .

ولعل الحزنَ ينتهي بهذه النصيحة الإلهية ويصير الجو مهيأً لممارسة الدعوة ومعاودة السير بها مع أهل مكّة .

وختاما : تدعو الفقرة الأخيرة رسول الله للرد على ترهات المشركين ومجادلتهم بالحقّ الذي يتلقاه قرآناً ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (يس:٧٧-٨٣)

ومع نهاية السُّورة يكون النبيّ قد عاد إلى وظيفته وهي دعوة قومه إلى الإيمان فيستجيب من به بقيَّةٌ من الصلاح . فسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيء والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

سورة الصافات

سورة الصافات هي السُّورة السابعة والثَّلاثون . نزلت بأسلوب خطابي لتظهر عظمة الله وفخامة حظيرة قدسه . مقابل تصورات المشركين الفاسدة التي لا تَقدِرُ الله حقّ قدره كزعمهم أن لله نسباً مع الجن . فالسُّورة تردُّ على ترهاتهم ، وتُريهم صِغرهم وصَغارهم أمام عظمة الله وعُلو قدره . اسمها الصافات من الملائكة المصطفة حول حظيرة القدس الإلهية ، تسبح الله وتذكره وتحرس المكان أن يصل إليه شيطان أو يسترق سمعاً مما يدور في الملأ الأعلى . وبعد هذه الصفوف صفوفٌ أخرى من أجرام الكون أو مصابيح السماء تزينها وتحميها . وصفوفٌ من سنن الله تعيد أهل الأرض إلى الفطرة بعد أن يفسدوا . وصفوف إهانةٍ للعصاة يوم الحشر حيث ينتهي تميزهم الكاذب وتعاليهم على غيرهم بدون حقّ . فتكون صفوف المحشر إذلالاً لهم . وتكون صفوف الصالحين على سررهم المتقابلة علامة نعيمٍ وإكرامٍ . فيا له من عنوانٍ لسورة ما كانت لتظهر صفوفها واصطفافاتها لولا هذه الكلمةً الرشيقة في بدايتها . فالحمد لله النُّور المبين .

عنوان السُّورة وموضوعها على ضوء العنوان :

الصافات من مادة « صف » . ويقول عنها الرازي في المقاييس : « الصاد والفاء يدل على أصل واحد وهو استواء في الشيء وتساو بين شيئين في المقر . من ذلك الصف ، يقال وقفا صفاً إذا وقف كلّ واحد إلى جنب صاحبه . واصطف القوم وتصافُّوا والأصل في ذلك الصفصف وهو المستوي من الأرض ؛ فيقال للموقف في الحرب إذا اصطف القوم مَصَفّ . »

فالصافات من الصف . ويكون الصف في ثقافة الشعوب عامة للحماية عندما يصطف العساكر للقتال . ويكون صفهم محكماً كأنه بنيانٌ مرصوصٌ حسب سورة الصف . وصف العبادة للصلاة والذِّكر وهو ما بدأت به السُّورة . ويكون للفرح عندما يصطفون لرقص أو غناء . وللهوان عندما يصُفُّهم عدوّهم المنتصر للقتل أو الأسر أو التفتيش .

وفي السُّورة نجد الآيةَ الأولى لأشرف هذه الصفوف وهو صف العبادة والتسبيح والذِّكر . ثم صف الحماية فهي تزجر من يحاول من شياطين الأرض استراق خبرٍ من الملأ الأعلى . وإن لم يكفه الزَّجرُ يتبعه شهابٌ ثاقبٌ . ثم زينة السماء صفٌ حمايةٍ آخر بعد صف الزّواجر . وفي السُّورة نجد بقية أنواع الصفوف تتحقّق نصراً لأهل الحقّ وسُنَّةً لا تنكسر ، وهواناً وانكساراً لأهل الباطل في الدنيا والآخرة .

فهي قريبةٌ بفكرتها الرئيسية من سورة الحجر . فالصفوف هنا صفوف حمايةٍ لأقدس ما في الوجود وهو الحظيرة الإلهية وما يصدر عنها من إرادةٍ إلهيةٍ . ولتردَّ على ترهات الجاهلية المتعلقة بالذات الإلهية .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدو السُّورة أقرب إلى جو الخطبة وأسلوبها . فهي تبدأ بآياتٍ ثلاثٍ تُنبئ عن أجواء العظمة والقوّة والقدرة لدى ربّ العزة . وتُظهر طرفاً من عظمته وفخامة ملكوته سبحانه .

وفي الخطبة لا لزوم لأطروحةٍ سوى ما توجهه الجمل الأولى الجزلة القصيرة من إشاراتٍ واضحةٍ إلى الهدف والمستهدف وبأسلوبٍ مليءٍ بتفخيم المتحدث وتحقير خصومه. ويلزم أن تكون كلّ محتويات الخطبة في خدمة هذا الهدف الجليل الوحيد.

ثلاث آياتٍ متتابعة كأنَّها عسكرٌ متماثلون في صفٍّ متراصٍّ يقول الكثير عن عظمة ربّ العزة وإحكام مُلكه غير القابل للاختراق : ﴿ **وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا** ﴾ (الصافات:١-٣) . ثلاثة أنواعٍ من الصفوف المتراصة . الصافات ملائكةٌ تصطف حول حظيرة القدُس بحيث لا يستطيع مخلوقٌ من أي نوعٍ اختراقها . وهي تنتظر أي إشارةٍ من ربّ العزة لتُسارع إلى التنفيذ والطاعة كما يأمر صاحب الأمر سبحانه . وإذا كان حكام الأرض يتباهون بصفوف مواطنيهم في مهرجانٍ أو مناسبةٍ ؛ ونسعد ونعجب لدقَّة ما يقومون به . فإن أعدادهم لا تزيد عادةً عن آلافٍ في دولةٍ عظيمةٍ . فكم يمكن أن يكون عداد الملائكة الصافَّة حول حظيرة القدس ، التي قد تزيد مساحتها عن مساحة الكون كلّه . وقد لا يكون الكون على سعته أكثر من حديقةٍ خلفيةٍ لملكوت الله الذي يتوسطه عرشه العظيم؟ أي عظمةٍ يمكن أن توحي بها الصافات من الملائكة وأعدادها قد تفوق الملايين

ووقوفها مستمر على مدى الزَّمن الإلهي الذي تعجز عقولنا عن إحصائه أو تخيله! أي عظمةٍ هذه ! سبحانك يا ربّ العزة !

وتليها صفوف الحماية لا ترمش ولا تتعب ولا ترتاح ولا تسهو ، وهي تحرس الملأ الأعلى من أن يصل إليه ماردٌ مغامرٌ من الجن ، فتزجه وتقذف به بعيداً . إنها دائرة محكمة لا يستطيع كائنٌ اختراقَها ، أو مجرد الاقتراب منها ؛ كي تحتفظ الألوهية بجلال قدرها وعظمة هيبتها ! والزَّاجرات زجراً ! إنها من لوازم المُلك المُحكم والله هو الملك الحقّ . الذي لا يحدُّ ملكَه زمانٌ ولا يقيده قيدٌ ولا يعيقُ سريان أمره عائقٌ إلا ما كتب على نفسه سبحانه!

ووراءها صفوف التاليات ذكراً . وهي ملائكةٌ مصطفةٌ لا عمل لها سوى ذكر الله وتسبيحه وحمده . أي ترانيم تصدر عنها وأي موسيقى ساحرةٍ للسمع وأي تسابيح آخذةٍ بالألباب . إن الله عظيمٌ ، وكلّ وصفٍ له سيكون عظيماً وساحراً ؛ خصوصاً عندما يصدر عن عارفين يرون رؤيا العين ؛ ويُلهَمون القول الجميل الذي يُرضِي اللهَ الجليلَ صاحب الكبرياء والعظمة!

ننتهي من تلاوة الآيات الثَّلاث ولكن ظلالها وآثارها في نفوسنا لم تنته بعد . فمما جاء في القَسَم لا بد له من تمثيل في صنع الكون . فكلّ هذه العظمة هي لله الواحد ؛ ربّ كلّ ما في الكون الذي نرى ونعيش في جرمٍ واحدٍ من أجرامه ﴿ **إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ** ﴾ (الصافات: ٤، ٥)

ولم تنته قصة الحماية بالزّواجر التي تفوق الملايين ، ولا على يقظتها الدائمة ؛ فقَبلها سياجٌ ماديٌّ يحول دون وصول الجن إلى حظيرة القدس ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ** ﴾ (الصافات: ٦، ٧)

هكذا يحمي الله غيبه من الجن ؛ التي اتخذها بعض الناس آلهةً ، أو ظنوها نِدًّا لله ، أو أن لها عند الله مكانةً يمكنهم الاستفادة منها . فالكون محروسٌ بشهبٍ وأجرامٍ تزينه للنظر ، وهي مصفوفةٌ بإحكام بحيث لا يستطيع شيطانٌ ماردٌ اختراقها .

دقة نظام الحماية : تصف الآيات النظام المحكم لحماية حظيرة القدس والملأ الأعلى من أن يقترب منها أحدٌ من خلق الله دون إذنٍ أو تخويلٍ إلهي . ويتبع ذلك مباشرةً أمثلةٌ من حالاتٍ عمليةٍ لما يمكن أنْ يحدث . فتؤكد الآيات الثَّلاث (٨-١٠) على أن الجن محظورٌ عليهم التسمع للملأ الأعلى ، المحاط بالحراسات

المذكورة . ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (الصافات:٨-١٠) .

وهكذا تتحدث الآيات بموضوعيةٍ واعتدالٍ عما يحدث . فالاحتياطات متخذةٌ لمنع عتاة الجن من الوصول إلى الملأ الأعلى . فإن اقتربوا قُذفوا بسيلٍ من القذائف تأتيهم من كلّ جانب . فتدحرهم وتذيقهم عذاباً يبقى معهم بقية العمر . ومع هذا قد يكون الهجوم شديداً وبأعدادٍ كبيرةٍ . فيتمكن جنيٌّ من خطف همسةٍ أو خبرٍ من الملأ الأعلى ؛ فيتبعه شهابٌ ثاقبٌ يخترق كيانه ويقضي عليه أو يدمر ذاكرته ليضيع الخبر المسروق . بهذه الواقعية تتحدث الآيات . فأيُّ صدقٍ وأيُّ تواضعٍ هذا من الجليل العظيم الفائق القوّة؟ وكان يمكن إخفاء هذه الحقيقة فلا أحد من البشر يعلم بها أو يمكنه مشاهدتها! ولكنه الصدق الإلهي .

خطابٌ للنبيِّ حول قومه : بفاء التعقيب يبدأ الخطاب لنعلم أن كلّ ما سبق من آيات إنما هو موجه للنبيِّ ردًّا على ترهات مشركي مكّة . ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ (الصافات:١١-١٨)

تطلب الآيات من النبيّ أن يسأل قومه : أهم أشد خلقاً أم هذه الصفوف العظيمة من الملائكة صافاتٍ وزاجراتٍ وتالياتٍ ذكر الله؟ وهذا أول توظيفٍ لحقائق السُّورة في إقناع المشركين أن الله قادرٌ على إعادة خلقهم وبعثهم لمحاسبتهم على ما يفعلون في حياتهم الدنيا .

وتحقيرُ المعاند من لوازم الأسلوب الخطابي مقابل تفخيم الذات وهو حقّ لله تعالى . وقد رأينا مقدار تفخيم الله في الآيات العشر الأُوَل . فيأتي دور مشركي مكّة في التصغير والتحقير وهم أهلٌ لذلك . كان في الآيات السابقة في أمرهم الدنيوي ثم يستمر في الآيات (١٩-٢٦) بمشهدهم يوم القيامة منذ يُبعثون من قبورهم مأخوذين بهول الموقف الذي لا نكران أمامه . ثم يُحشرون سَوقًا ونظراءهم وآلهتهم التي يشركون ؛ فيمشون في خطٍّ مستقيمٍ إلى جهنم بلا مقاومةٍ ولا حتى همسٍ ، وقد تخلوا عن عنجهيتهم القديمة وترهاتهم الضالة ؛ وأخبتوا مغلوبين لا يحيدون عن

الطريق الذي يُساقون فيه باتجاه جهنم : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (الصافات:١٩،٢٠) . يقولونها معترفين دون نقاشٍ أو محاولة تهربٍ من الموقف ؛ فيأتيهم الجواب المناسب زيادةً في إذلالهم ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (الصافات: ٢١) .

ويحشرون وهي حالةٌ أسوأ من وضعهم في صفوف . والصفوف ذلٌّ في ثقافة العرب . بل هو حشرٌ وكأنهم أنعامٌ توضع في مكانٍ ضيقٍ لا يكاد يتسع لأقدامهم ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (الصافات:٢٢،٢٣) . وتأتي كلمة فاهدوهم لتعني : ليسيروا في خطٍّ مستقيمٍ كأنهم أغنامٌ تسير خلف قائدها لا تملك الحيد يميناً أو شمالاً . ولم تنته رحلة الذل التي تقابل صور فخامة ربّ العزة في السُّورة . فهناك صفوف عظمةٍ وملكٍ وهنا صفوف هوانٍ وذلٍّ . وليس لهم وحدهم بل لآلهتهم التي كانوا يعظمونها في الحياة الدنيا ويقدمونَ لها الولاء ؛ فإذا هي ذليلةٌ مثلُهم ؛ مما يضاعف ذلَّهم وهوانهم ، فهم وما كانوا يستعظمون في الهوان سواء: ثم قفوهم ليجيبوا عما يُسألون. أو حسب النص الأعلى لهجةً :إنهم مسئولون!! ولا مناص لهم من الإجابة صاغرين ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (الصافات: ٢٤) .

ثم يُسألون من باب التهكم عليهم وعلى تعاظُمِهم في الدنيا وتحالفِهم ضد النبيّ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ (الصافات: ٢٥) .

ويصمتون فلا جواب لديهم بل يأتي التعليل على لسان الله العليِّ الكبير ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (الصافات:٢٦) . وحسبهم هذا الاستسلام والسكون ردًّا على ما هم فيه من الموقف العصيب . وهذه الفقرات استمرارٌ لتوظيف حقائق السُّورة لعلهم يتخلون عن عنادهم واستكبارهم .

وتعرض الآيات (٢٧-٧٤) مشاهد وحواراتٍ مع المشركين تظهر نهايتهم مقابل مكافأة المؤمنين في الجنة .

أمثلة من المواجهة بين المنذرين وأقوامهم : ذكرنا في مقدمة السُّورة أن من صفوف السُّورة بعد صفوف الملائكة والكواكب هناك صفوف من سنن الله لحفظ الناس على الأرض ضمن دائرة الفطرة ، التي فُطِر الناس عليها . فقد علم الله أن بعض خلقه سيُسيئون استعمال الحرية الممنوحة لهم ، فيخرجون من دائرة الفطرة ،

وينحدرون عن الحد الأدنى الذي يسمح للإنسان أن ينحدر إليه ، دون أن يخسر مكانته كإنسان . فإن تجاوزت الغالبية في مجتمع ما حدودَ الفطرة وانحدرت عن الحد الأدنى للإنسان تتدخل إرادة الله . فيرسل الله الرسل منذرين . وبعد مدة من بدء عمل النذير يحدث الاصطفاف . صف مع الرسول المنذر وصف ضده . فإن تقاربت القوتان وصارت المعركة البشرية ممكنةً قادرةً على الحسم أذن الله بها . كما في حالة الإسلام عندما انتصر المؤمنون بقيادة النبيّ فاستعاد الرسول قومه إلى دائرة الفطرة والإيمان اللائق بها . وإن تفاوتت القوتان تفاوتاً شديداً كحال معظم المرسلين تدخلت إرادة الله المباشرة بضربةٍ قاضيةٍ من عوامل الطبيعة . فيفنى المعاندون فاسدو الفطرة ، وينجو الرسول ومن معه . وبهم يجدد الله القوم المعنيين بالدعوة . وتبقى الأجيال ما سلمت فطرتها . لذلك نرى الآية التي تتكرر في معظم الأمثلة المطروحة في السُّورة تصف الناجين ورسولهم بقوله تعالى ﴿ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ** ﴾ (الصافات:٧٨) . أي أن بقية أتباع الرسول المذكور تستمر في الأرض حتى ظهور الرسول التالي .

وننتقل إلى أمثلة من السُّورة لنشاهد سنة الله ببصائرنا . ونرى المعاندين وهم يُستأصلون من الأرض ؛ وأجيالَ التقوى تبقى جيلاً وراء جيلٍ في صفوفٍ متصلةٍ ومتجددة .

مثل من نوحٍ وقومه : انتهت الفقرة السابقة بالآية (٧٤) وهي قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ** ﴾ (الصافات:٧٤) لتستثني عباد الله المخلصين من المعاندين العاصين . ثم تحدثنا الآيات عن نوحٍ من زاوية السُّورة وامتداداً للآية السابقة ﴿ **وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ** ﴾ (الصافات:٧٥-٨٣)

وهكذا بدأت الفقرة من خبر نجاة نوحٍ . ولم تورد قصة صراعه مع قومه . لأن المهم هنا إظهار سنة الله في حماية مسيرة البشر من انحراف الفطرة المدمر للكينونة البشرية ومستقبل الأجيال . ولترينا استمرار قيم الفطرة السليمة من خلال انتصار الفئات المُخلصة كنوحٍ ومن معه وذراريهم من بعدهم . وكي تؤكد على استمرار

الأجيال السليمة وتجددِها خُتمت الفقرة بذكر إبراهيم انطلاقاً من أنه من شيعة نوحٍ ، ومن ذرية من كانوا مع نوح . وهكذا نرى الأجيال صفوفاً محميةً بالفطرة وحاميةً لها من الانحراف الذي لا تطيقه قوانين الحياة حتى تتجدد بنذيرٍ جديدٍ من بقية النـذير السابق .

ومثل من إبراهيم : وبما يتماشى مع موضوع السُّورة يُعرض مثل إبراهيم انطلاقاً من أنه استمرار لعمل نوح . فنعلم أن صفوف الإيمان هي السلاسل المتصلة والباقية وليست حالات الكفر والشذوذ عن الفطرة السليمة . ﴿ **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ** ﴾ (الصافات:٨٣) . فإبراهيم من شيعة نوحٍ رغم تباعد الزَّمن بينهما . لكنها سلسلةٌ متصلةٌ بأجيالٍ متتابعةٍ من المؤمنين .

ومثلٌ من موسى وهرون : موسى وهرون من ذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب . تَعرَّض قومُهما لظلمٍ شديدٍ لم تستطع السماء أن تسكت عليه . فتدخلت إرادة الله لنجاتهما وقومهما من ظلم فرعون وقومه . ﴿ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الصافات:١١٤-١٢٢). وما زالت دعوتهما قائمة .

ومثلٌ من إلياس : ﴿ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الصافات:١٢٣-١٣٢)

ومثلٌ من لوطٍ : لوطٌ هو ابن أخي إبراهيم ، هاجر معه إلى فلسطين . ثم صاهر قوماً عُرفوا لاحقاً باسمه ﴿ **وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (الصافات:١٣٣-١٣٨). والحديث في الآيتين الأخيرتين

موجه لمشركي قريش فهم الذين كانوا يمرون من منطقة قوم لوطٍ في تجارتهم إلى الشام .

ومثلٌ من يونس : تلقى يونس أمر الله ليكون رسولاً إلى قوم . فأبق غضباً واختار طريقاً آخر غير من أُرسل إليهم . ورغم هربه الذي لا يليق برسول لله إلا أنه كان من المسبحين . فشفع له ذلك . أبِقَ وساهم في السفينة المثقلة بحملها فكان ممن حكمت عليه القرعة بالإلقاء من السفينة . فيسر الله له حوتاً ابتلعه وألقاه على الشاطئ مريضاً . ودبر الله أمر شفائه ووصوله الى القوم الذين كلّف بدعوتهم . فآمنوا فمتعهم الله ما استقاموا . وهذه قصةٌ أخرى على تدبير الله وتحريكه الأمور لحفظ الناس على الفطرة السليمة . ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (الصافات ١٣٩-١٤٨)

والتفاتٌ لمشركي مكّة : بعد سرد عددٍ من الأمثلة على تدخل إرادة الله في إصلاح المجتمعات ومنع تدهورها . وبعد عددٍ من الأمثلة من الرسالات والمرسلين التي تثبت إحكام سيطرة الله بِسُنةٍ لا تنكسر ونهجٍ ثابتٍ لحفظ الإنسان من الانحراف الشديد الذي يدمر جوهر الإنسان . هنا بعد هذه الحالات التي يعرفها المستمعون يُطلَب من النبيّ أن يسألهم أسئلة كلّها تسخيفٌ لمعتقداتهم الفاسدة وتحقيرٌ لتصوراتهم الخاطئة . تبدأ الآيات بسؤالهم : ﴿ **فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ** ﴾ (الصافات ١٤٩-١٦٠)

ويصل التهديد لهم قمتَه عندما يخبرهم النبيّ بتكليفٍ من ربّه أنهم وما يعبدون في قبضة الله ؛ ولن يسبقوا سننه المحكمة . وهم وآلهتهم المدعاة لن يتمكنوا من فتنة أحدٍ من عباد الله إلا من استحقّ العذاب بما اكتسب من الإثم . فلا يظنوا أنفسهم صفًّا

كبيراً يرد على صفوف الله العظيمة الثّابتة . ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات ١٦١-١٦٣) . وكلّ هذه توظيفٌ لحقائق السُّورة لعلهم يؤمنون .

ونسمع صوت الملائكة التي يظنها المشركون من بنات الله وبها يتقربون إلى الله . نسمعها وبصيغة لا تسمح بلبس نسمعها تقول مُحبِطةً آمال المشركين مُكذِّبةً افتراءاتهم : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ (الصافات ١٦٤-١٦٦)

وبذا يصير الجو مناسباً لتذكر بعض ما كان المشركون يقولون قبل بعثة النبيّ ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الصافات ١٦٧-١٧٠)

وبذا ينتهي الحوار معهم . ويبقى الحديث للنبيِّ وحده . وليس بأسلوب مناجاةٍ ناعمةٍ بل بأسلوبٍ خطابيٍّ قويٍّ يرسخ الحقائق في النفس . نعم ، ما قيل في بقية السُّورة يكفي لزرع الطمأنينة في قلبه . فالله لم يتخل عن أحدٍ من رسله حتى من أبق منهم . فكيف وهو محمدٌ بصبره وتحمله وكفاحه من أجل دعوته وطاعته لربّه ؟

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الصافات ١٧١-١٨٢)

ما أجملها من خاتمةٍ تؤكد النصر الختامي لله ولرسله . وكانت السُّورة قد بدأت بعرض طرفٍ من عظمة الله وفخامة ملكوته السماوي وقدرته وسيطرته . فالحمد لله ربّ العالمين .

* * *

سورة ص

«ص» أول سورةٍ حتى الآن تسمى بحرف هجاءٍ وحيدٍ . وليس للحروف معان في الأصل . ولكنها قد تُذَكِّر بكلمات تشارك ببنائها . ومن قراءة السُّورة يتبين أنها تدعو النبيّ إلى مزيدٍ من الصَّبر . وذلك إثر فعلٍ قاسٍ أراده صناديد الكفر حاسماً بحقّ رسولهم . وأصروا فيه على تمسكهم بِشِرِكِهم ، ورفضهم لفكرة التَّوحيد التي يرفض النبيّ التنازل عنها . وبذا وصل الصراع بين الفريقين قمته . ولكن في القوم أناساً يستحقّون أن يخاطبوا بالقرآن ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ** ﴾ (ص:٢٩) . والفئة المصرة على كفرها وصلت حدًّا من فساد الفطرة والتبعية لإبليس ما لا يستحقّون معه إلا الهزيمة في الدنيا ، والنار في الآخرة .

ولِمواجهةِ هذا الحال وما يرافقه من معطيات الواقع وبأقل قدرٍ من الخسائر وبإصرارٍ على النجاح فليس إلا الصَّبر سبيلاً لإتمام إرادة الله للأمة . والنبيّ قادرٌ على الصَّبر حتى النصر كما أثبت دائماً . فتأتي هذه السُّورة في مجملها دعوةً للصبر ومواجهة القوم بصمودٍ يكافئ صدودهم!

عنوان السُّورة ومعناه :

(ص)! حرف هجائي وحيد . ولكن لهذا الحرف معان عديدة في اللغة . يذكر الفيروزآبادي في البصائر لها حوالي عشرة معان . وبعضها يليق بالسُّورة وموضوعها مثل : صمد وصدق ونصر .

ص الحرف الهجائي هو اسم السورة ولا خلاف عليه . وهي كبقية أسماء السور استعملت عنوانا للسورة بأحد معانيها . وهو الصمود ؛ والصمود جوهره الصَّبر . ولا صمود ولا نصر بدون صبر . ولا أجد فرقاً بين الصبر والصدق من حيث موقع الصاد فيهما . والسورة في مجملها دعوة للصبر صموداً وصدًّا لموقف المشركين المعاندين لله ولرسوله .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تشير آياتٌ من السُّورة إلى قصة شهدها النبيّ . تقول الآيات (٤-٧) ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ (ص:٤-٧).

ويُفهم من صيغة الآية (٦) أن قادة الشرك انسحبوا من اجتماعٍ يحضره النبيّ . قال بعضهم لبعضٍ انطلقوا وامشوا وتمسكوا بآلهتكم . وذلك لأن النبيّ دعاهم لعبادة الله الواحد . فيكونُ الرد عليهم بالصمود على عقيدة التَّوحيد والصَّبر على تكاليف ذلك الصمود .

واللقاء ، الذي قيل إنه برعاية أبي طالب ، تسبب للنبيِّ بصدمةٍ كبيرةٍ . ومعالجةً لحاله ذاك تنزلت سورة (ص) . والصفة التي تلزّم لمعالجة هذا الوضع هي الصمود والصَّبر اللازم للصمود .

أطروحة السُّورة : تُوجِّه الآياتُ الثَّمانيةُ الأوَلُ السُّورة ، وتتضمن بشرى للنبيِّ بالنصر وترد على المشركين وتُمهد لرسالة السُّورة إليهم .

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ (ص:١) : تدور السُّورة حول كلمتين لهما ارتباط بالصاد هما الصمود والصَّبر . . وبعد الصاد ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ (ص:١) تساءل المفسرون عن جواب القَسَم . مع أنه القسم والجواب في آن . ويكفي أن يقسم به الله تعالى ليكون حقيقةً راسخةً فلا يحتاج جواباً يظهره أو يحقّقه . فالقرآن ذو الذّكر . ذو الشرف العظيم والذِّكر الباقي للنبيِّ ولمن يتبعه من قومه .

وتُستدرَك الآية الثَّانية بحرف الاستدراك بأن عناد المشركين وشقاقهم قد يحرمهم من هذا الشرف المحقّق . ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ (ص:٢) .

وبدل الشرف الذي ينتظرهم باتِّباع نبيهم ، تهددهم الآية الثَّالثَة بالهلاك كما حدث لأجيالٍ قبلهم . فإذا تقرر ذلك فلا ينفعهم ندمٌ أو تراجعٌ عن كفرهم ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴾ (ص:٣)

وتُخَلِّد الآيات الخمس الباقية من الأطروحة قصة انسحابهم من اجتماعٍ قيل إنه كان في بيت أبي طالب للتوفيق بينهم وبين النبيّ (الآية :٦) . ولكنهم انسحبوا عندما

طالبهم بالتَّوحيد والتخلي عن شركهم . بالإضافة لذكر مقولاتهم التي يرفعونها بوجه الدعوة ؛ ويُضِلُّ بها بعضهم بعضاً ، وتنم عن عدم احترامهم لإنسانيتهم وأنفسهم وهو مرضٌ أصيلٌ عند شعوب المنطقة : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ (ص:٤-٨)

عزاءٌ للنبيِّ : بعد رفضهم الجلوس مع النبيّ والتحاور معه ، وتسجيل ذلك في صدر السُّورة ، تبدأ السُّورة بعزاء النبيّ بإعطاء تصورٍ سليمٍ عن القوم الذين آذَوه ورفضوه . فما هم بذلك الشيء الكبير مقارنةً به وقد اختاره الله رسولاً إليهم . بل هم أناسٌ ضعافٌ ينتظرون هزيمةً أو هلاكاً : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ (ص:٩-١٦)

هؤلاء هم الذين تكبروا على الجلوس معك : لا خزائنُ رحمة الله عندَهم ، ولا لهم ملك السموات والأرض . بل هم شرذمةٌ مختلفوا الأهواء ينتظرون هزيمةً نكراء . بل تراهم من يأسهم وكفرهم يستعجلون العقاب !

ودعوةٌ للصبر في مواجهتهم : دعوةٌ مباشرةٌ بالصَّبر على مقولاتهم . ونماذجُ من حياة أنبياءٍ ورسلٍ أحسنوا الأداء ، فأكرمهم الله بالنصر والملك العريض . ويُلاحظ في بعض قصص الأنبياء ذِكر ذنبٍ أو لحظةِ ضعفٍ في قصة كلّ من داود وسليمان وأيوب . فلعل هذا عزاءً للنبيِّ عن شعورٍ أصابه عندما رفض عليةُ القوم مجادلَته ومجالستَه . فأتت هذه القصص تذكر حالاتٍ واضحةٍ غفرها الله وتجاوزها أصحابها إلى مراتب عليا من النجاح الدنيوي ومن رضا الله .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا

مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص:١٧-٢٦)

وترد قصة داود وما بعدها تحت التَّوجيه الإلهيِّ للنبيِّ ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ (ص:١٧) . ويشكل هذا الجزء من السُّورة حوالي نصف حجمها . وهذا كاف لاعتباره الغرض الرئيسي لها .

تعقيب على قصة داود : بدأت القصة دعوةً للصبر والعظة بما يتعرض له الأنبياء من فتن . ويأتي التعقيب عليها بأن الله خطة محكمة من خلق هذا الكون ، وعملِ الأنبياء وما يتبعه من أمرٍ عامٍ . وضمنَ هذه الخطة وضوابطَها من العدل والسُّنن الثَّابتة أنزل الله تعالى القرآن على النبيّ ليُنذر قومه فيتدبروا آياته ، وليتدبرَ حكمتَه أولو الألباب . ومجرد وضع الأمر بهذه الصيغة هو بشرى للنبي بانتصاره فما عليه إلا الصَّبر . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:٢٧-٢٩)

ومثل من سليمان : وكي تبقى دعوة الصَّبر والصمود فعالة كأطروحة للقصص التي تتصدرها تُعرَض قصة سليمان كاستمرار لنعمة الله على داود . ومثل حال أبيه تبدأ القصة بذكر موقف ضعفٍ له . ولعل هذا للتسرية عن النبيّ ليعلم أن الضعف طبيعةٌ في البشر وقد يقع به أناس اختارهم الله وأحبهم . لا لضعفهم لكن لما قدموا ولسرعة تراجعهم عن الخطأ . فسليمان يشغله استعراض خيله عن صلاة العصر . فيحزن بل يغضب على نفسه ويقتل كلّ خيله كي لا تشغله عن عبادة الله مرةً أخرى.

وبضعف آخر يُفتن سليمان فيسارع لطلب المغفرة وإصلاح خطأه. فيتمكن من طلب مُلك لا ينبغي لأحد من بعده: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص: ٣٠-٤٠)

وسواءً أأدركنا وجه العزاء في قصتي داود وسليمان أم لم ندركه. فلا شك أن النبيّ استلم الرسالة وتعزَّى بما كان من أمر النبيّين الملِكين. ولو لم يكن في القصتين سوى الذِّكر لهما ولقومهما ومثلٌ لما يمكن أن يتحقّق للعرب بالقرآن لكفاه عزاءً.

ومثلٌ من صبر أيوب: موضوع السُّورة دعوة النبيّ إلى الصَّبر. وأيوب مضرب المثل للبشرية كلّها بالصَّبر. فهذا مكان التأسي به. وتبقى أطروحة القصص «واصبر على ما يقولون» فعالةً. فأيوب صبر على أشد من أيِّ وصفٍ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤١-٤٤)

تَعَرَّض أيوبُ للمرض مدة طويلة، وفقد معظم أهله وفقد ماله وأصدقاءه. فلما حان موعد شفائه ورفع البلاء عنه لم تغفل رحمة الله عن امرأته التي وقفت معه بإخلاص. وكان أيوب قد أقسم في لحظة غضبٍ أن يجلدها مائة جلدةٍ. فأذن الله له أن يأخذ حزمةً من سيقان القمح الجاف أو ما يشبهها وأن يضربها بها مرةً واحدةً. فيكون قد وفَّى بيمينه ولم يؤذ امرأتَه الصبور المخلصة.

ويظهر الصَّبر هنا قلبَ الحدث ومادةَ الخلاص والنصر. ومن هذه الزَّاوية توضع قصة أيوب في هذه السُّورة موجَّهة بما يناسب غرضها. ولكن في كلّ واحدةٍ من

القصص الثَّلاث الواردة حتى الآن لحظةُ ضعفٍ يغفرها الله ويأذن بمعالجتها بأيسر السبل . فهل شعر النبيّ بضعف أو لام نفسه على موقف قريشٍ؟ فتأتي هذه الأمثلة للتخفيف عنه!!

وموعظةٌ من عدد من الأنبياء : ثم تسرد الآيات (٤٥-٤٨) أسماء ستة أنبياء وتذكر ما كتب الله لهم من نعيم في الآخرة مقابل ما ينتظر الطاغين من عذاب وهوان. ﴿ **وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ** ﴾ (ص:٤٥-٥٥) . إنها تعزيةٌ قويةٌ للنبيِّ . فهنا ذكر مصير الأنبياء وما ينتظرهم من حُسن الجزاء دون ذِكرِ حدث من حياة أيٍّ منهم . فمجرد صبرهم على وظيفة النُّبُوَّة استحقّوا به نعم الله عليهم .

مصير الطاغين في الآخرة : بمشهد مرعب من مشاهد القيامة تصف الآيات العشر (٥٥-٦٤) مصير الطاغين يوم الحساب انطلاقاً من قوله تعالى ﴿ **وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ** ﴾ (ص:٥٥) . وتضمنت الآيات تلاوم المُتَّبِعين والمتبوعين من الكفار وذلك بعد وصف طرفٍ من طبيعة العذاب الذي ينتظرهم ﴿ **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ** ﴾ (ص:٥٦-٦٤) . وهذه الفقرة من الآيات وجهٌ آخرُ من الدعوة للصبر . فالنجاة من العذاب الموصوف تستحقّ الصَّبر المطلوب .

رسالةٌ حاسمةٌ للمشركين : بتوجيهٍ مباشرٍ وقاطعٍ يطلب الله من النبيّ أن يواجه المشركين بعقيدته وبلغةٍ تناسب أقوالهم وهم يغادرون لقاء المصالحة : فالنبيّ منذرٌ

لهم ؛ والله الذي يدعو إليه هو الواحد القهار . وهو العزيز الذي لا يغلب ، ولكنه الغفار لِمن يستجيب له ولرسوله . ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (ص:٦٥-٧٠)

وبهذه الآيات الست يلخص لهم العقيدة المطلوبة منهم وبلهجةٍ تناسب جو السُّورة والحادثة التي انطلقت منها . وتعطي تصوراً واضحاً للألوهيَّة والنُّبُوَّة والكتاب المنزل.

أصل المشكلة : وبعد البيان الصريح القويّ بالعقيدة تورد السُّورة أصل مشكلة الكفر على الأرض . وللقصة في هذه السُّورة أكثر من وظيفة . فهي تبين للنبيِّ أن المعاندين له إنما هم من أتباع إبليس وعلى دربه . فلا فرق بين مقالة إبليس عن آدم ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (ص:٧٦) وبين مقالة مشركي قريش عن النبيّ ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (ص:٤) ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ (ص:٨) . فهم يستغربون أن يكون النبيّ واحداً منهم ثم لماذا هو بالذات ؟

ومن الأمور المعزية للنبيِّ أن الذي أوصل المشركين إلى ما هم فيه من عنادٍ وكفرٍ إنما هي ذنوبهم التي زينها لهم إبليس وأنهم سيُسلَكون كإبليس في نار جهنم .

والهدية الثَّالثَة في القصة أن المُخلَصين لا يَقدر عليهم إبليس فهم عباد الله المخلَصون : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص:٧١-٨٥)

وبذا يسهل الصبرُ على النبيّ بعد كلّ المعالجات الواردة في القصة ؛ ويصمد أمام فساد قومه وطغيانهم . ويأتيه الأمر بإبلاغ الرسالة الأخيرة التي تجمع النصيحة والتهديد معاً . ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ (ص:٨٦-٨٨)

عبارة يحملها النبيّ لقومه لكنها أبعد أثراً في قلبه ونفسه . فهي تكفي لتمكينه على درب الصَّبر والجهاد . فلا يمكن أن يقولها للناس إلا وهو أشد إيمانًا بها وتمسكاً بمضمونها . خصوصاً أنها بشرى بالنصر ولو بعد حين .

فكأنها تثبت في نفسه ما بدأت به السُّورة ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ (ص:١) وهي تنتهي بمثل ما بدأت به والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

سورة الزُّمر

الزُّمر هي السُّورة التاسعة والثَّلاثون باعتبار الفاتحة والمقدمة . موضوعها هو وضع الناس والمخلوقات في زُمر أو مجموعاتٍ باعتبار ما بينها من شيءٍ مشتركٍ . وكان النصيب الأكبر من التقسيم للناس باعتبار الإيمان والكفر بعامةٍ ثم باعتبار درجة التزامهم بالإيمان أو انحدارهم بالكفر . فهم إجمالاً جماعتان كلّ جماعةٍ أفواجٌ حسب درجة التزامها بما اختارت من عقيدةٍ وعملٍ . وقبل تقسيم الناس تدعو السُّورة للإيمان بالله وباتباع النبيّ وتذكر المبررات التي يستحقّ بها الله أن يُعبد . . وفي صياغة آيات السُّورة إعجازٌ للعقل البشري . فلا يستطيع بشرٌ ولا يجرؤ أن يصوغ جملةً على غرار بعض آياتها (كالآية ٦) . ومن خصائص أسلوبها التي تجعل إدراك عظمتها عزيزة المنال أن الآية الواحدة تحتوي أحياناً حقيقتين متقابلتين أو مجموعة حقائق يستحيل على بشرٍ أن يجمعها بجملةٍ واحدةٍ أو يربط بينها . ثم يُظهر العقل ترابطها بعد أن جمعها الله في آيةٍ أو زمرةٍ واحدةٍ بينها شيءٌ مشتركٌ لم يكن ليخطر ببال بشرٍ كقوله تعالى : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ (الزمر:٦) فالبشر بدأ خلقهم بطريقةٍ ما ، والأنعام بدأ خلقها بطريقةٍ أخرى ، ثم تشابهت طرق تكاثرهما . فكلاهما ينتج عن تزاوجٍ ، ويبدأ نشأته في بطون الأمهات مما أتاح توحيد الخلقين في آيةٍ واحدةٍ . ولكن هل يخطر مثل هذا ببال كاتبٍ من البشر أو يجرؤ عليه؟

عنوان السُّورة

الزُّمَر . وهي كلمة بسيطةٌ قليلة المعاني فمادة «زمر» لها معنيان الأول : الفئة أو الفوج من الناس أو الجماعة . والثَّاني : الحُسن وخصوصاً في الصوت . جاء في اللسان : «غناء زمير أي حسن». ونفس المعاني نجدها في المقاييس والعين .

وكلا المعنيين موجودٌ في السُّورة . فالناس ينقسمون إلى زُمرٍ من الصالحين والطالحين ؛ ويساقون كلّ مع زمرته إلى مستقره جنةٍ أو نارٍ ؛ ووردت بهذا المعنى في الآيتين (٧١ ،٧٣) . والقرآن زميرٌ يؤثر في الأسماع والقلوب وتحس به الجلود أو كما تصفه الآية (٢٣) ﴿ **ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ** ﴾ (الزمر:٢٣). وكلمة مثانيَّ تذكر بالغناء الذي يثنى ويعاد مرةً بعد مرةٍ لترتوي النفس من جماله .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تشكل الآيات الثَّلاث الأوَل أطروحة السُّورة ﴿ **تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ** ﴾ (الزمر:١-٣).

وتختزل الأطروحةُ السُّورة بدعوة النبيّ لعبادة الله عبادةً مخلصةً على ضوء الكتاب المنزل من الله العزيز الحكيم وفق خطةٍ مسبقةٍ محكمةٍ . ويُذكِّره بأن من قومه من يتخذ دون الله آلهةٍ بحجّة التقرب بهم إلى الله . والله لا يقبل ذاك الكذب ولن يقبل أهله .

وعلى ضوء هذه المقدمة الشديدة الإيجاز نستطيع أن نستنتج وبناءً على أسلوب القرآن في طرح موضوعه أن قمة الإيمان تتجلى بعبادة المخلصين مع النبيّ ؛ ويقابلُ هؤلاء مشركون بالله كذابون بعقيدتهم وممارستهم . ولا بد أن تدعمَ السُّورة موقف المخلصين وتبررَه ليبدو أنه الصواب وهو فعلاً كذلك . وعكسه الشرك والكفر بالله . ولعل من المناسب أن نتوقف عند الآية الثَّالثَة للتأملِ في صياغتها الفائقة لقدرة العقل البشري . ﴿ **أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ** ﴾ (الزمر:٣). ونلاحظ الانتقال اللطيف المستحيل على غير الله ﴿ **ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ** ﴾ (الزمر:٣). فلا يجرؤ بشرٌ مهما أوتي من قوة الصنعة أن ينتقل هذا الانتقال دون أن

يجبره بكلمة أو بكلمات خشية اللبس . لكنه الله اللطيف القدير الذي يعرف قدرات خلقه . فانتقل بالآية من الحكاية إلى صيغة المتحدث عن نفسه دون وصلٍ مادي ؛ وبقي الأمر واضحاً غير ملتبسٍ . فهل يجرؤ كاتبٌ أديبٌ على فعلها وهو آمنٌ ؟ ووصلت الرسالة كاملةً غير منقوصةٍ!! فسبحان الله العظيم .

التعريف بالله المستحقّ للعبادة كما هي عادة السُّورة القرآنية غالباً ما تبدأ موضوعها الأول من آخر نقطةٍ في الأطروحة . فبدأت الآية (٤) بالرد على الذين جعلوا لله أقارب يتقربون بهم إليه سبحانه عما يقولون ﴿ **لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ﴾ (الزمر:٤). وما دام لم يتخذ ولداً كشريكٍ له في مُلكه فمن باب أولى أن لا يكون له شريكٌ على الإطلاق .

زُمَر الخلق :

١- زمرة الكونِ الطبيعي كلّه وخَلقُ نظامِه وقوانينه ؛ فهو زمرةٌ واحدةٌ ما كان منها ثابتاً أو متحركاً . ليشكل معاً وحدة عملٍ تُسَهل حياةَ الإنسان وتصنع فصول حياته السنوية واليومية وبذا جمع المكانَ والزَّمان بزمرة واحدة : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ** ﴾ (الزمر:٥)

٢- زمرة الأحياء من البشر والأنعام . ويأتي جمع البشر والأنعام في آيةٍ واحدةٍ لتشابههم في عملية التكاثر . فهم جميعاً يخلقون في بطون أمهاتهم : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ (الزمر:٦) .

٣- زمرة النبات : وهي أنواعٌ شتى مختلفة الألوان والأشكال والثِّمار ولكن بينها دائرةٌ مشتركةٌ تجعلها زمرةً واحدةً من حيث إنها نباتاتٌ تعيش على الماء مطراً مباشراً أومُخَزَّناً ليكون ينابيع . والمقصود هنا النباتات الحولية ذات العمر الفصلي المحدود التي ينتهي عمرها قبل نهاية العام لتتجدد بفصلٍ ماطرٍ جديدٍ ؛ فتكون حياتها القصيرة السريعة مجال تأملٍ لأولي الألباب : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ** ﴾
(الزمر:٢١) .

٤- البشر سواءٌ أمام الموت : فكلّ إنسان سيموت وتنتهي حياته لينتهي بين يدي ربّه فهم زمرةٌ واحدةٌ من هذه الناحية : ﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الزمر:٤٢) فلا مفرَّ لأحدٍ من الموت . فليتفكر الناس بهذه الحقيقة .

بعد هذا ننظر في السُّورة فنجد الناس زُمَراً من حيث درجة إيمانهم أو شدة كفرهم وشركهم . وذلك بعد أن يضع لهم قاعدةً عامةً للتمييز بين من يرضى الله عنه وبين من يرفضه وعلامات كلّ فئة :

﴿ **إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (الزمر:٧-١٠). ثم تظهر زمر المؤمنين والكافرين على ضوء هذه العلامات :

١- **المخلِصون** : يبدأ الخطاب موجَّهاً إلى النبيّ أولَ المخلِصين ليقتدوا به . ﴿ **قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى** ﴾ (الزمر:١١-١٤). هذه عبادة نبيِّكم فاقتدوا به ما استطعتم . وتأتي هذه الآيات تفصيلاً لشبه الجملة في نهاية الآية الثَّانية من السُّورة . فإخلاص العبادة مطلبٌ أساسيٌّ في هذه السُّورة ونظراً لصعوبة العبادة المخلصة يكون المؤمنون على درجاتٍ ، فيكونون زمَراً يوم القيامة .

٢- **الخاسرون** : يأمر الله النبيّ أن يقول للكافرين : اعبدوا ما شئتم فالله لا يجني نفعاً من عبادتكم . بل أن من يستفيد هو المطيع لله ؛ ومن يعرض فهو الخاسر . ثم تعرض الآيات مشهدهم في جهنم . ﴿ **فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ**

ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ (الزمر:١٥-١٦). وهؤلاء هم الأسوأ حظاً . مقابل فئةٍ المخلِصين في الفقرة السابقة من الآيات .

٣- **العائدون إلى الله** : ومن قومك أيها النبيّ من يعودون ويجتنبون الطاغوت ويستعملون عقولهم في تمييز الهدى . ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ** ﴾ (الزمر:١٧-١٨) وهؤلاء زمرةٌ أخرى من المؤمنين تتلافاهم رحمة الله قبل فوات الأوان لأنهم استعملوا عقولهم وفكروا بالطريقة السليمة .

٤- **المقيدون بمعاصيهم وماضيهم** : ومن لم يستطع أن يجتنب الطاغوت ولم يتبع الهدى منهم فإنما حبسته سيئاته فاستحقّ العذاب ﴿ **أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ** ﴾ (الزمر:١٩)

٥- **من نفعهم ماضيهم** : ويقابل الفئة السابقة فئةٌ أخرى من المجتمع كانت على درجةٍ من التهذيب فلم تكسب السيئات فسهل عليها الإيمان . ونراهم هنا يُذكرون بمكانتهم في الجنة : ﴿ **لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ** ﴾ (الزمر:٢٠) وهذه زمرةٌ نكاد نلاحظها في الحياة . زمرة المعتدلين ينفعهم حياؤهم وتهذيبهم فلا يفعلون إلا ما يفيدهم .

زمرتان أمام وسائل الهداية : كي لا يكون عذرٌ لمشركٍ تُبرِزُ السُّورة وسائل هداية يراها الجميع . فالله يخلق دورات الطبيعة السنوية المتمثلة بحياة النبات منذ يُنزل الله المطر فينبت الزَّرع وينمو حتى ينتهي عمر النبات ويصفر . ثم تتحدث الآية التالية عن القرآن وجمال صياغته وقدرته على هداية أصحاب الفطرة السليمة . ولا عذر لمن لم يجد موعظةً بها . وينقسم المخاطبون أمام وسائل الهداية هذه إلى زمرتين : زمرةٍ منشرحة الصدر وزمرةٍ قاسية القلب ولكلّ مصيرٌ تستحقّه ﴿ **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾**

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٢١-٢٦).

وأمام القرآن زمرتان : تستمر الآيات بعرض وسائل الهداية . فالقرآن غنيٌّ بالأمثلة الهادية . عدا عن كونه قرآنا واضح اللغة مستقيم الفكر لا تناقض فيه ولا غموض . ثم يضرب الله مثلاً على بطلان تعدد الآلهة ، وأن التَّوحيد هو الفطرة : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الزمر:٢٧-٣٥) . وهؤلاء الذين غفر الله أسوأ ما عملوا زمرةٌ أخرى ناجيةٌ . وتقابلها زمرةٌ مُكَذِّبةٌ مصيرها نار جهنم .

مواجهة مع الأسوأ : يدعوهم الرسول لعبادة الله فيبلغ بهم السوء أن يخوفوه من آلهتهم بدل أن يعبدوا الله الذي يدعوهم إليه . فكأن الآيات تتدرج نحو الأسوأ والأشدّ كفراً من القوم ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ

ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ (الزمر:٣٦-٤٠)

وفي الآيات سخريةٌ من عقول المشركين . فهم يُخَوِّفون نبيَّهم غَضَبَ آلهتِهم . فينطلق النبيّ من هذه الحقائق التي يعرفونها ليقول لهم : إن الله وحده يقدر أن يضر وأن ينفع وليس آلهتكم . فاعملوا لمستقبلكم إني أعمل لذلك . ومن لا يستعد ليوم الحساب فسيخزيه عذاب ويحل عليه في الآخرة عذابٌ طويل الأمد .

نداء أخير : فيما يشبه النداء الأخير وبحديث للنبيِّ فيه من الودِّ بقدر ما فيه من الحزم تأتي الآيات الكريمة (٤١-٦٦) . وهي باقةٌ كبيرةٌ من الآيات . ويُهيأ للقارئ أن بالإمكان تجزئتها إلى عدة عناوين . لكنها في المجمل نداءٌ أخيرٌ يُوجَّه للنبيِّ ليستخلص من المجتمع من به بقية قلبٍ واعٍ وبقية فطرةٍ سليمةٍ ، لينضم إلى ركب المؤمنين وللزمرة التي تناسب مستواه الإيماني . تبدأ الآيات بإبلاغ النبيّ أن القرآن أنزل لقومه وفق خطةٍ قديمة . فليطمئن قلبه ما دامت الأمور كلّها ضمن عملٍ إلهيٍّ متقنٍ . وكلّ عمل الله متقنٌ . وقد حسب الله حساب من سيهتدي ومن سيضل . وبالتالي فوظيفة النبيّ مجرد التبليغ ولا لوم عليه في كُفْرِ مَن يَكفُر . والناس كلّهم في قبضة الله يميت من يشاء حيث يشاء ، تماماً كما ينامون كلّ يوم . وإذا كان قومه قد اتخذوا شفعاء فشفعاؤهم لا يملكون شيئاً لأن الشفاعة جميعاً لله . وليضع في اعتباره أن منهم قوماً كافرين يمتعضون إذ يُذكر الله ، ويستبشرون بذكر شركائهم . فهم ضالون وجهلةٌ وسينالون العذاب الذي يستحقّون . عذاباً يتمنون لو ينفقون كلّ ما جمعوا ليتخلصوا منه ولكن هيهات . ولهم أمثالٌ فيما سبق من الأمم . ثم يأمره أن يخاطب عباد الله قائلاً لهم إن الله يقول لكم ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . وهذا النداء هو ما جعلنا نسميه النداء الأخير . فهو هنا ينادي الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي والذنوب وربّما الكفر . يدعوهم للعودة إليه ، وأن لا يقنطوا بسبب ما اكتسبوا . إن الله غفورٌ رحيم . فلينتهزوا الفرصة قبل أن تضيع . وتستمر الآيات بمعالجة أمر هذه الفئة لاستعادة أكبر عددٍ منها إلى الطريق القويم . وتحذرهم التأخر عن ركب المغفرة والفرصة المتاحة . ثم تأتي الآيات (٦٤-٦٦) لتزيد النبيّ تمسكاً بربّه وتنفره من شرك قومه . وتقول له «بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» : ونقتبس منها الآيات التالية لطولها تاركين لمن يرغب العودة

إليها في المصحف الشريف : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الزمر: ٤١-٦١). فهما هنا أيضا زمرتان.

وختاماً : ينتهي هذا العالم حسب خطة الخلق . ولا يبقى إلا الله وقدرته وإرادته المباشرة بعد سقوط الوسائل والوسائط . وتقوم الساعة . وينفذ أمر الله بنفختي الصور ويقف الناس أمام الله مثقلين بما قدموا في حياتهم الدنيا . ثم تشرق الأرض بنور ربّها ويوضع الكتاب والميزان والشهود . ويُقضى بالحقّ بين الخلق وتوفى كلّ نفسٍ ما قدمت . ويُدَرَّجُ الناس حسب أعمالهم إلى زمر . فزمر الصالحين تساق إلى الجنة وزمر الظالمين إلى جهنم . ويكون حوار بين كلّ فئةٍ وملائكة الاستقبال على أبواب الجنة وأبواب النار ﴿ **وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الزمر: ٧١-٧٥).

ولا مزيد ، فليس بعد تلك النعمة نعمةٌ ولا فوق تلك العظمةِ عظمـةٌ . عظمـة الله ومنظر الملائكة يحيطون بعرشه يسبحون بحمده . وعندها يعلم المؤمنون أنهم كانوا على الحقّ ، وأنهم اختاروا الخيار السليم .

* * *

سورة المؤمن

هي السُّورة الأربعون حسب ترتيب المصحف . وقد سميت بصفة مؤمن آل فرعون . والمؤمن هنا رجلٌ ذو ضمير حيٍّ وذو شجاعةٍ بالحقّ نادرةٍ . لم يكن مكلّفاً من الله ولا من موسى للقيام بما قام به . ولكنه تطوع من عند نفسه ، غِيرَةً على الحقّ لما سكت الملأ جميعاً ؛ وبدأ فرعون يفكر بقتل موسى . ولم يجد موسى نصيراً إلا أن فوض أمره إلى الله . المؤمن المثال ، رجل المبدأ الصادقُ الأمينُ الغيورُ على الحقّ . يضطر لكشف إيمانه الذي حرص على إخفائه زمناً . وجادل فرعونَ وملأه علناً غير عابئٍ بمصيره أمام حاكمٍ مستبدٍ متألهٍ لا يتورع عن ظلم أحدٍ في سبيل الدفاع عن موقعه ومكانته وهيبة سلطانه . فعَرَض المؤمن على مسامعهم مبررات الإيمان بالله ، وحقّ موسى بالحياة وبالدعوة إلى الله . وحذر قومه من خسران مُلكِهم وعِزهم إن عصوا الله ، وذكرهم بيوم الحساب . شخصيةُ المؤمن التي جيء بها لتكون أكثر من رسالة للنبيِّ موجودة في معظم المجتمعات . وفي وجودها إحراج للمنافقين والظالمين ولكلّ من يتحالف مع الباطل .

ومقابل مثال المؤمن عرضت السُّورة بفرعون نموذج الكافر المكابر المستبد برأيه رغم افتقاره لحجّةٍ حقيقيةٍ . فتكتمل الصورة بشقيها المؤمن القويّ والكافر القويّ ؛ كعادة القرآن في تقديم موضوعه من كلّ نواحيه . ولكلا المثالين نهايةٌ تتفق مع ما قدم .

تقدم السُّورة مؤمن آل فرعون على غرار تقديم سورة الصافات لإبراهيم عندما خاطب قومه وهو فتًى غير مكلّفٍ من الله . وكذلك على غرار تقديم مؤمن سورة «يس» الذي تبرع بدعوة قومه لاتباع المرسلين .

«المؤمن» هكذا ، كأنها ترسم لنا مثال المؤمن . ولكن من خلال شخصيةٍ واقعيةٍ عليها شهودٌ . وهي شخصيةٌ مختلفةٌ عن شخصية الرسول المكلّف . فكلام الرسول يكون دقيقاً تماماً عندما يكون من عند الله . بينما قد يجد المدقق خطأً ما أو خللاً بسيطاً في كلام المؤمن المتطوع . ففي قصة هذا المؤمن نسمعه يصف يوسف

بأنه رسول . ويوسف لم يكن رسولاً إلى أحدٍ . بل كان نبيًّا في ذاته ولذريته وأهل بيته . ولكن معلومات مؤمن آل فرعون وصلته بعد أربعة أجيال من عهد يوسف أو ما يقارب قرناً ونصف القرن من الزَّمان . وقد حَمَّلتها الأيام من التقديس والتعظيم ما يخالف الحقيقة ، وتقتضي الأمانه أن ينقل الكلام كما قاله صاحبه كما تعودنا من القرآن . فيكون ذلك دليلاً لأولى الألباب .

مؤمن آل فرعون شخصيةٌ رئيسيةٌ في السُّورة . وقد ذُكر كعنوانٍ للسورة معرفاً « المؤمن » ليكون مثالاً لكلّ من ينصر الحقّ بدافع الضمير والغيرةِ على الحقّ . ولتعميق رسالتها تدور السُّورة حول خصائص الإيمان المطلوب من المؤمنين المخاطبين بالقرآن . وبالمقابل تصف معالم الكفر من خلال أفعال المشركين وجدالهم ليجتنب المؤمنون مثل أفعالهم وأقوالهم ليستحق صفة المؤمن .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوان السُّورة « المؤمن » وليس سواه . مع أن كلمة غافر توشك أن تغلب الاسم الحقيقي . وسنثبت في هذا الفصل أن « المؤمن » هو اسمها من عند الله عز وجل . ولا يمكن أن يكون عنوانها « غافر » . فغافر من أسماء الله . فماذا يمكن أن تكون الرسالة في سورة عنوانها غافرٌ موجهةً للنبيِّ ليخاطب بها قومه؟ والسُّورة كلّها تحريضٌ للنبيِّ على مخاطبتهم وتهديدهم بالعذاب الشديد . بل تقول الآية (٦) ما معناه إن كلمة الله صدرت أنهم من أهل النار! وتشبههم بفرعون وملئه . فأين الغفران وقد ختمت السُّورة بخسارة المشركين ورفض توبتهم لفوات الأوان تماماً كما رُفضت توبة فرعون وملئه .

والمصاحف القديمة تسميها المؤمن . وقد ورد اسمها في حديث رواه الترمذي يقول : « من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن ، عُصِم ذلك اليوم من كلّ سوء » . وليس يهمنا هنا صحة الحديث أو ضعفه لكن يهمنا أن اسم السُّورة « المؤمن » وليس غافر . وقد ظهر اسمها هذا في عدة أحاديث مسجلة عند أصحاب السنن ولم يرد حديث واحد يسميها غافر .

من جهة أخرى نقرأ من أسمائها عند الفيرزآبادي في البصائر : « المؤمن والطّوْل وحم» ولم يذكر غافر . ونغض الطرف عن اسمي الطَّول وحم لأنا اعتدنا أن نرى

الفيروزآبادي يسجل الأسماء التي تصف السُّورة إلى جوار الاسم الحقيقي التَّـوقيفي . ونحن بهذا السفر لا يهمنا سوى ما أوحى الله به لنبيه من أسماء السور .

وعن معنى كلمة المؤمن يقول الرازي في المقاييس «الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب ، والآخر التصديق» .

والإيمان عند الفيروزآبادي في البصـائر : «التصـديق في السـر والعلـن ويـراد بـه إذعان النفس للحقّ على سبيل التصديق .»

وكذلك كان مؤمن آل فرعون .

وموضوع السُّورة ، التي اتخذت مثال المؤمن عنواناً لها ، عرض خصائص المؤمن الإيجابية . لذلك تضمنت السُّورة دعوةُ النبيّ لمجادلة مشركي مكّة كما فعل مؤمن آل فرعون مع فرعون وملأه . وفي نفس الوقت تلميح للمؤمنين مع النبيّ أن عليهم واجباً أكبر مما يقومون به في مواجهة قومهم وعشيرتهم ، تأسياً بمؤمن آل فرعون ﴿ **فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ (غافر: ١٤)

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بأطروحتها التي تتكون من الآيات الست الأولى ﴿ **حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ** ﴾

(غافر: ١-٦)

حم ، تبدأ بها سبع سورٍ متتاليةٍ . ومما يلاحظ على هذه السُّورة شدةُ التهديد الذي توجهه لمشركي مكّة .

والكتاب من العزيز العليم . والعزيـز لا يُغلـب ولا يسـمح أن يـتمكن أحـدٌ مـن إفشال خططه أو إبطال عمله . وبعلمه أنزل الكتاب لتكتمل إرادتُه بنزولـه وتمَثُّلِه في حياة الأمة المخاطبة به . .

ومع أن الآية الثَّالثَة تبدأ بذكر صفة الله الغافر إلا أنها تُتبِعها بأشد أنواع التهديد . فهو سبحانه شديد العقاب ذو الطول لا يسبقه مذنب أو معاند ، وإليه مصير كلّ خلقه فلا مهرب ولا نجاة إلا بطاعته .

الآية الرابعة فيها مواساةٌ للنبيِّ وهي تقول له إن الذين يجادلون في آيات الله كافرون أصلاً وأن جدالهم مجردُ تمحلٍ وذرائع . وسيدفعون الثَّمن فلا تتأثر بقوتهم وسلطانهم وسهولة عيشهم في البلاد ؛ فالعقاب بانتظارهم . كما حدث لأممٍ خلت كقوم نوحٍ .

وقد سبق قريشًا للكفر أقوامٌ كثيرة ؛ وهَمَّ بعضهم بقتل أنبيائهم ، وجادلوا مثلهم بالباطل فأخذهم الله أخذاً شديداً .

وتبشره الآية السادسة أن الله قرر مصير هؤلاء المجادلين في آيات الله أنهم من أصحاب النار .

ويبدو من اللهجة العالية واليأس من إيمان الغالبية الباقية على الشرك أن السُّورة نزلت في مدةٍ متأخرةٍ من العهد المكي وبين يدي الهجرة . حيث لم يبق بين النبيّ وبين المشركين إلا هذه الحرب المفتوحة .

بشرى للمؤمنين : على غير عادة القرآن تبدأ الفقرة الثَّانية بتفصيل أول بشرى في الأطروحة . ففي بداية الآية الثَّالثَة يقول تعالى ﴿ **غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ** ﴾ (غافر:٣) . فتأتي الآيات الثَّلاث الأُوَل لتصف غفران الله للمؤمنين . وبشرى للنبيِّ والمؤمنين عندما يعلمون أن الملائكة الحاملين عرش الله يستغفرون لهم ، ويتوسلون الله لإدخال المؤمنين الجنة وليصرف عنهم السيئات في الحياة الدنيا! أيُّ هديةٍ أعظمُ من هذه للنبي وللمؤمنين معه؟ وكأنَّها تأتي بهذا الترتيب إكراماً لمنزلة الإيمان مما يتفق مع اسم السُّورة : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴾

(غافر:٧-٩)

مشهد الكافرين يوم القيامة : وبمقابل اهتمام حَمَلة العرش بالمؤمنين ، ينتقل النص سريعاً إلى يوم القيامة لنرى بؤس حال المعاندين للنبيِّ . ونسمع توسلهم المُحزن المليء بالندم ، وردَّ الله عليهم تحقيراً لهم : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ** ﴾ (غافر: ١٠-١٢) .وتأتي هذه الآيات تفصيلاً لبقية الآية الثَّالثَة في وصف عقاب الله للمشركين بالشدة ﴿ **شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ** ﴾

(غافر: ٣)

الله الحقّ والمستحقّ للعبادة : تفصيلاً لبقية آيات الأطروحة (٣-٦) تأتي الآيات العشر التالية (١٣-٢٢) تعرض بعض أخص خصائص الألوهية ، مقابل زعم المشركين أن لهم آلهةً سواه . فهو الله الحقّ بنعمه ، وبما يملك ويقضي ويخلق ويعيد الخلق ، عندما يريد بإرادته الحرة الطليقة إلا ما كتب على نفسه . والآيات في بدايتها موجهةٌ للمؤمنين . ثم تخاطب النبيّ تأمره بإنذار قومه يومَ القيامة . ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ (غافر: ١٣-٢٢) .

فهو سبحانه الرازق للخلق ، والهادي الذي يرسل الرسل للبشر ؛ والجميع مكشوفٌ أمامه في الحياة الدنيا ويوم القيامة . وليس للآلهة المزعومة سلطة قضاء . .

وتأتي هذه الفقرة تدعوهم للتحرر من قيود المادة التي تحول بينهم وبين الإيمان . تمهيداً لقصة مؤمن آل فرعون .

قصة المؤمن : هي جزءٌ مـن قصـة موسى وبـني إسـرائيل مـع فرعـون وملئـه . وقصة موسى مثلٌ ساقه الله للنبيِّ وللمؤمنين . وفيه يُشبه الله مشركي قـريشٍ بفرعـون وملئه وهم يظلمون بني إسرائيل ، ويُكَذِّبون موسى ويتهمونـه بالسـحر ؛ تمامـاً كمـا تفعل قريشٌ مع النبيّ وأصحابه . فيتحرك مقابل الظلم الصريح مؤمنٌ من آل فرعون ، يدافع عن موسى لينجيه من القتل ؛ الذي اقترحه فرعون . ونسمع هذا المـؤمن وهـو يستعمل كلّ ما آتاه الله من قدُراتٍ في الدفاع عن موسـى ، وفي الـرد علـى فرعـون . وذَكَّرت السورة بمؤمن آل فرعون لتُسَرِّي عن النبيّ وهو يعايش ظلم قومه وعنادهم.

ومن جهةٍ أخرى لتحفز ضعاف الإيمان والخائفين على رزقهم وحيـاتهم ليقتـدوا بمؤمن آل فرعون ويتحولوا إلى جانب الحـقّ بشـجاعةٍ غـير مقيـدين بـوهم الخـوف على الرزق والحياة .

وتمتد قصة موسى ومؤمن آل فرعون على مدى الآيات (٢٣-٥٥) ﴿ **وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا**

لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر:٢٣-٤٥) .

نجا مؤمن آل فرعون . وواجه فرعون وملؤه مصيرَهم . فتأتي القصة بوجهيها بلسما لقلب النبيّ المكلوم من قومه ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾

(غافر: ٤٥-٥٥)

وتنتهي قصة الصراع بانتصار موسى تمشياً مع سنة الله في انتصار رسله في الحياة الدنيا . وهلك فرعون وملؤه ، ونجا بنو إسرائيل وورثوا الكتاب وبقوا في الأرض . ويعد الله النبيّ بنصرٍ مماثلٍ فالله الذي أرسله هو العزيز الذي لا يُغلب .

مناجاة للنبيِّ والمؤمنين : كما جرت العادة في السور الأخيرة ، يخصص الجزء الثَّالثَ والأخير لمناجاة النبيّ والمؤمنين معه ، أو لتوصيات على ضوء موضوع السُّورة . فالآيات (٥٦-٨٥) تأتي تفصيلا للآيات (٤-٦) من الأطروحة ، فالمجادلون في آيات الله هم مكابرون يدفعهم حسدهم للنبيِّ بإنكار نبوَّته عسى أن يحلوا محله ! ثم تتحدث عن الله خالق السموات والأرض وقدرته على هؤلاء المعاندين . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر:٥٦-٦٥)

وتستمر الآيات حتى نهاية السُّورة بذكر حال المجادلين بغير علمٍ . وهي من السور القليلة التي تنتهي بالحديث عن عذاب الرافضين لدعوة الله ورفض توبتهم يوم الحساب . فكأن السُّورة بهذه الخاتمة المثالية المتشددة تنسجم مع مثال مؤمن الضمير الذي خلدت ذكره . وتدعو النبيّ والمؤمنين للصبر والإخلاص لله وشكره على نعمه عليهم إذ خلقهم بصور حسنةٍ ورزقهم رزقاً حسناً ونجاهم من الكفر ودنسه .

وتقابل السُّورة خللاً خُلقيًّا أصليًّا يتفشى بين سكان المناطق الفقيرة بالموارد . حيث يتسابق الناس على الرزق ويُغفلون القيم العليا . فينشغل كلّ إنسانٍ بنفسه ولا يدافع عن حقّ ليس له فيه مصلحةٌ شخصيةٌ .

* * *

سورة فصلت

فصلت اسم على مسمًّى . تكاد تنفرد كلّ آيةٍ فيها بفكرةٍ ، ولم تتسع آيةٌ لفكرتين إلا قليلاً . ثم تأتي معظم مواضيعها مفصلةً حتى ليظهر الوصف الكمي واضحاً في بعض آياتها . ففُصلت كيفياتُ خلق الكون ومراحلها وتَحريكِ أجرامِه ، بعضِها حول بعض ليكون الليل والنهار والفصول . وذكرت خلق الطعام لمخلوقات الأرض ، والمدة التي استغرقتها كلّ عمليةٍ من العمليات المذكورة . ووصفت سلوك الإنسان تجاه النعمة والضيق . وتعد الآية (٥٣) بمزيد من التفصيل مع تقدم الزَّمن ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (فصلت:٥٣) .

وفصلت هي السُّورة الحادية والأربعون . ويبدو من مواضيعها أنها سورةٌ مبكرةٌ في نزولها . فلم يكن اليأس من المشركين قد استحكم . ولا كانت نبرة التهديد العالية ظاهرةً في السُّورة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها فُصِّلت وقد وردت الكلمة مرتين في السُّورة : الأولى في الآية الثَّالثَة ﴿ **كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ (فصلت:٣) والثَّانية ليست بعيدةً عنها في المعنى وهي الآية (٤٤) . وهي في الآيتين بمعنى بُيِّنت ووُضِّحت .

وفي مقاييس اللغة للرازي أن : « الفاء والصاد واللام كلمة صحيحة تدل على تمييز الشيء عن الشيء وإبانته عنه». وفي كتاب العين للخليل بن أحمد : « الفصل بون ما بين شيئين ، والفصل القضاء بين الحقّ والباطل» .

ومن قراءة السُّورة يتبين أنها سميت فُصِّلَت من التفصيل والتبيين الواضح فيها بطريقةٍ تكاد تكون كمية . فالأشياء موصوفةٌ بدقةٍ وبالأرقام أحياناً . فهي فُصِّلت باعتبار أسلوبها ومعلوماتها الواردة بها لتدعم رسالتها وهي الدعوة لتصديق النبيّ واتِّبَاعِه .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : بآياتها الأربع الأولى تطرح السُّورة موضوعها بإيجازٍ شديدٍ لكنها قالت به الكثير . الذي استوعب كلّ موضوعات السُّورة المكونة من ٥٤ آيـة . ﴿ **حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ** ﴾ (فصلت:١-٤) .

تبدأ السُّورة بدايةً وديةً فهي تنزيل من الرحمن الرحيم . وهذا يعني أنها نزلت في وقتٍ مبكرٍ من الـدعوة . فهـي رحمـةٌ مـن الله بالمخـاطبين . ثـم تعـرف المخـاطبين والخطاب فهو قرآنٌ عربيٌّ آياته واضحةٌ بينةٌ ، موجه للعرب الذين يعلمون اللغة التي يتنزل بها . وهو لهم بشيرٌ يبشرهم بشرف الدنيا وعزها ونعـيم الآخـرة . وهـو نـذيرٌ يخوفهم عاقبة الإعراض عنه وعذاب يوم الحساب . ومع هـذا فـأكثرهم لا يسـمعون لهذا القرآن ولا لهذا النبيّ .

وفي إطار هذه المعاني تتحرك السُّورة وتفصل ما تعرض تفصيلاً واضـحاً تمشـياً مع عنوانها .

المواجهة : بصراحةٍ تليق بسورةٍ اسمها فُصِّلت ، وانطلاقاً من آخر آيةٍ في الأطروحة ﴿ **بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ** ﴾ (فصلت:٤) ؛ تبدأ السُّورة وصف الأمر بالتفصيل بما يتفق مع جو السُّورة : ﴿ **وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ** ﴾

(فصلت:٥)

وكبشير ونذير يردُّ عليهم كما يوجهه ربّه ﴿ **قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ** ﴾ (فصلت:٦-٨)

وهكذا يقدم النبيّ نفسه لقومه بشراً عادياً مرسلاً من الله الواحـد ، ليسـتقيموا إليـه ويستغفروه . وفي الآية (٧) التفاتةٌ تستحقّ النظـر فهـي تصـف المشركيـن بأنـهـم لا يؤتون الزَّكاة . ولم تكن أحكـام الزَّكـاة القرآنيـة قـد نزلـت بعـد . ولكـن العـرب يعرفون الزَّكاة التي كانت مفروضةً عليهم بدين إبراهيم . فتأتي هـذه الآيـة لتؤكـد أن الإسلام تجديدٌ للحنيفية دين إبراهيم . وبدل الدعوة العامة للإيمان تنـزل السُّـورة إلى مستوى التفصيلات فتأمرُ بالزَّكاة كركنٍ من أركان الإيمان مما يليق باسم السُّورة .

تشنيعٌ بكفرهم مقابل نعم الله وقدرته عليهم : بخطابٍ للنبيِّ وبعشر آياتٍ تنطلق من مواجهة المشركين بكفرهم بالله الخالق . وتُفصل الآيات مدَّة خلق الأرض والسموات وكيف خلق بعض مفردات الكون ولماذا فعل ذلك . ليكون التفصيل دليلاً على حكمته وعظمته وقدرته ، فلا يحقّ لهم الكفر به . ﴿ **قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ** ﴾ (فصلت:٩-١٨) .

مصير أعداء الله يوم الحشر والحساب : بتفصيلٍ يلفت النظر تصف الآيات الست (١٩-٢٤) مشهدهم وهم يحاسبون فتشهد عليهم جلودهم وسمعهم وأبصارهم . مما يجعل الإنسان يقشعر وهو يتخيل أعضاء جسمه تشهد عليه . ﴿ **وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ** ﴾ (فصلت:١٩-٢٤) .

سبب عذابهم المذكور : في مشهدٍ مختلط بين موقف أعداء الله في الدنيا ، ومستقرهم في النار تُفَصِّل الآيات سبب عذابهم . فقد استسلموا لفتن الشيطان وأصدقاء الضلال ، ومقالتهم في التشويش على القرآن للصد عنه . فلم يبق لهم جزاءٌ إلا النار . ﴿ **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ** ﴾
(فصلت:٢٥-٢٩) .

هذه أفعالهم وقبلها ذُكر مصيرُهم !

مصير المؤمنين : منذ الدقائق الأخيرة من الحياة تستقبلهم الملائكة تبشرهم بحسن المصير ، وبما تشتهي أنفسهم ، ونزلاً عند ربّ كريمٍ ؛ وتبرر الآيات حُسنَ مصيرهم بإيمانهم وصبرهم على أذى قومهم وفتن الدنيا ، وتتضمن الباقة الكريمة نصائح للنبيِّ . كلّ ذلك بتفصيلٍ يناسب عنوان السُّورة : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ (فصلت:٣٠-٣٦)

آياتٌ متجددةٌ للمشركين : في الآيات التالية يطلب الله من النبيّ تذكير قومه بآياته المتجددة كدورة الشمس والأرض والقمر وما ينشأ عنها من ليلٍ ونهارٍ . . . . . ولمزيدٍ من التسرية عن النبيّ تقول له الآيات أن الكتاب المُنزَّل عليه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يعبأ بتكذيب المشركين له . فهذا دأبُ الشعوب المخاطبة مع رسلها . بل له عبرةٌ بعدم تقديرهم لمخاطبتهم بلسانهم . ولو خاطبهم بلسانٍ آخر لاتخذوها ذريعةً لكفرهم . ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ**

لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت:٣٧-٤٤) . فالقرآن عربيٌّ وآياته مفصلةٌ وكلّ ما في جو الآياتٌ وصيغتها يدل على الوضوح تمشياً مع اسم السُّورة . ويأتي ذكر القرآن ولغته هنا استجابةً لما ورد عنه في الأطروحة .

وبشريات أخرى : تتضمن الفقرة الأخيرة أكثر من بشرى . وأولها ذكر موسى وكتابِه . ولا أجد معنًى لذكره هنا واختلاف قومه عليه من بعده إلا أنها رسالةٌ بأن الله سيتم نزول القرآن وسيختلف أهله بعد حين كما هي عادة البشر . وتأتي الآية (٤٦) لتؤكد أن سيكون من قوم محمدٍ من بعده من يحسن ومن يسيىء . والآية (٤٧) تُذكِّر بعلم الله الشامل لكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، من علمه بالساعة إلى علمه بكلّ زهرة نباتٍ تتفتح وبكلّ أنثى من الناس والحيوان تحمل . ومع هذا يشرك به مشركون ، يتخلون عن شركهم يوم الحساب ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (فصلت:٤٥) . وتُختَتَم السُّورة بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ (فصلت:٥٣-٥٤)

وبهذه الخاتمة تتلخص السُّورة من حيث الإشـارة لآيـات مُفَصَّـلَةٍ مُقنِعـة للعقـل . ففصلت كلّ أمر ورد فيها ، لتزرع اليقين في نفوس المخاطبين ، وتحررَهم من الظـن ؛ الذي يقيمون عليه شركهم إن كانوا مشركين أو يُضعفُ إيمانهم إن كانوا مسلمين .

* * *

الشُّورى

الشُّورى هي السُّورة الثَّانية والأربعون حسب ترتيب المصحف باعتبار الفاتحة والمقدمة . سميت الشُّورى لورود الشُّورى كمنهجٍ في إدارة الشأن العام مدح الله به عباده المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) . والشُّورى جميلةٌ بكلّ معانيها وليس بتنازع الرأي فقط . فمن الشُّورى استخلاص العسل من قرصه . والعسل خلاصةٌ هي الأحلى بين كلّ مراحل صنعه منذ وجوده جزءاً من زهرة حتى يُستخلص عسلاً مصفى من قرص الشمع حيث تستودعه النحلة . وكلّ استخلاصٍ للأحسن هو في الحقيقة شَوْر . وهكذا جاء الأمر في السُّورة . فالقرآن يحتوي أحسنَ ما في كتب الله ، وفي كلّ خير . لكنه يحتوي الهدى وحسب . لذلك أُمِرنا أن نأخذ به كلّه بينما أمر الله بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسن ما في التَّوراة . ووحي الله لنبيِّنا موثقٌ كلمة كلمة في القرآن الكريم . وهو بصياغته شاهدٌ على صدق مصدره إلى يوم القيامة . وليس كذلك بقيةُ وحيه للأنبياء ؛ الذي تراوح بين الإلهام والرؤيا الصالحة حيث لا شاهد لصاحبه إلا نفسه ؛ وبين التكليم من وراء حجابٍ كما في حالة موسى . وهو كذلك ليس له شاهدٌ إلا العصا وتصديق قومه له . وتتحدث السُّورة عن أنواعٍ أخرى من الشور كاستخلاصه تعالى عبادَه المؤمنين من بقية قومهم بالعقبات والبلاء في الرزق وسواه . ثم يشتار سبحانه من عباده أهل الجنة والجزاء الحسن دون الظالمين . فهي شورى في كلّ مجالٍ ذكرته !

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها الشُّورى . وقد وردت الكلمة في الآية (٣٨) ونصها الشريف ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ** ﴾ (الشورى:٣٨) . وهي هنا بمعنى اشتراك جماعة المؤمنين بالتَّوصل إلى الرأي أو القرار فيما يتعلق بالأمر العام .

ولكنها استعملت كعنوان للسورة بهذا المعنى وبسواه مما تجيزه معاني الكلمة . يقول الخليل في العين تحتَ مادة «شور» : «شُرْتُ وأَشَرْتُ العسل . وأَشَرتُ : اجتنيت . والمشورة : مفعُلة من الإشارة بالشيء . وشَوَّر الدابة : نظر كيف مشوارها».

وفي مقاييس اللغة للرازي : « الشين والواو والراء أصلان مُطردان : الأول منهما إبداء شيء وإظهاره وعرضه ، والآخر أخذ الشيء . فالأول قولهم شُرت الدابة شورا إذا عرضتها . . . . والباب الآخر قولهم شُرت العسل أشوره ».

والشُّورى بالمعنى الذي بيناه مطور من شرت العسل وهو استخلاصه من قرصه الشمعي . والعسل هو المستخلص الأحسن من مخزنه . كذلك الشُّورى تستخلص الرأي الأفضل من فكر المتشاورين . ولكن هل كان هذا هو المعنى الوحيد لسورة الشُّورى؟ بل توسعت به لتعطي للأمة المخاطبة الخلاصةَ والأفضلَ في أكثر من مجال من المجالات التي ناقشتها وأولها الدين . وذكرت أن نبوة محمدٍ من أقوى النبواتِ ، وأفضلها توثيقاً . ويبقى استخلاص الأحسن هو المعنى الأكثرُ حضوراً في السُّورة .

تحليل السُّورة على ضوء العنوان :

تبدأ بآيتين من الحروف المقطعة . ووضعهما بالصيغة التي وضعتا بها متبوعتين بكلمة « كذلك » تؤكد أن لهما معنًى محدداً وليس مجرد مثال للحروف التي يتكون منها القرآن . وتقتضي الحكمة أن يكشف الله معنى هذه الآيات لعباده في المستقبل لتكون شاهداً على أمرٍ ما . ولعلها بشرى بتجديد الأمة يوماً ما برعاية الله تعالى .

أطروحة السُّورة : وهي الآيات ﴿ **حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ** ﴾ (الشورى:١-٦)

وكعادة الأطروحة تأتي الآيات محملةً بالأفكار تفيض بها المفردات . فهو وحيٌ للنبيِّ . وكلّ وحيٍ لنبيٍّ قبله إنما هو من العزيز الذي لا يغلب ، فلا بد أن يصل وحيُه إلى حيث يريد ، لا يعطله قوةٌ في الكون . وهو الحكيم الذي يدير الأمور بحكمته التي لا تخطئ . ثم تمجده الآية الرابعة وتبرز قوته سبحانه كما لا تقدر كلمات على أكثر من ذلك . فله كلّ ما في الكون بسمواته وأرضه من أحياءٍ وجماداتٍ ومن عاقلٍ وغير عاقلٍ ثم تذكر الآية أعظم صفات جلاله وهما العلي والعظيم . وليس فوق هذا قَدْرٌ لكائن . وتأتي الآية الخامسة لتذكرنا بصفوف

الملائكة . التي قد تتجاوز أعدادها الملايين ، أو ما لا تطيق عقولنا من الأعداد ، متراصةً في صفوفها ، وبكلّ دفء الإيمان وحرارة الحب والرغبة في إظهار الإخلاص تسبح بحمد الله ، حتى لتكاد السموات أن تتفطر من الصوت والمعنى والمشاعر التي ترافق ذلك . ثم تأتي الآية بخبر يُحيي القلوب ، فهي مع التسبيح بحمد الله تستغل ساعة الرضا تلك لتستغفر للمؤمنين من البشر لتجد الله غفوراً رحيماً . وفي الآية السادسة كلام للنبيِّ يندر مثله يناسب أجواء الرحمة ؛ حتى الذين اتخذوا دون الله أولياء ، يُترك أمرهم لله ، فهو أعلم بهم وأقدر عليهم وما النبيّ عليهم بوكيل . ويبقي النبيّ منشرحَ الصدر بعد بشرى الغفران ، والتمتع بالانتماء للعليِّ العظيم العزيز الحكيم .

ونتوقع من السُّورة أن تُفيض بهذه الأمور التي تأتي هنا مركزةً مكثفةً تزدحم بها سطورٌ قليلة .

الدعوة والمدعوون : في الفقرة الثَّانية تبدأ السُّورة تفصيل الأطروحة وتوجيه ما جاء في الفقرة الأولى ، مستعملةً نفس الكلمة التي بدأت بها الفقرة الأولى« وكذلك» محددةً وسيلة الخطاب والمستهدف به . فهو قرآنٌ عربيٌّ يستهدف أول ما يستهدف سكان مكّة وما حولها ، مؤكدةً للنبيِّ أن منهم من يلبي الدعوة ومنهم من يرفضها . لذلك يخوفهم بيوم الجمع وما سيكون فيه من حساب **﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾** (الشورى:٧،٨)

وبهذا الاختصار والتركيز يؤكد له أن انقسامهم إلى مطيعٍ وعاصٍ أمرٌ طبيعيٌّ ومحسوبٌ في علم الله .

الله هو المرجع : في أربع آياتٍ تحصر أمر الدين والرزق بيد الله . تبدأ الآية الأولى (٩) تقريعاً للضالين من أهل مكّة وهم يتخذون دون الله أولياء . ثم يكون الخطاب من النبيّ لقومه يقول لهم ما إختلفتم حوله من أمر الألوهية فالله وحده يحكم به : **﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ**

ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾
(الشورى:٩-١٢) .

وتتفق الآية (١٢) بتكوينها مع عنوان السُّورة فالرزق ليس عمليةً عفويةً أو تلقائيةً ، بل يختار الله وفق حسابٍ دقيقٍ عنده لمن يبسط الرزق . فهو شور للمرزوق دون سواه . وفي الآية (١١) فكرةٌ مماثلةٌ سابقةٌ للرزق وهي الذرء . فالله يختار من ملايين الحيوانات المنوية في الرحم من سيعيش بناءً على معايير يعلمُها . فقد اختار من خلق وترك ملايين من مثله لتتحلل طبيعيًّا . فهو شورٌ للحياة . وكذلك خلق لهم من الأنعام أصنافاً يستطيعون السيطرة عليها وتربيتها ، وليست كبقية الوحشي من الحيوان . فهو اختيارٌ مقصودٌ ومن صنع القدير الحكيم .

اجتباء الأنبياء والرسالات : ومما يتفق مع عنوان السُّورة ويمكن استنتاجه من مقارنة الأديان التي ما زالت قائمةً أن الله شرَعَ للعرب من الدين ما يلزمهم للتنفيذ المباشر ، وهو توصياته سبحانه لنوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى . وكان سبحانه قد أوحى لهؤلاء بأكثر من التَّوصيات . بل فرض على بعضهم أحكاماً تبدو معقدةً صعبة التنفيذ إذا ما قورنت بما شرع الله للعرب . فالله اشتار للعرب ما ينفعهم ويلزمهم واجتبى لهم نبيَّهم ليكون قدوتهم . اختاره دون قومه لأنه الأنسب والأقدر على حمل الأمانة . وبالنبيّ وبالكتاب يختار الله للهداية من ينيب . فكلّها عمليات شور تليق بسورة الشُّورى . ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾
(الشورى:١٣-١٦)

استخلاص الأحسن بالابتلاء : انطلاقاً من إنزال القرآن وما فيه من أدوات الحكم بالعدل ، تُذكِّر الآية بالساعة وما يتضمنه قيامها من حسابٍ وجزاءٍ . ثم تستمر الآيات باختيار الحقائق التي تقابل النفس العربيَّة لعلهم يهتدون ، كالرزق وأدواته لأنه أكبر تحدٍّ في بيئةٍ صحراويةٍ جافةٍ قليلة الموارد في تلك الأيام . بل تَرُدُّ الآية (٢٠) مباشرةً على الخائفين على رزقهم أن ينقطع إن اتبعوا النبيّ . ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾ (الشورى:١٧-٢٠).

ثم تَرُدُّ الآية (٢٤) على تكذيبهم النبيّ وتدعوه للصبر على تكذيبهم . وهو سبحانه القادر على إغفال ذكر ما يؤذي النبيّ . لكنه يريده أن يمر بالتجربة ليثبت قدرته على التحمل وعلى يقينه بربه . وهذا ما يتماشى مع عنوان السُّورة . وفي نفس الاتجاه تأتي الآية (٢٦) لنرى المؤمنين يستجيبون فيزدادون فضلاً من ربّهم . فإيمانهم أصلاً فضلٌ خصَّهم الله بهم دون بقية الناس . ثم تأتي الآية (٢٧) واضحةَ الهدف ؛ فالله يستعمل الرزق بسطاً وقدْراً ليكون مادة ابتلاءٍ لعباده . ومن وسائل الرزق الغيثُ الذي يحتجب ليُعرف الموقن بالله من القانط . وله سبحانه علمه بعباده ومعادلاته التي تحول دون ظلم أحدٍ من خلقه . فالبلاءُ بالمصيبة لا يكون دون مقدمةٍ ممن تصيب ، ثم يصبر ويستغفر أو ينسى ما اكتسب ويكفر . وعلى ضوء ذلك يجتبي الله من يستحقّ من عباده . وتتكرر فكرة التدخل الإلهي التي تجمع الاختبار والعقاب معاً بمعادلةٍ يقدر الله عليها في موضوع البحر والسفن والريح التي تسيرها بإذن الله في الآيات (٣٢-٣٤) . واجتباؤه المؤمنين للإيمان ليس محاباةً بل بما يقدمون كما تقول الآيات (٣٧-٣٩) ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ**

إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِىُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِى ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىۡءٍ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٢٤-٣٨) .وبآية الشُّورى تنتهي الفقرة الأهم في السُّورة وهي الشور في استخلاص المؤمنين من قومهم .

وبشرى بالنصر : بعد أن يستخلص الله المؤمنين من المجتمع المخاطب تنتقل السُّورة إلى الحديث عن النصر . وتنطلق مما أصاب المؤمنين من البغي . وتسارع الآية (٤٠) بالعدل في الانتقام ، فالظلم ممنوعٌ والعفو أفضل . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ وتبشرهم الآية (٤١) بالنصر . وتذكرهم الآية (٤٣) بأن الصَّبر والغفران من عزم الأمور والدرجات العليا . ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (الشورى:٤٠-٤٣) . واختبار عزم الأمور يليق بشور الموقنين .

والنار للضالين : مقابل بشرى النصر للمؤمنين المجتبين من العرب تجعل الآيات التالية النار للبقية ، التي فشلت في امتحان الإيمان . ويوجِّه النبيّ لهم النصيحة ليجتنبوا العذاب ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِىٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن

أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ (الشورى:٤٤-٤٨) . فلهم حرية الاختيار ليكون الحساب عادلاً .

الخلق والهداية : المُلك بيده سبحانه وهو الذي يخلق الناس ويجعل منهم ذكوراً وإناثاً . ويهب ما يشاء لمن يشاء من الذرية ويبقي من يشاء عقيماً . وكذلك اختار نبيَّنا محمداً دون أهل مكّة . ومن بين كلّ وسائل الوحي اختار سبحانه للنبيِّ روحاً من أمره هو هذا القرآن ، الذي يَسهُل توثيقُه وفهمه وإعادة قراءته كلّما لزم . وهو بهذا يمتاز عن بقية طرق الوحي . وسيبقى نوراً يهدي به الله من يشاء شوره إلى الهدى . وإليه تصير الأمور : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى:٤٩-٥٣)

يختار سبحانه من عباده للهدى من يستحقّ ووفق امتحاناتٍ يبتليهم بها . ومع هذا فالبداية من عند الإنسان ؛ فالله سبحانه يحب أن يهتدي كلّ خلقه ، وأن يكونوا جميعاً مؤمنين . ولكن استكبار أناسٍ بغير حقّ ورفضهم لآيات الله ، وإعراضِهم عن الهدى وتكذيبهم لرسول الله ، وما اكتسبوا قبلها من فواحش وظلمٍ ؛ كلّ ذلك يحرمهم الهدى ويركسهم في الضلال .

* * *

الزُّخرف

هي السُّورة الثَّالثَة والأربعـون في القـرآن حسـب ترتيـب المصـحف . موضـوعها الرئيسي إرساءُ القيم الحقيقيّة مكان القـيم الزَّائفـة ، وتثبيـت العقيـدة الصـحيحة بـدل العقائد المزورة ؛ وإعلاء قيمة الإنسان ودحر قيمـة المتـاع . الـتي أعلاهـا القرشـيون على حساب كرامة الإنسان . كانوا يقدرون الإنسان بما يملك من متـاع الـدنيا ولـيس بما يتحلى به من خلق ، وما ينضبط به من قيمٍ عليا . لذلك استكثروا علـى الـنبيّ أن يَنزل عليه القرآن وفيهم من هو أعظم منه جاهاً وثراءً . وبمـا غيَّـروا وبـدَّلوا كافـأهم الله بخداعهم فأملى لهم . وفتح عليهم الدنيا فازدادوا غروراً وظنـوا النعمـة رضـاً عـن كفرهم . واستمتعوا بنعم الله واتخذوا منها زخرفاً . وبذا وقعوا بين زخرفين : زخرف القول غروراً وزخرف الحياة الـدنيا . فاسـتحقّوا العـذاب في الآخـرة . والـذين آمنـوا واتبعوا النبيّ كانت لهـم النعمـة الحقيقيّـة في الحيـاة الـدنيا وفي الآخـرة . في الحيـاة عاشوا قيماً حقيقيةً يُقَدِّرون كلّ شيءٍ بقَدْرِه وكلّ شخصٍ بما هو أهلـه . وفي الآخـرة كانت لهم الجنة ونعيمها . وفيها يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهبٍ مقابل زخرف الدنيا للمشركين . فالزُّخرف قد يكون ذهباً وقد يكون تراباً أما الذهب إن ذُكِر بهذا الاسـم فلا يكون إلا ذهبًا .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الزُّخرف في اللغة من أسماء الذهب . ووردت كلمة الزُّخرف في الآية ﴿ **وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف:٣٥) وهي هنا بمعنى الزِّينة .

جاء في مقاييس اللغة للرازي : «الزُّخرف الزُّينة ويقال الزُّخرف الذهب».

وفي العين للخليل : «الزُّخرف الزُّينة والذهب ، وما تزخرف به السفن» . وفي لسان العرب لابن منظور : «الزُّخرف الزُّينة»، ونقل عن ابن سيده ، «الزُّخرف هو الذهب وهذا هو الأصل ثم سمي كلّ زينة زخرفاً . ثم شُبِّه كلّ مموه مزوَّر زخرفاً».

وفي تفسير الجلالين : في تفسيره للآية ١٤٢ من الأنعام : ﴿ **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾ (الأنعام ١١٢) زخرف القول : مموهه من الباطل

ونلخص ما جاء في المعاجم من معاني الزُّخرف : الذهب ، الزِّينة ، التمويه ، الكلام المنمق والمزور .

وموضوع السُّورة الردُّ على زخرف قول المشركين وتزويرهم للحقائق وبالمقابل إثبات الكلام السليم والحقائق الأصليَّة التي تضاهي الذهب الحقيقي في صحتها .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

قاعدة السُّورة : كأيٍّ خطبةٍ غاضبةٍ على قومٍ مسرفين تنطلق السُّورة بالآيات الخمس التالية : ﴿ **حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ** ﴾ (الزخرف:١-٥)

تتوجه السُّورة إلى المشركين بخطابٍ مباشرٍ مليءٍ بالتهديد بل يصل حدَّ الإهانة على سرفهم بالسلوك . وتبدأ بوصف القرآن الكريم بالمبين . وهي تعني العظيم المتين الفائق الأثر . وفي العادة فإن الوصف هنا يكون للسورة التي يظهر فيها . فهذه السُّورة هي الكتاب المبين الفائق الأثر . ثم تصفه بأنه عربيٌّ باعتباره موجهاً للعرب الذين يعلمون لغته فلا حاجز بينه وبينهم . وبالتالي فلا حجّة لهم باتخاذ عقيدةٍ مشوهةٍ مزيفةٍ ، بذريعة عدم وضوح الرؤية او الفكر . وهو كتابٌ مصونٌ بأصلٍ محفوظٍ في أم الكتاب . وهو عند الله عليٌ بصدقه وبعلوه عن صغائر الأمور ودنيئها ؛ وهو كتابٌ حكيمٌ بما فيه من الحكمة والهداية إلى الحقّ الذي لا يعترض عليه عقل عاقلٍ . وتنتهي الأطروحة بتهديد مشركي مكّة بإهمالهم وحرمانهم من الرسالة بسبب إسرافهم وبعدهم عن الاعتدال في السلوك والقول . وليس خافياً أن مُبلّغ الرسالة هو النبيّ . لذلك يتجه إليه الحديث في الآيات التالية للأطروحة .

مظاهر من عقائدهم المزيفة : على مدى عشرين آيةً (٦-٢٥) تعرض السُّورة العقيدة السليمة والتصور الصحيح عن ربوبية الله للكون وللبشر ، ثم تعرض عقائد مشركي مكّة المحرفة والخرافات التي موهوا بها الحقّ . ﴿ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ (الزخرف:٦-٨)

منذ دب الفساد في العقائد وتشوَّهت العلاقة بالله أو في تصورهم له أرسل الله الأنبياء . ولكن الناس الذين تشوهت عقيدتهم كانوا يسخرون من الرسل . فكان الهلاكُ مصيرَ المستهزئين .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف:٩-١٤)

ومع تذكيرهم بالله الحقّ وبنعمه التي لا تقوم حياةٌ إلا بها . استمروا في شركهم واخترعوا صورةً مزورةً لله وأساءوا فهم نعمه . ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الزخرف:١٥-٢٥).

وبذا تعرض الآيات تصوراتهم المزورة للألوهيَّة والنُّبُوَّة والملائكة ، وتدعو النبيّ للانتظار ليرى عاقبة المزورين .

هم بقية إبراهيم : ردًّا على زعمهم أنهم يتبعون عقيدة آبائهم . تأتي الآيات الأربع القصيرة (٢٦-٢٩) تذكرهم بعقيدة أبيهم إبراهيم . الذي اهتدى للتوحيد بعقله قبل أن يتلقاه وحياً . وقد أرسله الله لهم رسولاً بالتَّوحيد عمودِ دينِهم الحنيفيَّة . فبقيت فكرة التَّوحيد في عقبه وهم بعض عقبه . ولكنهم زيَّفوا التَّوحيد بما أضافوا

إليه من افتراءات على الله . وبما صنع خيالهم من علاقات بين الله وبين الملائكة وبقية الخلق . لذلك تأتي هذه الآيات الأربع لتزيل الوهم والتمويه وتعيدنا إلى الأصل : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ** ﴾ (الزخرف:٢٦-٢٩).

نعم متعهم وصبر على شركهم لأن قاعدة التَّوحيد ما زالت موجودة منذ أبيهم إبراهيم . ولا يلزمهم سوى إزالة ما زخرفوها به من ضلال الشرك .

سر رفضهم للنبيِّ : تبدأ الفقرة التالية منطلقةً مما انتهت به الفقرة السابقة . ثم تبرز السبب الأكبر لكفرهم وهو التمويه الذي يصبغ حياتهم . فهم لا يُقدِّرون الإنسان بقيمه العليا بل بما يملك من مالٍ ومتاعٍ . تماماً كزخرف حياتهم الخادع . وبذا زاوجت الآيات بين حقيقة نفوسهم من الداخل وبين مظهر حياتهم وسلوكهم ؛ فظهر سر انسجام حالهم باطناً وظاهراً . يكفرون بالنبيّ لأنه ليس من أثرياء القوم . ويأتي الرد أن الله هو الذي يقسم الرزق بين الناس . وليس صاحبُ المال بخير من الذي يعمل عنده بأجر . وهناك من يُنعم الله عليه برحمةٍ منه هي خيرٌ من المال والمتاع ، عندما تتجلى حكمةً وقيماً عليا كالصدق والأمانة والنزاهة في القول . وكأنه يقول لهم ضمناً : أين أنتم من محمدٍ عندما يتجرد الجميع من المتاع الزَّائل؟ ثم تصل الفكرة قمتها عندما يقول لهم إن الله يعطي زخرف الحياة للكافر قبل المؤمن ، لأنه سبحانه يريد عباداً مخلصين وليس تجارَ قيم وطلابَ منافع دنيوية . ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف: ٣٠-٣٥).

فأصل مشكلتهم حسب هذه الآيات عدم احترام الإنسان المجرد بل ما يملك . وهذا من زخرف تصوراتهم الخادعة .

جزاء القيم الزَّائفة : بعد أن موهوا عقيدة التَّوحيد التي ورثوها عن أبيهم إبراهيم وتخلوا عن القيم العليا وفاخروا بما يملكون من متاعٍ زائلٍ ، يستحقّون ، حسب سنة الله ،أن يقعوا ضحيَّة طواغيت الإنس والجن يصدونهم عن الحقّ ويُزيِّنون لهم الباطل . حتى إذا حانت ساعة الحساب صحَوا من ضلالهم وتذكروا ظلمهم . وعن هؤلاء يقول الله لنبيِّه ما معناه : لا تطمع بإيمان هؤلاء ولا تتوقعه فقد تعطلت منافذ النُّور في كيانهم . وقد تحضُر عذابهم وقد لا تراه ؛ فلا تبتئس فإنه حادثٌ يقيناً . ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ** ﴾ (الزخرف:٣٦-٤٤)

وبعد الوعد بعذابهم ليُشفِي غليلَ النبيّ ويُطيِّبَ خاطرَه مما يصيبُه من عنادهم وزور كلامهم . بعد هذا ينتقل به النص إلى بشرى أعظم وهي النصر المؤكد . فليتمسك بما أُنزل إليه فهو الصراط المستقيم . وسيتمه الله ليكون مجداً وشرفاً للنبيِّ ولأمته . والصراط المستقيم هو الحقّ وقيم الفطرة السليمة التي تقابل زخرف قيمهم المزيفة .

مثلٌ من صراع موسى وفرعون : وغالبًا ما تحضر قصة موسى وفرعون للشبه بين فرعون وبين صناديد الكفر من قريش . وليعلم النبيّ أنه منتصر عليهم كما انتصر موسى على فرعون . فالأخير أقوى وأكثرجنداً .

﴿ **وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ**

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ (الزخرف:٤٥-٥٦)

وتعمدت الآيات ذكر نظرة فرعون لموسى وما فيها من استصغار لتشابهها مع نظرة كبراء قريش وهم يقولون ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١). وكما استهزأت قريشٌ بمحمدٍ نرى قوم فرعون من موسى يضحكون . وكما سيطرت المظاهر الخادعة على كفار مكّة قال فرعون ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ (الزخرف:٥٣) وتباهى بملك مصر ونيلها مقابل موسى وسماه مهين . فالصورتان متشابهتان .

تمحلٌ بحجّة المسيح : وجدها المشركون فرصةً للتفاخر بدينهم عندما ذُكِر المسيح . لأن بعض النصارى يراه ربّاً . وبالتالي يسجلون انتصاراً يخدعون به أنفسهم . غاضين الطرف عن شركهم ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (الزخرف:٥٧-٦٥).

والعزاء في قصة المسيح يتجه وجهةً مختلفةً عما في قصة موسى وفرعون . فعيسى جاء ليبين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون حوله من التَّوراة . وقدم نفسه إليهم نبيًّا ورسولاً ومسيحاً ، وعبداً لله ككلّ الرسل . فاختلف الأتباع بعده وموَّهوا العقيدة الصافية التي جاء بها تماماً كما موَّه المشركون عقيدة التَّوحيد التي جاء بها إبراهيم . فليسوا بأفضل من أتباع المسيح ولا آلهتم بأفضل منه كما زعموا . وهي تتمشى مع جو السُّورة التي تتحدث عن تزييف الحقائق لتقوم السُّورة بإعادة الأمور إلى أصلها .

الساعة وما بعدها : خمس عشرة آيةً تَعرِض مشاهد للمؤمنين والمشركين يوم القيامة . وتبدأ بتهديد المشركين بالساعة التي تأتي بغتةً وهم لا يشعرون . ويوم الحساب سيتلاوم الأصحاب وتتحول الصداقة إلى عداءٍ بما سهَّل بعضهم لبعضٍ عصيانَ الله والاستمتاع بغير حقّ . ثم تنظر الآيات (٦٨-٧٣) إلى المؤمنين تؤكد لهم أن لا خوف عليهم يوم الحساب ولا هم يحزنون لأنهم آمنوا بالنبيّ وأسلموا معه. وتعود الآيات إلى مصير المجرمين في عذاب خالد لدرجة أنهم يطلبون الموت.

﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ** ﴾ (الزخرف:٦٦-٧٨)

النداء الأخير : جئناكم بالحقّ! بهذا انتهى مشهد العذاب الذي تمنوا الخلاص منه ولو بالفناء . وهو مشهدٌ حيٌّ واعظٌ مؤثرٌ . ثم تنتقل الآيات إلى حياتهم الدنيا لتقول لهم إن الله يسمع سرهم ونجواهم لا يخفى عليه شيءٌ ؛ وبناءً على ذلك سيكون الحساب . ثم يُؤمر النبيّ بالردِّ على أسوأ خرافاتهم وهي ادعاؤهم أن لله ولداً أوبنتاً ليقول لهم إن صَدَقَ هذا فأنا أول العابدين . ولكن حاشا لله أن يتخذ ولداً . ويطلب تعالى من نبيِّه أن لا يعبأ كثيراً بما يقولون ويفعلون . فكلّ شيءٍ عند الله بحسابٍ والأمر كلّه بيده سبحانه فلا تأسَ ولا تنزعج منهم أيها النبيّ . وتذكر أنهم يُزيِّفون حتى ما يؤمنون به فلو سألتهم من خلقهم ليقولن الله. فاصفح عنهم واترك أمرهم لله.

﴿ **أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ**

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

(الزخرف: ٧٩-٨٩)

هذا هو القول الحقّ والوعد الحقّ للمؤمنين . وما متاع الكافرين إلا زخرفٌ وما قولهم إلا غرورٌ .

* * *

الدخان

هي السُّورة الرابعة والأربعون حسب ترتيب المصحف . وقد أعطيت اسمها « الدخان ». وكلمة الدخان واردةٌ في الآية العاشرة بمعنى دخان عذابٍ أو شيءٍ في الجو يحجب صفاء السماء ويزيد الجو حراًّ يغشى سكان مكّة . ولكن السُّورة حملت عنوانها بمعنى عدم الوضوح والشك الذي يسيطر على عقول المشركين . وبالمقابل فإن السُّورة تتحدث عن القرآن ككتابٍ واضحٍ ثابت النص نزل في ليلةٍ هي عنوان التميز والفصل بين الأمور الهامة في حياة الناس والكون . إنها سورة اليقين مقابل شك المشركين .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الدخان وقد وردت الكلمة في الآية العاشرة ﴿ **فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الدخان:١٠) . ونطالع في معجم مقاييس اللغة للرازي : « الدال والخاء والنون ، وهو الذي يكون عن الوقود ، ثم يُشبه به كلّ شيء يشبهه من عداوة ونظيرها » .

وفي لسان العرب يسجل ابن منظور : « ليلة دخنانة : كأنما تغشاها دخان من شدة حرها . . . بل قيل للجوع دخان ليبس الأرض في الجدب وارتفاع الغبار فشبه غبرتها بالدخان ... وشراب دَخِن : متغير الرائحة . والدخن (كلوْن) يعني كُدورة إلى السواد» .

ونقل الطاهر بن عاشور فى تفسيره التحرير والتنوير : « وقال أبو عبيدة وابن قتيبة : الدخان فى الآية هو : الغبار الذى يتصاعد من الأرض من جراء الجفاف وأن الغبار يسمّيه العرب دُخَاناً وهو الغبار الذي تثيره الرياح من الأرض الشديدة الجفاف».

من مجموع هذه الأقوال يمكن أن نستنتج أن الدخان ما يكون عن الوقود كما يمكن أن يكون الغبار وكلّ تغير عن حالة السواء وما يسبب عدم وضوح الرؤية وفي الرأي يعني الشك وعدم الوضوح .

وهكذا أُخذ عنوان السُّورة من كلمة الدخان بمعنى غبار الشك لدى المشركين . وبالمقابل فإن القرآن نزل في ليلةٍ تُفرَقُ فيها الأمور كحالة تَمَيُّزٍ ووضوحٍ ؛ وهو كتابٌ واضحٌ ميسرٌ بلغة النبيّ وقومه . وكلّ مواضيع السُّورة تدور حول وضوح الرسالة مقابل غموض رؤى المشركين . وكذلك تذكر عقابَهم بدخان عذابٍ مقابل الشك الذي يحيط بعقيدتهم .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : منذ أطروحتها تركز على الوضوح فالكتاب مبين أي قويٌّ عظيمٌ لا مكان فيه للوهم والشك ، ونزل ليلة القدر التي يفصل الله فيها بكلّ أمرٍ حكيمٍ . واستعمال كلمة « يُفْرَق » قُصد منه الإيحاء بالتمييز والفصل وهي من مفردات الحسم الذي لا يدع الأمور معلقةً مشكوكاً بها أو بنتيجتها ﴿ **حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ** ﴾ (الدخان: ١-٦)

ويأتي إنزال الكتاب أمراً إلهيًّا فلا جدال حوله وحول حقيقته . وما هو إلا رحمةٌ بالمخاطبين ، وهو من السميع العليم . الذي يَسمَع ويَعلَمُ أن في الشعب المخاطب ، من يستحقّ هذه الرحمة . .

اليقين المطلوب : الآيتان (٧-٨) تنطلقان من نهاية الأطروحة تدعوان مشركي مكّة بواسطة النبيّ إلى اليقين بأن الله هو ربّ السموات والأرض وما بينهما وأن بيده الحياةَ والموت . وهو ربّهم وربّ آبائهم . والإشارة للآباء هنا ذات قيمةٍ ، فكثيراً ما زعم مشركوا مكّة أنهم ورثوا عقيدتهم من آبائهم . ﴿ **رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ** ﴾ (الدخان: ٧،٨) .

الشك والعقاب : مقابل دعوتهم لليقين بالله يعيش المشركون حالة شكٍّ بالله . وبذلك فهُم يمارسون حياتهم لعباً وعبثاً يناسب شكَّهم . والشكُّ يتناقض مع الجد والالتزام . وجزاءُ هذا الشكِّ عذابٌ يتجلى دخاناً يملأ الجوَّ ، فتصير الحياة معه صعبةً ثقيلةً . وتشتدُّ الحاجة لكشفَ العذاب ؛ ويلجأون إلى الله يدعونه ويعدونه بالإيمان ليخلِّصهم من ذلك العذاب . وكُشِف عنهم العذابَ وعادوا إلى كفرهم .

فكان التهديد لهم ببطشةٍ كبرى هي التي تحقّقت يوم بدر . ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ** ﴾ (الدخان:٩-١٦)

واختلف المفسرون بشأن الدُّخان ما طبيعتُه ومتى حدث في مكّة ؟ ومما أربك المفسرين صيغة الآية وهي تتحدث بما سيحدث مستقبلاً . ولا يمنع هذا أن تكون الآيتان (١٠-١١) قد نزلتا بين يدي العذاب بالدخان مبشرةً النبيّ بما سيصيب أعداءه. أو أنها تأتي جميعاً حديثاً للنبيِّ على سبيل التذكير بما يفعله قومه . وهنا يمكن استعمال الفعل المضارع ضمن قصةٍ حدثت في الماضي . خصوصاً أن في الآيات اختصاراً شديداً لمن لم يشهد الحدث . ولكنها تُروى لمن يتذكرها فلم يحتج التفاصيل ولا التتابع الزَّمنيَّ للأحداث . لتكون حديث مناجاةٍ مليءٍ بالودِّ والأنس مكتفيةً بالتلميح فهي من الله لعبده المقرب المطَّلع على الأمر .

يُفهم من الآيات أن العذاب بالدخان حدث . ومع نزوله بهم دَعوا الله فكشف عنهم العذاب ثم عادوا إلى شركهم بعد ارتفاع العذاب عنهم . فتهددهم الآية (١٦) ببطشةٍ كبرى قادمةٍ . والدخان قد يكون غباراً مع ريحٍ ساخنةٍ . فقد أقنعتنا المعاجم أن الدخان قد يكون غباراً وشدَّة حر . والله قادرٌ على فعل هذا بأي وقت . ويُفهم من الآيات أن العذاب كان حالةً شديدةً من الحرارة مصحوبةً بغيوم الغبار المحملة بالأتربة . كالتي تصيب المنطقة أيام الرياح الخماسينية لكنها أشدُّ حدةً وأطول مدَّةً من الحالات العادية .

مثلٌ من علاقة موسى وفرعون : سلوك مشركي مكّة مع حالة الدخان أكثر تعنتاً من سلوك فرعون وقومه مع موسى عندما كان الله يصيبهم بعذاب . كانوا يطلبون من موسى الدعاء لهم ويَعدونه بالإيمان فإذا زال عنهم العذاب عادوا إلى عنادهم . وبعيداً عن هذه القصة فإن أوجه الشبه كبيرةٌ بين صناديد الشرك وتجبُّر فرعون . لذلك تُتبع القصة بمثلٍ مما كان بين موسى وقومه من جهةٍ وبين فرعون وملَئه لتكون النتيجة بلسماً لقلب النبيّ : ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝ كَمْ**

تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ (الدخان:٢٢-٣٣) .

ووضع قصة صراع موسى وقومه مع فرعون وملئه بهذه الطريقة بشرى للنبيِّ وتهديدٌ لأهل مكّة عسى أن يعودوا إلى الله ويتَّبعوا نبيَّهم قبل أن يحل بهم مثل مصير فرعون وجنده .

تهديدٌ لمشركي مكّة : بأسلوبٍ خطابيٍّ مليءٍ بإشارات الاحتقار للمشركين وبالحديث عنهم بصيغة الغائب تأتي الآيات (٣٤-٥٠) بجملٍ قصيرةٍ تتوقف قبل نهايتها من شدة الغضب عليهم . وقد ظهر هذا الأسلوب بأوضح صوره في الآيات (٣٤ ،٤٣ ، ٤٤)

وهو أسلوبٌ لا يمكن أن يخطر ببال بشرٍ . لكنه الله العليم بخلقه القادر على إفهامهم إشاراته . ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الدخان:٣٤-٣٦)

ونتوقف هنا لإظهار أمرين الأول : توقف الآية بعد كلمة يقولون . وهذا هو الاحتقار الممزوج بالغضب . فالأصل وحسب ما اعتاد المتحدثون من البشر جميعاً أن تتواصل الجملة لنعلم ماذا يقولون . فإذا به يأتي بآيةٍ تاليةٍ منفصلةٍ . والأمر الثَّاني : قولهم للنبيِّ : فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . دليلٌ على شكِّهم بالبعث . والشكُّ هو مشكلتهم التي تبرزها السُّورة . ولا يمكن أن يكونوا على يقينٍ مما يزعمون ما دام فيهم عقلٌ وبقيةٌ من دين إبراهيم وتقاليد الحنيفيَّة .

ويردُّ الله تعالى عليهم بنفس أسلوب الحكاية عن غائب . ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان:٣٧-٣٩) . نعم بأسلوبٍ مقنعٍ يرد عليهم بالاثنتين فليسوا أعظم من قوم تبعٍ وكانوا يحكمون منطقةً واسعةً خارج حدود بلدهم . ثم إن خلق السموات والأرض لم يكن عبثاً ليَضرب مَن يَضرب ويَهْرب مَنْ يَهرب ؛ بل خُلِقَتا وفق خطةٍ

قديمةٍ محكمةٍ ساريةٍ كما وضعت منذ ملايين السنين ، فلن تُكسر من أجلهم . ولم يكن خلقهما عبثاً بل لغرضٍ لا يتحقّق إلا بإحقاق الحقّ والعدل بين البشر وبينهم وبين الله في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة . وتأتي الآيات مبيِّنةً ليعلموا أن شكهم في غير محله .

ثم تستحضر الآيات مشهدهم يوم القيامة بنفس الأسلوب الغاضب الحاسم وبجملٍ قصيرةٍ تفيض تهديداً وتخويفاً لقوم يعلمون . ﴿ **إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٢ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ** ﴾ (الدخان: ٤٠-٤٦)

وبعد هذا المشهد القاسي ، وشجرة الزَّقوم التي تتوقف عندها الآية ، لتملأهم رعباً قبل الانتقال لوظيفتها . ليتبدد شكُّهم ويصدقوا النبيّ . بعد هذا تنتقل الآيات لمشهدٍ مثاليٍّ من العذاب يكاد يجعل الولدان شيباً ﴿ **خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ** ﴾ (الدخان:٤٧-٥٠) . واتجه الخطاب إليهم في الآيتين الأخيرتين زيادةً في الإيلام . وبعد أن زرعته الآيات في عقولهم وقلوبهم يقيناً ، ذكَّرتهم وهم يكادون يشهدون المشهد ويحسُّون صَلْيَ الجحيم ، ذكرتهم الآية (٥٠) بحالة الشكِّ التي كانوا يعيشونها في الحياة الدنيا وقد خسروا الفرصة . فهل ينفعهم هذا التهديد ويحررهم من شكِّهم؟

مصير المؤمنين المصدقين :صورة نعيمٍ تكاد تقابل عذاب الممترين . وتأتي الآيات القصيرة الجميلة كأنها ترويدةٌ تنعش أفئدة المؤمنين وتهدهد حزنهم وهم يصبرون على أذى قومهم : ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** ﴾

(الدخان: ٥١-٥٧) .

ويلاحظ أن قصر الآيات لم يتضمن بترَ معنى أو توزيعَه على آيتين كما حدث في آيات التهديد القصيرة . فكلّ آيةٍ كاملةُ المعنى على قصرها . لكنها تتابعت زيادةً

في رسم مشهد النعيم . ثم تلتفت الآيةُ الأخيرة إلى رسول الله المخاطب الغالي عند ربّه ؛ فتقول له مُبْعِدةً عنه ظنون قومه الممترين ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ** ﴾ (الدخان:٥٨،٥٩)

مرتقبون لأنهم ليسوا على يقينٍ مما يزعمون . خائفون من وعد الله بعذابهم الـذي يعدهم به النبيّ والقرآن . فهم ما زالـوا يعـانون حالـة الشـكّ الرهيـب . ويـنعم الـنبيّ والمؤمنون باليقين .

* * *

الجاثية

السُّورة الخامسة والأربعون حسب ترتيب المصحف . واسمها الجاثيـة يـأتي بعـد وصف الخلق جاثين مجتمعين يوم الحساب بانتظـار مصـيرهم . واستُعمِلت الكلمـة كعنوانٍ للسورة بمعنًى آخر لها هو مخاصمة الباطـل . فآياتهـا جاثيـةٌ منتصـبةٌ تـدفع الباطلَ وتثبت اليقين في نفوس المؤمنين . فبعد الأطروحة مباشرةً تبدأ هجومها على كلّ أفاكٍ أثيمٍ . وتبين صفة الأفاك وتفضح شروره . وبعد آياتٍ قليلةٍ تعـرض الهـدى وأسبابه وتوجه المؤمنين إلى مرتكزاتٍ أساسيةٍ وبصائر . ثم تعود منذ الآية العشرين لتهاجم الذين يفعلون السيِّئات وتذكر أبرز مظـاهر فسـادهم الفكـري والعَقـدي . ثـم تحشرهم بين يدي جهنم وتذكرهم بشرورهم الدنيوية ومقولاتهم الفاسـدة في الحيـاة الدنيا . لتنتهي بتعظيم الله وتكبيره . وأجواؤها أقـرب إلى جـوِّ السـور المدنيِّـة إلا أن فيها آيات لا يُشَك بمكيتها .

عنوان السُّورة وموضوعها :

أُعطيت السُّورة اسمها ككلمة الجاثية الواردة في الآية الثَّامنة والعشرين ونصها الشريف ﴿ **وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (الجاثية:٢٨) . وكلمة جاثيةٍ هنا تعني مجتمعةً انتظاراً لحكم الله بها . ولا مجال للاحتمال الآخر الذي أورده مفسرون وهو جلسة المخاصمة فلا أحد يجرؤ على مخاصمة الله يوم الحساب!

جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد : « الجثوة : تراب مجموع كهيئة القبر ».

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي : « والجُثْوَةُ الحجارةُ المَجْمُوعـةُ ، والجَسَـدُ ، وجُثَا الحَرَمِ ، بالضم والكسر ما اجْتَمَعَ فيه مـن الحجـارَةِ الـتي تُوْضَـعُ علـى حُـدودِ الحَرَمِ . وجَثْوًّا وجُثِيًّا ، بضمِّهما جَلَسَ على رُكْبَتَيْهِ ، أو قـامَ علـى أطْـرافِ أصـابِعِهِ» وفي تاج العروس : « (وتجاثوا على الركب) في الخصومة ».

ونقتبس مما جاء في لسان العرب لابن منظـور : « جثـا . . : جلـس علـى ركبتيـه للخصومة ونحوه . . . ؛ أنشد ابن الأعرابي :

إنَّا أُنــاسٌ مَعَــدِّيُّونَ عادَتُنــا ، عنْــدَ الصِّياحِ ، جُثِيُّ المَــوْتِ للرُّكَــبِ» .

ونجد أقرب المعاني للسورة أنها كحجارة الحرم منتصبةً لتحفظ الحرم . وهي هنا لتحفظ إيمان المؤمن وتردَّ شبهات الكفر وتصدَّ الكافرين . حتى لكأن آياتِها رجالٌ أقوياءٌ جاثون منتصبو الجذوع مستعدُّون للدفاع عن الإيمان والمؤمنين . لذلك نراها تحرص على تثبيت إيمان المؤمنين ولا تعبأ بالمشركين والمنافقين ولا تدعوهم للإيمان وإنما تكتفي بإعلامهم بمصيرهم يوم الحساب . فكأنَّ السُّورة هي الجاثية بمعنى سياج الإيمان .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

مقدمة السُّورة هي ﴿ **حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ** ﴾ (الجاثية:١-٦) . والخطاب هنا للنبيِّ وللمؤمنين معه .

وتتكئ السُّورة للوصول إلى أهدافها على آيات الكون . وبصفته العزيز فلا يرضى أقلَّ من تحقيق هدفه بإعادة المجتمع المخاطب إلى قيم الفطرة الأصلية ، المتفقة مع قوانين الكون والحياة بكلِّ مكوناتها . والحكيم هو الذي يعرف هدفه ويعرف الوسائل التي تحقّقه . ثم توجِّه السامع إلى التأمل في السموات والأرض كمصدر للإيمان . ثم إلى خلق الإنسان وبقيِّة أَحياء الأرض كمصدرٍ لليقين . لأن المعلومات التي يمكن الحصول عليها هنا قابلةٌ للفحص والقياس وهذه وسائل اليقين . ثم تقدم حركة الكون واختلاف الفصول وحركة الرياح ، وما يقوم على كلِّ هذا بأنه مدرسةٌ مفتوحةٌ لإنضاج العقل ، وإقناع قومٍ يعقلون بأنَّ للكون صانعاً واحدًا عاقلاً حكيماً . وتأتي الآية الأخيرة في الأطروحة لتقول إن في هذا ما يكفي لإحراج من يرفضون الإيمان . وبهذا الإطار وحول هذه المحاور نتوقع أن تتحرك السُّورة . لتحقّق هدفها بتكريس الإيمان سياجاً للمجتمع وتصدَّ رياح الكفر والشكِّ .

إبطال الباطل : بأرقى أساليب الجدل التي توصلت إليها الخبرة البشرية في هذا الزَّمن تبدأ السُّورة بفضح موقف المعاندين للنبيِّ وكشف دوافعهم الداخلية في

معارضة النبيّ فهم يرفضون الحقّ عناداً مع تلميحٍ إلى أن هؤلاء المعاندين من فئة المشتغلين بجمع المال وممن يتخذون دون الله أولياء : ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الجاثية:٧-١٠) . وتنطلق هذه الآيات مما انتهت إليه الأطروحة .

ويستنتج من نص الآية (٩) «وإذا علم من آياتنا شيئاً . .» أن الأفَّاك المذكور غير مهتم بالنبأ العظيم أصلاً . فإن علم عرضاً أو سمع بآيةٍ عفواً لا قصداً ، اتخذها هزواً وسخريةً جاهزةً في نفسه دون أن يفكر بما فيها .

إثبات الحقّ والهدى : بعد إبطال الباطل يتهيأ الظرف لإثبات الحقّ وإبراز حجّة المتكلّم . فتقرر الآية (١١) أن هذا الذي تدعو إليه السُّورة هو الهدى والطريق المستقيم . والذين يحيدون عنه كفراً به لهم عذابٌ شديدٌ . وهذه الآية ،آيةٌ محوريةٌ في السُّورة لتعبيرها القويّ عنها ولصلاحيتها للتوظيف في الفقرتين السابقة واللاحقة ﴿ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ (الجاثية:١١-١٥) أوجه تسخير ما في السموات وما في الأرض من مخلوقاتٍ وقوانين لجعل حياة الإنسان ممكنةً على هذه الأرض .

وبالتفاتةٍ قد تبدو غريبةً يأمر الله نبيَّه أن يشجع المؤمنين على عدم ملاحقة من يسيئ إليهم وأن لا يعاملوه بالمثل . بل يتركوا ذلك لله ليجازي المسيئ بما يفعل . وهي إشارةٌ غنيةٌ بالمعاني . ويهمنا منها زرع الثِّقة بنفوس المؤمنين ، وكأنها تُعِدُّهم للموقع الأقوى اجتماعيًّا . فالأقوى عادة هو من يغفر ويسامح . وفيها فكرةٌ أخرى يحتاجها بعض حديثي التدين والتحزب الديني هذه الأيام . فهي تدعو المؤمنين لعدم معاقبة رافضي الإيمان لأن ذلك يخفف من عذابهم يوم الحساب . فليتركوهم

لينالوا عقابهم كاملاً بعد يوم القيامة . فالله تعالى يريد منح البشر أكبر قدرٍ من حرية الاختيار ليكون الحساب كاملاً يوم القيامة ومن الله وحده .

الشعوب وحركة الهدى : تبدأ الفقرة التالية (١٦-٢٠) بمثل من بني إسرائيل الذين فضلهم الله بالكتاب والنُّبُوَّة مع هذا اختلفوا بغياً بينهم . وهذه طبيعة الشعوب بعد رحيل أنبيائهم . كما حدث مع العرب بعد إبراهيم . ثم تؤكد له الآية (١٨) أنه أوتي شريعة قويمة فليتَّبعها ولا يستمع لاختلافات اليهود أو أوهام مشركي قريش **﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾** (الجاثية:١٦-٢٠) .

ففي الشريعة المعطاة كما هذه السُّورة بصائر هدًى لقوم يوقنون . وصياغة الآية (٢٠) مما يتماشى مع أطروحة السُّورة وعنوانها . وهي جاثيةٌ تدفع اعتداءات اليهود وافتراءاتهم .

خطة الخلق وموقف المشركين منها : تركز بقية السُّورة على مصير الضالين وتَذكُر مقولاتهم وتصوراتهم الخاطئة التي توصلهم إلى سوء المصير . وتمر مرَّ الكرام على ذكر المؤمنين المحسنين وفوزهم برحمة الله . ونعيد هنا الآية (٢٠) لأنها استُعملت كمرجعٍ لما بعدها ، وذكر الآيات يُغني عن أي شرح **﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾**

(الجاثية: ٢٠،٢١) .

وتواصل الآيات عرض الحقائق التي تُلزِم العقل بالإيمان وتحرج الضالين . فالله خلق السموات والأرض بالحقّ أي وفق خُطة الخلق ولهدف عند الله فلا يكون الأمر عبثاً ولن يمضي أمرٌ دون تسجيل . ولا بد أن تحاسب كلّ نفسٍ كما في الخطة الإلهية تماماً . وإلا فالأمر عبثٌ لا يليق بجلال الله العزيز العليم الحكيم . وتنطلق الآية (٢٢) من مضمون الأطروحة حتى ببعض مفرداتها . **﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ**

وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الجاثية:٢٢-٢٦)

وبعد التأكيد على قصة الخلق ذَكَرت الآياتُ مزاعمَ مشركي مكّة ومعظم مشركي العرب التي تدلُّ على عدم استيعابهم لفكرة الخلق . بل كان ردُّهم أن قالوا : هاتوا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين !! فكأن الآيات تقول للنبيِّ إن هؤلاء ميؤوس منهم ، ما داموا لم يفهموا ولم يؤمنوا بهذا الأصل الواضح من أصول الخلق والكون .

مشاهدهم يوم الحساب : يوم الساعة يخسر المبطلون . ولكن بعد أن نرى كلّ جماعةٍ مجتمعةً تنتظر القرار الإلهي بشأنها . ويُعرَضُ أمامَ كلّ فئةٍ كتابُها وفيه كلّ ما قدَّم كلّ إنسان في حياته ؛ فنُسَّاخ أعمال الإنسان لا ينسَون ولا يغفلون . ومرَّةً أخرى يُذكَرُ المؤمنون باختصارٍ وكأنَّهم لا يحاسبون . بينما يَسمع الذين كفروا تقريعاً يليق بهم تذكيراً بما قالوا وفعلوا في حياتهم الدنيا ، عندما لم يعتبروا في أعمالهم يوم الحساب . ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾ (الجاثية:٢٧-٣٥).

ترى ألا تكفي هذه الآيات وما فيها من حقائق جاثيات تخاصم منكري البعث ومعاندي رسول الله؟

وختاماً ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الجاثية:٣٦،٣٧) .

* * *

الأحقاف

السُّورة السادسة والأربعون حسب ترتيب المصحف . أعطاها الله تعالى اسمها من اسم مساكن قوم عادٍ . فهي اسم مكان . لكن القرآن المعجز بكلّ ما فيه ، استعملها كعنوانٍ للسورة بمعناها اللغوي . وهو الانحراف أو الاعوجاج . فكان موضوع السُّورة : الأسباب النفسية وراء الانحراف ؛ فهي أحقافٌ تبدأ في النفس والقلب . وأدت السُّورة وظيفتها انطلاقاً من تفنيد انحرافات أهل مكّة عن العقيدة المستقيمة التي جاءهم بها رسول الله . فتصف السُّورة العقيدةَ المستقيمةَ ثم ترينا كيف ينحرف عنها المشركون .

وفي السُّورة حقف في صياغة بعض آياتها بمعنى جمع عدة حقائق في الآية الواحدة لإتمام موضوعها . فكأن الآية تتمدد وتغير اتجاهها لإتمام فكرتها . وهو أمرٌ نادر الحدوث في السور المكية ؛ كقوله تعالى﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (الأحقاف:٨) . فبدأت الآية بتهمة الافتراء ونفيها ثم تهديدهم أن الله مطلع على مقالاتهم وهو شاهد عدل بين الفئتين ، وتنتهي بالغفران . أو مثل قوله تعالى في الآية (١٥) ﴿ **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (الأحقاف:١٥) . وهو ما لم نعهد مثله في السور المكية . بل مختلفٌ تماماً عما رأينا في سورة الدخان مثلا حيث كانت الجملة تقسم إلى آيتين .

وهكذا ينطبق العنوان على الشكل والمضمون ؛ وكان في الأصل اسم مكانٍ فهل يقدر بشرٌ على هذا؟

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها الأحقاف . وقد وردت كلمة مثيلة لها في الآية (٢١) ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ (الأحقاف:٢١) . والأحقاف هنا مساكن عاد . وهي منطقة تقع بين اليمن وعُمان على أرجح الظنون .

ونقرأ في مختار الصحاح للرازي (محمد بن أبي بكر) : « ح ق ف : الحقفُ المُعوج من الرمل والجمع حقافٌ و أحقافٌ وفي الحديث (أنه مر بظبي حَاقِفٍ في ظل شجر) وهو الذي انحنى وتثنى في نومه .

وفي المعجم الوسيط : « حقف الشيء حقوفاً : استطال في اعوجاج ، وحقف الحيوان ربض وانطوى فانحنى ظهره» .

وفي مقاييس اللغة للرازي (أحمد بن فارس) : « الحاء والقاف والفاء أصل واحد وهو يدل على ميل الشيء وعوجه : يُقال احقوقف الشيء إذا مال . ولهذا قيل للرمل المنحني حقف والجمع أحقاف».

وفي العين للخليل بن أحمد : « احقوقف : طال واعوج » .

وبذا يكون معنى الحقف الامتداد والاعوجاج في الشيء باتفاق اللغويين .

وعند دراسة السُّورة وجدنا أن عنوانها « الأحقاف » بمعنى اعوجاج عقيدة المخاطبين وانحرافها عن الأصل الذي كانت عليه . فالسُّورة تذكر ما هم عليه من عوج في العقيدة وفي التصورات الأصلية للحياة مقابل ما تطيقه الفطرة السليمة ، ليعودوا إلى العقيدة المستقيمة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : جاءت الأطروحة مقتضبةً ومقتصرةً على أن القرآن يتنزل عليهم من الله وتأتي صفتا الله العزيز الحكيم زرعاً للثقة في قلب النبيّ . والآية الثَّالثَة تتحدث عن خلق السموات والأرض وفق خطةٍ قديمةٍ وفي لحظةٍ معينةٍ من الزَّمن وإلى أجلٍ مسمىً تنتهي عنده . ليعلموا أن خلقهم ليس عبثاً فخطة الله لا تكون بدون هدفٍ . ولا بد في النهاية من مجازاة كلّ إنسان على ما قدم في دنياه . وتُختتم الآية بذكر إعراض من كفرَ من قريش ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ (الأحقاف:١-٣)

وسنجد أن السُّورة تحركت في إطار الأطروحة متخذةً من العنوان محوراً . فهذه هي العقيدة السليمة بالله والكتاب وعملية الخلق ؛ ثم هم يعرِضون ويميلون عن هذا الحقّ الصَّريح ، وما ميلُهم عنها إلا حقفٌ واعوجاجٌ .

الاعوجاج الأشد : تكلّف الآيات رسول الله أن يسألهم إن كانت آلهتهم المدعاة قد خلقت شيئاً كالأرض التي خلقها الله ؛ أو أن لآلهتهم مكانةً في السماء تشترك فيها مع الله . ولْيأتوا بدليلٍ على صدقهم! وتواصل الآيات وصف أنواع انحرافهم العَقَدية ، كادعائهم أن القرآن سحرٌ أو أنه مفترًى من عند النبيّ فيرد عليهم . ويصحح تصورهم عن النُبُوَّة ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأحقاف:٤-١٢) .

واحتار المفسرون بشأن الآية (١١) من المقصود بالذين آمنوا والذين كفروا . وذلك لأنهم لم يضعوا أسساً للتفسير . فمن البديهي أن يكون المقصود بكلمة مؤمن أو كلمة كافر عندما ترد في القرآن دون قرينة ، المؤمن بالنبيّ ودعوته أو الكافر بهما . وبما أن الكلام جاء بعد قصة مؤمن بني إسرائيل فيكون له علاقة بالحديث . وبذا يكون معناها : حرماناً للمؤمنين من التمتع بشهادة الإسرائيليِّ قال كفار قريشٍ للمسلمين لو كان القرآن خيراً ما سبقنا إليه الإسرائيلي فنحن به أولى . ولكي يُغَطُّوا على ضلالهم قالوا هذا إفك قديم غمزاً بإيمان الإسرائيليِّ .

الأصل المستقيم : تقدم السُّورة المثلَ السويَّ الذي يدعونا الله إليه بالقرآن . وبأسلوبٍ غير مباشرٍ ولكن بوصف الذين اتبعوه وحسن مصيرهم . ثم تأتي الآية (١٥) بالأصل الثَّاني للدين الحقّ بعد توحيد الله وعبادته وهو الإحسان للوالدين . فيرد هذا الأصل كتوصيةٍ من الله ، فلا تكاد التَّوصية تكتمل حتى نرى الإنسان السوي يعيش الحالة بسعادةٍ وحرصٍ على أن يمنحه الله نعمة الحياة الأسرية السوية ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ** ﴾ (الأحقاف:١٣-١٦) . وكانت أول صفاتهم الاستقامة تعريضاً باعوجاج المشركين .

نتائج الانحراف : بنفس اللطف والرشاقة المعتادة في القرآن عرضت الآيات (١٧-٢٠) نتائج انحراف المشركين عن العقيدة السليمة في الدنيا والآخرة . في الدنيا يعجز الكافر عن تقدير دورٍ لوالديه في حياته وفضلهم عليه . بل يمزج كفره بالبعث بكفره بحقّ والديه . ولا غروٍ فقد كفر بالله خالقه . وبعد صورته البشعة في محادثة والديه نرى مشهده بين يدي عذاب شديد . ﴿ **وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ** ﴾ (الأحقاف:١٧-٢٠)

الوالدان حقّهما الاحترام والرعاية ، ونعمة الله حقّها الشكر وأن تستعمل في طاعته . والله الخالق للكون والخلق بلا شريك . هو الله الحقّ فله حقّ العبادة وحقّ الطاعة . ولكن هؤلاء المشركين انحرفوا في هذه الأساسيات ومالوا عن الحقّ

فاستحقّوا عذاب الهون بما قدموا وبما استكبروا بغير حقّ وهذا حقف في ذاته . ولم تنس الآيات أن تشير بلطفٍ إلى أحد أسباب هذا الانحراف وهو استعجال التمتع في الحياة الدنيا خارج ضوابط العقل والدين . ووصف عملهم بقوله : « واستمتعتم بها » . ثم ينضم الفسق لهذه السيئات لتصنع في القلب والنفس أحقافاً تبرر ارتكاس صاحبها في الكفر .

تهديد بعذاب دنيوي : بِمَثَلٍ من قبيلةٍ عربيَّة بائدةٍ غضب الله عليها وأخذها بعذابٍ قاصمٍ قضى عليها جميعاً قضاءً مبرماً . وتضمنت الآيات مقارنةً بينهم وبين مشركي قريشٍ على سبيل تهديد المشركين : ﴿ **وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ** ﴾

(الأحقاف: ٢١-٢٨)

والشبه كبيرٌ بين مقولات عادٍ ومقولات قريشٍ واعوجاج عقائدِهم .

إيمان الجن : حُمِّلت حادثة إيمان الجن فوق ما تحتمل وأُلِّفَت حولها أحاديثُ منسوبةٌ للنبيِّ . بينما هي حادثةٌ محدودةٌ بطائفةٍ من الجن . مَرُّوا بتوجيه من الله قريباً من النبيّ وهو يقرأ القرآن فأعجبهم . ولكن النبيّ لم يكن مرسلاً إليهم ولا صار إسلامُهم كإسلام المخاطب الرئيسي بالدين وهم العرب من البشر . وكان بعض العرب يتخذون من الجن آلهةً أو يظنون أن لهم نسباً مع الله ؛ ولربّما استعانوا بهم على بعض شأنهم . وهذا حقفٌ آخر من اعوجاج عقائد المشركين . ومقابل تعظيمهم لدور الجن في حياتهم تعرض السُّورة خبر فريقٍ من الجن يسمع القرآن

فيُعجب وبه ويؤمن أنه من عند الله فهل يبقى لعبدة الجن حجّةٌ؟ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأحقاف:٢٩-٣١) . وعظةٌ أخرى في حادثة الجن . فقد أدركوا أن القرآن يجب أن يكون من عند الله ما دام يدعو إلى طريق مستقيم . فهل يدرك المشركون هذا ويقتنعون به؟

وختاماً : الأصلُ في الإنسان أن يجيب دعوة ربّه وأن يطيع أمره فهو خالقه . ومن لم يفعل يضع نفسه موضع المطلوب المطارد في ساحةٍ كلّها من صنع الله وتحت سلطته . حتى الموت لا يعفي المنحرف من مسئولية عمله ؛ فالله قادرٌ على إحياء الموتى ومحاسبتهم . يومذاك لا يعترض أحدٌ على حكم الله فلا مجال لإنكار الحقّ . فيقال للمائلين عن الحقّ ذوقوا عذاب النار بما كنتم تفعلون .

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأحقاف:٣٢-٣٤)

وتوجيهٌ ختامي للنبيِّ : توجيهٌ بالصَّبر مدعومٌ بتحريضٍ على الاقتداء بصبر أولي العزم من الرسل وهو منهم . ثم دعوةٌ له أن لا يستعجل العذاب لقومه ، وليتركهم إلى يوم الحساب فسينال المنحرفون جزاءهم . ثم إن الحياة قصيرةٌ فكأنها ساعةٌ من نهار : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(الأحقاف:٣٥)

وما القوم الفاسقون إلا أحقاف البشر . فالفسق يعني الخروج عن طريق الحقّ أو عن العرف .

* * *

سورة محمد

سورة محمد هي السُّورة السابعة والأربعون حسب ترتيب المصحف . وهي مدنيةٌ نزلت بعد معركة أحدٍ . ومع أن السُّورة كلّها تدور حول نتائج المعركة لكنها كانت أقرب إلى بيانٍ يعالج الحالة النفسية للمؤمنين . فقد صبت جام غضبها على المشركين الذين جاءوا محاربين للنبيِّ ومن معه . ليعلم المؤمنون أن الله معهم . ولم تُغفِل إلقاء جزءٍ من اللوم على المنافقين من أهل المدينة الذين انسحبوا من أرض المعركة .

وسُمِّيت السُّورة باسم رسول الله . وقصد بالاسم شخص محمدٍ باعتباره رسولَ الله . وليس معنى اسمه كما كان الحال في بقية السور التي يدور موضوعها حول معنى العنوان . كان النبيّ محور السُّورة لأن موضوعها القتال . ومحمدٌ رسول الله هو قائد الأمة . والناس المتقاتلون منقسمون على نبوَّته . فلولا إنكار القرشيين لها لما قطعوا مئات الأميال وجاءوا لقتاله . ومعه قاتل المؤمنون . وبسبب عدم اكتمال إيمان المنافقين بالنبيّ فشلوا وانسحبوا من أرض المعركة . فكان النبيّ هو محور الحدث . وكذلك قدمته السُّورة . فذكر في الأطروحة وهو أمرٌ نادرُ الحدوث . فالأطروحة هي ملخص السُّورة وجوهرها فكان محمدٌ في القلب منها . ثم ذكر بصفته رسولَ الله أكثر من مرةٍ مباشرةً . فالذين آمنوا بما نُزِّل على محمدٍ هم الناجون (آية ٢:) والذين شاقوا الرسول سيحبط الله أعمالهم (آية ٣٢) . وخُوطب مباشرةً فالقرية التي يهددها الله (قريتك التي أخرجتك) ويأتي الخطاب المباشر للنبي كمحورٍ للعملية الإيمانية ولموضوع السُّورة على امتدادها . وهو ليس بغريبٍ فمعظم السور المكية الطويلة نسبيًّا أنزلت للنبيِّ لتشجيعه على مواصلة مهمته وليطمئن قلبه وللتسرية عنه . وكان عنوان السُّورة من تلك السور لمعنًى يقابل حاجةً في نفس النبيّ . ولكن سورة محمد تأتي باسم محمد لشخصه كرسول الله وهي منزلةٌ لم ينل بشرٌ مثلها في القرآن .

مطالعات تراثية :

ويراها **سيد قطب في الظلال** : « هذه السُّورة مدنية ، ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال في صورها وظلالها . والقتال فى جرسها وإيقاعها » .

وأقول سامحه الله لو أنه لم يقل جملته « اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها ». فقد أساء لنفسه ولله الذي تعهد بحفظ القرآن . وعناوين السور جزءٌ من القرآن لا يقدر عليها سوى منزل القرآن سبحانه!

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوان السُّورة محمد . وهو اسم نبيٍّ الله ورسوله محمدٍ عليه السلام . ولم يقصد معنى الاسم كالحال في بقية السور . بل قصدت السُّورة محمداً بصفته رسولاً لله . فكان محورَ كلّ عملٍ أو توجيهٍ أمرتْ به السُّورة . ومن زاوية ما نهى الله عنه ذمت السُّورة كلّ فعلٍ يتعارض مع دعوته أو فيه مخالفةٌ للنبيِّ أو إنكارٌ لنبوَّته .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

القرآن كلّه موجهٌ إلى النبيّ قبل أي أحدٍ آخر . وقد لاحظنا في السور المكية أن السُّورة قد تكون كلّها مُنزَلةً للتسرية عن النبيّ . وفي معظمها لا تكاد تنتهي الأطروحة حتى تواجهنا كلمة « قل » موجهةً للنبي أو يحل محلها ضمير المخاطب المفرد المُوجه للنبيِّ . لكن سورةَ محمدٍ مختلفةٌ . فقد جعلت شخص النبيّ بصفته رسول الله محور السُّورة وفي قلب أطروحتها . والسُّورة مصاغة على هيئة بيانٍ شديد اللهجة تعقيباً على ما كان في غزوة أُحد .

أطروحة السُّورة : بآيتين قدمت السُّورة نفسها وبأسلوبٍ شديد اللهجة **﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾**

(محمد: ١، ٢)

فكأنها بيانٌ يتحدث عن العرب كفئتين : فئةٍ كفرت وصدت عن سبيل الله الذي يدعو إليه النبيّ ؛ وعلى رأسهم أهلُ مكّة . وفئةٍ آمنت بالله وبما أُنزل على محمدٍ وهم المهاجرون والأنصار في ذلك الوقت . فالسُّورة نزلت بُعيد معركة أحد .

وتنفيساً لحزن المؤمنين وغضبهم على ما كان في تلك المعركة من إخفاق بعضهم . وكما الأطروحة تأتي معظم آيات السُّورة . فالفقرة الواحدة تتحدث عن فئتين فئةٍ مؤمنةٍ تحظى برضا الله والجنة ، وفئةٍ كافرةٍ رافضةٍ للنبيِّ ينتظرها سوءُ المصير . والنصف الثَّاني من السُّورة يصف أحوالَ المنافقينَ وسرَّ نفاقِهم .

تحريض على قتال الكفرة :الآية الثَّالثَة تبريرٌ لما في آيتي الأطروحة . فضلال أعمال الكفار لأنهم اتبعوا الباطل . وكوفئ الذين آمنوا لاتباعهم الحقّ : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ (محمد:٣-٦) .

وقد التبس على بعض المفسرين معنى الآية الخامسة . فكيف يهدي الله من قُتل وقد مات؟ وفهمي لها أننا لا نعلم على وجه الدقة كيف يعيش الشهداء ؛ ولكن نؤمن أنهم أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون . وهم تركوا عيالهم وأحباءهم فيحتاجون أن تطمئن قلوبهم على من تركوا وما تركوا فيصلح الله لهم بالهم تجاه مسئولياتهم الدنيوية التي كانت ملقاةً عليهم . ومعنى سيهديهم لغةً ، يدلهم على الطريق المستقيم القصير إلى الجنة أي أنهم لن يتوقفوا عند منعرجات الحساب والمساءلة كغيرهم . والله أعلم .

وفي هذه الباقة من الآيات مواساةٌ للمؤمنين ووعدٌ مُطَمئِن . فهو يأمرهم بالقتال ؛ ويزودهم بتعليمات القتال والأسرى الذين سيقعون بين أيديهم . وكأنَّها بشرى لهم بنصرٍ قادمٍ تكون الغلبة فيه لهم . بل إن النصر مؤكدٌ . فالله قادرٌ على الانتصار وحده ؛ لكنه يريد إشراك المؤمنين في الجهاد اختباراً لهم لينالوا النصر عن جدارةٍ .

مصير الفئتين دنيا وآخرة : تفصيلاً لآيتي الأطروحة تأتي الباقة التالية من الآيات (٧-١٥). فالآية (٧) موجهة للمؤمنين مع النبيّ تبشرهم بالنصر والتثبيت إن نصروا الله . والآية (٨) تتحدث عن الذين كفروا بصيغة الغائب احتقاراً لهم ومقتاً . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ**

يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ (محمد:٧-١٠)

وبعد تهديد الذين كفروا بمثل مصير أقوامٍ كفرت قبلهم ، ومقابل مصير المؤمنين تأتي الآيتان (١١-١٢) وفي كلتيهما مقارنةٌ بين مصيري الفئتين ، وتبريرٌ بأن الله مولى المؤمنين ؛ والكافرون لا مولى لهم . وتصف الذين كفروا بأنهم يستمتعون بالحياة كما الأنعام : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ (محمد:١١،١٢) ووصْفُهم بالأنعام دلالة على تخلفهم وجهلهم . وهو ما لا يرضاه الله للإنسان .

وتهديدٌ آخر لقريشٍ يشفي غليل النبيّ والمؤمنين يتلوه تبريرٌ بأن النبيّ على بينةٍ من ربّه ؛ وهم على أهوائهم يسيرون . وتنتهي الباقة بوصفٍ للجنَّة التي وعد الله بها عباده المتقين وما فيها من نعيمٍ مقابل خلود الكافرين في النار : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ۝١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ (محمد:١٣-١٥)

ويبقى النبيّ محور كلّ ما في الباقة من وعود فمن اتبعه يتولاه الله ومن كفر فينتظره غضب الله .

المؤمنون والمنافقون : بدأت السُّورة بفئتين : المؤمنين والكافرين . ومنذ الآية (١٥) يبدأ الحديث عن المنافقين من أهل المدينة . ومعروفٌ ما فعلوه قبيل معركة أُحدٍ حيث انسحب ثُلث الجيش من أرض المعركة . ولا تبدأ الآيات من حادثة الانسحاب بل قبلها بكثير . فالنفاق لا يتولد في ساعةٍ . والآياتُ تعرض سلوكهم الذي يدل على النفاق مقابل سلوك المؤمنين كمرجعٍ للمقارنة بين المؤمن والمنافق . وأول خصالهم التي تعرضها الآيات حضورهم مجلس النبيّ بأجسادهم دون عقولِهم أو قلوبِهم ؛ بينما يزداد المؤمنون هدًى بحضور مجلس النبيّ . وبينما يتمنى المؤمنون الإذن بالقتال يتهرب المنافقون من أوامر القتال ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ

حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:١٦-٢٤) .

بذا يكون الموقف من النبيّ ومن القرآن مقياس أعمال الناس وعلى أساسه ينقسمون إلى مؤمنٍ ومنافقٍ ؛ كما انقسموا في الآيات الأولى من السُّورة إلى مؤمنٍ وكافرٍ .

ثم تصل الآية (٢٥) إلى حادثة الانسحاب من أرض المعركة ، والذين انسحبوا إرضاءً لمن يكره ما يتنزل من عند الله . ويُذكرهم بسوء المصير لو ماتوا على حالهم ذاك . ولكن الآيات لا تفضحهم بأسمائهم بل تعطيهم فرصةً لعلهم يستعيدون إيمانهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ (محمد:٢٥-٣٠) .

ويلاحظ أن كلّ ما في الآيات من تهديدٍ بالعذاب وتهديدٍ بالفضح إنما يقصد به استعادتهم إلى دائرة الإيمان والالتفاف حول النبيّ مع بقية المؤمنين . ولكن المناسبة سمحت بهذه القسوة في خطابهم . وهو خطابٌ غير مباشرٍ ليعلموا أنهم لم يعودوا يستحقّون الخطاب الإلهي المباشر مع المؤمنين .

توجيهات ختامية للمؤمنين : لتمييز المؤمنين من المنافقين يقول تعالى بخطابٍ مباشرٍ للمؤمنين أنهم سيتعرضون لبلاءٍ يقوم بالمهمة ؛ فليحتاطوا وليستعدوّا كي لا يُحسبوا مع المنافقين . وهذا سيزيد جاهزيتهم واستعدادهم لطاعة الله والنبيّ . ويطمئنهم بأن الكفرة الذين شاقوا الرسول لا يقدرون على شيءٍ . ومن مات منهم فلن يُغفَر له . وتستمر الآيات برفع معنويات المؤمنين بمناسبة هزيمة أُحد : **﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾** (محمد: ٣١-٣٨) .

وبذا نرى أن الرسول هو محور السُّورة فالإيمان به قاعدةٌ للإيمان ومشاقته هي الكفر . والسُّورة كلّها موجهةٌ للنبيِّ إلا آياتٍ قليلةٍ شاركه فيها المؤمنون . فاستحقّت اسم محمدٍ حقّاً!

* * *

سورة الفتح

السُّورة الثَّامنة والأربعون حسب ترتيب المصحف . وهي من أعظم بشريات القرآن للنبي وأصحابه الذين بايعوه تحت الشجرة . وللأمة من ورائهم . الفتح اسمها لتبشر بفتحٍ مبينٍ عظيمٍ . وهو أكبر من فتح مكّة ، وإن كان قاعدةً لفتح مكّة ، ولكلّ فتحٍ بعده . لم يكن فتحاً عسكريًّا وانتصاراً في معركة فقط . بل فتح عهدٍ جديدٍ ونقلةٍ فيها علوٌّ للأمة وارتفاعٌ لم يسبق لها مثيلٌ إلا الهجرة وبدر . ولكن النتائج هنا أظهر . فقد كانت نهاية عهود البلاء الشديد التي مر بها المهاجرون ثم شاركهم الأنصار بها . وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وما رافقها من سكينةٍ ورضاً بقضاء الله ، وتسليمٍ للرسول ، رغم قوة حجّة الشيطان ، هي السبب لهذه الوثبة العظيمة .

كان الرسول قد وعدهم بزيارة البيت العتيق والطواف به فحالت قريشٌ دون ذلك. فبدأت النفوس تتساءل : أين وعد النبيّ وما معنى الرؤيا التي رآها؟ فتنةٌ كبيرةٌ ولكن الإيمان الراسخ القائم على أسسٍ راسيةٍ كالجبال غلب وساوس النفوس ؛ ولا أقول النفوس الضعيفة . فالأسئلة أصعب من أن يجيبها عقلٌ بسيطٌ . ثم تأتي الاتفاقية مع قريشٍ بما بدا لبعض الصحابة تنازلاً . ومع كلّ هذا انتصر الإيمان فاستحقّ المؤمنون الذين تغلبوا على ضعفهم وعلى وساوس نفوسهم في تلك اللحظات الحرجة القاسية ، استحقّوا هذه البشرى وما تضمنته من وعودٍ بعهدٍ جديدٍ . وتحقّق كلّ ما وعدَتْهم به السُّورة . حتى ندم الذين تخلفوا متمنين لو أنهم كانوا في ظل شجرة الرضوان . هذه هي قصة الفتح المبين .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الفتح ، وقد وردت الكلمة في الآية الأولى من السُّورة . ولأول مرة تكون في الآية بنفس معناها كعنوان للسورة .

جاء في مقاييس اللغة للرازي : «الفاء والتاء والحاء أصل صحيح يدل على عكس الإغلاق . يقال فتحت الباب وغيره فتحاً ، ثم يُحمَل على هذا سائر ما في هذا البناء ؛ فالفتح الحكم . . والفتح النصر والإظفار ، وفواتح القرآن أوائل السور».

وفي مفردات القرآن للأصبهاني «وفَاتِحَةُ كلّ شيء : مبدؤه الذي يفتح به ما بعده». وفي بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي : «ورد الفتح في القرآن على وجوه : الأول بمعنى القضاء والحكومة ، نحو قوله تعالى ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ (الفتح: ١) أي حكمنا وقضينا».

ولم يخرج عن هذه المعاني بقية المعاجم القديمة . وفي هذا ما يكفي لصنع تصورٍ عن العنوان كموضوعٍ للسورة . فهي تبشر بعهدٍ جديدٍ وقضاءٍ إلهيٍ كريمٍ حكيمٍ للنبيِّ وأصحابه المؤمنين . عهدٌ من النصر والرزق ومزيدٌ من الانتشار لدين الله في قومهم ؛ وانحسارٌ للكفر حتى ينتهي من أرض التبليغ ؛ وهي الأرضُ الناطقةُ بالعربيَّة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة موجِّهةً البشرى للنبيِّ . وتشكل البشرى أطروحةَ السُّورة . لتدور السُّورة حولها وبما يليق مع إعجاز القرآن ومع عظمة منزله سبحانه : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ﴾ (الفتح: ١-٣)

والنصر العزيز في الآية الثَّالثَة جزءٌ من الفتح وليس بدلاً عنه ولا تفسيراً له . وتتعهد السُّورة ببيان وجوه الفتح المبين الذي يأتي مكافأةً للنبيِّ والمؤمنين على ما استسلموا لإرادة الله ، مع عدم إدراكهم للحكمة فيها ساعة بايعوا رسولهم تحت الشجرة . وهذا حال يرضاه الله لعباده المؤمنين ، عندما يكون بينهم رسول من الله .

أسباب الفتح : بأسلوب الخالق العظيم الذي يقدم الأمور بأسبابها العميقة والحقيقيّة تأتي الآيات الأربع التالية :

﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾

(الفتح: ٤-٧)

نفهم من الآيات أن الله تعالى نظر فوجد طائفتين من الناس : طائفةً مؤمنةً خرجت مصدقةً لنبيها ، وطائفةً تضم خليطاً من المشركين والمنافقين . المشركة تحاول منع المؤمنين من زيارة بيت الله العتيق ؛ والمنافقة تسعد شامتةً بهذا التعطيل . فيبارك الطائفة الأولى المؤمنة به وبنبيِّه . وينصرها بجندٍ من جنوده تتنزل على قلوبها سكينةً ورضاً بقدر الله ، فيزيد اللهُ أفرادَها إيماناً على إيمانهم . ويُعِدُّ سبحانه العذاب للمشركين والمنافقين جزاء ظلمهم وعدائهم للمؤمنين .

عهدٌ لمرحلة جديدة : الآيات الثَّلاث التاليات (٨-١٠) ترفع المؤمنين إلى منزلةٍ جديدةٍ وتذكرهم أنهم على عهدٍ جديدٍ مع الله وللعهد استحقاقاته . : ﴿ **إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (الفتح:٨-١٠) .

تخاطب الآية الثَّامنة النبيّ ثم تنتقل الآية التاسعة للمؤمنين مباشرةً لتعود العاشرة للنبيِّ . وقيمة الخطاب بهذه الصيغة إظهار قدر المؤمنين الذي اقترب من مستوى النبيّ . فكأنَّ العزيز الرحيم ينقل حديثه من النبيّ لصحابته ومن الصحابة لنبيِّهم . وأيُّ منزلةٍ أعظم من هذه . كما يتوحد الإيمان بالله مع الإيمان بالنبيّ ليكونا إيماناً واحداً . وفي الآية العاشرة تُبارك يد الله أيديهم وهم يبايعون النبيّ وتجعل ذلك عهداً لهم مع الله ، وللعهد حقوقٌ فليلتزموا بها ؛ ومن ينكث فعلى نفسه ومن أوفى فله أجرٌ عظيمٌ . ويذكرني هذا بعهود الله المدعمة بمعجزةٍ ماديةٍ مع بني إسرائيل كرفع الجبل فوقهم ومائدة المسيح لتلاميذه .

فرصةٌ لضعفاء الإيمان : الآيات (١١-١٦) تُوَجِّه النبيّ لمخاطبة المخلفين ومنحهم فرصة للتعويض عن تخلفهم ولعلهم يتمكنون من الانضمام إلى مسيرة الإيمان الصاعدة : ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝١١ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا**

لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(الفتح: ١١-١٦)

بصراحةٍ تليقُ بربِّ الناس يواجه المخلفين بكشف ما في نفوسهم . ليعلموا أن الله لا يخفى عليه شيءٌ . وأن لا سبيل أمامهم إلا الصدق إن أرادوا أن يمتلكوا صفة الإيمان ويصيروا جزءاً من المجتمع المؤمن . وكي يكونوا جزءاً من مجتمع المؤمنين عليهم أن يشاركوا بالجهاد الذي يفتح باب الإيمان لقومٍ آخرين . وفي الآية بشرى للنبيِّ أن الله سيفتح عليه بقبيلةٍ جديدةٍ تؤمن بالله ويزداد بها الإسلام قوةً ، فيقترب يوم الفتح الأكبر . وهذه بعض علامات الفتح المبين .

المعفوَن من القتال : نظراً لأن الفقرة السابقة تحدثت عن المخلفين وهددتهم بالسعير ، فلزم هنا تطمين قلوب من أعاقتهم ظروفهم عن القدرة على القتال كي لا تحزن قلوبهم ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:١٧)

المكافأة الأولى : رضا الله والمغانم وتوفيق الله لهم . هذه المكافأة الأولى للصحابة الذين بايعوا النبيّ فاستحقّوا بشرى الفتح المبين وهذه بواكيره ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح:١٨-٢٠)

تفسير الوضع مع قريشٍ وبشرى بالعمرة : ستكون العمرة كما رأى النبيّ في رؤياه وحسب اتفاقية الحديبية . وتعليلٌ لعدم إتمام العمرة هذا العام بما يطيب خاطر المؤمنين : ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

(الفتح: ٢١-٢٧)

فهي تعدهم بالعمرة وبالنصر على قريشٍ ضمناً . وتبرر التَّوقف دون النصر هذه المرة كي لا تحدث مذبحة ، يُقتل فيها مؤمنون من قريشٍ يكتمون إيمانهم . وهذه بشرى أخرى أن مكّة تتحول للإسلام بهدوء . وانتصر المؤمنون على ما هو أخطر من قريش ، وهو ضعف اليقين والتزموا كلمة التقوى التي أهلتهم للوثبة الجديدة .

انتصار الإسلام في منطقة التبليغ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح:٢٨) وهذه أعظم بشرى تتنزل على النبيّ والصحابة . وهي ظهور الإسلام على كلّ دينٍ في منطقة التبليغ . وهنا شبهة يلزم إزالتها . فقد ظن علماءٌ وعامةٌ أن المقصود بالآية ظهور الإسلام على أديان الأرض جميعاً . وإن كان كذلك فالوعد لم يتحقّق . فالإسلام ليس الأكثر أتباعاً في الكون الآن . ولكن الآية تحققّت خلال ربع قرنٍ من هجرة النبيّ . فالمقصود بها هو ظهوره على أديان منطقة التبليغ ، وهي المنطقة الناطقة بالعربيَّة . فأوسع آيات القرآن مدى هي قوله تعالى في سورة الأنعام :١٩ ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (الأنعام:١٩) والقرآن لا يبلغ الناس قرآنا إلا ما دام بلغته التي نزل بها . فترجمة القرآن وتفسيره ليسا قرآنا . وعلى هذا الأساس فمنطقة التبليغ هي المنطقة الناطقة بالعربيَّة فقط .

مسك الختام : بآية من أجمل ما نزل من القرآن يصف اللهُ النبيّ وأصحابَه وصفاً جميلاً مليئاً بالودِّ والرضا . وفيه من التشجيع ما يدفعهم للتضحية بكلّ نفيس في سبيل الله ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا** ﴾ (الفتح:٢٩)

وهذه بعض معالم الفتح المبين! وقد تحقّقت جميعاً . فقد فُتِحت خيبر وأسلم بنو حنيفة وفُتِحت مكّة وظهر الإسلام على أديان الجزيرة جميعاً والنبيّ حيٌّ يُرزق ؛ ثم دخلت الشام والعراق ومصر وليبيا تحت راية الإسلام في عهدي أبي بكر وعمر . ولم يكن قد مضى على وفاة النبيّ سوى اثني عشر عاماً . وما وراء هذه فلم يكن من مناطق التبليغ يوم نزول القرآن .

* * *

الحجرات

السُّورة التاسعة والأربعون حسب ترتيب المصحف الشريف . وأُعطيت اسمها الحجرات مثل كلمة ورادةٍ في الآية الرابعة منها ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ (الحجرات:٤) . والمقصود بها في الآية حجراتُ منزل رسول الله . ولكن السُّورة تدور حول التمدن الذي يـرافـق البيـوت الحـجـريـة أو الطينية الثَّابتة المستقرة ، مقابل بيوت الشعر المتنقلة البدوية . تعالج السُّورة المشكلات التي تطرأ عن تقارب الناس في الحضر . وتبدأ بأدب مخاطبة النبيّ . ثم ترشد المؤمنين إلى السلوك السليم تجاه ممارساتٍ خاطئةٍ بل ضارةٍ أو مؤذيةٍ للمجتمع ، كالغيبة والتجسس على أخبار الجيران ونشر أخبارٍ غير صحيحةٍ وما إلى ذلك . وتأتي السُّورة حسب الترتيب بعد سورة الفتح التي بشّرت النبيّ والمؤمنين بمرحلةٍ جديدةٍ من العلو والنصر . فتأتي هذه السُّورة لتكون علامةً أخرى على علو المجتمع وتمدنه على التقوى . والتقوى ترد في الآية الثَّالثَة بمعنى التمدن والتهذيب . والسُّورة مدنيةً بإجماع المختصين .

مطالعات تراثية :

لخصها **الفيروزآبادي فى بصائره** بقوله : «معظم مقصود السُّورة : محافظة أَمر الحقّ تعالى ، ومراعاة حُرْمة الأَكابر ، والتُّؤدة فى الأُمور ، والاجتناب عن التَّهور ،...، والاحتراز عن السخرية بالخَلْق ، والحذر عن التجسّس والغِيبة ، وترك الفخر بالأَحساب والأَنساب ، والتحاشى عن المنَّة على الله بالطَّاعة ، وإِحالة علم الغَيْب إِلى الله ـ تعالى ـ فى قوله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ (الحجرات:١٨)».

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها الحجرات . والحجرات من المـادة اللغويـة «حجـر» . جـاء في مقـاييس اللغة للرازي : «الحاء والجيم والراء أصل واحد مطـرد وهـو المنـع والإحاطـة علـى الشيء . والحجر القرابة لأنها ذِمام وذِمار يُحمى ويُحفظ».

وفي كتاب العين : «الحجر العقل والقرابة ، والحاجور : المُعاذ . . وحجارها حائطها المحيط بها».

ومن أجواء ما كتبوا توحي كلمة «حجر وحجرات» بحماية الإنسان لحرمٍ له محدودٍ محاطٍ بحجارةٍ أو بحائطٍ أو بعقلٍ أو قرابةٍ أو عُرفٍ . فهي مما يلزم للحفاظ على خصوصية الإنسان عندما يتقارب الناس في السكن . ويعيشون في بيوتٍ حجريةٍ . فيكون احتكاكٌ وتشابكُ مصالحَ واطلاعُ بعضِهم على خصوصية بعض : إنها خصائص المدينة وعلاقات سكانها .

فالسُّورة سورة التمدن وما ينشأ عنه من مشكلات وما يحتاج من تهذيب ورُقِيٍّ ؛ ليكون التعامل أفضل ، خالياً من المشكلات . وتكون الحياة أسهل وأقل عنتاً .

سورة الحجرات سورة البيت الحجري المستقر الثَّابت المكان ، الذي لا يتمتع بحرية رفض الجار والتخلي عنه ، أو البعد عن أقرب الناس دماً ، كما في بيت الشَّعرِ خفيفِ الحَمل والنقل الذي يسكنه أهل البادية . والقرآن يدعو ضمناً لحياة التمدن ويعيبُ حياة البداوة . لأن التمدن بما يسببه من تقارب الناس واحتكاكهم ، يُسَهِّلُ نقلَ المعرفة ، ويَضطرُ الناسَ المتجاورين في محيطٍ واحدٍ إلى التعايش ، والتنازل عن أشواك نفوسهم لتسهيل حياتهم فيما بينهم ، وعدمُ إيذاءِ بعضِهم بعضاً . ولذلك تأتي هذه السُّورة لتعالج مشكلات مجتمع المدينة حيثما كانت . ويأتي اسمُها «حجرات» لتحفظ خصوصية الفرد ، حتى عندما يكون في جماعة . حجراتٌ من القيم تحل محل الفضاء الواسع الذي كان ابن البادية يحيط به نفسه ليضمن خصوصيته . وهذا هو جوهر التعايش الحضريِّ .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

سنستعمل كلمة التمدن بمعنى الرقي والتطور الخلقي . وما دام الأمر أمر تمدنٍ فالتطور المطلوب هو ما يكون فيه الإنسان مصدر سعادةٍ لأخيه الإنسان ، وليس مصدر أذًى وإزعاجٍ أو ضررٍ . وتبدأ أطروحة السُّورة بتعليم الناس كيف يتعاملون مع نبيِّهم . كي يتهذبوا من جهةٍ وكي يتعاملوا مع نبيِّهم بما هو أهله من الاحترام والأدب .

وتأتي السُّورة بأسلوب خطبةٍ وديِّةٍ من ربّ رحيمٍ لعباده المؤمنين الذين استحقّوا هذا التَّوجيه . وهم النبيِّ والمؤمنون معه . وتأتي آياتٌ قليلةٌ بصيغة الحديث عن

غائب لتنتقد السلوكَ غيرَ اللائقِ الذي يصدر عن الأعراب وأجلاف العرب . وبما أنها كذلك فلم يكن لها أطروحةٌ بالمعنى التقليدي لكن فيها نظاماً في ترتيب المواعظ والتَّوصيات يبدأ من الأعلى تنازليًّا :

أدب مخاطبة الرسول ﷺ ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ** ﴾ (الحجرات: ١-٣) .

تنهى الآيات الثَّلاث الأولى عن ثلاثة أمور : سَبْقُ النبيّ بالحديث وتشمل الحديث بين يديه بدون إذنٍ مسبق منه . والثَّاني : عدم رفع الصوت أمام النبيّ . والثَّالثَ : عدم الكلام على مسمعه بالتبسط والصراحة والعِرابة التي تكون بين الأصدقاء . بل يكون الكلام بين يديه بحياءٍ وأدبٍ والتزامٍ خلقيٍّ ويخلو من أيةِ كلمة نابية .

ثم تشير الآية الثَّالثَّة إلى سمةٍ من سمات التمدن وهي التقوى . ومن علاماتها ضرورةُ غض الصوت بين يدي رسول الله تأدباً معه وإجلالاً لقدره .

ما لا يجوز مع النبيّ : الآيتان الرابعة والخامسة تكملان صورة التأدب مع النبيّ بذكر ما لا يجوز من السلوك مع النبيّ . وتصف من يفعله بالطيش وبافتقاره للعقل ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ (الحجرات: ٤،٥)

التحقّق من القول : في المدينة يكون المجتمع كبيراً . ولا وجود لمجتمعٍ مثاليٍّ يخلو من الفسق والنفاق والكذب . فعلى المؤمنين الحذرُ والتحقّقُ من كلّ ما يشيع من أخبارٍ كي لا يُظلم أحدٌ دون ذنب . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ** ﴾ (الحجرات: ٦-٨)

ولم تكتف الآيـات بالتحـذير مـن شـائعات الفاسـقين . بـل ذكَّـرت المـؤمنين أن عليهم الالتزام بطاعة رسول الله . وذكرتهم بنعمة الله عليهم بالإيمان . فليحفظـوا هـذه النعمة وهم يتعاملون ويتحدثون ويسمعون .

حل النزاعات : عندما يجتمع الناس ويتجاورون في محيطٍ محدودٍ لا بد أن تحدث بينهم نزاعاتٌ ؛ سواءً أبسبب تعارض المصالح أم اختلاف الرؤى أو سوء خلق فئةٍ من الناس . فتأتي الآيتان (٩-١٠) لمعالجة مثل هذه الحالات : ﴿ **وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (الحجرات:٩،١٠).

والمعالجة هنا بمحاولة الصلح فإن لم ينجح الصلح فتُـردَع الطائفـة الـتي تـرفض الصلح حتى تعود إلى الحقّ . وبعد توقـف القتـال يحكـم بينهمـا بالعـدل . ومرجـع العدل هنا هو الآية (١٧٨) من سورة البقرة . وبلغة هذه الأيـام فـإن السـلطة الممثّلـة للمجتمع هي التي تقوم بالفصل بين المتقاتلين .

الاستهزاء بالآخر : الآية (١١) تنـهى المؤمنـين عـن السخـرية مـن إخوانهم أو مخاطبتهم بالألقاب . وقد يستهين الناس بهذه الأخطاء لكنها ذنوبٌ يأثم فاعلها . لذلك جعل الله الاحترام المتبادل من شروط التعايش والتمدن : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ (الحجرات: ١١).

اجتناب الظن والتجسس والغيبة : تحذر الآية (١٢) من مجموعة ذنوبٍ أخرى يمكن أن يقع بها مؤمنون : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الحجرات: ١٢).

التقوى مقياس الكرامة في المجتمع : وتأتي الآيةُ الثَّالثَة عشرة في هذه المجموعة الموجهةُ للمؤمنين تحذرهم من بقية قيم الجاهلية . فأكرم الناس أتقاهم وليس أكثرُهم مالاً أو أكبرهم عشيرة . والتقوى ، هنا كما وردت في الآية الثَّالثَة من

السُّورة ، تمدنٌ منضبطٌ بطاعة الله . وليس مجردُ إظهار شعائر الدين . التقوى كلمة كانت شائعةً عند العرب قبل الإسلام . وهي محصلة العقل والحكمة والحياء ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ** ﴾ (الحجرات:١٣).

ويلاحظ أن الآيتين (١١-١٢) تبدآن بنداء «يا أيها الذين آمنوا» لأن بعض المؤمنين يمكن أن يقع بمثل الأخطاء المنهي عنها فاحتاجوا هذه التَّوجيهات .

نهيٌ عن البداوة : القرآن دعوة إلى الإيمان لذلك نجده ينهى عن كلّ ما يعيق الإيمان . ومن مثبطات الإيمان حياةُ البادية حيث تسير الحياة ببطء ، ويقل الاحتكاك بين الناس ويتباطأُ كلّ ما ينتج عنه من تبادل المعرفة والخبرة ، ويفتر الإيمان في القلوب . لذلك تأتي الآية (١٤) تشكك بإيمان الأعراب لكن بحكمة القرآن التي لا تُثبِّط الناس بل تدفعهم للعمل والإيمان : ﴿ **قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ** ﴾ (الحجرات:١٤،١٥)

فالإيمان ليس محرماً عليهم بل باستطاعتهم أن يؤمنوا ومن يؤمن يجازى بما يستحقّ . ولكن بيئتهم لا تيسر لهم الإيمان الذي تيسره حياة المدينة . وتقوم الآية (١٥) بتعريف الإيمان ليعرف الإنسان مكانه . وجعلت الآية الجهاد شرطاً للإيمان لأن الأعراب كانوا يتخلفون عنه كما علمنا من سورة الفتح (١١-١٦) . وبسورةٍ مخصصةٍ للتمدن يليقُ ذكر البداوة لإظهار عيوبها ولينتقل الناس إلى حياة الحضر المستقرة لتسريع تطورهم .

ادعاء الإيمان : في المرحلة التي يكون فيها المجتمع بحالة جهادٍ يمُن بعض مدعي الإيمان بإيمانه على القيادة وعلى علية القوم من المؤمنين لينالوا بذلك مكانةً في المجتمع بغير حقّ . ويوجَّه النبيّ لإخبار هؤلاء المدَّعين أن الله يعلم ويرى ولا تخفى عليه خافيةٌ ﴿ **قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ**

إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحجرات:١٦-١٨)

وهكذا تلخص السُّورة أهمَّ مشكلات المجتمع المتمدن في البيئة العربيَّة وتضع معالجاتٍ لها جميعاً . لتؤسس تمدناً سليماً من الخَبَث والضغائن فلا يكون لأعدائه فيه عيونٌ وأذرعٌ طويلةٌ .

* * *

سورة ق

السُّـورة الخمسـون حسـب ترتيـب المصـحف . وهـي السُّـورة الثَّانيـة في القـرآن المعنونة بحرفٍ واحـدٍ مـن حـروف الهجـاء . سـبقتها بـذلك سـورة ص . ولـيس في القرآن سواهما بهذه الصفة . والسُّورة مكية . أُوتيت اسمها من الحرف الأول منهـا ق . والقاف عندما يكون كلمة يعني الإحاطـة والسـيطرة الكاملـة . ولعـل أسـطورة جبـل قافٍ أخذت خصائص الجبل المزعوم من معاني كلمة قاف . وبهذه الأجـواء تتحـرك السُّورة . تذكر ضلال المشركين وإعراضهم عن الإسلام وإنكارهم للبعـث والحسـاب لتهددهم وتذكرهم بقدرة الله عليهم . فهو سبحانه ربّهـم الـذي يـرزقُهم ويـنعمُ علـيهم بوسائل العيش فيقدرُ على منعها . وهو قادرٌ على إهلاكهم في الحياة الدنيا وتعذيبِهم في الآخرة أشدَّ العذاب . والسُّورة تختلف بأسلوب خطابهـا عـن جميـع السـور الـتي درسناها حتى الآن . فمعظمها يَرِدُ حكايةً عـن الغائـب لأنـه حـديثٌ عـن المشـركين وتهديدٌ لهم . باستثناء مشاهد القيامة التي يكون الخطاب المباشر فيها تقريعـاً تكتمـل به أجواء إذلال العصاة . وفي الآية التاسعة والثَّلاثين ومـا يتبعهـا مـن أواخـر السُّـورة خطابٌ مباشرٌ للـنبيِّ يوصـيه بالصَّـبر . بينمـا اعتـدنا أن يكـون الخطـابُ للـنبيِّ منـذ الأطروحة أو بعدها بآيةٍ أو بضع آيات . ولكن هذا الترتيب لآيات الخطاب المباشـر والحكاية لا يغير حقيقة أن السُّورة كلّها خطابٌ للنبيِّ وحده تحكي له عن قومه .

مطالعات تراثية :

ويرى فيها سيد قطب في الظلال : « إنها سورة رهيبـة ، . . . . تأخـذ علـى الـنفس أقطارها ، وتلاحقهـا في خطراتهـا وحركاتهـا ، وتتعقبهـا في سـرها وجهرهـا ، وفي باطنها وظاهرها . تتعقبها برقابة الله ، التي لا تدعها لحظـة واحـدة مـن المولـد ، إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شـديدة دقيقـة رهيبـة . تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في القبضة الـتي لا تَغفَل عنه أبداً ، ولا تُغفِل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كـثيراً ولا قلـيلاً . كلّ نفس معدوّد . وكلّ هاجسة معلومة . وكلّ لفظ مكتوب . وكلّ حركة محسـوبة .

والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب ، كما هي مضروبة على حركة الجوارح . ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة ، في كلّ وقت وفي كلّ حال».

وقد أحسن سيد قطب في وصف جو السُّورة وإحاطتها بالخلق وإن لم يربط موضوعها بعنوانها . ولكن رؤيته لها ووصفه لموضوعها دليلٌ ساطعٌ على سلامة منهجنا في هذا السفر .

عنوان السُّورة وموضوعها :

قاف وهو حرف الهجاء الذي بُدئت به السُّورة . وهو فيها جزء من قَسَم (ق والقرآن المجيد) . وسبق أن قلنا إن مثل هذا القسم يتضمن جوابه من حيث المعنى . فهو يدعوهم بهذا القرآن المجيد . ولكن للقاف إضافة معنى . فماذا يقول عنها المعجميون؟

جاء في القاموس المحيط : «القافُ : حَرْفٌ ، وجَبَلٌ مُحيطٌ بالأَرْضِ ، والقائِفُ : من يَعْرِفُ الآثارَ ، وقافَ أَثَرَهُ : تَبِعَهُ . وهو يَتَقَوَّفُ عليَّ مالي : يَحجرُ عليَّ فيه ،

وجاء في اللسان : يقال أَخذته بقوف رقبته وصوف رقبته أَي أَخذته كلّه ، وقيل يأْخذ برقبته فيعْصِرها ؛ وأَنشد الجوهري :

نَجَوْتَ بقُوفِ نَفْسِكَ ، غَيْر أَنـي   إخالُ بأَنْ سَيَيْتَمُ أَو تَئِيمُ

أَي نجوت بنفسك ؛ قال ابن بري : أَي سَيَيْتَمُ ابنك أو تَئِيم زوجتك ، القائفُ : الذي يَعرف الآثار ، والجمع القافةُ . يقال : قُفْت أَثره إِذا اتَّبعْته مثل قَفَوْت أَثَره .

فأجواء الحرف توحي بالسيطرة والمتابعة والإحاطة الكلّية على الجسم أو الشخص الذي تقوفه .

فقاف هنا تعني سيطرةَ الله على المشركين والإحاطةَ بهم في الدنيا وبمصيرهم يوم الحساب ؛ وقد حرصتِ السُّورة على إبراز ذلك ، لترد على إنكارهم البعث والحساب . لذلك تحرص السُّورة على إثبات البعث والحساب . وهو ما لا يطيقه المشركون لأنهم أقاموا حياتهم الدنيا على أنها الآخرة ، ليس بعدها إلا الفناء الأبدي .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

نزلت السُّورة بصيغة بيانٍ حازمٍ يصف ضلال مشركي مكّة وخطل تصورهم للحياة . ومن جهةٍ أخرى تَذكُر شر أعمالهم في معرض الحساب وبين يدي جهنم ؛ فتصفُ الواحد منهم بأنه منَّاعٌ للخير معتدٍ مريبٍ . وتقتصر أطروحتها على أربعة أمور : مجدِ القرآن الذي يعني تمام الصدق ، ورفضِهم لنبوّة رسول الله إليهم ، وإنكارِهم للبعث ، ثم قدرةِ الله عليهم وإحصائه لما يصدر عنهم من قول أو عمل . ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ (ق:١-٤) .

ونعود لوصف القرآن بالمجيد . فهي تعني وصول مرحلة التمام في كلّ أمرٍ محمود . فلا يحتاج صاحبها بعدها شيئاً . والمستغني بما لديه لا يتوسل للناس بمجاملةٍ ولا كذبٍ . وبالتالي فكلّ ما في القرآن حقّ . فليعلموا هذا !

تكذيبهم رغم إحاطة الله برزقهم : أنزل الله عليهم قرآناً مجيداً مع نبيٍّ عرفوا صدقه . ومع هذا كذّبوا واضطربت أمورهم ؛ بدل أن يدركوا الخير ونعمة الله عليهم بالكتاب وبالنبيّ . وقبل ذلك لم يتعظوا ولم يعتبروا بخلق الله العظيم من مكونات الكون حولهم ؛ ولا قدّروا نعم الله عليهم بالمطر وما ينبت من زرعٍ ومن نخيلٍ . ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق:٥-١١)

أفلا يكفي كلّ هذا ليعرفوا قدرَ الله تعالى وقُدرته ، وعدم وجود مبررٍ ليكذب عليهم . وبالتالي فيكون ما يخبر به النبيّ والقرآن صحيحاً ؛ فليستعدوّا ليوم البعث والحساب . وقبل ذلك فإن رزقهم المعتمد على المطر قد يتوقف فهو بيد الله وحده .

دروس الماضي : تحشد الآيات الثَّلاث (١١-١٣) مصائر ثمانية شعوبٍ قويةٍ ذوات حضارةٍ ؛ ومعظمُها أشد منعةً وتقدماً من أهل مكّة . ومع هذا أخذهم الله بعذابٍ دنيويٍّ قضى عليهم جميعاً ؛ لأنهم كذبوا الرسل . فعلى ماذا يعتمد مشركو

مكّة بكفرهم وعنادهم؟ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾
(ق:١٢-١٤)

ويأتي الإيجاز هنا زيادةً في التهديد والإرعاب لهم . فكأنَّ الله قضى على كلّ هذه الأمم بضربةٍ واحدةٍ قاضيةٍ !!

تأكيدٌ على البعث والإحاطة : فالله الذي خلقهم أوَّل مرةً من العدم ؛ سيكون أسهل عليه إعادة خلقهم . فلماذا يلتبس الأمر عليهم ولا يستطيعون تصوُّره . ثم إن الله الذي خلق الإنسان يعلم كلّ أسرار تكوينه فيعلم ما توسوس به نفسه وبما يخفي صدره . وهو سبحانه ، بعلمه وقدرته ، أقرب إلى الإنسان من بعض جسده ! فكيف لا يدركون هذا؟ ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (ق:١٥-١٩)

وتنتهي هذه الجولة بمشهد الموت الذي يدركه كلّ البشر . وتعرض الآيات قدرةَ الله وعلمَه وأدواته في تنفيذ إرادته ؛ فالملاكان المكلّفان بمراقبة الإنسان وتسجيل أعماله دائما الحضور . لم يغفلا لحظةً عن قولٍ منه أو عملٍ . حتى وصلا معه اللحظة الأخيرة التي لم يكن يتمناها! فهل عرف القوم إحاطةً أحكم من هذه؟

مشهد المشركين يوم القيامة والحساب : بعد أن تحدثت السُّورة عن إحاطة الله بهم في الحياة الدنيا ، رِزْقاً ورقابةً وقدرةً على إهلاكهم ، جاءت ساعة الدينونة . وجاءت كلّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ ؛ وما أخزاه من موقفٍ . ويخاطبهم العلي مباشرةً لا احتراماً بل شماتةً بهم وإهانةً لهم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ . ثم يُقدمُ الشهيدُ صاحبَه كما يُقدم الشرطيُّ المجرمَ إلى يد العدالة ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾.ويصدر الحكم السريع للتنفيذ ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ . ويحاول الكافر أن يلقي باللوم على قرينه الذي وسوس له . فيقال له (بل كنت في ضلالك الشديد) وجعلت مع الله إلها آخر : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ

﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(ق: ٢٠-٣٠)

مشهد الجنة وأصحابها : لتكتمل الصورة وتمتلئ قلوب الكفار غيرةً عسى أن يندموا من قريبٍ ، ويعودوا إلى الله ؛ يأتي مشهد المؤمنين وقت حسابهم ومكافأتهم بالجنة . فالهدف من كلّ هذا استعادة المعاندين إلى الطريق المستقيم : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق: ٣١-٣٥)

وبالرشاقة المعهودة من القرآن تتحدث الآيات بإيجازٍ شديدٍ عن أحب أعمال المؤمنين إلى الله . وبها دخلوا الجنة : التقوى ومراجعة النفس عند الخطأ وخشية الرحمن بالغيب . ولعلها جاءت قليلةَ العدد سهلةً على النفس ليسارع المترددون إلى التَّوبة ، من يستحقّ منهم ، والانضمام إلى ركب المؤمنين .

خطاب ختاميٌّ للنبيِّ : ينتهي الحديث عن المشركين ويُفرد الخطاب إلى النبيّ ليُطيِّب خاطره ، ويؤكد له قدرة الله على الكافرين الذين يعترضون على نبوَّته ويُكَذِّبون بالبعث. ويؤكد له أن ما قيل في هذه السُّورة يكفي ليتذكر من كان له قلبٌ، أو يستعملُ عقلَه وحواسه في النظر إلى صنع الله ونعمه . ويزيد بمواساته عندما يُذكِّره أن ربّه الذي أرسله خلق الكون كلّه في مدةٍ محدودةٍ ولم يعي بعملية خلقه . ثم يوصيه بالصَّبر على ترهاتهم والتَّوجه إلى ربّه بالصَّلاة والذِّكر . ويعده بأن يكون حيًّا يوم صيحة القيامة يشهدها ويشهدهم . ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾

إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٣٦-٤٥)

ومرةً أخرى تُطيِّب الآيات خاطر النبيّ وهو يكاد يشاهدهم ، والأرض تشقق عنهم ، يخرجون من قبورهم يساقون إلى المحشر . وبعد هذا تخفف عنه الآية الأخيرة عندما تقول له إن مهمتك التذكير بالقرآن . فلا تأس على القوم الكافرين .

وبذا نرى السُّورة تحيط بهؤلاء المشركين . وتريح النبيّ من شرِّهم . ويبقى أمرهم إلى الله القادر عليهم في الحياة الدنيا وبعد البعث . فهو محيطٌ بهم بعلمه وقدرته وسننه الثَّابتة . وليس على النبيّ من أمرهم من شيءٍ سوى تبليغ القرآن لمن يستفيد من سماعه .

وهكذا يصدق عنوان السُّورة على موضوعها وعلى ترتيبها بما لا يقدر عليه إلا الله .

* * *

الذاريات

الذاريات هي السُّورة الحادية والخمسون حسب ترتيب المصحف . وهي سورة مكية . تدور حول سنن الله في إحياء عباده بالرزق المتجدد . وذكرت السُّورة كلّ وسائل تجديد الطعام بشموليةٍ لا تخطر ببال بشرٍ إلا من كان متخصصاً من أهل هذا الزَّمن . فمن وسائل تجديد الرزق ، المطرُ والأرض الممهدة للزراعة وخلق الحيوان والنبات أزواجاً لتتكاثر وتنتج أنواعها جيلاً وراء جيل ؛ فيعيش عليها الإنسان ويعيش بعضها على بعض لا تنقرضُ ولا تنفَد . إن الله هو الربّ الحقّ الذي يهتم بشأن عباده ، يرزقهم ويسهل حياتهم فهو الله الحقّ المستحقّ للعبادة . ومن استجاب لنبيِّه نجا وكوفئ بنعيم الجنَّة ، ومن عصاه فالنار مأواه . وبالذاريات يلقى ما يستحقّ من مصير بئيسٍ أو هلاكٍ . وكي لا يطغى أحدٌ على أحدٍ ولا يتحملُ النبيّ من شعور المسئولية ما لا يلزمه ، تأتي الآيات الأخيرة ترفع عنه اللوم فيما يفعل المشركون من قومه وتلزمهم نتائج أفعالهم وأقوالهم .

مطالعات تراثية :

اقترب سيد قطب في الظلال من جو السُّورة بالفقرة التالية : « ... ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقد عني في هذه السُّورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسماء في شأنه ، لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السُّورة في مواضع متفرقة منها ».

عنوان السُّورة وموضوعها :

أوتيت السُّورة اسمها الذاريات مماثلاً للكلمة الأولى منها (والذاريات ذرواً) . والذاريات في الحاليتن هي الرياح بصفتها ذارية . ولكن للكلمة أبعاداً أخرى رغم اضطراب اللغويين في مادتها الأصلية أهي من ذرو أم ذرى أم ذرأ وقد تكون من الذر . ولكن لا خلاف على استعمالاتها على ألسنة الناس . فالخليل بن أحمد في كتابه العين وضع ثلاث مواد لغوية هي « ذرأ وذرو وذرى ، وتحت الأولى كتب : « ذرأ الله

الخلق : خلقهم ، وذرأ الأرض يذرؤها ، وزرع ذريء ..» وتحت المادتين الأخريين كتب : «ذرت الريح التراب : حملته ثم أثارته ذرواً ، وذرى الحَبَّ من البُرِّ تَذرية ، والمِذراة التي يُذَرَّى بها ، وذِروته أعلاه».

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي : «ذرا الحنطة في الريح نقاها ، وذريت تراب المعدن : طلبت ذهبه ، واسْتَذْرَت المعزى اشتهت الفحل». لعل هذا طلباً للتكاثر وما يقابل طلب الذرية عند الإنسان .

فهي سورة الذاريات من الذرو وشمل ذروها كلّ هذه المعاني . فسماها الله الذاريات ليس لأنها ريحٌ فقط فللريح أسماءٌ أقوى وأشد ولكن لصفة الذرو التي بها والتي أمكن توظيفها على مدًى وَسِعَ كلّ ما في السُّورة .

فالرياح الذاريات من وسائل الرزق مطراً يسقي الزَّرع وأداة تلقيحٍ للزهر كي يكتمل ثمراً . . ومن الذرو توالد الأنعام وتكاثرها لتكون طعاماً للإنسان . وهي في استعمالها آتيةً من السماء تصنع حُبُكاً أداةً لإهلاكِ الظالمين والمنكرين لله ولأنبيائه . فيأخذهم الله بضربةٍ طبيعيةٍ لا بد أن يكون للرياح فيها دور إن لم تكن الرياح وحدها هي الأداة القاضية على القوم المجرمين .

فالسُّورة تدور حول هذه الوظائف جميعاً للذرو والذرء والذاريات لتكون دليلاً على قدرة الله في تيسير حياة الخلق وإنهائها ليؤمن أهل مكّة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تتضمن الآيات التسع الأولى قسماً بالرياح الذاريات باستعمالاتها الأربع . ويُوظف القَسَم المُركَّب لتأكيد يوم الحساب وما يتبعه من حساب . ثم يأتي قسمٌ آخر بالسماء ذات الحبك ليؤكد للمؤمنين أنهم في أمر جديد يُصرف عنه من لا يستحقّه ﴿ **وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ** ﴾ (الذاريات:١-٩).

ردٌّ على منكري البعث : تتوجه الآيات (١٠-١٤) بالحديث إلى النبيّ بشأن المشركين . تحكي عنهم بصيغة الغائب حتى يدخلوا النار فيخاطبهم الله زيادةً في إذلالهم وعذابهم . ﴿ **قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۝١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ**

تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ (الذاريات: ١٠-١٤). وكلمة «الخراصون» بمعنى الذين ينطقون كذباً بغير علم.

مكافأة المصَدِّقين بدعوة النبيّ: وبالإضافة إلى ما يقومون به من عبادةٍ وذكرٍ يجعلون في أموالهم نصيباً للمحتاج. وهذه علامة تصديقِهم بل يقينِهم بالله وبوعده. فيتجدد الوعد لهم بالآية (٢٢) بأن رزقهم في السماء وسيصلهم بإذن الله. ثم تدعوهم الآيات إلى التأمل في أنفسهم وفي آيات الله المبثوثة في الأرض ليزدادوا إيماناً ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات: ١٥-٢٣)

وكما نرى تركز الآيات على موضوع الرزق. كي لا ينشغل به الإنسان على حساب طاعته لله. ولا يكون كلّ همه. فهو بيد الله. وقد تقرر رزقُ الإنسان الأنسبُ له حسب خُطة الله فلا يطلبه إلا بالوسائل النظيفة وبما لا يحطُّ من كرامته.

أمثلةٌ من أممٍ سابقة: تأتي الأمثلةُ مبكرةً في السُّورة فلم يسبقها إلا الأطروحة وبيان مصير الفئتين المؤمنةِ والكافرةِ. أتت الأمثلة التاريخية سريعاً لأن غرض السُّورة وضح سريعاً في آيات القَسَم الخمس، ولأن النماذج جاءت لتعكس دور الرياح الذاريات في إهلاك الشعوب الظالمة: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ (الذاريات: ٢٤-٣٧).

وفي القصة التفاتتان الأولى: أن إبراهيمَ العبدَ المطيعَ الحريصَ على رضا ربّه المحبَّ للعطاء يكرم ضيفه دون أن يعرفهم، فيبشره الله بغلامٍ عليمٍ يرزقه الله به رغم

شيخوخته وعُقم امرأته ، فيجعل له منه ذريةً تمشياً مع عنوان السُّورة . والثَّانية : هلاك قوم لوطٍ بسبب عصيانهم ودنس أرواحهم وأجسادهم . فكان هلاكُهم بحجارةٍ من السماء . ولئن لم تحملها الرياح وتذروها فوق رءوسهم فإنها جاءت من السماء ذات الحبك .

والمثل الثَّاني من نهاية فرعون الذي رفض دعوة موسى ولم يوافق على طلبه بإطلاق سراح بني إسرائيل . فكانت نهايته غرقاً بالماء . ولم تكن الريح بعيدةً عن الصورة فلا يتحرك الماء إلا بريح شديدة . ولكن عاداً أُهلكوا بريحٍ عقيمٍ ، وثمود أخذوا بصاعقة تحملها الريح ، وقوم نوحٍ أهلكوا بطوفان أصله مطرٌ غزيرٌ تحمله الحاملات وقْراً : ﴿ **وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ** ﴾ (الذاريات:٣٨-٤٦). وفي جميع الحالات كانت عمليات تذريةٍ فأخذ الله من لا خير بهم وأبقى الصالحين . فهي شبيهةٌ بتذرية القمح : العصف والتبن تذروهما الرياح ويبقى القمح للغذاء وللتكاثر .

إلى هنا وتتأصل فكرة الذاريات أداة للعقاب المدمِّر الشامل .

دعوةٌ إلى الله : وما يعمق دور الرياح الذاريات في نفع الإنسان ورزقه طريقة تصميم الكون وتجدُّده المستمر كتوسيع الكون وتمدُّده المستمر (وإن لم يُفهم أثر هذه الظاهرة في خدمة الإنسان حتى الآن فاكتشافها حديثٌ نسبيًّا . كما لا نعرف علاقة التمدّد بالذاريات أو إن كان لحركة الرياح دورٌ بتمدُّد الكون . ولكن يجدر هنا نقل وصف أحد العلماء المختصين لعملية توسع الكون يقول الفيزيائي والفلكي الإنجليزي البروفيسور «ايدنجتون "Arthur Stanley Eddington 1882-1944" : « إن مثال النجوم والمجرات كنقوشٍ مطبوعةٍ على سطح بالون من المطاط وهو ينتفخ باستمرار ، وهكذا تتباعد جميع المجرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية في عملية التَّوسع الكوني» . ومن الذرء زوجية الخلق لتتكاثر أدوات طعام الإنسان ولا تفنى ولا تنفدُ بل تتجدد بالتكاثر والذرء ؛ كلّ ذلك يجعل عبادة الله

وشكرَه واجباً على الإنسان . ﴿ **وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ** ﴾ (الذاريات:٤٧-٥١).

ونلاحظ أن الآيات موجهةٌ للنبيِّ ليخاطب بها قومه . ويكون الالتفات فيها برشاقةٍ لا يقدر عليها إلا الله . فبينما تأتي الآيات (٤٨-٤٩) خطاباً للنبيِّ من الله ، تأتي الآيتان (٥٠-٥١) على لسان النبيّ لقومه .

جواب المخاطبين : مقابل كلّ الأدلة المذكورة في الآيات السابقة يأتي جواب الظالمين بأن النبيّ المرسل إليهم ساحرٌ أو مجنونٌ ويلاحظ أن هذه التهم نمطيةٌ في معظم الأمم المخاطبة ﴿ **كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ طَاغُونَ** ﴾ (الذاريات:٥٢-٥٣)

توصيةٌ للنبيِّ : إزاء رد فعلهم الرافض يُوصِي اللهُ نبيَّه بإهمال الظالمين لأن الله يعلم أن نبيه سينتصر وسيؤمن به أغلب القوم ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ** ﴾ (الذاريات:٥٤-٦٠).

ومهما كانت أسبابُ كفرِ الأمم الأخرى ؛ فإن رفْضَ بعض المشركين للنبيِّ هو خوفهم على رزقهم . ومثلهم معظم العرب سكان المناطق الجافة الذين لا يكادون يحصلون على الكفاف . فتؤكد لهم الآياتُ الختامية أن الرزق على الله وهو سبحانه قادرٌ على رزقهم . فهو حسب مقدمة السُّورة بيده الرياح وما تحمل . فهو القادر على رزقهم في بيئتهم الجافة كما رزق إبراهيم الولد وهو عجوز وزوجه عقيم . فلا ييأسوا من قلة الرزق .

والتفاتةٌ أخرى تستحقّ الذِّكر هنا هى أن الله خلق عباده لعبادته وليس ليشغلهم بطلب الرزق ، فهو قادرٌ على أن يرزقهم كما يرزق الطير . لكنه يريد أن يمارسوا طلب الرزق ليزدادوا علماً وخبرةً ، ويتبادلوا المعرفة والخبرة ، ويترقوا فى كلّ جوانب حياتهم ، فيعبدوا الله بطريقة أرقى وأرضى عنده سبحانه . .

* * *

سورة الطور

الطورُ هي السُّورة الثَّانية والخمسون حسب ترتيب المصحف . ويمكن الاستنتاج من موضوعها وأسلوبها أنها نزلت في أواخر الحقبة المكّية . فنبرةُ التهديد فيها أعلى من صوت الإقناع والموعظة . ولأن عناد المشركين ازداد حدةً ، جاءت السُّورة باسمها « الطور » لتقول لهم تجاوزتم الحدَّ المعقول في عنادكم وعدائكم ، وإساءتكم للنبيِّ وللحقّ . ومَن عَدا طَورَه ، كما تقول العرب فقد جاز حدَّه المسموح له به .

وتبدأ السُّورة بالقسم بأوابد خمسٍ هي الجبل والقرآن والكعبة والسماء فوقها والبحر الذي يعرفون . وهي من أوابدِ مكّة ومعالِمها . ولا مجال لاعتبارها من مفردات أمةٍ أخرى أو دينٍ آخر .

عنوان السُّورة وموضوعها :

أوتيت السُّورة عنوانَها « الطور » مماثلاً لكلمة الطور الواردة في آيتها الأولى على سبيل القَسَم . والطور الوارد في الآية بمعنى الجبل . وفي مقاييس اللغة : « الطاء والواو والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد ، وهو الامتداد في شيء من مكان أو زمان . من ذلك طوار الدار ، وهو الذي يمتد معها من فنائها . ولذلك [يقال] عدا طوره ، أي جاز الحد الذي هو له من داره . ثم استعير ذلك في كلّ شيء يتعدى . والطور : جبل ، فيجوز أن يكون اسم علم لجبل معين ، ويجوز أن يكون سمي بذلك لما فيه من امتداد طولاً وعرضاً ... وقولهم للوحشي من الطير وغيرها : طوري وطوراني ، فهو من هذا ، كأنه توحش فعدا الطور ، أي تباعد عن حد الأنيس ».

وجاء في لسان العرب : « قال بعض أَهل اللغة في قول ذي الرمة :

أَعارِيبُ طُورِيّون عن كلّ قَريةٍ حِذارَ المنايا أَو حِذَارَ المقَادِرِ

قال طُورِيّون أَي وَحْشِيّون يَحِيدُون عن القُرَى حِذارَ الوباء والتَّلَفِ كأَنهم نُسِبُوا إِلى الطُّورِ . . ورجل طُورِي أَي غَرِيبٌ».

فالطور بارتفاعه واتساعه صار ملجأً للوحشي من الطير والناس لابتعادهم عن المجتمع وبعدهم عن المألوف والطبيعي . وهذه هي أجواء كلمة طور وطوري في

المعاجم واستعمالات العرب . وكذلك تأتي السُّورة لتتحدث عن تجاوز مشركي مكّة حدَّ المعقول والمقبول . ولذلك نجدها تقسو عليهم بسبب كفرهم ومقولاتهم البعيدة عن السواء . حتى صاروا طوريين بتصوراتهم للألوهيَّة وللنُّبوَّة والحياة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بالقسم بخمس أوابد هي الطور والقرآن والرق الذي كتب عليه والكعبة والسماء والبحر المسجور . ويخاطب بهذه السُّورة مشركي مكّة خلال رسول الله إليهم .

القسم والمقسم عليه : جواب القسم هو يوم القيامة الذي ينكره المشركون : ﴿ **وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا** ﴾ (الطور:١-١٠).

مشهد المكذبين يوم القيامة : كما اعتدنا في السور المكية التي درسناها مؤخراً . تبدأ بعد القسم بمشهد المنكرين بين يدي الحساب أو العذاب يتلوه مشهد المتقين في جنات النعيم للمقابلة وحفز المنكرين لإعادة النظر في موقفهم ﴿ **فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (الطور:١١-١٦) .

ست آيات تضمنت من التبكيت ما يناسب كفرهم الذي تجاوز الطور . ومع مقارنته بالمشاهد المقابلة من السورتين السابقتين يكون هو الأشد .

مشهد المتقين يوم الجزاء : يأتي مشهد المتقين طويلاً مقارنة بالمشاهد النظيرة في السور السابقة مكافأةً لهم على إيمانهم في بيئةٍ كافرةٍ شديدة الانحراف إلى حدِّ التَّوحش الطوري . ولِتَحمُّلِهم أذى قومهم ؛ وإثارةً للمشركين عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ، فينضموا إلى أصحاب هذا النعيم . ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ**

فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(الطور:١٧-٢٨)

اثنتا عشرة آيةً من الرحمة والودِّ والجزاء الحسن لمن اتقوا الله واتبعوا رسوله .

توصياتٌ للنبيِّ :كما أسلفنا فالسُّورة كلّها خطابٌ للنبيِّ ، إلا الآياتِ (١٤-١٦) التي جاءت تقريعاً وتبكيتاً للمشركين وهو يَصْلُون عذاب جهنم . ولكن الخطاب في بقية السُّورة ينقسم إلى ثلاثة أقسامٍ : الأول ، توصيةٌ للنبيِّ ليستمر في دعوته غير عابئٍ بأقوالهم الظالمة . ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٢٩-٣٤)

وينتهي هنا القسم الأول بعد أن كشف من ظلمهم وطغيانهم ما يثير الحليم . وهو يتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ما داموا يتهمون النبيّ أنه تَقَوَّلَه . وفي هذا إهانةٌ لهم فوق التحدي . كأنه يقول لهم إذا كان تَقَوَّلَه وعجزتُم عن الإتيان بمثله فلستم نِدًّا له . فعلام التكبُّر عليه واتهامه بالكهانة أو الجنون؟ وإن كان الأمر كما تصفون فماذا تكونون أنتم؟ ردٌّ يناسب طغيانهم ؛ ولا يكون الطغيان إلا طوريًّا .

القسم الثَّاني تحقيرٌ لهم مقابل إظهار عظمة الله الخالق : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الطور:٣٥-٤٣)

وما كان هذا العدد من الأسئلة إلا لإبراز مدى انحرافاتهم العقدية وترهاتهم في وجه الدعوة . وكأنَّه يقول لهم ماذا تريدون بعد كلّ هذا لتؤمنوا ؟ قد تجاوز طغيانكم قمة الطور .

القسم الثَّالثَ تهديدهم بالعذابين وتطييب خاطر النبيّ : الآية (٤٤) تصف تبلد إحساسهم الذي أوردهم موارد الجهل والغباء ، فالعذاب يوشك أن يعلو رءوسهم ويظنونه نعمةً قادمةً . لذلك توصي الآية (٤٥) النبيّ بتركهم لضلالهم حتى يلاقوا يوم الحساب . وسيكون لهم عذابٌ دنيويٌّ مذلٌّ . نعلم لاحقا أنه هزيمتهم النكراء يوم بدر ﴿ **وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (الطور:٤٤-٤٧)

وتنتهي السُّورة بمناجاةٍ للنبيِّ فهو في عين الله ترعاه وترسم له خطاه إلى النصر ﷺ. فليواظب على الذِّكر عند مفاصل الليل والنهار . ﴿ **وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ** ﴾ (الطور:٤٨-٤٩)

مناجاةٌ وودٌّ يليق بمن تَحَمَّل طغيان قومه وتوحُّشُهم وجِدالُهم العقيم وهم يعلمون أنهم يفترون .

* * *

سورة النجم

النجم هي السُّورة الثَّالثَة والخمسون حسب ترتيب المصحف . وهي الوحيدة التي تشير إلى حادثة المعراج . وقبلها تحدثت عن زيارة جبريل الأولى للنبيِّ . لتخبر أهل مكة أن الله أرسل إليهم رسولاً منهم . وتدعوهم لعبادة الله وحده وترك آلهتهم المزعومة والتحرر من ترهاتهم التي تفسد عقيدتهم وعلاقتهم بربّهم الحقّ . الذي خلقهم ويرزقهم ويقدر على إهلاكهم لو شاء . وبيده أمر محاسبتهم في الآخرة . وعلاقتها باسمها هي معنى كلمة نجم . فهي بمعنى الطلوع والظهور . فهي تتحدث عن ظهور النبيّ في قومه . وهو نورٌ ينير حياتهم ويهديهم إلى ما فيه خيرهم كأنه نجم الثُّريا لمن يسير في ليل البادية .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها النجم ؛ ووردت كلمة النجم في الآية الأولى بمعنى الثُّريَا . وليس لورود الكلمة في السُّورة أعطيت اسمها بل لأن موضوعها يتحدث عن بزوغ أمر عظيم في حياة مكّة . ومن معاني النجم ظهور شيء جديد كطلوع السن أو ظهور أمر جديد . جاء في مقاييس اللغة للرازي : « النون والجيم والميم أصل صحيح يدل على طلوع أو ظهور . ونَجَم النجم طلع ، ونجم السن والقرن طلعا . والنجم : الثُّريا ، اسم لها ، وإذا قالوا طلع النجم فإنهم يريدونها » أي يقصدون بكلمة النجم إذا ذُكرت وحدها الثُّريا .

والأمر الذي طلع جديداً في حياة مكّة كان نبوَّة محمدٍ عليه السلام . وهي تشبه النجم بنورها وهم في ظلمات جهلهم . وهي أكثر من نجم في السماء . فهل علموا حين نزولها أن الدين الذي جاءهم به نبيُّهم سيكون أعظم أثراً من النجم في توجيه حياتهم؟ أسلوب السُّورة يوشك أن يقول لا . والسُّورة نجمٌ ينير حياتهم ويُصوِّب تصوراتهم الأصليَّة للحياة وعلاقة الإنسان بالله وبالملائكه .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

والنجم إذا هوى ! أشبه بتهديد موجه إلى أهل مكّة جميعاً مؤمِنهم وكافِرهم .

وسبق أن قلنا إن الله لا يخاطب المشركين إلا على سبيل الإهانة . وها هو يخاطبهم هنا مباشرة . ولكنه ليس خطاباً وديًّا بل هجوماً كاسحاً ، لترددهم بقبول الوحي ، ورفضهم اتباع نبيهم المرسل إليهم . وتقرع السورة رءوسهم وقلوبهم بتفنيد معتقداتهم وأسباب إحجامهم عن الإيمان . وتتحدث بود عن مصير المؤمنين يوم الحساب . لكنها تمر على ضعف بعضهم لِتُقَوِّمَهم دون مجاملة . فهي نجم ينير ظلمات ليلهم الذي يعيشون ، بتصوراتهم الخاطئة عن الله وملائكته ورسله .

نجَم أمرٌ عظيمٌ هو الوحي الجديد في حياتهم . نزل على رجلٍ منهم فما آمن معه إلا قليل ؛ واتهمه الكثير بالجنون والسحر والكهانة والأغراض الشخصية . فجاءت الآيات الأولى (١-١٢) تصف نزول الوحي أوَّل مرةٍ على النبيّ ؛ مصدقةً اسم السُّورة بمعنى الظهور أو الطلوع لأوَّل مرةٍ ﴿ **وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴾ (النجم:١-١٢).

المعراج : الباقة التالية (١٣-١٨) يليق بها أن تكون من مشاهد المعراج حيث اقترب النبيّ من حظيرة القدس ورأى من آيات ربّه الكبرى . فإن صح الظنُّ تكون هذه الباقة من الآيات قد نزلت لاحقاً وليس مع الفقرة السابقة لها ولا اللاحقة . لكنها ناسبت المكان عندما اكتملت السُّورة . ﴿ **وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ** ﴾ (النجم:١٣-١٨).

وعدم وجود هذه الفقرة مع السُّورة عندما واجه الله بها مشركي مكّة لا يؤثر في مضمونها لأن الفكرة السابقة لها تصف حالةً شبيهةً ؛ وإن كانت تتحدث عن حادثةٍ أخرى . وبالتالي سيكون الجو مهيأً للفقرة التالية (١٩-٢٣).

عقائد المشركين : مقابل الحقيقة الراسخة للقاء النبيّ وجبريل يسألهم الله ، مُبكتاً لهم ومُقرعاً ، إن كانوا قد رأوا آلهتهم المزعومة : ﴿ **أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنۡ**

هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ (النجم:١٩–٢٣)

بدأ الخطاب مباشراً للمشركين ولم يكن خطابَ تشريفٍ بل تقريعٍ وتسخيفٍ لعقيدتهم . ولما جاء دور ذكر حقيقة موضوعية وتوحي بالاهتمام اتجه الخطاب إلى النبيّ في الجملة الأخيرة من الآية (٢٣) وتحول الحديث من الخطاب إلى الحكاية عن غائب كي نعلم أن الله لا يغفل عن شيءٍ ولا يكرم أعداءه بنصف آيةٍ يمكن أن تبدو احتراماً لهم .

الرد على عقائدهم : الحديث موجهٌ للنبيِّ ليسمعه المؤمن والكافر ؛ وهو تفنيدٌ لأوهام المشركين في شفاعة الملائكة لهم : ﴿ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ (النجم:٢٤–٣٠)
وبهذه الآيات ينتهي التصور الجاهليُّ الخاطئُ للملائكة ودورِها في حياة البشر . وتحل محله الصورة الصحيحة . فالأمر كلّه لله . والملائكة لا تتدخل إلا بأمر الله وإذنه . كما أن الملائكة ليست إناثاً ولا هي بنات لله كما يظنُّ المشركون . ولكنهم كانوا قوماً جاهلين ولا عبرةَ فيما يقولون .

تصحيح تصورات المؤمنين : من آمن من هؤلاء الجاهليين قد يحتفظ ببعض التصورات الخاطئة عن العالم الآخر ؛ فتأتي الآيات التالية لتصحِّح تلك الموروثات الخاطئة : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم: ٣١-٤١). وهكذا بينت هذه الفقرةُ الأصلَ وهو أن الله مالكُ الأمر كلّه وسيجزي المسيئ بما أساء ويكافئ المحسنين بالحسنى . وحسابه سيكون رحيماً مثلما هو عادلٌ . فهو يعلم معاناة عباده في مقاومة الشهوات . لأنه الذي خلقهم من الأرض ويعلم خصائص الطين . ثم تتجه الآيات لتصويب انحرافٍ آخر من بقية الجاهلية . فقد كان بعضهم يظن أن باستطاعته أن يحيل ذنوبه على سواه مقابل مالٍ أو متاعٍ يدفعه له . وتردهم الآيةُ إلى أصل من أصول الحساب وهو أن لا أحدَ يحمل وزر سواه ولا أحد يستطيع شراء ذنوب غيره .

والرد على عقائد الجاهليين يكمله تصحيح تصورات المؤمنين ؛ كلاهما من مستلزمات العهد الجديد أو النجم الذي ظهر في سمائهم وحياً من الله؟

وحديثٌ للنبيِّ لشد أزره : بأربّعة عشر آية (٤٢-٥٥) يخاطب القرآن رسول الله مُعرفاً إياه بعظمة الله وقدرته على الكون وتسييره أمور البشر ؛ حتى ضَحِكَ إنسان أو بكاءه إنما هو بيد الله وأمره ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ (النجم: ٤٢-٥٥).

نداءٌ ختامي للمشركين : أشبه بالإنذار تأتي الباقةُ الأخيرة من السُّورة (٥٦-٦٢) لعلها توقظُ الغافلين من مشركي مكّة : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾(النجم: ٥٦-٦٢)

بهذا الختام ينتهي النداء الموجه لأهل مكّة بمناسبة ظهور نبيٍّ فيهم . وفي السُّورة البيان تلخيصٌ لقواعد الرسالة التي نجمت في حياتهم : نسفُ العقائد الفاسدة وأولها

عبادةُ الأصنام ، ومعها التصورات الخاطئة التي آمن بها أهل الجاهلية كظنهم أن لله بناتٍ وأن الملائكة إناثٌ وبناتٌ لله ، ومن ضلالهم الذي تنسفه السُّورة ظنهم أن الملائكة تشفع لهم عند الله ، وبينت حدودَ عمل الملائكة عموماً ، وعمل جبريل خصوصاً . ثم تُبين قدرةَ الله وطرفاً من ربوبيته للكون والبشر . وتبرز السُّورة أعظم فضيلتين وهما العفة والجود . وتبرز القانون الأساسي في محاسبة البشر على أعمالهم وهو المسئولية الفردية حيث لا تزر وازرةٌ وزر أخرى . وتؤكد إمكانية العذاب الشامل الدنيوي للأقوام التي تصر على رفض النُّبُوَّة والرسالة الموجَّهة إليها . هذا هو النجم الذي نَجَمَ في حياتهم لينير ظلمات عقولهم ، وهذا هو خبره . فهي سورةٌ عرفانية تهدف إلى تصحيح تصورات القوم .

* * *

سورة القمر

السُّورة الرابعة والخمسون حسب ترتيب المصحف . يوحي أسلوبها وموضوعها أنها من أواخر السور المكية . فليس فيها حوارٌ بل تهديدٌ بالعذاب . ومقابل التهديد يأتي قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ ؟ التي تكررت في السُّورة بضع مراتٍ . فهي تضعهم أمام خيارين لا ثالثَ لهم : اتباع القرآن أو القضاء المبرم عليهم كما حدث مع أشباههم من أممٍ بائدة . ولذلك اختار الله تعالى اسم القمر عنوانا للسورة . لكنه بمعنى القَمْر بسكون الميم ليكون بمعنى المفاضلة . والمفاضلة في السُّورة بين المصيرين المذكورين . فإن اختاروا القرآن وانضموا للنبيِّ والمؤمنين معه فلهم الودُّ ونُزُلٌ في ضيافة مليكٍ مقتدر .

عنوان السُّورة وموضوعها :

أوتيت السُّورة اسمها ككلمة القمر الموجودة في آيتها الأولى . وقصد بقمر الآية الأولى القمر المعروف ، الجرم السماوي التابع للأرض . ولكن الكلمة استعملت عنوانا للسورة بمعنى آخر . فكلمة قمر واسعة المعنى . والمعنى الذي يهمنا هنا ما أوردته معظم معاجم اللغة وهو المفاضلة كنوع من المقارنة . جاء في تاج العروس : « قامَرْتُهُ فقَمَرْتُه أَقْمُرُه بالضَّمّ قَمْراً إذا فاخَرْتَه عليه فَغلبْتَه » وفي صحاح اللغة : « وقامَرْتُهُ فَقَمَرْتُهُ أقْمُرُهُ قَمْراً ،إذا فاخرتَه فيه فغلبتَه ». وفي أساس البلاغة للزمخشري : « قمرته : غلبته »

ويقول عمر بن أبي ربيعة : « قمَرَتْه فؤادَه أختُ رِئمٍ ذاتُ دَلٍّ خَريدةٍ مِعطارِ ». وقمرته فؤاده غلبته على فؤاده .

وهذا المعنى للفعل قَمَر قريب من اشتقاق المقامرة منه حيث يتفاضل المقامرون ليفوز أمهرهم .

وسورة القمر تفاضل بين تصورات مشركي مكّة العقدية ومصيرهم إن ثبتوا عليها من جهة ، وبين ما يدعوهم إليه النبيّ . ولعلها من أشد سور القرآن تهديداً لهم . والاكتفاء بتذكيرهم أن في القرآن من العظة ما يكفي .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تبدأ السُّورة بعرض قضية النبيّ مع مشركي مكّة . فهم يطلبون آيةً ماديةً متجاهلين ما في القرآن من الإعجاز والمعجزات . ويرد عليهم ردًّا حازماً مُكذِّباً لهم في مطلبهم . فهم لا يقصدون الإيمان ولن يؤمنوا بآيةٍ تكسر أعناقهم ؛ لكنها ذرائع للبقاء على كفرهم : ﴿ **ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ** ﴾(القمر:١-٥).

وظن مفسرون ، بناء على أحاديثَ غيرِ صحيحةٍ ، أن القمر انشق تلبيةً لطلب قريشٍ معجزةً مع النبيّ . وهذا ما لا يفيده النص . بل النص ينفي إنزال آيةٍ لقريشٍ غير القرآن المعجز بصياغته ، والمليء بالأخبار التي لم تعرفها العرب من قبل . فهي غيبٌ حجبه الزَّمن عنهم. إنما معنى الآية أن القمر سينشق علامةً على اقتراب الساعة. ثم تأتي الآيةُ الثَّانية لتؤكد أن طلبَ الآية ذريعةٌ لكفرهم ، ولن يؤمنوا على أساسها . وتؤكد الآية أن الله لم ينزل معجزةً غير القرآن . فلو حدثت معجزةُ انشقاق القمر لاختلفت صياغة الآية الثَّانية . ولا لزوم لعرضها بصيغة المستقبل كفرضية . لأنها عند ذلك تكون حقيقةً واقعة . ثم تواصل الآية الثَّانية وتتبعها الثَّالثَة بعرض موقفهم من الإسلام وهو التكذيب ، واتباع أهوائهم واتهام نبيِّهم بالسحر . وتردُّ على ذرائعهم بأن القرآن جاءهم بأنباءٍ تكفي لزجرهم ، وفيه من الحكمة ما يكفي ومع هذا لم تنفعهم النذر . ولتهديدهم وإنذارهم تواصل السُّورة المفاضلة بين معتقداتهم وبين ما يدعوهم إليه الله ، وتضرب لهم أمثلةً بما حدث لغيرهم من الأمم التي عصت الله قبلهم .

التهديد الأكبر : يأتي التهديد الأكبر عندما تخبر الآية السادسة النبيّ بأنه سيدير ظهره لهم عندما يأتي يوم البعث والنشور فيحرمون بركته وشفاعته : ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ** ﴾ (القمر:٦-٨)

وتواصل الآيات وصفهم يوم البعث بالذلِّ والانكسار ، وكأنهم جرادٌ ، وقد تخلى عنهم كلّ ما كانوا يتفاخرون به في الحياة الدنيا ويتكبرون به على النبيّ والمؤمنين

معه . وبكامل وعيهم يعترفون أنه يومٌ صعبٌ بما قدموا له . ويأتي تولي النبيّ عنهم يومها ردًّا مقابلاً لإعراضهم عنه وعن دعوته في الحياة الدنيا .

نماذج من مصائر أمم سابقة :

قوم نوح : تعرض الآياتُ (٩-١٦) قصةَ قوم نوحٍ إذ كذَّبوا رسولَهم وقالوا مجنون ، وتعرضوا له بالزَّجر والسبِّ . فدعا عليهم فكان الطوفان الذي طهَّر الأرض منهم . ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ** ﴾

(القمر:٩-١٦)

ثم تقول لهم السُّورة ضمنا : أمثلُ هذا المصير أفضل أم ما يسرناه لكم في القرآن؟ وهي الآية التي ترد ختاماً لكلّ مثلٍ مما حدث للأمم المُكَذِّبة . ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (القمر:١٧)

عاد : أرسل الله لعادٍ هوداً فكذبت رسولها كما فعلت قريش فماذا استحقّوا ؟ هذا ما تصفه الآيات (١٨-٢١) . ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ** ﴾ (القمر:١٨-٢١) إنه وصفٌ لعذابٍ موجعٍ ومذلٍّ لذلك انتهى بالسؤال لقريش « كيف كان عذابي ونذر؟ » أيعجبكم هذا؟ وهل هو خير أم ما في القرآن من ذكر وهدى؟ ثم تأتي الآية اللازمة لتؤزهم أزًّا ، عسى أن يعودوا لما أنعم الله به عليهم ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (القمر:٢٢)

ثمود : قصة ثمودَ مختلفةٌ وأشدُّ إرعاباً لقريش . فقد قالوا عن رسولهم مثل ما تقول قريشٌ عن رسولها . ومثلهم طلبوا آيةً . وبدل أن يؤمنوا ازدادوا كفراً رغم قوة الآية التي جاءتهم . فقتلوا الآية الناقة . فاستحقّوا القضاء عليهم بصيحةٍ مزقت أسماعهم ورءوسهم وقلوبهم ؛ فسقطوا كهشيم الزَّرع الجاف الذي تدوسه الحيوانات . ثم تسأل الآيات كفار قريشٍ عن رأيهم بمثل هذا العذاب؟ هل يتعظون ويعودون للكتاب الذي أنزله الله لهم نعمةً وذكراً؟ ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ**

﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ (القمر:٢٣-٣١)

والسؤال الضمني : أيهما خير وأيهما أفضل مثل هذا المصير أم اتباع القرآن؟ ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ (القمر:٣٢) . وقصة هلاك ثمود مَثَلٌ من سنة الله في الأمم التي تستمر في عصيانها بعد أن ينزل الله لها آيةً ماديةً . فلو انشق القمر ورأته قريش وبقيت على شركها لأخذها الله بعقابٍ يستأصلُها كما أخذ ثمود .

قوم لوطٍ : مثلٌ رابعٌ من الشعوب التي عصت أمر ربِّها وكذبت رسولها وبالغت في الفحش ؛ فأمطرتهم السماء بحجارةٍ تناسب شدة فسقهم . وتبرز الآيات نعمة الله على من أطاعه من آل لوطٍ . وأن يهلك الله شعباً بحاله وينجي بيتاً منه : ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر:٣٣-٣٧)

وتُذكِّر الآيات بمماراة قومِ لوطٍ بالنُّذر التي تحقّقت . وها هي قريشٌ تماري رسولها بالوعيد . فهل تنتظر مثلما جاءَ قومَ لوطٍ ، أم يعودون للقرآن الذي يسره الله لمن يدكر : ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ (القمر:١٧)

فرعون وجنوده : تعرض الآيتان (٤١،٤٢) باختصار مصير فرعون وآله . فقد جاءهم نذيرٌ فكذبوا فأهلكهم الله ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ (القمر: ٤١-٤٢)

عذابان بانتظار المشركين : تنتقل الآيات إلى كفار مكّة بتهديدٍ مليءٍ بالتهكم والاستصغار لهم . ثم يخاطب اللهُ النبيّ بشأنهم . ويخبره بالهزيمة التي تنتظرهم . ونعلم لاحقاً أنها هزيمة بدر ، وأن الساعة ستكون موعد عذابٍ آخر أشدُّ وأبقى . وتتحدث الآيتان (٤٧-٤٨) عنهم بقسوةٍ ، واصفةً ما سيلاقون من سعير وهوان . وتذكرهم الآية (٥١) أن الله أهلك أشباههم بالكفر فماذا ينتظرون إن لم يعودوا إلى القرآن والنبيّ؟ ﴿ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ

جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ (القمر:٤٣-٥٣) .

فليس أمامهم مجالٌ للنجاة فكلّ ما فعلوه مسجلٌ والأمر كلّه لله؟ وهكذا تخلو الآيةُ من الوعظ العادي أو محاولة الإقناع بالحسنى . فقد انتهت فرصتُهم ولم يبق سوى التخويف والتهديد بمثل مصائر العُصاة أمثالهم من الشعوب الدارسة . وتحافظ السُّورة على جوِّ المقارنة والمفاضلة مع الشعوب التي غضب الله عليها التزاماً بعنوان السُّورة « القمر » بمعنى المفاضلة .

وتُختم السُّورة بالوجه الآخر للذين أطاعوا الله واتبعوا النبيّ وباختصار يليق بجوِّ سورةٍ مشغولةٍ بالتهديد . وبكلّ ما تطيقه اللغة من الحزم وحسن المصير تذكر الآيتان الأخيرتان خاتمة المتقين **﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾** (القمر:٥٤،٥٥)

كلام مختصرٌ لكنه مليءٌ بطاقة الاحترام والإكرام؟ ألا يكفي أنهم سيكونون ضيوف المليك المقتدر؟ أليس هذا أفضل من مثل مصائر قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم لوطٍ وفرعونَ وآلِه؟ هذه هي المفاضلة التي حرصت عليها سورة القمر لتستحقّ اسمها وهي تقمُر أهل مكّة ، المشركين منهم .

* * *

سورة الرحمن

السُّورة الخامسة والخمسون حسب ترتيب المصحف . وأغلب الظن أنها نزلت في أواخر العهد المكي . أعطاها الله تعالى عنواناً من اسمه الجليل «الرحمن» . والرحمن ، صفة الله باعتباره ربّاً للكون كلّه ، وما فيه من خلقٍ عاقلٍ وغير عاقلٍ . وهي صيغة مبالغةٍ من الرحمة . لذلك وسعت رحمة الرحمن كلّ خلقه مؤمنَهم وكافرَهم ؛ والرحمن صفةٌ خاصةٌ بالله لا تجوز لغيره . . «الرحمن !» ملأت الآيةَ الأولى من السُّورة لتملأ السموات وهي تتنزل أوَّل مرة . الرحمنُ تهم كلّ كائنٍ . وتبعث الأمل في القلوب وتحيلها لينةً رحيمة . ولكن العرب سكانَ البيئةِ الجافةِ لا يستطيعون استقبالَ رسالةِ الرحمةِ خوفاً على رزقهم . فتصف السُّورة وجوه رحمة الله عطاءً يكفيهم رزقاً كريماً لتقوم حياتهم به طعاماً وشراباً وكساءً ومتعةً وجمالاً ووسائلَ نقلٍ .

وتتحدث السُّورة عن إنزال الميزان لتقوم علاقات الناس بالعدل ، وأُنزِلَ القرآنُ هادياً لسلوكهم .

تقول السُّورة إحدى وثلاثين مرة : ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ . ولا مثيل لهذه الظاهرة في القرآن . تدور السُّورة كلّها حول مظاهر من رحمة الله بالخلق . وأقوى طلب تطلبه السُّورة هو العدل والتزام الميزان في التعامل بين الناس . والميزان لازمٌ لكلّ كلمة وكلّ سلوكٍ وليس للبيع والشراء والقسمة فقط . ولأن تحدي العدل والرزق كبيرٌ في بيئةٍ جافةٍ قليلة الموارد يتحارب أهلها على الماء والكلأ ، فقد شغلت مكافأةُ الذين ينتصرون على التحدي ويخافون ربّهم حوالي أربعين في المائة من مساحة السُّورة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الرحمن وهي الكلمة الأولى في السُّورة . وسميت بهذا الاسم لأن السُّورة تعرض وجوه رحمة الله بالكون وما فيه ومن فيه . وهي معنية بأنواع الرحمة الأساسيَّة والضرورية لحياة الأحياء . والرحمن من المادة اللغوية «رحم» وعنها يقول الرازي

في مقاييس اللغة : «الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة . يقال من ذلك : رَحِمَه يَرْحَمُه ، إذا رق له وتعطف عليه ، . . ثم سميت رَحِمُ الأنثى رَحِماً لأن منها ما يُرحَم ويُرَقُّ له من ولد .» ولم تأت المراجع بمعنى مختلف عن هذا .

وتعرض السُّورة ما أنعم الله به على خلقه رحمةً بهم ، ليجعل حياتهم سهلةً وجميلةً وقائمةً بالعدل وبما يلزم لتخلو من العنت والشقاء . ومع هذا منهم من ينكر ويكفر فينال عقابه كمجرمٍ! ومن يتق ربّه يُكافأ بجنتين . وهذه رحمةٌ أخرى في الدار الآخرة . فموضوع السُّورة وجوُّها رحمة الله بالناس في الدنيا ، ومنها القرآن والميزان . ومحاسبتهم على أساسها في الآخرة . فهي سورة الرحمات التي لا يُستغنى عنها . لذلك يَتبُع كلّ واحدةٍ منها السؤال الاستنكاري« فبأيِّ آلاءِ ربّكما تكذبان» . ومعنى تكذبان هنا ترفضان النعمة المذكورة أو تقدران العيش بدونها . وسنرى تفصيلات هذه الحقيقة في فقرة تحليل السُّورة .

تحليل السور على ضوء عنوانها :

«الرحمن» هذه هي الآية الأولى . اسم الله الرحمن . ولا مزيد . ولِوَضعها بهذه الصيغة فوائد . فهي إعلانٌ عن ذاته العلية بصفته الرحمن ؛ ولكن الوقوف عندها يثير انفعال السامع . فكأنَّه يقول إنه الرحمن ؛ فتأملوا وتفكروا برحمته الواسعة! فالرحمن صيغة مبالغة من الرحمة . وهي رحمةٌ تشمل الخلق كلّه : الكون وما فيه مِن جمادٍ ومِن حيٍّ . وبعد كلمة الرحمن عددٌ من نعمه الأساسيَّة . ولو ذَكَرَت الآيةُ مع كلمة الرحمن أي نعمةٍ مما جاء في السُّورة لكان التركيز عليها دون الرحمة . ولكنها اكتفت بالرحمة التي كانت سبباً في انبثاق بقية النعم وكلّ منها رحمةٌ من الله بخلقه .

وللتعمق بفكرة السُّورة نقسمها إلى رأس وجسد . فالرأس هو الآيات الثَّلاث عشرة الأُول . ﴿ **ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ (الرحمن: ١-١٣)

ومما يلفت الانتباه بعد إفراد اسم الرحمن بآيةٍ ، أن يكون تعليم القرآن هو الآية الثَّانية ، وليس خلقَ الإنسان أو خلق الكون أو شيءٍ منه كالأرض أو السماء . إذن فهي لا تتحدث عن الجنس البشري . بل تبدأ من القرآن . ولهذا عندي معنى واحدٌ هو أن الأمور تُعرض ضمن الرسالة التي أُنزلت على النبيّ ليبلغها قومه . فالقرآن هو أعظم رحمةٍ أنعم الله بها على العرب بلغتهم . فجاز أن يكون هو البداية . ويأتي بعدها خلق الإنسان المخاطب به . والله خلق الناس جميعاً لكن سلالةً من الناس تلقت رحمةً خاصةً بهذا القرآن . وتظهر الآية التالية (٤) وجهاً من وجوه تلك الرحمة وهي (علَّمَه البَيان) . وهو فصاحة القول ووضوح النطق . ولذلك تسمى الناس هنا عرباً من العِرابة ، وهي الفصاحة والوضوح . كوضوح الصحراء التي سُميت عربة لانكشافها للناظر . وفي مقاييس اللغة للرازي« العين والراء والباء أصول ثلاثة أحدها الإبانة والإفصاح» . فالإنسان المقصود هنا هو الإنسان العربي الذي أنعم الله عليه بملكة البيان . وبعدها تصف كلّ آيةٍ في الأطروحة نعمةً من الرحمن بالأمة المخاطبة بالقرآن. ومن ذلك ذكر الميزان ثلاث مرات في الأطروحة . وهو ما لم يحدث مثله في القرآن ولا يهتدي لمثله عقل إنسان . ولا يجرؤ على فعله واضع أطروحة من البشر . ولكنه يرد في القرآن لحاجة المخاطبين الشديدة لهذا التذكير . لأن العرب ، بسبب فقر بيئتهم ، لا يحبون الميزان ، ولهم رغبة جامحة وقدرة فائقة في الاحتيال على مقاييس الحقّ والعدل . وما بعد هذا ، فنعم تتعلق بتسهيل الحياة والرزق والجمال . فبأي آلاء ربّكما تكذبان؟ فكلّ ما في السُّورة يذكر المخاطبين بأمثلة من رحمة الله بهم .

المخاطبون بالسُّورة : في السُّورة آيتان تخاطبان رسول الله بوضوح هما (٢٧ ، ٧٨) . وبناءً على منهج القرآن في الخطاب تكون السُّورة موجهةً للنبيِّ ليقرأها على مسامع قومه . ولا مانع أن يكون بعض آياتها خطاباً مباشراً للمشركين لما فيها من التقريع والتبكيت (٣١ ، ٣٣ ، ٣٥) . ومن عادة القرآن أن يخاطب المشركين مباشرةً بمثل هذا . والسُّورة تأتي بصيغة المثنى ويظن غالبية علماء القرآن أن نداء المثنى بقوله تعالى ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ (الرحمن:١٣) موجَّه للإنس والجن معاً وأنهما المقصودان بخطاب المثنى . ولم يعتبروا التقليد العربي باستعمال هذا الخطاب في الشعر دون أن يُقصد به المثنى . كقولهم « خليلي .. » أو قفا نبك..

« ومثل هذا كثير في الشعر الجاهلي . ودليلي أن المرة الأولى التي وردت بها الآية (١٣) لم يكن ذكر الجن قد ورد بعد . وكلّ النعم المذكورة قبلها ليس مما يحتاجه الجن أو يهتمون به . وفي مراتٍ كثيرةٍ ورد السؤال بعد عذابٍ أو نِقَمٍ أو تهديدٍ لإنس وجنٍّ . وبالتالي لا يوجد نعمٌ يسألهما عنها . إنما النعم هنا للمؤمنين إذ يكون تنفيذ العدل نعمةً عليهم . وهم لا يُكَذِّبون ولاينكرون لكن ليزدادوا شعوراً بآلاء الله . فالتكذيب بالنعمة يعني عدم استعمالها أو رفضَها ؛ وهذا مستحيل مع النعم المذكورة . وبالتالي فالسؤال ليس تقريعاً ولا فيه إهانةٌ بل هو استفهام تقريري كما يقول جلال الدين المحلي في تفسير الجلالين . وبذا تكون هذه الآية موجهةً للنبيِّ وللمؤمنين .

وكان لجمع الجنِّ مع الإنس في السُّورة فائدةٌ هامةٌ . فهي ردٌّ عمليٌّ على ظن بعض أهل الجزيرة أن للجنِّ قدراتٍ إلهيةٍ لدرجة أنهم يوحون للشعراء بأبدع القصيد حسب الثَّقافة الجاهلية . فهاهم يخاطبون بنفس القسوة والتقريع كالمشركين . فإن كان لهم كيدٌ أو بهم قوةٌ كما يظن المشركون فليؤذوا الرسول . الذي يحمل إليهم هذه الرسالة العنيفة المليئة بالتهديد . وكان بعض العرب يظنُّ أن للجِنَّة نسباً مع الله وأن لهم قدراتٍ فائقةً لقدرات البشر كالاطلاع على أخبار السماء . وكان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنِّ . فتأتي السُّورة ردّاً عملياً على كلّ هذا . أي أن ذِكرَ الجنِّ يصَوب تصوراتٍ خاطئةٍ راسخةٍ بالثَّقافة العربيَّة الجاهلية .

المنن الإلهية : السُّورة من أواخر سور العهد المكي . فتُذكَر المنن ليستجيب المؤمنون بالشكر . ولتكون تقريعاً للمنكرين ؛ عسى أن يعود مشركو مكّة إلى عبادة ربّهم أو يختاروا جهنم بإرادةٍ عنيدةٍ .

تبدأ بمنة خلق الإنس من طينٍ وخلق الجنِّ من نارٍ . ثم منة ربوبية الله بحركة الكون ليكون فيه معالم زمنية تلون حياة الناس ، وتهديهم وتعينهم على العيش براحةٍ ووفق نظام . ثم نعمة الله بالماء العذب حتى في وسط البحر المالح ، كي يتمكنوا من السفر الطويل في البحر دون خوف الموت عطشاً ؛ وكمعجزةٍ لا يقدر عليها إلا الله . وجعل لهم في البحر حليةً تزيد حياتهم جمالاً ومتعةً كاللؤلؤ والمرجان . وهداهم لاستعمال البحر في السفر ، وأجرى الفلك فيه بريحٍ لينةٍ . فهل قدَّروا هذه النعم . أم كذبوا بآلائه؟ ﴿ **خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن**

نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:١٤-٢٥) . وليس في هذه النعم ما يهم الجن . وليس فيها نعمةٌ يستطيع الإنسان أن يستغني عنها أو يعيش بدونها .

خطابٌ للنبيِّ : يتجه الخطاب إلى النبيّ عندما يتعلق الأمر بنهاية العالمين ويبقى وجه الله ذو الجلال والإكرام . ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:٢٦-٢٨) . وهي في هذا الموقع دليلٌ على أنها للمؤمنين وهم لا يكذبون ولا ينكرون لكنها صيغةٌ لتأكيد النعم التي لا يمكن إنكارها ومنها أحداث الساعة .

التحدي ونهاية المنكرين : إنه اللهُ الربّ الحقّ يدير أمر خلقه جميعاً فرداً فرداً ، وعلى مدار الوقت لا يغفل عن شيءٍ من أمر أحدٍ من خلقه . ثم يهدد الجنَّ والإنس بأن حسابهم آتٍ إلى آخر ما في الفقرة من تهديدات . . ومع كلّ تهديدٍ جديدٍ تذكيرٌ للمؤمنين بنعم الله ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:٣١-٤٥) . وجهنم التي وعِد بها المجرمون ليست نعمةً عليهم . ولكنها رحمةٌ بغيرهم وفق العدل . فالعدل الذي حكم به هو النعمة على الكون والخلق والمؤمنين . حتى لو قاسى الداخرون في جهنم . فمع التهديد للجنِّ والإنس أن الله سيفرغ لحسابهم لا يكون التذكير بآلاء الله لهم ، بل لمن يشمت بهم ويَشفَى غليلُه .

مصير المتقين : المتقون على درجتين حسب الآيات ولأصحاب كلّ درجة ما يناسب مستواهم من النعيم . ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ** ﴾ (الرحمن:٤٦-٦٠)

نِعَم حقيقية تستحقّ كلّ واحدةٍ منها تذكيراً بآلاء الله ثم ختمت بقوله تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟

مصير الفئة الثَّانية من المتقين : وما أعد لها من النعيم على عظمته دون ما كان للفئة الأولى : ﴿ **وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ** ﴾ (الرحمن:٦٢-٧٦)

وبذا يستغرق وصف مصير المتقين في الآخرة حوالي ٤٠٪ من مساحة السُّورة . وهذا الجزاء الكريم رحمة بالذين أدركوا رحمة الله واعترفوا بها وشكروها بسلوكهم .

وأخيراً يقول الله لنبيه مؤكداً أنه على الجانب الصحيح والرهان الفائز ﴿ **تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ** ﴾ (الرحمن:٧٨) .

* * *

سورة الواقعة

الواقعة هي السُّورة السادسة والخمسون حسب ترتيب المصحف. عنوانها الواقعة. وهي كلمة كثيرة المعاني. واستعملت هنا بمعنى يوم القيامة. وما يكون فيه مما يتفق مع معاني مادة «وقع» كما استعملتها العرب قبل نزول القرآن. وتأتي السُّورة واضحة الاسم والموضوع. تصف أحداث يوم القيامة. ومصائر المخاطبين يوم القيامة حسب ما قدموا في حياتهم من حيث قبولهم أو رفضهم للنبيِّ، والتخلي عن شركهم وطاعة الله في أمرهم. وتتضمن فقرةً في وعظهم وتذكيرهم بفضل الله عليهم. وتتوجه للنبيِّ بالتثبيت والدعم لموقفه.

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

عنوانها الواقعة وقد استعملت في الآية الأولى بمعني يوم القيامة. وسجلت معاجم اللغة معانٍ أخرى لمادة «وقع» لكنها جميعاً لا تبتعد عن النهاية الحتمية، وهي يوم القيامة وما فيه من مصير نهائيّ للبشر. فقد جاء في مفردات القرآن للراغب الأصبهاني «الوُقُوعُ: ثبوتُ الشيء ووُقُوعُ القولِ: حصول متضمنه». وفي الصحاح في اللغة: «الواقِعَةُ: القيامةُ. ومَواقِعُ الغيثِ: مساقطه».

من هنا نخرج أن أجواء كلمة واقعة أو مادة «وقع» تدور حول وصول شيءٍ أو أمرٍ إلى مستقره كما توحي بالوجوب والثَّبات. وكلّ هذه المعاني موجودة في السُّورة فهي تعني يوم القيامة وفيه يكون يوم الحساب الواجب، وفيها النتائج النهائية لرحلة حياة كلّ إنسان. وعلى ضوء ما فيها من حساب يتقرر المستقر النهائي لكلّ إنسان على ما قدم كي لا تكون الحياة عبثاً. وقد توسعت السُّورة بوصف مستقر الناس أو مواقعهم النهائية. فهم فئاتٌ ثلاثٌ توزعوا عليها وهم: السابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

ومعظم السُّورة وصفٌ لأحداث الساعة وما يترتب عليها. وكان وصف مصير الفئات المذكورة في السُّورة ومشاهد نعيم الجنة وعذاب النار واعظاً مؤثراً لمن كان له قلب ولمن يصدق الحديث. ومن أجل دفعهم للتصديق جاءت آيات تذكرهم بقدرة الله عليهم وما يُقدِّم لهم وما يستطيع أن يَفعَل لهم وبهم.

أحداث الساعة : تصفها الآيات الأولى من السُّورة لتكون هي القاعدة التي تنطلق منها السُّورة ، ولتصنع بنبرتها العالية ومفرداتها القويّة وآياتها القصيرة الحاسمة ، لتصنع الأثر المطلوب وتوقظ النيام كي يصحوا .

﴿ **إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا** ﴾ (الواقعة: ١-٦)

ستقع الواقعة يقيناً فتخفض وترفع بناءً على ما كسب الناس واكتسبوا . وهذا ما تبيِّنه آياتٌ تاليةٌ . ولكن آيات المقدمة هذه تضع السامع في جو صدمةٍ وتجبره على أن يصحو من غفلته عندما يتخيلُ الجبالَ الرواسي هباءً منبثًّا والأرضَ ترتجُ تحت قدميه .

أصناف البشر من زاوية الحساب والجزاء : حسب الآيات هم أصنافٌ ثلاثة : المقربون وأصحابُ اليمين وأصحابُ الشمال ، ولكلّ منهم مصيرٌ موصوفٌ يستغرق معاً معظم السُّورة : ﴿ **وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ** ﴾ (الواقعة:٧-١١) ثم تنتقل الآيات بالرشاقة القرآنية المعهودة إلى مصير كلّ فريق . وكالعادة يبدأ العرض بمن ذُكِر آخراً وهم المقربون :

مصير المقربين : هم الأفضل ومصيرهم هو الأعلى درجةً والأعظم نعيماً . فكيف يكون؟ ﴿ **فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا** ﴾(الواقعة:١٢-٢٦)

وربّما فُتن بعض الناس بهذه المفردات الحسية والأمور المشابهة لنعيم الدنيا . ولكن الأمر ليس كذلك . فحاشا لله أن يجعل أعظم نعيمه لحم طير وفاكهة . ولكنه تقريب دنيوي لنعيمٍ تعجز كلمات اللغة عن وصفه حقّاً ، وهي التي نشأت أصلاً لوصف أشياءٍ ماديةٍ أو تمييزها عن سواها . ولكن ما أعده الله لعباده المؤمنين هو

مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ . وقد يؤتون به معادلاً في قيمته الروحية بالنسبة لوضعه وزمانه ومكانه معادلاً لمفردات النعيم المادي عند أهل الدنيا .

مصير أهل اليمين : لا يحتاج القارئ للتدقيق ليجد الفرق بين نعيم أهل اليمين وبين نعيم سابقيهم من المقربين . ولعل طريقة التقديم ومستوى المقدَّم أبرز اختلاف بين المنزلتين . ﴿ **وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ** ﴾(الواقعة:٢٧-٤٠). وأنتهز فرصة آيات هذه الفئة لأذكر أن الحور العين منشآت خلقاً جديداً ولا علاقة لهن بنساء الدنيا .

مصير أصحاب الشِّمال : مصير مشئوم ؛ ونعرف كم أنكروا من نعم الله واساءوا استخدامها ، وكم أعرضوا عن معرفة الله وحقّه عليهم ربًّا منعِماً ، وأنكروا البعث والحساب حتى وجدوه . ﴿ **وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ** ﴾ (الواقعة:٤١-٤٨)

ويلتفت الكلام إلى رسول الله ليردُّ عليهم في الحياة الدنيا ﴿ **قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ** ﴾ (الواقعة:٤٩-٥٦)

تذكير بقدرة الله : تُذكِّر الآيات (٥٧-٧٣) بقدرة الله على المخاطبين وما يُنعم به عليهم من أساسيَّات حياتهم . ﴿ **نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ**

فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (الواقعة:٥٧-٧٤)

وبذا هددتهم الآيات بأسس حياتهم : التكاثر والذرية ، والموت الفردي والفناء الجماعي والطعام (الزَّرع) والماء والنار . بدون هذه لا تقوم حياة لفردٍ ولا لمجتمعٍ! وتأتي الآيةُ الأخيرةُ في هذه الفقرة (٧٤) موجهةً للنبيِّ لنعلم أن الخطاب كلّه من خلاله وليس مباشراً لمشركي مكّة .

القرآن : بثماني آياتٍ يردُّ على بهتانهم وعدم تصديقهم أن القرآن من عند الله ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة:٧٥-٨٢)

لحظة الموت : زيادةً في تهديدهم وإثارتهم ، وكي لا يطمئنوا بسبب بُعْدِ يوم القيامة ، تأتي الآياتُ الأخيرة من السُّورة لتنذرهم بما هو أشدُّ ، فالعذاب والإهانة يبدآن من لحظة الموت : ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (الواقعة:٨٣-٩٤)

فمنذ لحظة الموت يكون استقبالٌ نَكِدٌ للمكذبين بالقرآن والرسالة . وبالمقابل روحٌ وريحان للمقربين وسلامٌ لأهل اليمين ختاماً كريماً لحياة التقوى وتصديقِ النبيّ والقرآن .

وبذا تتحدث السُّورة عن كلّ النهايات التي تهم الإنسان . نهايته الدنيوية ثم نهاية حياة الأرض ومن عليها يوم القيامة ، ثم نهاية الحساب والمستقر النهائيِّ في الجنة

أو النار . وفي إشارةِ السورة للقرآن جاءت بعد قسم بمواقع النجوم في السماء وجعلته خبراً حاسماً وواقعاً ثابتاً ، فهو قرآنٌ كريمٌ في كتابٍ مكنونٍ لا يمسُّه إلا الملائكة المطهرون . ومثل هذا في الحزم عملية التكاثر والنسل وإدارة رزق العباد وكلاهما منضبطةٌ تماماً بإرادة الله . فهي سورة الثَّوابت في الدنيا والنتائج النهائية في الآخرة . وسورة الواقعة والموقع النهائيِّ لكلّ إنسانٍ ؛ وكلاَ الأمرين مما يتفق مع عنوان السُّورة . فهي سورةٌ عرفانيةٌ بلهجةٍ وعظيةٍ شديدةٍ .

يقين : وتختتم السُّورة بتأكيد أن كلّ ما في السُّورة هو حقّ اليقين ويكون هذا التأكيد للنبيِّ تثبيتاً له وإسعاداً لقلبه بما يحزن من كفر قومه﴿ **إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ (الواقعة:٩٥،٩٦) . والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

سورة الحديد

السُّورة السابعة والخمسون حسب ترتيب المصحف . وهي مدنيةٌ بلا خلاف ؛ وكلّ آيةٍ فيها تصرح بذلك . اسمها الحديد . وهو يشبه لفظاً ورسماً الكلمة الواردة في الآية الخامسة والعشرين . ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (الحديد:٢٥). وكلمة الحديد وردت في الآية لتعني المعدن الصلب الذي يستعمل في صنع السلاح وفي ما يحتاج لقوةٍ وصلابةٍ . ولكنها في السُّورة استعملت بمعنى تقوية المجتمع المؤمن وجعله صلباً منيعاً ! وقد يكون استعمال السلاح الحديدي بعض أوجه القوّة المطلوبة. لكن السُّورة تحث على تحرير المجتمع من الترهل والانقسام والبخل ومن كلّ قيم الضعف ؛ كي يمتلك أسباب القوّة قيماً وسلوكاً . ثم يسهل عليه بعدها استعمال السلاح للجهاد دون كرامته وحقّه .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها الحديد . ومن معاني الحديد كما جاء في مقاييس اللغة للرازي : «الحاء والدال أصلان : الأول المنع ، والثَّاني طرف الشيء . فالحد : الحاجز بين الشيئين ، وفلان محدود إذا كان ممنوعاً . . . . وأما الأصل الآخر فقولهم حد السيف وهو حرفه ، وحد السكين ؛ وحد الشراب صلابته».

وفي اللسان : «ومنتهى كلّ شيء حده . . . وحد كلّ شيء طرف شباته كحد السكين والسيف والسنان والسهم . . . وحد الخمر والشراب صلابتها».

وبالتمعن في موضوع السُّورة نجدها كمن «حدَّ سلاحه» بمعنى رقق شفرته : فهي تدعو المجتمع المؤمن لمزيد من الصلابة والمنعة والإنفاق في سبيل الله . فبالإنفاق يمتلك المجتمع القدرة على دفع العدوّ بأسلحةٍ حادةٍ ، ويتجنب الترهُّل الناتج عن الاستمتاع بالرزق دون اعتبار حاجة الفقراء منه وحقّ المجتمع فيه . فهذه من حَدِّ المجتمع المؤمن وصقله . وكذلك فيها حدٌّ بمعنى الفصل بين شيئين عندما

تضع أسساً لتمييز المؤمن من الفاسق في الحياة الدنيا . ووضع حدٍّ فاصل بين أهل الجنة وبين المنافقين في النار بسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ويأتي الحدُّ هنا موعظةً لحَدِّ المجتمع بمعنى زيادة صلابته عندما يحذر مصير المنافقين .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بمقدمةٍ واسعة المعنى تصلح لمدًى واسعٍ من المعاني حتى توجهها الآية السابعة إلى أهم وسائل تقوية المجتمع وهوالإنفاق في سبيل الله . وقبلها آياتٌ ستٌ تركز الإيمان بالله وتُذَكِّر المؤمنين بأن الله هو مالك السموات والأرض وهو المسيطر على كلّ ما فيهما ومن فيهما . وهو سبحانه يحيط بالكون والخلق جميعاً ؛ يحيط بهم بعلمه وسمعه وبصره ما تحرك الزَّمن . فليكن توجههم إليه سبحانه وطاعتهم له اهتداؤهم بهديه وتوكلهم عليه ليصيروا المجتمع الحي القوي العزيز المهيب ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الحديد: ١-٧).

إن الله سبحانه يعلم كلّ هذا عن ذاته العلية . ولا يفيده أن يعلم البشر عنه سبحانه هذه الصفات . فلماذا اختار هذه الصفات دون سواها؟ لأنه سبحانه أرادها رسالةً للمؤمنين في تلك المدة كي يتجددوا ويتحرروا مما راكمته الأيام على قلوبهم من حبِّ المتعة والركون إلى الدنيا وما يرافق ذلك عادةً من حرصٍ وبخل .

تقول المقدمة أن الله عزيزٌ حكيمٌ ومعنى هذا أنه سينفذ إرادته لا يمنعه منها شيءٌ فهو العزيز الذي لا يُغلب والحكيم الذي يملك الحكمة الكافية لتحريك الأمور لتحقيق إرادته . وله ملك الكون كلّه وبيده حياة الخلق وموتهم فهو على كلّ شيءٍ

قديرٌ . وهو تامُّ السيطرة على الكون والخلق ويحيط بالناس بعلمه ، ويعلم ما في الصدور دون أن تبوح به الألسن . فتأتي هذه الآيات مقدمةً وتمهيداً يؤثر في النفوس لتتهيأ لتنفيذ أمر الله الوراد في السُّورة ابتداءً من الإيمان برسوله والإنفاق على الشأن العام .

عتاب على ضعف إيمانهم وعدم الإنفاق في الأمر العام : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحديد:٨-١١)

أنفقوا لأن ملكيتكم للمال ليست مطلقةً بل أنتم مستخلفون فيه من قبل الله . وبعد أن نعود إلى المقدمة نفهم أهميتها كقاعدةٍ لهذا الأمر . فالله مالك كلّ شيءٍ وخالق كلّ شيءٍ . فكما أعطى المال لإنسانٍ يستطيع نزعه منه . فهو إنفاقٌ من رزق الله الذي استخلفهم به . والجزاء أجرٌ كبيرٌ عند الله . لأن الإنفاق طاعةٌ لله وإيمان به . وجزاء الإيمان أجرٌ عظيمٌ يوم الحساب .

ثم تمضي السُّورة بتفصيل ما جاء في الأطروحة . فتأتي الآية (١٠) مفصِّلةً للأمر الأول في الأطروحة بطلب الإنفاق في الأمر العام لوجه الله . ولله ميراث السموات والأرض فهو من يرزقهم وبإمكانه الاستغناء عن طلب الإنفاق منهم . لكنه يختبرهم ليعلم المؤمن من المنافق . ويكون المؤمنون درجاتٍ بحسب قدرتهم على الإنفاق في سبيل الله . ثم يحثهم على الإنفاق على أنه قرضٌ لله تعالى والله خير من يُقرض وسيضاعف القرض لهم عند الوفاء . .

وفي الآية (١٠) التفاتةٌ تحتاجها الأمة بقدر ما تغفل عنها ، بل تنساها تحت ضغط الطامحين بما لا يحقّ لهم . فالناس يتمايزون عند الله بما قدموا ولا يستطيع اللاحق أن يسبق السابق بالإيمان . فمن أنفق قبل الفتح وجاهد لا يستوي هو ومن

أنفق بعد الفتح وقاتل . وعدم الالتزام بهذه القاعدة يُشيع الانتهازية في الدولة ثم الترهل .

نتيجة الإيمان : يأتي الجواب سريعاً جزاءً لمن أنفق بدافع الإيمان الوارد في الأطروحة ﴿ **يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾

(الحديد: ١٢–١٥).

وتأتي الإشارة إلى الفدية المرفوضة لتقابل الصَّدقة التي قُبلت وأثمرت ، لأنها جاءت في وقتها تلبيةً لأمر الله .

تحريض على الإنفاق والطاعة : تحذر الآيات التالية المؤمنين من التباطؤ في التلبية كي لا يصيبهم مثلما أصاب بني إسرائيل من قسوة القلب . ويذكرهم أن الصَّدقة والقرض لله يعود على صاحبه أضعافاً مضاعفة أجراً من الله . وتقول الآية (١٩) أن المؤمنين والمتصدقين هم المرشحون لمنزلتي الصديقين والشهداء . وبالمقابل فإن متاع الحياة لهوٌ زائلٌ يتبعه عذاب الآخرة ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ**

يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

(الحديد: ١٦–٢٤).

وتضع هذه المجموعة من الآيات (١٦–٢٤) أسس النصر والحياة الكريمة للأمة.

سنة الله في إحياء الأمم: تحتوي الآية (٢٥) كلّ مقومات الحياة الكريمة لأمةٍ حسب مقاييس الله وحسب ما تطيق سنة الله في الاجتماع. وحسب الآية فإن المقومات هي: كتابٌ ترجع إليه الأمة ومقاييسُ للعدل بين الناس وقوةٌ تحمي الأمة من أعدائها وتحمي الحقّ بين أفراد الأمة ولا بد من المحافظة على روح الجهاد في الأمة. ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (الحديد: ٢٥–٢٧)

وهكذا عرضت الآية أحوال الشعوب المخاطبة من حيث استجابتها لرسل الله إليها، من نوحٍ حتى المسيح. وكأنَّها تقول إن الله تعالى لا يترك الأرض دون هدى. وهذا هدًى جديدٌ أعطاه الله للعرب بمحمدٍ لتكون لهم حياةٌ بعد موتهم الذي طال؛ وسيتميزون كغيرهم إلى مؤمنين وفاسقين. واستعملت السُّورة كلمة فسق بدل كلمة

نفاق لأن سبب الانحراف الذي تعالجه هو البخل بالمال لاستعماله في المتع الشخصية . فهو فسق في أصله .

وختاما : نداء إلى المؤمنين بتقوى الله وطاعة نبيهم الذي أرسله الله نوراً وحياةً للأمة وغفراناً لهم عند الله . ويُلمح أن لهم منافساً يحسدهم هم أهل الكتاب ، وأهل الكتاب حيثما ذُكرت في القرآن قُصِدَ بها بنو إسرائيل . فليراعوا هذا وليكن في إيمانهم وسلوكهم تواضعٌ ولين جانب ؛ كي لا يتأثر بنو أسرائيل سلباً عندما يكتشفون بطلان ظنهم أن أمر الله بالهداية والخطاب لهم وحدهم . وليعلموا أن الأمر لله وبيده وإرادته وحده وليس لهم من الأمر شيء . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ** ﴾ (الحديد:٢٨-٢٩). والآية قبل الأخيرة تدعو المؤمنين للتقوى ليستحقّوا رحمة الله فيكون لهم نور يمشون به . وبذلك لا يكون في سلوكهم ما يؤذي الآخرين خصوصاً مواطنيهم من أهل الكتاب .

وبذا تؤسس السُّورة لأمةٍ حيةٍ منتصرةٍ قادرةٍ على حماية نفسها وتقوم بالعدل فيما بينها . فالعدل أساس الملك .

* * *

سورة المجادلة

السُّورة الثَّامنة والخمسون حسب ترتيب المصحف . تنزلت لتخليص المجتمع النبويَّ مما لا يليق به ، من أعمال يظنُّها أصحابها هينةً وهي عند الله عظيمةٌ . يظنونها هينةً لأنها عندهم مجرد كلام يقال في السر ؛ ولأنها طباعٌ متأصلةٌ فيهم . ولكن الله يريده مجتمعاً طاهراً باطناً وظاهراً . فهذا الذي ظاهَرَ امرأته ظنَّها كلمات تخرج من فيه ؛ ويستطيع أن يلغي أثرها بمناجاةٍ حميمةٍ مع زوجه . ولكنها كانت أكثر صدقاً والتزاماً مع الله ، وعلمت أن السر والعلن أمام الله سواء . وفضحت الأمر أمام الرسول ، فاستحقّت أن تستجيب السماءُ لها ، وتعالج ما وقع به زوجها . وليتطهر المجتمع المؤمن إلى يوم القيامة من تلك السقطة الشنيعة ، والتي تشكل اعتداءً على حدود الله . ثم تمضي السُّورة في عرض أنواعٍ من الفساد الشبيهة بالظهار كالنجوى بين المنافقين وضعاف الإيمان . فيأبى الله أن تبقى تلك النباتاتُ الخبيثة في مجتمع النبيّ ؛ فيشن عليها حملةً تستأصلها من قلوب المؤمنين ومن سلوكهم . وتتعرض السُّورة لكلّ باقية ضعفٍ في المجتمع من خلال ممارسات الضعفاء والمنافقين ؛ ليبقى المجتمع حصيناً متماسكاً ، قادراً على مواجهة الأعداء ككتلةٍ واحدةٍ صلبةٍ لا خلل فيها ولا دَخَل . ولأن تخليص المجتمع من مثل هذه العادات المتأصلة ليس سهلاً ، تأتي السُّورة باسمها وحقيقتها مجادلة . فكأنها على طرف حبل تفتله بشدةٍ وصعوبةٍ لجهة الحقّ ولتثني عن الباطل مُمْسِكاً عنيداً على الطرف الآخر من الحبل .

عنوان السُّورة وموضوعها :

سماها الله تعالى المجادلة . ولم ترد الكلمة في السُّورة . وإنما ورد في الآية فعل يشترك معها في نفس الجذر اللغوي . وهو «تجادلك» وهي هنا بمعنى تحاورك كما فسرتها نفس الآية . ﴿ **قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ** ﴾ (المجادلة: ١) .

ولنعرف المعنى الأقرب لكلمة المجادلة كعنوانٍ للسورة نبدأ بمقاييس اللغة للرازي لنجده يؤطِّر مادتها اللغوية بما يلي : « الجيم والدال واللام أصل واحد وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه ، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام». ويواصل سرد أمثلة من نفس المادة : « . . وغلام جادل إذا اشتد ، والدرع المجدولة المحكمة الصنع ».

وفي العين للخليل بن أحمد : « الجُدول للإنسان : قصب اليدين والرجلين » وهما أقسى وأصلب جزء في جسم الإنسان .

وجاء في لسان العرب لابن منظور : « الجَدَل اللدد في الخصومة والقدرة عليها ومنه قول الكميت :

« كسوتُ العلافِيَّات هوجاً كأنها مجادل شد الراصفون اجتدالها ».

وفي بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي : « الجدال هو المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وأصله من جدل الحبل : أحكم فتله ، كأن كلا المجادلين يفتل الآخر عن رأيه » .

فمادة جدل تدور حول القوّة والإحكام وحول المعنى تدور السُّورة : إنها سورة تنقية المجتمع النبوي وإحكامه بتخليصه من عاداتٍ سيئةٍ راسخةٍ فيه كالظهار والنجوى الآثمة التي تكون عادةً بحقّ النبيّ وكبار الصحابة ؛ وليكون المجتمع المؤمن كالمِجْدَل وهو القصر المنيع المحكم البناء . فهي المجادلة تجادل لتجدل فتصنع مِجدلاً .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أراد الله سبحانه أن يصنع من المجتمع النبوي مجتمعاً محكماً يخلو من الضغائن والفتن والقيل والقال . فأنزل عليهم هذه السُّورة . وبدأها بخلية المجتمع الرئيسية وهي الأسرة لتكون قاعدةً متينةً للمجتمع . لأن سلامة الأسرة تعني سلامة المجتمع . ولن يشتد مجتمعٌ يتكون من أسرٍ مهلهلة . وتبدأ السُّورة بتوظيف حادثة بين زوجين كان يمكن أن تمضي دون أن يعلم بها أحد خارج حدود الأسرة إلا الله . لكن غضب المرأة لحدود الله ولكرامتها جعل المجتمع كلّه يستحقّ رعاية الله وتوجيهه إلى الهدى في العلاقات الأسرية . ﴿ **ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ**

لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المجادلة: ٢-٤) .

زوج الرجل ليست أمه . ولا يحقّ له تسمية الأشياء بغير اسمها ، فذلك منكرٌ وزورٌ لا يليق بمجتمع يصنعه الله على عينه . ثم تضع الآية الثّانية حلاًّ لمن يقع في الظهار . ومن حجم الكفارة نعلم كبر الذنب الذي يمارسه مُرتكب فِعلة الظهار . ولا غرابة في ذلك فعدا عن وقوعه في الكذب والزُّور فقد تلاعب بأقدس علاقةٍ بين البشر . وتجعل الآياتُ أداءَ الكفارة بتمامها شرطاً للعودة إلى العلاقة الزّوجية الطبيعية . فلا يحقّ للرجل مسَّ امرأته قبل إتمام الكفارة . وجُعلت الكفارة ثلاثةَ بدائل تتوالى حسب توفرها فإن توفر الأول فلا يحقّ الأخذ بالثّاني أو الثّالثّ . وتأتي الكفارة شديدةً ثقيلةً لتقابل رسوخ تلك العادة في حياة الناس . ولذلك استحقّت عمليةُ تخليصِهم من تلك العادة جدالاً بأشدِّ معانيه ؛ فكأنه فتل حبلٍ ثقيلٍ غليظٍ .

ثم تسمي الآية الثّانية العلاقة الزّوجية وكفارة الظهار من حدود الله . حيث لا يرضى مؤمنٌ لنفسه أن يقترب من حدود الله وهو محتفظٌ بإيمانه .

ومرةً أخرى نقول لولا غيرة تلك المرأة على الحقّ ، وتعاملها مع كلام زوجها بجديةٍ والتزامٍ لمضت هذه الحادثة كأي مناجاةٍ بين اثنين ؛ كالنجوى التي تتحدث عنها السُّورة لاحقاً .

أطروحة السُّورة : تنطلق الآيات من قصة الظهار واعتبارها مع كفارتها من حدود الله لتصل إلى الذين يحادّون الله . أي يقتربون من حدوده أو يكسرونها بذنوبٍ أخرى داخل المجتمع ، وخصوصاً فيما بين النبيّ وبين المؤمنين . فتكون الأطروحةُ قولَه تعالى (٥-٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة: ٥،٦) .

وبذا نتوقع أن تكون بقية السُّورة عن ذنوبٍ يمارسها ضعاف الإيمان في المجتمع . يمارسون بعضها سرًّا كظهار الرجل وامرأته أو يتناجى بها أخلاَّءٌ همساً ظانين الله لا يسمعهم ؛ وبها يحادُّون الله ورسوله . فما هي :

١- **النجوى :** والنجوى هي الحديث سرًّا بين اثنين أو أكثر . ولأنَّه طرح سرًّا فلا بد أن فيه إيذاءً للمجتمع . ولو كان خيراً أو نصيحةً لقدمها صاحبها علناً . وفي مجتمع يقوده نبيٌّ مرسلٌ لا تكون النجوى بالأمر العام إلا درجةً من الخيانة : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (المجادلة:٧-١٠)

ونفهم من الآيات أن تحريمَ النجوى في الأمر العام قد صدر سابقاً لقوله تعالى ﴿ **نُهُوا۟ عَنْهُ** ﴾ في الآية الثَّامنة . والآيات تبدأ بتذكير المخاطبين باطِّلاع الله على كلّ ما يصدر عن البشر . وبالتالي فإن النجوى إن خفيت على النبيّ والمؤمنين فلا تخفى على الله . وسيُذَكَّر بها مقترفها يوم القيامة .

٢- **آداب المجلس :** دعوة لتبادل الاحترام بين أفراد المجتمع ومعرفة حقّ وجهاء المجتمع كأصحاب السابقة فيه والعلماء : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (المجادلة:١١) . وباحترام صاحبَي العلم وسابقةِ الإيمان يكون حديث المجالس نفعاً وخيراً وليس ثرثرةً وكلاماً فارغاً .

٣- **شرط مناجاة الرسول :** الرسول للأمة كلّها فإن أراد أحدٌ الانفراد بمناجاته فليقدم صدقةً بين يدي ذلك . والصَّدقة تذهب للنفع العام لأن النبيّ لا يأكل من

الصَّدقة . وقبل ذلك تُطهر قلب دافعها فلا يفكر بمناجاةٍ فيها إثمٌ أو إيذاءٌ ما دام قد بدأها بصدقةٍ تحسب في ميزانه يوم القيامة . ثم تخفف الآية (١٣) موضوع الصَّدقة لمن يعجز عنها ، ويُكتفى منه إحسان العبادات المفروضة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (المجادلة: ١٢-١٣)

٤- **موالاة أعداء المجتمع :** بسؤالٍ استنكاريٍّ لفعلتهم تبدأ الآية (١٤) موضوع الذين يوالون أعداء المجتمع ، ممن غضب الله عليهم ؛ واتخاذُهم أصدقاء وليس في صداقتهم مصلحةٌ لهم ولا للمؤمنين . هؤلاء الذين يوالون أعداء الله يستحقّون عذاباً شديداً يوم القيامة . خصوصاً أنهم يعلمون ما يفعلون ويتخفون وراء أيمانهم . ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ (المجادلة: ١٤-٢٠).

مصيرهم في الأذلين دنيا وآخرةً لما وقعوا به من خيانةٍ لله ولرسوله ولمجتمعهم الإيمانيِّ . وهي خيانةٌ تكون في السرِّ كالظهار والنجوى . وتتعارض مع شفافية المجتمع المؤمن .

وختاماً : ولتنقية المجتمع من شبهة الخيانة وأخلاق الضعف التي قد توسوس للبعض بأن يتقرب من أعداء قومه ، يقرر الله أن الغلبة له ولرسله . ثم يضع سبحانه مقياساً للإيمان . إنَّها آية مفاصلةٍ حقيقيةٍ بين المؤمنين وبين أعداء الله ، ولكنها

لا تكون إلا حيث يرأس المجتمع نبيٌّ مرسلٌ ، فتكون الأمور واضحةً بلا شبهةٍ في عهده : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (المجادلة: ٢١، ٢٢)

وهكذا تُخَلِّصُ السُّورة ، بجدالها الشديد الحاسم ، المجتمعَ النبوي من أهم أسباب الضعف التي كان يعاني منها . وتجمع المؤمنين بمجدلٍ صلبٍ قويٍّ محكم البناء نظيفٍ لا يخترقه أعداء!

إنها تستحقّ اسم المجادِلة بأسلوبها وأحكامها وبالقضايا التي طرحتها . فكلّها قضايا مستعصيةٌ راسخةٌ ويزيد خطورتها أنها تُمارَس سراً بعيدًا عن بصر المجتمع وسمعه ؛ وخصوصاً عن الفئة المعنية بحمايته .

* * *

سورة الحشر

هي السُّورة التاسعة والخمسون حسب ترتيب المصحف . جاء اسمها الحشر ليذكرنا بوجهين من وجوه الكلمة . فحشرُ بني النضير الذي انتهى بهزيمتهم ومغادرتهم لديارهم ومزارعهم ومعظم ما جمعوا وحرصوا عليه من متاعٍ . ليكون هذا العقاب الذي استحقّته بنو النضير درساً ماثلاً في أذهان المؤمنين فلا يقعون بمثل ذنوبهم فيستحقّون نفس العذاب . وحشرٌ من نوعٍ آخر هو تخليص المجتمع من التنافس على جمع المال ومنع دوران ثروة الأمة بين أيدي فئةٍ قليلةٍ مما يثير حقدَ الفقراء ويزرع النفاق في المجتمع . هذا حشرٌ بمعنى زيادة المجتمع قوةً ومضاءً . خصوصاً عندماً لا يحسد فقيرُه غنيَّه ولا يحقد الضعيف على القويّ . ولا يستقيم هذا إلا بالعدل وتقارب المستويات المالية لأفراد المجتمع . فكانت القاعدة الذهبية التي تنزلت في السُّورة ﴿ **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ** ﴾

عنوان السُّورة وموضعها :

أعطيت السُّورة اسمها الحشر . وهي من نفس مادة كلمة الحشر في الآية الثَّانية ، التي وردت بمعنى الحصار ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ** ﴾ (الحشر:٢)

ونبحث في معاجم اللغة لنجد معنى للحشر يصلح عنواناً للسورة : جاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي : «الحشر الدقيق من الأسنة والتدقيق والتلطيف». وفي العين للخليل : «حشرت السنان رققته» وفي لسان العرب لابن منظور : «حشر السكين والسنان حشراً : أخذه فأرقه وألطفه . قال :

لَدْنُ الكُعوب ومحشورٌ حديدتُه وأصمعٌ غيرُ مَجلوزِ على قَضَمِ»

هذا بالإضافة إلى المعاني الشائعة للكلمة مثل جمع الناس وسوقهم أو اجتماعهم لمناسبةٍ عامةٍ .

وهذا المعنى من الترقيق والتلطيف لجعل السكين أو السهم أكثر حدةً وكفاءةً هو الأقرب لسورة الحشر . فهي تحتوي أحكاماً في توزيع الثَّروة وتمنع تجمعها بيد قلةٍ من الناس . وتلمح إلى دور الشح بصنع النفاق وقيم الهزيمة . بينما يؤدي توزيع الثَّروة بالعدل إلى عدم التحاسد ويغرس في المجتمع قيم النصر . وهو عملية حشرٍ بمعنى صقل المجتمع وجعله أكثر حيويَّة . تماماً كجعل السيف أو السكين أكثر حدة . والسُّورة من حيث معنى اسمها وموضوعها شبيهة بسورة الحديد . ولكنها هنا أكثر تفصيلا فكأنَّها خطةٌ تنفيذيةٌ لتلك .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

لإصلاحِ مجتمعٍ ولجعله مُقتنعاً ومتجاوباً مع الإصلاح المنشود لا بد أن تبدأ الدعوة بعرض قضيةٍ حيةٍ وكبيرةٍ لتبرر الإصلاح . لذلك بدأت السُّورة بإخراج بني النضير من بيوتهم . ووصف أعراض انهيارهم وفقدانهم لأسباب الحياة . فقد فقدوا القدرة على الدفاع عن أنفسهم ؛ ولما لم تحمهم حصونهم طفقوا يخربون بيوتهم . مسجلين انحراف قيمهم . فلم يعد مهمًّا عندهم إلا المتاع . فحرصوا على أن لا يستفيد منه العدوّ بدل أن يفكروا بكرامتهم . وحرصت الآية على إبراز انهيار قيمهم مما يجعلهم في عداد الشعوب الميتة . ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ** ﴾ (الحشر: ١-٥)

ليس لتسجيل الحدث نزلت السُّورة ولكن ليَتعِظ بالحدث أولو الألباب . تبدأ السُّورة بتسبيح الله العزيز الحكيم . فهو العزيز الذي لا يُغلب ، وسينفذ إرادته بالحكمة اللائقة بجلاله وحسب خطته الموضوعة سلفاً في اللوح المحفوظ . ومن خطته أن هؤلاء القوم من بني إسرائيل فقدوا مقومات الحياة الكريمة فاحتاجوا هزةً

عسى أن يتجددوا . وأيما مجتمعٍ مُخاطَبٍ مباشرةً من الله ويشاقق الله وهو يعلم ، فإنه سيتلقى عذاباً يناسب عصيانه لربّه .

إزالة أسباب تدهور المجتمع : لعله كان معروفاً للمخاطبين قسوةُ قلوب جيرانهم من بني النضير وغالبية بني إسرائيل . بدت قسوةُ قلوبهم ببخلهم وحبهم للمال ونسيانهم لأوامر الله في الإنفاق . فتأتي السُّورة لتركز على هذا الموضوع وتأمر المؤمنين بتوزيع المال والثَّروة على جميع المؤمنين . وعدم حصرها في فئةٍ محدودةٍ من الأغنياء . وكي يسهل عليهم أمر توزيع المال والتنازل عنه إذا لزم ، يُذكرهم أن الفيء الذي حصل بعد خروج بني النضير كان نفلاً بفضل الله ؛ فليس قوة المسلمين من أربك القوم وهزمهم ، بل هو الله الذي قذف في قلوبهم الرعب . وإلا فما أوجف المسلمون عليهم من خيلٍ ولا سواها . لذلك يكون أمر توزيعها لله :

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر:٦-١٠)

هذه هي كلّ فئات المجتمع المؤمن . ولكلّ منهم نصيبٌ من الفيء . وليكون هذا التَّوزيع سُنَّة لهم في إدارة أمور الثَّروة . فلا تدور الثَّروة بين أيدي فئةٍ قليلةٍ دون الغالبية لأن ذلك يصنع مجتمعاً متحاسداً متكارهاً . وتستعمل الأموال الفائضة عن حاجة مالكيها في المتعة مما يضعف المجتمع وينشر فيه الرذيلة والخيانة . فيستحقّ مثلما استحقّ بنو النضير في مشهدهم الحي المؤثر .

النفاق والمنافقون : المنافقون قومٌ فشلوا في الاستمرار على طريق الإيمان لأسباب في نفوسهم وآثام اكتسبوها . ولكن النفاق ينمو ويتكاثر إذا وجد ما يغذي حالته الرافضة في أعمال المؤمنين . وتباين الحالة المالية في المجتمع من أقوى أسباب الاعتراض ونمو النفاق . والآيات تذكر أعمال المنافقين ضد مجتمعهم وتحالفهم مع أعداء المجتمع . ولكن طبيعتهم القائمة على التذبذب والعجز عن الثَّبات تظهر حتى في خذلانهم لحلفائهم من بني النضير . ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الحشر: ١١-١٧)

طالت الفقرة لجمعها بني النضير مع المنافقين . فاجتماعهما لقتال المؤمنين لا يمكن أن يتحقّق إلا إذا كان في قرًى محصنةٍ أو من وراء جدرٍ . ثم تُذكر الآية (١٥) بمصير قريشٍ يومَ بدرٍ .

الموعظة الأخيرة : تدعو الآيات الختامية المؤمنين لفهم الدرس . وتنصحهم بالعمل لمستقبلهم القريب والبعيد . وأن لا يقعوا بما وقعت به بنو النضير الذين استحقّوا العقاب لتوهم . واستحقوه بفسقهم وبخلهم وحرصهم على المتاع والتكاثر منه ومن وسائله. وكتذكير لا يُنسى فإن بعد الحياة الدنيا حسابٌ وجزاءٌ فجنةٌ أو نارٌ. وهذا القرآن كافٍ واعظاً بقوة أثره في المؤمنين . وإن الله الذي يخاطبهم هو ربّهم وهو مالك الأمر كلّه وله الأسماء الحسنى فليديروا أمور حياتهم على أساسها .

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ**

ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الحشر:١٨-٢٤)

وبذا تقدم السُّورة درساً حيًّا للمؤمنين قادراً على تخليصهم من نقاط الضعف ومن قيم الهزيمة ؛ ليصيروا مجتمعاً حيًّا متآلفاً متحاباً متعاوناً على البرِّ والتقوى ، وعلى حماية كرامته والحفاظ على حيويته لأطول مدةٍ ممكنةٍ ، بل ما دام يحفظ هذا الدرس ويعتبر نتائجه .

* * *

سورة الممتحنة

هي السُّورة الستون حسب ترتيب المصحف . وسميت الممتحنة لأنها تطالب المجتمع باختبار من تأتيه مهاجرةً من مكّة . فهي سورة اختبار الولاء للمجتمع المؤمن في المدينة ولحفظه من كيد الأعداء . وعندما نقول : إنها سورة اختبار الولاء للمجتمع فهي لا تختلف عن قولنا الولاء لله . فهو في سبيل الله ويتجلى عمليًّا في حماية المجتمع الذي يلتقي على الإيمان بالله كما بينه رسول الله . ونظهر هذه الفكرة لأن بعض الحديين في فهمهم للنصوص والشعارات القديمة ظن أن فكرة الإيمان مطلقةٌ سماويةٌ لا علاقة لها بالأرض وأهلها . وأدى ذلك النوع من التفكير إلى خلل كبيرٍ في الفكر الإسلامي حتى صار ذكر الوطنيةِ أو القوميةِ عند بعضهم معادلاً للفسق أو الكفر . الولاء هنا لمجتمع المدينة بأرضه وناسه . وفي السُّورة توجيه آخر لم يسبقها إليه فكر بشريٌّ فيما نعلم . وهي إمكانية أن تقوم حرب بلا كراهيةٍ دون أن يعطي ذلك للمعتدي فرصة النجاة بذنبه . إنها تصف حرباً بلا كراهيةٍ وعداءً بلا ظلمٍ ولا انتقامٍ . وهو ما لم تصله البشرية بعد .

وما دامت قد جمعت الولاء للمجتمع موثقاً باختبار الإيمان . وبالمقابل تتحدث عن حرب بلا كراهيةٍ ، وعداءٍ بلا انتقام ، وعدلٍ مع الزّوج الكافر الذي هجرته زوجه المؤمنة ؛ فإنها تسعى لصنع الإنسان الصلب القويّ في إيمانه وقيمه . الذي يعرف كيف يعدل مع عدوّه ويصل رحمه دون أن يهبه شيئاً من حقّ المجتمع أو على حساب مجتمعه المؤمن .

مطالعات تراثية :

يلخصها **الفيروزآبادي في البصائر** بما يلي : « معظم مقصود السُّورة : النهى عن موالاة الخارجين عن مِلَّة الإِسلام ، والاقتداءُ بالسّلف الصّالح فى طريق الطَّاعة والعبادة ، وانتظار المودّة بعد العداوة ، وامتحان المدّعين بمطالبة الحقيقة ، وأَمر الرّسول بكيفيّة البَيْعة مع أَهل السّتْر والعفَّة ، والتَّجنّب من أَهل الزَّيغ والضّلالة ، فى قوله : ﴿ **لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ** ﴾ (الممتحنة:١٣).

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها الممتحِنة بكسر الحاء . ولم ترد الكلمة في السُّورة لكن وردت كلمة تشاركها جذرها اللغوي في الآية العاشرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ (الممتحنة: ١٠)

ولا خلاف على أن معنى الامتحان هنا هو الاختبار . يقول الخليل بن أحمد في العين : « المحنة معنى الكلام الذي يُمتحن به فيعرف بكلامه ضمير قلبه » . والامتحان في السُّورة لمعرفة إيمانِ الممتحَنِ وولائه . والمسافة ليست واسعةً بين الإيمان والولاء . فمن آمن بفكرة دولةٍ أو قيادتها أخلص لها . ومن لم يؤمن خان أو نافق أو غدر . وحول هذه الأحوال تدور السُّورة بادئةً كعادة سور هذا الجزء بالحالة الأخطر والأظهر .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

السُّورة كلّها لاختبار إيمان المؤمنين . وتبدأ بأخطر ما يجرح الإيمان وهو موالاة الأعداء على حساب أمن الأمة أو مصلحتها العامة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ (الممتحنة: ١، ٢)

وتعرض هاتان الآيتان حالةً حدثت عشية فتح مكّة ؛ طرفاها صحابيٌّ مهاجرٌ له سابقةٌ في الدين وأمرأةٌ مشركةٌ لعلها جاءت إلى المدينة للتجسس على المؤمنين . فكشف الله مكيدتهم ووقى شرها لينجز المؤمنون أمراً كان مقرراً في خطة الله لنبيِّه . وفي القصة وأسباب سقوط الصحابي في الخيانة ما يصلح درساً للأمة ؛ لتتخلص من أسباب ذلك المرض . الذي صار سمةً للعرب بين الأمم . لكن شيئاً من هذا لم يحدث . ففي أسباب كتابته لمشركي مكّة بِسِرِّ النبيّ قال حاطب بن أبي بلتعة إن

أهله وعشيرته بدون حمايةٍ اجتماعيةٍ في قريش ، بعكس بقيَّة الصحابة من المهاجرين الذين لكلّ منهم عشيرةٌ قويةٌ في قريش . فأراد أن يحافظ على أهله بصلةٍ يقدمها لقريش فيما لو فشل الهجوم على مكّة .

أطروحة السُّورة :

بوجهين متكاملين تأتي الآية الثَّالثَة ﴿ **لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ (الممتحنة:٣) . فمن جهة تنهى المخاطبين ، عن جعل قرابة الدم قبل الإيمان وفوق الحقّ وتقديمها على المصلحة العامة المشتركة . ومن جهةٍ أخرى تقول لهم : لا تمزقوا مجتمعكم بسوء فعلكم فإن الله سيحاسب كلّ فردٍ وحده يوم القيامة .

مثل من إبراهيم : في سورةٍ عن الولاء لله وفي أمةٍ من نسل إبراهيم لن يوجد مثَلٌ أفضلُ مما فعل إبراهيم في سبيل الله مع قومه الأقربين : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ** ﴾ (الممتحنة:٤-٦) . فما كان لأحدٍ من المؤمنين أن يوالي صلة الرحم على حساب مجتمعه الذي يلتقي على الإيمان بالله . فهذه هي الصلة الجديدة . وله أن يعامل أقاربه بالحسنى فيما لا يؤذي مجتمعه ولا يحرج إيمانه وإخلاصه لمجتمعه المؤمن .

حربٌ بلا كراهيةٍ ولا ظلمٍ : هذا هو الوصف المناسب للعلاقة بين قريشٍ وبين المؤمنين في المدينة . فهم أرحامٌ وأقارب . وبينهم عُمرٌ من الجيرة والتعامل . ولكن هذا ليس مبرراً لموالاتهم على حساب المجتمع الإيماني حين تكون خيانةُ هذا المجتمع خيانةً لله ورسوله . وبعد انتصار الفئة المؤمنة ستعود العلاقات طبيعيةً مع أهل مكّة : ﴿ **عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ**

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (الممتحنة:٧-٩)

وخُتمت الفقرة بذكر الذين قاتلوا المؤمنين وتسببوا بهجرتهم من مكّة . ليعلم المؤمنون أن لا تهاون مع هؤلاء ولا مودّةَ لهم عند المؤمنين .

النساء قد يُوظفن للتجسس : ربّما كانت تلك المرأة التي حملت رسالة حاطبٍ إلى قريشٍ قد جاءت بغرض التجسس ونقل أخبار المؤمنين لقريش . خصوصاً أن رواياتٍ تقول إن النبيّ هدر دمها ولم يصفح عنها يوم فتح مكّة . ولكن قد تأتي نساءٌ مهاجراتٌ بإيمانهن إلى المدينة لذلك يكون الاختبار لتمييز المؤمنةِ من الماكرة . وتواصل الآياتُ الأحكامَ المتعلقة بانتقال نساءٍ مؤمناتٍ إلى المدينة وعودة كوافر إلى مكّة . ومعالجة المشكلات المالية المترتبة على ذلك بالعدل دون تمييز بين مؤمنٍ وكافرٍ في الحقوق المالية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة: ١٠-١٢)

فالامتحان إذًا للتأكد أن المرأة المهاجرة إنما فعلت ذلك بدافع إيمانها وهجرةً بدينها . وكذلك يأتي حكم الانفصال عن الأزواج الكوافر كي لا يبقى ثغراتٌ في المجتمع يمكن أن تؤدي لتسرب أسرار الدولة إلى الأعداء .

وختاماً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾ (الممتحنة:١٣)

هذه خلاصة السُّورة وغرض الامتحان . فهي تنهى المؤمنين عن صداقة المشركين أو توليهم فهم أعداء . وهي هنا توصيةٌ ؛ وقد كان قبلها إجراءاتٌ لسد الثَّغرات . باستبعاد من يُحتمل أن يوادّ المشركين على حساب المؤمنين أو منعه من الانضمام للمجتمع المؤمن .

وتبقى فكرة اختبار الولاء قائمة لكلّ من يُشكّ بولائه كي لا تتسرب أسرار الدولة إلى الأعداء؛ومع ما لا يتعارض مع كرامة أهل السابقة في المجتمع كحاطب.

* * *

الصف

السُّورة الحادية والستون حسب ترتيب المصحف . سورة الموقف الصادق والثَّبات على المبدأ حول رسول الله وما جاء به من عند ربّه . فالصفُّ كاسمٍ للسورة بمعنى الاستواء في الموقف الإيماني والسكون على حالة اليقين بصدق النبيّ ونسبة هذا الدين لله . لذلك تنهى السُّورة منذ آيتها الثَّانية عن التذبذب في الموقف واختلاف القول والفعل من المؤمن . ولتحرض المؤمنين على الطاعة في أصعب المواقف تؤكد أنَّ النصر لهم ما آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا مع النبيّ بالمال والنفس في سبيل الله . وبذا يستحقّون اسم الصفِّ المؤمن .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الصفُّ عنوانها وهو لها بموضوعها ، ووردت كلمة الصفِّ في الآية الرابعة ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ (الصف:٤) . وكلمة صفٍّ هنا بمعنى صفّ المقاتلين في المعركة . ولكن كلمة الصفِّ كعنوانٍ تقود السُّورة كلّها بمعنى آخر .

يقول الرازي في مقاييس اللغة« الصاد والفاء يدل على أصلٍ واحدٍ وهو استواء في الشيء وتساوٍ بين شيئين في المقر ». ويقول الخليل في العين « الصف : الموقف ». ويقول ابن منظورٍ في اللسان : « الصف السطر المستوي من كلّ شيء معروف ، . . والطير الصواف : التي تصُفُّ أجنحتها فلا تحركها ».

فالصفُّ بمعنى الاجتماع على مستوًى واحدٍ واتخاذه موقفاً ثابتاً فيه من سكون اليقين مثلما يكون سكون أجنحة الطير الصوافّ وهي معلقةٌ في الهواء لا يحرفها عن سكونها شيء . وهذا هو موضوع السُّورة . وليُثبت المؤمنُ صدق موقفه هذا ، عليه أن يُلبِّي ما يطلبه الله والرسول منه لصالح المجتمع معتبراً ذلك في سبيل الله .

أطروحة السُّورة :

بعد تسبيح الله العزيز الحكيم تخاطب السُّورة المؤمنين ، وبصفتهم مؤمنين تنهاهم عن ازدواجية القول والفعل . وتذكِّرهم أن تناقض القول والفعل من أكبر

ما يمقته اللهُ من عمل المؤمن . لأنه يتناقض مع الإيمان كما يتناقض مع مصفوفة قيم الإيمان . ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ١-٣)

فما هي مصفوفة قيم الإيمان التي يريدها الله من المؤمنين ؟

١- القتال في سبيل الله بجسمٍ واحدٍ لا دَخَل فيه ولا خيانة ولا تباطؤ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤) .

٢- الطاعةُ التامة والاحترامُ الكامل لرسول الله وعدمُ الوقوع فيما وقعت به بنو إسرائيل وهم يؤذون رسولاً ويتهمون آخر بالسحر : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف: ٥،٦) .
واحترام النبيّ مما يجمع المؤمنين ويسهِّل عليهم النصر .

٣- معرفة الأعداء : هو أمر هام في الثَّبات على المبدأ والانحياز التام للمجتمع النبوي : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف: ٧،٨)

وواضح أن الآيتين (٧-٨) تنزلتا بأسلوب تحريضي ليتخذ المؤمنون المشركين والكفار أعداءً فيتمكنوا من حربهم رغم صِلات الرحم والجيرة القديمة وما صنعته من صداقة .

٤- الاستعداد للمستقبل : تنتقل السُّورة إلى مستوى أعلى بالآيات (٩-١٣) فترفع معنوياتهم إلى درجةٍ يشعرون معها أنهم وضعوا النصر في أيديهم ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف: ٩-١٣)

فالله ربّهم هو الذي أرسل لهم رسولهم وسيمضي به وبهم إلى النصر المبين . وسيهزم بهم المشركين . ويجعله دين الأمة الأول . فما هو إلا الجهاد وراء رسولهم بإخلاص بالمال والنفس . ويعدهم مقابل ذلك بنصر الدنيا وكرامة الآخرة .

مثل للمؤمنين : ليزيد حماستهم وتماسكهم وتمسكهم بإيمانهم يأتي المثل الختامي من أتباع المسيح الذين أخلصوا لرسولهم فنصرهم الله بإيمانهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ (الصف: ١٤)

هذا هو الصف الذي يريده الله للمؤمنين . الثَّباتُ على قيم النصر التي توحي بها آيات السُّورة وما تضمنته من قصص الأمم السابقة .

* * *

سورة الجمعة

هي السُّورة الثَّانية والستون حسب ترتيب المصحف . وهي مدنيةٌ بلا خلاف . تعالج حادثةً حدثت من جَهَلة المسلمين . إذ تركوا المسجد والنبيّ يخطب الجمعة ليشاركوا في استقبال قافلتهم وقد سمعوا أصوات قدومها . فاستغلها يهود المدينة ليسخروا من المسلمين . وليتذكروا ويذكروا أنهم أمة الله التي تجيد التعامل معه وتحترم شعائره وأنبياءه . وأنهم أصحاب الكتاب الأول . فترد عليهم السُّورة لتذكرهم بأمرين : الأول : علاقتهم بالتَّوراة التي وصلت حد القطيعة ، وصارت شكليةً فقط . فلم يعد لهم من التَّوراة إلا حملها . والثَّاني : أن هؤلاء المسلمين كانوا قوماً أميين . فاختار الله لهم نبيّاً منهم ليزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فلتتوقف تلك الفئة من اليهود عن مناكفتها للنبيِّ والمؤمنين ؛ لأن الله مُتِمٌّ قدرَه . وستمتد هذه الأمة في المستقبل لترث كتابها جيلاً وراء جيل . ولم تغفِل السُّورة الحادثة بل لامت الجهلةَ على فعلتهم ، وأمرت المؤمنين بالحرص على صلاة الجمعة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الجمعة عنوانها . ووردت الكلمة في الآية التاسعة ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ (الجمعة:٩) وقُصِدَ بالجمعة هنا يوم الصَّلاة الأسبوعية للمسلمين .

وجذر الكلمة« جمع » وعنها نقرأ في مقاييس اللغة للرازي : « الجيم والميم والعين أصل واحد يدل على تضام الشيء».

ومهما كانت معاني مادة جمع يبقى يومُ الجمعة وصلاته الرئيسية الموضوع الرئيسي للسورة . والجمعة هو يوم العرب ويوم الإسلام . فهي سورة الأمة تبشرها بما ينتظرها من رُقيٍّ وتقدمٍ منذ اختار الله لها نبيّاً منها ليصنعها بتوجيهٍ من الله . وفي السُّورة دعوةٌ لاجتماع المؤمنين حول النبيّ ، وجمعُ أمرهم وعزمهم ، وأخذ أمرهم بجديةٍ انطلاقاً من الالتزام بصلاة الجمعة لأهميتها .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

صلاة الجمعة هي محور السُّورة . ونؤجل هذا الموضوع لنبدأ من بداية السُّورة حيث تأتي الآيات الأربع الأولى وكأنها ردٌّ على جماعةٍ ما . الأولى منها تخبر أن ما في السموات والأرض يسبح لله بصفته الملكِ القدوس العزيز الحكيم . والملكُ الذي لا يجوز الاعتراض عليه فالخلق كلّهم عبيده ؛ والعبد لا يعترض على سيِّده . وهو القدُّوس المنزه عما لا يليق . ومما لا يليق اتخاذ قرارٍ خاطئٍ مثلاً . العزيز الذي لا يُغلب ولا يقف أحدٌ في طريق إرادته وخططه . وهو الحكيم القادر بحكمته على إنفاذ أمره . ثم يرد موضوع مخاطبة العرب واختيارهم لحمل رسالةٍ سماويةٍ بواسطة رجلٍ منهم . ومن حقّ الله وحده أن يمنح فضله لمن يشاء . ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ (الجمعة: ١-٤)

إن قوله تعالى « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » تشي بمعركةٍ تكادُ تَخفَى لولا مجموعة الآيات التالية . وتأتي الآيةُ الثَّالثَة ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الجمعة:٣) إعلاناً من الله تعالى عن إنفاذ أمره للعرب باستمرار رسالته إليهم بواسطة رسوله محمد عليه السلام .

ثم نكتشف ، أن بني إسرائيل المقيمين في المدينة أو بعضَهم طرفٌ في المعركة الخفية . فتواجههم الآيات (٥-٨) بحقيقة حالهم يومذاك وخصوصاً تقصيرهم بشأن التَّوراة . وتطلب الآيات (٦-٨) من النبيّ مواجهتهم بحقيقة أمرهم لإحراجهم . ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (الجمعة: ٥-٨) .

ونصل إلى جوهر القضية . وهي دعوة المؤمنين للالتزام بحضور صلاة الجمعة والبقاء مع الرسول حتى تنتهي الصَّلاة ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَـٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ** ﴾ (الجمعة: ٩-١١)

وتأتي الآية الأخيرة لنفهم قصة السُّورة كلّها . فعندما كان المسلمون في المسجد يحضرون خطبة صلاة الجمعة وصلت قافلةٌ وسمع المصلون جلبتها وما يرافقها من أصوات . فاندفع الجهلة الذين لم يُقدِّروا الأمر حقّ قدره إلى حيث القافلة ، تاركين المسجد والنبيّ يخطب الجمعة . وذهبوا ليستمتعوا برؤية القافلة ويطمئنوا على أموالهم . ويبدو أن بني إسرائيل ، وهم يسكنون المدينة مع المسلمين ، قد علموا بالقصة ففرحوا وشمتوا بالمسلمين ظانين أن الله سيحاسب هؤلاء بقسوةٍ أو يتخلى عنهم . ولكن الله يعلم أكثر مما يعرف البشر . فرد الله عليهم بأن هؤلاء أميُّون وأن الله سيربيهم ويعلمهم بواسطة رسوله إليهم . ولن يعاقبهم لأنهم لم يصلوا حدَّ العقاب القاسي . هؤلاء في بداية أمرهم وسينفذ الله الأمر حتى ينضجوا ويصلوا مرحلة الالتزام الجادِّ . وسترون ذلك يا بني إسرائيل . وبذا تكون الرسالة المرسلة إلى بني إسرائيل في هذه السُّورة ردًّا عليهم بسبب شماتتهم بالعرب . لأن جهلة من المسلمين انصرفوا عن النبيّ ، وتذكرهم بحالهم وبعلاقتهم بالتَّوراة ! وهم أهل كتابٍ منذ أكثر من ألف سنة ؛ مقابل هؤلاء الأميين الذين لم يمض على علاقة أقدمهم بالدين عقدان من الزَّمان!

إذًا فهي قصة الجمعة الصَّلاة وقصة الجمعة بمعنى اجتماع قوة العرب المسلمين واجتماع أمرهم وكلَمتهم ليكونوا الأمة التي أرادها الله .

* * *

المنافقون

هي السُّورة الثَّالثَة والستون حسب ترتيب المصحف . موجهةٌ إلى النبيّ ثم إلى المؤمنين . وهي تعرض أفعالاً صدرت عن علية القوم من منافقي المدينة . ونقلت من أقوالهم وأفعالهم ما يكفي لمعرفة بعضهم بشخصه . والصفات التي توردها السُّورة هي مما يليق بعلية القوم . فهم أهل مال يجيدون تحريكه للتأثير في المجتمع . وهم ذوو أجسامٍ تِمامٍ وأصحابُ فصاحةٍ وبيانٍ في عرض موضوعهم والدفاع عن موقفهم . وكلّ ما في مظهرهم ينتمي للطبقة العليا من المجتمع . ويصل الأمر بأحدهم أن يعتبر نفسه الأعز في المدينة . ثم تذكر السُّورة بعض أسباب النفاق البارزة وهي حب المال والحرص عليه والاستكثار منه . فهو يُقسي القلب من زاوية الإيمان لكنه يصنع مكانةً ويحرك الأمور لصالح طلاب السلطة والوجاهة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

المنافقون عنوانها . وليس النفاق . وهذا يعني أنها ستعرض حالةً خاصةً من حالات النفاق تصف أشخاصاً بعينهم وليس النفاق بعامةٍ . وقد وردت الكلمة في الآية الأولى ﴿ **إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ** ﴾ (المنافقون: ١).

ونحاول ضبط حدود كلمة النفاق لنتعرف على هذه الحالة المرفوضة . يقول الرازي في مقاييس اللغة : «النون والفاء والقاف أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على انقطاع الشيء وذهابه ، والآخر على إخفاء الشيء وإغماضه». ونحن معنيون بالمعنى الثَّاني وبشرحه لهذا المعنى يقول الرازي : «النفق : سربٌ في الأرض له مَخْلَصٌ إلى مكان . والنافقاء : موقع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي خرج ؛ ومنه اشتقاق النفاق ، لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر ، فكأن الإيمان يخرج منه ، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء».

ولا داعي للمزيد لأن الآيتين (٢-٣) تُعرِّفان النفاق بما يشبه المرجع اللغوي المذكور.

فموضوع السُّورة عرض حالة نفاق نموذجيةٍ من خلال أعمالٍ وأقوالٍ صدرت عن أشخاص معروفين لله وللنبيِّ ولغالبيةِ المؤمنين. وفيها إشاراتٌ إلى أسبابِ النفاق.

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

مع أن الموضوع ليس حبيباً للنفس إلا أن السُّورة ترد بطريقةٍ وديةٍ . لأنها عبارةٌ عن رسالةٍ تكاد تكون خاصةً من الله للنبيِّ . ﴿ **إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ (المنافقون: ١-٣).

بكلّ الود تخاطب الآيات رسول الله . لعلها بذلك تخفف عنه إساءة المنافقين بعد حادثةٍ معينةٍ . فالمنافقون جاء بعضهم يصرح أمام النبيّ أنه يشهد أن محمداً رسول الله . ثم تنتهي الآية بقوله تعالى « إن المنافقين لكاذبون». ولكنهم يعترفون بحقيقة! وإنما هم كاذبون في ادعائهم الإيمان . وتعرف الآية (٣) المنافقين فقد « كفروا بعد إيمانهم». وتعطي علامةً على أشكالهم وطبيعتهم . فهم يظهرون بمظاهر مقنعةً خصوصاً عليةَ القوم منهم ؛ ويجيدون الحديث وصوغ الحججِ على سلامة موقفهم : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ (المنافقون: ٤).

ولكنهم مع حسن منظرهم مهزوزون من داخلهم يخشون فضح موقفهم فيحسبون كلّ صيحةٍ عليهم .

الكفر حقيقتهم : مع أنهم يدَّعون الإيمان ويعيشون بين المؤمنين كمسلمين إلا أنهم في بواطنهم لا يؤمنون . لدرجة أنهم عندما مُنحوا فرصة استغفار النبيّ لهم تهربو منها . ورغم بركة استغفار النبيّ لهم ودعائه إلا أن قلوبهم المنكِرة ترفض تلك البركة . بل يتكبرون على المناسبة . ومن وصل هذا المستوى من الإنكار لا ينفعه استغفار النبيّ لأن ما يعلمه الله عنه أكبر من أن يُغفر . ومما يمكرون بالنبيّ وبالمؤمنين توصيتهم بعضُهم بعضاً بأن لا تصل أموالُهم إلى أيٍّ من المؤمنين . عسى

أن يبتعد المؤمنون عن النبيّ خشية الفقر ؛ غافلين عن أن الرزق بيد الله وحده . بل قال كبيرهم وهم في معركةٍ «لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ». وقصد بالأذل النبيّ والمهاجرين . ففضحه الله بما قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(المنافقون:٥-٨)

بعد مقالتهم ردَّ الله عليهم ، والحديث للنبيِّ والمؤمنين معه كي يطمئنوا . فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهو الصادق القادر أن يجعل كلماته حقائق تسعى على الأرض .

تحذيرٌ من مسالك النفاق : في الآيات الأخيرة رسالتان للمؤمنين : فعلى أغنيائهم أن ينفقوا على فقراء المؤمنين ليعوضوهم عما ينقطع من نفقات المنافقين بعد فضحهم . والرسالة الأهم تذكيرهم أن البخل والحرص يزرعان في القلب النفاق ويطردان منه نور الإيمان . فليحذر المؤمنون : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون:٩-١١)

وكأنه يقول لهم : أيها المؤمنون انتهزوا فرصة الحياة والثَّراء فأنفقوا فى سبيل الله . فقد تموتون وتبقى الثَّروة وراءكم غير قادرين على التصرف بها . كما أن جو السُّورة يربط بين البخل والنفاق .

* * *

التغابن

التغابن هي السُّورة الرابعة والستون حسب ترتيب المصحف . وأعطيت اسمها لتقول : إن مغابن الناس التي تُخفِي سيئاتِهم وشرورَهم في الدنيا ستبوح بكلّ ما أخفت يوم التغابن . فالتغابن هو نفض المغابن ، وقد وردت الكلمة في الآية التاسعة تصف يوم الحساب أنه يوم التغابن . والسُّورة تذكر أساسيات الحياة وما أنعم الله به على خلقه لتبرر طلب طاعتهم له . وتذكر بعلم الخبير الأسباب الجوانية لكفر من يكفر . فهو أعلم بما يضمر الإنسان . فخلل قيمهم هو السبب الأكبر لكفرهم . وتتوجه للمؤمنين ليراقبوا بيوتهم وما يمكن أن تخفيه من خلل . وهكذا تنسجم مواضيع السُّورة مع عنوانها وهي تنبه المؤمنين لما يمكن أن يخفى عليهم من أمور بيوتهم وأسرهم . وما يمكن أن تسكن عليه قلوبهم من حب التمسك بالمال . وتواجه المشركين بسبب كفرهم وهو حسدهم للنبيِّ . وهكذا تدور السُّورة كلّها حول عنوانها الذي شكل محوراً يقودها وإطاراً يجمع كلّ ما فيها .

عنوان السُّورة وموضوعها :

التغابن . وقد وردت الكلمة في الآية التاسعة بمعنى يوم الحساب ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ** ﴾ (التغابن:٩) فما معناها كعنوان للسورة؟ هذا ما نبحثه من معاني كلمة التغابن في المعاجم وعلى ألسنة العرب قبل الإسلام . ثم نختار منها ما يصلح محوراً للسورة .

جاء في العين للخليل بن أحمد : « المغابن : الأرفاغ والآباط . والواحد مَغْبِن . وأغبَنْتُه : خبأته في المَغبِن . والغَبن في الثَّوب كالعَطف ».

وفي لسان العرب لابن منظور : « . . المغبن : الإبط والرُّفغ وما أطاف به . . . والمغابن هي بواطن الأفخاذ عند الحوالب جمع مغبِن من غبن الثَّوب إذا ثناه وعطفه ، وهي معاطف الجلد أيضاً ».

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي : « واغْتَبَنَهُ : اخْتَبَأَهُ فيه »

المغابن هـي المواقـع مـن الجسـد الـتي يتجمـع فيهـا إفـرازات الجسـد الدَّنِسَـة . والمغابن في السُّورة هي مخابئ الذنوب والسيئات . وهذا هو وجه الشبه .

وبالتالي يكون التغابن كشف ما خبأت مغـابن الـذنوب والسـيئات . يخرجهـا الله عندما يجعل جلودهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم . وتلافيف الدماغ ، وهي وعاء الذاكرة ، مغابن تختزن كلّ ما اكتسب الإنسان ، فتنشر ما بها ذلـك اليـوم . فهـو يـوم ينكشف فيه ما خبأوا من ذنوبٍ وسيئاتٍ . وليس كما ظن المفسرون مـن غـبن أهـل الجنة لأهل النار فإنه قول لا معنى له . فلا يغبن أحدٌ أحداً يوم الحساب ؛ بل جوهر ذلك اليوم : العدل . بينما التغابن بالمعنى الـذي قصـدوه ظلـمٌ . وربّمـا أوقعهـم بهـذا اللبس أن كلمة تغابن على وزن تفاعل فهي صيغة تشارك تحتاج طرفين . وهما فعلاً طرفان فالرقيب والعتيد يكشفان وأعضاء الجسم تـرد بالإيجـاب وتشـاركهما كشـف المستور . فيكون تغابن بين جهتين متعاونتين وليس متعارضتين . واللغـة تطيـق هـذا فصيغة تعاونٍ هي أيضا صيغة تشاركٍ على وزن تفاعلٍ . ووجه آخـر للتغـابن لا بـد منـه يـوم القيامـة يـدخل تحـت بـاب التشـارك وهـو مواجهـة النـاس بعضُـهم بعضـاً وتلاومهم بين يدي الله فتنكشف النوايا الحقيقيّة وراء الأعمال والأقوال .

سورة التغابن سورة كشف المغابن وما أُخفِي فيها من شرورٍ وسيئاتٍ اكتسبها أصحابها في حياتهم . وإلى ذلك تشير أطروحة السُّورة في الآية الرابعة ﴿ **يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ﴾ (التغابن:٤) كما تؤكده الآية الأخيرة من السُّورة ﴿ **عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (التغابن:١٨)

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

احتار المختصون بعلوم القرآن بهذه السُّورة أمكية هي أم مدنية . ولم يلاحظوا الودَّ في الخطاب الذي بدأت به . ومثل هذا الودِّ المُنزل بآيات طويلة نسبيًّا لا يكون إلا للمؤمنين . وتَذكُر اللهَ تعالى بصفات الجمال التي تبهج قلب المؤمن . وتذكر الآية الثَّالثَة واحدة من أجمل نعمه تعالى على المخاطبين ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾ .

أطروحة السُّورة : توجهنا أطروحة السُّورة إلى الهدف الرئيسي منها وهو التأكيد على أن الله لا يخفى عليه شيءٌ حتى لو كان مجرد حديث نفسٍ لم يتجاوز صدر

صاحبه : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾
(التغابن: ١-٤)

تبدأ السُّورة مُذكرةً المخاطبين أن الله له الملك والمستحقّ للحمد وهو على كلّ شيءٍ قدير . ويعلم النبيّ أنه وأتباعه في الجانب الأقوى في الحياة ما دام هذا ربّهم . ثم يخاطبهم بصفتهم من خلق الله : فمِن هذا الخلق مَن يحظى بالإيمان ومنهم من يستحقّ الكفر بما قدم وبما انطوت عليه نفسه . فيعلمون أن اللهَ أكرمهم بالإيمان . ويذكرهم بنعمه عليهم بخلق السموات والأرض بما يسهل حياتهم ويقيمها على أسسٍ متينةٍ . ثم يذكرهم بهدف السُّورة الأكبر وهو إحاطته سبحانه بخلقه ، وعلمُه بما يعلنون وما يسرون وهو عليمٌ بذات الصدور . وحول هذه المعاني تتحرك السُّورة في بقية آياتها .

فتنةُ الكافرين : تسأل الآيةُ الخامسة المؤمنين سؤالَ تذكير بما حدث للأمم التي كفرت من قبل . واستعملت « من قبل » . وليس « من قبلكم » لأن المخاطبين لم يكفروا . ثم تعلل سببَ كفرهم وهو عدم احترامهم للإنسان كإنسانٍ نتيجة خلل في قيمهم فاستغنى الله عن إيمانهم . لأن إيمان مِثلِهم مع قيمهم الفاسدة يُفسِد فكرة الإيمان . ثم يوجه الخطابُ رسولَ الله لينقل رسالة إلى المشركين ردًّا على إنكارهم للبعث وهو السبب الثَّاني لكفرهم . ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (التغابن: ٥-٨)

فتنة الكفرة هنا خلل قيمهم وإنكارهم البعثَ والحسابَ ، مع أن العقل البسيط السليم يدرك وجود حسابٍ وجزاءٍ بعد هذه الحياة . ودون أن تغيب فكرة السُّورة عن هذه المجموعة من الآيات خُتِمَت الآية السابعة بقوله لهم من خلال الرسول :
﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾.

يوم التغابن : يوم التغابن هو الحساب . فيتميز الناس إلى مؤمنين وكافرين حسب أعمالهم التي تنفضح عندما تكشف المغابن عما أخفت من قبل . وتساق فئةٌ إلى الجنة وفئةٌ إلى النار : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (التغابن:٩-١٠)

الاستقامة مع الله : قد يهتز إيمان المؤمن إن أصابته مصيبةٌ . ولكن من يصبر ويعلم أن ما يأتي من الله عدلٌ يزددْ هدًى . ثم تطالبهم الآيات بطاعة الله ورسوله مع تهديد من يتولى بأنه سيُترك لخياره . فالنبيّ مبلغٌ وحسب . وعلى الله يتوكل المؤمنون ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (التغابن:١١-١٣)

ومضمون الآيات ليس بعيداً عن محور السُّورة . فهي تتعامل مع ما يدور في قلب الإنسان تجاه ربّه إذ يُصاب . وتقدم الآية (١٢) الإيمان على أنه علاقةٌ بين المؤمن وبين ربّه . فلا يتوقع أحدٌ أن يمسكه النبيّ على الإيمان أو يعاقبه على الكفر . فهو ومعتقده ، والحساب يوم التغابن حيث تنشق جيوب الخفايا ، ويظهر المخفي .

التحذير : تحذر السُّورة المؤمنين من مغابن بيوتهم : من أزواجهم وأبنائهم . وهي أمورٌ داخليةٌ للمؤمن لا يعلمها سواه إن شاء؛ وقد لا يحيط بها بصورةٍ واضحةٍ . فقد ينحرفون وهو لا يعلم ، فيلزمُه الحذرَ في البيت . والآية تحذر من أفراد الأسرة أن يفتنوا ربّ الأسرة بوسيلةٍ من الوسائل . قد يزينون له عدم الإنفاق في سبيل الله مثلاً . ثم تحذره الآية (١٥) من الأموال مع الأبناء والأزواج . وتجعل الإنسان حكماً على نفسه «فاتقوا الله ما استطعتم» : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾ (التغابن:١٤-١٧)

ومرةً أخرى نقول إن الآيات السابقة ليست بعيدةً عن محور السُّورة فكلّ ما فيها مما يمكن إخفاؤه عن الناس ولكن لا يمكن إخفاؤه عن الله عز وجل . فيبقى الحساب عليه يوم التغابن . وتكتفي الآيات بالنصيحة والتحذير .

وختاماً : سواءً أأخفى الإنسان أعماله أم أعلنها فإن الله لا يخفى عليه شيءٌ فهو كما وصف نفسه سبحانه ﴿ **عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (التغابن:١٨) فلا داعي للمغابِن فيوم التغابن آتٍ لا محالة .

* * *

الطلاق

هي السُّورة الخامسة والستون حسب ترتيب المصحف . تأتي لتنظيم حالات الطلاق التي قد يضطر الناس إليها . وتنزلت السورة لحفظ حقوق المرأة المطلقة . وتضع العوائق اللائقة في طريق الطلاق . والعوائق اللائقة هي التي لا تتعارض مع كرامة الإنسان وإرادته الحرة . فالآيات تحاول تضييق مسارب الطلاق . وتجعل مفاصل للعملية كلّها مما يعطي أكبر عددٍ من الفرص للزوجين كي يتراجعا . فإن أصَرًّا فهي تحرص على حقوق المطلّقة وتعالج ذيولَ الطلاق وآثارَه على أطفال الزّوجين .

مطالعات تراثية :

يقول **الفيروزآبادي فى البصائر** : « معظم مقصود السُّورة : بيان طلاق السُّنَّة ، وأَحكام العِدَّة ، والتَّوكُّل على الله تعالى فى الأُمور ، وبيان نفقة النِّساءِ حال الحمل والرّضاع ، وبيان عُقُوبة المتعدِّين وعذابِهم ، وأَنَّ التَّكليف على قَدْر الطاقة ، وللصّالحين الثَّوابُ والكرامة ، وبيان إِحاطة العلم ، والقُدْرَة ، فى قوله : ﴿ **لِتَعْلَمُوٓاْ** ﴾ (الطلاق:١٢) الآية .

عنوان السُّورة وموضوعها :

تردّدت قبل أن أكتب عن هذه السُّورة فهى من الوضوح بحيث لا يختلف اثنان عن علاقتها بعنوانها . فعنوانها الطلاق . وهو موضوعها لم تخرج عنه آيةٌ واحدةٌ . وبطريقة القرآن فى عرض السُّورة وهو يستقصى الأسباب الحقيقيّة للموضوع . التى قد لا تخطر ببال البشر . فقد يستغرب القارئ مثلا ذِكر القريةِ وعذابِها فى سورة الطلاق ؛ لكنه يجدها فى مكانها عندما يتذكر أن فى الطلاق مفاسدَ اجتماعيةً إن لم يتلافاها الناس شملهم العذاب المقرر لمثل تلك المفاسد . ومفاسد الطلاق نوعان الأول : فى طريقة تنفيذ الطلاق . والثَّانى : بوجود نساءِ كثير مطلقاتِ يحتجن الرجال ؛ فإن لم تكن العفةُ هي السائدة فإن العذاب قد يقع على ذلك المجتمع .

تحليل السُّورة :

ما دامت العلاقة واضحةً بين موضوع السورة وعنوانها فسنكتفي بتحليل النص من وجهة نظر فنّ النثر . خصوصاً أن السُّورة منزلةٌ بأسلوبِ مقالٍ علميٍ جادٍ . فتكون فرصةً للتعرف على طريقة كتابة المقال العلمي . وعندما نعلمُ أن هذا الأسلوب قد توصلت إليه الخبرة البشرية بعد نزول القرآن بثلاثة عشر قرناً ونيفاً . ولم يعرفه البشر وخصوصاً العرب قبل القرآن ولا بعده بألف عام ؛ فهي فرصةٌ للتذكير بأن صياغة سورة الطلاق بهذا الأسلوب هي معجزةٌ في حدِّ ذاتها .

تكونت السورة من أطروحةٍ نموذجيةٍ استغرقت الآية الأولى التي حلت محل فقرة الطرح . ثم تقوم السورة بتفصيل الأطروحة بنداً بنداً وبنفس الترتيب . ثم تُختم السورة بخاتمةٍ متفقةٍ مع شروط خاتمة المقال العلمي ، كما ألهمه الله لعباده .

الأطروحة : تأتي الأطروحةُ بآيةٍ واحدةٍ هي الآية الأولى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا** ﴾
(الطلاق: ١).

وهي أقرب إلى الفقرة منها إلى الجملة . وتحتوي رءوس أقلام بقية السُّورة بإيجاز جميل ودقيق .

ولجعل التحليل سهلاً والفهمَ أسهل سنبدأ كلّ فقرةٍ بجزء الأطروحة (الآية الأولى) ثم نتبعه بما يقابله من بقية السُّورة :

١- ﴿ **إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ (الطلاق: ١) : وفي تفسيرها يُجمِع المفسرون أن الطلاق يجب أن يبدأ بعد طهر المرأة من حيض الدورة الشهرية وأن لا يحدث جماعٌ بين الزّوجين بعد الطهر ليبدأ الطلاق بعدةٍ طاهرةٍ : ويقابل هذه الجملة من السُّورة قول الله تعالى في الآيتين (٢-٣) : ﴿ **فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا** ﴾ (الطلاق: ٢،٣) . يبدأ الطلاق

من عدة طُهرٍ ونعلم أن الأجل ثلاثة قروءٍ أو دوراتٍ شهريةٍ ؛ ولا يعتبر الطلاقُ فيها نافذاً ولا نهائيًّا . وحسب الآية الثَّانية فللزوجين التراجع أو الانفصال النهائي مع انتهاء العدة . وفي كلتا الحالتين يلزم توثيق ذلك بشهود وبالكتاب الموثق بلغة هذه الأيام . ثم تشير الآية الثَّالثَة إلى أهم أسباب الطلاق وهو الفقر . ومن ملاحظاتي أن المرأة تتحمل معظم انحرافات زوجها إن كان ثريًّا . أو هو كذلك في المجتمعات الناطقة بالعربيَّة .

٢- ﴿ **وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ** ﴾ (الطلاق:١) هذا هو البند الثَّاني من آية الأطروحة وتقابله الآيتان (٤-٥) من السُّورة ونصهما ﴿ **وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا** ﴾ (الطلاق:٤-٥) . الأطروحة تأمر بإحصاء العدة . والآية المقابلة لهذه الجملة تحدد نوعين من العدة . الأول : عدة اللائي يئسن من المحيض واللائي لم يَحِضْنَ بعد ، فعدة هاتين الفئتين ثلاثة أشهر . والثَّاني : عدة الحوامل ؛ وتنتهي عدتهن بوضع أحمالهن . عسى أن يؤدي ميلاد الطفل إلى إنقاذ الحياة الزّوجيّة لوالديه . وتأتي الآية الخامسة لتَنْهي عن أي تلاعبٍ أو خطأٍ أو تقصيرٍ في تنفيذ هذه التعليمات . وتقابل بهذا شبه الجملة الثَّانية من بند إحصاء العدة وهو قوله تعالى ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ** ﴾ (الطلاق:١) .

٣- ﴿ **لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾ (الطلاق:١) . هذا بند السكن في الأطروحة وتقابله الآيتان (٦-٧) من السُّورة : ﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** ﴾ (الطلاق:٦،٧) . وهاتان الآيتان تُفَصِّلان موضوع السكن والنفقة وحكمَ الرضيع إن وُجد .

٤- ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (الطلاق:١) يقول هذا الجزء من الأطروحة إن أحكام الطلاق هذه هي من حدود الله التي لا تهاون مع من لا يلتزم بها . فصاحب الحدود هو الملك العزيز القدير المهيمن . فهل يرضى أن يحرج أحدٌ حدوده؟ الجواب يكون في بقية السُّورة وبلهجةٍ قاسيةٍ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ (الطلاق:٨-١٠) . فهذا العذاب الذي استحقّته القرية إنما هو بسبب اعتدائها على حدود الله المذكورة في السورة . أي في مجال علاقات الأسرة والزواج . وليس بسبب أيِّ انحرافٍ آخر . فالسورة مكرسةٌ للطلاق ولمعالجة ذيوله .

٥- وختاماً : تأتي الآيات (١١-١٢) لتذكر الناس أن مثل هذه السورة وما بها من أحكام إنما هي نعمةٌ من الله ؛ منَّ بها عليهم ؛ عندما أرسل لهم رسولاً بآياتٍ بيناتٍ ، بتعاليم واضحةٍ خيرها ظاهرٌ لهم ونفعها . وليعلموا أن الله على كلّ شيءٍ قدير . فكما أرسل لهم هذه الآيات الواضحة فهو قادرٌ على معاقبة من يعصي قيمَ الفطرة التي تنتمي لها هذه الأحكام . ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (الطلاق:١١،١٢) . وتأتي هذه الخاتمة لتكون استجابة لبداية الآية الأولى فهي موجهة للنبيِّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ (الطلاق:١) . فالسورة نداءٌ للنبي ليُعلِّم أتباعَه أحكامَ الطلاق . وتأتي الآيات الثَّلاث الأخيرة لتذكرنا أن هذه الأحكام إنما هي بفضل ظهور رسول الله في الأمّة . فلنعرف هذا ولنشكر الله ، ولنعرف حقّ رسولنا علينا .

وسؤالنا الختامي هل عرفت البشرية نصًّا بهذا الإتقان وهذه الحكمة قبل سورة الطلاق أو بعده بقرن أو قرنين من الزَّمان؟ فعدا عن الإتقان في الصياغة تتنزل السورة بأحكام الطلاق وبتبريرها وبما ينتظر المجتمع الذي لا يلتزم بها .

* * *

التحريم

هي السُّورة السادسة والستون حسب ترتيب المصحف . وقد أدت بنزولها عدة وظائف . فقدمت النبيّ كبشرٍ عاديٍ لا يختلف عن سواه من البشر إلا بالوحي الذي فضله الله به . دون أن يفقد بذلك شيئاً من بشريته . وجعلت لله وحده حقّ التحليل والتحريم . مع أن تحريم النبيّ على نفسه كان طوعاً منه وتضييقاً على نفسه لإرضاء أزواجه . فما كان يحقّ له هذا . ودافعت السُّورة عن المرأة في موطنٍ تبدو فيه متهمةً أمام المجتمع . فهي لا تختلف عن الرجلِ : فمن النساء ، المؤمنة النزيهة التقية كامرأة فرعون . ومنهن التي تخون زوجها وتُفشي سره كامرأة لوط . ومن النساء من تتفوق على كلّ الرجال عندما تعف وتتقي فينقذ الله بها قومها كمريم .

عنوان السُّورة وموضوعها :

التحريم اسمها . ولم ترد كلمة تحريم في السُّورة لكن ورد الفعل المضارع منها في الآية الأولى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التحريم: ١).

ونعود إلى معاجم اللغة للتعرف على المعنى الدقيق للمادة اللغوية التي اشتقت منها كلمة التحريم . يقول الرازي في المقاييس : « الحاء والراء والميم أصل واحد ، وهو المنع والتشديد»

ونقرأ في كتاب العين للخليل بن أحمد : «والحرام ما حرمه الله تعالى ، والحُرمة ما لا يحل انتهاكه ، والحرام : ضد الحلال».

وفي لسان العرب يقول ابن منظور: « ويقال أحرمت عن الشيء إذا أمسكت عنه»

ونكتفي بهذا القدر فكلمة التحريم الواردة في السُّورة لا تخرج عن هذا المدى من المعاني وخصوصاً المنع والامتناع .

فالتحريم الذي فرضه النبيّ على نفسه ليس محرماً أصلاً . إنما هو امتناع أو تضييق منه على نفسه إرضاءً لبعض نسائه . ولو فعله سواه لتلقى المدح على زهده بقرار التحريم . لكن الله يريد لبيت النُّبُوَّة مستوًى أعلى من الطهر والنزاهة .

لذلك انصب العتاب على أزواج النبيّ وليس على النبيّ لأنهن لم يحفظن سره . وذاك كان الذنب .

فالدعوة الأبرز في السُّورة موجهةٌ إلى نساء النبيّ ليمتنعن عما لا يليق التحدث به من خصوصيات النبيّ . والسُّورة دعوةٌ للمؤمنين للامتناع عن الخوض في أعراض بعضهم ، خصوصاً الخوض في أسرار البيوت وما يكون بين الأزواج . وأخطره إفشاء المرأة سرّ زوجها عندما لم يكن في فعله ما حرم الله . وهي درجةٌ عاليةٌ من التربية البيتية والاجتماعية .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تأتي السُّورة كتوصياتٍ بعد حادثةٍ غير طبيعيةٍ . لذلك تبدو التَّوصيات وكأن لا رابط بينها إلا الحادثة وتعامُل فئات المجتمع معها . ولكلّ فئةٌ توصيةٌ تناسب درجة تورطها . وبالتالي لا نتحدث عن مقدمةٍ للسورة ولا أطروحةٍ توجهها . وسنقدمها من خلال المخاطبين الذين تلقوا التَّوصيات :

– النبيّ : كان نصيبه عتابٌ لأنه حرَّم على نفسه ما لم يحرِّم عليه الله . وتجعل له الآية الثَّانية مخرجاً هو الرخصة وما بها من كفارةٍ ليعود عما نوى . ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ (التحريم:١–٢) .

– **نساء النبيّ** : وقيل إن المتورط منهن حفصة وعائشة . وتعرض الآية الثَّالثة الحادثة ثم تأتي الآية الرابعة بالتَّوصية بالتَّوبة وإلا ففي الآية الخامسة تهديدٌ بالطلاق . ﴿ **وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا** ﴾ (التحريم:٣–٥) . فلا يليق بامرأةٍ كشْف سرِّ زوجها ، ولا يليق بنساء نبي الثَّرثرةُ بما يزعجه حتى لو كان موضوع حديثهن صدقاً .لأن ذلك قد يزعزع مهابةَ النبيّ وحرمةَ مكانته في عيون من يستمع لنسائه

وهن يتحدثن بخصوصياته . فكشف سر النبي خصوصا والزوج عموما هو المحرم هنا وليس ما حرمه النبي على نفسه .

- **العِلية من المؤمنين :** انطلاقاً من تلك الحادثة في البيت النبويِّ توصي السورة المؤمنين بأن يزدادوا تماسكاً وأن لا يسمحوا للفتن أن تدخل بيوتهم . ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ** ﴾ (التحريم:٦) . ومن زاوية السُّورة فالدعوة لهم تشمل الحفاظ على خصوصية العلاقة الزّوجية حفظاً لكرامة الأسرة ومهابتها في عيون الأبناء والمجتمع القريب .

- **الكفرة :** الذين استغلوا الفرصة وشمتوا بما حدث في البيت النبويّ . ولا يخاطبهم مباشرةً بل يستحضر مشهدهم يوم الحساب وقد حُكم عليهم ولا يُقبل عذرهم . ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ** ﴾ (التحريم:٧) فقد تجاوزوا الحدَّ في الحديث عن بيت النُّبُوَّة . وهو ما لا يجوز بحقّ قيادة المجتمع .

- **عامة المؤمنين :** يبدو أنهم خاضوا فيما حدث في البيت النبويّ فتنصحهم بالتَّوبة وتُذكرهم أن النبيّ ما زال يحتفظ بمنزلته العالية عند الله ، التي لا يستطيع أحدٌ منهم الوصول إليها . فليكونوا مع النبيّ ومع عِلية المؤمنين الذين سيأتون يوم القيامة نورهم يسعى بين أيديهم! ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ** ﴾ (التحريم:٨)

- **أمرٌ للنبيِّ بالحزم مع الكفرة والمنافقين :** الذين خاضوا في سمعته بغير حقّ وبغير علم ، وكانوا يخرصون : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ (التحريم:٩)

- **أمثلةٌ للمجتمع كلّه :** كي يهدأ الجميع وتنتهي شماتة الشامتين يضرب الله مثلاً بنساء اثنين من رسل الله لم يتعاملن معهم بنزاهة فكن مع الكافرين ؛ ثم ضرب

مثلاً بامرأة فرعون الملتزمة بإيمانها . وكي لا يصب المجتمع غضبه وظلمه على النساء تذكر الآية الأخيرة نجاح مريم بالمحافظة على عفتها حتى استحقّت نفخة الله روحاً لجنينها . ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٍ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ** ﴾

(التحريم: ١٠-١٢) .

بدأت الحادثة عندما ضاقت اثنتان من نساء النبيّ برغبته بأمته التي تسرى بها شرعاً . وهذا حقّ له . فضيق على نفسه إرضاءً لهن . وكشفت واحدةٌ منهم سرّه للأخرى مخالِفَةً تعليماتِه لها ؛ فنبَّأه الله وهدّدهن بالطلاق . وفشى الخبر في الناس .

واهتز مجتمع المدينة للخبر . فخاض مؤمنون ومنافقون وكفرةٌ بهذه القصة . ولكلّ هدفه وتصوراته الخاطئة للموضوع . فجاءت السورة لوضع الأمور في نصابها . وأهمها أن حقّ التحليل والتحريم هو لله وحده . كما برأت السُّورة النساء بصفتهن نساءً من أن يكن كبش فداءٍ للمجتمع . لذلك كان ذكر مريم وامرأة فرعون . ووضعت السورة تصوراً سليماً معتدلاً بشأن المرأة . فلم تبرئ مذنبةً ولا سمحت باتهام من لا ذنب لها . وأعطت النبيّ حقّه كبشرٍ له رغباته المباحة بإذن الله . ودعت الجميع للحفاظ على حرمة النبيّ ومكانته المهيبة بين الناس . وكذلك المحافظة على حرمة العلاقة الزّوجية .

* * *

سورة المُلك

هي السُّورة السابعة والستون حسب ترتيب المصحف . وتعطي صورةً عن المُلكية الحقيقيّة لله على الناس والكون كلّه . فالله هو الذي خلق الكون كلّه بإتقانٍ تامٍّ ، ووضع له نظام حراسةٍ وسيطرةٍ تامةٍ . ومهده ليُسهِّل به حياة الناس . . وليس في ملكوته من يستطيع الخروج على إرادته . وهو الذي خلق الناس ويعلم كيف خلقهم حتى أنه يعلم ما تُخفي صدورهم . وليس لهم دونه سترٌ أو حمايةٌ . وينتهي إليه سبحانه مصير خلقه جميعاً . فهل بعد هذا من ملك؟ وبهذا فهي سورةٌ عرفانيةٌ تأتي لتصنع في ذهن السامع تصوراً سليماً عن الله كملكٍ ومالكٍ للكون والإنسان ؛ وليختار المخاطبون مواقفهم من النبيّ والدعوة على ضوء هذه الحقائق وليعتبروها في سلوكهم . فهي كسورة الأنعام تشارك في صنع قاعدةٍ فكريةٍ للأمة المخاطبة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

المُلك عنوانها . وقد وردت الكلمة في الآية الأولى منها ﴿ **تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (الملك:١) . والآية الأولى توضح معنى المُلك كما ورد في المعاجم . ثم تأتي بقية السُّورة لتصف الملك عندما يتجلى صفةً لله في صنع الكون ورعايته وإدارته والحكم فيه .

المُلك كما عرفه الرازي في مقاييس اللغة : « الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوةٍ في الشيء وصحةٍ . . . والاسم المَلِك لأن يده فيه قوية صحيحة ». وفي بصائر ذوي التمييز يقول الفيروزآبادي : « الملك ضربان : ملك هو التملك والتَّولي (وقصد به وظيفة الملك عندما يشغلها إنسان على قوم) وملك هو القوّة على ذلك تولَّى أم لم يتول ». وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي : « ملكه : احتواه قادراً على الاستبداد به ».

ولم يخرج موضوع السورة عن هذه المعاني .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

كلّ ما في السُّورة يثبت أن المُلك لله وأن القوّة كلّها بيده فهو سبحانه الخالق وهو يحيي ويميت جاعلاً الحياة فرصةً للإنسان يحسن أو يسيئ . ثم يكون حسابٌ وجزاءٌ فجنةٌ أو نارٌ . كلّ هذا بيده وبأمره سبحانه ؛ لا يشترك معه بالأمر شريك . إلا أن يأمر ملائكةً فينفِّذوا أمره كما يأمر سبحانه .

أطروحة السُّورة : تتكون من ثلاث آيات لخصت الأمر بعموميةٍ تليق بوصف المُلك الإلهي للكون وما فيه من شخصٍ ومن شيءٍ ومن فعلٍ ومن حدثٍ أيًّا كان . **﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاً ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾** (الملك: ١-٣)

فالملكُ كلّه بيد الله ، وقد جعل للبشر حياةً محدودةً بآجالٍ ليختبرهم فمنهم من يحسن ومنهم ومن يسيئ ، وقبلهم خلق سبع سمواتٍ ضمن كونٍ متقن الصنع لا خللَ فيه ولا تفاوت . .

خلق السموات : تبدأ السُّورة الحديثَ من حيث انتهت الأطروحة . مُظهرةً إعجاز الخلق في بناء السماء . والخطاب موجهٌ لرسول الله : **﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلۡنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾** (الملك: ٤، ٥)

مُلكيته تعالى لمصير الخلق : بعد مصير الشياطين يرد مصير الذين يكفرون بربّهم . وبست آياتٍ يصف شدة العذاب وقسوة جهنم على من يكفر بالله ولا يُصَدِّق رسوله . وتكفي وحدها لردع الناس عن الكفر والفرار إلى الإيمان وإلى صحبة رسول الله : **﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ۖ كُلَّمَآ أُلۡقِىَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصۡحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقًا لِّأَصۡحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾** (الملك: ٦-١١)

وهكذا ترد كلّ كلمة لتجعل المعاندين للرسول يعـودون إلى عقـولهم ويطيعـون الله .

مغفرةٌ وأجرٌ للمؤمنين : باختصار يناسب جَوَّ السُّورة يُذكَر المؤمنون ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ** ﴾ (الملك:١٢) . فهؤلاء عرفوا ربّهم ومالك أمرهم وخَشُوه واتَّقوهُ دون أن يَرَوه فنجَوا بل فازوا بالنعيم .

سيطرةٌ تامةٌ على الخلق : الناس تحت سيطرةِ الله فهو يعلم كيف خلَقهم ليكونوا تحت سيطرته التامة . ﴿ **وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ** ﴾ (الملك:١٣،١٤) . وتستمر الآياتُ بخطابِها موجهةً للرسول ليُبلغها قومَه .

ملكٌ بربوبيته : فهو سبحانه صاحب المُلك لكنه الربّ الرحمن الذي خلق الأرض مناسبةً لحياة الإنسان وضَمِن له رزقه . وهو قادرٌ على أن يخسِف الأرضَ بالناس لو شاء . ﴿ **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ** ﴾ (الملك:١٥-١٨) .

ويستمر الخطاب للرسول ليبلغهم لعلهم يتذكرون . وتبدأ الآيات موجهةً للرسول ثم تتحدث عنهم بصيغة الغائب . وهي استمرارٌ في وصف مظاهر المُلك التام لله على مفردات خلقه من بشرٍ وطيرٍ ووسائل رزق : ﴿ **أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ** ﴾ (الملك:١٩-٢٢)

وختاماً : تنتهي السُّورة ببضع آياتٍ تذكرهم بأخص خصائص ملكية الله لهم . وباستثناء اثنتين من الآيات الثَّماني فإن البقية تبدأ بكلمة «قل» موجهةً للرسول ليُذكر قومه بأنهم عبيدٌ لله الذي يملكهم بما خلقهم وجعل لهم السمع والأبصار .

وإليه محياهم ومماتهم وماؤهم وطعامهم . فماذا بقي لهم من أمر أنفسهم إلا اختيار الإيمان أو الكفر ولكلٍّ نهايةٌ يعرفونها . ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ (الملك:٢٣-٣٠)

حتى رسول الله لا يملك لنفسه شيئاً إلا ما شاء الله . ولا يعرف متى الساعة . ثم تكشف لهم الآيات حالهم يوم تأتي الساعة ويبعثون ! إنها دعوةٌ للمشركين لتلافي أمرهم والعودة إلى ربّهم بتذكيرهم أن الملك في هذا الكون كلّه لله وليس لهم ربّ سواه . وهكذا يكون المُلك الحقّ ، وسواه وَهْم .

* * *

سورة القلم

هي السُّورة الثَّامنة والستون حسب ترتيب المصحف . تعرض صنفاً من العقاب يكون للمجتمع كما يكون للأفراد . وهو رحمةٌ من الله مع أنه عذاب ؛ لأنه يعطي الإنسان فرصة التفكير وإدراك قدرة الله عليه . فيتمكن من العودة إلى الله إن استحقّ ذلك بما قدم من عملٍ صالحٍ ، كما حدث مع أصحاب الجنة الذين تتحدث عنهم السُّورة . والسُّورة تبدأ بالقَلَم الذي يسجل أعمال الناس وتدور حول عملية القلْم بسكون اللام . وهي عملية العذاب المذكورة في السُّورة . والتي يمكن أن تصيب المؤمن والكافر ؛ فتنفع من يلتقط رسالتها .

عنوان السُّورة وموضوعها :

القلم ! هذا هو عنوانها . ووردت كلمة القلم في الآية الأولى ﴿ **نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ (القلم: ١). أما في هذه الآية فهي بمعنى القلم أداة الكتابة المعروف . وأما كعنوان للسورة فهي بمعنى آخر وإن اتفقتا بحروفهما .

جاء في معجم مقاييس اللغة للرازي : «القاف واللام والميم أصل صحيح يدل على تسوية شيء بعد بريه وإصلاحه» وللكلمة استعمالات أخرى . ولكن القلْم (بسكون اللام) بمعنى البري أو القطع بهدف التحذير أو الإصلاح فهو الذي يهمنا ؛ وهو موضوع السُّورة . نعم السُّورة تتحدث عن القَلْم للردع وإعادة الذي يتعرض لصدمة القلْم إلى الله إن فهم الرسالة . وسنستعمل كلمة التقليم بدل القلْم تجنبا للبس .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

السُّورة موجهةٌ إلى رسول الله لتطييب خاطره بعد مقولات المشركين عنه . وتؤكد له أن الله معه وأنه منتصرٌ وان أعداءه سيلقون ما يستحقّون من عذاب في الدنيا وإن لم يعودوا ففي الآخرة أيضا .

مقدمة السُّورة : تبدأ السورة بتثبيت قلب النبيّ وهي تُقسِم بنون وبالقلم وبما تسطره الملائكة بالقلَم من أعمال البشر وما يُعدُّ لهم . وما يقدره الله لرسوله من

حمايةٍ ونصر . ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ (القلم: ١-٦)

هم المفتونون وسيدفعون ثمن ما هم فيه .

نصائح للنبيّ : الآيات التالية (٧-١٦) تنهى النبيّ عن قبول المساومة التي يعرضها قادة المشركين . وتَعِدُه أن الله سيُهين كبير المساومين بعملية تقليمٍ لاستكباره عسى أن يعود ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ (القلم: ٧-١٦).

وهكذ تصف هذه الآيات أحد المكذبين بأنه همازٌ نمامٌ حسودٌ معتدٍ أثيمٌ ، وهو فوق ذلك دَعِيٌّ يلتصق بعشيرةٍ ليس منها . وكلّ قيمته أنه يملك مالاً وبنين . وسيوسَم على الخرطوم بعمليةٍ تشبه التقليم عسى أن يعود .

قصة تقليمٍ مثمرةٌ : تورد السورة قصة أصحاب الجنة الذين قرروا الامتناع عن إعطاء المساكين ما اعتادوه من ثمار مزرعتهم يوم حصادها . فأذن الله بحرقها في عملية تقليمٍ لأصحابها ؛ فندموا على ما فعلوا وتابوا إلى الله . ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (القلم: ١٧-٣٣).

قصةٌ تتماشى مع عنوان السورة وموضوعها . وكانت عمليةَ تقليمٍ نافعةٍ فقد فهم أصحاب الجنة الرسالة وعادوا إلى ربّهم وقرروا العودة إلى ما اعتادوا من فعل الخير .

والقصة تهديدٌ لأهل مكّة الذين قرر الله تعالى اختبارهم بعذابٍ كما اختبر أصحاب الجنة لينظر كيف يستجيبون .

إنذارٌ للمشركين : بأربع عشرة آيةً معظمها أسئلةٌ يحملها الرسول من ربّه إلى المشركين عسى أن يهتدوا ، فإن لم يقبلوا برسولهم ولم يتراجعوا فجهنم بانتظارهم : **﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾** (القلم:٣٤-٤٧)

وهكذا تبدأ الآيات بأن الجنة للمتقين . ثم يسألهم أيكون المجرمون كالمسلمين . وبعد عدة أسئلةٍ يقول للنبيّ دع أمر المكذبين لي لأعاقبهم بنفسي وبالمكر اللائق بتكذيبهم .

وتقليم رسول : وختاماً تدعو الآيات النبيّ إلى الصَّبر وإلا فإنه قد يتعرض لعملية تقليمٍ كالتي تعرض لها يونس فعاد إلى ربّه . ويُذكّره أن الله نجّاه من حسد مشركين أوشك أن يزلقه : **﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾** (القلم:٤٨-٥٢).

وهكذا تلتقي السورة كلّها حول عنوانها بمادةٍ منه هي القَلْم بسكون اللام .

* * *

الحاقّة

هي السُّورة التاسعة والستون حسب ترتيب المصحف . عنوانها الحاقّة بمعنى يوم القيامة . وهي حاقّةٌ بكلّ ما فيها ؛ بمعنى أنها تُحقّ الحقّ بما يلزم لاستعادة من يمكن استعادته من مشركي مكّة . تذكرهم السُّورة بفضل الله عليهم . وتذكرهم بمصائر شعوبٍ كفرت بالله وكذّبت رسله . وتَعرِض عليهم مشاهد القيامة والعذاب ترهيباً للمشركين ، عسى أن يخافوا الله فيعودوا إليه . من جهةٍ ثانيةٍ تعرض مصير المؤمنين في الجنّة ونعيمها ترغيباً لمن يصدق . .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الحاقّة عنوانها . وقد وردت كلمة الحاقّة في الآية الأولى بل هي الكلمة الأولى والوحيدة في الآية ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة:١) . وهي في الآية بمعنى يوم القيامة . ولكنها كعنوانٍ تعني المثبّتة للحقّ أو مُحقّة الحقّ .

والحقّ في مقاييس اللغة للرازي : « الحاء والقاف أصل واحد ، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته . والحقّ نقيض الباطل ». ويقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط : « الحاقة النازلة الثَّابتة كالحقّة والقيامة تَحقّ لأن فيها حواق الأمور أو تَحقّ لكلّ قومٍ عملهم » ويقول في البصائر : « أصل الحقّ المطابقة والموافقة » .

نعم صدق الفيروزآبادي الحاقة تُحقّ فيها حواقُّ الأمور وكذلك سورة الحاقة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

بلهجةٍ غاضبةٍ وكأنها بيانٌ ختامي تأتي السُّورة بادئةً بآياتٍ قصيرةٍ جدًّا . وهذا الأسلوب من علامات الغضب . ولم نبتعد عن الحقيقة باستنتاجنا هذا فهي من أواخر سور المرحلة المكية . فحسب الفيروزآبادي في البصائر لم ينزل بعدها سوى تسعِ سورٍ في مكّة . وحسب الزَّركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن نزل بعدها سبعُ سورٍ فقط . ثم هاجر النبيّ إلى المدينة .

وينطلق البيان الشديد من التذكير بيوم القيامة بصفتها الحاقّةَ التي سيَلقى فيها كلّ امرئٍ ما قدم . ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة:١-٣)

وبما يتناسب مع اسم السُّورة من حقّ وجَدّ تُعرَضُ مصائرُ أممٍ سابقةٍ كفرت برسل الله إليها ؛ فنالت عقاباً قاصماً سريعاً كصياغة الآيات التي تذكره ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾

(الحاقة:٤-١٠) .

والخطاب للنبيِّ لا غضباً منه لكن غضباً معه على قومه ؛ وتأكيداً له أن مصير أعدائه المكذبين لن يكون مختلفاً عن مصير نظرائهم ، إن لم يصدِّقوه ويتَّبعوه . وهذه النهاية للمكذبين من سنن الله وحقائق الحياة التي لاتستثني أحداً .

وتُذكِّره بنعمه عليهم : ويستمر الخطاب مُوجَّهاً إلى رسول الله ليتذكر ويُذكِّر قومه بفضل الله عليهم يوم نجّى أجدادهم ممن كانوا مع نوح في السفينة : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾

(الحاقة: ١١،١٢)

حقيقة القيامة والبعث والحساب : بست آيات ترسم مشهد يوم القيامة ثم العرض والحساب . ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (الحاقة:١٣-١٨)

جزاء المصدقين بالرسالة والرسول : تنقلب اللهجةُ رأساً على عقبٍ . فبعد مفرداتٍ مليئةٍ بحروفٍ قاسيةٍ على السمع في عرض مشهد القيامة تأتي آيات أهل اليمين بأحرفٍ ناعمةٍ مريحةٍ خفيفةٍ على السمع ونكاد نرى الناجين يتفاخرون بكتبهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة:١٩-٢٤) تفيض السعادة من كلماتهم وقلوبهم وتكافئهم كلمات الله بما يستحقّون من عيشٍ هنيئٍ بما تحملوا .

وجزاء المكذبين : جزاءٌ قاسٍ شديدٌ يتمنَون معه لو يُفنيهم الله قبل الحساب . ونسمعهم يتحسرون على الفرصة الضائعة ونعيم الدنيا الذي فارقهم لأنـّهم لم يؤدّوا حقّه . وترسم الآيات صورتهم المهينة القاسية في جهنم ، وهم مقيّدون بالسلاسل جزاء ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا . فلا يستحقّون شفقةً ولا تعاطفاً معهم . ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ** ﴾ (الحاقة:٢٥-٣٧)

صدق الرسول والقرآن : يقسم الله على صدق رسوله وصدق ما يأتي به من قرآن . فالله رقيب على ما ينزل من كتابٍ ولا يأذن بأيِّ تغيير في كلامه ؛ وليس للرسول حقّ الإضافة فيه أو النقصان : ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ** ﴾

(الحاقة:٣٨-٥٢) .

وبذا حقّت السُّورة الحقائق التالية : قيام الساعة ، الحساب والجزاء ، والجنة والنار ، وصدق نبوة محمد وصدق كتاب الله الذي أُنزل عليه . وبذا استحقّت اسم الحاقّة .

* * *

المعارج

هي السُّورة السبعون حسب ترتيب المصحف . يأتي اسمها ككلمة المعارج الواردة في الآية الثَّالثَة منها . وهي في الآية بمعنى مصاعد الملائكة في السموات . واستُعملت عنواناً للسورة بمعنى وسائل السمو والترقي بما يرضي الله . وقد سردت السُّورة الأعمال التي يسمو بها الإنسان فيستحقّ الإكرام يوم الحساب . وهي الصَّلاة الحقّة ودفع الزَّكاة والصَّدقة والتصديق بيوم الدين وتقوى الله والعفة وعدم الوقوع في الزِّنا وأداء الأمانة والوفاء بالعهد والشهادة بالحقّ .

عنوان السُّورة وموضوعها :

المعارج! والمعارج جمع مَعرَج على وزن مفعل فهو اسم مكان . وعن معناها في المعاجم اللغوية يقول الرازي في مقاييس اللغة : «العين والراء والجيم ثلاثة أصول : الأول يدل على ميل وميل ، والآخر على عدد ، والآخر على سموٍّ وارتقاء». وهذا الأخير هو الذي يهمنا . فالمعارج كعنوان للسورة تعني وسائل السموّ والارتقاء . وإذا كانت الآيات (٢٢-٣٥) تصف مباشرةً الأعمال التي يسمو بها الإنسان ؛ فإن بقية السُّورة تنهى عما ينحدر بقدر الإنسان فكأنها هي الأخرى دعوة لتجنب ما يجر الإنسان إلى مهاوي السقوط . ، فهي دعوة للسموّ بطريقةٍ غير مباشرة.

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

بحكايةٍ تبدأ السُّورة جواباً لسؤال سائلٍ . لكنه سائلٌ مكابرٌ منكرٌ ليوم البعث فيأتي الجواب مناسباً لإنكاره . يأتي الجواب تأكيداً ليوم البعث وتهديداً لمن لا يؤمن به . ﴿ **سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ** ﴾ (المعارج: ١-٤)

والحديث كلّه موجّهٌ للنبيِّ . ولذلك يكون بقيّة الجواب توصيةً للنبيَّ بالصَّبر على أسئلتهم الاستنكارية . ثم يصف اليوم بأحداثه الكونية وتفاعلات البشر معه : ﴿ **فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ**

كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (المعارج:٥-١٤)

ثم يصل التهديد والترهيب قمته بوصف النار وفعلها بأجساد نزلائها : ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾

(المعارج:١٥-١٨)

وبعد الرعب الذي يضرب في قلوب المنكرين تأتي آياتٌ تصف نعيم المؤمنين . فيسعد بها المؤمنون من أتباع الرسول . وتكون مخرجاً من العذاب الموصوف ، لمن يستطيع إنقاذ نفسه بالعودة إلى الله واتّباع النبيّ الرسول . وبين يدي الوعد والمخرج آياتٌ تصف الإنسان عامةً . وتجبُر المسافة بين الفقرة السابقة المليئة بالتهديد والفقرة اللاحقة الباعثة على السعادة . فكأن الآيات الثَّلاث تبرر استعمال هذا الأسلوب في هداية المشركين من أهل مكّة : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (المعارج:١٩-٢١)

وتستثني الفقرة التالية المؤمنين الثَّابتين من اللجلجة والاضطراب الذي يصيب المنكرين والمحتارين .

وسائل العروج إلى منازل السموّ والرقيّ : المصلّون الصادقون بصلاتهم هم أول من يصعد سلم السموّ ولكن ليس بالصلاة وحدها يعرجون إلى منازل الرقي بل يلزم أن يؤكدوا صدقها بالتزامات وخصائص أخرى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (المعارج:٢٢-٣٥) .

ولعله يجدر لفت النظر لبلاغة الفواصل في القرآن ؛ فلولا توقف الآية بعد كلمة مصلين لجاز لنا أن نفهم أن كل صفة وحدها مما ذكر بعد الصلاة كافية وحدها لدخول الجنة . ولكن التوقف بعد كلمة «المصلين» في الآية (٢٢) يؤكد أن الصلاة

الحقيقية المقبولة هي التي يرافقها الصفات والأعمال المذكورة في الآيات اللاحقة حتى الآية (٣٥) لتؤهل صاحبها للمنزلة العظيمة ولا تكفي وحدها .

أمنيات بعض المشركين : إزاء عرض الموضوع كما عُرض ترهيباً وترغيباً ، اضطرب فئةٌ من المنكرين وصاروا يحومون حول النبيّ ويتساءلون شاكّين مهزوزين داخل نفوسهم إن كان أصحاب الرسول سيحظَون بكلّ هذا النعيم وسيحرمون هم منه!! ﴿ **فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ (المعارج:٣٦-٣٩) .

ختامٌ وإجمالٌ : بقسم قاطع يُبلِغ الله نبيَّه أن الله قد يُفني المشركين ويُحل سواهم محلهم كما فعل بأهل مكّة من قبل : ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ** ﴾

(المعارج:٤٠-٤٤)

فيكون هذا الختام بما فيه من تهديد عنيف يعرفه أهلُ مكّة الذين جعلهم الله بدلاً لجيل كان قبلهم من جرهم . وذلك لما ظلمت جرهم واستبدت بأمر البيت . فيكون هذا الجزء داعياً آخر لمن به بقيّة خير أن يعود إلى الله ويعرج مع الصالحين الصاعدين بفضل الله .

* * *

سورة نوح

هي السُّورة الحادية والسبعون حسب ترتيب المصحف . عنوانها نـوحٌ وتعـرض قصة نوحٍ مع قومه . ولها من معنى كلمة نوحٍ نصيبٌ آخـر . وإن كـان وصـفاً للـذي جرى بين نوحٍ وقومه . فكلمة نوحٌ تعني التقابل . فكـأن الطوفـان يقابـل كفـر قـــوم نوحٍ . وكانت شدّة الطوفان ردّاً يقابل شدّة عنادهم وإصرارَهم على الكفر .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها نوحٌ . وقد وردت الكلمة في الآيـة الأولى مقصـوداً بهـا رسـول الله نـوحٌ . ومع أن السُّورة تدور حول قصة نوحٍ مع قومه منذ دعاهم إلى عبادة الله حتى أهلكهم الله بالطوفان . إلا أنها كعنوانٍ للسورة لها معنًى مختلفٌ غير اسم الرسولِ نوحٍ .

جاء في مقاييس اللغة للـرازي : «النـون والـواو والحـاء أصـل يـدل علـى مقابلـة الشـيء للشـيء ، ومنـه تنـاوح الجـبلان إذا تقـابلا ، وتناوحـت الريحـان : تقابلتـا في المهب». وفي مختار الصحاح للرازي : « ن و ح : التَّنَاوُح التقابُل» وفي الصحاح في اللغة للجوهري : التَناوُحُ : التقابل . يقـال : الجـبلان يتناوحـان . وكـذلك الريـاح إذا تقابلت في المهبّ ، لأن بعضها يُناوِحُ بعضاً

وفي تاج العـروس للزبيـدي : « التَّنَـاوُح : التَّقابُـل ومنـه تَنَـاوُحُ الجَـبلَين وتنـاوُحُ الرِّياحِ».

فهـو تنـاوح أوابـدَ عظيمـةٍ كالريـاح والجبـال . ولـيس أيَّ تقابـلٍ! وأكثرنـا مـن المراجع لأن هذا المعنى لكلمة نوحٍ يكاد يكون منقرضاً . ولا يستعمله المعاصـرون من الناطقين بالعربيَّة .

و«التقابل» هو المعنى الذي تدور حوله السُّورة . فمقابـل شـدّة كفـرهم وصـلابة عنادهم ، تَعَرَّضَ قومُ نوحٍ لطوفـان لعلـه الأعظـم في تـاريخ البشـرية . فـإن لم يكـن الأعظم فهو الأشـهر . وكـان جـزاءً وفاقـاً لكفـرٍ بـواحٍ وعنـادٍ لعلـه الأشـدّ في تـاريخ النبوّات .

ولو كانت السُّورة لتقص قصة نوحٍ كما ظن كثير من المفسرين فما الهدف منها؟ فالأحداث كلّها سبق ذكرها وأكثر منها في سورٍ سابقةٍ وخصوصاً في سورة هودٍ . ولكنها جاءت لغرضٍ خاصٍّ بها . وهو تهديدُ قُريشٍ بأن عند الله ما يكافئ عنادهم إن استمروا عليه ، كما رد سبحانه على عناد قوم نوحٍ .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

بأطروحةٍ بسيطةٍ ومباشرةٍ وبآيةٍ واحدةٍ تبدأ السُّورة ﴿ **إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ** ﴾ (نوح:١)

والمعنى غير المباشر لهذه الأطروحة المباشرة أن السُّورة ستعرض قصة نوح وقومه في مرحلة تكاد تكون نهائيّة . فهي تبدأ من الإنذار . والأصل في الرسول أنه بشيرٌ ونذير . ولكن عناد القوم ورفضهم لدعوة رسولهم لم يُبق مكاناً للبشرى .

تقابل الإنذار والاستجابة : يعرض نوحٌ على قومه إنذاره ويعدهم بالمكاسب التي سيحقّقونها إن استجابوا . وهذه أول عمليةِ تناوحٍ في السُّورة : ﴿ **قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ (نوح:٢-٤)

وكانت مكافأتهم لو أطاعوا رسولهم الغفرانَ وبقاءهم في الأرض وفي هذا تلميحٌ إلى أن هلاكهم قريبٌ ومقررٌ .

توجُّه نوحٍ لربِّه : بعد جولاتٍ مركزةٍ من الدعوة ولمدةٍ طويلةٍ ، كما يُفهم ، لخص نوحٌ ما قدمه لقومه وبما كانوا يردون عليه : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢**

وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ (نوح:٥-٢٤) . وفي عملية تناوحٍ تامةٍ كان للقوم ردٌّ مقابل ما دعاهم رسولهم إليه .

الرد الإلهي : وأتى ردّ الله قويّاً بل ما زالت البشرية تتذكر شدّته . وما كان إلا ليقابل عناد القوم وإصرارهم على الكفر : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ (نوح:٢٥) وتأتي الكلمة الأولى في الآية (مما) لتثبت نظرية التناوح بين كفرهم وعقابهم

وختاماً : وعلى غير ما نتوقع نسمع دعاء نوحٍ . وكان المنطق أن نرى الدعاء قبل العقاب . ولكن عنوان السُّورة أوجب أن يكون إغراق القوم مقابل ظلمهم وكفرهم وليس لدعاءٍ نوح . أما دعاء نوح فيبقى راحةً نفسيةً له ؛ فيسعد بتوافق غرقهم مع أمنيته . وهي مقابلةٌ أخرى . فمقابل ما تَحَمَّله من عناد قومه وأذاهم وتهكمهم نراه يدعو ويرتاح للنتيجة في النهاية ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ (نوح:٢٦-٢٨) . ونعلم سلفاً أن ما طلبه نوحٌ تحقّق . واكتملت المقابلات بالعدل . فكانت السُّورة نَوحاً وتناوحاً بحقّ وحقيقة ! وكأنَّ اسمها جاء ليصف ترتيب آياتها وتقابُلَها . بالإضافة إلى تهديدها الضمني لقريشٍ إن استمروا بعنادهم لنبيِّهم فعند الله ما يقابل ذلك العناد ، فليتعظوا ! والرسالة الأهمّ كانت للنبيِّ بصفته يعيش مثل حالة نوحٍ مع قومه .

ترى هل كان يمكن لبشرٍ أن يجعل الدعاء بعد خبر الطوفان لو كان الذي يسرد القصة بشر . وهل يجوز هذا لو كان للسورة عنوانٌ آخر؟ ولكنه الله القدير وهو ينزل معجزته قرآناً !

* * *

سورة الجنّ

سورة الجنّ هي السُّورة الثَّانية والسبعون حسب ترتيب المصحف . تعرض قصّة استماع نفرٍ من الجنِّ للقرآن عندما كان رسول الله يتلوه في الصَّلاة . وتتحدث السُّورة عن إعجابهم بالقرآن عند سماعه . وتوظّف الحدثَ لتخلّص تصوّرات العرب للجنِّ من الخرافات والكذب . فكان بعض العرب يعبدون الجنّ . فإذا بهذه الفئة من الجنّ تؤمن بالله وتوحّده توحيداً خالصاً . وكان بعض العرب يتّصل بالجنّ ويسمع منهم أخباراً يظنّها صحيحةً . فإذا الجنُّ محرومون من سماع أيةِ أخبارٍ من السماء . وبالتالي فهم لا يعلمون الغيبَ ولا يعرفون المستقبل كما يُرَوِّجُ العائذون بهم .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها الجنُّ . وقد وردت كلمة الجنّ في الآيتين الأولى والخامسة . وفي المرتين قُصِدَ بها تلك المخلوقاتُ الناريّة الخفيّة عنا معشرَ البشر . ولا نعلم عنها علم يقين إلا ما ورد عنها في القرآن الكريم ، فسواه تخريص .

والسُّورة تَروي قصّة جنٍّ سمعوا رسول الله وهو يقرأ القرآن في صلاة الصبح فتأثروا بما سمعوا وسجّلت السُّورة مقالتهم .

ولكلمة « جنّ » معان أُخَر غير الجنِّ المذكورة أعلاه . جاء في مقاييس اللغة للرازي : « الجيم والنون أصل واحد هو الستر والتستر » وفي لسان العرب لابن منظور : « جن الشباب أوله ، وقيل جدته ونشاطه . . . وكذلك جن كلّ شيء أول شدته . . »

ويستنتج من هذه الأقوال أن كلمة جنٍّ تعني طاقةً خفيةً تظهر بقوةٍ فائقةٍ مقارنةً بالعادة . وحول هذا المعنى تدور السُّورة . فهي تتحدث عن الجنّ ثم عن نظام يكاد يَخْفَى يحفظ السماء من الجنِّ ؛ وعن رقابة الله على رسله كجزء من خطط الله الغيبيّة التي لا يَطَّلِع عليها أحدٌ إلا الرسلُ المكلّفون بتنفيذها . فهي سورةٌ عرفانيةٌ من حيث أنها تصوّب تصوّراتنا عن تلك المخلوقات . فتحفظ المؤمنين من أن يعبث أحدٌ بعقولهم أو يحتال عليهم كما يحدث للبسطاء والطامعين من الناس حتى هذه الأيام .

كما تعرض بعض وسائل حفظ الملأ الأعلى من الجنِّ . ليطمئن البشر على سلامة مسيرة الكون وحفظه من العبث .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بكلمة «قل» موجّهةً إلى رسول الله ليُبلغ قومه قصّة الجنِّ كما ترويها السُّورة . وهي فقرةٌ طويلةٌ لكنها تُصوِّب تصورات العرب عن الجنّ . فقد اتخذ بعض العرب من الجنِّ آلهةً . ومنهم من كان يستعين بهم ويظنّ أنهم يعلمون الغيب . وتسقط هاتان الفكرتان حسب الفقرة الأولى من السُّورة : ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا** ﴾ (الجن: ١-٧)

وبالإضافة إلى بيان أنهم ليسوا آلهةً ، فإن الجنّ المذكورين يعترفون أنهم زادوا حلفاءهم من الإنس رهقاً . وأنهم يوحدون الله توحيداً خالصاً يخلو من أيِّ أثرٍ للشرك .

سِترٌ دون الجنّ : إذا كانت كلمة جنٍّ تعني الستر ، وإذا كانت قوة الجنِّ في اختفائهم عن عيون البشر فإن أبواب السماء وغيبَها مستورةٌ عنهم وأخبارُها مخفيةٌ عنهم بسياجٍ محكمٍ . ففي الفقرة التالية يستمر الجنُّ بالحديث ، ويتحدثون عن استتار السماء دونهم بسياجٍ من شُهبٍ وحرسٍ أقوى منهم . وبذا تَبطُل حجّة الذين يزعمون أنهم يتلقَون أخبار السماء عن طريق الجنّ . ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ (الجن:٨-١٠)

وهم هنا يتحدثون عن مرحلة تكليف رسول الله وما قبلها بقليل . حيث يُفهم من النصّ أن الحراسة زادت كي لا تتسرب أخبار السماء إلى الجنِّ فيسيئون استخدامها . فكأنَّ السماء صارت جنّاً على الجنِّ كما الجنُّ على البشر .

الجنُّ والتدينُ : يتحدث الجنُّ عن علاقتهم بالله وطاعتهم له فمنهم الصالح ومنهم الطالح ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** ﴾

(الجن: ١١ – ١٥) .

وبذا تنتهي قصة الجنّ . وهي لا تعني أنهم صاروا مسلمين بالمعنى الاصطلاحي كما يهرف بعض الناس . بل آمنوا إيمان تصديق بالقرآن ، فأسلموا بمعنى توحيد الله وطاعته في أمرهم وهو مختلفٌ عن أمرنا . فلا تنفعهم شريعتُنا ولا تَضبِطُ أمرهم . وتبدو الآيات التي تأتي خطاباً للنبيِّ كأنَّها تنقل حديثاً دار بين الجنِّ عندما سمعوا خبر القرآن .

كلام لأهل مكّة : بعد أن جردهم من أحد مصادر قوتهم بزعمهم ؛ يقول للنبي لو استقام قومُك لأنزلنا عليهم مطراً غزيراً يشربون منه ويكون مصدر رزقٍ وزرعٍ يفتنون به كما يُفتن الناس برزقهم .

﴿ **وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا** ﴾ (الجن: ١٦، ١٧)

ولكنهم اختاروا الإعراض وما يتبعه من عذاب شديد .

وتستمر الرسالة إلى المشركين . تنهاهم عن الشرك بالله في المساجد وعن إزعاج النبيّ وهو يصلي . ثم يؤمر النبيّ أن يعرفهم على حدود عمله كرسول لله ﴿ **وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا** ﴾

(الجن: ١٨ – ٢٣)

فهو كرسولٍ لله لا يملك إلا البلاغ . فيصوب تصوراتهم حول النُّبُوَّة . وتأتي هذه الآيات بوصفٍ موقفهم المؤسف من النبيّ وهو يصلي مقابل موقف الجنِّ الإيجابي عندما سمعوه يتلو القرآن ؟

وعذاب لقريش يستره الغيب : بعد إخبار النبيّ بالعذاب المعد لهم ، ونعلم لاحقاً أنه يومُ بدرٍ ، حيث يهزمهم الله بالمؤمنين الأقلِّ عدداً وأقوى ناصراً . ثم يُؤمر النبيّ أن يدعهم في حيرةٍ من الموعد بما يتماشى مع عنوان السُّورة وجَوِّها : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا** ﴾ (الجن: ٢٤،٢٥)

وختاما : يُذكَر الله تعالى بصفته عالم الغيب ، فلا يُظهِر على غيبه أحداً لا جنّاً ولا سواهم ، إلا من يكلّفه من الرسل ، فيضعه تحت رقابةٍ مشددةٍ ، تُسجِّل عليه كلّ كلمة يقولها للتأكد من صدق الأداء :

﴿ **عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا** ﴾ (الجن:٢٦-٢٨)

وبذا تضع السُّورة تصوراً واضحاً لحدود الستر والعلن في خطة الله بما في ذلك حدود قدرة الجنِّ وحدود عمل الملائكة والرسل .

* * *

المزّمِّل

هي السورة الثَّالثَة والسبعون حسب ترتيب المصحف . تخاطب رسول الله في بداية التكليف باسم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾. ثم تقول له ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾. وهذا يتفق مع كلمة المزّمّل كموضوعٍ للسورة . فبينما قصدت الكلمة كنداءٍ في الآية الأولى المتلفف بثيابه ؛ فإنها كعنوانٍ تعني المُستعدُ لحمل ثقيل . والسورة تدور حول إعداد الرسول والمؤمنين معه بوسائل تربيةٍ ثقيلةٍ ؛ وذلك بقيام الليل الذي يبلغ ثلثي الليل وتلاوة القرآن والذّكر والاستغفار .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها المزّمّل وقد ورد في الآية الأولى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ (المزمل:١) . ويرى معظم المفسرين أن المزّمّل في الآية بمعنى الملتف بثيابه مهابة شيءٍ ما .

وفي معاجم اللغة نقرأ في المقاييس للرازي : «الزَّاي والميم واللام أصلان : أحدهما يدل على حمل ثقل من الأثقال والآخر صوت» والأول هو الذي يعنينا .

وفي لسان العرب لابن منظور : «الزَّمْل : الحِمْل»

فالسّورة كما قالت للنبيِّ : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ . فيكون موضوعها الحمل الثَّقيل الذي ينتظر الرسول بعد تكليفه بالدعوة . وإذا كانت كلمة المزّمِّل اسم فاعل فإنها بمعنى المستعد لحمل ثقيل وإذا كانت اسم مفعول فإنها تكون بمعنى : الذي يُعد لحمل ثقيل . والمسافة قريبة بين المعنيين .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة نداءً موجّهاً للرسول . لإعداده للحمل الثَّقيل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل:١-٥) .

ويمكن اعتبار هذه الآيات الخمس أطروحة للسورة . خصوصاً أن الآيات التالية لها تزود الرسول بتعليمات تنفيذية لها .

الإعداد للحمل الثَّقيل : تفسر الآية السادسة سرّ اختيار قيام الليل كطريقة تربيةٍ وإعدادٍ للنبيِّ ؛ فالقيام بعد النوم يجعل القلب أقدر على تلقي القرآن عدا عن كونه أكثرَ تفرغاً لمخاطبة الله في الصَّلاة : ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً** ﴾ (المزمل:٦-٩)

هذا واجبه الليلي ؛ عبادةٌ خالصةٌ موجهةٌ إلى الله عز وجل . وفي النهار يحتاج الصَّبر على سوء أخلاق قومه وجدالهم العبثيّ . ومع الصَّبر يَعِدُه الله بتولي أمرهم ﴿ **وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً** ﴾ (المزمل:١٠-١٤)

تهديد المشركين : زيادةً في تثبيت الرسول وإعانته على الحمل الثَّقيل يرسل معه رسالة تهديدٍ لعتاولة الكفر في مكّة ﴿ **إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ۝١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً** ﴾ (المزمل:١٥-١٩)

ولأن الرسالة كانت مبكرةً فقد خَتمت التهديد بأنه تَذكِرة لمن يستطيع العودة إلى الله وإلى اتباع الرسول .

تخفيف : تنتهي السُّورة بتخفيف الحمل الثَّقيل عن النبيّ . خصوصاً الجزءَ المحدد منه وهو قيامُ الليل . وفي آيةٍ هي أقرب أن تكون فقرةً لا تعفيهم من قيام الليل ؛ لكن تعدهم بالغفران لمن لا يستطيع تنفيذ الأمر كما نزل تماماً . وتتضمنُ تعليماتٍ بطريقة التعويض عن التقصير ؛ وذلك بتلاوة القرآن ودفع الزَّكاة والصَّدقة والاستغفار ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن**

فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (المزمل: ٢٠)

إعدادٌ للأمر الثَّقيل بأدواتٍ ثقيلةٍ وحازمةٍ فالمهمة المطلوبة صعبةٌ . وفوق ذلك تحتاج صبراً على ظلم المشركين بالإضافة إلى الصَّبر على القيام والتلاوة .

* * *

المدّثّر

هي السورة الرابعة والسبعون حسب ترتيب المصحف . تدعو الرسول لخلع دثاره ومغادرة فراشه والصدع بما أمره الله به . وفي السُّورة آياتٌ لاحقةٌ نزلت بعد أن صدع النبيّ بالأمر فتصدى له أصحاب العقول والدثور . وتروي السورة قصة رجلٍ من أكثرهم مالاً وولداً ، ولديه علمٌ بأصول الكلام وتصريف القول . فكأنه بدنياه وبتمثيله لقوى الكفر يقابل النبيّ كرسولٍ لله وداعيةٍ لقومه إلى الإيمان بالله . فيعد الله نبيه أن يتكفل بأمره . ليتفرغ النبيّ لدعوته ويفرغَ قلبه من الحزن لينشغل بذكر ربّه . فهي سورة المدّثّر المدعو لمواجهة أصحاب الدثور .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها المدّثّر . وقد وردت الكلمة في الآية الأولى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ (المدثر:١) . ويجمع المفسرون على أنها استعملت بمعنى المتلفف بثيابه . والدِّثار هو ما كان فوق الملابس الداخلية الملاصقة للجسد التي تسمى الشّعار .

ولكن للدثر معانٍ أخرى تؤشر على موضوع السورة أو فقراتها . ولعلها تصف أسلوبها .

جاء في المقاييس للرازي : «الدال والثَّاء والراء أصل واحد مُنقاس مُطَّرِد ، وهو تضاعُف شيء وتناضده بعضه على بعض . فالدَّثْر المال الكثير ، والدَّثار ما تدثر به الإنسان وهو فوق الشعار ، ومن الباب تدثر الرجل فرسه إذا وثب عليه فركبه»

وفي لسان العرب لابن منظور : «الدَّثر بالفتح المال الكثير ، . . وقيل هو الكثير من كلّ شيء ؛ (ومنه ما قيل للنبيّ) ذهب أهل الدثور بالأجور» .

والسّورة التي تبدأ بالمدّثّر صفةً لرسول الله لأنه تلفف بثيابه رهبةً بعد لقاء جبريل ، تأمره أن يستعد ويقوم ويمارس دعوته كما الفارسُ الذي يتدثر فرسه .

وفي السُّورة قصّة الرجل صاحب الدَّثر من المال . والذي دثّر كلامه عن القرآن منضداً إياه صفةً فوق صفةٍ ومتطوراً به حالاً بعد حال ليتمكن من الطعن بالقرآن بطريقةٍ تبدو مقنعةً . والسورة بصياغتها متدثّرةٌ بترتيبٍ أقرب للتنضيد . كلّ فقرةٍ

منها لوحةٌ منضدةٌ متدرجةٌ طبقةً فوق طبقةٍ . فانطبق اسمها على موضوعها وعلى ترتيب آياتها .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

بنداءٍ للرسول وتكليفٍ تبدأ السُّورة . وبيا أيها المدّثّر ليستحي من الله وينطلق من رهبته : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ** ﴾ (المدثر:١-٧)

وهكذا تتطور الآيات مع النبيّ منذ يخلع دثاره وينطلق بدعوته حتى يضطر للصبر على أذى قومه . ومقابل دعوته للصبر تعده أن عذاباً شديداً ينتظر من يكفر به وبدعوته ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ** ﴾ (المدثر:٨-١٠) .

صاحب الدثور : تُجمع الروايات أن المقصود بها الوليد بن المغيرة المخزومي . فهو الذي انتدبته قريشٌ ليقول شيئاً في القرآن ليصدَّ الناس عنه . وذلك لعلمه بأساليب الكلام . وكان نصيبه ست عشرة آيةً مخصصةً له لم يشاركه فيها بشرٌ . وتذكر دثوره وبنيه ونِعَم الله عليه التي لم يقدرها . خلقه الله وحيداً لا مال له ، ثم رزقه وجعل له دثراً وذريةً ظاهرةً : ﴿ **ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ** ﴾(المدثر:١١-٢٦).

وتأتي الآيات بنظامٍ منضدٍ مرتبٍ درجةً درجةً بما يتفق مع مادة « دثر » . ولأن الله رفعه درجةً درجةً ومهّد له تمهيداً فقد جاء عذابه صاعداً شدةً بعد شدةٍ ﴿ **سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا** ﴾ (المدثر:١٧) . ثم ينتقل إلى فعلته مع القرآن والتي صدرت عنه بنظامٍ وتدريجٍ ليصل منها أن القرآن سحرٌ يؤثر!!

ونظام لجهنم : تنتقل الآيات من جزاء الوليد بن المغيرة إلى وصف مستقَرِّه ومستقر كلّ كافر وهي جهنّم . فتُعَرِّفها انطلاقاً من مفعولها الشديد وحراسها من الملائكة : ﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ**

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر:٢٧-٣١)

ويأتي عدد الملائكة ليثير سخرية المشركين ، فيصدَّ عن الإيمان من لا يستحقّه . وعندما يقال هذا للنبيِّ الحريص على القيام بواجبه ؛ فإنما هو لتخليصه من الحزن إذا لم يرض عن نتائج جهده . وليعلم أن الله يهدي من يستحقّ . وهاهو سبحانه يتعمد صرف أناسٍ عن الإيمان بما اكتسبوا . فالمؤمنون الأوائل طليعة الأمة يجب أن يكونوا على خُلقٍ عظيمٍ وقلبٍ سليمٍ ليكونوا قاعدةَ الأمة لأجيالٍ قادمةٍ .

النار نذيرٌ وهدايةٌ لمن يستحقّ : بمنظومةٍ كونيةٍ جديدةٍ تتحدث الفقرة التالية عن النار كوسيلةٍ لاسترداد من يستحقّ الهدى : ﴿ **كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ (المدثر:٣٢-٣٨)

وكعادة القرآن غالباً ما توظف الآية الأخيرة من الفقرة في فقرتين السابقة واللاحقة . فالهدى والضلال يكون بناءً على ماضي الإنسان أو كما قالت الآية بنصها الجميل الآسر ﴿ **كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ (المدثر:٣٨) . ثم يمكن أن تكون قاعدةً للفقرة اللاحقة ليستثنى بها الصالحون .

أسباب دخول النار : نعلم أسباب دخول أهل النار إلى النار بأسلوبٍ رشيقٍ وعرضٍ منضدٍ يتفق مع عنوان السُّورة ولكن من خلال سؤال أصحاب اليمين لهم ﴿ **كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ** ﴾ (المدثر:٣٨-٤٧)

بمقابلةٍ معجزةٍ نشاهد الفرق بين أصحاب اليمين في جنات يتساءلون وبين المجرمين مسلوقين في سقر . ثم يعترفون بذنوبهم بأسلوبٍ واعظٍ . فمن فعل مثل ذنوبهم سعى لمثل مصيرهم . وله أن يختار . وبإمكانه تجنب ذلك المصير قبل فوات الأوان وقبل أن لا تنفع شفاعة الشافعين .

نداءٌ أخيرٌ لعلهم يرجعون : وانطلاقاً من نهاية الفقرة السابقة تبدأ الفقرة التالية وبعد التذكير أن لا شفاعة بعد الموت تتساءل الآيات على مسمع من الرسول ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ** ﴾ (المدثر:٤٨-٥٦)

كانت بداية السُّورة تحريضًا للنبيِّ للخروج من دثاره والانطلاق بدعوته ، وواصلت تشجيعها للنبيّ ليواصل عمله الجادّ كالفارس ؛ والله يتولى عنه أعداءه . وفي النهاية دعوةٌ لمن كسبوا خيراً ولأهل التقوى أن يسرعوا بالالتحاق بالركب مع النبيّ والمؤمنين معه .

* * *

القيامة

هي السُّورة الخامسة والسبعون حسب ترتيب المصحف . حملت اسم القيامة أحد أركان العقيدة ومحل خلافٍ وإنكارٍ من المشركين . فنراهم يسألون ﴿ **أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ** ﴾ . وهم لا ينكرون القيامة لذاتها لكن للحساب والجزاء . وقبل ذلك ينكرون عملية البعث . وتحرص السُّورة على إثبات ما ينكرون بوسائل العقل والمنطق والمشاهدات الحية التي تقود للإيمان بالبعث والقيامة والحساب والجزاء .

وبالإضافة إلى حديث القيامة تدعو السورة رسول الله إلى العزم بأخذ الأمور فلا يستعجل قبل أن تكتمل وسائل الدعوة وتنضج . وتعيب السُّورة على البشر حبّ العاجلة وإهمال الآخرة . مع أن الآخرة هي دار القرار ومتطلبات النجاح فيها هي الأَولى حتى بالمقياس المادي . فهي إجمالاً دعوةٌ للجدّ وليقظة الضمير ونهيٌ عن الاستعجال الذي يكون مصدره الكسل وعدم الجدّ وعدم الصَّبر على العمل .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها القيامة وقد وردت الكلمة مرتين في السُّورة : في الآية الأولى ﴿ **لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ** ﴾ (القيامة: ١) وفي الآية السادسة ﴿ **يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ** ﴾ (القيامة: ٦). والسُّورة بمعظمها تصف يوم القيامة . كما تصف اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان . ولكن في السُّورة أموراً أخرى ، على قلتها ، مما يجعلنا نبحث عن معنى القيامة ، لنفهم إلى أي شيءٍ توجه السورة موضوع القيامة أو توظفه . فموضوع القيامة ذُكِر كثيراً في القرآن ونزلت به عدة سورٍ بأسماءَ مختلفةٍ كالواقعة والحاقة . ولكنه كان في كلّ مرةٍ يُوظَّفُ لغرضٍ من أغراضِ القرآن وهو يطوِّر الإنسان .

جاء في مقاييس اللغة للرازي : « القاف والواو والميم أصلان صحيحان يدل أحدهما على جماعة ناس ، وربّما استعير في غيرهم . والآخر على انتصاب أو عزم ».

والمعنى الثَّاني هو الذي يهمنا . ونواصل النقل عن المقاييس : « قام قياماً إذا انتصب ويكون قام بمعنى العزيمة . كما يقال : قام بهذا الأمر إذا اعتنقه ».

وفي لسان العرب لابن منظور : « القِيام العَزْمُ كقول النابغة الذبياني

نُبِّئتُ حِصْناً وحَيّاً مِن بَني أَسَدٍ قــامُوا فقــالُوا حِمانـــا غــيرُ مَقْــروبِ .

أَي عَزَموا فقالوا . ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ أي لما عزم . وقوله تعالى ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : أي عزَموا » .

وبذا يكون المعنى الذي نجده في السورة بمعنى الاستواء منتصباً والعزم في تنفيذ الأمر تجنباً لأهوال القيامة وضيق لحظة الموت .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بشبه قسم بأمرين عظيمين هما يوم القيامة والنفس اللوامة التي يملكها المؤمن حيّ الضمير . فهما يتعاضدان في نجاة الإنسان من سوء المصير وضياع العمر سدى. ومن لا يملك النفس اللوامة هو الذي ينكر يوم القيامة والبعث. ويمكن اعتبار الآيات الست الأولى أطروحةً للسورة :

أطروحة السُّورة : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (القيامة: ١-٦) .

وتلخص الآيات حالة الإنسان الكافر بربّه السادر في ضلاله . والنفس اللوّامة وحدها القادرة على تصويب تصوّرات صاحبها وحمايته من الضلال وإنكار البعث والجزاء ويوم القيامة .

أحداث القيامة :كعادة القرآن يأتي وصف أحداث القيامة جواباً للسؤال الذي خُتمت به الأطروحة ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (القيامة:٦) . وبدل تحديد موعدٍ يأتي الجواب بذكر علاماتها التالية ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ (القيامة:٧-٩)

ويبدأ الوصف بتسجيل تفاعل الإنسان مع أحداث ذلك اليوم ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ (القيامة:٧) دهشةً وحيرةً مما يشهد من أهوال ذلك اليوم . فهو ليس تسجيلاً للتسجيل ، بل لتحريك مشاعر الإنسان ليفكر ويعود إلى حالة السواء مع الله .

الإنسان بين القيامة والحساب : تستمر الآيات (١٠-١٣) بوصف اضطراب الإنسان ورعبه يوم القيامة ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ

رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (القيامة:١٠-١٣) . وواضحٌ أن هذه الآيات الصغيرة تقصد هز الإنسان لينفض عنه كسله ويقوم بعزم ملبياً دعوة ربّه ونبيه .

إحياء النفس اللوامة : في ساعة الحساب يُنبأ الإنسان بما عمل في حياته . ولم يكن بحاجةٍ لأن يُنبَأ . ففيه أدوات تعرف الخطأ من الصواب ! وهذا هو توظيف ذكر القيامة بالطريقة المرعبة لاستعادة الإنسان وإحياء ضميره أو نفسه اللوامة على حد تعبير السورة : ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (القيامة:١٤،١٥) . فهو يعرف الحقيقة والصواب والخطأ فليستغل فرصة الحياة لتجنب الموقف الرهيب . ويقوم قبل القيامة .

توجيه للنبيّ : تنهى الآيات (١٦-١٩) عن الاستعجال بأخذ القرآن و تلاوته على الناس . وتأتي الآية (٢٠) لتعيب على البشر حب العاجلة . فهل من علاقة بين نهي النبيّ عن الاستعجال وحب العاجلة؟ ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾

(القيامة:١٦-١٩) .

ومهما كان سبب هذا التَّوجيه فهو دعوةٌ لأخذ الأمور بعزمٍ واثق من حكمة الله وعدم الاستعجال . وهو ما يلتقي مع عنوان السُّورة في أحد معانيه . فالتثبت والصَّبر على الأمر قبل البدء بتنفيذه هو من عزم الأمور .

مواقف الناس يوم الحساب :يحبون العاجلة ويذرون الآخرة . مع أن الآخرة هي الأهم ؛ وفيها ينقسم الناس إلى فئتين حسب ما قدموا : ﴿ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۢ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴾ (القيامة:٢٠-٢٥)

وهي توجيه للناس إلى الاتعاظ قبل فوات الأوان فيوم الحساب إما أن تكون الوجوه ناضرةً أو تكون باسرةً ! ومرّةً أخرى هي دعوة للقيام والاستعداد ليوم القيامة بما يليق بعاقل .

لحظة الموت : وهي ساعةٌ قريبةٌ لا فكاك عنها فكلّ حيٍّ سيموت . ولا يوجد عاقلٌ لا يعرف هذه الحقيقة . والحالة الموصوفة هنا هي حالة نزع الروح من الكافر الذي لم يطع الله . وقد وَصفَت الآيات أفعاله وكسله وكذبه ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ

ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾ (القيامة:٢٦-٣٥)

صورةٌ محركةٌ للقلب وكافيةٌ لاستعادة من به بقية صلاح . خصوصاً أنها تذكر من تقصيره ما لا يختلف الناس على أنه تقصير . وصورة من ذهب إلى أهله يتمطى تقابل أخذ الأمور بعزمٍ والقيام عليها أو بها بجدية .

نداءٌ أخير : لاستعادة من يمكن إصلاحه تأتي الفقرة الأخيرة بادئةً بسؤال لا يحتار العقل في جوابه . ثم تُذكِّرُ ببعض مراحل خلق الإنسان المعروفة :

﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ (القيامة:٣٦-٤٠) .

تنتهي السُّورة بتأكيد قدرة الله على البعث وقبل ذلك تذكر السامع أنه لم يخلق سدى . فليستعد للقيامة والحساب بالعزم اللائق والحياة السوية . فيكون وصف القيامة ووصف لحظة نزاع الموت دعوةً لمن كان كفرهم كسلاً ليعزموا أمرهم ويحسموه بالانضمام إلى المؤمنين . وبذا استحقّت السُّورة اسم قيامة بموضوعها ومفعولها .

* * *

الدهر

الدهر هي السُّورة السادسة والسبعون حسب ترتيب المصحف . ووردت كلمة الدهر في الآية الأولى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (الدهر:١) . وتأتي الآية لتعظم قدر الإنسان ، وتقول له إنه لم يكن مهملاً لحظةً واحدةً منذ نشوئه . فهو في تقدير الله ورعايته ورقابته منذ يكون نطفةً . فليحترم الزَّمن وليستعمله بما يقربه إلى الله وينفعه في حياته نموًّا وسموًّا . وهذا هو موضوع السُّورة : إحسانُ استخدام الزَّمن عبادةً لله وصبراً في سبيل الله . وتفضيلُ الآخرة على العاجلة في كلّ اختيارٍ بينهما . ففي الآيتين (٢٤-٢٥) ذُكرت كلّ مواقيت اليوم كمواعيد للصلاة والذِّكر . ووصفت المعرضين عن استعمال الوقت في طاعة الله بأنهم يحبون العاجلة ولا يستثمرون الزَّمن .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها الدهر ليس لها عنوان سواه . نقول هذا لأن معظم المراجع المكتوبة تسميها «الإنسان» . وليس موضوعها الإنسان ، وإن بدأت بتعريف الإنسان . لكنها عرفته من زاوية الدهر . ورسالتها لا تستفيد من اتخاذ الإنسان عنواناً . وإنما تستفيد من الدهر بمعنى الزَّمن عنواناً . فهي تدعو الرسول لاستعمال الوقت أو الزَّمن في تطوير قدراته وتمكين نفسه . وتتحدث عن الذين حسبوا حساب الزَّمن القادم ومعه يوم الحساب فأحسنوا . والذين لم يعتبروا الزَّمن واستمتعوا بالوقت المتاح فاستحقّوا العذاب .

والدهر كما جاء في المعجم الوسيط : الدهر مدة الحياة كلّها وهو الزَّمان الطويل ومن معانيه الهمة والإرادة والغاية».

وفي لسان العرب لابن منظور : «الدَّهْرُ الأَمَدُ المَمْدُودُ وقيل الدهر أَلف سنة» وذكرت كلمة ألف لأنها أكبر رقم في العربيَّة .

وفي صحاح اللغة للرازي : «الدَّهْرُ : الزَّمان والدَّهْرُ : الأَبد».

الدهر هو وعاء الحياة للإنسان وبه تتجلى همته وعزيمته وإرادته . وهذه الصفات هي مجال اختباره على الزَّمن .

ولو سُمِيت الإنسان مع موضوعها فليس فيها ما يميز إنساناً عن إنسانٍ إلا عواملَه الوراثية المذكورة في الآية الثَّانية . وبالتالي كأنَّ السُّورة لو كان اسمها ٌالإنسًان ، تعفيه من العمل وتضع مسئولية عمله على شيءٍ لا دور له فيه . بينما بعنوانها « الدهر » تكون دعوة للإنسان لتوظيف الزَّمن لصالحه قبل أن يكون ضده . وهذا التَّوجيه مما يليق بالقرآن الذي عرف نفسه بأنه « هدى للمتقين » . ولذلك نجزم أن عنوانها « الدهر » وليس « الإنسان » . فالدهر عامل في صنع الإنسان وهو وعاء حياته وعنصر اختباره . وليس الإنسان كذلك . ولا معنى لتسمية سورة باسم النوع ، لأنها لن تقدم شيئاً في هداية الإنسان . خصوصاً أن السُّورة لم تناقش علاقات بشرية أو دور العنصر الإنساني الخارجي في تربية الإنسان والتأثير عليه .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها

تبدأ السُورة بسؤال استنكاري لتذكير الناس أن ليس في حياة الإنسان لحظةٌ واحدةٌ مهملةٌ . بل هو في دائرة الاهتمام الإلهي والتسجيل منذ يكون نطفةً . وليس كما فهم المفسرون أداة الاستفهام « هل » بأنها بمعنى « قد » وبالتالي فالإنسان عندهم كان مدة مهملاً . وهو ما لا يليق بعمل الله المتقن المحيط بأدنى مخلوقاته .

أطروحة السُّورة هي الآيات الثَّلاث الأولى : **﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾** (الدهر: ١-٣)

وهكذا توجه الأطروحةُ السُّورة باتجاه احترام الزَّمن بصفته وعاء حياة الإنسان . فهو مرصودٌ منذ يكون نطفةً من بويضتي أمه وأبيه . ويجعل الله له سمعاً وبصراً ويهديه السبيل ويترك له الاختيار . ويجعل له عمراً ليعبِّر عن ذاته شاكراً أو كفوراً .

نهاية كلتا الطريقين : ليحسن الاختيار ويستعمل الزَمن فيما يفيده ويُنَجِّيه تأتي الآيات التالية ترينا نهاية كلّ طريق ونتيجة كلّ اختيار يختاره الإنسان : **﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾** (الدهر:٤-٦) . قفزت السُّورة إلى نهاية الرحلة لتكون أقوى وَعظاً . فالنار والجنة ، كمصيرٍ ، أقوى أثراً في

نفس المخاطب بالقرآن من نصيحةٍ تتحدث عن فوائد نفسيةٍ وماديةٍ . فالخوف والطمع أقوى أثراً في نصح أبناء البيئة الجافة والأميين من الناس .

الأبرار والدهر : الأبرار الذين بشرهم بالنعيم الموصوف يقومون بكثيرٍ من الأعمال الصالحة في سبيل الله . لكن السُّورة حرصت على إبراز الوفاء بالنذر والبدء به . ذلك أن النَّذْرَ يكون وعداً بعمل آجل . وآفته التأجيل والنسيان والكسل ؛ وربّما يكون للتهرب باستعمال الزَّمن أصلاً . إلا الأبرار فإنهم يقدرون المسئولية ولا يسيئون استخدام الزَّمن بل يلتزمون به . لأنهم في نفس الوقت يعتبرون زمناً آخر صعباً . هو يوم الحساب . وعندما يقدمون نفعاً لأحدٍ لا يعملونه لنفعٍ عاجلٍ بل يستثمرون بالزَّمن البعيد الذي سيحين بعد الموت . يعينهم على ذلك يقينهم بالله وبصدق كتابه ورسوله . فيصبرون في انتظار الأجر ويصبرون على البلاء أو تأخر النصر ونعيم الدنيا . فهم لا يستعجلون بل يفضِّلون الآجلة على العاجلة . فيستحقّون بهذا الإيمان ما أعد الله لهم ووعدهم به في الآيات التالية : ﴿ **يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾ (الدهر:٧-٢٢) .

صبرٌ جميلٌ وجزاءٌ موفورٌ لأنهم صدقوا ربّهم ولم يستعجلوا فاستحقّوا ثمن الزَّمن الذي انتظروه! والزَّمن حاضر في هذه الباقة من الآيات مع الوفاء بالنذر ومع الجود ومع خشية الله واليوم الآخر!!!

وللرسول أحكام زمنٍ مختلفة : تدعو الآيات الختامية رسول الله ليحافظ على الزَّمن فلا يضيع منه شيئاً دون ذكرٍ أو صلاةٍ . ويقول له إن أعداءه يحبون العاجلة

ويذرون واجباتهم تجاه يوم الحساب . فكأنه يحذره من الوقوع بمثل ما يجهلون .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الدهر:٢٣-٣١) .

هذه تسعُ آياتٍ ذُكِر الزَّمن أو مفعوله فيها ثماني مراتٍ ففي الآية (٢٣) جاء القرآن تنزيلاً وليس إنزالاً أو نزولاً ليظهر أثر الزَّمن فيه وهو يتنزل على فتراتٍ . وفي الآية (٢٤) دعوةٌ للصبر ؛ والصَّبر يعني انتظارَ ما سيكون بعد زمنٍ طويلٍ وإلا فليس بصبر . وفي الآية (٢٥) يذكر البُكور صباحاً والأصيلُ قبل المساء كوقتين مناسبين لذكر الله . وفي الآية (٢٦) يذكر الليل بطوله موعداً للصلاة والتسبيح . وبالمقابل يوصف المشركون أنهم يحبون العاجلة ولا يعتبرون الزَّمن في حياتهم . وهذه النصائح للنبيِّ هي التذكرة الإلهيّة لمن يستحقّ الدخول في رحمة الله .

* * *

المرسلات

المرسلات هي السُّورة السابعة والسبعون حسب ترتيب المصحف . تبدأ بالمرسلات عرفاً كقسم وتأتي كفقراتٍ مرسلاتٍ في شدة فرق الملائكة التي تقسم بها . لعلها تصنع شيئاً في القلوب القاسية التي تتأثر بالتهديد والوعيد أكثر مما تتأثر بالبشرى وبالحجّة العقلية . باثنتي عشرة فقرةٍ تنزل السُّورة . فقرةٌ لقسم خماسي وفقرةٌ لوصف أحداث يوم الفصل ثم عشر فقراتٍ تختم كلّ واحدةٍ منها بقوله تعالى ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (المرسلات:١٥) . ترى هل تعتبر من أقسى سور القرآن على الكافرين؟ والسُّورة تخاطب رسول الله تحدثه عن مصير الذين يكذبونه!

عنوان السُّورة وموضوعها :

المرسلات وقد وردت في الآية الأولى منها بمعنى الملائكة التي يرسلها الله أفواجاً متتابعةً بين يدي يوم القيامة . وجذر الكلمة مادة «رسل». وعنها يقول الرازي في المقاييس : «الراء والسين واللام أصل واحد مُطَّرِد مُنقاس يدل على انبعاث وامتداد . «وفي لسان العرب لابن منظور نقرأ : «الرَّسْل القطيع من كلّ شيء ، والجمع أرسال . والرَّسْلُ قطيعٌ بعد قطيعٍ . والرسل قطيعٌ من الإبل قدر عشر يرسل بعد قطيع».

وهذا المعنى لكلمة رسل يليق وصفاً للملائكة وليس للرياح كما ظن بعض المفسرين .

والسُّورة تصف أحداث يوم القيامة والحساب بفقراتٍ رسلٍ عددها عشر فقراتٍ . كلّ فقرةٍ تنتهي بقوله تعالى ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (المرسلات:١٥) . تسعٌ منها للمكذبين وواحدةٌ للمؤمنين .

فهي سورة يوم القيامة حيث البعث والحساب بأرسالها العشر . فعنوانها يصف طريقة صياغتها بالإضافة إلى موضوعها وهو البعث يوم القيامة ومقدماته من أفواج الملائكة . أليس في هذا معجزةٌ لا يقدر عليها إلا الله؟ فويل يومئذ للمكذبين .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تأخذ السُّورة شكل بيان بإنذار شديد اللهجة . وبصيغة قَسَم تصف مقدمات يوم القيامة عندما يرسل سبحانه أفواجاً وفرقاً من الملائكة تُنبه الأحياء من البشر ليعلموا أن الساعةَ قائمةٌ . وتُعِدُّ الأحداثَ لإنهاء العالم . وقد لا نستطيع أن نتخيل عمل كلّ فرقةٍ من هذه الفرق ولكن الإيحاء كافٍ لنا . ومن يحضر ذلك اليوم العصيب يعلم يقيناً عمل كلّ فرقةٍ . فالمرسلاتُ قطاعات أو كتائب من الملائكة تأتي كتيبةً بعد كتيبةٍ . متتابعةً كتتابع الشَّعر في عرف الفرس . فلا نكاد نرى فواصل بين قطعاتها .

﴿ **وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا** ﴾ (المرسلات:١-٦) . فهذه خمسة أنواعٍ من فرق الملائكة لكلّ عملُها الخاص بها .

اليوم الموعود : جواب القسم الخماسي تحقيق وعد الله بقيام الساعة . ﴿ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ** ﴾ (المرسلات:٧)

ثم تصفه الآيات التالية ﴿ **فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:٨-١٥)

هذه هي الفقرة الثَّانية في السُّورة في وصف يوم القيامة أو الفصل كما سمته الآية (١٤) . واختتم بقوله تعالى ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:١٥) وهي اللازمة التي تختتم كلّ فقرةٍ في السُّورة .

تهديد المشركين بالهلاك : ويأتي التهديدُ كأول إنذار بعد الإبلاغ الحاسم عن يوم الفصل : ﴿ **أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:١٦-١٩).

تذكير بالخلق الأول للناس : وإذا كان سبحانه قد أنشأ الخلقَ مما يعلمون ويرَون هل يعجز عن إعادة الخلق : ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:٢٠-٢٤) ولم يذكر البعث والخلق الثَّاني مباشرةً . ولكن مجرد التذكير بالخلق الأول في ظل سورة تعد بيوم الفصل يعني أن الناس سيبعثون ليحاسبوا ذلك اليوم .

تذكيرٌ بنعمة الرزق : فمنذ البدء خُلِقت الأرضُ بحسابٍ دقيق لتكون كافيةً للناس أحياءً وامواتاً وعلى مدى الدهر حتى يوم القيامة : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:٢٥-٢٨).

وخاتمةٌ عادلةٌ في هذه الفقرة كما في بقية الفقرات . ولكن نعمة الطعام تحتاج شكراً يوميًّا ؛ فمن يُنكر ويُكَذِّب يستحقّ الويل جزاءً عادلاً .

مشهدهم في جهنم : في مشهدٍ يملأ القلب رُعباً يقشعر منه جلد السامع لعل المكذبين يعودون إلى رشدهم : ﴿ **ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:٢٩-٣٤)

نراهم هنا مكشوفين أمام شررٍ كالقصر حجماً يكاد لهبُه الأصفر يلفح وجوهنا ويُعشي عيوننا نحن المُصدِّقين . فكيف بالمكذبين؟

عجزهم يوم الفصل : في مواجهة يوم الفصل حيث تُلجم الألسن يُقال عنهم : ﴿ **هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:٣٥-٣٧)

حتى لو أُذِن لهم لن ينطقوا من رعب الموقف !!

التحدي يوم الفصل : يتحداهم سبحانه أن يفعلوا شيئاً كألاعيبهم وكيدهم في الدنيا . ولكن أنَّى لهم وهم يواجهون الحقائق التي أنكروها طيلة أعمارهم؟ ﴿ **هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:٣٨-٤٠)

ولفتةٌ إلى المتقين : زيادة في تعذيب المكذبين يلتفت النص للمتقين وما هم فيه من نعيمٍ عسى أن يُثار المكذبون فيعودون قبل فوات الأوان . ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:٤١-٤٥)

والمتقون لا علاقة لهم بالتكذيب ولكن الحديث للمكذبين . حتى هذا المشهد من نعيم المتقين قُصد به المكذبون . فهم ينكرون البعث كلّه ، وأكثر ما ينكرون أن يكون للمتقين نعيمٌ جزاء تقواهم .

متعةٌ عاجلة فلا تفرحوا : دائماً يحرص القرآن على وصف الحياة الدنيا بأنها عاجلةٌ أو مدةٌ قصيرةٌ ، فلا تستحقّ التضحية بالآخرة من أجل نعيمها العاجل الزَّائل : **﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾**

(المرسلات:٤٦،٤٧)

تذكير أخير : تختم السُّورة بتذكيرهم أن عدم طاعتهم لله ورفض عبادته هو سبب شقائهم فبماذا يمكن أن يصدقوا ويتبعوا رسول الله؟ **﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾**

(المرسلات:٤٨-٥٠) .

ويسجل علماء القرآن أن هذه السُّورة ليست من أواخر سور العهد المكي . بل نزلت في مرحلةٍ مبكرةٍ ! ولا بد أنها أثرت بالذين يسمعون ! بمرسلاتها العشر !

* * *

سورة النبأ

النبأ هي السُّورة الثَّامنة والسبعون حسب ترتيب المصحف . وتبدأ بسؤال يستنكر على المشركين حيرتهم واستهجانهم لحدوث يوم الحساب . والهدف من السُّورة تصويب تصوراتهم حول ذلك اليوم . وتذكرهم السُّورة بنعم الله على البشر منذ خَلْقِ الأرض ممهدةً لحياتهم عليها . واعتبارِ احتياجاتهم عند خلْق الكون . وخَلقِ الشمس ليكون نهارٌ يسعون فيه وليلٌ يرتاحون فيه . وبعد كلّ هذا يحقّ لله أن يحاسب البشر على تعاملهم مع نعمه . وتعاملهم فيما بينهم . وهذا هو جوهر يوم الفصل . وبهذا المنطق يصير يوم الفصل ضرورةً لكلّ إنسان سَوِيِّ السلوك ، ومصدر سعادةٍ لكلّ تقيٍّ . وهدف السُّورة نقل المخاطبين إلى حالة المعرفة والمنزلة الأعلى .

عنوان السُّورة وموضوعها :

النبأ . وقد وردت الكلمة في الآية الثَّانية ﴿ **عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ (النبأ:٢) وقصد به في هذه الآية يوم الحساب .

ولنعرف المقصود بها كعنوان للسورة نعود إلى المعاجم . ففي لسان العرب يقول ابن منظور : « نبأتُ على القوم أنبَأُ نبْأُ : إذا طلعت عليهم ، ويقال نبأ وطرأ إذا خرج من بلد إلى بلد ».

فموضوع السُّورة رفع المخاطبين أو خروجهم من استحقاق العذاب إلى استحقاق الجنة إن عقلوا وأطاعوا ، وصدقوا نبأ يوم الحساب وعملوا وفق ذلك . والسُّورة وصفٌ ليوم الحساب ولمصير فئتي الناس ومستقرهما الجديد على ضوء الحساب ، ودعوةٌ صريحةٌ للعودة إلى الله ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا** ﴾. وذلك بعد مقدمةٍ تبرر حقّ الله في محاسبة خلقه .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : بخمس آياتٍ قصيرةٍ تقدم السُّورة موضوعها . وهو إقناع المنكرين بأن يومَ الفصل الذي أخبرهم به رسول الله حقيقةٌ واقعةٌ لا محالة : ﴿ **عَمَّ**

يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ (النبأ: ١-٥)

أدلة حدوث يوم الفصل : إن الذي يخبر هو الله . وعندما يثبت الله قدرته على ما هو أكبر من يوم الفصل فتلك حجّةٌ قويةٌ . فهو سبحانه منشئ الكون وواضع نظم الحياة . فما المستغرب في خلقه ليوم الفصل؟ خصوصاً أنه يكمل خطة الخلق . ولا معنى لكثير من مكوناتها ، إن لم يكن يومٌ للحسابِ وللجزاءِ لما يحدث في الحياة الدنيا : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ (النبأ:٦-١٦)

فهو سبحانه خلق الأرض ممهدةً لحياة الإنسان . وخلق الناس بنظامٍ يحفظ نوعهم بالتكاثر . وحرّك أجرام السماء في أفلاكها ليكون لهم ليلٌ ونهارٌ . وأحكم بناء السموات فوقهم . وأنزل عليهم من السماء ماءً ليكون لهم شراباً ورزقاً . أفلا تستحقّ هذه النعم يوم حساب ، ليُعلم ما فعل الناس بها ؛ ولتُعلَم نتيجة الخلق والتخطيط ووضع النظم والضوابط التي تُسَيِّر حياة الإنسان بسهولةٍ . وتأتي هذه الأدلة لقومٍ مؤمنين أصلاً بالله فهم على بقية الحنيفيَّة ولم ينكروا الله بل البعث والحساب .

يوم الفصل : بعد ما سمعنا من نعم الله على البشر وخططه لصالحهم يصير من العدل والمنطق أن نسمع عن يوم الفصل كنتيجةٍ حتميةٍ لما سبق من آيات : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (النبأ:١٧-٢٠) . هذا هو يوم الفصل وهذه أحداثه . فماذا بعده؟

بعد الحساب : لا بد أن يكون بعد الحساب جزاءٌ : جهنم للطاغين والجنة للمتقين : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (النبأ:٢١-٣٠) هذا هو مصير المُكَذِّبين .

ثم تعرض الآيات مصير المتقين : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ (النبأ: ٣١-٣٦) . هؤلاء صدَّقوا ففازوا . وسماها الله مفازاً أي ارتفاعاً لتناسب عنوان السُّورة وهدفها .

وختاماً : تعريفٌ بجلال الله ، وبالموقف الجليل الرهيب . فمن شاء فليتخذ قراراً بالعودة إلى الله قبل أن يتمنى لو يكون تراباً . ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ (النبأ: ٣٧-٤٠) .

وفي هذا كفايةٌ ليتأكد العاقل من الناس أن يوم القيامة والحساب حقّ وعدلٌ ولا تتم خطة الخلق إلا به .

* * *

النازعات

السورة التاسعة والسبعون حسب ترتيب المصحف . بدأت بكلمة النازعات بمعنى فئةٍ من الملائكة تقوم بعملها بين يدي الساعة . والسُّورة تهدف لانتزاع أهل مكّة مما هم فيه من ضلالٍ وجاهليةٍ ليعودوا إلى ربّهم وإلى فطرة الله التي فطر الناس عليها . فالنزع كما يقولُ اللغويون هو العودة إلى الموطن الأصلي أو الرجوع إلى الحقّ . وعندما يكون الحديث من الله إلى الإنسان ، فإن الرجعة إلى الحقّ هي عين العودة إلى الموطن الأصلي للإنسان وهو الجنة! لذلك جاء في السورة قوله تعالى ما يجمع الأمرين معا : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ** ﴾ (النازعات: ٤٠-٤١) .

عنوان السُّورة وموضوعها :

النازعات . وقد وردت في الآية الأولى منها ﴿ **وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا** ﴾ (النازعات: ١) والمقصود بها في الآية ملائكةٌ تكلّف بوظيفةٍ ما قبيل قيام الساعة . وكي نحدِّد معناها كعنوانٍ للسورة نختار مما جاء في معاجم اللغة مما ينطبق على ما يرد فيها من معانٍ وأهدافٍ . جاء في مقاييس اللغة للرازي : «النون والزَّاء والعين أصل صحيح يدلّ على قلع شيء . . . وعاد الأمرُ إلى النَّزَعة : أي رجع إلى الحقّ . . . وبعير نازع ، إذا حنَّ إلى مرعاه أو وطنه . . . والنَّزائع من النساء : اللواتي يُزوجن في غير عشائرهن . وكلّ غريب نزيع». ولعل النساء والغريب وصفوا بهذه الصفات لأن نفوسهم تنزع إلى أوطانها أو عشائرها . فتتضمن كلمة النزوع الشوق إلى الأصل .

وفي لسان العرب لابن منظور : «المنازعة في الخصومة : مجاذبة الحجج فيما يتنازع فيه الخصمان .»

وفي السُّورة تجاذبُ حججٍ بين القرآن وبين المشركين (الآيات :١٠-١١ ، ٢٧) وكذلك بين الرسول وبينهم (الآية :٤٢) . ولكن الهدف الرئيسي من منازعات السُّورة

هو نزع من به بقيَّة خير من دائرة الشرك ونقله إلى دائـرة التَّوحيـد واتِّبـاع الرسـول . ليستحقّ المأوى الأصليَّ لبني آدم وهو الجنة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

السورة موجهةٌ للرسول تحدثه عن قومه وهم يواجهون يوم الحساب . وتبدأ السورة بذكر خمس فِرَق من الملائكة ؛ كلّ فرقةٍ مكلّفةٌ بعملٍ قبيل قيـام السـاعـة . ﴿ **وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا** ﴾ (النازعات:١-٥) .

ثم يتهيأ الكون للراجفة أوَّل هزات يوم القيامة تتبعها الرادفة . ثم يـدرك النـاس ما هم فيه ، ويتفاعلون مع النهاية المرعبة للكون : ﴿ **يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ** ﴾ (النازعات:٦-١٤)

والرسول يعرف إنكارهم . ولكن عندما يأتيه الخبر من عند الله يزداد يقيناً أن الله معه . كما يكاد النبيّ أن يرى ويسمع أحاديث المنكرين وهم ويواجهون أهـوال يـوم القيامة . ومن يستمع منهم لرسول الله وهـو يقـرأ هـذه الآيـات قـد ينـزع إلى الحـقّ وينضم إلى الرسول والمؤمنين .

ثم تخطو السُّورة خطوةً أخرى لزيادة إيمان النبيّ بنصر الله . وذلك بِمَثَلٍ من صراع موسى وفرعون : ﴿ **هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ** ﴾ (النازعات:١٥-٢٦) .

عـبرةٌ وأيُّ عـبرةٍ ! عـرض موسـى علـى فرعـون أن يهديـه إلى الله ويزكيـه وأراه معجزةً بينةً . فاختار البقاء على كفره ولم ينزع إلى الحقّ فصار عبرةً كمكابرٍ عنيـدٍ . فهل يتعظ أهل مكّة وينزِعون إلى الحقّ؟

وينازعهم بمقارنة شدتهم بشدة الكون : تشعرهم الآيات (٢٧-٣٣) بضعفهم أمام قوّة الله وبحاجتهم إلى رحمته فلولا أنه سبحانه يرزقهم الماء لما كانت لهم حياة .

فهل يعقلون ويعودون إلى طاعة ربّهم وعبادته ؟ والآيات تكليفٌ من الله إلى رسوله ليخاطبهم نيابةً عنه تعالى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾

(النازعات:٢٧-٣٣)

وهذه الآيات فرصةٌ أخرى لعلهم ينزعون إلى الحقّ!

ساعة الحساب : وهي الأصعب والأشدُّ لذلك سماها الله الطامّة . واحتار المفسرون بها لكنهم يجمعون أن كلمة الطامّة تعني الساعة الأشدّ . ولا أجد أشدّ من ساعة الحساب حين يتذكر الإنسان ما سعى . وتشهد عليه أعضاء جسده!! وبعدها يساق إلى جهنم ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٣٤-٣٩)

وبعد هذا الوصف المرعب يرعوي من به بقيّة قلبٍ وبقيّة صلاحٍ .

وفئةٌ لم يُحزنها الحساب بل أسعدها ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠،٤١) . وهذه موعظةٌ أخرى وتذكيرٌ . فما زال في الوقت متسعٌ لنهي النفس عن الهوى والعودة إلى الله والرسول ، والنزوع إلى الحقّ والعودة إلى الموطن الأصلي فتكون الجنة هي المأوى .

ومع هذا يبقى فيهم من يجادل الرسول بالساعة وموعدها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (النازعات:٤٢-٤٦)

الحياة عشيةٌ أو ضحاها . فهل تستحقّ العذاب الموصوف؟ بل عودوا إلى الله واتبعوا رسوله !

* * *

سورة عبس

هي السُّورة الثَّمانون حسب ترتيب المصحف . جاءت شديدةً وقاسيةً . واتخذت من تصرفٍ للنبيِّ مع أحد أصحابه مناسبةً لنزولها دون مراعاةٍ لمكانة النبيّ ومشاعرِه . ذلك لأنها جاءت لتحرر الأمة من قيمةٍ جاهليةٍ غالبةٍ على نفوس العرب وعقولهم . ولطالما نال النبيّ بعضُ شرورها لأنه ليس من أصحاب المال والجاه . وهذا جوهر القيمة الجاهلية المقصودة بالسُّورة : احترام الإنسان بقدر ما يملك من مالٍ وقوةٍ . فجاءت السُّورة لتحرير المؤمنين من احترام المال على حساب قيمة الإنسان المجرد . فالإنسان أولاً على هذه الأرض حتى لو كان فقيراً أعمى . وأي تساهلٍ في هذه القاعدة سيؤدي إلى ظلمٍ وفسادٍ كبير .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عبسَ ! وقد وردت في بداية الآية الأولى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ (عبس: ١) . وهي في الآية بمعنى قَطَّب جبينَه امتعاضاً من سؤال الأعمى وهو مشغولٌ بدعوة ثريٍّ إلى الإسلام .

فهل لها معنى يستوعب موضوع السُّورة كلّها وليس هذه الحادثة الصغيرة فقط؟

جاء في مقاييس اللغة للرازي : «العين والباء والسين أصل صحيح يدل على تَكَرُّه في شيء . وأصله العَبَس : ما يَبِسَ على هُلْب الذنَب من بَعَرٍ وغيره». والعبس هنا من علامات صحة الدابة وسمنها حسب الثَّقافة العربيَّة . فهي قاذوراتٌ تدل على ثراءٍ . بل هي أبرز علامات الثَّراء في جزيرة العرب .

وكعنوان للسورة ، لا نأخذ العبَس بمعناه المادي بل بما يُبنى عليه من قيم الجاهلية العالقة بالنفس . فهي مرتبطةٌ بما تنتج الفضلات المادية العالقة بذنَب الدابّة . إنها المال الذي يتولد عن تنمية الأنعام السمينة ذات العبْس ؛ وهي معظم رزق أهل مكّة . وبملكيتها يتفاخر الناس وترسخ القيم الجاهلية . فيكون إعلاء قيمة المال على حساب قيمة الإنسان المجرد .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بقصة تعاتب رسول الله لأنه تَصَرَّفَ بدافعِ قِيَمٍ قديمةٍ تحترم من يملك أكثر . والله سبحانه يريد منه إعلاء قدر الإنسان ذي القيم العليا وليس تفضيل ذي المال الأكثر ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ** ﴾ (عبس:١-١٠) .

الردُّ على قصة الأعمى : هذا القرآن متاحٌ للجميع كي يذكروا الله على هداه . لا يُطرد أحدٌ منهم . وهو ليس من عندك يا محمد لتتحكم به . بل هو في صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ يتولى أمره ملائكةٌ كرامٌ أمناءُ عليه ملتزمون بأوامر الله لهم بشأنه . ﴿ **كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ** ﴾ (عبس:١١-١٦)

إذًا فهو هديةٌ من ربِّ الناس لمن يريد منهم الاهتداء به وما على الرسول إلا البلاغ ونقل الرسالة .

ونتوقف قليلاً هنا للردِّ على شبهة أن عبارة « عبس وتولى » ليست للنبيِّ فقد جاءت بصيغة الغائب . ولكن لا مناص من اعتبار الآيات (٣-١٠) موجهةً للنبيِّ . فلا أحد يومها يستحقّ الخطاب المباشر بلغة المفرد غير النبيّ . ثم إن العتاب في هذه الآيات هو تعقيبٌ واضحٌ على ما ورد في الآيتين الأوليين . فكيف يعاتَب النبيّ على فعل سواه . لو كان الذي عبس سواه لاستمر الحديث بأسلوب الحكاية . وطُلب من النبيّ متابعة الأمر وشرحه للمؤمنين كما حدث في مواطن مشابهة .

نسف قيم الجاهلية : السُّورة مكرسةٌ لتحرير الناس من قيمةٍ جاهليةٍ راسخةٍ في الثَّقافة العربيَّة وما زالت . وهي أن قيمة الإنسان تقاس بما يملك من مالٍ وسلطةٍ . فتأتي الآيات (١٧-٣٢) لتنسف أساس ذلك الانحراف . وقد رأينا مقدار رسوخ تلك القيمة الجاهلية عندما كان الجاهليون يعترضون على النبيّ ، لأنه بشرٌ أو ليس من عظماء القريتين . والعظيم عندهم من يملكُ المال ويتبعه رجال يأتمرون بأمره .

الآيات تنسف تلك القيمة الجاهلية بحجَّتين الأولى أن الناس يولدون بنفس الطريقة من نطفة يخلقها الله ثم يموتون جميعاً ويقبرون بنفس الطريقة . ثم يبعثهم الله وفق خطةٍ إلهيةٍ واحدةٍ لا فرق بينهم . والحجّة الثَّانية أن الرزق من عند الله . فهو وحده الذي يطعمهم ويطعم أنعامهم من كلأٍ مباحٍ ومن مطرٍ يُنزلُه على من يشاء . والخلقُ جميعاً فقراءٌ إلى الله في موضوع الطعام . فما الحاجة وما المبرر لإعطاء الغني من الاحترام فوق ما يُعطى لأي إنسان .

ولأن القيمة الجاهلية راسخةٌ تبدأ الآيات بقسوةٍ ظاهرةٍ : ﴿ **قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ** ﴾ (عبس:١٧-٣٢) .

فما دام الطعام بيده سبحانه ، والحياة والموت بيده ، فلماذا نعظِّم سواه . وليكن البشر أمامنا بعد ذلك سواءً في نظرنا وفي تعاملنا وأمام القانون والعرف . فالغنيُّ لا يعطينا من ماله عادة !

الروابط الإنسانية وقت الساعة : لم تكتف السُّورة بنسف قيم الجاهلية المتعلقة بتقييم الناس ، بل أحضرت مشهد قيام الساعة حيث تتعطل حتى روابط الأسرة الأشد . فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تتقربون لأحدٍ على حساب أحدٍ بسبب ملكيته المادية؟ ﴿ **فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ (عبس:٣٣-٣٧)

ويأتي هذا المشهد القاسي ليصنع الصدمة المؤثرة لمن لم يحركه حديث الحياة والموت وحديث الطعام ؛ التي وضعت لتُعلِّم السامع أن الأصل هو المساواة ؛ وأن لا فضل لأحدٍ على أحدٍ في أساسيات الحياة . ثم يأتي هذا المشهد المؤثر ليذكر أن الجميع بشرٌ ولهم علاقاتٌ متماثلة . ومع هذا فحرص كلّ إنسانٍ على نفسه أمام

المصائب الكبرى ، لا يبقي لديه فائضاً من مال أو رحمةٍ أو حنان يقدمه لأقرب الناس إليه حتى الزّوج والابن! وليس معنى هذا دعوةٌ للفردية ولا تمزيقُ أواصر المجتمع . ولكن تصويب تصورات الناس لصالح قيام مجتمعٍ سوي يحترم الإنسان المجرد . فهو القيمة العليا على الأرض حتى لو كان أعمى أو فقيراً معدماً .

وختاماً : مع أن الآيات الأربع الأخيرة لم تقل من هم أصحاب الوجوه المستبشرة ولا من أصحاب الوجوه القَتِرة . لكن الأمرَ واضحٌ على ضوء السُّورة . فالذين يحترمون الإنسان لإنسانيته دون أن يقصروا بحقّ الله وحقّ الناس هم الفائزون . ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ** ﴾ (عبس:٣٨-٤٢)

* * *

التكوير

هي السُّورة الحادية والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . وتنزلت بصورة إنذار تتحقّق شروطه يوم القيامة لِيَنْهَى مشركي مكّة عن أعمالٍ يمارسونها في الحياة الدنيا . وهي تحديداً وأدُ بناتهم وعدم الانضباط بالعقل والصوابِ في سلوكهم ، والتكذيب بنبوّة نبيِّهم ، وزعمُهم أنه مجنونٌ وأن القرآن من عند شيطان رجيم!

وسميت التكوير أشارةً إلى برود الشمس وفقدانها لفعلها الناري فهل يفقد الجاهلي طاقته الغضبية الشريرة؟

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها التكوير . وقد ذُكرِت الكلمة في الآية الأولى ﴿ **إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾ (التكوير:١) . وكُوِّرت هنا بمعنى لُفِّفَت الشمس وذهب نورها بعد أن توقفت عن الضرام وإطلاق أشعتها الحارقة ملايين الأميال . وبالتالي تفقد أهميتها للإنسان والكون كلّه .

جاء في لسان العرب لابن منظور : « الكور : الرحل ». وقصد به رحل الناقة الذي يحيط بجذعها . وينقل قول خالد بن زهير الهذلي :

نشأتُ عسيراً لم تُديَّث عريكتي ولم يستقرَّ فوق ظهريَ كورُها

استعار الكور لتذليل نفسه إذ كان الكور مما يذلَّلُ به البعير ويُوَطَّأ .

فالشمس كورت كما يذلل الحيوان ففقدت نارها ونورها . وعلى هذا يُقاس . وحول هذا المعنى للتكوير تدور السُّورة . إنها دعوةٌ لمشركي مكّة للتخلي عن ما يخالف الفطرة والحكمة من عمل . فكأنها دعوة للهدوء والبرود النسبي باعتبار حالهم المندفع وغير المنضبط .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

السُّورة تأتي بأسلوب إنذارٍ مقتضبٍ يستمد مادته المُرعبة المهدِّدة من قدرة الله على إبطال الصفات المؤثرة لبعض عناصر الكون وتحولها إلى أجسامٍ غير مؤثرةٍ

من وجهة نظر الإنسان . لعله هو الآخر يتخلّى عن شَرِّه واندفاعه ويحاسب نفسه ويحتكم إلى عقله عند الغضب .

وفي السُّورة ثلاثة طلبات من المُنذرين مهدت السُّورة لكلّ واحد بحركات كونية :

الطلب الأول : يتعلق بالموءودة . وتمهد له السُّورة بتحقّق حالات كونية يوم القيامة **هي :**

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير:١-٩) . فكأن الآيات تقول إذا أمكن للشمس أن تفقد نورها ونارها وشررها الذي يصل حره إلى ملايين الأميال . وإذا أمكن للنجوم أن تنكدر وتفقد لمعانها . وإذا الجبال فقدت تجذرها في أعماق الأرض وسارت . وإذا العشار التي ينتظر صاحبها ولادتها بفارغ الصَّبر فقدت قيمتها وتعطلت . وإذا الوحوش الشرسة حشرت وهدأت . وإذا البحار سكنت . وإذا النفوس الطليقة حشرت في أجساد من طين . أفلا تستطيع أيها الإنسان أن تفكر بعقلك فتكف عن وأد صغيرتك . وإن لم تفعل ومضيت بعنجهيتك وجهلك وشرر قلبك الظالم فاعلم أن القادر على فعل ما سمعت بعناصر الطبيعة حولك سيسأل موءودتك بأي ذنبٍ قتلت . ولن تُعطى فرصة الدفاع عن نفسك فلن تُسأل أنت بل سيُحكَم عليك بما تجيب الموءودة التي لا تكذب؟

الطلب الثَّاني : الله القادر على كشط السماء ونشر الصحف وتسعير الجحيم وإحضار الجنة قادرٌ على أن يفتح صحيفتك ليذكرك بما قدمت في حياتك . فهلا وعيت الأمر وحسبت حساب ذلك اليوم؟ **﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾**

(التكوير: ١٠-١٤) .

وليس في هذه الفقرة تكوير إلا للسماء . بل تهييجٌ لبقية العناصر المذكورة . فهي عناصر الحياة الآخرة تتحرك بعد أن هدأت عناصر الحياة الدنيا وانتهى مفعولها . لأن المطلوب هنا تَذَكُّر ما كان بعد نسيانه . والتذكُّر يحتاج تحريكاً للخروج من

سكون النسيان . فالغرض هو زلزلة مشاعر الإنسان الراكد عسى أن يصحو ، فيغير نفسه ويتصرف بعقل وإيمان بدل أن يبقى بجهلٍ وجاهليةٍ .

الطلب الثَّالثَ :الإيمانُ بمحمدٍ رسولاً لله وتصديقُ القرآن المنزل من عند الله :

والتكوير المطلوب هنا هو التخلصُ من شرهم ومن أقاويلهم الباطلة بحقّ النبيّ والقرآن ، تمهيداً لإيمانِهم بالله وتجمعهم حول النبيّ والقرآن . ويأتي هذا الطلب بعد قسم بحركات نجوم يعرفونها ويعتمدون عليها في مواقيتهم وبالصبح والليل : ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ** ﴾ (التكوير:١٥-٢٦)

وكي لا ينتفخوا ويظنوا أن الله بحاجةٍ إليهم ؛ وبعد أن يعرض عليهم الاستقامة يقول لهم إن أمر استقامتهم بيد الله ؛ فهو سبحانه لا يقبل إلا الأتقياء الذين لم يكتسبوا في ماضيهم ظلماً وفساداً كبيراً . فالإيمان بالله نعمةٌ من الله لا تكون إلا لمن يستحقّها بما قدّم من عملٍ صالحٍ واستقام . ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾

(التكوير:٢٧-٢٩)

* * *

السُّورة الثَّانية والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . سماها الله الانفطار . لا لأنها بدأت بقوله تعالى ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ (الانفطار:١) لكن لأنه أراد سبحانه أن يوجه إنذاراً صريحاً تنفطر حوله كلّ الحجب والشكوك والاحتمالات غير الصحيحة . إنذارٌ يصحو معه كلّ من له قلبٌ أو عقلٌ يقدر على ضبطه . إنذار يذكر الإنسان أنه يوم الحساب سيطلع على صحيفة أعماله التي ستذكره بكلّ سيئةٍ اجترحها بحقّ إنسانٍ وبكلّ تقصير كان منه بحقّ الله .

عنوانُ السُّورة وموضوعها :

الانفطار وقد وردت الكلمة في الآية الأولى ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ (الانفطار:١) وهي في الآية بمعنى انشقت .

وفي مقاييس اللغة للرازي : « فطر : الفاء والطاء والراء أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه ».

والسُّورة بهذا المعنى تكمل سورة التكوير وتقابلها . فكلاهما جاءت بصيغة إنذارٍ قصيرٍ حاسمٍ لمشركي مكّة ليتخلصوا من شِرَّتهم وحِدَّتهم وتصرفاتهم الانفعالية غير محسوبة النتائج .

سورة التكوير انطلقت من فقدان ما يقابل حدة الإنسان في عنصرين هامين في السماء هما الشمس والنجوم . فنهت السُّورة عن قتل الموءودة وما يشبهه من سلوكٍ حادٍّ خارجٍ عن سيطرة العقل السوي . بينما سورة الانفطار تتحدث عن عناصر يوم القيامة التي تتفتح وتتفكك . فيكون الإنذار للإنسان بالاطلاع على أعماله بالتفصيل ما قدم منها من شرٍّ وما أخر منها من خيرٍ فلم يفعله . فهي تذكره بفتح كتابه ومحاسبته على ما فيه .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بأربعة أحداث مما سيكون يوم القيامة وكلّها مما يتفق مع عنوان السُّورة . فالسماء تنفطر والكواكب تنتثر والبحار تتفجر والقبور تتبعثر . كلّ هذا

الهول لعل الإنسان الجاهلي يهتز أو يضطرب فيصحو . فيسمعُ ويفهم الإنذار الذي يقول له : يوم الحساب ستعلم ما قدمت وما أخرت . ستعلم ما قمت به من إثم ما كان يصح القيام به وما تأخرت عنه من واجبٍ كان يجب أن تقوم به : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ (الانفطار:١-٥)

عتابٌ وتهديدٌ : تلوم الآية (٦) الإنسان الكافر على عدم الوفاء بحقّ الله ؛ الذي خلقه وجعله بصورة سويَّة . فكَذَّب بالدين ولم يعتبر وجود كتبةٍ حافظين يرصدون كلّ ما يصدر عنه . وهذا هو موضوع الإنذار والنصيحة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الانفطار:٦-١٢) .

مخاطبةٌ للعقل لكنها مشفوعةٌ بتهديدٍ مؤثرٍ . فكيف يستمر هذا الإنسان بانفلاته من قيود العقل وهو يعلم أنه محاط بملائكةٍ تسجل كلّ حركةٍ وكلمة وكلّ نظرة عينٍ؟

بعد الحساب : باختصار وبصراحةٍ تامةٍ يتقرر مصير كلّ إنسان . فأبرارٌ إلى نعيمٍ وفجارٌ إلى جحيمٍ : ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار:١٣-١٩)

وبذا تنتهي كلّ حجّةٍ عقليةٍ أو تفكيرٍ بحيلةٍ ينجو بها المشرك من تبعة أفعاله . صراحةٌ ووضوحٌ يليق به أن يكون تحت عنوان الانفطار .

* * *

سورة المطفِّفين

السُّورة الثَّالثَة والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . وهي معنيةٌ بالـذنوب الطفيفـة التي لا ينتبه فاعلوها إلى خطورتها . بل يزدادون منها ، فهي عنـدهــم احتيـالٌ لـرزقٍ أو تفكُّه على حساب الآخرين ، عندما يسخرون منهم . فتَرِين الذنوبُ علـى قلـوبهم وتتراكم . حتى تغشِّيها بحجابٍ ثقيل يمنعها مـن رؤيـة النُّـور . فـيرون في آيـاتِ اللهِ المعجزةِ والساطعةِ أساطيرَ . ويُكَذِّبون بحقائق الحيـاة الأساسـيَّة كيـوم الـدين . فهـي سورةٌ تدعو للحذر من الذنوب الصغيرة وتنهى عن الاستهانة بمـا يظنـه الإنسـان بـلا قيمة من الأعمال . وتدعو للالتزام الدقيق بأوامر الله .

عنوان السُّورة وموضوعها :

إنها سورة المطففين . وقد وردت كلمة المطففين فى الآية الأولى ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ (المطففين:١) ثم تأتى الآية الثَّانية بتعريف المطفِّفين المقصودين بالآية الأولى: إنهم الذين يظلمون فى الميزان فإذا وزنوا لأنفسهم أرجحوا زيادةً عن المعتاد. وإذا وزنوا لغيرهم أنقصوا الميزان .

ولكن فى السُّورة أنواعاً أخرى مـن الظلـم للآخـرين ؛ فمـاذا يمكـن أن نجـد في معانى كلمة التطفيف مما يجمع فقرات السُّورة؟

جاء فى المقاييس للرازي : « طف : الطاء والفاء يدل على قلة الشيء . يقال : هذا شيء طفيف ، ويقال : إناء طفَّان أي ملآن ؛ والتطفيف : نقص المكيال والميزان ، قال بعض أهل العلم : إنما سُمى بذلك لأن الذي ينقصه منه يكون طفيفاً .

« وفى بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي « الطفيف : النزر القليل »

وحول هذا المعنى تدور السُّورة . فهى تنهى عن أمور يظنها النـاس طفيفـة لكنهـا عند الله كبيرة . كالتطفيف في الميزان والسخرية من الآخرين وبخسهم منزلتهم .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تنطلق السُّورة من التطفيف في الميزان بيعاً وشراءً. وهو انحرافٌ شائعٌ في الناس .

وقد يُستهان به لحقارة الكسب الناتج عنه . ولكنه اعتداءٌ على حقوق الناس ؛ وله ما بعده كما سنفهم من السُّورة .

أسلوب السُّورة : يمكن وصف السُّورة بأنها من نوعٌ المقال التعريفى . فهى تنحى منحى تعريف عناصرها تعريفاً مباشراً . وفى العادة فإن هذا النوع من المقال لا يتكئ على أطروحةٍ تقليديةٍ بل على مجموعة أسئلةٍ أو الانطلاق من حادثةٍ بسيطةٍ ليتمكن بها من طرح أسئلته . وتنزلت سورة المطففين بأسلوبٍ أكثر رشاقةً من أساليب البشر . فبدأت بموضوع المطففين تُعرفه وتعرض نتائجه . وبدأت به لطاقته الكامنة على احتواء العنصر الآخر الهام فى السُّورة وهو التهكم على الآخرين . ومما يجدر ذكره هنا أن الأدب العربي لم يعرف هذا النوع من المقال حتى الآن ولا سجل خصائصه .

المطففون : الآية الثَّانية عَرَّفت المطففين وضيّقت معنى التطفيف وحصرته بالكيل والميزان . وفي السُّورة أمورٌ أخرى ينطبق عليها التطفيف بالمعنى العام : **﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾** (المطففين: ١-٦) .

وعندما يتذكر الإنسان أنه سيقف بين يدي الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة ؛ سيعرف أن الطفيف مهما قل فى ميزانه فهو فى ميزان الله عظيم . وسِرُّ كِبَر إثم التطفيف على نزارته أنه حقوق بشر . وحقوق البشر لا يغفرها الله . فهي حقّ حصريٌّ لأصحابها .

نتائج التطفيف : تتحدث الفقرة الثَّانية (٧-١٧) عن التطفيف بصفته فجوراً وتهدد فاعله بالجحيم . وتشير إلى أمر هام فى الآية (١٤) وهو تراكم الذنوب على القلب حتى تحجب عنه نور الإيمان . وفى مختار الصحاح للرازي : « كلاَّ بل ران على قلوبهم : هو الذنب على الذنب حتى يسودَّ القلب» . وهذا الوصف يناسب الذنوب التي تُظن صغيرةً لكن تراكمها يجعل ظلها يغلب على القلب . **﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا**

تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ (المطففين:٧-١٧) .

وتبدأ الفقرة بتعريف سِجِّين حيث كتاب الفجَّار تمشياً مع أسلوبها كسورة تعريفية . وإيحاء كلمة الفجّار والفجور كبيرٌ جدًّا لدى السامع . لكن الميل عن الحقّ بأدنى درجةٍ يعتبر فجوراً ؛ والكذب من الفجور كما في لسان العرب لابن منظور . لذلك يكون التطفيف على صغره فجوراً وكتاب صاحبه في سجين .

وتعرض هذه المجموعة من الآيات حقيقةً أخرى مررنا بها كثيراً في السور المكية غير معللةٍ ولكنها هنا معللةٌ . وهي أن تراكم الذنوب على القلب يمنع صاحبه من رؤية الحقّ . فهم هنا يقولون عن آيات الله أنها أساطيرُ الأولين ولم يدركوا عظمة الله بها . ليس لأنها غير مقنعةٍ بل لأن ذنوبهم المتراكمة حجبت عنهم النُّور . ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ . وهذا يفسر صرْفَ اللهِ تعالى أناساً عن الإيمان كما قرأنا في آياتٍ كثيرةٍ .

جزاء المطيعين : وسماهم الأبرار مقابل الفجَّار . وكتابهم في علّيين . ثم تعرف الآيات العلّيين على غرار التعريفات السابقة : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين:١٨-٢٨) . ومعظم هذه الآيات كما نرى ترد بصيغةٍ تعريفيةٍ واضحةٍ محكمةٍ قصيرةٍ .

هذا جزاء الأبرار في علّيين . ذلك لأن هؤلاء الأبرار تجنبوا اللمم . فلم يطففوا مهما كان التطفيف طفيفاً ؛ ولم يسخروا من أحدٍ وحرصوا على دقة تنفيذ أوامر الله . فهم الأبرار .

وتطفيف المتهكمين : تتحدث الآيات (٢٩-٣٣) عن ذنبٍ آخر يمارسه كثيرٌ من الناس ؛ ولا شك أنّـه كان أكثر انتشاراً بين الجاهليين . إنه السخرية من المؤمنين لأنهم قومٌ ملتزمون بقيم الإيمان . فيظنهم المجرمون ضعفاء أو أغبياء ؛ فيسخرون

منهم . وفعلتُهم هذه مجرد ثرثرةٍ وضحكٍ فيستهينون بها ولا يعلمون أنها عند الله عظيمة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ (المطففين: ٢٩-٣٣)

ويوم الحساب العادل ينقلب الوضع ، فيضحك المؤمنون ويتحسر الكفار على ما كانوا يسخرون : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ (المطففين: ٣٤-٣٦) .

ومن حقّنا أن نسأل هل يستطيع بشرٌ أن يعالج انحرافات المجتمع الصغيرة ، ويجعل منها قضيةً كبيرةً ، كما فعلت هذه السُّورة؟ وهل يستطيع صاحب ضميرٍ أن يزعم أن عربيًّا في القرن السابع الميلادي مهما بلغ من العلم يستطيع صياغة مثل هذه السُّورة بأسلوبها المحكم الجميل؟ بينما لم يعرف العرب حتى الآن شكل المقال التعريفي الذي نزلت به السُّورة ؛ ولا أتقنه غير العرب كما فعلت هذه السُّورة الجميلة المتقنة؟ بل هو الله العليم الحكيم .

* * *

سورة الانشقاق

هي السُّورة الرابعة والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . وتخاطب السُّورة أهل مكّة مؤمنهم وكافرهم بواسطة رسول الله . تدعوهم إلى الخروج من حالة الموات التي يعيشونها كأمةٍ جاهليةٍ ؛ واتباع النُّور الذي لمع في حياتهم بالقرآن الكريم وبالرسول الرحيم . فهي تعيب عليهم معالم الخمول والكسل ، تحريضاً لهم على الانتقال إلى الحياة المشرقة الموصولة بنور الله . كأنها تقول لهم : استيقظوا وانفُضُوا عنكم غُبارَ الكسل والخمول .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الانشقاق . ولم ترد الكلمة بعينها في السُّورة . ولكن وردت كلمة تلتقي معها بنفس الجذر في الآية الأولى : ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ** ﴾ (الانشقاق: ١) . وهي في الآية تعني انشقاق السماء أو تصدعها يوم القيامة بأمر الله .

جاء في مقاييس اللغة للرازي : « شَق : الشين والقاف أصل واحد صحيح يدل على انصداع في الشيء، ثم يُحمل عليه ويُشتق منه». وفي المعجم الوسيط : « انشق : انصدع . و الفجر : طلع وظهر . والبرق : لمع » وفي تاج العروس : « صَدَعَهُ فانْشَق وشَقَّ ناب البَعِيرِ يَشُق شقوقاً : طَلَعَ »

ويمكن الاستنتاج مما ورد في المعاجم أن الانشقاق يعني صدعاً في جسم مُصْمَتٍ أو نوراً يلمع في ظلمة . أو فتحة في حائط . وبعد قراءة السُّورة نجدها بعد الإخبار عن أحداث القيامة تتحدث عن حياةٍ خاملةٍ كسولةٍ مترددةٍ لا جدوى منها . ثم يظهر القرآن نوراً من السماء فكأنه برقٌ يلمع في حياة الأمة أو شقٌّ في حائط الجاهلية . وتدعو السُّورة لانتهاز هذه الفرصة والخروج من حياة الخمول .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تبدأ السُّورة بمشاهد من يوم القيامة تكسر حالة الاستقرار التي يعيشها المجتمع الجاهلي . ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ** ﴾ (الانشقاق: ١-٥).

فهذه الأرض التي يستقرون عليها ستتغير لتصير حصيراً ممتداً يعج بالبشر الخارجين من قبورهم . والسماء التي تبدو سقفاً مصمتاً منيعاً فوق رءوسهم ستتصدع طاعةً لله . وكلاهما أطاعت ربّها واستسلمت . بل إن أرضهم تحديداً ألقت ما فيها وتخلت ! فكأن الآيات تقول لهم : ماذا أنت فاعلٌ أيها الإنسان استعداداً لتلك الأحداث ؟ هل تتخلى عن جاهليتك وكسلك وحياتك غير المثمرة؟

إنسان الجاهلية : في جو الخطاب لا نرى الحديث عن مقرّبين وأبرارٍ بل عن إنسانٍ كسولٍ مُهمِلٍ في عمله ؛ حتى المؤمنين لا يرقى عملهم إلى المستوى المطلوبً . ويمكن تقدير الأمر عندما نعلم أن السورة من أواخر ما نزل في مكّة . وكان قليلٌ من المؤمنين قد بقي فيها . فهم ممن أطاق الحياة مع الجاهلين وتمسك بأهله ورضي بالحياة معهم . ولم يتخل عن شيءٍ في سبيل الله . ولا يشمل كلامنا هذا النبيّ وأبا بكرٍ ومن كان بمستواهما فهذان بقيا في مكّة للقيام بالدعوة وانتظار أمر الله . فتواجه السورة المخاطبين بحالهم وما هم عليه من كسلٍ .

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَـٰقِيهِ** ﴾ (الانشقاق:٦) . فهذا نداءٌ عام للمؤمن والكافر من أهل مكّة . ويأتي بعد «قل» مقدرة كما نعلم من أواخرالسُّورة . والآية تحقر عمل الناس ؛ فالكدح في اللغة الخدش أو العمل الضعيف غير المؤثر . تقول لهم الآية : إنكم تعيشون حياةً لا تستحقّ أن تنفقوا فيها أيامكم ؛ وفي نهايتها ستلقون الله .

ثم تتحدث عن مصير المؤمنين . وهذه هي المرة الوحيدة التي تتحدث عن حسابٍ يسيرٍ للمؤمنين عندما تذكر مصيرهم مقارنةً مع مصير المشركين . ففي العادة يُذكر حساب المؤمنين بنتائجه فقط . ولا تذكر عملية الحساب نفسها . فيأتي ذِكْرُ هذا الحساب اليسير إلى جانب ذكر عقاب المشركين متفقاً مع جو السُّورة الموجهة لكسالى خاملين وبينهم مؤمنون . ﴿ **فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا** ﴾ (الانشقاق:٧-٩)

نعم ينقلب مسروراً لكن بعد حساب! لم يرد ذكره صراحةً في غير هذه السُّورة .

ثم مصير المشركين : ﴿ **وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا** ﴾ (الانشقاق:١٠-١٥)

وفي وصف حاله الدنيوي ما يوحي بالترهل والخمول فهو يعيش بسرور رغم ضعف أدائه . وتقوم حياته على ظنٍّ غير مبررٍ . فقد ظنَّ أنه لن يحور أي لن يعود إلى الله مع حيرته بذلك الظنِّ! وجواباً لخموله يؤتى كتابَه وراء ظهره وليس بشمالِه كما هي العادة . فهو أضعف من أن يواجه مصيره بل يهرب منه فيؤتى كتابَه وراء ظهره كأنه طالبٌ كسولٌ يتلقى نتائجه المدرسية وهو كارهٌ لها ؛ مشيحٌ بوجهه عنها عند استلامها .

إثارة : بلهجةٍ أشد وبنبرةٍ أعلى يأتي القسم الثَّلاثي لعله يوقظ النائمين في جاهليتهم ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** ﴾ (الانشقاق:١٦-١٩) .

والتهديد أن حياتهم لن تبقى مستقرةً مريحةً كما يظنون بل سيمرون بكلّ المراحل التي كتبها الله عليهم . فليخلعوا عنهم ثوب الخمول .

تفاعلهم مع النُّور الذي شق ظلمة حياتهم : تتساءل الآية (٢٠) عن عدم إيمانهم وعدم تقبلهم للقرآن . بل يكَذبون ، والله مطلعٌ على ما في نفوسهم . وتوصي السُّورة رسول الله بإبلاغهم بعذابٍ أليم إلا من آمن وعمل صالحاً : « ﴿ **فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ (الانشقاق:٢٠-٢٥) .

هذه هي سورة الانشقاق . دعوةٌ للخروج من حالة التخلف والكسل إلى اتباع النُّور الذي فتح لهم بوابةً إلى السماء تتجلى في نور القرآن ومواعظه وحكمته .

* * *

سورة البروج

البروج هي السورة الخامسة والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . وهي كاسمها المستمد من عظمة البروج تدور حول أمرٍ عظيم . قصّة أصحاب الأخدود الذين تحملت قلوبهم رؤية قتلاهم وهم يحترقونَ بالنار دون أن تتحرك قلوبهم شفقةً أو رحمةً . ولم يكن للقتلى من ذنبٍ سوى أنهم آمنوا بالله ربّهم . وتتحدث عن انتقامٍ إلهي يناسب تلك القسوة . فربّ هؤلاء المؤمنين الصامدين على إيمانهم والنار تشتعل بأجسادهم لا يترك إخلاصهم دون مكافأةٍ لهم وعقابٍ شديدٍ لمن انتقم منهم .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها «البروج» . وقد وردت كلمة البروج في الآية الأولى منها وهي قوله تعالى ﴿ **وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ** ﴾ (البروج:١) . وهي في الآية بمعنى الكواكب العظيمة في السماء . ويرى بعض اللغويين أن المقصود بها البروج الفلكية التي يتكون واحدها من عددٍ كبيرٍ من النجوم تتحرك ككتلةٍ واحدةٍ في السماء .

وكعنوان للسورة لها معنًى آخرُ فليس في أحداث السُّورة ذكر لكواكب ولا أبراج بعد الآية الأولى . فما هي البروج التي تدور حولها السُّورة؟

جاء في **مقاييس اللغة للرازي** : «برج : الباء والراء والجيم أصلان : أحدهما البروز والظهور ، والآخر الوَزَرُ والملجأ . فمن الأول البرج وهو سعة العين في شدة سواد سوادها وشدة بياض بياضها . ومنه التبَرُّج ، وهو إظهار المرأة محاسنها»

وفي **لسان العرب لابن منظور** : «البَرَجُ : . . وكلّ ظاهر مرتفع فقد بَرَجَ وإنما قيل للبروج بُروج لظهورها وبيانها وارتفاعها».

صاحب تاج العروس أضاف معنًى جديداً للبرج عندما قال : «البَارِجَةُ : سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ » وجمعها البَوَارِجُ . البارجَةُ : «الشِّرِّيرُ» وهو الكَثِيرُ الشَّرِّ يقالُ : ما فُلانٌ إلاّ بارِجَةٌ تَرِيدُ أَنّه قد جُمِعَ فيه الشَّرّ وهو مَجَازٌ»

فالبرج كلّ ما يفوق العادة من جسمٍ أو سلوكٍ . فالبناء العظيم برجٌ والكوكب العظيم برجٌ والسلوك الفائق العادة بارجٌ . في الآية الأولى قُصِدَت بروجُ السماء

العظيمة وفي بقية السُّورة تحدثت عن الشر الفائق العادة متمثلاً بسلوك الذين قتلوا أصحاب الأخدود حرقاً وتمتعوا بمشاهدتهم وهم يحترقون!!

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بقسمٍ ثلاثيٍ يشكل أطروحة السُّورة فالسماء ذات البروج من صنع الله تشير إلى عظمته التي لا يمكن أن يبلغها خلقه ولو اجتمعوا . واليوم الموعود تذكير للناس بيوم ينتظرهم ليُجزى كلّ إنسان بما قدم وأخر . والمشهود قد يكون المؤمنون لحظة تحملهم الحريق في سبيل الله وصبرهم على ذلك إخلاصاً لله . والشاهد هي الملائكة التي ستشهد لهم يوم القيامة .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ (البروج:١-٣)

وأمام هذه الحقائق لا يستطيع عاقلٌ أن يأتي بعملٍ خارق للعادة في سوئه . والفائزُ من يحرص على طاعة الله!! ومن يتجاوز الحدَّ فإن ربَّ البروج قادرٌ عليه!

قضية السُّورة : إنها حادثةُ أصحاب الأخدود . ووردت رواياتٌ بعضها غير مقنعٍ إطلاقاً لأنه ينسب النُّبُوَّة والكتاب لشعوب لم تخاطب وهم الفرس . وروايةٌ أخرى عن ملكٍ وساحرٍ تشبه الأساطير التي لا يقبلها عقلٌ . وروايةٌ ثالثَةٌ أن الحادثة حدثت في اليمن والقتلة يهودٌ والقتلى نصارى . والقصة غير مقنعةٍ فعندما وصلت النصرانية إلى اليمن كانت عقيدتها التثليث . وكان اليهود موحدين .

ويبقى ما أظنه أن الحادثة من صنع مشركي العرب لنفرٍ من المؤمنين . لكن عدد قتلى المؤمنين كان قليلاً فغفل عنها الرواة ؛ أو نُسيت ولم تسجلها كتب السيرة لسببٍ لم نعلمه . وإلا فما الفائدة من الآية الأخيرة فيها التي تعطي فرصة التَّوبة للفاعلين إلا أن يكونوا من المخاطبين بالقرآن؟ كما أن كلمة المؤمنين إذا ذكرت في القرآن بهذه الصيغة فليس لها من معنى سوى المؤمنين مع النبيّ ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (البروج:٤-١١)

حقّاً إنه عملٌ شديد العنف وفاعله يستحقّ اسم بارجةٍ شريرٍ . فلا يقوم به إلا من عَدِموا قيمهم الإنسانية وقست قلوبهم . ومع ذلك فالآية (١٠) تعطي فرصةً للقتلةِ لعلهم يتوبون ، وإلا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . مما يعني أنهم كانوا أحياءً يسمعون القرآن . وإذا لم يكونوا أحياءً فلا داعي لعرض فرصة التَّوبة على القتلة في الآية . ويكون قرار معقابتهم قد اتخذ ولم يعد مكانٌ لوعدٍ بغفران .

الردُّ على القتلة الأشرار : ببطشٍ شديدٍ يقابل عنفهم وشرهم سيعاقبون : ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ (البروج:١٢-١٦)

الإشارة إلى أن الله يُبدئ ويُعيد موجهةٌ للمشركين الذين ينكرون البعث . والغفور الودود لعباده المؤمنين . ومقابل القسم بالبروج في الآية الأولى تأتي صفة ﴿ **ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ** ﴾ (البروج:١٥) فمن يملك هذه الصفات لا يجوز عصيانه وتعذيب المؤمنين به لأنه قادرٌ على الانتقام لعباده ولا تستطيع قوةٌ أن تقف في طريقه . ويبقى قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ** ﴾ بهذه المناسبة دليلاً آخر على دعوة الفاعلين للتوبة والإيمان .

نماذج تاريخية من انتقام الله : يخاطب رسوله بما فعل سبحانه بأعدائه الأشداء فرعون وثمود : ﴿ **هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ** ﴾
(البروج:١٧-٢٢)

وخصت السُّورة فرعون وثمود لأنهم كانوا الأشد تطرفاً وعناداً بين الأمم المخاطبة . فثمود عقرت ناقة الله بعد أن شاهدت المعجزة فيها . وفرعون هم بقتل رسل الله والمؤمنين معهم دون ذنبٍ منهم .

إنها سورة البروج وما يناسبها من الخروج على المعتاد من أعمال البشر .

* * *

سورة الطارق

هي السُّورة السادسة والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . سميت بالطارق . وهي تتحدث عن نجمٍ ثاقب . كما تتحدث عن التدبير الإلهيِّ الخفيِّ فكأنه زائرُ ليلٍ كالنجم . والله لا يخشى شيئاً ليدبِّر سرًّا ؛ ولكن لأن مقتضيات سير الحياة تحتاج ذلك . ويذكر تدبيره هنا للرد على كيدهم ؛ الذي يحتالون به وهم يمكرون بليلٍ لقتل النبيّ . فتُقسم لهم السُّورة أن الله جعل لكلّ نفسٍ حافظاً يحفظها مما لم يُكتب لها . فليكيدوا للنبيِّ كما شاءوا . فلله كيدٌ لا يبلغون منه مثل ما ينال رأس مخيطٍ من بحرٍ محيط .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الطارق . وقد وردت الكلمة في الآية الأولى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ (الطارق:١) . ثم عرفتها الآية الثَّالثَة بأنها النجم الثَّاقب . وهذا هو معناها في الآية التي وردت بها . ولكنها كعنوان تختلف قليلاً . فمن معاني الطارق في معاجم اللغة إتيان المنزل ليلاً . والسُّورة تتحدث عن كيد قريش بالنبيّ وتسمي عملهم « كيداً » . ولا يكون الكيد إلا خفيةً واحتيالاً ومخاتلةً . فهو تدبيرٌ في الظلمة فكأنه يرتب بليل . فيأتي الردُّ عليه بكيدٍ مثله يطرق القومَ وهم لاهون أو غافلون . والسُّورة تستشهد كثيراً بما يصنع الله في أماكنَ مظلمةٍ مخفيةٍ عن العيون تشبه الليل في قدرته على الإخفاء .

تحليل السُّورة على ضوء موضوعها :

أطروحة السُّورة : بآياتٍ أربعٍ موجهةٍ لرسول الله تبدأ السُّورة وكأنها تَصرف عنه هماً ثقيلاً مما تُدبر قريش . ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (الطارق:١-٤)

فالذي خلق النجم الثَّاقب يثقب الظلمة بنوره قادرٌ على أن يحفظ كلّ نفسٍ خلقها .

أمثلةٌ من عمل الله القدير : وكلّ الأعمال المذكورة مما يتم بعيداً عن الضوء أوعن عيون البشر فهل يقدر كيدهم على مثل تدبير الله : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ

﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (الطارق:٥-١٠)

ويلاحظ أن الآيات اختارت للحساب اختبار السرائر وهي الضمائر والقلوب . فهي مما يخفى على الناس ولكن لا يخفى على الله .

تهديد أصحاب الكيد : وتبدأ الفقرة الأخيرة بقسمٍ جديدٍ بالسماء ذات الرجع .
﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾
(الطارق:١١-١٧)

والقسم يهددهم بأرزاقهم وهو تهديدٌ شديدٌ لأناس يعيشون في بيئةٍ جافةٍ ليس لها للماء سبيلٌ إلا ما تجود به السماءُ مطراً وما ينبت عليه من زرعٍ ومرعًى . ويؤكد للنبيِّ ، وهم يسمعون ، أنه تهديدٌ جادٌّ فليكفوا عن الكيد لرسولهم . وبناءً على الآية الرابعة من السورة فإن الكيدَ كان يتعلق بحياة النبيّ . فلعلهم كانوا يمكرون لقتله . فجاء هذا التهديد الشديد . ويبدو أن السُّورة نزلت قبيل حصار الشعب عندما فكرت قريشٌ بقتل النبيّ والعياذ بالله .

* * *

الأعلى

هي السورة السابعة والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . أُعطيت عنوانَها من صفة الله تعالى «الأعلى». فتخصصت بذكرِ بعضٍ من علوِّه في الخلق والتخطيط والرحمة بكلّ ما خلق ، لم يهمل مخلوقاً ولو كان حشرةً أو حملاً تائهاً في البريَّة . ومن سُمُوِّه أن سَهَّل على رسوله حفظ القرآن دون جهدٍ من النبيّ . وجعل لأمة محمدٍ سبلاً للسموِّ تنطلق من ذكره سبحانه . ويسَّر لها تزكية النفس وتقواها . فكانت السُّورة إعلاءً لقدر الأمة وشأنها بين الخلق وهي الأُمَّة الأمّيّة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

حظيت السُّورة باسمها «الأعلى» وهو صفة الله سبحانه! وقد وردت صفته تعالى في الآية الأولى من السورة ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ (الأعلى:١) . والأعلى هو الأسمى والأشرف . وقد تجلت صفة السموّ في السورة باتجاهين : الأول : الأعمال التي ذكرها العليُّ الجليل لذاته مع صفته الأعلى وهي الخَلْقُ السوي للإنسان وتقدير الصفات للمخلوقات وفَطْرُها عليها وخَلْقُ المرعى بما يناسب الحيوانات العجماء . فلم ينس سبحانه شيئاً من خلقه ولا أهمله . وما تفضل به برعاية الرسول عليه السلام ، وضمان حفظه للقرآن دون جهدٍ منه .

والثَّاني : ذكر الصفات التي يسمو بها الإنسان . فهي الأعلى بحقّ .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : بآياتها الثَّلاث الأولى جعلت جوهرها وعمودها الفقري لتكسوه بما يناسبه في بقية السُّورة ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى:١-٣) .

وآية «قدر فهدى» شبيهة بقوله «هو الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى ...» فهو سبحانه أَلْهَمَ كلّ مخلوق لما خُلق له ولما يلزمه كي يعيش ويتكاثر كما قدر له الله .

من تقديره سبحانه : وبهاتين الآيتين يُذَكِّر الأمة بمصدر طعامها وطعام أنعامها . ﴿ **وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ** ﴾ (الأعلى:٤،٥) وباختصار لائق بالسُّورة يخرج المرعى لتقفز الآية التالية إلى جفافه ليتجدد في موسم قادم . وللعلم فإن نبات المرعى مصممٌ بطريقةٍ مختلفةٍ عن نباتات طعام الإنسان . فالحيوان يبدأ بأكل النبات من طرفه الأعلى لأنه الأقرب إليه . فكانت خلايا تجديد نباتات المرعى في قاعدة المجموع الخضري للنبات . بينما تقع خلايا تجديد الأشجار ونباتات الخضروات التي يأكلها الإنسان في طرفها العلوي وهو ما يسمى القمة النامية من النبات . فالإنسان يكتفي بقطف الثِّمار . ولو تشابه تركيب نبات المرعى مع نباتات طعام الإنسان لماتت ولفنيت معها الأنعام . فسبحان ربنَا الأعلى .

التذكير النبوي : يُعَدُّ النبيّ ليحفظ القرآن دون جهدٍ منه ليُذَكِّر الأمة فيصنعَ لها شرفاً وذِكراً . وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى أكثر من مرةٍ . ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ** ﴾ (الأعلى:٦-١٠)

تنفع الذِّكرى من يستحقّ هذا ؛ ولكن الذي اكتسب ظلماً وعدوّاناً وسوء خلق فسيحرم من هذا العلو : ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ** ﴾ (الأعلى:١١-١٣)

الذين ينالون الشرف والعلو : من تزكى وتطهر وكان قبل ذلك تقيًّا فاستفاد من التذكيرِ ، وعبد ربّه صلاةً وتسبيحاً ؛ أولئك من يعلون بالذِّكر الحكيم : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ** ﴾ (الأعلى:١٤-١٥)

عقبة الإيمان والتذكر :على صغر السورة لم تهمل تحديات السموِّ المرجوِّ للإنسان . وهو حبُّ المتع العاجلة واستبعاد الآخرة وهذه حقائق راسخةٌ مذكورةٌ في كتب الرسل السابقين ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ** ﴾ (الأعلى:١٦-١٩)

وبذا تكون السُّورة قد أظهرت نموذج العلوِّ الأعظم وهو علوُّ الله تعالى بأعماله العظيمة المتقنة . ثم خططه لرفع شأن أمة محمدٍ، ثم وسائل إعلاء من يستحقّ منهم، وأخيراً معيقات العلو . كلّ هذا في تسعَ عشرةَ آيةٍ صغيرةٍ . أو ثمانٍ وسبعين كلمة فقط .

* * *

سورة الغاشية

هي السُّورة الثَّامنة والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . والسُّورة تغشى الناس ببيناتها الواضحة لأهل مكّة . فتمزق بذلك ما استغشوا به عقولهم وهم يُعرِضون عن سماع النبيّ ، ويمتنعون عن اتباعه بإنكارٍ غير مبرر .

حالة الإنكار التي كان أهل مكّة يواجهون بها رسول الله تشبه استغشاء قوم نوحٍ لثيابهم كي لا يسمعوه . أولئك استحقّوا الطوفان المعروف . لكن الله يعلم سرَّ مشركي مكّة ، وأن إلحادهم كان قشرةً من التظاهر خوفاً على رزقهم ، أو جهلاً بقدرة الله على تغيير الأوضاع لصالح رسوله ورسالته إليهم . فكان جهلهم وخوفهم على الرزق عذراً مخفِّفاً لهم . فصبر الله عليهم وصَبَّر رسوله ؛ وآتاهم بَيِّنات تنير عقولهم ؛ كي يفتحوا قلوبهم وعقولهم للنور والإيمان . ليكون إيمانهم غاشية حمايةٍ تحميهم من عذاب الغاشية يوم القيامة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الغاشية عنوانها . وقد وردت كلمة الغاشية في الآية الأولى ﴿ **هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَـٰشِيَةِ** ﴾ (الغاشية: ١). وهي في الآية بمعنى يوم القيامة الذي يغشى الناس بأهواله .

ونقرأ في مقاييس اللغة للرازي : « غشى : الغين والشين والحرف المعتل أصل صحيح يدل على تغطية شيء بشيء». وفي لسان العرب لابن منظور : « الغشاء الغطاء»

فالغاشية كعنوانٍ للسورة يوم القيامة وكموضوعٍ للسورة ما يحمي المخاطبين من النار بدعوتهم للإيمان وتبصيرهم بآيات الله وحضِّ المؤمنين على الصَّبر عليهم .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : تقتصر الأطروحة على آيةٍ واحدةٍ هي : ﴿ **هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَـٰشِيَةِ** ﴾ (الغاشية: ١) وعندما تكون هذه الآية موجهةً من الله لرسوله فإنها تقول ما يكفي للقيام بوظيفتها كأطروحةٍ للسورة . فالقيامة تعني يوم الحساب وبه يتوزع

الناس إلى جنةٍ ونارٍ ، حسب ما كسب الإنسان أو اكتسب في حياته الدنيا . وطاعة الرسول أول ركنٍ في حساب أهل مكّة تلك الأيام .

أهل النار وأهل الجنة : وتصف الآيات حال كلّ فئةٍ وما تعاني أو تنعم . وكأنها بذلك تخير الناس إمّا إلى جنةٍ وإمّا إلى نار . إمَّا التَّولِّي عن الذِّكر ومعه جهنم : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ** ﴾ (الغاشية:٢-٧) . فهم في غاشية عذابٍ أليمٍ . حتى لحظات الطعام والشراب تكون لهم زيادة همّ ونكدٍ فشرابهم حارٌ يحرق بدل أن يروي ، وطعامهم شوكٌ ينخس بدل أن يُشبع أو يمتِّع . فهل يصبرون على هذا الشقاء؟

وإمّا الإقبال على الذِّكر واتّباع الرسول وجزاؤه الجنّة ونعيمها : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ** ﴾ (الغاشية:٨-١٦) . وهذه صورة تقابل صورة أصحاب الغشاوة . صورة كلّها إشراق للبصر ومتعة تزيد النفس صفاء . كلّ شيء فيها يُشعر بالسعادة والهناء .

تذكير بآيات شاهدة مشهودة : تسرد الآيات التالية عدداً من آيات الله المبثوثة في الكون عسى أن يؤمنوا فيكون الإيمان لهم غاشية حفظٍ من النار : ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ (الغاشية:١٧-٢٠) فكيف يغمضون عيونهم عما يرون من هذه الآيات المبصرة .

وظيفة الرسول : تحفز الآيات النبيّ إلى ممارسة عمله رغم إعراض قومه . ولتهوين الأمر عليه تحصر وظيفتَه بالتذكير فقط . وعلى الله حساب الناس : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم** ﴾ (الغاشية:٢١-٢٦)

فمصيرهم بيد الله . فهو سبحانه المسيطر عليهم . وإرادته تحيط بهم وعذابه سيغشى من يتولى منهم ويغلق أذنيه دون دعوة رسول الله . إلا من يتخذ من الإيمان غاشية .

* * *

سورة الفجر

هي السُّورة التاسعة والثَّمانون حسب ترتيب المصحف . بدأت بالقسم بالفجر بداية النُّور اليومي وبداية النهار . وموعد الصَّلاة الأولى وموعد القرآن المشهود . لتعرض موضوعاً لعل له علاقة بالعبادات المذكورة بآياتها الخمس الأولى . وأيًّا كان الأمر فالسورة تتحدث عن الفجَر بمعنى الجود والكرم وإطعام المسكين وإكرام اليتيم . وتنهى عن البخل والحرص وشغل القلب بجمع المال ، دون النظر لوسيلة جمعه حلالاً أو حراماً وعدلاً أو ظلماً . ثم تَعِدُ بأشدّ العذاب لمن يظلمون ويبخلون برزق الله . كما تحدثت في بدايتها عن عذابِ هلاكٍ أصاب أقواماً أسرفت في الاستمتاع بالمال وبسوء استخدام الثَّروة .

عنوان السُّورة وموضوعها :

خصها الله تعالى باسم الفجر . وللفجر معان كثيرة . ومنها الفجر الذي يعقب الليل وهو معنى كلمة الفجر التي ملأت بنورها الآية الأولى ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ (الفجر:١) . ولكن فجر العنوان له معنى آخر ؛ جاء في مقاييس اللغة للرازي : « فجر : الفاء والجيم والراء أصل واحد وهو التفتح في الشيء . من ذلك الفجْر : انفجار الظلمة عن الصبح . ومن الباب الفَجَر وهو الكَرَم والتفجر بالخير ». وفي لسان العرب يقول ابن منظور : « الفَجَر : العطاء والكرم والجود المعروف ». ومن معاني ، الفجْر في كتاب العين : المعروف . وهوليس بعيداً عن الكرم والتفجر بالخير .

والسُّورة تتعرض لما قَدَّر الله للناس من رزقٍ على سبيل ابتلائهم ؛ وتنهى عن البخل وحبِّ المال . فيكون موضوعها الدعوة للكرم . وهو الفجَر حسب اللغويين ونفس كلمة الفجْر كما في كتاب العين للخليل بن أحمد .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

بدأت السُّورة أطروحتها بمقدمةٍ مليئةٍ بالإيحاءات .

أطروحة السُّورة : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (الفجر:١-٥)

يقسم تعالى بمخلوقاته من الزَّمن . وقد خلقها تعالى ليكون للناس فيها شئون كلّ حسب تصوره للحياة . والقسم كان بها بمعناها المجرد البسيط . فالفجر موعد الصَّلاة الأولى وتسبيح الله وذكره وقراءة القرآن المشهودة . والليالي العشر ليالي عبادةٍ ومناسك ففيها فريضة الحجّ الواجبة على القويّ الغنيِّ القادر . والشفع والوتر تشيران إلى نوعين من الصَّلاة فالشفع ما كانت ركعاتها أزواجاً كالاثنتين والأربع ؛ والوتر ما كانت ركعاتها بالمفرد كالثَّلاث والخمس . والليل يمكن أن يسري بالقيام ليتقرب به المؤمن من ربّه . أليس في هذه الأزمنة قسماً كافياً لذي اللبِّ ليعبد الله بدل أن يستغلها بتكديس الثَّروةِ فقط؟

أمثلةٌ ممن ضيعوا حياتهم بجمع المال والتمتع به : يبدأ بمثل عادٍ ولكن من جهةٍ تختلف عن ذكرهم في أيةِ مرةٍ سابقةٍ . فهم يُذكرون هنا كقومٍ جمعوا وبنَوا وتباهَوا بما صنعوا وسبقوا سواهم من القبائل . ثم تُذكر ثمود من نفس الزَّاوية وكذلك يذكر فرعون بأوتاده . ولكن الثَّراء والملك أفسدهم فاستحقّوا العذاب .
﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾

(الفجر:٦-١٤)

فكأنَّ هذه الأمثلة تحذِّر الناس من فتنة المال . فإنَّه اختبارٌ صعبٌ لا ينجح فيه إلا قليلٌ ، خصوصاً في بيئةٍ كانت فقيرةً جافةً وقليلةَ الموارد . ومن يفشل به فعقابه شديد .

امتحان الثَّروة : تمشياً مع عنوان السُّورة وموضوعها وهو التشجيع على الكرم زكاةً وصدقةً ، والنهي عن الحرص والبخل وسوء الاستعمال ، تتحدث الآيتان (١٦-١٧) عن سنة الله في امتحان الثَّروة : **﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾** (الفجر:١٥-١٦)

عوامل الفشل في الامتحان : تسرد الآيات الأربع التالية عيوب الإنسان النفسية التي تحرمه النجاح في امتحان الثَّروة ليتجنبها عسى أن ينجح فيستحقّ الثَّروة :

﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ (الفجر:١٧-٢٠)

هذه عيوب الناس في الممارسات المالية . وما ذلك إلا لحبهم الشديد للمال . وهذه كلّها ناجمةٌ عن تصوراتٍ خاطئةٍ للحياة وعدم إيمان بالله وبقدرته على إدارة رزق العباد .

تهديد البخلاء بيوم الحساب : تصف الآيات (٢١-٢٦) يوم الحساب وما يحدث لمن بخل على الله في حياته ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴾ (الفجر: ٢١-٢٦)

يقول يا ليتني قدمت . ولكن فات الأوان ولا ينفع الندمّ .

وبشرى لذوي النفوس الطيبة المطمئنة غير الملهوفة على الدنيا ومتاعها الزّائل ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر:٢٧-٣٠) .

ولعلها من أعظم وأجمل ما بَشَّر الله به ذوي السخاء المطمئنين لرحمة الله غير المشغولين بِهَمِّ الرزق .

* * *

سورة البلد

هي السُّورة التسعون حسب ترتيب المصحف . منحها الله تعالى اسم البلد . وكلمة البلد واردةٌ في الآيتين الأولى والثَّانية ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ (البلد: ١،٢) . ولدى تحليل السُّورة يتبين أنها تدور حول تراجع الإنسان عن منزلةٍ كريمةٍ بعد أن وصل إليها خصوصاً في مجال الإنفاق . فتأتي السُّورة لتعيب عليه تبلده وتحضه على مزيدٍ من الإنفاق . فهو طريق بناء المجتمع وطريق الوصول إلى رضا الله . فالبلد كعنوان للسورة من التبلد بمعنى الانتكاس والضعف في عمل الخير بعد نشاط .

عنوان السُّورة وموضوعها :

عنوانها البلد . ووردت كلمة البلد في الآية الأولى ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ (البلد: ١) . وقصد بها هنا مكّة المكرّمة . ولكنها كعنوانٍ للسورة أخذت من المادة اللغوية «بلد». ولا علاقة لها بمكّة أو بصفةٍ من صفاتها أوٍ بكلمة بلد بمعنى مدينة .

جاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي : «بلَّد تبليداً : لم يتجه لشيء وبَخِلَ ولم يَجُد . بلَّدت السحابة لم تمطر ، والفرس لم يسبِق». وفي أساس البلاغة للزمخشري : بلَّد بعد نشاطه إذا فتر ونُكس . قال :

جرى طلقاً حتى إذا قيل سابقٌ تدراكه أعراق سوء فبلَّدا»

وفي العين للخليل بن أحمد : «بَلَّدَ : نَكَّسَ وضَعُفَ في العمل وغيره حتى في الجود» .

البلْد أو التبلد تراجع في سلوك حسن خصوصاً الكرم . هذا ما يستنتج مما ذكره اللغويون الثَّلاثة . ولعل بيت الشعر المجهول قائله يشبه موضوع السُّورة إلى حدٍّ بعيد . فهي تتحدث عن شخص أنفق مالاً لبداً . ويبدو أنه فتر وبخل ، فدعته لمزيد من الإنفاق بما يتفق مع ثرائه . دعته لإعتاق رقبةٍ وإطعام أقارب فقراء ومساكين

معوزين . فموضوع السُّورة دعوةٌ لعدم الفتور خصوصاً في مجال الجود والإنفاق صدقةً وزكاةً ؛ بل إلى مزيد من النشاط والإنفاق . وكأنَّ موضوعها مكمِّلٌ لموضوع سورة الفجر .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

مقدمة السُّورة : هي الآيات الأربع الأُول ﴿ **لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ** ﴾ (البلد:١-٤) . وتأتي صيغة «في كبد» على غرار «في سعة» . فكأنَّ الإنسان في بحر من المصاعب عليه أن يكابد فيه . وبدون جدٍّ ونشاطٍ يكون قد ضاع وخسر عمره .

تحذير **من التبلُّد** : يميل صاحب المال المنفق أحياناً للتراجع تحت ضغوطٍ كثيرةٍ منها شعوره بعدم جدوى ما يعمل ، أو عدم استحقاق من ينفق عليهم . فتبدأ السُّورة بعد الأطروحة بهذه الحالة : ﴿ **أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا** ﴾ (البلد:٥،٦) . وكلمة يقدر في الآية (٥) تأتي بمعناها الأصلي للكلمة أي أنّه وصل في الكرم والإنفاق حدّاً لم يبلغه أحدٌ من قومه .

نِعَمُ الله على الإنسان : تأتي هذه المجموعة من الآيات لتذكر الإنسان بفضل الله عليه كمبرر للإنفاق في سبيله . وتشعره بأن الله يرى عمله فلن يضيع سدى : ﴿ **أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ** ﴾ (البلد:٧-١٠)

ويذكر بعض المفسرين أن الآيات منذ الآية الخامسة موجهةٌ لمشرك من مكّة يتباهى أنه أنفق في عداوة النبيّ . ولكن الآيات تخاطب مؤمناً استكثر ما أنفق فتدعوه إلى المزيد . فمن يتباهي بالإنفاق على إيذاء النبيّ لا يستحقّ أن يُدعى للإنفاق في سبيل الله . خصوصاً أن الآيات تُذكّره بنعم الله التي تستحقّ أن يزكى عنها كالعينين واللسان والشفتين وإلهامه النجدين .

الإنفاق المطلوب : تذكر الآيات (١١-١٨) مواطن إنفاق وصدقةٍ تليق بصاحب المال المؤمن : ﴿ **فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ**

إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾

(البلد: ١١-١٨)

وهو إنفاق مشروطٌ بالإيمان ليحظى فاعله بمنزلة أهل اليمين .

ومن أصر على الكفر بآيات الله فله ما يستحقّ من خالقه ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةُۢ** ﴾ (البلد: ١٩-٢٠) .

* * *

سورة الشمس

الشمس هي السورة الحادية والتسعون حسب ترتيب المصحف . سماها الله الشمس لأنه أراد بها تحرير الجاهليين من شموسهم وحِدَّتِهم وانجرافهم وراء قوتهم الغضبية بعيداً عن حكمة العقل واعتبار النتائج . ومن أسف أن هذه الصفات ما زالت تسود بين العرب وشعوبٍ أخرى . ولم ينج منها إلا من زَيَّنه الله بالعقل والتقوى . وقد استَعمَلت السورة كلّ ما يمكن استعماله من خطط الله في بناء الكون وتنظيمه ليبدو جميلاً ممهداً . فنتعظ ونهذِّب نفوسنا لنتواءم مع المحيط . ثم ضرب لنا مثلاً من قبيلةٍ بادت لأن أشقياءها انطلقوا بعفويتهم البدائية وتوحشهم الشرس يتحدَّون الله ويدمرون معجزته التي رأوها بأعينهم ؛ فدمدم عليهم بعذابٍ غشيهم جميعاً فما رفع أحدٌ منهم رأسه بعدها . إلا صالحٌ والذين آمنوا معه .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الشمس عنوانها وموضوعها . وليس لورود كلمة الشمس في الآية الأولى منها ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ (الشمس: ١).

ولكن لأنها تدور حول أحد معاني كلمة الشمس . ولو كان السبب في عنوانها ورود الشمس في الآية الأولى ، لكانت سورة التكوير أولى منها بهذا ؛ فقد بدأت بكلمة الشمس وسبقتها في الترتيب وكانت أطول منها .

الشمس كعنوانٍ للسورة معْنِيٌّ بصفة الحدِّة والشموس عند الإنسان . ويرد هذا المعنى عند الرازي في المقاييس . يقول : « شمس : الشين والميم والسين أصل يدل على تلون وقلة استقرار . . . . ورجل شموس ، إذا كان لا يستقر على خلق ، وهو إلى العسر ما هو » . وفي مختار الصحاح : « شَمَسَ الفرسُ منع ظهره ، فهو فرس شموس . ورجل شموس أي صعب الخلق» . والفرس الذي يمنع ظهره هو الذي لم يروض فما زال يحتفظ بتوحشه .

حول هذا الخُلُق الذي يكثر بين أهل الجاهلية تدور السُّورة ، أي الشمس بمعنى التَّوحش وعدم حساب العواقب . ولذلك ورد في السورة قصّة شقيٍّ ثمود الذي قتل

ناقة الله وهو يعلم المعجزة فيها . ولكنه لم يدرك العواقب فهلك به قومه . فهي مثل سورة التكوير والانفطار تسعى لتربية جيلٍ تقىٍّ مهذبٍ يفكِّر قبل أن يمدُّ يده أو لسانه دون انضباطٍ بالعقل أو حساب العواقب .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

تبدأ السُّورة بذكر الشمس في أشدِّ حالاتها . ثم تذكر أحوالها التي تهدأ بها حرارتها كالقمر يتلوها والليلِ يغشاها . وتبقى إمكانية الحرارة مع النهار يجلِّيها وكأنه يرسم بها صورة لأحوال النفس حيث يستطيع الإنسان ترويض نفسه كما يستطيع الاحتفاظ بتوحشه وبدائيته : ﴿ **وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا** ﴾ (الشمس:١-٨)

ومع أحوال الشمس كمحورٍ للسورة يأتي إحكامُ بناء السماء وكلمة بناءٍ تحتوى على الترتيب والتنظيم . وتمهيدُ الأرض إذ طحاها ، أي مدها وبسطها لتلين للإنسان . ثم تسويةُ النفس وتحريرها من أشواكها وبدائيتها . كلّ هذا ليوحي للسامع أن القصد هو التهذيب والترتيب والتنظيم وليس البدائية والتَّوحش والفجاجة .

ثم تقرر السورة غرضها الكبير : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ (الشمس:٩،١٠) والتزكية تطهيرٌ وتهذيبٌ ، والتدسية تلويثٌ واحتماءٌ بالطبيعة كالحية الصماء التي تسمى دساسةً لأنها تختفي تحت التراب .

مَثَلٌ من ثمود : ثمود قبيلةٌ عربيَّة . فالمثل ليس بعيداً ، والخلل النفسي نفسه حيث تسبق اليد عقل صاحبها . وينتفي الشعور بالمسئولية . وقد تتقدم القبيلة أو العشيرة لتحمي شقيّها مُتَمَحِّلَةً الحجج لذلك . ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا** ﴾ (الشمس:١١-١٥)

وقد يعجب القارئ من ورود قصةٍ من أخبار الأمم البائدة في سورة قصيرةٍ كهذه . ولكن موضوع السُّورة يزداد وضوحاً وتأثيراً بهذه القصة . فالحمد لله الذي خاطبنا بكلّ وسيلةٍ وكلّ صيغةٍ من صيغ الخطاب كي نفهم ونتعظ !!

* * *

سورة الليل

الليل ، السُّورة الثَّانية والتسعون حسب ترتيب المصحف . اتخذت من الليل عنواناً لها لتجعل النُّور مستقَرًّا للمؤمنين الذي يطيعون أمر ربّهم . بدأت من حقيقة أن سعي المخاطبين شتى غيرُ سالكٍ باتجاهٍ واحدٍ . ففيه الصواب وفيه الخطأ . ومن تَشتُتِ سعيهم الذي يشبه ظلمة الليل تنطلق بهم السُّورة إلى نور الهداية . ومن قسوة قلوبهم المقيدة بحب العاجلة تأخذ بأيديهم إلى حالة التزكية وتطهير القلوب بالصَّدقة والزَّكاة . ليعيشوا بنور المحبة في الحياة الدنيا ويحظوا بنعيم الرضا في الآخرة . إنها سورة الليل الذي يجب التحرر من ظلمته ليشرق نورُ الإيمان والعطاء في القلوب وفي علاقات المجتمع المؤمن .

عنوان السُّورة وموضوعها :

الليل عنوانها . وهي نفس الكلمة الأولى في السُّورة ﴿ **وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ** ﴾(الليل: ١). وفي الآية بمعنى الليل . وكعنوانٍ للسورة تعني صفة الليل وهي الظلمة . فكلمة ليلٍ من الكلمات الأساسيَّة في الحياة والتي لا يمكن وصفها بأبسط منها ولا أدقَّ . ولكن استعمال العرب لكلمات مشتقةٍ منها هو الذي يبرر اختيارنا للظلام أو العتمة معنى لليل . يقول ابن منظور في اللسان : « ليلة ليلاء إذا اشتدت ظلمتها . وليل أليل : شديد الظلمة » .

وفي تسميتها بالليل معجزةٌ لا تخطر ببال . فهي تأتي لتنهى عن أهم أسباب ظلمة القلب وهو البخل وتأمر بأقوى أسباب النُّور وهو الإنفاق في سبيل الله . من جهةٍ أخرى يتقابل فيها ذكر الليل والنهار كتقابل البخل والجود . بهذه السُّورة يدعو الله المخاطبين للخروج من الظلمة ، فهي الحال القائم يومها . وقد مهدت السُّورة لها بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ** ﴾ (الليل:٤) . وتشتُتُ السعي يُضيعُ بعض طاقة الفرد والمجتمع مقابل التخطيط السليم وتوجيه الطاقات جميعاً الوجهةَ النافعة .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة :تؤسس السُّورة لفكرتها بقسمٍ ثلاثي لتؤكد للمخاطبين أنهم على وشك الضياع والفرقة . والسُّورة تخاطب مجتمعها خطاباً مباشراً . ولا يكون هذا الأسلوب إلا مع المؤمنين . ﴿ **وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ** ﴾ (الليل:١-٤)

إن سعيهم لشتى فيه النافع المثمر وفيه العقيم الذي يذهب سدى . فهو يحتاج إلى ضبطٍ وتوحيد اتجاه .

التصويب المطلوب : الإنفاق في سبيل الله والتقوى بالسلوك . بهاتين يستقيم أمر الجماعة المؤمنة : ﴿ **فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ** ﴾ (الليل:٥-٧) اليسرى هو الهدف المشرق الذي تدعو إليه السُّورة .

الانحراف المرفوض :وهو ما لا يرضاه الله للمؤمنين ؛ لكن لا يجبرهم على تركه ، بل يحضُّهم على ذلك بالحسنى والإقناع ، حتى لو كان الإقناعُ تهديداً بنار جهنم ؛ فهو خطابٌ للعقل وليس قسراً بالقوّة والإجبار المادي أو التشريعي : ﴿ **وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ** ﴾ (الليل:٨-١١)

وتنتهي الفقرة بنصيحةٍ مؤثرةٍ . فهي تتعامل مع صفةٍ أصيلةٍ في الإنسان وهي حب التملك وعدم التخلي عن الملكية بسهولة .

حقّ الله في الإنسان : مع أنه حقّ إلا أن الله يكتفي بتبصير عبده بالهدى والموعظة ويترك له حرية الاختيار لكن يحتفظ الله لنفسه بحقّ الحساب في الآخرة : ﴿ **إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣** ﴾ (الليل:١٢،١٣)

وبهذا يعرف الإنسان ما له وما عليه . فإن شاء بقي في ظلمته المريحة الممتعة له . وإن شاء ضحى ببعض هذه المتعة لينال الأجر يوم الحساب . وليرضي ضميره في الحياة الدنيا وهو يسعد الآخرين بفائض ما لديه .

التحذير : تحرص السُّورة على لهجتها الشديدة ليس للإكراه لكن لتحرير الناس من قسوة قلوبهم الناتجة عن حب المال على حساب الآجلة : ﴿ **فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** ﴾ (الليل:١٤-١٦)

كلمات قاسيةٌ بحقّ الذي رفض النصيحة وتولى . ولكنها تبقى نصيحةً وليست ملزمةً الزّاما ماديًّا او قانونيًّا . ليأخذ العقل والقلب دورهما في قرار الإنسان واختياره بين الظلمة وبين النُّور .

الفائز بالنُّور وبالرضا: لا أجمل من عمل لوجه الله بعيداً عن حسابات المصلحة وتبادل المنفعة : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ (الليل:١٧-٢١) يُؤتي ماله يتطهر ويتخلص من ليل قلبه فيشرق قلبه بالرضا ورضاه في الآخرة أكبر .

* * *

سورة الضُّحى

منذ سورة الضحى تأخذ السور القصيرة جداً شكل الخبر أو الرسالة القصيرة الموجهة للنبيِّ . ومع أن بعضها يحمل عنواناً معطًى لها بنفس الطريقة التي وضع بها عنوان السور الطويلة . إلا أنا سنكتفي بتوضيح معنى العنوان إن لزم ونتحدث عن السورة باختصار . إلا إذا لزم غيرُ ذلك كما في سورة العلق مثلاً .

هي السُّورة الثَّالثَّة والتسعون حسب ترتيب المصحف . والضُّحى تعني الارتفاع والظهور . وهذا هو حظُّ النبيّ . أظهره الله ورفع قدره في قومه . والسُّورة موجهةٌ كلِّيّةً لرسول الله . تأتيه بعد فتور الوحي مدةً . مما أعطى جهلة قريش فرصة التندُّر والقول إن ربّ محمدٍ قلاه . فأتت السُّورة لتؤكد له علو قدره وارتفاع منزلته عند ربّه . ولا يشاركه في ذلك ولا في السُّورة أحدٌ من خلق الله . وبعد وعد الله له بأن يعطيه حتى يرضى ، وأن آخرته ستكون خيراً من أولاه ، يعود به إلى حياته ليذكره برعايته له حتى صار نبيًّا وغنيًّا . ثم توصيه بما يليق به . وأتمنى أن لا يوقع الناسُ شيئاً من آيها على أحوالهم . فهي والانشراح خاصّتان بالنبيّ وكلّ ما فيهما لا ينطبق إلا على أحواله عليه السلام .

* * *

الانشراح

هي السُّورة الرابعة والتسعون حسب ترتيب المصحف . أكرمها الله باسم الانشراح ليخاطب بها نبيَّه ورسوله إلى الأمة . والانشراحُ يعني الانفتاح والشعور بالرحابة بعد الشعور بالضيق والكرب . والسُّورة موجهةٌ للنبيِّ وخاصّةٌ بحاله ، لا يشترك معه فيها أحدٌ من خلق الله . ولعلها نزلت عليه وهو يعاني كرباً وضيقاً . فيبشره الله بانشراح صدره وتخفيف حمله وتيسير أمره . ومرةً أخرى أتمنى على الناس أن لا يوقعوا آيات من هذه السورة على أحوالهم احتراماً لمكانة سيدنا محمّد في قلوبهم . فله وحده قال الله ﴿ **وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ** ﴾ . وكي يستحقّها إنسانٌ ما يجب أن يكون قد قدّم مثلما قدّم رسول الله أو بمنزلته . فهل لهذا الإنسان من وجود في الوجود . وبعد الوعد بالتيسير تأمره السورة بمزيد من الانشغال بالعبادة والدعوة والدعاء والرغبة إلى الله . فمن استطاع أن يفعل فعله فليزعم لنفسه مثلما آتاه الله .

* * *

التين

هي السُّورة الخامسة والتسعون حسب ترتيب المصحف . عُنونَت بالتين . وهو اسم شجرةٍ كريمةٍ معطاءٍ تعيش في الصخر وتعطي ثماراً كأحلى ما يكون الثَّمر . ولكنها كعنوان للسورة تشير إلى إمكانية فسادٍ بعد السواء . أو فشل وحبوط بعد التمام . ومما ورد في المعاجم العربيَّة عن مادة تين قول الخليل بن أحمد في العين : « تين وتينة ، والرَّمَاعة ، من أسماء الدُّبر ». ثم نعلم أن كلمة الدبر بالإضافة إلى ما تدلُّ عليه من تراجعٍ وسوءٍ ، فإنما سميت تينةً لضعفٍ فيها ورخاوةٍ . ومع أنه لم يناقشها كمادةٍ لغويةٍ لنعلم أصل اشتقاقها وما يتصل بها من مفرداتٍ . ولكن نقرأ في العين تحت كلمة تن : « التِّنُّ الصبي الذي يقطعه المرض فلا يشب» فالتِّن ضرب من التقزم دون النمو . ولم يربط الخليل بين المادتين(التين والتن) .

وفي مقاييس اللغة للرازي يقول : « . . ويقولون أتنه المرض إذا قصعه وهو لا يكاد يشِب .»

وموضوع السُّورة فسادُ فطرة الإنسان وانحدارُه لأسفل سافلين إن لم يتلافَ نفسه بالإيمان وطاعة الله . وألقت معاجم اللغة ضوءاً حول علاقة كلمة التين بحالة التراجع الموصوفة في السُّورة . وذلك بإطلاق التينة على الدبر ثم تقزُّم الصبي الذي كان يتوقع له النمو حتى يساوي الناس في طوله ، مما يتفق مع جو السُّورة ويبرر تسميتها باسم التين .

إنها تتحدث عن خلق الإنسان في أحسن تقويم . ولنا أن نتصوره منتصب القامة بقيمه سويًّا شامخًا . ثم يرتد أسفل سافلين على دبره . وهي أسفل مكان في قامة الإنسان وأسوءه . وقد ورد نفس هذا الوصف بسورة محمد (٢٥) إذ يقول تعالى عن المنافقين الذين تراجعوا عن حالة الإيمان **﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾** (محمد:٢٥) . فوصفهم بأنهم ارتدوا على أدبارهم . تماماً كما تصف سورة التين من ارتد من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين . فلا غرابة أن يكون التين بهذا المعنى موضوعاً للسورة .

والمفردات الأخرى الموجودة في السورة الزَّيتون وطور سنين . وكلاهما لا يصلح اسماً للسورة . ولو سميت الزيتون ، فالزيتونة شجرةٌ صلبةٌ قويةٌ راسخةٌ في الأرض ،وعطاؤها ، زيت الزَّيتون ، يحفظ نفسه ويستعمل في حفظ سواه من العطب ولا مجال لتطوير كلمة زيتون لتشمل موضوع السورة . والطور جبلٌ راسخٌ لا يتغير ولا يتراجع عن صفته قبل يوم القيامة . ومثلهما في الطهر والثَّبات البلدُ الأمين . فلم يبق للتحذير من انتكاس الإنسان إلا التينُ المتراجع عن مكانته كالمرتد على دبره أو الصبي إذ يُتِنُّه المرض فيتقزّم .

بدأت السُّورة بقسمٍ بالتين ثم جمعت السورة معها الزيتون وهي شجرةٌ مباركةٌ أيضا . تلاهما ذكر طور سينين والبلد الأمين مكّة المكرمة . وبعد هذا القسم الرباعي تأتي السورة كإعلانٍ من الله تعالى عن خلقه الإنسان في أحسن تقويم . فارتد أكثر الناس عن الفطرة السليمة ليصيروا أسفل سافلين بانحرافهم عن حالة السواء التي خُلقوا عليها . بينما احتفظ بسواء فطرتهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فاستحقّوا أجراً غير ممنون . وبذا فالسورة تدعو إلى الإيمان والعمل الصالح وتجنب الانحراف . ففي ذلك أجرٌ غير ممنون في الآخرة . وعكسه الردة إلى أسفل سافلين .

ثم تخاطب النبيّ مستغربّة سلوك قومه مستنكرةً تكذيبهم بعد الذي سمعوه . وتُختتم بتساؤل تقريري ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ (التين:٨) بعد هذا الذي ترون من عمله وحكمته!

تبقى نقطةٌ جديرةٌ بالبيان وهي عبارة « طور سينين » فقد ظنها بعض المفسرين طور سيناء الذي كلّم الله عليه موسى . ولكن سينين غير سيناء وقد ورد اسم « سيناء » في القرآن . ولم يُجمع المفسرون على أمر فسجل بعضهم أن كلمة سينين تعني حسن أومبارك أو أنها تعني جبلاً ذا نبات . وبما أنه لا يوجد مبرر ليقسم الله للعرب بأوابد أمةٍ أخرى ورموز دين آخر فقد يكون جبلاً بمكّة أو حولها عرفه المخاطبون . وتسمية الجبل بسينين ليست غريبة ففي المدينة جبل اسمه « سن » فربّما كان في مكّة مثله ففي العادة تتشابه مسميات مواقع المدن العربيَّة على تباعدها .

* * *

العلق

هي السُّورة السادسة والتسعون حسب ترتيب المصحف . وآياتها الخمس الأولى أول ما نزل على رسول الله من القرآن . وأعطاها الله اسم العلق إشارة إلى علاقة الإنسان بالله ربّه . فهو خالقه ومعلمه وملهمه . وخيرٌ للإنسان أن يبقى مرتبطاً بربّه الرحيم به . فإن ظن أنه استغنى فليعلم أن لا بدَّ له من رجوع إلى الله ليُحاسَب على ما قدّم وما أخّر . وشرٌّ ممن يظن أنّه استغنى ذلك الذي يحارب رسول الله وينهاه عن الصَّلاة . فهي سورةٌ تريد للإنسان علاقةً دائمةً وسويةً بمصدره السماوي .

عنوان السُّورة وموضعها :

أعطاها الله تعالى اسم العلق لأنه قرر سبحانه منذ البدء أن يعرض فيها موضوعين ينطبق عليهما معنيان من معاني العلق وكلاهما مما يتعلق بوظيفة رسول الله وعمله مع قومه .

وقبل أن نناقش معاني العلق نتذكر أن كلمة علق وردت في الآية الثَّانية من السُّورة ﴿ **خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ (العلق:٢) . والعلق هنا جمع علقة وهي مرحلة مبكرة من مراحل تكون الجنين البشري .

والعلق كعنوان للسورة نجده في معاجم اللغة . جاء في المقاييس للرازي: « علق : العين واللام والقاف أصلٌ كبيرٌ صحيحٌ يرجع إلى معنًى واحدٍ ، وهو أن يناط الشيء بالشيء العالي ثم يتسع الكلام فيه». وينقل عن الخليل : « العلق أن ينشب الشيء بالشيء قال جرير :

إذا علقت مخالبه بقرن أصاب القلب أو هتك الحجابا .

وعلق فلان بفلان خاصمه»

وكلّ هذه المعاني موجودة في السُّورة لكنها تشكل جسماً واحداً . ففي البداية تتكلّم عن خلق الله للإنسان من علق . فهو يستمد وجوده من إرادة الله ربّ السموات العلى . والله يُعلم الإنسان بالقلم فعِلمه ومعرفته بتوجيه من الله العلي . ومعظم علم

الناس بتوفيق من الله ؛ بدليل أن الله لا يفتح عليهم بمعرفة إلا بعد أن يصلوا مرحلةً من النضج يستطيعون معها التعامل مع تلك المعرفة دون الإضرار بأنفسهم .

ثم تخبرنا السُّورة عن الذي يظن أنه استغنى فيطغى . وأخيراً تأتي قصَّة الذي يحارب رسول الله ويحاول منعه من الصَّلاة فيعلق به مخاصماً .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

أطروحة السُّورة : بخمس آياتٍ عظيمةٍ تبدأ السُّورة الكريمة . وبها بدأ نزول القرآن فكانت أول اتصالٍ بين السماء وبين جزيرة العرب منذ ستة وعشرين قرناً من الزَّمان تقريباً . فلم يرسل الله رسولاً إلى العرب منذ إبراهيم وإسماعيل . ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق: ١-٥)

وتختلف هذه الآيات بصياغتها قليلاً عن المعتاد في الأطروحة التقليدية . فتكرر ذكر الخلق وتعليم الإنسان . ولعل السبب أنها بداية رسالةٍ كاملةٍ للحياة . فلا بد أن يعلم المخاطبون أن الله هو من خلقهم وهو من علمهم ويعلمهم . والإشارة للقلم تناسب مخاطبة أمةٍ أميةٍ بقصد تغييرها لإحيائها بوسائل التمدن الحديثة كي يلحقوا بركب البشرية .

الإنسان المنبت : أول مشكلةٍ تناقشها السُّورة هي مشكلة الإنسان الذي ينفصل عن مصدره السماوي ظانّاً أنه بغنًى عن الله ، وهنا في سورة اسمها العلق بمعنى الاتصال بالأعلى يليق ذكر هذا الموضوع الأساسي فإما اتصالٌ بالله وإيمانٌ وإما انفصالٌ وطغيانٌ : ﴿ **كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ** ﴾ (العلق: ٦-٨)

فليتول هذا الذي يظنُّ أنه استغنى ، فإن له رجعةً إلى الله يوم الحساب ليدفع ثمن توليه عن الله ربّه وخالقه ومعلمه بالقلم وبغير القلم .

العدوّ المبادر بالعداوة : في الآيات السابقة (٦-٨) كان الحديث عن شخصٍ منفصلٍ عن ربّه ، مارس هروباً سلبيًّا ظانًّا أنه استغنى بذاته فاكتفى بنفسه يدور حول ذاته . بينما بقيّة السُّورة عن عدوّ مبادرٍ ، علق مع النبيّ بمخاصمةٍ يريد أن يمنعه من

الصَّلاة . ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ (العلق:٩-١٨) . وهذا أشد انفصالٍ عن الله بل هو مقاومةٌ شديدةٌ للعلاقة الطبيعية بالله عز وجل .

ودعوةٌ للنبيِّ : تختتم السُّورة بدعوة النبيّ لمزيدٍ من التعلق بالله وعدم طاعة المنبتين عن الله المعادين لربّهم : ﴿ **كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب** ﴾ (العلق:١٩) . وكانت الدعوة الأولى قراءة القرآن والتعلق به .

وهكذا رأينا كيف أثبتت كلّ آيةٍ في السُّورة فكرة العلق التي يشير إليها عنوان السُّورة . ومع هذه القراءة لم يعد مهمًّا أن نعلم متى نزلت هذه الآية أو تلك من السُّورة . فهي سورةٌ واحدةٌ بموضوعٍ واحدٍ ، هو دعوة الإنسان للعودة إلى ربّه والارتباط به وعدم الانفصال عنه أو الشعور بالاستغناء عن رحمته . إنها العلق!!!

* * *

سورة القدر

هي السُّورة السابعة والتسعون حسب ترتيب المصحف . عنوانها القدر . والقدر هو مبلغ الشيء وكنهه ونهايته . ويمكن القول هنا إنها تعني الليلة الشريفة العظيمة التي بلغت بعظمتها ما لم تبلغ ليلةٌ أخرى في حياة الأمة المخاطبة . والسُّورة مصاغةٌ كخبرٍ أو تقريرٍ قصيرٍ لرسول الله عن ليلة القدر التي استقبل فيها الوحيَ الأمين جبريلَ أول مرةٍ وهو على جبل النُّور . فكانت سبب ذكرٍ للأمة العربيَّة ورِفعةِ قدرها بين الأمم .

ليلة القدر خيرٌ من ألف شهرٍ ليس فيها ليلة قدر . وهي ليلة سلام تتنزل فيها الملائكة وجبريل إلى الأرض لإنفاذ أوامر الله تعالى لأمة محمدٍ في ذكرى نزول القرآن أول مرةٍ على رسول الله .

* * *

سورة البينة

البينة هي السُّورة الثَّامنة والتسعون حسب ترتيب المصحف . وعنوانها البيِّنة . وقد وردت في الآيتين الأولى والرابعة . ونص الآية الأولى ﴿ **لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ** ﴾ (البينة: ١).

والبيِّنة في اللغة من البين ؛ جاء في مقاييس اللغة للرازي : « الباء والياء والنون أصل واحد ، وهو بعد الشيء وانكشافه ، فالبين الفراق ، . . وبان الشيء أبان إذا اتضح وانكشف ». وبين هذين المعنيين للكلمة (الفراق والانكشاف) تتحرك السُّورة .

فلم يكن كفرةُ بني إسرائيل ومشركو العرب ليتحولوا عن تمسكهم بكفرهم وبضلالهم القديم حتى يرسل الله إليهم رسولاً يكون حجّةً واضحةً لهم . وها قد جاءهم الرسول ومعه الكتب البيّنة الواضحة .

ثم تذكر السُّورة أن بني إسرائيل كانوا أمةً واحدةً ؛ وما تفرقوا إلا بعد أن جاءتهم بينة السماء على رسلٍ الله إليهم . ولم يأمرهم رسلهم إلا بعبادة الله الواحد وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة حسب دين الله المستقيم . وسؤال ضمني من واقعهم : ما بالهم ليسوا على الدين القويم ؟

ثم يتباين كلّ من المجتمعين (العرب وبني إسرائيل) إلى فئتين : من كفر منهما فله جهنم وهم عند الله شر البرية . والفئة الثَّانية مَنْ آمن مِن الفئتين وعمل صالحاً وخشي الله فهم خير البرية ولهم جنة الخلد ورضا الله . وتأتي السُّورة بيِّنةً جديدة من الله بواسطة نبيِّ القرآن وخاتم الأنبياء والمرسلين . وتصف تبايُنَ كلّ من الأمتين زمن نزولها إلى فئتين مؤمنةٍ وكافرةٍ .

ومما يجدر لفت النظر إليه أن الآية الأولى تذكر فئتين هما الذين كفروا من أهل الكتاب أي من بني إسرائيل ، والمشركين من العرب الأحناف . ويلاحظ عدل السُّورة بين الفئتين من أشرك من العرب ومن كفر من بني إسرائيل فكأنّهما متعادلان في البعد عن الله .

وكلا الأمتين : العرب وبنو إسرائيل أُمرت أن تعبد الله وحده . فالعرب جاءهم إبراهيم بالحنيفيَّة والإسرائيليون جاءهم موسى باليهودية ثم عيسى ويحيى لردهم إلى الله فنشأت الصابئة والنصرانية . وقبلهما الله من بني إسرائيل .

وتختتَم السُّورة بقرار أن من آمن من الشعبين هم خيرٌ البرية ومن كفر منهما بالرسالة الموجهة إليه فهم شرُّ البرية . ذلك لأنهم خوطبوا من الله مباشرةً وأوتوا ما يكفي من الأدلة والبينات على صدق الرسل المرسلين إليهما . فتباينت كلّ أمةٍ إلى فريقين : مؤمن في الجنة وكافر في النار .

* * *

الزَّلزلة

هي السُّورة التاسعة والتسعون حسب ترتيب المصحف . عنوانها كموضوعها . والزَّلزلة تعني الاضطراب والاهتزاز وفقد الاستقرار . وهذا ما يحدث يوم القيامة . والسُّورة تصف طرفاً مما يحدث عندما تُزلزل الأرض إيذاناً بيوم القيامة . وبآياتها الثَّمانية تذكر البعث والنشور . وأيُّ اضطرابٍ يصيب الناس وهم يُخرجون ويُنشرون من قبورهم وكلمتهم التي تعبر عن حيرتهم واضطرابهم : «ما لها؟» ما الذي يحدث؟ وتصل الحساب حيث من يعمل مثقال ذرّةٍ من خيرٍ يجده في كتابه يوم الحساب فيطمئن ويرتاح من اضطرابه . ومن يفعل مثقال ذرّةٍ من شرٍّ يجده أمامه فيزداد اضطراباً . فليتعظ الإنسان قبل الموت .

* * *

العاديات

السُّورة المائة حسب ترتيب المصحف . سماها الله العاديات . وهي الشواغل التي تشغل الإنسان عن ربّه وتقطع صلته بالسماء . وهي تحديداً حبّ الخير . وإنه لحب الخير لشديدٌ . والخير هنا بمعنى الرزق والمال .

فهذا هو الخير الذي يشغل الإنسان عن ربّه . ويجعله يقطع صلته بالسماء حتى يصير كنوداً لربّه . لذلك بدأت السُّورة بوصف الخيل في أجمل وأقوى أوضاعها .

عنوان السُّورة وموضوعها :

اسمها العاديات . وقد وردت الكلمة في الآية الأولى ﴿ **وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا** ﴾ (العاديات:١) . وقُصد بها في الآية الخيل التي تعدو غازيةً . والضبح مد الدابة يديها لأبعد مدًى ممكنٍ وهي تعدوّ . وهي كعنوانٍ للسورة ذاتُ معنًى مختلفٍ قادرٍ على جمع آياتها حوله .

جاء في المقاييس للرازي : «عدوّ : العين والدال والحرف المعتل أصل واحد صحيح . . وهو يدل على تجاوز في الشيء وتقدم لما ينبغي أن يقتصر عليه . . . والعادية شغل من أشغال الدهر يعدوّك عن أمرك أي يشغلك» .

وفي لسان العرب لابن منظور : «العدوّاء عادة الشغل ، وعدوّاء الشغل موانعه ؛ يُقال : جئتني وأنا في عدوّاء عنك أي في شغل . قال الليث : العادية شغل من أشغال الدهر يعدوّك عن أمورك . وأنشد ابن الأعرابي :

عاداك عن ريا وأُمّ وهْبِ عادِي العَوادي واختلاف الشِّعْبِ .

وشرح البيت فقال : عادي العوادي أشدها أي أشد الأشغال» .

وفي القاموس المحيط يسجل الفيروزآبادي : «وعداه عن الأمر عدواً وعدوّاً : صرفه وشغله» .

وعلى هذا المعنى تدور السُّورة . أي ما يشغل الإنسان عن ربّه . وقد حددته السُّورة بحب المال .

تحليل السُّورة على ضوء عنوانها :

الأطروحة : ﴿ **وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا** ﴾ (العاديات:١-٥)

ربّما لو وضعت أمامنا هذه الآيات وحدها لاحترنا بها ماذا تقصد! لكن بعد فهم السُّورة اعتماداً على عنوانها وبقية آياتها صار لهذه الآيات معنًى مؤثراً في توجيه السُّورة . فكأنه تعالى يقول هذا أجمل رزقكم وأسمى ما تطمحون إليه فهي مالٌ وهي عزٌّ وغلبةٌ على الأعداء . ولكن هناك ما هو أهم وأفضل .

مشكلة الإنسان : أسوأ حالٍ يقع به الإنسان هو أن يكون كنوداً لربّه . والكنود هو المنبت المنقطع عن ربّه . ولعله يلزم معرفة المعنى الدقيق لكنودٍ لأن معظم المفسرين فسروها بمعنى « كفور » . وهو كفورٌ لكن بوصفٍ محددٍ هو القطع . بمعنى الانقطاع عن الله . جاء في المقاييس للرازي : «كند أصل صحيح يدل على القطع . . وسمي كندة فيما زعموا لأنه كند أباه أي فارقه ولحق بأخواله». وهذه الآيةُ دليلٌ قويٌّ على أن السُّورة موجهةٌ لقريشٍ وللمشركين فمؤمنو المدينة لا يكندون ربّهم . بينما المشرك يفعلها ويعترف بها كما تقول الآية السابعة . وتأتي الآية الثَّامنة لتوضح السبب وهو حبّ الخير وجمع المال والمتاع . تماماً كما رأينا في وصف الخيل كزينةٍ لحياة الذين ينقطعون عن ربّهم ويجعلون حبّ الشهوات غايتهم ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾

موعظة الختام : توجه السُّورة سؤالاً للمنقطع عن ربّه المنشغل عنه بحب الخير أموالاً وخيلاً ومتاعاً . تسأله عما سيقول يوم الحساب وقد حُصِّل ما في صدره وما يُختزَن به من فعلٍ وقولٍ وظنٍ في هذه الحياة : ﴿ **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ**﴾ (العاديات:٩-١١) .

فإن لم يتحرر من عاديات العوادي ويعاود الاتصال بربّه فليس له إلا العذاب المهين .

* * *

القارعة

السُّورة الأولى بعد المائة حسب ترتيب المصحف . سميت القارعة لتكون بمعنى يوم القيامة . والقارعة في اللغة المصيبة الشديدة ومن أجواء الكلمة : ضرب شيءٍ على شيءٍ لإحداث صوتٍ يخيف السامع ، أو هز العصا تحذيراً لمن تُقرع له ، أو شد لجام الدابة لزجرها . ومن الشواهد الشعرية على هذه المعاني :

قال المتلمس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا   وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليعلما

وقال سحيم بن وثيل :

إذا البغل لم يُقرع له بلجامه   عدا طوره في كلّ ما يتعود

فموضوع السُّورة كقرع اللجام وهز العصا تحذيراً من سوء المصير وحضاً على طاعة الله واتّباع النبيّ .

واستعيرت ليوم القيامة لعلها تعكس بعض أهوالها . واقتصرت الآيةُ الأولى على كلمة القارعة لتؤثر في النفس وتلقي فيها جوًّا من الرهبة ؛ ثم تلتها آيتان لإيقاظ من لم يستيقظ بعد . تلاها ذكر مشهدين صاعقين من مشاهد القارعة لمن يستطيع تخيلهما فالناس فراشٌ مبثوثٌ والجبال عهنٌ منفوشٌ! ثم تصل السُّورة غرضها : فمن ثقل ميزانه بالحسنات والصالحات فهو في عيشةٍ راضيةٍ بعد يوم الحساب . ومن خفّت كفّةُ حسناتِه لقلتها فهو في نارٍ حاميةٍ . أليس في هذا قارعةٌ تمنع الحليم من أن يعدو طوره وتعيده إلى ربّه؟

*   *   *

التكاثر

السُّورة الثَّانية بعد المائة حسب ترتيب المصحف . أعطيت عنواناً مباشـراً مقارنـةً بموضوعها . ووردت كلمة التكاثر في الآية الأولى . وبأسـلوبٍ تحـذيريٍ تنهـى عـن التكاثر من شهوات الحياة الدنيا بما يشغل عن عبادة الله واتّباع أوامره . وتنتهـي بـأن وسائل النعيم التي يُؤتاها الإنسان إنما هي محسوبةٌ عليه وسيُسأل عنها يوم القيامـة : كيف حصل عليها وماذا فعل بها؟

* * *

العصر

هي السُّورة الثَّالثَة بعد المائة حسب ترتيب المصحف . آيتها الأولى ﴿ وَٱلْعَصْرِ﴾ (العصر:١) . يقسم الله بالعصر . إذًا فهو زمنٌ معروفٌ محددٌ يكون الناس فيه بخسران إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصَّبر . فهو العصر القائم بالنسبة للمخاطبين أي عصر إرسال رسول الله محمد . نعم ، عصر محمد يستحقّ أن يتشرف بالقسم الإلهي ؛ لأنه زمن الخطاب الأخير من السماء إلى الأرض . ولكنه كعنوانٍ للسورة يأتي بمعنى مختلف .

فكلمة عصر تعني ضغط الثِّمار لاستخلاص أفضل ما فيها . يقول ابن فارس الرازي فى المقاييس : «العين والصاد والراء أصول ثلاثة صحيحة : فالأول دهر وحين ، والثَّانى ضغط شيء حتى يتحلب». والثَّانى هو ما يهمنا فهو كعصر العنب . وعن عصر العنب يقول الجوهري فى صحاح اللغة : «والعُصارَةُ : ما سال عن العَصْر ، وما بقي من الثُّفْل أيضاً بعد العَصْر .»

فالعصر هو استخلاص الجزء الأفضل من المعصور . ويبقى بعده الثُّفل . وفى السُّورة التى تقسم بعهد النبىّ يُستخلص خيرة القوم من الأمة المخاطبة ليؤمنوا ويتواصوا بالحقّ ويتواصوا بالصَّبر . ويبقى الثُّفل الذي لاخير فيه . فهم فى خسر . فهى العصر بمعنى استخلاص خيرة الناس بواسطة النبىّ والقرآن . وقد انتبه البقاعى لهذا المعنى وسجله في تفسيره «نظم الدرر» . فكتب في تفسير السُّورة : «والعصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء» . وفي تفسير قوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يقول : «استثناهم سبحانه وتعالى لأنهم قليل جدًّا بالنسبة إلى أهل الخسر فقال دالاًّ بالاستثناء على أن النفوس داعية إلى الشر مخلِدةٌ إلى البطالة واللهو ، فالمخلِص واحد من ألف كما في الحديث الصحيح» .

ويقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ : «والصَّبر هو خلاصة الإنسان وسره وصفاوته وزبدته وعصارته ، الذي لا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان لنفسه

وقسرها على أفعال الطاعة وقهرها على لزوم السنة والجماعة حتى يصير الصَّبر لها بالتدريب عادة وصناعة ،»

وربّمـا لم يضـع البقـاعي كلماتـه بالطريقـة الـتي وصـلنا إليهـا ، لكـن عمليـة الاستخلاص بالعصر كانت واضحة للبقاعي فعبر عنها بما اقتبسنا عنه .

* * *

الهمزة

السُّورة الرابعة بعد المائة حسب ترتيب المصحف .سماها الله الهُمَزَة . والهمزة اللمزة في الآية الأولى من السُّورة تعني كثير الغمز واللمز بالناس على سبيل الغِيبة . وقبل أن نختار معناها كعنوانٍ للسورة نعود للمعاجم . جاء في تاج العروس : « هَمَزَه يَهْمِزُه هَمْزاً : غَمَزَه وقد هَمَزْتُ الشيءَ في كفِّي قال رُؤْبة :

« ومن هَمَزْنا رَأْسَه تهَشَّما » الهَمْز : الضَّغْط . والهمز : النَّخْس وهو شِبهُ الغَمْز »

والسُّورة كلّها نخسٌ وضرب للفئة المقصودة بالسُّورة وهم الهُمَزة اللُّمَزة . فهي تصف بعض سلوكهم السيئ وتبشرهم بنار الله الموقدة . تبدأ بوعدهم بالويل والعذاب . وتؤشر عليهم كفئةٍ حَسِبَت مالها يصنع لها خلوداً ويبيح لها أعراض الناس بالغيبة والتهكم . ثم تُوجّه الحديث لهم تقريعاً . وليس في السُّورة سوى التقريع والتهديد بجهنّم . وخلت حتى من الخيار الآخر وهو الجنّة أو الغفران لمن يتوب . فتصف السُّورة عذاب الهمزة اللمزة بخمس آياتٍ من السُّورة ذات التسع آيات . أخذت عنوانها من الهُمَزَة وهو الذي يغتاب الآخرين ويتهكم عليهم لتكون كلّ آيةٍ في السُّورة همزاً أي نخساً يوجه لعقله وصدره .

* * *

الفيل

السُّورة الخامسة بعد المائة حسب ترتيب المصحف . عنوانها الفيل لأنها تُذَكِّر أهل مكّة بغزوة الفيل . وكان بين الأحياء في مكّة يوم نزولها من يتذكر يوم غزا أبرهة الأشرم مكّة مصطحباً فيلاً لهدم الكعبة . فحفظها الله ومنع الفيل من الاقتراب من الكعبة . وأرسل على المعتدين طيراً أبابيل . تبدأ السُّورة بمخاطبة النبيّ ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ** ﴾ (الفيل: ١) . والنبيّ لم يشهد تلك الحادثة . لأنه ولد عام الفيل . ولكنه سمع بها لأن الناس كانوا يتبادلون الحديث عنها . فأربعون عاماً ليست بالزَّمن البعيد . وكلّ من تجاوز الأربعين ببضع سنين يتذكر تلك الحادثة ؛ ومن كان دون الأربعين سمع بها . وفي هذه الحادثة تذكيرٌ لأهل مكّة بقدرة الله وتدخله لحمايتهم وحماية الكعبة عندما لزم ! فهي دعوةٌ ضمنيةٌ لهم للإيمان برسولهم وبما يدعوهم إليه .

وكلمة فيلٍ بالعربيَّة كما يقول الرازي في المقاييس : « أصل يدل على استرخاء وضعف . ويقال : رجل فيل الرأي . »

والسُّورة لم تخرج عن هذا المعنى . فكيد أصحاب الفيل كان في تضليلٍ أمام قوة الله . فجعلهم الله كعصفٍ مأكول . وخيّب كيدهم وحفظ بيته الحرام . فموضوعها ضعف أعداء الله وعجزهم أمام قدرة الله مهما بدت قوتهم عظيمةً خصوصاً إن اقتربوا من حدود الله .

* * *

قريش

السُّورة السادسة بعد المائة حسب ترتيب المصحف . عنوانها قريشٌ . وهي موجهةٌ إلى قريشٍ قبيلة النبيّ . ولكن الحديث ليس مباشراً لقريشٍ بل للنبيِّ ليبلغه قومه . والقرش الذي اشتقت منه كلمة قريشٍ يعني الكسب والجمع . وعنونت به السُّورة لتُذَكِّر قريشاً بنعم الله عليهم بتيسير وسائل كسبهم للرزق . فبعد أن ذكَّرتهم سورة الفيل بحالة الأمن التي يعيشونها ، تُذكرهم قريشٌ بالرخاء الاقتصادي الذي يعيشون . وتمنُّ عليهم السُّورة بحالة إيلافهم رحلتي التجارة صيفاً وشتاءً . والإيلاف حالةٌ نفسيةٌ ؛ يُسهِّل الله بها على نفوسهم تقبل تلك الرحلة الطويلة ، بما فيها من ربحٍ ورزق تهون معه صعوبة السفر ومشقته تلك الأيام . والتَّوصية الأخيرة لقريشٍ ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش:٣،٤) .

* * *

الماعون

السُّورة السابعة بعد المائة حسب ترتيب المصحف . وكلمة الماعون التي تنتهي بها السُّورة لها معانٍ كثيرةٍ متقاربةٍ ككلّ ما يُسَهِّل العمل في البيت ، ومن معانيها الزَّكاة وهي من العونِ . ومعناها الزَّكاة هو الأقرب لجوّ السُّورة . فمنع الفأس والقدر والقصعة ليس قضيةً كبيرةً تقرر دين الإنسان وتبطل صلاته . ولكن منع الزَّكاة كركنٍ أصيلٍ يمكن أن يعادل ترك الصَّلاة ويستحقّ بها فاعلها الشكّ في إيمانه حتى لو صلّى وصام وزعم أنه مؤمن .

السُّورة تقدم الدين من وجهة نظر التفاعل بين الناس ، فالإيمان يجب أن يظهر كسلوك . وليس بمؤمنٍ من يدُعُّ اليتيم ولا يحُضُّ على طعام المسكين ولا يكون عوناً لمن يحتاجه في مجتمعه . حتى لو صلى سيظهر نفاقه في عدم حرصه على الصَّلاة في أوقاتها . وفي مراءاته بمظاهر الدين وأخيراً بالبخل على الأمة بمنع الزَّكاة والصَّدقة .

* * *

الكوثر

الكوثر هي السُّورة الثَّامنة بعد المائة حسب ترتيب المصحف . وهي أصغر سورة في القرآن . والكوثر هو الخير الكثير أو العطاء الكثير . والسُّورة رسالةٌ ودِّيةٌ مقتضبةٌ من الله لرسوله . يُذكِّره فيها بعطائه الكثير الممتد له وحده . ويأمره فيها بالصَّبر على الصَّلاة والاجتهاد بها . فالنحر هو التعمق في العمل والوصول به إلى منتهاه إتقاناً . ثم تطمئنه الرسالة أن شانئه مبتور الوجود محرومٌ من الامتداد في الأرض . فالكوثر الممتد له والبتر لشانئه!! وهي خاصةٌ بالنبيّ ولا تنطبق آياتها على سواه .

* * *

الكافرون

في السُّورة التاسعة بعد المائة يؤمر النبيّ أن يخاطب الكافرين مقاطعاً مفاصلاً بلا رجعةٍ ما داموا على كفرهم . وتأتي أهمية السُّورة من ظروف نزولها . فالكافرون هم أهل مكّة الذين كان أجدادهم على الحنيفيَّة دين إبراهيم وإسماعيل . ثم حرّفوا الدين وعبثوا بأحكامه منذ أجيالٍ حتى اعتُبِروا كافرين . وكانوا يظنون أنهم على الحقّ . وأن دينهم يعادل دين محمد . فتأتي هذه المقاطعة ليعلموا أنهم ليسوا على شيء حتى يتوبوا عن كفرهم ويدخلوا في دين محمد . فدينهم بوضعه الذي هم عليه ليس كدين النبيّ . وبالتالي ليس مقبولاً عند الله الذي أرسل لهم رسوله ليتبعوه . ومن حيث علاقة موضوعها بعنوانها فمن معاني الكافر الليل والبحر وثنايا الجبال التي تفصل بينها . فهي تدور حول حواجز أو فواصل تفصل الكافرين عن الدين الحقّ . وتقف بين الكافرين وبين النبيّ من ناحية الدين . ولتأكيد هذه الحقيقة وزيادةَ الحواجز بين الفئتين تتكرر كلّ آيةٍ مرتين بفارقٍ ضئيلٍ في صيغ المفردات . فيتضافر العنوان والموضوع والصياغة على القطيعة بين الإيمان وبين الكفر .

* * *

النصر

النصر وهي السُّورة العاشرة بعد المائة حسب ترتيب المصحف . تسجل نمطاً في خصائص الشعوب خصوصاً العرب ، تجاه الدولة . فعندما ينتصر داعية التغيير ينضم إليه غالبية الناس . فالغالبية غير مستعدةٍ عادةً للتضحية وتحمُّل تكاليف الإيمان الثَّقيلة . فتنتظر انتصار المؤمنين لتنضمّ إليهم وتدخل الدين أفواجاً . ويبدي الناس سعادتهم بانتصار قيم العدل والمساواة وكرامة الإنسان . ولا يكون الأمر كذلك لو كان المنتصر غير مؤمن . وربّما اكتفوا تجاهه بالصمت خشية بطشه . والمكافأة التي يستحقّها النبيّ على انتصار جهاده وصبره هي أن يُسَبِّح ربّه ويستغفره لتزداد مكانته ارتفاعاً عند الله . النصر عنوانها وقد ورد في الآية الأولى ﴿ **إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ** ﴾ (النصر: ١) .

ومـن حيث علاقُة موضوعها بعنوانها فمن معاني النصـر إتيـان بلـد أو الانضـمام إليه ، يقول الراعي النميري :

إذا دخل الشـهر الحـرام فـودعي ديار تمـيم وانصـري أرض عـامر .

والسُّورة تتحـدث عـن نصـر يليـه انتقـال النـاس إلى جانـب الـنبيّ كقائـد الجهـة المنتصرة . فهي سورة النصر بهذا المعنى .

* * *

اللهب

السُّورة الحادية عشرة بعد المائة حسب ترتيب المصحف . عنوانها اللهب وهو لسان النار المرتفع ؛ وليس المسد كما ظن بعض علماء القرآن . سميت باللهب وهو ارتفاع لسان النار كما يصفه الرازي في مقاييس اللغة ؛ وهو مادة العذاب الذي ينتظر أبا لهب وامرأته . وإن كان أضيف للمرأة حبلٌ من مسد يلتف حول جيدها . ولكن كلمة المسد في ذاتها لا تصلح عنواناً للسورة . فالمسد كما يقول الرازي في المقاييس « جدل شيء وطيه » . والمسد قد يجدل من ألياف جريد النخل وقد يكون من وبر الجمال الناعم كما جاء في مقاييس اللغة . حتى لو ظهر في حبل المسد قسوة فكلمة مسدٍ في ذاتها لا علاقة لها بالقسوة بل هي من الجدل . فهي لا تقدم شيئاً للسورة لو قادتها . بل ستبدو مضحكةً . فأين المسد في حياة زوجين تبشرهما السُّورة بعذابٍ من لهبٍ وهوانٍ . والهوان من الحبل وليس من المسد في حدّ ذاته .

ومن معاني اللهب ارتفاع الضوء واللمعانُ الشديد وقد تحقّق هذا لأبي لهبٍ فلا يكاد يوجد عربي منذ نزول السُّورة حتى الآن لا يسمع بأبي لهب ويذكره للعبرة . فهل تقوم كلمة مسد الخاملة بمثل هذا الدور .

والسُّورة من جهة موضوعها تذكر عم النبيِّ الذي كان يكنّى أبا لهب . وتقرر أنه لن يؤمن حتى لو حاول . فهو وزوجه حمالةَ الحطب سيصيران إلى جهنم بسبب إيذائهما لرسول الله . وفعلا لم يتوبا ولم يدخلا دين الله . وفي السُّورة تطييب لخاطر النبيّ لتحمله أذى عمِّه أبي لهب وامرأته .

* * *

الإخلاص

السُّورة الثَّانية عشرة بعد المائة. ومثل سورة الأنبياء لم يرد اسمها في أي آية منها. ومادة «خلص» التي تبنى منها كلمة الإخلاص تعني تنقية الشيء. فجاءت سورة الإخلاص لتنقي العقيدة من أي شائبةٍ يمكن أن تشوب عقيدة التَّوحيد. فهي تعريفٌ بذات الله عز وجل. فهو الأحد الصمد لم يلد ولم يولد وليس له كفؤٌ أو نظيرٌ في الكون كلّه ولا في أيِّ وجودٍ. هذه هي العقيدة الخالصة بالله التي أُمِر النبيّ بنشرها في الناس. ولا يقبل من بشرٍ عقيدةٌ غيرُها. فأدنى درجات الشرك تحيل الإنسان مشركاً.

* * *

الفلق

السُّورة قبل الأخيرة من القرآن الكريم . واسمها الفلق ورد في الآية الأولى ﴿ **قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ** ﴾ (الفلق: ١)

ولا خلاف أن ربّ الفلق هو الله تعالى مهما كان الفلق . واختلف المفسرون بالفلق . ولكن قراءة السُّورة تظهر أن الفلق هو الكون كلّه . فقد انفلق عن عماءٍ كان قبله . وما أشبه كلمة فلق بما يعرف هذه الأيام باسم الانفجار الكبير الذي نشأ عنه الكون . والسُّورة لتعليم النبيّ اللجوءَ إلى الله ودعاءه عندما يتعرض إلى ما لا قبل له به كالحسد والسحر . فهي قوًى ظلاميةٌ لا يستطيع أحدٌ مواجهتها لأنها تتمُّ سرًّا . فالجواب لها يكون بدعاء الله ربّ الكون كلّه ؛ العالم بكلّ ما فيه والقادر على كلّ قوى الشرِّ وما ينتج عنها . والفلق في اللغة : « يدل على فُرْجَةٍ وبينونة في الشيء » كما يقول الرازي في المقاييس . فهو كالصبح ينفلق عنه الظلام . وعلاقة العنوان بموضوع السُّورة أن الدعاء بها إذا استجيب له يمزق ما تصنعه قوى الشرِّ فتنحلُّ عقد النفَّاثات في العقد وينكسر سهم السحر كما ينفلق الغسق عن نورٍ وراحةِ بالٍ .

* * *

الناس

السُّورة الخاتمة لكتاب الله وهي كسابقتها تعلم رسول الله الدعاء لصرف وسوسة الجنِّ والإنس عنه . وسمِّيت الناس . والناس من النوس وهو بمعنى الاضطراب والتذبذب. فشياطين الجنِّ والإنس تستطيع بوسوستها أن تهز من يتعرض لوسوستها. وهذه هي العلاقة بين الاسم والموضوع . والسُّورة تنزلت لصرف هذا الاضطراب عنه . فكأن شياطين الإنس والجنِّ لا تقدر على أكثر من هز الإنسان فتأتي هذه السُّورة لتعيد له استقراره واطمئنانه . وذلك بالتَّوجه إلى الله بالدعاء بكلمات هذه السُّورة .

* * *

المراجع

١- **إبراهيم** ، سعيد مرقص ؛ تفسير كلمات الكتاب المقدس ؛ ط ٨ ، مكتب النسر للطباعة ، القاهرة ٢٠٠٧م

٢- ابن خلدون ؛ عبد الرحمن (ت١٤٠٦) مقدمة ابن خلدون نسخة إليكترونية

٣- **ابن كثير** ، إسماعيل ، (ت٧٧٤ هـ) دمشق ـ سوريا : تفسير القرآن العظيم ؛ دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ـ لبنان ،١٩٦٩م

٤- **ابن منظور** ، محمد بن مكرم ؛ (ت ٧١١هجرية في القاهرة) : لسان العرب ؛لم يعلن الناشر عن نفسه . ولكني لم أجد أدنى فرق بين ما يرد فيه وما يقابله في النسخ الإليكترونية

٥- **آرثر إيدنجتون ؛** (١٨٨٢-١٩٤٤) رياضي وفيزيائي وعالم فلك بريطاني وصاحب نظرية تمدد الكون

٦- **ابن عاشور** ، محمد الطاهر ؛ (تونس : ١٨٧٩-١٩٧٣م) ؛ تفسير التحرير والتنوير ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية ، ورابطها : www .altafsir .com

٧- **البخاري** ، محمد بن إسماعيل (١٩٤-٢٥٦ هـ) بخارى ؛ صحيح البخاري ؛ مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ

٨- **البقاعي** ، إبراهيم بن عمر المعروف ببرهان الدين ، (٨٠٩-٨٨٥ هـ) بلاد الشام ؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية ، ورابطها : www .altafsir .com

٩- **البيضاوي** ، عبد الله بن عمر ، (ت١٢٩٢م)؛ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية . ورابطها www .altafsir .com

١٠- **التَّوراة** ؛ سفرالخروج ، سفر الأحبار .

١١- **توينبي** ، أرنولد ؛ ـ١٩٧٥م ؛ مختصر دراسة للتاريخ ؛ (١٩٤٨م) ترجمة فؤاد محمد شبل ؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ الطبعة الثَّانية : ١٩٦٦م؛ ص١٠٦

١٢- **الجواهري** ، إسماعيل بن حماد ؛ من فاراب (ت : ٣٩٣ هجرية) ؛ تاج اللغة وصحاح العربيَّة ، نسخة إليكترونية .

١٣- **جولد سميث** ، تيموثي : الأصول البيولوجية للسلوك البشري ؛ ترجمة ناظم محروس وآخرين ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛ مصر ؛ ٢٠٠٩ **م**

١٤- **الخطيب الإسكافي** ، محمد بن عبد الله ؛ أصفهان ، (ت ٤٢٠هجرية ـ ١٠٢٩م) : مختصر كتاب العين **للخليل بن أحمد الفراهيدي** ؛ وزارة التراث القومي والثَّقافة ، مسقط ـ سلطنة عُمان ، ١٤١٩ هجرية : ١٩٩٨م

١٥- **دراز** ، محمد عبد الله ؛ (١٨٩٦-١٩٥٨م) مصر ؛ «النبأ العظيم»؛ دار الثَّقافة ، الدوحة ـ قطر ، ١٤٠٥هجرية : ١٩٨٥م

١٦- **الدوسري** ، منيرة محمد ناصر ؛ أسماء السور القرآنية ؛ دار ابن الجوزي ، ١٤٢٦ هجرية ، ٢٠٠٥م

١٧- **الرازي** ، أحمد بن فارس بن زكريا ، همذان ،(ت٣٩٥هجرية) ؛ معجم مقاييس اللغة ط ٢ ؛ تحقيق : إبراهيم شمس الدين ؛ دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ٢٠٠٨م

١٨- **الرازي** ، محمد بن أبي بكر ؛ (الري ت٦٦٦ هجرية) مختار الصحاح ، مكتبة لبنان ١٩٨٧م

١٩- **الراغب الأصبهاني** ، محمد بن الحسين بن المفضل (ت ١١٠٨م) ؛ المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ط ٤ ، دار القلم- الدار الشامية ؛ ٢٠٠٩م

٢٠- **رضا** ، محمد رشيد ، (١٨٦٥-١٩٣٥م) ، طرابلس ـ لبنان ؛ تفسير المنار ط٣، دار المنار بمصر ١٣٦٧هجرية .

٢١- **الزَّبيدي** ، محمد مرتضى ؛ تاج العورس من جواهر القاموس ، نسخة إليكترونية على جوجل .

٢٢- **الزَّركشي** ، (محمد بن بن بهادر بن عبد الله الزَّركشي المصري فقيه ومحدث ، القاهرة ٧٤٥هـ ـ ٧٩٤هـ) : البرهان في علوم القرآن : نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية (www .altafsir .com)

٢٣- **الزَّمخشري** ، محمود بن عمر الخوارزمي ، (٤٧٦-٥٣٨هـ)؛ تفسير الكشاف ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامـية ، ورابطها : www .altafsir .com

٢٤- **السيوطي** (عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد الأسيوطي المشهور باسم **جلال الدين السيوطي** ، (القاهرة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥م ـ القاهرة ٩١١ هـ / ١٥٠٥م) : الإتقان في علوم القرآن ، ط ٣ ، ١٩٥١ ؛ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .

٢٥- **الشابي** ، فيليكس ، القس الكلداني ، على صفحة كلديا نت ورابطها : www .kaldaya .ne

٢٦- الشعراوي ، محمد متولي ؛ مصر ، (١٣٢٩-١٤١٩ هجرية الموافق ١٩١١-١٩٩٨م) ؛ خواطر الشعراوي ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية رابطها :www .altafsir .com

٢٧- **الطباطبائي** ، محمد حسين ؛ تبريز ـ إيران ، (١٩٠٤- ١٩٨٢م) ، الميزان في تفسير القرآن ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية رابطها :www .altafsir .com

٢٨- **الطبري** ، محمد بن جرير (ت٣١٠هجرية) ؛ جامع البيان في تفسير القر آن ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية . ورابطها: www .altafsir .com

٢٩- **الغزالي** ، محمد (سبتمبر ١٩١٧م ـ مارس١٩٩٦م) مصر ؛ «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ؛ دار الشروق المصرية ، ١٩٦٦م القاهرة

٣٠- **الفراهيدي ، الخليل بن أحمد** ؛ (ولد في عُمان ١٠٠-١٧٥ هجرية) ؛ مختصر كتاب العين بواسطة الخطيب الإسكافي ، وزارة التراث القومي والثَّقافة ، مسقط ـ سلطنة عُمان ، ١٤١٩ هجرية

٣١- **الفيروزآبادي** ، محمد بن يعقوب ؛ (ولد في فارس٧٢٩هـ - وتوفي٨١٧ هجرية في زبيد ـ اليمن) ؛ «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ،

تحقيق محمد علي النجار ؛ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٣ هجرية الموافق ١٩٦٣م

٣٢- **الفيروزآبادي** ، محمد بن يعقوب ؛ (ولد في فارس٧٢٩هـ ـ وتوفي ٨١٧ هجرية في زبيد ـ اليمن) ؛ القاموس المحيط ؛ ط ٤ ؛ مطبعة دار المأمون ، القاهرة ١٣٥٧ هجرية : ١٩٣٨م

٣٣- **قطب** ، سيد ؛ (١٩٠٦-١٩٦٦) ؛ في ظلال القرآن ؛ط ٧ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٧١م

٣٤- **القمي** ، علي بن إبراهيم بن هاشم ؛ فارس ، (ت :٣٢٩ هجرية) ؛ تفسير القمي ؛ نسخة إليكترونية على صفحة مؤسسة آل البيت للحضارة الإسلامية . ورابطها : www .altafsir .com

٣٥- **الكنيسة** الأرثوذوكسية الأردنية : الصفحة الألكترونية الرسمية : «القديسون الفتية السبعة النائمون»

٣٦- **كونج** ، هانز ؛ الإسلام : الماضي والحاضر والمستقبل ، الترجمة الإنجليزية جون باودن ؛ النسخة الإنجليزية

٣٧- **المحلي** ، محمد بن أحمد المعروف بجلال الدين ؛ وعبد الرحمن **السيوطي** ؛ عاشا في القرن التاسع الهجري في مصر ؛ تفسير الجلالين

٣٨- **المعجم الوسيط** ؛ مجمع اللغة العربيَّة ، القاهرة ، نسخة إليكترونية على جوجل .

٣٩- النسفي ، عبد الله بن أحمد بن محمود ؛ أوزباكستان ، (ت :٧٠١ هجرية) ؛ مدارك التنزيل وحقائق التأويل ؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتَّوزيع ، الطبعة الأولى .

٤٠- **النيسابوري** ، علي بن أحمد الواحدي ؛ ت ٤٦٨هـ ، أسباب النزول ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٠م ، ص ٧٥-٧٦)

٤١- **الولي** ، دكتور محمد ؛ مدخل إلى الحجاج : أفلاطون وآرسطو وشايم بيرلمان ؛ مجلة عالم الفكر الكويتية ؛ العدد ٢، المجلد٤٠ ؛ اكتوبر ـ ديسمبر ٢٠١١م.

فهرس الكتاب

الباب الثَّالثً

(٣٧١-٧٧٥)